

قَالَ تَعَالَى:

الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا
 آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ٣٧
 وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا
 بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا ٣٨
 وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنْفَقُوا مِمَّا
 رَزَقَهُمُ اللَّهُ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ٣٩ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ
 ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يَضْعَفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا
 ٤٠ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ
 شَهِيدًا ٤١ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ
 تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا ٤٢

معناها	الكلمة
مُذَلًّا مُخْزِيًّا.	﴿مُهِينًا﴾
مراءاة للناس.	﴿رِئَاءَ النَّاسِ﴾
صاحبًا وخليلاً.	﴿قَرِينًا﴾
لا يبخس = لا ينقص.	﴿لَا يَظْلِمُ﴾
وزن.	﴿مِثْقَالَ﴾
الذرة هنا هي: النملة الصغيرة الحمراء، وقيل: الذرة اليسيرة من التراب، وقيل: الواحدة من الهباء الظاهر في ضوء الشمس إذا طلعت من ثقب.	﴿ذَرَّةٍ﴾

معناها	الكلمة
من عنده.	﴿مِنْ لَدُنْهُ﴾
يتمنى.	﴿يَوَدُّ﴾
لو صاروا ترابًا فصاروا هم والأرض سواء.	﴿لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ﴾

س: ما معنى البخل، ومن المعنيون بقوله تعالى: ﴿وبأي شيء بخلوا؟﴾

ج: أما البخل فهو منع الواجب بذله من المعروف.

وقال الطبري رحمه الله:

والبخل في كلام العرب منع الرجل سائله ما لديه وعنده من فضل عنه.

قُلْتُ: أما المعنيون بقوله تعالى: ﴿فيري كثير من أهل العلم أنهم اليهود، ومن العلماء من يرى أنهم البخلاء عموماً.

أما الشيء الذي بخلوا به، فمن العلماء من قال: إنه العلم بصفة محمد ﷺ، فقد كان اليهود يعلمون صفة النبي ﷺ تماماً، كما قال الله سبحانه: ﴿البقرة: ١٤٦﴾.

وكما قال تعالى: ﴿الأعراف: ١٥٧﴾.

أما الطبري رحمه الله فقد قال:

وأولى الأقوال بالصواب في ذلك ما قاله الذين قالوا: إن الله وصف هؤلاء القوم الذين وصف صفتهم في هذه الآية بالبخل، بتعريف من جهل أمر محمد صلى الله عليه وسلم أنه حق، وأن محمداً لله نبي مبعوث، وغير ذلك من الحق الذي كان الله تعالى ذكره قد بينه فيما أوحى إلى أنبيائه من كتبه، فبخل بتبيينه للناس هؤلاء، وأمروا من كانت حاله حالهم في معرفتهم به أن يكتموا من جهل ذلك، ولا يبينوه للناس.

وإنما قلنا: هذا القول أولى بتأويل الآية، لأن الله جل ثناؤه وصفهم بأنهم يأمرون الناس بالبخل، ولم يبلغنا عن أمة من الأمم أنها كانت تأمر الناس بالبخل ديانة ولا تخلقا، بل ترى ذلك قبيحاً ويذم فاعله ولا يمتدح، وإن هي تخلقت بالبخل واستعملته في أنفسها فالسقاء والجود تعده من مكارم الأفعال وتحث عليه.

ولذلك قلنا: إن بخلهم الذي وصفهم الله به إنما كان بخلاً بالعلم الذي كان الله آتاهم، فبخلوا بتبيينه للناس، وكتموا دون البخل بالأموال. إلا أن يكون معنى ذلك الذين يبخلون بأموالهم التي ينفقونها في حقوق الله وسبله ويأمرون الناس من أهل الإسلام بترك النفقة في ذلك، فيكون بخلهم بأموالهم وأمرهم الناس بالبخل. فهذا المعنى على ما ذكرنا من الرواية عن ابن عباس، فيكون لذلك وجه مفهوم في وصفهم بالبخل وأمرهم به.

* أما الحافظ ابن كثير رحمه الله:

يقول تعالى ذامًا الذين ييخلون بأموالهم أن ينفقوها فيما أمرهم الله به من بر الوالدين والإحسان إلى الأقارب، واليتامى، والمساكين، والجار ذي القربى، والجار الجنب، والصاحب بالجنب، وابن السبيل، وما ملكت أيمانكم من الأرقاء، ولا يدفعون حق الله فيها، ويأمرون الناس بالبخل أيضًا، وقد قال رسول الله ﷺ: «وأي داء أدوأ من البخل». وقال: «إياكم والشح، فإنه أهلك من كان قبلكم أمرهم بالقطيعة فقطعوا، وأمرهم بالفجور ففجروا».

* ثم قال الحافظ ابن كثير رحمه الله:

وقد حمل بعض السلف هذه الآية على بخل اليهود بإظهار العلم الذي عندهم من صفة محمد ﷺ وكتماهم ذلك، ولهذا قال تعالى: وأعتدنا للكافرين عذابا مهينا، رواه ابن إسحاق عن محمد بن أبي محمد، عن عكرمة أو سعيد بن جبير، عن ابن عباس، وقاله مجاهد وغير واحد، ولا شك أن الآية محتملة لذلك، والظاهر أن السياق في البخل بالمال، وإن كان البخل بالعلم داخلا في ذلك بطريق الأولى، فإن السياق في الإنفاق على الأقارب والضعفاء، وكذلك الآية التي بعدها وهي قوله: {والذين ينفقون أموالهم رياء الناس} فإنه ذكر الممسكين المذمومين وهم البخلاء، ثم ذكر الباذلين المرائين الذين يقصدون بإعطائهم السمعة وأن يمدحوا بالكرم، ولا يريدون بذلك وجه الله.

وفي حديث الثلاثة الذين هم أول من تسجر بهم النار وهم: العالم، والغازي، والمنفق المراءون بأعمالهم: «يقول صاحب المال: ما تركت من شيء تحب أن ينفق فيه إلا أنفقت في سبيلك، فيقول الله: كذبت إنما أردت أن يقال: جواد فقد قيل» أي فقد أخذت جزاءك في الدنيا وهو الذي أردت بفعلك.

س: اذكر بعض الوارد في ذم البخل والتنفير منه:

ج: قد قدمت كثيرًا من هذا في تفسير سورة آل عمران عند تفسير قوله تعالى: ﴿﴾
[آل عمران: ١٨٠]. فليرجع إلى تفسير هذه الآية من أراد المزيد، ونذكر هنا بعض ما

أوردناه هنالك، مع إضافات قليلة، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿ [النساء: ٣٧].

* وقوله تعالى: ﴿ [محمد: ٣٨].

* وقول الله تبارك وتعالى: ﴿ [الإسراء: ٢٩].

* وقول الله تبارك وتعالى: ﴿ [الفرقان: ٦٧].

* وقول الله تبارك وتعالى: ﴿ [التوبة: ٣٤].

وقد ذكر الله سبحانه وتعالى عقوبة قوم نووا البخل وأضمره وعزموا عليه، وذلك في سورة القلم، إذ قال تعالى: **وقول الله تبارك وتعالى: ﴿ [القلم: ١٧]**، الآيات، وبين الله فيها كيف كان جزاؤهم، وسيأتي الحديث عن ذلك بالتفصيل إن شاء الله في تفسير سورة القلم.

أما الأحاديث عن رسول الله ﷺ فمنها ما يلي:

* **قول النبي ﷺ:** «من سيدكم يا بني سلمة؟»، قلنا: جدُّ بن قيس، على أنا نُبْخَلُه، قال: «وأي داءٍ أدوا من البخل؟! بل سيدكم عمرو بن الجموح»^(١).

وكان عمرو على أصنامهم في الجاهلية، وكان يولم عن رسول الله ﷺ إذا تزوج.
* وما أخرجه البخاري ومسلم^(٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: أن النبي ﷺ قال: «مَا مِنْ يَوْمٍ يُصْبِحُ الْعِبَادُ فِيهِ إِلَّا مَلَكَانِ يَنْزِلَانِ فَيَقُولُ أَحَدُهُمَا اللَّهُمَّ أَعْطِ مُنْفِقًا خَلْفًا، وَيَقُولُ الْآخَرُ اللَّهُمَّ أَعْطِ مُمْسِكًا تَلَفًا».

* وما أخرجه الإمام أحمد في «مسنده» من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «شَرُّ مَا فِي رَجُلٍ شُحُّ هَالِعٍ، وَجُبْنٌ خَالِعٍ»^(٣).

* وما أخرجه الإمام مسلم^(٤) في «صحيحه» من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «اتَّقُوا الظُّلْمَ، فَإِنَّ الظُّلْمَ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَاتَّقُوا الشُّحَّ، فَإِنَّ الشُّحَّ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، حَمَلَهُمْ عَلَى أَنْ سَفَكُوا دِمَاءَهُمْ وَاسْتَحَلُّوا مَحَارِمَهُمْ».

(١) البخاري «الأدب المفرد» (ص ٢٩٧)، وإسناده صحيح.

(٢) البخاري مع «الفتح» (٣/ ٣٠٤)، ومسلم (٧/ ٩٥).

(٣) أحمد في «المسند» (٢/ ٣٠٢) بإسنادٍ صحيح، والشُّحُّ: هو البخل مع الحرص..

(٤) مسلم مع النووي (١٦/ ٣٤).

* وأخرج البخاري^(١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ آتَاهُ اللَّهُ مَالًا، فَلَمْ يُؤَدِّ زَكَاتَهُ مِثْلَ^(٢) لَهُ مَالُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ شُجَاعًا^(٣) أَفْرَعُ لَهُ زَبِيَّتَانِ^(٤) يُطَوَّقُهُ^(٥) يَوْمَ الْقِيَامَةِ، ثُمَّ يَأْخُذُ بِلَهْزِمَتَيْهِ - يَعْنِي بِشِدْقَيْهِ - ثُمَّ يَقُولُ أَنَا مَالِكُ أَنَا كُنْزُكَ، ثُمَّ تَلَا: { لَا يَحْسِبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ... } الْآيَةَ».

* وفي رواية أخرى للبخاري^(٦) قال رسول الله ﷺ: «يَكُونُ كُنْزُ أَحَدِكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ شُجَاعًا أَفْرَعُ، يَفْرُ مِنْهُ صَاحِبُهُ، فَيَطْلُبُهُ وَيَقُولُ: أَنَا كُنْزُكَ، قَالَ: وَاللَّهِ لَنْ يَزَالَ يَطْلُبُهُ، حَتَّى يَسْطَ يَدُهُ فَيَلْقِمَهَا فَاهُ».

* وقال رسول الله ﷺ: «إِذَا مَا رَبُّ النَّعَمِ لَمْ يُعْطِ حَقَّهَا تُسَلِّطَ عَلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَتَخِطُ وَجْهَهُ بِأَخْفَافِهَا».

* وأخرج البخاري^(٧) من حديث جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ: أَنَّهُ بَيْنَمَا هُوَ يَسِيرُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَمَعَهُ النَّاسُ مَقْلَعُهُ مِنْ حُنَيْنٍ، فَعَلِقَهُ النَّاسُ يَسْأَلُونَهُ حَتَّى اضْطَرُّوهُ إِلَى سَمَرَةٍ، فَخَطِفَتْ رِدَاءَهُ، فَوَقَفَ النَّبِيُّ ﷺ، فَقَالَ: «أَعْطُونِي رِدَائِي، لَوْ كَانَ لِي عَدَدُ هَذِهِ الْعِضَاهِ نَعَمًا لَقَسَمْتُ بَيْنَكُمْ، ثُمَّ لَا تَحْدُونِي بِخِيَلٍ، وَلَا كَذُوبًا، وَلَا جَبَانًا».

* وأخرج مسلم^(٨) في «صحيحه» من حديث عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رضي الله عنه قَالَ: قَسَمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَسَمًا، فَقُلْتُ: وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَغَيْرِ هَؤُلَاءِ كَانَ أَحَقَّ بِهِ مِنْهُمْ، قَالَ: «إِنَّهُمْ خَيْرٌ مِنِّي أَنْ يَسْأَلُونِي بِالْفُحْشِ أَوْ يَبْخُلُونِي، فَلَسْتُ بِبَاخِلٍ».

* وكان رسول الله ﷺ يتعوذ من البخل في ما لا يُحصى من المواطن، وهذه بعض الأحاديث بذلك:

(١) البخاري مع «الفتح» (٣/ ٢٦٨).

(٢) مِثْلُ: صَوْرَ لَهُ.

(٣) الشجاع الأفرع: هو الحية الذكر.

(٤) الزبيتان اللتان في الشدقين، وقيل: النكتتان السوداءوان فوق عينيه.

(٥) يطوقه: يصير له طوقًا.

(٦) البخاري مع «الفتح» (١٢/ ٣٣٠).

(٧) مسلم مع النووي (٧/ ١٤٦).

(٨) البخاري مع «الفتح» (١١/ ١٧٩)، ومسلم (١٧/ ٢٩).

* وأخرج البخاري^(١) من حديث سعد بن أبي وقاصٍ رضي الله عنه، أَنَّهُ كَانَ يَأْمُرُ بِهِؤُلَاءِ الْخَمْسِ: وَيُحَدِّثُهُنَّ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْبُخْلِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الْجُبْنِ، وَأَعُوذُ بِكَ أَنْ أُرَدَّ إِلَى أَرْدَلِ الْعُمْرِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ الدُّنْيَا، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ».

* وأخرج مسلم^(٢) في «صحيحه» من حديث زيد بن أرقم، قَالَ: لَا أَقُولُ لَكُمْ إِلَّا كَمَا كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: كَانَ يَقُولُ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْعَجْزِ، وَالْكَسَلِ، وَالْجُبْنِ، وَالْبُخْلِ، وَالْهَرَمِ، وَعَذَابِ الْقَبْرِ اللَّهُمَّ اتِّ نَفْسِي تَقْوَاهَا، وَزَكَّاهَا أَنْتَ خَيْرُ مَنْ زَكَّاهَا، أَنْتَ وَلِيُّهَا وَمَوْلَاهَا، اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عِلْمٍ لَا يَنْفَعُ، وَمِنْ قَلْبٍ لَا يَخْشَعُ، وَمِنْ نَفْسٍ لَا تَشْبَعُ، وَمِنْ دَعْوَةٍ لَا يُسْتَجَابُ لَهَا».

* وأخرج الترمذي^(٣) من طريق مُضْعَبِ بْنِ سَعْدٍ، وَعَمْرِو بْنِ مَيْمُونٍ، قَالَا: كَانَ سَعْدٌ، يُعَلِّمُ بَنِيهِ هَؤُلَاءِ الْكَلِمَاتِ كَمَا يُعَلِّمُ الْمُكْتَبُ الْغُلَمَانَ وَيَقُولُ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَتَعَوَّذُ بِهِنَّ دُبْرَ الصَّلَاةِ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْجُبْنِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الْبُخْلِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ أَرْدَلِ الْعُمْرِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ الدُّنْيَا، وَعَذَابِ الْقَبْرِ».

س: ما الشيء الذي آتاهم الله إياه فكتموه؟

ج: في ذلك قولان:

أحدهما: أنهم أوتوا العلم بصفة النبي ﷺ فكتموها.

الثاني: أنهم أرباب الأموال الذين آتاهم الله أموالاً فبخلوا بها.

س: ما وجه ختام الآية الكريمة بقوله تعالى: ﴿﴾؟

ج: في ذلك وجهان:

أولهما: إن حملنا البخل هنا على كتمان صفة محمد ﷺ، فمن كتّمها فهو كافر،

(١) البخاري مع «الفتح» (١١/١٧٨).

(٢) مسلم مع النووي (١٧/٤١).

(٣) صحيح: أخرجه الترمذي (٣٥٦٧).

ومن ثم استحقَّ أن يُوصف بالكفر، ويُعد له العذاب المهين.
ثانيهما: إن حملنا البخل هنا على البخل بالمال، فالكفر هنا المراد به الستر والتغطية، فالبخل يستر نعمة الله عليه، ويكتمها ويجحدها، فهو كافر لنعمة الله عليه، والله أعلم.

س: هل المذكورون في قوله تعالى: ﴿﴾ هم الموصوفون بقوله تعالى: ﴿﴾ أم صنف آخر؟

ج: يحتمل أن يكونوا هم أنفسهم الموصوفين في الآيتين، وتكون الواو عاطفة لصفة على صفة، كما قال تعالى: ﴿﴾، فالواو عاطفة لصفة على صفة، فالذي خلق فسوى هو الله الذي قدر فهدى، وهو الله الذي أخرج المرعى.
* ويحتمل أن يكون الموصوفون بقوله تعالى: ﴿﴾ صنفٌ آخر غير المذكورين في قوله تعالى: ﴿﴾ فتكون الواو تقتضي المغايرة، فيكون هؤلاء صنف آخر من الناس ذكرهم الله ﷻ في معرض الدم.

س: من هم الذين ذكرهم الله بقوله: ﴿﴾؟
ج: قال بعض العلماء: إنهم اليهود، وقيل: إنهم المنافقون الذين ينفقون رياءً وسمعةً، وقيل أيضاً: هم المشركون الذين أنفقوا أموالاً طائلة في عداوة محمد ﷺ.

س: اذكر بعض الوارد في التحذير من الرياء في الإنفاق، وإثم ذلك.
ج: من ذلك ما يلي:
* قول الله تبارك وتعالى: ﴿﴾ [البقرة: ٢٦٤].
* وقوله تعالى: ﴿﴾ [النساء: ٣٨].
ومن الأحاديث عن رسول الله ﷺ في ذلك:
* ما أخرجه مسلم في «صحيحه» من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، قال: سَمِعْتُ

رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ أَوَّلَ النَّاسِ يُقْضَىٰ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَيْهِ رَجُلٌ اسْتَشْهَدَ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: قَاتَلْتُ فِيكَ حَتَّى اسْتَشْهَدْتُ، قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ قَاتَلْتَ لِأَنْ يُقَالَ: جَرِيءٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَرَجُلٌ تَعَلَّمَ الْعِلْمَ، وَعَلَّمَهُ وَقَرَأَ الْقُرْآنَ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: تَعَلَّمْتُ الْعِلْمَ، وَعَلَّمْتُهُ وَقَرَأْتُ فِيكَ الْقُرْآنَ، قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ تَعَلَّمْتَ الْعِلْمَ لِيقَالَ: عَالِمٌ، وَقَرَأْتَ الْقُرْآنَ لِيقَالَ: هُوَ قَارِئٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَرَجُلٌ وَسَّعَ اللَّهُ عَلَيْهِ، وَأَعْطَاهُ مِنْ أَصْنَافِ الْمَالِ كُلِّهِ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: مَا تَرَكْتُ مِنْ سَبِيلٍ تُحِبُّ أَنْ يُنْفَقَ فِيهَا إِلَّا أَنْفَقْتُ فِيهَا لَكَ، قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ فَعَلْتَ لِيقَالَ: هُوَ جَوَادٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ، ثُمَّ أُلْقِيَ فِي النَّارِ»^(١).

س: كلا طرفي الأمور ذميم، اذكر من هذه الآيات ما يبين هذا المعنى؟

ج: إيضاح ذلك أن البخلاء ذمهم الله ﷻ في قوله تعالى: ﴿﴾، وكذلك فالمنفقون رياءً وسمعةً ذمهم الله بقوله: ﴿﴾. فوجه ذلك كما قال العلماء: أن الأولين بخلوا بما آتاهم الله من فضله، والآخرين قد أنفقوا رياءً وسمعةً، والوسط أن تنفق قدر استطاعتك ابتغاء وجه الله، مبتعدًا عن البخل، ومبتعدًا عن الرياء والسمعة، والله تعالى أعلم.

س: في قوله تعالى: ﴿﴾ فيه إضمار، وضع هذا المضمّر.

ج: قال بعض العلماء: إن المضمّر هو: (فقرينهم الشيطان)، فيكون المعنى: ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر فقرينهم الشيطان، ومن يكن الشيطان له قرينًا فساء قرينًا، والله أعلم.

س: وضع الممراد بقوله تعالى: ﴿﴾.

(١) مسلم (حديث ١٩٠٥).

ج: قال الطبري رحمه الله:

يعني بذلك جل ثناؤه: وأي شيء على هؤلاء الذين ينفقون أموالهم رياء الناس ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر {لو آمنوا بالله واليوم الآخر}، لو صدّقوا بأن الله واحد لا شريك له، وأخلصوا له التوحيد، وأيقنوا بالبعث بعد الممات، وصدقوا بأن الله مُجازيهم بأعمالهم يوم القيامة {وأنفقوا مما رزقهم الله}، يقول: وأدّوا زكاة أموالهم التي رَزَقَهُمُ اللهُ وأعطاهموها، طيبة بها أنفسهم، ولم ينفقوها رياء الناس، التماس الذكر والفخر عند أهل الكفر بالله، والمحمدة بالباطل عند الناس {وكان الله}، هؤلاء الذين وصف صفتهم أنهم ينفقون أموالهم رياء الناس نفاقاً، وهم بالله واليوم الآخر مكذبون {عليماً}، يقول: ذا علم بهم وبأعمالهم، وما يقصدون ويريدون بإنفاقهم ما ينفقون من أموالهم، وأنهم يريدون بذلك الرياء والسُّمعة والمحمدة في الناس، وهو حافظ عليهم أعمالهم، لا يخفى عليه شيء منها، حتى يجازيهم بها جزاءهم عند معادهم إليه.

س: اذكر بعض الآيات والأحاديث في معنى هذه الآية الكريمة: ﴿﴾؟

ج: من ذلك ما يلي:

* قوله تعالى: ﴿﴾ [الزلزلة: ٧، ٨].

* وقوله تعالى: ﴿﴾ [الأنبياء: ٤٧].

* وقوله تعالى في شأن لقمان وولده: ﴿﴾ [لقمان: ١٦].

* وقوله تعالى: ﴿﴾ [الكهف: ٤٩].

* وقال تعالى: ﴿﴾ [القمر: ٥٢، ٥٣].

* وهذا حديث لرسول الله ﷺ في هذا الباب:

* في حديث الشفاعة الطويل من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: ... فذكر الحديث، وفيه: أن الله سبحانه وتعالى يقول: «اذهبوا فمن وجدتم

في قلبه مثقال ذرةٍ من إيمانٍ فأخرجوه ...»^(١). الحديث.

س: وضع المعنى الإجمالي لقوله تعالى: ﴿﴾.

ج: قال القاسمي رَحِمَهُ اللهُ فِي «محاسن التأويل»:

﴿﴾ أي: لا يبخس أحدًا من ثواب عمله ولا يزيد في عقابه شيئًا مقدار ذرة، وهي النملة الصغيرة، في قول أهل اللغة. قال ثعلب: مائة من الذر زنة حبة شعير. وهذا مثل ضربه الله تعالى لأقل الأشياء. والمعنى: إن الله تعالى لا يظلم أحدًا شيئًا، قليلًا ولا كثيرًا.

فخرج الكلام على أصغر شيء يعرفه الناس {وَأِنْ تَكْ حَسَنَةً يُّضَاعِفْهَا} أي: وإن تك مثقال ذرة حسنة يضاعف ثوابها. وإنما أنت ضمير المثلقال لتأنيث الخبر. أو لإضافته إلى الذرة {وَيُؤْتِ} أي: زيادة على الأضعاف {مِنْ لَّدُنْهُ} مما يناسب عظمته على نهج التفضل {أَجْرًا عَظِيمًا} أي عطاء جزيلا.

س: كيف يُصنع بالمشرك الذي يعمل حسنات في الدنيا؟

ج: من أهل من قال: إن الكافر يجازى بحسناته في الدنيا كما في رواية مسلم من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مُؤْمِنًا حَسَنَةً، يُعْطَى بِهَا فِي الدُّنْيَا وَيُجْزَى بِهَا فِي الْآخِرَةِ، وَأَمَّا الْكَافِرُ فَيُطْعَمُ بِحَسَنَاتٍ مَا عَمِلَ بِهَا لِلَّهِ فِي الدُّنْيَا، حَتَّى إِذَا أَفْضَى إِلَى الْآخِرَةِ، لَمْ تَكُنْ لَهُ حَسَنَةٌ يُجْزَى بِهَا»^(٢) فهذا وجه. وإما أن يُخفف عنه من العذاب يوم القيامة، وذلك كما ورد في شأن أبي طالب عم رسول الله ﷺ، ففي «الصحيح»^(٣) عَنِ الْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، أَنَّهُ قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَلْ نَفَعَتْ أَبَا طَالِبٍ بِشَيْءٍ، فَإِنَّهُ كَانَ يَحْطُوكَ وَيَغْضَبُ لَكَ؟ قَالَ: «نَعَمْ، هُوَ فِي ضَحَضَاحٍ مِنْ نَارٍ، وَلَوْ لَا أَنَا لَكَانَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ».

(١) البخاري (٧٤٣٩)، ومسلم (حديث ١٨٣).

(٢) مسلم (حديث ٢٨٠٨).

(٣) البخاري (حديث ٦٢٠٨)، ومسلم (حديث ٢٠٩).

ولكن يعكر على هذا الأخير قوله تعالى: ﴿﴾ [فاطر: ٣٦].

|

س: قوله تعالى: ﴿﴾ إلى قدر كم يكون التضعيف؟

ج: للتضعيف صورٌ، فأحياناً يكون التضعيف إلى عشرة أضعاف، وأحياناً يكون إلى سبعمائة ضعف، وأحياناً يكون أكثر من ذلك بكثير، وبين ذلك أيضاً.

أما التضعيف إلى عشر أضعاف، فلقلوله تعالى: ﴿﴾ [الأنعام: ١٦٠].

والتضعيف إلى سبعمائة ضعف فلقلوله تعالى: ﴿﴾ [البقرة: ٢٦١].

أما التضعيف أكثر من ذلك: «مَنْ تَصَدَّقَ بِعَدْلِ تَمْرَةٍ مِنْ كَسْبٍ طَيِّبٍ - وَلَا يَضَعُ إِلَى اللَّهِ إِلَّا الطَّيِّبُ - فَإِنَّ اللَّهَ يَتَقَبَّلُهَا بِيَمِينِهِ، ثُمَّ يُرَبِّيهَا لِصَاحِبِهِ، كَمَا يُرَبِّي أَحَدَكُمْ فُلُوهُ، حَتَّى تَكُونَ مِثْلَ الْجَبَلِ»^(١).

|

س: قرأ رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿﴾ ثم بكى، اذكر مناسبة ذلك.

ج: مناسبة ذلك أن النبي ﷺ قال لابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «اقرأ عليّ»، قال ابن مسعود: قلت: اقرأ عليك وعليك أنزل؟، قال: «فإني أحب أن أسمع من غيري». فقرأت عليه سورة النساء حتى بلغت: ﴿﴾، قال: «أمسك» فإذا عيناه تذرفان»^(٢).

|

س: من المراد بالشهيد في قوله تعالى: ﴿﴾ ومن المعنيون بـ (هؤلاء)؟

ج: الشهيد على كل أمة هو نبيها.

أما المعنيون بقوله تعالى: ﴿﴾ فمن العلماء من قال: الشهداء من جميع الأمم^(٣)، ومن العلماء من قال: المنافقون والمشركون المتواجدون في زمن رسول الله ﷺ، ومن العلماء من قال: هم عموم المؤمنين، والله أعلم.

هذا، وإن قلنا: إن المعنيين بقوله تعالى: ﴿﴾ هم المشركون والمنافقون، فإن

(١) البخاري (حديث ٧٤٣٠)، ومسلم (حديث ١٠١٤)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعاً.

(٢) أخرجه البخاري (حديث ٤٥٨٢).

(٣) ويشهد لهذا قول النبي ﷺ: يُقال لنوح...

الرسول ﷺ يشهد عليهم.

وإن قلنا: إنهم أهل الإيمان فإن النبي ﷺ يشهد لهم، والله أعلم.

|

س: كيف قال تعالى: ﴿﴾ وقد قالوا: ﴿﴾ فقد كنتموا إذن؟

ج: على ذلك أجوبة، أولها: لا تكتم جوارحهم شيئاً، وإن كنتم أفواههم كما قال

تعالى: ﴿﴾ [النور: ٢٤]، وكما قال تعالى: ﴿﴾ [فصلت: ٢١].

أخرج البخاري في «صحيحه» من طريق المنهال: عَنْ سَعِيدٍ، قَالَ: قَالَ رَجُلٌ لِابْنِ عَبَّاسٍ: إِنِّي أَجِدُ فِي الْقُرْآنِ أَشْيَاءَ تَخْتَلِفُ عَلَيَّ، قَالَ: {فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ} [المؤمنون: ١٠١]، {وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ} [الصفافات: ٢٧] {وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا} [النساء: ٤٢]، {وَاللَّهُ رَبُّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ} [الأنعام: ٢٣]، فَقَدْ كَتَمُوا فِي هَذِهِ الْآيَةِ؟ وَقَالَ: {أُمَّ السَّمَاءِ بَنَاهَا} [النازعات: ٢٧] إِلَى قَوْلِهِ: {دَحَاهَا} [النازعات: ٣٠] فَذَكَرَ خَلْقَ السَّمَاءِ قَبْلَ خَلْقِ الْأَرْضِ، ثُمَّ قَالَ: {أَتُنْكُمُ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ} [فصلت: ٩] إِلَى قَوْلِهِ: {طَائِعِينَ} [فصلت: ١١] فَذَكَرَ فِي هَذِهِ خَلْقَ الْأَرْضِ قَبْلَ خَلْقِ السَّمَاءِ؟ وَقَالَ: {وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا} [النساء: ٩٦]، {عَزِيزًا حَكِيمًا} [النساء: ٥٦]، {سَمِيعًا بَصِيرًا} [النساء: ٥٨] فَكَأَنَّهُ كَانَ ثُمَّ مَضَى؟ فَقَالَ: {فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ} [المؤمنون: ١٠١]: "فِي النَّفْخَةِ الْأُولَى، ثُمَّ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ: {فَصَعَقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ} {فَلَا أَنْسَابَ [ص: ١٢٨] بَيْنَهُمْ عِنْدَ ذَلِكَ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ، ثُمَّ فِي النَّفْخَةِ الْآخِرَةِ، {أَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ} [الصفافات: ٢٧] وَأَمَّا قَوْلُهُ: {مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ} [الأنعام: ٢٣]، {وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا} [النساء: ٤٢]، فَإِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ لِأَهْلِ الْإِخْلَاصِ ذُنُوبَهُمْ، وَقَالَ الْمُشْرِكُونَ: تَعَالَوْا نَقُولْ لَمْ نَكُنْ مُشْرِكِينَ، فَخَتَمَ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ، فَتَنَطَّقُ أَيْدِيهِمْ، فَعِنْدَ ذَلِكَ عُرِفَ أَنَّ اللَّهَ لَا يُكْتَمُ حَدِيثًا، وَعِنْدَهُ: {يَوْمُ الَّذِينَ كَفَرُوا} [البقرة: ١٠٥] الْآيَةَ، وَخَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ ثُمَّ خَلَقَ السَّمَاءَ، ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ فِي يَوْمَيْنِ آخَرَيْنِ، ثُمَّ دَحَا الْأَرْضَ، وَدَحَّوْهَا: أَنْ أَخْرَجَ مِنْهَا الْمَاءَ وَالْمَرَعَى، وَخَلَقَ الْجِبَالَ وَالْجَمَالَ وَالْآكَامَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي يَوْمَيْنِ آخَرَيْنِ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ: {دَحَاهَا} [النازعات: ٣٠].

وَقَوْلُهُ: { خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ } [فصلت: ٩]. فَجُعِلَتِ الْأَرْضُ وَمَا فِيهَا مِنْ شَيْءٍ فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ، وَخُلِقَتِ السَّمَوَاتُ فِي يَوْمَيْنِ، { وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا } [النساء: ٩٦] سَمَّى نَفْسَهُ ذَلِكَ، وَذَلِكَ قَوْلُهُ، أَيُّ لَمْ يَزَلْ كَذَلِكَ، فَإِنَّ اللَّهَ لَمْ يُرِدْ شَيْئًا إِلَّا أَصَابَ بِهِ الَّذِي أَرَادَ، فَلَا يَخْتَلِفُ عَلَيْكَ الْقُرْآنُ، فَإِنَّ كُلًّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ.

وقد أخرج الطبري بإسنادٍ فيه كلام:

عن سعيد بن جبير ، قال: جاء رجل إلى ابن عباس ، فقال: أشياء تختلف علي في القرآن؟ فقال: ما هو؟ أشك في القرآن؟ قال: ليس بالشك ، ولكنه اختلاف. قال: فهات ما يختلف عليك. قال: أسمع الله يقول: { ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين } [الأنعام: ٢٣] وقال: { ولا يكتُمون الله حديثا } [النساء: ٤٢] وقد كتموا. فقال ابن عباس: أما قوله: { ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين } [الأنعام: ٢٣] فإنهم لما رأوا يوم القيامة أن الله يغفر لأهل الإسلام ويغفر الذنوب ولا يغفر شركا ولا يتعاضمه ذنب أن يغفره جحد المشركون ، فقالوا: والله ربنا ما كنا مشركين ، رجاء أن يغفر لهم ، فختم على أفواههم وتكلمت أيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون ، فعند ذلك { يود الذين كفروا وعصوا الرسول لو تسوى بهم الأرض ولا يكتُمون الله حديثا } [النساء: ٤٢].

قال الشنقيطي رَحِمَهُ اللَّهُ «أضواء البيان»:

قَوْلُهُ تَعَالَى: { وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا } بَيَّنَّ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ أَنَّ عَدَمَ الْكُتْمِ الْمَذْكُورِ هُنَا، إِنَّمَا هُوَ بِاعْتِبَارِ إِخْبَارِ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلِهِمْ بِكُلِّ مَا عَمِلُوا عِنْدَ الْخْتِمِ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ إِذَا أَنْكَرُوا شِرْكَهُمْ وَمَعَاصِيَهُمْ وَهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى: { الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ } [يس: ٦٥] ، فَلَا يَتَنَافَى قَوْلُهُ: { وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا } [النساء: ٤٢] ، مَعَ قَوْلِهِ عَنْهُمْ: { وَاللَّهُ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ } [الأنعام: ٢٣] ، وَقَوْلِهِ عَنْهُمْ أَيْضًا: { مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ } [النحل: ٢٨] ، وَقَوْلِهِ عَنْهُمْ: { بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُو مِنْ قَبْلُ شَيْئًا } [غافر: ٧٤] ، لِلْبَيَانِ الَّذِي ذَكَرْنَا وَالْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى.

وقال الرازي رَحِمَهُ اللَّهُ «التفسير الكبير»:

فَإِنْ قِيلَ: كَيْفَ الْجَمْعُ بَيْنَ هَذِهِ الْآيَةِ وَبَيْنَ قَوْلِهِ: وَاللَّهُ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ

[الأنعام: ٢٣] .

وَالْجَوَابُ مِنْ وُجُوهِ:

الأوّل: أَنَّ مَوَاطِنَ الْقِيَامَةِ كَثِيرَةٌ، فَمَوَاطِنُ لَا يَتَكَلَّمُونَ فِيهِ وَهُوَ قَوْلُهُ: {فَلَا تَسْمَعْ إِلَّا هَمْسًا} [طه: ١٠٨] وَمَوَاطِنُ يَتَكَلَّمُونَ فِيهِ كَقَوْلِهِ: {مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ} [النحل: ٢٨] وَقَوْلِهِمْ: {وَاللَّهُ رَبُّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ} فَيَكْذِبُونَ فِي مَوَاطِنَ، وَفِي مَوَاطِنَ يَغْتَرِفُونَ عَلَى أَنْفُسِهِم بِالْكَفْرِ وَيَسْأَلُونَ الرِّجْعَةَ وَهُوَ قَوْلُهُمْ: {يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبُ بَيَّاتٍ رَبَّنَا} [الأنعام: ٢٧] وَآخِرُ تِلْكَ الْمَوَاطِنِ أَنْ يُخْتَمَ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتَتَكَلَّمَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ وَجُلُودُهُمْ، فَنَعُودُ بِاللَّهِ مِنْ خِزْيِ ذَلِكَ الْيَوْمِ.

الثاني: أَنَّ هَذَا الْكِتْمَانَ غَيْرُ وَاقِعٍ، بَلْ هُوَ دَاخِلٌ فِي التَّمَنِّيِّ عَلَى مَا بَيَّنَّا.

الثالث: أَنَّهُمْ لَمْ يَقْصِدُوا الْكِتْمَانَ، وَإِنَّمَا أَخْبَرُوا عَلَى حَسَبِ مَا تَوَهَّمُوا، وَتَقْدِيرُهُ: وَاللَّهُ مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ عِنْدَ أَنْفُسِنَا، بَلْ مُصِيبِينَ فِي ظُنُونِنَا حَتَّى تَحَقَّقْنَا الْآنَ. وَسَيَجِيءُ الْكَلَامُ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ فِي سُورَةِ الْأَنْعَامِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.

الرابع: فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿﴾.

أَنَّهُمْ يَوَدُّونَ لَوْ تَنْطَبِقُ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ وَلَمْ يَكُونُوا كَتَمُوا أَمْرَ مُحَمَّدٍ ﷺ وَلَا كَفَرُوا بِهِ وَلَا نَافَقُوا، وَعَلَى هَذَا فَالْكِتْمَانُ عَائِدٌ إِلَى مَا كَتَمُوا مِنْ أَمْرِ مُحَمَّدٍ ﷺ.

|

قَالَ تَعَالَى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنْبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنْكُمْ مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ٤٣

الكلمة	معناها
﴿لَا تَقْرَبُوا﴾	لا تصلوا - لا تدخلوا في الصلاة - ووجه آخر: لا تقربوا مواطن الصلاة.
﴿سُكَرَىٰ﴾	جمع سكران - والسُّكر: نقيض الصحو، والسكر: غياب العقل، إما لخمير وهو: الأغلب وهو: المراد هنا، وإما لجنونٍ وإما لنوم.
﴿جُنْبًا﴾	الجنب: غير الطاهر، فهو: الذي نزل منه المني، أو جاوز ختانه ختان الأنثى، أي: إنه الذي خرج منه المني.
﴿عَابِرِي سَبِيلٍ﴾	عابر السبيل هو: المسافر، وعابري سبيل - أيضًا -: مجتازي الطريق.
﴿عَلَىٰ سَفَرٍ﴾	مسافرين وأنتم على جنابة.
﴿الْغَائِطِ﴾	أصل الغائط: المكان المنخفض من الأرض وبه سُميت غوطة دمشق، وكانت العرب تقصد هذا النوع من الأماكن لقضاء حاجتها فيه تسترًا عن أعين الناس ثم سُمِّي الحدث الخارج من الإنسان غائطًا لمقارنته بالمكان، فعلى ذلك فقلوه تعالى: ﴿أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنْكُمْ مِّنَ الْغَائِطِ﴾ أي: إذا قضى أحدكم حاجته؛ أي: إذا تبرز.
الكلمة	معناها

d التَّسْهِيلُ لِأَوَّلِ النَّزِيلِ b	سُورَةُ النَّازِعَاتِ	d ٢٠ b
	اقصدوا^(١) - تعمدوا - تحروا. تراباً^(٢)، وقيل: كل ما كان من جنس التراب^(٣) (تراب-رمل-نورة..)، وقيل: ما صعد على وجه الأرض^(٤)؛ فدخل فيه: التراب والرمل والشجر والحجر والنبات، وقيل: الأرض التي ليس فيها شجر ولا نبات^(٥). طاهراً.	(فَتَيَمَّمُوا) ﴿١﴾ (صَعِيدًا) ﴿٢﴾ (طَبِيًّا) ﴿٣﴾

- (١) أي: اذهبوا إلي، ومما ورد في التيمم قوله تعالى: ﴿١﴾ أي: ولا تقصدوا الخبيث لإخراجه، ولا تتحروا الخبيث كي تصدقوا به.
- (٢) وهو قول الإمام الشافعي، والإمام أحمد وأصحابهما رحمهم الله نقله عنهم الحافظ ابن كثير رحمهم الله، ومما يتقوى به هذا الوجه: ما أخرجه مسلم في «صحيحه» (٤/٥ مع النووي) من حديث حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «فُضِّلْنَا عَلَى النَّاسِ بِثَلَاثٍ: جُعِلَتْ صُفُوفُنَا كَصُفُوفِ الْمَلَائِكَةِ، وَجُعِلَتْ لَنَا الْأَرْضُ كُلُّهَا مَسْجِدًا، وَجُعِلَتْ تُرْبَتُهَا لَنَا طَهُورًا إِذَا لَمْ نَجِدِ الْمَاءَ».
- واستدلوا أيضًا بقوله تعالى: ﴿٣﴾ أي: تراباً أملس.
- (٣) وهو مذهب أبي حنيفة رحمهم الله، نقله الحافظ ابن كثير أيضًا.
- (٤) وهو قول مالك، نقله عنه الحافظ ابن كثير رحمه الله تعالى، وانتصر له القرطبي فقال: الصعيد: وجه الأرض كان عليه تراب أو لم يكن، قال الخليل وابن الأعرابي والزجاج: قال: لا أعلم فيه خلافاً بين أهل اللغة قال الله تعالى: ﴿٤﴾، أي: أرضاً غليظة لا تنبت شيئاً، وقال تعالى: ﴿٤﴾، ثم قال: وإنما سمي صعيداً لأنه نهاية ما يصعد إليه من الأرض.
- وأجاب القرطبي رحمهم الله على الاستدلال بقوله عليه الصلاة والسلام: «وجعلت تربتها لنا طهوراً» على أن المراد التراب بأن قال: إنما هو من باب النص على بعض أشخاص العموم، كما قال تعالى: ﴿٤﴾.
- (٥) وهو قول قتادة فقد أخرج الطبري بسند حسن عنه، قال: «صعيداً طيباً» قال: التي ليس فيها شجر ولا نبات.
- «طب أثر ٩٦٤٤/ ط: شاكر».
- واختاره الطبري فقال: وأولى ذلك بالصواب قول من قال: هو وجه الأرض الخالية من النبات والغروس والبناء المستوية.
- هذا، وقد قال السعدي رحمه الله تعالى في تفسيره «تيسير الكريم المنان»: والصعيد هو كل ما تصاعد على وجه الأرض سواء كان له غبار أم لا، ويحتمل أن يختص ذلك بذي الغبار؛ لأن الله قال في آية الوضوء من سورة المائدة: ﴿٥﴾ وما لا غبار له لا يمسح به.

س: كيف يوجَّه الخطاب والأمر والنهي لقوم سكارى، والسكران لا يدري ما الخطاب وما الأمر والنهي؟

ج: من العلماء من قال: إن المراد بالسكران هنا سكران لم يزل عقله بالكلية وإنما سكران يدري ما يقول لكنه لا يستطيع إقامة القراءة ولا الأركان.
قال الطبري رَحِمَهُ اللهُ:

وأولى القولين^(١) في ذلك بتأويل الآية، تأويل من قال: ذلك نهى من الله المؤمنين عن أن يقربوا الصلاة وهم سكارى من الشراب قبل تحريم الخمر؛ للأخبار المتظاهرة عن أصحاب رسول الله ﷺ بأن ذلك كذلك، نهى من الله وأن هذه الآية نزلت فيمن ذكرت أنها نزلت فيه^(٢).

فإن قال قائل: وكيف يكون ذلك معناه، والسكران في حال زوال عقله، نظير المجنون في حال زوال عقله، وأنت ممن يُحيل تكليف المجانين لفقدهم الفهم لما يؤمر وينهى؟

قيل له: إن السكران لو كان في معنى المجنون لكان غير جائز أمره ونهيه، ولكن السكران هو الذي يفهم ما يأتي ويذر، غير أن الشراب قد أثقل لسانه وأجزاء جسمه وأخدرها، حتى عجز عن إقامة قراءته في صلاته، وحدودها الواجبة عليه فيها، من غير زوال عقله، فهو بما أمر به ونهى عنه عارفٌ فهمٌ، وعن أداء بعضه عاجز بخدر جسمه من الشراب، وأما من صار إلى حدٍّ لا يعقل ما يأتي ويذر، فذلك منتقل من السكر إلى الخبل ومعاني المجانين، وليس ذلك الذي خوطب بقوله: ﴿لأن ذلك مجنون، وإنما خوطب به السكران، والسكران ما وصفنا صفته.﴾

|

س: الذي يغلبه النوم، هل له أن يصلي؟

ج: من غلبه النوم ينبغي له أن ينام ويصلي إذا استفاق وعلم ما يقول، وذلك لما

(١) يعني: بالقول الآخر سكر النوم.

(٢) بينا أنه لم يصح لها سبب نزول.

أخرجه مسلم^(١) في «صحيحه» من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا قَامَ أَحَدُكُمْ مِنَ اللَّيْلِ، فَاسْتَعْجَمَ الْقُرْآنُ عَلَى لِسَانِهِ، فَلَمْ يَدْرِ مَا يَقُولُ، فَلْيُضْطَجِعْ». وأخرج البخاري ومسلم^(٢) من حديث عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «إِذَا نَعَسَ أَحَدُكُمْ وَهُوَ يُصَلِّي فَلْيَرْقُدْ، حَتَّى يَذْهَبَ عَنْهُ النَّوْمُ، فَإِنْ أَحَدَكُمْ إِذَا صَلَّى وَهُوَ نَاعِسٌ، لَا يَدْرِي لَعَلَّهُ يَسْتَغْفِرُ فَيَسْبُ نَفْسَهُ».

س: ما مدى صحة حديث: «إني لا أحل المسجد لجُنُبٍ ولا لِحَائِضٍ»؟

ج: هذا حديث ضعيف لا يثبت عن رسول الله ﷺ^(٣)، ففي إسناده جسارة بنت دجاجة، وحاصل القول فيها أنها لم يوثقها معتبر، وقول الحافظ ابن حجر فيها: إنها مقبولة، أي: إذا توبعت وإلا فهي لينة، وهي في هذا الحديث لم تتابع فالحديث ضعيف.

س: اذكر بعض أدلة القائلين بجواز دخول الحائض المسجد، وكيف أجابوا على قوله تعالى: ﴿...﴾؟

ج: ابتداء فهذه المسألة قد ذكرناها بتفصيل في كتابنا «جامع أحكام النساء»، وعلى كلّس فهذا وجه الجواب.

أولاً: أدلة القائلين بإباحة دخول الحائض المسجد:

- ١ - البراءة الأصلية (ومعناها: أنه لم يرد نهي ينهي الحائض عن دخول المسجد)، وقد قال النبي ﷺ: «أَيُّمَا رَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي أَدْرَكَتْهُ الصَّلَاةُ فَلْيُصَلِّ»^(٤).
- ٢ - مبيت المرأة السوداء - التي كانت تقم المسجد - في المسجد على عهد رسول الله ﷺ ولم يرد أنه ﷺ أمرها وقت حيضتها أن تعتزل المسجد، وحديثها بذلك

(١) مسلم (حديث ٧٨٧).

(٢) البخاري (حديث ٢١٢)، ومسلم (حديث ٧٨٦).

(٣) ولمزيد انظر كتابنا: «جامع أحكام النساء».

(٤) البخاري (حديث ٣٣٥)، ومسلم (حديث ٥٢١).

في «صحيح البخاري»^(١).

٣- قول النبي ﷺ لعائشة في الحج: «افعلي ما يفعله الحاج إلا أن تطوفي بالبيت»^(٢)، فالذي مُنعت منه إنما هو الطواف فقط، ولم يمنعها النبي ﷺ من دخول المسجد، فلما جاز للحجيج أن يدخلوا المسجد جاز لها أيضًا أن تدخل.

٤- قول النبي ﷺ: «إن المسلم لا ينجس»^(٣).

٥- ما أخرجه سعيد بن منصور في «سننه» حيث قال: حَدَّثَنَا عَبْدُ الْعَزِيزِ بْنُ مُحَمَّدٍ الدَّرَاوَرْدِيُّ، عَنْ هِشَامِ بْنِ سَعْدٍ، عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ، عَنْ عَطَاءِ بْنِ يَسَارٍ قَالَ: رَأَيْتُ رَجُلًا مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَجْلِسُونَ فِي الْمَسْجِدِ وَهُمْ مُجْنِبُونَ إِذَا تَوَضَّؤُوا وَضُوءَ الصَّلَاةِ.

فقاس بعض أهل العلم الحائض على الجنب، ولنا على ذلك القياس مؤاخذات لعلها تنضح في أدلة المانعين، وأتبعوا ذلك أيضًا بمبيت أهل الصفة بالمسجد ومنهم طبعًا من يحتلم وهو نائم، وكذلك مبيت المعتكفين والمعتكفات في المسجد، ومن المعتكفين من يحتلم فيجنب، ومن المعتكفات من تحيض.

٦- ما أخرجه مسلم في «صحيحه» من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «نَاوِلِي خُمْرَةَ مِنَ الْمَسْجِدِ»، قَالَتْ فَقُلْتُ: إِنِّي حَائِضٌ، فَقَالَ: «إِنَّ حَيْضَتِكَ لَيْسَتْ فِي يَدِكَ».

وفي رواية لمسلم: «تَنَاوَلِيهَا فَإِنَّ الْحَيْضَةَ لَيْسَتْ فِي يَدِكَ»، ونحوه عند مسلم من حديث أبي هريرة أيضًا.

وقد اختلف في فقه هذا الحديث على النحو التالي:

هل الخمرة هي التي في المسجد، أم أن رسول الله ﷺ هو الذي كان بالمسجد، وطلب منها ذلك وهي خارجه؟

فذهب فريق من أهل العلم إلى الأول أي: أن الخمرة هي التي كانت في المسجد،

(١) البخاري (مع «الفتح» ١/ ٥٣٣).

(٢) البخاري (حديث ٢٩٤)، ومسلم (٢/ ٣١٢).

(٣) البخاري (مع «الفتح» ١/ ٣٩٠)، ومسلم (مع النووي ٤/ ٦٦).

واستدلوا لقولهم بما أخرجه أحمد من طريق مَنبُوذٍ، عَنْ أُمِّهِ، قَالَتْ: كُنْتُ عِنْدَ مَيْمُونَةَ، فَاتَّاهَا ابْنُ عَبَّاسٍ، فَقَالَتْ: يَا بُنَيَّ، مَا لَكَ شَعْنًا رَأْسُكَ؟ قَالَ: أُمُّ عَمَّارٍ مَرْجَلَتِي حَائِضٌ. قَالَتْ: أَيُّ بُنَيَّ، وَأَيْنَ الْحَيْضَةُ مِنَ الْيَدِ؟ «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَدْخُلُ عَلَى إِحْدَانَا وَهِيَ حَائِضٌ، فَيَضَعُ رَأْسَهُ فِي حِجْرِهَا، فَيَقْرَأُ الْقُرْآنَ وَهِيَ حَائِضٌ، ثُمَّ تَقُومُ إِحْدَانَا بِخُمْرَتِهِ، فَتَضَعُهَا فِي الْمَسْجِدِ وَهِيَ حَائِضٌ»، أَيُّ بُنَيَّ، وَأَيْنَ الْحَيْضَةُ مِنَ الْيَدِ؟ ولكن إسناد هذا الحديث ضعيف.

وبناء على هذا الرأي - أي: بناءً على رأي من قال: إن الخمرة هي التي كانت في المسجد - فإن الحديث يفيد أن المرأة تدخل (وهي حائض) للمجيء بالخمرة من المسجد، وقوله ﷺ: «إِنَّ حَيْضَتَكَ لَيْسَتْ فِي يَدِكَ» يكون معناه - على هذا التذليل - إن حيضتك بيد الله، كحديث: «إن هذا شيء كتبه الله على بنات آدم»، فعليه يجوز على هذا الوجه من التأويل للحديث أن تدخل الحائض المسجد.

وتمَّ وجه آخر للحديث وهو ما نقله النووي رَحِمَهُ اللَّهُ (شرح مسلم ٥٩٦/١) عن عياض قال: معناه أن النبي ﷺ قال لها ذلك من المسجد، أي: وهو في المسجد لتناوله إياها من خارج المسجد لا أن النبي ﷺ أمرها أن تخرجها له من المسجد؛ لأنه ﷺ كان في المسجد معتكفاً، وكانت عائشة في حجرتها وهي حائض؛ لقوله ﷺ: «إِنَّ حَيْضَتَكَ لَيْسَتْ فِي يَدِكَ»، فإنها خافت من إدخال يدها في المسجد، ولو كان أمرها بدخول المسجد لم يكن لتخصيص اليد معنى. كذا قال عياض رَحِمَهُ اللَّهُ.

فعلى هذا يكون في الحديث منع الحائض من دخول المسجد؛ لأنه ﷺ أذن لها في إدخال يدها فقط، ولم يأذن لها في إدخال سائر جسمها. ولكن في الحقيقة أن هذا الحديث ليس صريحاً في الحظر ولا في الإباحة فنسقطه من أدلة المجيزين والمانعين.

ويبقى هنا بعض أدلة المانعين نوردها، وبالله التوفيق، ومنها:

١ - قول الله تعالى: ﴿النِّسَاءُ: ٤٣﴾، فقالوا: المراد بالصلاة هنا: مواضع الصلاة، وقد منع منها الجنب إلا في حالة كونه عابر سبيل، واستدلوا لقولهم بأن الصلاة تطلق على مواضع الصلاة، بقول الله تعالى: ﴿الحَجَّ: ٤٠﴾، فقالوا: تهدم

الصلوات معناه: تهدم أماكنها.

قلت: وبالنظر في هذا الدليل للمانعين نجد أنهم قاسوا الحائض على الجنب، ونحن هنا لا نوافقهم على ذلك؛ لأن الجنب بيده أن يتطهر، ففي الآية حثُّ له على الإسراع في التطهر أما الحائض فلا تملك أمرها.

٢- الثاني من أدلة المانعين: قول النبي ﷺ لما أمر النساء بالخروج للعيدين فقال: «ويعتزل الحيض المصلى».

والإجابة على هذا الدليل أن المراد بـ(المصلى) هنا الصلاة نفسها، وذلك لأن النبي ﷺ وأصحابه كانوا يصلون العيد بالفضاء وليس بالمسجد، وقد جعلت الأرض كلها مسجداً.

٣- الدليل الثالث للمانعين: هو أن رسول الله ﷺ كان يدي رأسه لعائشة وهو في المسجد وهي خارجه حتى ترجله وهي حائض، والإجابة على هذا الدليل: أنه ليس صريحاً في المنع من دخول المسجد فقد يكون بالمسجد رجال ولم يحب رسول الله ﷺ أن يطلع الرجال على حرمة الشريف.

٤- الأوامر الواردة بتنظيف المساجد من القاذورات.

قُلْتُ: وهذا ليس نصاً في المنع إنما هو في تنظيفها من القاذورات.

٥- الدليل الخامس: حديث: «لا أحل المسجد لجنب ولا حائض»، ولكنه حديث ضعيف؛ إذ إنه من طريق جسة بنت دجاجة، حاصل القول فيها: أنها مقبولة كما قال الحافظ ابن حجر رحمه الله في «التقريب»، ومعنى مقبولة - عند الحافظ - أنها مقبولة إذا توبعت وإلا فليته، وهي هنا لم تتابع.

وأخيراً بعد هذا السرد لأدلة المانعين نرى أنه لا دليل صحيح صريح يمنع الحائض من دخول المسجد، وعلى ذلك فيجوز للحائض أن تدخل المسجد وأن تمكث فيه.

س: وضع إجمالاً المراد بقوله تعالى: ﴿﴾.

ج: المعنى - والله أعلم - لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون،

ولا تقربوها وأنتم على جنابة حتى تغتسلوا إلا إذا كنتم مسافرين، ولم تجدوا ماءً للغسل فلکم أن تتيمموا.

ومن العلماء من حمل الصلاة على مواطن الصلاة، أي: على المساجد فقال: إن المعنى: لا تقربوا المساجد وأنتم سكارى، ولا تقربوها وأنتم على جنابة حتى تغتسلوا إلا إذا كنت مأزین فقط، فمجرد المرور مباح لكم. هذا، وقد أورد الطبري جملة آثار مؤداها أنه لا بأس أن يمرَّ الجنب في المسجد إذا لم يكن له طريق غيره^(١)، والله أعلم.

س: اذكر صفة الغسل من الجنابة.

ج: تتلخص صفة الغسل من الجنابة في الآتي:

يبدأ الرجل بغسل يديه ثم يغسل ذكره بشماله غسلًا جيدًا، ثم يغسل يده غسلًا جيدًا^(٢)، ثم يتوضأ كما يتوضأ للصلاة، (وإن شاء أخر غسل رجله وإن شاء غسلهما مع وضوئه)، ثم يفرغ على رأسه ثلاث حفنات من الماء (أو يصب الماء على رأسه) ويدلك رأسه حتى يصل الماء إلى أصول الشعر، ثم يصب الماء على شقه الأيمن ثم على سائر جسده، وإن لم يكن غسل رجله تنحى فغسلهما. وهذا الذي ذكرناه كله على سبيل الاستحباب، وإلا فلو أفرغ الماء على جسده دفعة واحدة فغمر جسده بالماء جاز ذلك.

وها هي بعض الأحاديث الواردة عن النبي ﷺ في ذلك:

أخرج البخاري ومسلم^(٣) من حديث أم المؤمنين ميمونة رضي الله عنها قالت: «وَضَعْتُ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ غُسْلًا وَسَتَرْتُهُ، فَصَبَّ عَلَى يَدِهِ، فَغَسَلَهَا مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ» - قَالَ: سَلِيمَانُ لَا أَذْرِي، أَذَكَرَ الثَّلَاثَةَ أَمْ لَا؟ - ثُمَّ أَفْرَغَ بِيَمِينِهِ عَلَى شِمَالِهِ، فَغَسَلَ فَرْجَهُ، ثُمَّ ذَلِكَ يَدَهُ بِالْأَرْضِ أَوْ بِالْحَاظِطِ، ثُمَّ تَمَضَّمَضَ وَاسْتَنْشَقَ، وَغَسَلَ وَجْهَهُ وَيَدَيْهِ، وَغَسَلَ رَأْسَهُ، ثُمَّ

(١) انظر «الطبري» (٨/ ٣٨٢-٣٨٣).

(٢) وإن شاء أن يغسلهما بالصابون مع الماء فعل، وإن شاء بالتراب فعل.

(٣) أخرجه البخاري (حديث ٢٦٦)، ومسلم (٣١٧).

صَبَّ عَلَى جَسَدِهِ، ثُمَّ تَنَحَّى فَغَسَلَ قَدَمَيْهِ، فَنَاولَتْهُ خِرْقَةً، فَقَالَ بِيَدِهِ هَكَذَا، وَلَمْ يُرْ ذَهًا. أخرج البخاري ومسلم^(١) من حديث عائشة رضي الله عنها، زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ: كَانَ إِذَا اغْتَسَلَ مِنَ الْجَنَابَةِ، بَدَأَ فَغَسَلَ يَدَيْهِ، ثُمَّ يَتَوَضَّأُ كَمَا يَتَوَضَّأُ لِلصَّلَاةِ، ثُمَّ يَدْخُلُ أَصَابِعُهُ فِي الْمَاءِ، فَيُخَلِّلُ بِهَا أُصُولَ شَعْرِهِ، ثُمَّ يَصُبُّ عَلَى رَأْسِهِ ثَلَاثَ غُرْفٍ بِيَدَيْهِ، ثُمَّ يُفِيضُ الْمَاءَ عَلَى جِلْدِهِ كُلِّهِ.

أما البدء باليمين، فلما أخرجه البخاري ومسلم^(٢) من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: كان النبي ﷺ يعجبه التيمن في تنعله وترجله وطهوره وفي شأنه كله.

أما إفراغ الماء على الجسد بلا وضوء فلما أخرجه البخاري من حديث عمران بن حصين رضي الله عنه قال: كُنَّا فِي سَفَرٍ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ... ثُمَّ نَزَلَ فَدَعَا بِالْوُضُوءِ، فَتَوَضَّأَ، وَنُودِيَ بِالصَّلَاةِ، فَصَلَّى بِالنَّاسِ، فَلَمَّا انْقَضَتْ مِنْ صَلَاتِهِ إِذَا هُوَ بِرَجُلٍ مُعْتَزِلٍ لَمْ يُصَلِّ مَعَ الْقَوْمِ، قَالَ: «مَا مَنَعَكَ يَا فُلَانُ أَنْ تُصَلِّيَ مَعَ الْقَوْمِ؟» قَالَ: أَصَابَتْنِي جَنَابَةٌ وَلَا مَاءَ، قَالَ: «عَلَيْكَ بِالصَّعِيدِ، فَإِنَّهُ يَكْفِيكَ»...، فذكر الحديث، وفيه: وَكَانَ آخِرُ ذَلِكَ أَنْ أُعْطِيَ الَّذِي أَصَابَتْهُ الْجَنَابَةُ إِنَاءً مِنْ مَاءٍ، قَالَ: «أَذْهَبْ فَأَفْرِغْهُ عَلَيْكَ».

س: وضع صفة غسل المرأة من الجنابة.

ج: تلخص صفة غسل المرأة من الجنابة في الآتي:

تأخذ المرأة ماء فتتوضأ فتحسن الوضوء، (وتبدأ باليمين في الوضوء) لحديث عائشة: كان رسول الله ﷺ يعجبه التيمن في ترجله وتنعله وطهوره، وفي شأنه كله، ثم تصب على رأسها ثلاث حفنات، وتدلكه حتى تبلغ به شؤون رأسها (أي: أصول شعرها) ثم تفيض الماء على جسمها مبتدئة بالشق الأيمن ثم تعقب بالشق الأيسر، ولا يلزمها مع هذا أن تنقض صفاتها.

* وليست هذه الأشياء المذكورة بواجبة بل هي مستحبة لكونها مأخوذة من جملة أحاديث لرسول الله ﷺ، فإن اقتصررت المأة في غسلها على بعض الوارد -

(١) البخاري (حديث ٢٤٨)، ومسلم (حديث ٣١٦).

(٢) البخاري (حديث ١٦٨)، ومسلم (مع النووي ١٦١/٢).

بشرط أن يعم الماء جسمها - أجزأ ذلك عنها.

* فإن أخذت بيديها ثلاث حفنات فوق رأسها ثم صبت الماء على شقها الأيمن ثم الأيسر أجزأ ذلك عنها.

* ولتجنب المرأة مس فرجها بيدها بدون حائل بعد غسلها من الجنابة.

* وإن دخلت المرأة مباشرة تحت «الدش» جاز ذلك الاغتسال، وأجزأ عنها لحديث عمران بن حصين في البخاري^(١) في قصة المزداتين وفيه: ... وكان آخر ذاك أن أعطى الذي أصابته الجنابة إناء من ماء قال: «اذهب فأفرغه عليك».

ففي قوله: «فأفرغه عليك» بدون ذكر ترتيب ولا وضوء ولا بدء باليمين ما يدل على أن ذلك يجرى عن فاعله إلا أن الأفضل والأكمل ما ذكر أولاً والله أعلم.

وذلك للأدلة الآتية:

* ما أخرجه البخاري^(٢) من حديث عائشة رضي الله عنها، قالت: «كُنَّا إِذَا أَصَابَتْ إِحْدَانَا جَنَابَةٌ، أَخَذَتْ بِيَدَيْهَا ثَلَاثًا فَوْقَ رَأْسِهَا، ثُمَّ تَأْخُذُ بِيَدِهَا عَلَى شِقِّهَا الْأَيْمَنِ، وَبِيَدِهَا الْأُخْرَى عَلَى شِقِّهَا الْأَيْسَرِ».

* وأخرج مسلم^(٣) أيضًا من حديث عائشة، أَنَّ أَسْمَاءَ سَأَلَتِ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ غُسْلِ الْمَحِيضِ؟ فَقَالَ: «تَأْخُذُ إِحْدَاكُنَّ مَاءَهَا وَتَسِدُّ رَتَّهَا، فَتَطْهَرُ فَتُحْسِنُ الطُّهُورَ، ثُمَّ تَصُبُّ عَلَى رَأْسِهَا فَتَدْلُكُهُ دَلْكًا شَدِيدًا حَتَّى تَبْلُغَ شُؤُونَ^(٤) رَأْسِهَا، ثُمَّ تَصُبُّ عَلَيْهَا الْمَاءَ، ثُمَّ تَأْخُذُ فِرْصَةً^(٥) مُمَسَّكَةً فَتَطْهَرُ بِهَا» فَقَالَتْ أَسْمَاءُ: وَكَيْفَ تَطْهَرُ بِهَا؟ فَقَالَ: «سُبْحَانَ اللَّهِ، تَطْهَرِينَ بِهَا» فَقَالَتْ عَائِشَةُ: كَأَنَّهُ تَخْفِي ذَلِكَ تَتَّبَعِينَ أَثَرِ الدَّمِ. وَسَأَلَتْهُ عَنْ غُسْلِ الْجَنَابَةِ؟ فَقَالَ: «تَأْخُذُ مَاءً فَتَطْهَرُ فَتُحْسِنُ الطُّهُورَ أَوْ تُبْلِغُ الطُّهُورَ، ثُمَّ تَصُبُّ عَلَى رَأْسِهَا فَتَدْلُكُهُ حَتَّى تَبْلُغَ شُؤُونَ رَأْسِهَا، ثُمَّ تُفِيضُ عَلَيْهَا الْمَاءَ».

(١) تقدم.

(٢) البخاري (حديث ٢٧٧).

(٣) مسلم (ص ٢٦١).

(٤) شُؤُونَ رَأْسِهَا: أي: أصول شعرها.

(٥) فرصة: أي قطعة.

فَقَالَتْ عَائِشَةُ: نَعَمْ النِّسَاءُ نِسَاءُ الْأَنْصَارِ لَمْ يَكُنْ يَمْنَعُهُنَّ الْحَيَاءُ أَنْ يَتَفَقَّهْنَ فِي الدِّينِ.

|

س: هل يجب على المرأة نقض ضفائرها عند غسلها من الجنابة؟

ج: لا يجب ذلك على المرأة، وذلك لما أخرجه مسلم^(١) من حديث أم سلمة رضي الله عنها، قَالَتْ: قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي امْرَأَةٌ أَشَدُّ ضَفْرَ رَأْسِي فَأَنْقُضُهُ لِغُسْلِ الْجَنَابَةِ؟ قَالَ: «لَا. إِنَّمَا يَكْفِيكَ أَنْ تَحْثِي عَلَى رَأْسِكَ ثَلَاثَ حَثَيَاتٍ ثُمَّ تُفِيضِينَ عَلَيْكَ الْمَاءَ فَتَطْهُرِينَ».

* وأخرج أبو داود^(٢) من حديث عائشة رضي الله عنها قَالَتْ: «كُنَّا نَغْتَسِلُ وَعَلَيْنَا الضَّمَادُ^(٣)، وَنَحْنُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم مُحَلَّاتٌ وَمُحَرِّمَاتٌ».

* وفي «صحيح مسلم»^(٤) من طريق عُبَيْدِ بْنِ عُمَيْرٍ، قَالَ: بَلَغَ عَائِشَةُ، أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ ابْنَ عَمْرٍو يَأْمُرُ النِّسَاءَ - إِذَا اغْتَسَلْنَ - أَنْ يَنْقُضْنَ رُءُوسَهُنَّ. فَقَالَتْ: يَا عَجَبًا لِابْنِ عَمْرٍو هَذَا يَأْمُرُ النِّسَاءَ إِذَا اغْتَسَلْنَ أَنْ يَنْقُضْنَ رُءُوسَهُنَّ. أَفَلَا يَأْمُرُهُنَّ أَنْ يَحْلِقْنَ رُءُوسَهُنَّ؟! «لَقَدْ كُنْتُ أَغْتَسِلُ أَنَا وَرَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم مِنْ إِنَاءٍ وَاحِدٍ. وَلَا أَزِيدُ عَلَى أَنْ أَفْرَغَ عَلَى رَأْسِي ثَلَاثَ إِفْرَاغَاتٍ».

|

س: ما المراد باللمس في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَمْسُ السَّامِيَةَ﴾؟ وهل مس المرأة ينقض الوضوء؟

ج: أما المراد باللمس في هذا الموطن فلاهل العلم فيه قولان:

أحدهما: قول ابن عباس رضي الله عنهما، ومعه فريق من أهل العلم أن المراد باللمس هنا الجماع.

الثاني: قول ابن مسعود رضي الله عنه، ومعه فريق من أهل العلم أن المراد باللمس هنا

(١) مسلم (ص ٢٥٩).

(٢) أبو داود (حديث ٢٥٤)، وإسناده صحيح.

(٣) المراد بالضماد هنا ما يُلطخ به الشعر مما يلبده ويُسكنه من طيب وغيره.

(٤) مسلم (حديث ٢٣١ ص ٢٦٠).

الجماع وما دونه.

أما قول ابن عباس رضي الله عنهما وهو أن المراد باللمس الجماع: فقد ورد عنه من عدة طرق ثابتة وصحيحة منها ما أخرجه الطبري ^(١) بإسنادٍ صحيح عن سعيد بن جبيرة قال: ذكروا اللمس، فقال ناس من الموالي: ليس بالجماع. وقال ناس من العرب: اللمس الجماع. قال: فأتيت ابن عباس فقلت: إن ناساً من الموالي والعرب اختلفوا في «اللمس»، فقالت الموالي: ليس بالجماع، وقالت العرب: الجماع. قال: من أيّ الفريقين كنت؟ قلت: كنت من الموالي. قال: غلب فريق الموالي، إن «اللمس» و«اللمس»، و«المباشرة»، الجماع، ولكن الله يكتفي بما شاء بما شاء. وأخرج الطبري ^(٢) بإسنادٍ صحيح أيضاً عن ابن عباس أنه قال: ﴿﴾ قال: هو الجماع ^(٣).

وعزا ابن كثير هذا القول إلى علي وأبي بن كعب ومجاهد وطاوس والحسن وعبيد بن عمير وسعيد بن جبيرة والشعبي وقتادة ومقاتل بن حيان، قلت: وبعض الآثار عنهم أخرجهما الطبري في «تفسيره»، واختار الطبري رحمته الله أن المراد بقوله تعالى: ﴿﴾ الجماع دون غيره من معاني اللمس.

*** أما قول ابن مسعود، وهو أن المراد باللمس ما دون الجماع أيضاً كالقبلة ونحوها،** فقد أخرج الطبري بإسنادٍ صحيح عن عبد الله (ابن مسعود) أنه قال شيئاً هذا معناه: الملامسة: ما دون الجماع ^(٤).

وأورد الطبري جملة طرق عن ابن مسعود رضي الله عنه تفيد أن اللمس ما دون الجماع وأن القبلة من المس.

وكذلك أورد بإسنادٍ صحيح ^(٥) عن ابن عمر رضي الله عنهما: أنه كان يتوضأ من قبلة المرأة

(١) الطبري أثر (٩٥٨١).

(٢) الطبري (٩٥٨٣).

(٣) واستدل القائلون بأن المس يطلق على الجماع خاصة: إذا جاء في القرآن الكريم مقروناً بالنساء.

(٤) هذا لفظه عند الطبري (٩٦٠٦).

(٥) الطبري (٩٦١٧).

ويرى فيها الوضوء، ويقول: هي من اللمس.

وعزا ابن كثير هذا القول في التفسير إلى أبي عثمان النهدي وأبي عبيدة يعني: ابن عبد الله بن مسعود، وعامر الشعبي (أيضاً) وثابت بن الحجاج، وإبراهيم النخعي، وزيد بن أسلم^(١).

قُلْتُ (مصطفى): ولما كان المس واللمس في اللغة يأتي عامًّا ويراد به الجماع وغيره، كما قال تعالى: ﴿[الأنعام: ٧]، وكما قالت عائشة: «والله ما مست يد رسول الله ﷺ يد امرأة قط».

ولما كان المس واللمس إذا جاء في القرآن مقيداً بالنساء كان المراد به النكاح (على ما سيأتي بيانه)؛ لذلك لم نستطع حسم المسألة بالآية الكريمة فقط فكان لا بد من الاتجاه إلى سنة رسول الله ﷺ لحسم هذا النزاع، فالنظر إلى سنة رسول الله ﷺ لم نجد دليلاً صحيحاً ملزماً لمن مس امرأة (فيما دون الجماع) أن يتوضأ بل وجدنا الأمر على العكس من ذلك^(٢).

*** ونذكر هنا قول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ فِي هَذَا الباب قَالَ رَحِمَهُ اللهُ (مجموع**

الفتاوى):

وَنَذْكُرُ هَذَا عَلَى قَوْلِهِ: {أَوْ لَا مَسْتُمُ النِّسَاءِ} .

المراد به: الجماع. كما قاله ابن عباس رضي الله عنهما وغيره من العرب. وهو يروى عن علي رضي الله عنه وغيره. وهو الصحيح في معنى الآية. وليس في نقض الوضوء من مس النساء لا كتاب ولا سنة. وقد كان المسلمون دائماً يمسون نساءهم. وما نقل مسلم واحد عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه أمر أحداً بالوضوء من مس النساء. وقول من قال: إنه أراد ما دون الجماع وإنه ينقض الوضوء. فقد روي عن ابن عمر والحسن باليد " وهو قول جماعة من السلف في المس بشهوة والوضوء منه حسن مستحب لإطفاء الشهوة كما يستحب الوضوء من الغضب لإطفائه. وأما

(١) وأخرج الطبري بعض الآثار عن المذكورين، وانظر أيضاً - لمزيد من الوقوف على الآثار «مصنف ابن أبي شيبة» (١/٤٤-٤٦)، (١/١٦٦)، و«مصنف عبد الرزاق» (١/١٣٢-١٣٦).

(٢) وهذا مأخوذ من كتابنا «جامع أحكام النساء» فارجع إليه إن شئت.

وَجُوبُهُ: فَلَا. وَأَمَّا الْمَسُّ الْمُجَرَّدُ عَنِ الشَّهْوَةِ: فَمَا أَعْلَمُ لِلنَّقْضِ بِهِ أَصْلًا عَنِ السَّلَفِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى {أَوْ لَا مَسْتُمْ النَّسَاءُ} لَمْ يَذْكُرْ فِي الْقُرْآنِ الْوُضُوءَ

مِنْهُ بَلْ إِنَّمَا ذَكَرَ التَّيَمُّمَ بَعْدَ أَنْ أَمَرَ الْمُحْدِثَ الْقَائِمَ لِلصَّلَاةِ: بِالْوُضُوءِ. وَأَمَرَ الْجُنُبَ بِالْإِغْتِسَالِ فَذَكَرَ الطَّهَارَةَ بِالصَّعِيدِ الطَّيِّبِ وَلَا بُدَّ أَنْ يُبَيِّنَ النَّوْعَيْنِ. وَقَوْلُهُ: {أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ} بَيَانٌ لِتَيَمُّمِ هَذَا. وَقَوْلُهُ: {أَوْ لَا مَسْتُمْ النَّسَاءُ} لَمْ يَذْكُرْ وَاحِدًا مِنْهُمَا لِبَيَانِ طَهَارَةِ الْمَاءِ. إِذَا كَانَ قَدْ عُرِفَ أَصْلُ هَذَا. فَقَوْلُهُ {إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا} وَقَوْلُهُ: {وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا} فَالْآيَةُ لَيْسَ فِيهَا إِلَّا أَنَّ اللَّامِسَ إِذَا لَمْ يَجِدِ الْمَاءَ يَتَيَمَّمُ. فَكَيْفَ يَكُونُ هَذَا مِنَ الْحَدَثِ الْأَصْغَرِ؟ يَأْمُرُ مَنْ مَسَّ الْمَرْأَةَ أَنْ يَتَيَمَّمَهُ وَهُوَ لَمْ يَأْمُرْهُ أَنْ يَتَوَضَّأَ. فَكَيْفَ يَأْمُرُ بِالتَّيَمُّمِ مَنْ لَمْ يَأْمُرْهُ بِالْوُضُوءِ؟ وَهُوَ إِنَّمَا أَمَرَ بِالتَّيَمُّمِ مِنْ أَمْرِهِ بِالْوُضُوءِ وَالْإِغْتِسَالِ. وَنَظِيرُ هَذَا يَطُولُ. وَمَنْ تَدَبَّرَ الْآيَةَ قَطَعَ بِأَنَّ هَذَا هُوَ الْمُرَادُ) انتهى كلام شيخ الإسلام.

قُلْتُ: فعليه يتقرر لدينا أن من مس امرأة (فيما دون الجماع) لا يلزمه الوضوء وكذلك لا يلزمها هي أيضًا أن تتوضأ.

مما يدل على ما ذكرنا من أن مس المرأة (بما دون الجماع) لا ينقض الوضوء ما أخرجه مسلم ^(١) في «صحيحه» من حديث عائشة رضي الله عنها، قَالَتْ: فَقَدْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَيْلَةً مِنَ الْفَرَاشِ فَالْتَمَسْتُهُ فَوَقَعَتْ يَدِي عَلَى بَطْنِ قَدَمَيْهِ وَهُوَ فِي الْمَسْجِدِ وَهُمَا مَنْصُوبَتَانِ وَهُوَ يَقُولُ: «اللَّهُمَّ أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ، وَبِمُعَافَاتِكَ مِنْ عُقُوبَتِكَ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْكَ لَا أَحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ».

وفي «الصحيحين» ^(٢) من حديث عائشة زوج النبي ﷺ، أَنَّهَا قَالَتْ: كُنْتُ أَنَامُ بَيْنَ يَدَيِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَرِجْلَايَ فِي قِبْلَتِهِ، فَإِذَا سَجَدَ غَمَزَنِي، فَقَبَضْتُ رِجْلِي، فَإِذَا قَامَ بَسَطَتْهُمَا، قَالَتْ: وَالْبَيُوتُ يَوْمَئِذٍ لَيْسَ فِيهَا مَصَابِيحُ.

تنبيه: استدل بعض أهل العلم على أن مس المرأة لا ينقض الوضوء بحديث عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ كان يقبل بعض نساءه ثم يخرج إلى الصلاة ولا يتوضأ،

(١) مسلم (مع النووي ص ١٢٣).

(٢) البخاري (مع «الفتح» ١/ ٤٩١)، ومسلم (ص ٣٦٧).

وبالنسبة لهذا الحديث فقد ضعفه أهل العلم المتقدمون، وقد أوردت كلام أهل العلم عليه في كتابنا «جامع أحكام النساء»^(١).

فحاصل القول - والله تبارك وتعالى أعلم - أن الاستدلال بالآية على وجوب الوضوء من مس المرأة (فيما دون الجماع) في غير موضعه، إ أن المس (وهو في الحقيقة أعم من الجماع) إذا جاء في القرآن مقترناً بالنساء فالمراد به الجماع، ولم يرد لنا حديث صحيح صريح، ولا صحيح غير صريح يوجب على من مس امرأته الوضوء، ولا على المرأة أن تتوضأ إذا مسها زوجها، أما دعوى أن الآية ناسخة للأحاديث فليست مقبولة لما بيناه بشأن النسخ.

فالحاصل أن مس المرأة (غير الجماع) لا يوجب الوضوء كما قال أبو حنيفة رَحِمَهُ اللهُ ومن معه.

تنبيه آخر: القائلون بنقض الوضوء من مس المرأة اختلفوا في المرأة نفسها هل ينقض وضوؤها أم لا (انظر «المغني» لابن قدامة ١/ ١٩٥-١٩٦) قال:

... وَوَجْهُ عَدَمِ النَّقْضِ أَنَّ النَّصَّ إِنَّمَا وَرَدَ بِالنَّقْضِ بِمَلَامَسَةِ النِّسَاءِ، فَيَتَنَاوَلُ اللَّامِسُ مِنَ الرِّجَالِ، فَيَخْتَصُّ بِهِ النَّقْضُ، كَلَمَسِ الْفَرْجَ؛ وَلِأَنَّ الْمَرْأَةَ وَالْمَلْمُوسَ لَا نَصَّ فِيهِ، وَلَا هُوَ فِي مَعْنَى الْمَنْصُوصِ؛ لِأَنَّ اللَّامِسَ مِنَ الرَّجُلِ مَعَ الشَّهْوَةِ مَظَنَّةٌ لِيُخْرَجَ الْمَذِي النَّاقِضُ، فَأُقِيمَ مَقَامُهُ، وَلَا يُوجَدُ ذَلِكَ فِي حَقِّ الْمَرْأَةِ، وَالشَّهْوَةُ مِنَ اللَّامِسِ أَشَدُّ مِنْهَا فِي الْمَلْمُوسِ، وَأَدْعَى إِلَى الْخُرُوجِ، فَلَا يَصِحُّ الْقِيَاسُ عَلَيْهِمَا، وَإِذَا امْتَنَعَ النَّصُّ وَالْقِيَاسُ لَمْ يَثْبُتِ الدَّلِيلُ.

كذا قال رَحِمَهُ اللهُ ولنا بعض التحفظ على هذا القول، وإنما أوردناه فقط لبيان عدم اتحاد قول من استدل بقوله تعالى: ﴿﴾ على القول بنقض وضوء المرأة.

س: من المعنيون بالمرضى في قوله تعالى: ﴿﴾؟

ج: هم المصابون بمرض لا يستطيعون معه الوضوء، أو الغسل من الجنابة

(١) وانظر أيضاً «سنن الدارقطني» (١/ ١٣٥-١٤٢).

فيدخل فيهم الجريح والمكسور والمجدور (الذي به مرض الجدري) ونحو هؤلاء ممن يضرهم الماء إذا استعملوه، وكذلك يدخل فيهم المريض الذي لا يجد أحدًا يأتيه بالماء.

أخرج الطبري بإسنادٍ صحيح عن ابن زيد^(١) أنه قال في تأويل قوله تعالى: {وإن كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء فلم تجدوا ماءً فتيمموا} [النساء: ٤٣] قال: "المريض الذي لا يجد أحدًا يأتيه بالماء ولا يقدر عليه، وليس له خادم، ولا عون، فإذا لم يستطع أن يتناول الماء وليس عنده من يأتيه به، ولا يحبو إليه، تيمم وصلى إذا حلت الصلاة. قال: هذا كله قول أبي: إذا كان لا يستطيع أن يتناول الماء وليس عنده من يأتيه به لا يترك الصلاة، وهو أعذر من المسافر.

قال الطبري رحمه الله:

فتأويل الآية إذا: وإن كنتم جرحى أو بكم قروح، أو كسر، أو علة لا تقدرון معها على الاغتسال من الجنابة، وأنتم مقيمون غير مسافرين، فتيمموا صعيداً طيباً.

بعض المباحث في التيمم

س: اذكر سبب نزول آية التيمم؟

ج: سبب نزول آية التيمم ما أخرجه البخاري ومسلم^(٢) من حديث عائشة رضي الله عنها، قالت: خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي بَعْضِ أَسْفَارِهِ، حَتَّى إِذَا كُنَّا بِالْبَيْدَاءِ - أَوْ بِذَاتِ الْجَيْشِ - انْقَطَعَ عَقْدُ لِي، فَأَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى التِّمَاسِهِ، وَأَقَامَ النَّاسُ مَعَهُ وَلَيَسُوا عَلَى مَاءٍ، فَأَتَى النَّاسُ إِلَى أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ، فَقَالُوا: أَلَا تَرَى مَا صَنَعَتْ عَائِشَةُ؟ أَقَامَتْ بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالنَّاسُ وَلَيَسُوا عَلَى مَاءٍ، وَلَيَسَ مَعَهُمْ مَاءٌ، فَجَاءَ أَبُو بَكْرٍ وَرَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَاضِعٌ رَأْسَهُ عَلَى فَخِذِي قَدْ نَامَ، فَقَالَ: حَبَسَتْ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

(١) الطبري (٩٥٧٩).

(٢) البخاري (حديث ٣٣٤)، ومسلم (مع النووي ٥٨ / ٤).

وَالنَّاسَ، وَلَيْسُوا عَلَى مَاءٍ، وَلَيْسَ مَعَهُمْ مَاءٌ.

فَقَالَتْ عَائِشَةُ: فَعَاتَبَنِي أَبُو بَكْرٍ، وَقَالَ: مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَقُولَ وَجَعَلَ يَطْعُنُنِي بِيَدِهِ فِي خَاصِرَتِي، فَلَا يَمْنَعُنِي مِنَ التَّحَرُّكِ إِلَّا مَكَانُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى فَخْذِي، «فَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ أَصْبَحَ عَلَى غَيْرِ مَاءٍ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ آيَةَ التَّيْمُمِ فَتَيَمَّمُوا».

فَقَالَ أُسَيْدُ بْنُ الْحَضِرِ: مَا هِيَ بِأَوَّلِ بَرَكَتِكُمْ يَا آلَ أَبِي بَكْرٍ، قَالَتْ: فَبَعَثْنَا الْبَعِيرَ الَّذِي كُنْتُ عَلَيْهِ، فَأَصَبْنَا الْعِقْدَ تَحْتَهُ.

* لكن يبقى النظر في المراد بآية التيمم هل هي آية النساء، أم آية المائدة؟

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى^(١):

قوله: فَأَنْزَلَ اللَّهُ آيَةَ التَّيْمُمِ، قال ابن العربي: هذه معضلة ما وجدت لدائها من دواء، لأننا لا نعلم أي الآيتين عنت عائشة، قال ابن بطال: هي آية النساء أو آية المائدة، وقال القرطبي: هي آية النساء، ووجهه بأن آية المائدة تسمى آية الوضوء وآية النساء لا ذكر فيها للوضوء فيتجه تخصيصها بآية التيمم، وأورد الواحد في أسباب النزول هذا الحديث عند ذكر آية النساء أيضًا، وخفي على الجميع ما ظهر للبخاري من أن المراد بها آية المائدة بغير تردد لرواية عمرو بن الحارث إذ صرح فيها بقوله: فنزلت: {يا أيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة} الآية.

قلت: رواية عمرو بن الحارث التي أشار إليها الحافظ هي عند البخاري^(٢) وفيها: فنزلت: ﴿فَدَلَّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّهَا آيَةُ الْمَائِدَةِ، اللَّهُمَّ إِذَا خَشِيَ أَنْ تَكُونَ مِنْ تَصَرُّفِ بَعْضِ الرُّوَاةِ بِنَاءً عَلَى فَهْمِهِ فَتَنْزِلَ آيَةَ التَّيْمُمِ، وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ.

س: إلى أين يبلغ الشخص بالتيمم في اليدين؟

ج: الراجح لدي في هذا الباب، والله أعلم، أن التيمم يكون للوجه والكفين فقط، وذلك لما أخرجه البخاري من حديث عمار بن ياسر رضي الله عنه أنه قال: تمعكت فأتيت

(١) «فتح الباري» (١/٥١٧).

(٢) البخاري (حديث ٤٦٠٨).

النبي ﷺ فقال: «يكفيك الوجه والكفان»^(١).

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله:

ويستفاد من هذا اللفظ أن ما زاد على الكفين ليس بفرض^(٢) كما تقدم وإليه ذهب أحمد وإسحاق وابن جرير وابن المنذر وابن خزيمة...

قلتُ: أما النووي رحمه الله تعالى فذهب في «شرح مسلم» إلى أن الذي يمسح من اليدين إنما هو المرفقين، فقال رحمه الله: وقد أوجب الله تعالى غسل اليدين إلى المرفقين في الوضوء، ثم قال تعالى في التيمم: ﴿...﴾، والظاهر أن اليد المطلقة هنا هي المقيدة في الوضوء في أول الآية فلا يترك هذا الظاهر إلا بدليل، والله أعلم.

قلتُ: والأظهر عندي ما ورد في حديث عمار ففيه (يكفيك الوجه والكفان) وقد ورد في بعض الأحاديث (فمسح بوجهه وذراعيه) لكنها روايات ضعيفة، وقد أشار إلى ضعفها الحافظ في «الفتح»^(٣).

|

س: كم ضربة تجزئ في التيمم؟

ج: ذهب أكثر علماء الحديث إلى أن التيمم الواجب ضربة واحدة للوجه والكفين، فقال النووي رحمه الله: وذهبت طائفة إلى أن الواجب ضربة واحدة للوجه والكفين، وهو مذهب عطاء ومكحول والأوزاعي وأحمد وإسحاق وابن المنذر وعامة أصحاب الحديث.

قلت (مصطفى): وله بؤب البخاري بباب «التيمم ضربة واحدة»، وأورد حديثاً من طريق شقيق^(٤) قال: كُنْتُ جَالِسًا مَعَ عَبْدِ اللَّهِ وَأَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ، فَقَالَ لَهُ أَبُو مُوسَى: لَوْ أَنَّ رَجُلًا أَجْنَبَ فَلَمْ يَجِدِ الْمَاءَ شَهْرًا، أَمَا كَانَ يَتَيْمَّمُ وَيُصَلِّي، فَكَيْفَ تَصْنَعُونَ بِهَذِهِ الْآيَةِ فِي سُورَةِ الْمَائِدَةِ: { فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا } **النساء:**

(١) البخاري (حديث ٣٤١).

(٢) «فتح الباري» (١/ ٥٣١).

(٣) «فتح الباري» (١/ ٥٢٧).

(٤) أخرجه البخاري (حديث ٣٤٧)، ومسلم (مع النووي ٤/ ٦٠-٦١).

٤٣ | فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ: لَوْ رُخِّصَ لَهُمْ فِي هَذَا لَأَوْشَكُوا إِذَا بَرَدَ عَلَيْهِمُ الْمَاءُ أَنْ يَتِيمَمُوا الصَّعِيدَ. قُلْتُ: وَإِنَّمَا كَرِهْتُمْ هَذَا لِيَذَا؟ قَالَ: نَعَمْ، فَقَالَ أَبُو مُوسَى: أَلَمْ تَسْمَعْ قَوْلَ عَمَّارٍ لِعُمَرَ: بَعَثَنِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي حَاجَةٍ، فَأَجْنَبْتُ فَلَمْ أَجِدِ الْمَاءَ، فَتَمَرَّغْتُ فِي الصَّعِيدِ كَمَا تَمَرَّغُ الدَّابَّةُ، فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: «إِنَّمَا كَانَ يَكْفِيكَ أَنْ تَضَنَعَ هَكَذَا»، فَضَرَبَ بِكَفِّهِ ضَرْبَةً عَلَى الْأَرْضِ، ثُمَّ نَفَضَهَا، ثُمَّ مَسَحَ بِهِمَا ظَهَرَ كَفِّهِ بِشِمَالِهِ أَوْ ظَهَرَ شِمَالِهِ بِكَفِّهِ، ثُمَّ مَسَحَ بِهِمَا وَجْهَهُ» فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ: أَفَلَمْ تَرَ عُمَرَ لَمْ يَقْنَعْ بِقَوْلِ عَمَّارٍ؟.

وزاد يعلى عن الأعمش عن شقيق: كنت مع عبد الله وأبي موسى، فقال أبو موسى: أَلَمْ تسمع قول عَمَّارٍ لعمر إن رسول الله ﷺ بعثني أنا وأنت فأجنبت فتممعت بالصعيد فأتينا رسول الله ﷺ فأخبرناه فقال: «إنما كان يكفيك هكذا» ومسح وجهه وكفيه واحدة؟

وقال الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى في شرح هذا الحديث:

وفيه الاكتفاء بضربة واحدة في التيمم، ونقله ابن المنذر عن جمهور العلماء واختاره.

* أمَّا النووي رحمه الله تعالى فقال: فمذهبنا ومذهب الأكثرين أنه لا بد من ضربتين، ضربة للوجه وضربة لليدين، قال: وممن قال بهذا من العلماء علي بن أبي طالب، وعبد الله بن عمر، والحسن البصري، والشعبي، وسالم بن عبد الله بن عمر، وسفيان الثوري، ومالك، وأبو حنيفة، وأصحاب الرأي، وآخرون رضي الله عنهم أجمعين ^(١).

* وأجاب النووي رحمه الله تعالى على حديث عمار بقوله:

فيه دلالة لمذهب من يقول: يكفي ضربة واحدة للوجه والكفين جميعاً، وللآخرين أن يجيبوا بأن المراد هنا صورة الضرب للتعليم، وليس المراد بيان جميع ما يحصل به التيمم.

(١) فيتخلص في ذلك أن رأي الأئمة الثلاثة مالك وأبي حنيفة والشافعي أن التيمم ضربتان، أما رأي الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه فهو أن التيمم ضربة واحدة، نقله عنه القرطبي وغيره.

س: هل يُنفخ في اليدين عند التيمم لإزالة شيء من الغبار؟

ج: الظاهر من سنة رسول الله ﷺ أنه ينفخ فيهما.

ففي «الصحيحين»^(١) من حديث عمار رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: فضرب النبي ﷺ بكفيه الأرض ونفخ فيهما ثم مسح بهما وجهه وكفيه.

وفي رواية في «الصحيح» كذلك أن النبي ﷺ قال: «إِنَّمَا كَانَ يَكْفِيكَ أَنْ تَضْرِبَ بِيَدَيْكَ الْأَرْضَ، ثُمَّ تَنْفُخَ، ثُمَّ تَمْسَحَ بِهِمَا وَجْهَكَ، وَكَفَّيْكَ»^(٢) إلا أن بعض العلماء يرى أن المراد بالنفخ هنا تخفيف الغبار الكثير، فإنه يستحب إذا حصل على اليد غبارٌ كثير أن يُخفف بحيث يبقى ما يعم العضو، نقله عنهم النووي رحمه الله تعالى.

|

س: هل يُنفخ في اليدين عند التيمم لإزالة شيء من الغبار؟

ج: الظاهر من سنة رسول الله ﷺ أنه ينفخ فيهما.

قُلْتُ: وقد علق البخاري الترجمة لهذا الحديث فقال: المتيمم هل ينفخ فيهما؟

وقال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ في شرح التبويب: وإنما ترجم بلفظ الاستفهام لينبه على أن فيه احتمالاً كعادته؛ لأن النفخ يحتمل أن يكون لشيء علق بيده خشي أن يصيب وجهه الكريم، أو علق بيده من التراب شيء له كثرة فأراد تخفيفه؛ لئلا يبقى له أثر في وجهه، ويحتمل أن يكون لبيان التشريع.

قُلْتُ (مصطفى): ومما يقوي وجهة من قال: إنه لبيان التشريع، قول النبي ﷺ: «إِنَّمَا كَانَ يَكْفِيكَ أَنْ تَضْرِبَ بِيَدَيْكَ الْأَرْضَ، ثُمَّ تَنْفُخَ فِيهِمَا». والله أعلم.

|

س: هل يجوز التيمم على الجدار؟

ج: نعم يجوز؛ وذلك لما أخرجه البخاري^(٣) من حديث أبي الجهم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال:

«أَقْبَلَ النَّبِيُّ ﷺ مِنْ نَحْوِ بئرِ جَمَلٍ فَلَقِيَهُ رَجُلٌ فَسَلَّمَ عَلَيْهِ فَلَمْ يَرُدَّ عَلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ حَتَّى

(١) البخاري (٣٣٨)، ومسلم (مع النووي ٤ / ٦١).

(٢) هي في بعض طرق الحديث المتقدم، وانظر «مسلم مع النووي» (٤ / ٦٢).

(٣) البخاري (حديث ٣٣٧).

أَقْبَلَ عَلَى الْجِدَارِ، فَمَسَحَ بِوَجْهِهِ وَيَدَيْهِ، ثُمَّ رَدَّ عَلَيْهِ السَّلَامَ.

س: هل هناك أشياء أجمع العلماء على جواز التيمم بها، وأشياء أجمعوا على عدم جواز التيمم بها؟

ج: نعم هناك أشياء أجمعوا على جواز التيمم بها وأخرى أجمعوا على عدم جواز التيمم بها.

قال القرطبي رَحِمَهُ اللهُ:

اعْلَمْ أَنَّ مَكَانَ الْإِجْمَاعِ مِمَّا ذَكَرْنَاهُ أَنْ يَتَيَّمَّ الرَّجُلُ عَلَى تُرَابٍ مُنْبِتٍ طَاهِرٍ غَيْرِ مَنْقُولٍ وَلَا مَعْصُوبٍ. وَمَكَانُ الْإِجْمَاعِ فِي الْمَنْعِ أَنْ يَتَيَّمَّ الرَّجُلُ عَلَى الذَّهَبِ الصَّرْفِ وَالْفِضَّةِ وَالْيَاقُوتِ وَالزُّمُرُودِ وَالْأَطْعِمَةِ كَالْخُبْزِ وَاللَّحْمِ وَغَيْرِهِمَا، أَوْ عَلَى النَّجَاسَاتِ.

س: هل يلزم أن يكون السفر طويلاً كي يتيمم الشخص إذا لم يجد الماء؟

ج: لا يلزم أن يكون السفر طويلاً، إذ الآية الكريمة مطلقة غير مقيدة بسفر طويل ولا قصير.

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ: والسفر معروف ولا فرق بين الطويل والقصير.

س: ما حد المرض الذي يباح لمن حلَّ به أن يتيمم؟

ج: هو ما خشي معه التلف والهلاك، أو حدوث علةٍ وزيادة ضررٍ بالاغتسال أو الوضوء، أو خشي تأخر البرء منه.

س: أجمع العلماء على جواز التيمم عن الحدث الأصغر فهل يجوز التيمم عن الحدث الأكبر؟ بمعنى هل يجوز للجنب أن يتيمم، وهل يجوز ذلك للحائض والنفساء؟

ج: نعم يجوز للجنب والحائض والنفساء أيضاً أن يتيمموا، وذلك لعموم قول

الله تعالى: ﴿﴾ ولما تقدم من حديث عمار رضي الله عنه، وعلى هذا أكثر أهل العلم ^(١).
ومما يشهد لتيمم الجنب أيضًا إذا لم يجد الماء حديث عمران بن حصين رضي الله عنه
الذي أخرجه البخاري ^(٢) وغيره، ففيه ... وَتُودِي بِالصَّلَاةِ، فَصَلَّى بِالنَّاسِ، فَلَمَّا انْفَتَلَ
مِنْ صَلَاتِهِ إِذَا هُوَ بِرَجُلٍ مُعْتَزِلٍ لَمْ يُصَلِّ مَعَ الْقَوْمِ، قَالَ: «مَا مَنَعَكَ يَا فُلَانُ أَنْ تُصَلِّيَ مَعَ
الْقَوْمِ؟» قَالَ: أَصَابَتْنِي جَنَابَةٌ وَلَا مَاءَ، قَالَ: «عَلَيْكَ بِالصَّعِيدِ، فَإِنَّهُ يَكْفِيكَ».

س: من لم يجد الماء فتيمم لجنابة أو لحدث أصغر ثم وجد الماء بعد ذلك، هل
يجب عليه الغسل للجنابة أو الوضوء للحدث الأصغر أم أن التيمم يرفع الجنابة
والحدث؟

ج: نعم يجب عليه أن يغتسل من الجنابة إذا كان جنبًا ثم وجد الماء، أو يتوضأ إذا
كان به حدث أصغر.
قال القرطبي رحمه الله تعالى: وأجمع العلماء ^(٣) على أن التيمم لا يرفع الجنابة
ولا الحدث وأن المتيمم بهما إذا وجد الماء عاد جنبًا كما كان أو مُحدثًا.

س: من تيمم ثم وجد الماء قبل الدخول في الصلاة هل يلزمه الوضوء؟
ج: نعم يجب عليه الوضوء.

قال القرطبي رحمه الله تعالى: وَأَجْمَعُوا عَلَى أَنَّ مَنْ تَيَمَّمَ ثُمَّ وَجَدَ الْمَاءَ قَبْلَ
الدُّخُولِ فِي الصَّلَاةِ بَطَلَ تَيَمُّمُهُ، وَعَلَيْهِ اسْتِعْمَالُ الْمَاءِ، وكذلك نقل الإجماع النووي
رحمه الله تعالى في «شرح مسلم»، واستثنى من ذلك أبو سلمة بن عبد الرحمن رحمه
الله تعالى فقد قال بقول آخر، والصواب ما عليه إجماع الأمة، والله أعلم.

(١) ولمزيد انظر: «النووي في شرح مسلم».

(٢) أخرجه البخاري (حديث ٣٤٤).

(٣) ونقل القرطبي بعد ذلك استثناءات لا يلتفت إليها.

س: من تيمم وصلى وفرغ من صلاته، وكان قد اجتهد في طلب الماء ولم يجده، ثم وجده بعد أن صلى هل تلزمه الإعادة؟

ج: لا تلزمه الإعادة، قال بذلك جمهور العلماء كما نقله عنهم القرطبي رحمته الله.

س: هل يجوز للرجل أن يجمع امرأته التي انتهت حيضتها ورأت الطهر - ولكنها لم تجد ماءً للاغتسال - إذا تيممت؟

ج: نعم يجوز له جماعها إذا تيممت لكونها لم تجد الماء.

س: يجوز التيمم في السفر بالإجماع، فهل يجوز التيمم في الحضر؟

ج: نعم يجوز التيمم في الحضر إذا لم يجد الماء وخاف فوات الصلاة، وذلك لعموم قوله تعالى: ﴿وَلَقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: «الصَّعِيدُ الطَّيِّبُ طَهُورُ الْمُسْلِمِ، وَإِنْ لَمْ يَجِدِ الْمَاءَ عَشْرَ سِنِينَ».

ولحديث أبي الجهم الأنصاري، وقد تقدم، وفيه: أَقْبَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، مِنْ نَحْوِ بَيْتٍ جَمَلَ فَلَقِيَهُ رَجُلٌ، فَسَلَّمَ عَلَيْهِ، فَلَمْ يَرُدَّ عَلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ، حَتَّى أَقْبَلَ عَلَى الْجِدَارِ فَمَسَحَ بِوَجْهِهِ وَيَدَيْهِ، ثُمَّ رَدَّ عَلَيْهِ السَّلَامَ ^(١).

س: في قوله تعالى: ﴿مَقْدَرٌ مَحْذُوفٌ مَا هُوَ؟

ج: هذا المقدر المحذوف هو (من) أي: فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه، وقد دلَّت على هذا آية المائدة، والله أعلم.

س: هل يجوز الوضوء بالماء المتغير بشيء من الطاهرات؟

ج: نعم يجوز ذلك، والله أعلم، فما دام لم يخرج عن مسمى الماء جاز الوضوء به، ولا يسوغ التيمم في وجوده.

(١) أخرجه البخاري (حديث ٣٣٧).

قال السعدي رحمه الله في تفسيره «تيسير الكريم المنان»:

واستدل الفقهاء بقوله: {فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً} بوجوب طلب الماء عند دخول الوقت، قالوا: لأنه لا يقال: "لم يجد" لمن لم يطلب، بل لا يكون ذلك إلا بعد الطلب، واستدل بذلك أيضا على أن الماء المتغير بشيء من الطاهرات يجوز بل يتعين التطهر به لدخوله في قوله: {فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً} وهذا ماء. ونوزع في ذلك أنه ماء غير مطلق وفي ذلك نظر.

س: إذا خاف الجنب على نفسه المرض أو الموت أو خاف العطش إذا اغتسل بالماء، فهل له أن يتيمم؟

ج: نعم له أن يتيمم، لقوله تعالى: ﴿...﴾.

س: ماذا يصنع فاقد الطهورين (الماء والتراب) هل يصلي أو لا يصلي؟ وهل تجب عليه الإعادة أم لا تجب؟

ج: فاقد الطهورين يصلي ولا تجب عليه الإعادة وإن كان في هذا عدة أقوال لأهل العلم أصحابها ما ذكرناه.

قال النووي في «شرح مسلم»: وهو أقوى الأقوال دليلاً.

قُلْتُ: وعضده النووي بحديث عائشة رضي الله عنها الذي أخرجه البخاري ومسلم ^(١) ففيه عن عائشة أنها استعارت من أسماء قِلادةً فهلكت، فبعث رسول الله ﷺ رجلاً فوجدها، فأدركتهم الصلاة وليس معهم ماء، فصلُّوا، فشكوا ذلك إلى رسول الله ﷺ، فأنزل الله آية التيمم، فقال أُسَيْدُ بْنُ حُضَيْرٍ لعائشة: جزاك الله خيراً، فوالله ما نزل بك أمرٌ تَكْرِهِيْنَهُ إِلَّا جَعَلَ اللهُ ذَلِكَ لَكَ وَلِلْمُسْلِمِينَ فِيهِ خَيْرًا.

ووجه الاستدلال بهذا الحديث أنهم - قبل نزول آية التيمم - صلوا بلا ماءٍ ولا تيمم، ولم يُعيدوا الصلاة، فإذا نزلت آية التيمم ولم يوجد ما يتيممون به صلوا أيضاً

(١) البخاري (حديث ٣٣٦)، ومسلم (مع النووي ٤/ ٥٩-٦٠).

د ٤٣ ب التَّهْمِيلُ لِأَوَّلِ النَّزِيلِ د سُورَةُ النَّازِعَاتِ ب

بلا ماء ولا تيمم ولم يعيدوا لاصلاة كذلك، والله أعلم.
|

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ
وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا السَّبِيلَ ٤٤

قَالَ تَعَالَى: **وَاللَّهُ أَغْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا** ٤٥ **مَنْ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأَسْمَعُ غَيْرَ مُسْمِعٍ وَرَعْنَا لِيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنَا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأَسْمَعُ وَانْظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا** ٤٦ **يَأَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ءَامِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا** ٤٧

معناها	الكلمة
ألم تعلم - ألم تُخبر - ألم تر بقلبك علمًا. أعطوا. خطأ وقسطًا. يختارون غير طريق الحق وغير سبيل الرشاد - يشتركون الكفر بالإيمان. تخطئوا طريق الوصول إلى الحق. ناصرًا - متوليًا للأمر. يبدلون - يغيرون. يتأولونه على غير تأويله متعمدين لذلك، والكلم جمع كلمة، قيل: المراد بها: كلمات التوراة.	(أَلَمْ تَرَ) (أُوتُوا) (نَصِيبًا) (يَشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ) (تَضِلُّوا السَّبِيلَ) (وَلِيًّا) (يُحَرِّفُونَ) (يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ)
معناها	الكلمة

اسمع لا سمعت - اسمع غير مقبول منك ولا مجاب.	(وَأَسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ ﴿١﴾)
راعنا سمعك - استمع إلينا - افهم عنا وأفهمنا.	(وَرَاعِنَا ﴿٢﴾)
تحريكا وتحريقا بالستهم - تحريقا لكلمة (راعنا).	(لِيَأْتِيَ بِاللَّيْنَنِ ﴿٣﴾)
أمهلنا - لا تعجل علينا - انظر إلينا.	(وَأَنْظُرْنَا ﴿٤﴾)
أصوب في الرأي - أعدل - أكثر أدبا.	(وَأَقْوَمَ ﴿٥﴾)
أبعدهم الله عن الرشد واتباع الحق - طردهم بجحودهم	(لَعَنَهُمُ اللَّهُ ﴿٦﴾)
نبوة نبيه ﷺ وما جاءهم من البينات والهدى.	(نَطْمِسْ وُجُوهًا ﴿٧﴾)
نمحو معالمها.	(مَفْعُولًا ﴿٨﴾)
ناجزا، لا يتخلف ولا يتأخر.	

|

س: هل في قوله تعالى: ﴿مَقْدَرٌ مَّحْذُوفٌ؟ وما المراد باشتراء الضلالة؟

ج: من العلماء من قدر محذوفاً فقال: المعنى يشترى الضلالة بالهدى كما في قوله تعالى: ﴿البقرة: ١٦﴾.

ومن العلماء من قال: لا حاجة إلى التقدير، فيكون المعنى يشترى الضلالة فيبحثون عنها ويلتمسونها ولو بالأثمان، كما قال تعالى: ﴿الأنفال: ٣٦﴾.

أما المراد باشتراء الضلالة، فللعلماء فيه أقوال:

أحدها: ما قدمناه وأنهم يستبدلون الضلالة بالهدى.

الثاني: استبدلهم التكذيب بالنبي ﷺ بعد ظهوره بإيمانهم به قبل ظهوره.

الثالث: إيثارهم التكذيب بالنبي ﷺ لأخذ الرشوة وثبوت الرئاسة لهم..

الرابع: إعطاؤهم أخبارهم أموالهم على ما يصنعونه من التكذيب بالنبي ﷺ.

وهذه الوجوه ذكرها ابن الجوزي في «زاد المسير».

|

س: من المعنيون بقوله تعالى: ﴿؟ وما هذا النصيب الذي أوتوه؟

ج: هم أعداء الله اليهود، وقد أخرج الطبري^(١) بإسناد حسن إلى قتادة قال: هم أعداء الله اليهود، اشتروا الضلالة.

أم النصيب: فهو العلم الذي آتاهم الله إياه وهو في كتبهم، ومنه العلم بنبوة محمد ﷺ.

س: يرغب اليهود وأهل الكفر عمومًا في إضلال المسلمين، دُلَّ على ذلك.

ج: من الأدلة على ذلك ما يلي:

* قوله تعالى: ﴿﴾ [النساء: ٤٤].

* وقوله تعالى: ﴿﴾ [النساء: ٨٩].

* وقوله تعالى: ﴿﴾ [آل عمران: ١١٨].

* وقوله تعالى: ﴿﴾ [آل عمران: ٦٩].

* وقوله تعالى: ﴿﴾ [البقرة: ١٠٩].

س: اذكر بعض المستفاد من قوله تعالى: ﴿﴾.

في هذا تحذيرٌ من الله ﷻ لعباده أن يستنصحووا أحدًا من أعداء الإسلام في شيء من أمر دينهم، أو أن يسمعوا من طعنهم في الحق.

س: وضع المراد بقوله تعالى: ﴿﴾.

ج: قال الطبري رحمه الله تعالى:

وأما قوله: ﴿﴾ فإنه يقول: فبالله، أيها المؤمنون، فثقوا، وعليه فتوكلوا، وإليه فارغبوا، دون غيره، يكفكم مهمكم، وينصركم على أعدائكم {وكفى بالله وليًا}، يقول: وكفاكم وحسبكم بالله ربكم وليًا يليكم ويولي أموركم بالحيطة لكم، والحراسة من أن يستفزكم أعداؤكم عن دينكم، أو يصدّوكم عن اتباع نبيكم.

(١) الطبري (٩٦٩٣).

{وكفى بالله نصيراً}، يقول: وحسبكم بالله ناصرًا لكم على أعدائكم وأعداء دينكم، وعلى من بغاكم الغوائل، وبغى دينكم العوج.

س: لماذا كرر قوله: ﴿﴾، في قوله: ﴿﴾؟

ج: قال بعض أهل العلم: إن التكرار في مثل هذا المقام يكون أشد تأثيرًا في القلب وأكثر مبالغة.

س: وضح المراد بقوله تعالى: ﴿﴾.

ج: لأهل العلم في ذلك وجهان من أوجه التأويل:

أحدهما: أن قوله تعالى: ﴿﴾ [النساء: ٤٦]، متصلٌ بما قبله، فيكون المعنى: ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبًا من الكتاب من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه، ومع ذلك فهم يشترون الضلالة ويريدون أن تضلوا السبيل.

الثاني: أن قوله تعالى: ﴿﴾ معناه قائم بذاته فيكون المعنى من الذين هادوا مَنْ يُحَرِّفُ الكلم، فتكون كلمة (مَنْ) قد حُذفت من الكلام لكن دَلَّ عليها السياق، وهذا الحذف وارد في كلام العرب، كقول بعضهم: مَنْ يَقُولُ كَذَا. أي: مَنْ يَقُولُ كَذَا. أو يكون المعنى: من الذين هادوا قومٌ يُحرفون الكلم عن مواضعه، فتكون كلمة (قوم) قد حُذفت من الكلام، لكن دَلَّ عليها السياق.

س: اذكر بمزيد من الإيضاح معنى قوله تعالى: ﴿﴾ وبعض صور هذا التحريف.

ج: أما ﴿﴾ فمعناها: يُغَيِّرُونَ وَيُبَدِّلُونَ، أما قوله تعالى: ﴿﴾ فمعناه: عن أماكنه وعن معانيه الصحيحة، أما الكلم فهو كلمات التوراة، وتحريفهم للكلم عن مواضعه محتملٌ لأمرين:

أحدهما: أنهم يبدلون كلمة بكلمة، أي: يضعون كلمة مكان أخرى، ويزيدون فيه وينقصون منه.

الثاني: أنهم يؤولونه بتأويلات باطلة.

ومما ورد في كتاب الله بهذا الصدد:

* قوله تعالى: ﴿﴾ [آل عمران: ٧٨].

* وقوله تعالى: ﴿﴾ [النساء: ٤٦].

* وقوله تعالى عن بني إسرائيل لَمَّا قِيلَ لَهُمْ: ﴿﴾ [البقرة: ٥٨]. قال تعالى: ﴿﴾
[البقرة: ٥٩]، فمنهم من قال: حبة في شعرة، ومنهم من قال: حنطة، وذلك على سبيل
العناد والشقاق والتحريف^(١).

وكذلك قولهم عند مجيئهم رسول الله ﷺ: (السام عليك يا محمد)، ويقصدون
بالسام: الموت أو اللعنة، وهم يوهمونه أنهم يقولون: السلام عليك يا محمد.
إلى غير ذلك من ظلم هؤلاء اليهود وتحريفهم.

|

س: هل التوراة التي بأيدي اليهود الآن مُبدلة، أم أن التبديل وقع في التأويل دون
التنزيل؟

ج: بعد النظر إلى السؤالين السابقين والجواب عليهما، أورد قول ابن القيم في
هذا المقام.

قال ابن القيم رحمه الله تعالى في إغاثة اللهفان^(٢):

وقد اختلف أقوال الناس في التوراة التي بأيديهم: هل هي مبدلة، أم التبديل
والتحريف وقع في التأويل دون التنزيل؟
على ثلاثة أقوال: طرفين، ووسط.

فأفرطت طائفة وزعمت أنها كلها أو أكثرها مبدلة مغيرة. ليست التوراة التي
أنزلها الله تعالى على موسى عليه السلام، وتعرض هؤلاء لتناقضها وتكذيب بعضها
لبعض:

وغلا بعضهم. فجوز الاستجمار بها من البول.

(١) وقد قدمنا تأويل ذلك في سورة البقرة.

(٢) «إغاثة اللهفان» (ص ٦٧١).

وقابلهم طائفة أخرى من أئمة الحديث والفقه والكلام، فقالوا: بل التبديل وقع في التأويل، لا في التنزيل.

وهذا مذهب أبى عبد الله محمد بن إسماعيل البخارى. قال في صحيحه: «يحرّفون: يزِيلون. وليس أحد يزِيل لفظ كتاب من كتب الله تعالى ولكنهم يحرفونه: يتأولونه على غير تأويله». وهذا اختيار الرازى في تفسيره.

وسمعت شيخنا^(١) يقول: وقع النزاع في هذه المسألة بين بعض الفضلاء. فاختار هذا المذهب ووهن غيره، فأنكر عليه، فأحضر لهم خمسة عشر نقلاً به.

ومن حجة هؤلاء: أن التوراة قد طبقت مشارق الأرض ومغاربها، وانتشرت جنوباً وشمالاً. ولا يعلم عدد نسخها إلا الله تعالى. ومن الممتنع أن يقع التواطؤ على التبديل والتغيير في جميع تلك النسخ. بحيث لا يبقى في الأرض نسخة إلا مبدلة مغيرة. والتغيير على منهاج واحد. وهذا مما يحيله العقل، ويشهد بطلان.

قالوا: وقد قال الله لنبيه صلى الله عليه وسلم محتجاً على اليهود بها: {قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلَوْهَا إِنَّ كُنتُمْ صَادِقِينَ} [آل عمران: ٩٣].

قالوا: وقد اتفقوا على ترك فريضة الرجم، ولم يمكنهم تغييرها من التوراة، ولهذا لما قرؤوها على النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وضع القارئ يده على آية الرجم. فقال له عبد الله بن سلام: «ارْفَعْ يَدَكَ عَنْ آيَةِ الرَّجْمِ». فرفعها فإذا هى تلوح تحتها. فلو كانوا قد بدلوا ألفاظ التوراة لكان هذا من أهم ما يبدلونه.

قالوا: وكذلك صفات النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ومخرجه هو في التوراة بين جدا. ولم يمكنهم إزالته وتغييره. وإنما ذمهم الله تعالى بكتمانهم. وكانوا إذا احتج عليهم بما في التوراة من نعته وصفته يقولون: ليس هو، ونحن ننتظره.

قالوا: وقد روى أبو داود في سننه عن ابن عمر رضي الله عنهما، قال: «أَتَى نَفْرٌ مِنَ الْيَهُودِ. فَدَعَوْا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى الْقَفِّ فَأَتَاهُمْ فِي بَيْتِ الْمَدْرَاسِ، فَقَالُوا يَا أَبَا الْقَاسِمِ، إِنَّ رَجُلًا مِنَّا زَنَى بِامْرَأَةٍ، فَاحْكُمْ، فَوَضَعُوا لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ

(١) هو شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى.

تعالى عليه وسلم وسادة، فجلس عليها ثم قال: «أئتوني بالتوراة» فأتى بها فنزع الوسادة من تحته، ووضع التوراة عليها ثم قال: «آمنت بك وبمن أنزلك» قال: «أئتوني بأعلمكم». فأتى بفتى ثم ذكر قصة الرجم.

قالوا: فلو كانت مبدلة مغيرة لم يضعها على الوسادة، ولم يقل: «آمنت بك وبمن أنزلك».

قالوا: وقد قال تعالى: {وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} [الأنعام: ١١٥] والتوراة من كلماته.

قالوا: والآثار التي في كتمان اليهود صفة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في التوراة ومنعهم أولادهم وعوامهم الاطلاع عليها مشهورة، ومن اطلع عليها منهم، قالوا له ليس به.

فهذا بعض ما احتجت به هذه الفرقة.

وتوسط طائفة ثالثة. وقالوا: قد زيد فيها، وغير ألفاظ يسيرة، ولكن أكثرها باق على ما أنزل عليه. والتبديل في يسير منها جدا.

وممن اختار هذا القول شيخنا في كتابه «الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح».

وقال شيخ الإسلام^(١) ابن تيمية رحمه الله تعالى في كتابه: «الجواب الصحيح لمن بدّل المسيح»:

ومن حجة الجمهور الذين يمنعون أن تكون جميع ألفاظ هذه الكتب المتقدمة الموجودة عند أهل الكتاب منزلة من عند الله لم يقع فيها تبديل، ويقولون أنه وقع التبديل في بعض ألفاظها ويقولون أنه لم يعلم أن ألفاظها منزلة من عند الله فلا يجوز أن يحتج بما فيها من الألفاظ في معارضة ما علم ثبوته أنهم قالوا: التوراة والإنجيل الموجودة اليوم بيد أهل الكتاب لم تتواتر عن موسى وعيسى - عليهما السلام - أما التوراة، فإن نقلها انقطع لما خرب بيت المقدس أولاً، وأجلى منه بنو إسرائيل، ثم

(١) «الجواب الصحيح» (٢/ ٣٩٥) ط دار العاصمة بالرياض.

ذكروا أن الذي أملاها عليهم بعد ذلك شخص واحد يقال له عزرا وزعموا أنه نبي.
ومن الناس من يقول أنه لم يكن نبيا وإنما قوبلت بنسخة وجدت عتيقة.
وقد قيل أنه أحضرت نسخة كانت بالمغرب وهذا كله لا يوجب تواتر جميع
ألفاظها ولا يمنع وقوع الغلط في بعضها؛ كما يجري مثل ذلك في الكتب التي يلي
نسخها ومقابلتها وحفظها القليل الاثنان والثلاثة.
وأما الإنجيل الذي بأيديهم فهم معترفون بأنه لم يكتبه المسيح - عليه السلام -
ولا أملاه على من كتبه وإنما أملوه بعد رفع المسيح متى ويوحنا وكنا قد صحبا
المسيح ولم يحفظه خلق كثير يبلغون عدد التواتر، ومرقس ولوقا وهما لم يريا
المسيح - عليه السلام - وقد ذكر هؤلاء أنهم ذكروا بعض ما قاله المسيح وبعض
أخباره وأنهم لم يستوعبوا ذكر أقواله وأفعاله.

س: ما وجه الطعن في الدين من جراء قولهم: ﴿؟﴾

ج: وجه ذلك أن الطعن في رسول الله ﷺ يُعد طعنًا في الدين، فقولهم: واسمع
غير مسمع أي: اسمع لا أسمعك الله، أو اسمع غير مجاب، والأول دعاء على رسول
الله ﷺ، وهذا كفر، والثاني: رد أمر رسول الله ﷺ وهذا كفر أيضًا.
وثم وجه آخر وهو أنه يقولون فيما بينهم: لو كان هذا نبيا حقًا ونحن نشتمه
لأنزل الله علينا العذاب.
فهذا وجه طعنهم في الدين، والله أعلم.

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿؟﴾.

ج: المعنى - والله أعلم -: ولكن لم يسلكوا هذا المسلك الرشيد وهي قول: ﴿؟﴾
[النساء: ٤٦]، ولم يأتوا بما هو خير لهم وأقوم، فلهذا لعنهم الله بكفرهم.
ووجه آخر: أنهم لم يسلكوا هذا المسلك الرشيد لأن الله لعنهم وطردهم وأبعدهم
عن طريق الحق والخير والصواب بسبب كفرهم، والله تعالى أعلم.

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿﴾.

ج: هذه محتملة لمعانٍ:

أحدها: لا يؤمنون إلا بشيء قليل لا يستحقون به اسم الإيمان لكونهم آمنوا ببعض الآيات دون بعض، ولكونهم آمنوا ببعض النبيين وكفروا ببعض، فقد كفروا بالجميع.

الثاني: لا يُصدقون إلا تصديقاً قليلاً، وهو راجع للأول.

الثالث: لا يؤمن منهم إلا نفرٌ قليل، كعبد الله بن سلام وغيره.

الرابع: لا يؤمنون إيماناً نافعاً.

الخامس: أنه عُبر بالقليل عن العدم، فالمعنى أنهم لا يؤمنون ألبتة، وهذا الخامس أراه ضعيفاً والله أعلم.

س: وضح المراد بقوله تعالى: ﴿﴾.

ج: **إيضاحه:** أن القرآن الذي نزل على رسول الله ﷺ مصدق للتوراة وتصديقه لها من وجوه:

أحدها: أن نزول القرآن كان تصديقاً للتوراة؛ وذلك لأن التوراة أخبرت أن القرآن سينزل على نبي كريم وهو محمد ﷺ، فكان نزول القرآن تصديقاً لها من هذا الوجه.

الثاني: أن القرآن فيه إخبار بأمور أخبرت بها التوراة، فكان في هذا الإخبار تصديق أيضاً للتوراة.

س: ما المراد بطمس الوجوه، وردّها على الأدبار؟

ج: في ذلك وجوهٌ لأهل العلم:

أولها: نردّها إلى الأدبار ونجعل الأبصار من وراء.

ثانيها: نجعل وجوههم من قبل أقفيتهم فيمشون القهقري، ونجعل لأحدهم عينيّن من قبل قفاه.

ثالثها: نطمسها فلا نجعل لها سمعاً ولا بصرًا، ولا أثرًا، فتصير كالقفا لا أنف فيها

ولا فمٌ ولا أذن ولا عين.

رابعها: نطمس وجوهاً، أي: نعيمها عن الحق، فنردها على أدبارها أي: نردها إلى الضلالة والكفر.

خامسها: نمحو آثارها من هذه البلاد، ونردهم من حيث جاءوا إلى بلاد الشام.

س: كيف هُدد اليهود بطمس الوجوه إذا لم يؤمنوا، ولم يؤمنوا ولم يفعل ذلك بهم؟
ج: قال بعض أهل العلم: إن ذلك لم يفعل بهم لكون فريق منهم قد آمن ورفع العذاب والطمس بسبب إيمان بعضهم كعبد الله بن سلام رضي الله عنه، وثم قول آخر، وهو أن الوعيد باقٍ منتظر وسيمسخ قومٌ يوم القيامة وتطمس وجوههم.

س: من هم أصحاب السبت؟

ج: هم الذين اعتدوا في السبت وخالفوا أمر الله ﷻ، إذ قال الله لهم: ﴿﴾، وأخذ منهم على ذلك ميثاقاً غليظاً، وهم الذين ذكرهم الله في قوله تعالى: ﴿﴾ [الأعراف: ١٦٦].

س: كيف لُعن أصحاب السبت؟

ج: طُردوا من رحمة الله ﷻ، وقال الله لهم: ﴿﴾ [الأعراف: ١٦٦]، فأصبحوا قردة مطرودين مبعدين من رحمة الله، كما قال تعالى: ﴿﴾ [البقرة: ٦٥]، وكما قال تعالى: ﴿﴾ [الأعراف: ١٦٦]، وكما قال سبحانه: ﴿﴾ [المائدة: ٦٠].

قَالَ تَعَالَى: إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا ٤٨ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْكُونَ أَنْفُسَهُمْ بِاللَّهِ يَزْكِي مَنْ يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ٤٩ أَنْظِرْ كَيْفَ يَقْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَفَىٰ بِهِ إِثْمًا مُّبِينًا ٥٠ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطُّغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا سَبِيلًا ٥١ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا ٥٢ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذَا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا ٥٣

معناها	الكلمة
اختلق.	(افْتَرَىٰ) ❖
يرؤنّها من الذنوب وَيَدْعُونَ طَهَارَتَهَا وعلوها وشرفها.	(يَزْكُونَ أَنْفُسَهُمْ) ❖
يُطَهِّرُ.	(يَزْكِي) ❖
الفَتِيل هو: الخيط الرفيع الذي يكون في بطن النواة، وقيل: هو: ما خرج من بين الإصبعين والكفين من الوسخ إذا فتلت إحداهما بالأخرى.	(فَتِيلًا) ❖
مُظْهِرًا لِلْكَذِب - مَبِينًا كَذِبُهُمْ لِسَامِعِيهِ - مَوْضَحًا.	(مُبِينًا) ❖
أَعْدَلَ وَأَقْوَمَ.	(أَهْدَىٰ) ❖
أَخْزَاهُمْ وَأَبْعَدَهُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ.	(لَعَنَهُمْ) ❖
النقطة التي في ظهر النواة - وسط النواة.	(نَقِيرًا) ❖

س: هل صحَّ لقوله تعالى: ﴿سَبَبُ نَزُولٍ؟﴾

ج: لا نعلم لهذه الآية الكريمة سبب نزول صحيح، والله أعلم.

س: وضح المراد بقوله تعالى: ﴿سَبَبُ نَزُولٍ؟﴾.

ج: المعنى والله أعلم: إن الله لا يغفر لمن مات وهو مشرك لم يتب من شركه في دنياه، ولكن من تاب من شركه قبل موته، فالله سبحانه يغفر له، وذلك لقوله تعالى: ﴿[الأنفال: ٣٨]، ولقوله تعالى: ﴿[الفرقان: ٦٨]، إلى قوله تعالى: ﴿[الفرقان: ٧٠].

|

س: اذكر بعض الوارد في ذمّ الشرك وبيان خطره.

ج: من ذلك ما يلي:

* قول الله تبارك وتعالى: ﴿[النساء: ٤٨].

* وقوله تعالى: ﴿[الأنعام: ٨٨].

* وقوله تعالى: ﴿[الزمر: ٦٥].

* وقوله تعالى: ﴿[المائدة: ٧٢].

* وقوله تعالى: ﴿[الحج: ٣١].

* وقوله تعالى: ﴿[القمان: ١٣].

* وقوله تعالى: ﴿[الأنعام: ١٥١].

والآيات في هذا الباب كثيرة جدًا.

وروى مسلم^(١) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِيَ غَيْرِي، تَرَكْتُهُ وَشِرْكُهُ».

وأخرج الإمام^(٢) أحمد في «مسنده» بإسناد صحيح عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ لَبِيدٍ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «إِنَّ أَخَوْفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمُ الشِّرْكَ الْأَصْغَرَ» قَالُوا: وَمَا الشِّرْكَ الْأَصْغَرُ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «الرِّيَاءُ، يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: إِذَا جُزِيَ النَّاسُ بِأَعْمَالِهِمْ: اذْهَبُوا إِلَى الَّذِينَ كُنتُمْ تُرَآءُونَ فِي الدُّنْيَا فَانظُرُوا هَلْ تَجِدُونَ عِنْدَهُمْ جَزَاءً».

(١) مسلم (حديث ٢٩٨٥).

(٢) أحمد (٤٢٨/٥).

وأخرج البخاري ^(١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، قال: «يُلْقَى إِبْرَاهِيمُ أَبَاهُ أَرْزَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَعَلَى وَجْهِهِ أَرْزَقْتَرَةٌ وَغَبَرَةٌ، فَيَقُولُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ: أَلَمْ أَقُلْ لَكَ لَا تَعْصِنِي، فَيَقُولُ أَبُوهُ: فَالْيَوْمَ لَا أَغْصِيكَ، فَيَقُولُ إِبْرَاهِيمُ: يَا رَبِّ إِنَّكَ وَعَدْتَنِي أَنْ لَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُنْعَثُونَ، فَأَيُّ خِزْيٍ أَخْزَى مِنْ أَبِي الْأَبْعَدِ؟ فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: "إِنِّي حَرَمْتُ الْجَنَّةَ عَلَى الْكَافِرِينَ، ثُمَّ يُقَالُ: يَا إِبْرَاهِيمُ، مَا تَحْتَ رِجْلَيْكَ؟ فَيَنْظُرُ، فَإِذَا هُوَ بِذِيخٍ مُلْتَطِحٍ، فَيُؤْخَذُ بِقَوَائِمِهِ فَيُلْقَى فِي النَّارِ».

وَأَخْرَجَ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ ^(٢) من حديث أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى لِأَهْلِ النَّارِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ: لَوْ أَنَّ لَكَ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَيْءٍ أَكُنْتَ تَفْتَدِي بِهِ؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ، فَيَقُولُ: أَرَدْتُ مِنْكَ أَهْوَنَ مِنْ هَذَا، وَأَنْتَ فِي صُلْبِ آدَمَ: أَنْ لَا تُشْرِكَ بِي شَيْئًا، فَأَبَيْتَ إِلَّا أَنْ تُشْرِكَ بِي».

س: لماذا سمي المشرك مفترياً؟

ج: قال الطبري رحمته الله:

وإنما جعل الله تعالى ذكره (مفترياً) لأنه قال زوراً وإفكاً بجحوده وحدانية الله، وإقراره بأن الله شريكاً من خلقه، وصاحبة أو ولداً، ففائل ذلك مُفْتَرٍ، وكذلك كل كاذب فهو مُفْتَرٍ في كذبه مختلق له.

س: من المعنيون بقوله تعالى: ﴿﴾؟

ج: هم اليهود والنصارى، ومن سار على طريقتهم.

قال القرطبي رحمته الله: هذا اللفظ عام في ظاهره، ولم يختلف أحدٌ من المتأولين في أن المراد اليهود.

س: كيف كانت تركيبتهم لأنفسهم؟

ج: تركيبتهم لأنفسهم بقولهم: ﴿﴾ [المائدة: ١٨]، وبقولهم: ﴿﴾ [البقرة: ١١١].

(١) البخاري (٣٣٥٠).

(٢) البخاري (٦٥٥٧)، ومسلم (٢٩٨٥).

ومن ذلك قولهم: ﴿آل عمران: ٢٤﴾.

ووجه آخر ذكره المفسرون، وهو أن اليهود كانوا يقدمون صبيانهم في الصلاة يؤمونهم ويزعمون أنهم لا ذنوب لهم، ولكن هذا الوجه الأخير وجه ضعيف، وما قبله أولى منه وأصح

س: اذكر بعض الوارد في ذم تزكية النفس والمبالغة في الإفراط في الثناء على الآخرين.

ج: من ذلك قوله تعالى: ﴿النجم: ٣٢﴾.

* وقوله تعالى: ﴿النساء: ٤٩﴾.

أخرج البخاري ومسلم^(١) من حديث أبي بكر، قال: أثنى رجل على رجل عند النبي ﷺ، فقال: «وَيْلَكَ قَطَعْتَ عَنْقَ صَاحِبِكَ، قَطَعْتَ عَنْقَ صَاحِبِكَ» مراراً، ثم قال: «مَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَادِحًا أَخَاهُ لَا مَحَالَةَ، فَلْيُقِلْ أَحْسِبُ فَلَانًا، وَاللَّهِ حَسِيبُهُ، وَلَا أُزَكِّي عَلَى اللَّهِ أَحَدًا أَحْسِبُهُ كَذًا وَكَذًا، إِنْ كَانَ يَعْلَمُ ذَلِكَ مِنْهُ».

وفي «الصحيح»^(٢) أيضاً من حديث أبي موسى رضي الله عنه، قال: سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ رَجُلًا يُثْنِي عَلَى رَجُلٍ وَيُطْرِيه فِي مَدْحِهِ، فَقَالَ: «أَهْلَكْتُمْ - أَوْ قَطَعْتُمْ - ظَهَرَ الرَّجُلِ». وأخرج مسلم^(٣) من حديث المقداد رضي الله عنه: إِنْ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِذَا رَأَيْتُمُ الْمَدَّاحِينَ، فَاحْثُوا فِي وُجُوهِهِمُ التُّرَابَ».

س: هل تجوز تزكية النفس في بعض الأحيان؟

ج: نعم يجوز تزكية النفس في بعض الأحيان، وذلك إذا كانت الفتنة مأمونة، ولم يكن هناك غش ولا تدليس، وفي الوقت نفسه كانت الحاجة داعية لذلك.

* وقد أثنى رسول الله ﷺ على عدد من أصحابه فقال النبي ﷺ: «إِنَّهُ لَيْسَ مِنَ النَّاسِ أَحَدٌ أَمِنَ عَلَيَّ فِي نَفْسِهِ وَمَالِهِ مِنْ أَبِي بَكْرٍ بْنِ أَبِي قُحَافَةَ، وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا مِنَ النَّاسِ

(١) البخاري (حديث ٢٦٦٢).

(٢) البخاري (حديث ٢٦٦٣).

(٣) مسلم (ص ٢٢٩٧).

خَلِيلًا لَا تَتَّخِذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلًا»^(١).

وقال رسول الله ﷺ: «نِعَمَ الرَّجُلُ أَبُو بَكْرٍ، نِعَمَ الرَّجُلُ عُمَرُ، نِعَمَ الرَّجُلُ أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ...» الحديث.

وقال رسول الله ﷺ: «لَقَدْ كَانَ فِيمَا قَبْلَكُمْ مِنَ الْأُمَمِ نَاسٌ مُحَدِّثُونَ، فَإِنْ يَكُنْ فِي أُمَّتِي أَحَدٌ فَإِنَّهُ عُمَرُ».

وقال عمر رضي الله عنه: «أَبُو بَكْرٍ سَيِّدُنَا وَأَعْتَقَ سَيِّدَنَا» يَعْنِي بِلَا لَا.

وقال النبي ﷺ في شأن عثمان رضي الله عنه: «أَلَا أَسْتَحْيِي مِنْ رَجُلٍ تَسْتَحْيِي مِنْهُ الْمَلَائِكَةُ؟».

وقال عثمان رضي الله عنه: «أَلَسْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مَنْ حَفَرَ رُومَةً فَلَهُ الْجَنَّةُ؟ فَحَفَرْتُهَا، أَلَسْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّهُ قَالَ: «مَنْ جَهَّزَ جَيْشَ الْعُسْرَةِ فَلَهُ الْجَنَّةُ؟ فَجَهَّزْتُهُمْ، قَالَ: فَصَدَّقُوهُ بِمَا قَالَ».

وقال رسول الله ﷺ ماء اللبلة التي فتحت فيها خير: «لَأُعْطِينَ الرَّايَةَ غَدًا رَجُلًا يُفْتَحُ عَلَى يَدَيْهِ، يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، وَيُحِبُّهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ»، فَأَعْطَاهَا عَلِيًّا. وفي الباب عدة أحاديث عن رسول الله ﷺ.

قال القرطبي رحمه الله تعالى: فَأَمَّا مَذْحُ الرَّجُلِ بِمَا فِيهِ مِنَ الْفِعْلِ الْحَسَنِ وَالْأَمْرِ الْمَحْمُودِ لِيَكُونَ مِنْهُ تَرْغِيْبًا لَهُ فِي أَمْثَالِهِ وَتَحْرِيبًا لِلنَّاسِ عَلَى الْإِقْتِدَاءِ بِهِ فِي أَشْبَاهِهِ فَلَيْسَ بِمَدَّاحٍ، وَإِنْ كَانَ قَدْ صَارَ مَادِحًا بِمَا تَكَلَّمَ بِهِ مِنْ جَمِيلِ الْقَوْلِ فِيهِ. وَهَذَا رَاجِعٌ إِلَى النَّيَاتِ {وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ} ثم ذكر رحمه الله أمثلة لذلك.

س: وضع المراد بقوله تعالى: ﴿...﴾.

ج: المراد والله أعلم:

أن المرجع في التزكية إلى الله؛ لأنه سبحانه يعلم بواطن الأمور وحقائقها وغوامضها.

(١) البخاري (حديث ٤٦٧).

فالمزكَّى والمطهر من الذنوب من زكَّاه الله وطهره.
ومن تزكية الله ﷻ للعبد ثناؤه عليه في الملاء الأعلى.
ومن ذلك أيضًا: توفيقه للعمل الصالح الذي به تزكو النفوس.
ومن ذلك: مغفرته للعبد وتجاوزه عن سيئاته ومحو آثارها.

س: **وضح المراد بقوله تعالى: ﴿﴾، وبقوله تعالى: ﴿﴾.**
ج: أما قوله تعالى ﴿﴾ أي: لا يبخسون شيئًا من حقوقهم.
وأما قوله تعالى: ﴿﴾ أي: كفى به إثمًا واضحًا ظاهرًا بيّنًا يردى صاحبه ويهلكه،
فالمراد: تعظيم الذنب وذمه.

س: **الضمير في قوله تعالى: ﴿﴾ عائد على ماذا؟ وضح المراد بقوله: ﴿﴾.**
ج: الضمير عائدٌ على الافتراء، أي: افتراء الكذب على الله، أما قوله: ﴿﴾ فمعناه
كفى بالكذب إثمًا مبينًا يغمس صاحبه في النار.

س: **هل صحَّ قوله تعالى: ﴿﴾ سبب نزول؟**
ج: لهذه الآية سبب نزول مختلف في وصله وإرساله، وهو ما أخرجه الطبري
وغيره من طريق عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما قدم كعب بن الأشرف مكة
قالت له قريش: أنت حبر أهل المدينة وسيدهم؟ قال: نعم، قالوا: ألا ترى إلى هذا
الصنبور المنبتر من قومه يزعم أنه خير منّا، ونحن أهل الحجيج وأهل السدانة وأهل
السقاية؟ قال: أنتم خيرٌ منه، قال: فأنزلت: ﴿﴾ وأنزلت: ﴿﴾ إلى قوله: ﴿﴾ **[النساء: ٥٢].**

وقد صوّب شيخنا مقبل - حفظه الله تعالى - الإرسال، في تعليقه على ابن كثير،
والله أعلم.

س: **وضح المراد بالجبّ والطاغت.**

ج: لأهل العلم أقوال في تفسير الجبت والطاغوت، نسوقها على النحو التالي:

الطاغوت	الجبت
معبود من دون الله. صنم تراجمة الاصنام الذين يكونون بينها وبين الناس. الشیطان. الكاهن. كعب بن الأشرف.	معبود من دون الله صنم. الأصنام. السحر. الساحر. حيي بن أخطب. الشیطان.

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿﴾.

ج: المعنى والله أعلم: أن اليهود الذين آتاهم الله نصيباً من الكتاب يقولون للكفار الذين وصفهم الله بالكفر: إنكم يا أهل الكفر بالله أولى بالحق من أهل الإيمان به، وأن دين أهل التكذيب لله ورسوله أعدل واصوب من دين أهل التصديق لله ورسوله.

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿﴾.

ج: المعنى، والله أعلم: أم أن لهؤلاء اليهود نصيباً من الملك، فإذا كان لهم نصيب من الملك فمنهم لن يعطوا محمداً ولا أحداً من الناس قدر النقيير من ملكهم، وذلك لشدة بخلهم.

والمعنى أيضاً: ليس لهم نصيب من الملك كما يدعون، فالاستفهام للإنكار عليهم دعوة أن الملك يؤول إليهم ولشدة بخلهم فإن الملك إذا آل إليهم لما أعطوا أحداً أحقر الأشياء وأتفهاها ولو مقدار النقيير.

قَالَ تَعَالَى:

أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ
 آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا
 ٥٤ فَمِنْهُمْ مَنْ ءَامَنَ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ
 سَعِيرًا ٥٥ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا
 نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بِدَنِّهِمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ
 كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ٥٦ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
 سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَهُمْ
 فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ٥٧

معناها	الكلمة
حسبهم جهنم تُسعر عليهم، أي: توقد عليهم، والسعير: الوقود.	(وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا) ❖
نشويهم في النار.	(نُصْلِيهِمْ) ❖
شويت واحترقت.	(نَضِجَتْ) ❖
بريئة من الدنس والرَّيب والحِيض والغائط والبول والمنِّي والولد.	(مُطَهَّرَةٌ) ❖
كينًا يُكِنُّهُمْ - يُظْلِمُهُمْ.	(ظَلِيلًا) ❖

س: من المعنيون بالناس في قوله تعالى: ﴿؟﴾ وعلام حسدتهم اليهود؟

ج: قال بعض العلماء: عن المعنيين بالناس هنا هم العرب، حسدتهم اليهود على ما منَّ الله به عليهم من بعثة النبي ﷺ منهم.

وحسدت اليهود أيضًا نبينا محمدًا ﷺ لما آتاه الله ﷻ من النبوة والقرآن.

وحسدوا أصحاب محمد ﷺ لإيمانهم به ولتصديقهم إياه.

وقال آخرون: إنه ما خصَّ الله به نبيه ﷺ من نكاح ما شاء من النسوة. إلا أن أكثر أهل العلم على أن المراد هو النبي ﷺ حسدته اليهود لما منَّ الله عليه به من النبوة.

|

س: من المعنيون بآل إبراهيم؟
ج: نعم أهله وأبنائه والذين هم على دينه.

|

س: ما المراد بالكتاب والحكمة، وما المراد بالملك العظيم؟
ج: أما الكتاب: فهو عموم الكتب التي نزلت على آل إبراهيم قبل نبينا محمد ﷺ كصحف إبراهيم عليه السلام، وكذلك صحف موسى، ومنها التوراة والألواح، وكذلك الزبور والإنجيل.
أما الحكمة: فهي ما أوجاه الله إلى أنبيائه من آل إبراهيم ولم يكن كتاباً مقروءاً. وأيضاً هي وضع الأمور في نصابها.
أما الملك العظيم: فمنه ما أمدَّ الله به نبيه داود عليه السلام وكذلك ما أعطاه نبيه سليمان عليه السلام.

وقال بعض العلماء: يدخل فيه الإمداد بالملائكة والجمع بين سياسة الدنيا وشرع الدين.

|

س: ما وجه ربط قوله تعالى: ﴿﴾ بقوله: ﴿﴾؟
ج: ذلك - والله أعلم - لأن اليهود حسدوا محمداً ﷺ وحسدوا العرب على ما منَّ الله به عليهم من النبوة فيهم، فكأنه قيل لهم: لم تحسدون هؤلاء على ما آتاهم الله من فضله من النبوة والإيمان، فقد آتينا أجدادكم الن هم آل إبراهيم النبوة، وأنزلنا عليهم الكتب المتعددة، وعلمناهم الحكمة، وآتيناهم الملك العظيم، ومع ذلك كله فقد كذب فريق من ذرياتهم وأممهم ولم يشكروا نعمة الله عليهم إذ جعل النبوة في أجدادهم، بل كفروا النعمة وعصوا الرب جل وعلا، وسعوا في صدِّ الناس وصرفهم

وإبعادهم عن طريق الخير.

فائدة: قال الرازي رحمه الله تعالى: واعلم أنَّ الحَسَدَ لَا يَحْصُلُ إِلَّا عِنْدَ الْفَضِيلَةِ، فَكُلَّمَا كَانَتْ فَضِيلَةُ الْإِنْسَانِ أَتَمَّ وَأَكْمَلَ كَانَ حَسَدُ الْحَاسِدِينَ عَلَيْهِ أَعْظَمَ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ النَّبُوَّةَ أَعْظَمَ الْمَنَاصِبِ فِي الدِّينِ، ثُمَّ إِنَّهُ تَعَالَى أَعْطَاهَا لِمُحَمَّدٍ ﷺ، وَضَمَّ إِلَيْهَا أَنَّهُ جَعَلَهُ كُلَّ يَوْمٍ أَقْوَى دَوْلَةً وَأَعْظَمَ شَوْكَةً وَأَكْثَرَ أَنْصَارًا وَأَعْوَانًا وَكُلُّ ذَلِكَ مِمَّا يُوجِبُ الْحَسَدَ الْعَظِيمَ. فَأَمَّا كَثْرَةُ النَّسَاءِ فَهُوَ كَأَلَمْرِ الْحَقِيرِ بِالنِّسْبَةِ إِلَى مَا ذَكَرْنَاهُ، فَلَا يُمْكِنُ تَفْسِيرُ هَذَا الْفَضْلِ بِهِ، بَلْ إِنْ جُعِلَ الْفَضْلُ اسْمًا لِجَمِيعِ مَا أَنْعَمَ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ عَلَيْهِ دَخَلَ هَذَا أَيْضًا تَحْتَهُ، فَأَمَّا عَلَى سَبِيلِ الْقَصْرِ عَلَيْهِ فَبَعِيدٌ.

وَاعْلَمْ أَنَّهُ تَعَالَى لَمَّا بَيَّنَّ أَنَّ كَثْرَةَ نِعَمِ اللَّهِ عَلَيْهِ صَارَتْ سَبَبًا لِحَسَدِ هَؤُلَاءِ الْيَهُودِ بَيَّنَّ مَا يَدْفَعُ ذَلِكَ فَقَالَ: {فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا} [النساء: ٥٤] وَالْمَعْنَى أَنَّهُ حَصَلَ فِي أَوْلَادِ إِبْرَاهِيمَ جَمَاعَةٌ كَثِيرُونَ جَمَعُوا بَيْنَ النَّبُوَّةِ وَالْمُلْكِ، وَأَنْتُمْ لَا تَتَعَجَّبُونَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا تَحْسُدُونَهُ، فَلِمَ تَتَعَجَّبُونَ مِنْ حَالِ مُحَمَّدٍ وَلِمَ تَحْسُدُونَهُ؟

س: الضمير في قوله تعالى: ﴿﴾ من قوله تعالى: ﴿﴾ يرجع إلى من؟

ج: الضمير يرجع إلى أحد أمرين:

أولهما: ما أوتيته إلى إبراهيم.

والثاني: القرآن الذي أنزل على نبينا محمد ﷺ.

س: اذكر دليلين على بطلان القول القائل بفناء النار.

ج: أما الدليل الأول: فهو قوله تعالى: ﴿﴾.

أما الدليل الثاني^(١): فهو قوله تعالى: ﴿﴾ [السجدة: ٢٠].

س: وضح شيئاً من الوارد في وصف هذا الظل، مع بيان بعض من يظلمهم الله.

(١) وقد أوردنا مزيداً من الاستدلالات لذلك عند تفسير قوله تعالى: ﴿﴾ من سورة النبأ.

ج: من الوارد في وصف هذا الظل قول النبي ﷺ: «إِنَّ فِي الْجَنَّةِ لَشَجَرَةً يَسِيرُ الرَّاكِبُ فِي ظِلِّهَا مِائَةَ عَامٍ لَا يَفْقَطُهَا»^(١).

أما الذين يظلمهم الله في هذا الظل فمنهم ما يلي:

* الذين ورد ذكرهم في قول النبي ﷺ: «سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمْ اللَّهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ»^(٢): الإمامُ العادلُ، وشابُّ نشأ بعبادة الله، ورجُلٌ قلبُهُ مُعلَّقٌ في المساجِدِ، ورجُلانِ تحابَّا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه، ورجُلٌ دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ، فَقَالَ: إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ، ورجُلٌ تصدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا حَتَّى لَا تَعْلَمَ يَمِينُهُ مَا تُنْفِقُ شِمَالُهُ، ورجُلٌ ذَكَرَ اللهَ خَالِيًا، ففَاضَتْ عَيْنَاهُ «.

* **والذي ذكره النبي ﷺ في حديثه إذ قال:** «مَنْ أَنْظَرَ مُعْسِرًا أَوْ وَضَعَ عَنْهُ أَظْلَهُ اللَّهُ فِي ظِلِّهِ»^(٣).

* وعموم المؤمنين الذين يعملون الصالحات، لقوله تعالى: ﴿﴾.

|

س: على هناك ظل غير ظليل؟

ج: نعم هناك ظلٌ غير ظليل، لا يُظل ولا يُكُنُّ، قال تعالى: ﴿﴾ [المرسلات: ٣٠، ٣١].

وقال تعالى في شأن قوم شعيب عليه السلام: ﴿﴾ [الشعراء: ١٨٩].

وقال تعالى: ﴿﴾ [الواقعة: ٤١-٤٤].

|

(١) البخاري (حديث ٣٢٥١)، ومسلم (حديث ٢٨٢٦) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعاً.

(٢) البخاري (حديث ٦٦٠)، ومسلم (حديث ١٠٣١).

(٣) مسلم (حديث ٣٠٠٦).

قَالَ مَعَالِي:

إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَتَ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ
 بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ
 كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا ٥٨ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ
 وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ
 فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ
 ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ٥٩ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ
 ءَامَنُوا بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ وَمَا أَنزَلَ مِنْ قَبْلِكَ يَرِيدُونَ أَنْ
 يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ
 الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ٦٠ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ
 مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ
 صُدُودًا ٦١ فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ
 جَاءُوكَ يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا ٦٢ أَوَلَيْكَ
 الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ
 لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا ٦٣ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا
 لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ
 فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا
 رَحِيمًا ٦٤ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِي مَا شَجَرَ
 بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا
 تَسْلِيمًا ٦٥

معناها

الكلمة

نعم الشيء الذي يعظكم به ربكم، نعم ما يعظكم به ربكم.
تجادلتم واختلفتم.
أحسن عاقبة وجزاء - أحسن مردًا ومرجعًا، أحسن تصديقًا - أحسن من تأويلكم.
يقولون كذبًا.
ضلالًا شديدًا - ضلالًا مستمرًا إلى الموت.
يعرضون عنك إعراضًا.
بما اقترفوه من ذنوب وآثام.
توفيقًا بين الخصمين.
ذكّرهم وخوفهم.
مؤثرًا - واصلًا إلى القلوب - والبلاغة: إيصال المعنى إلى الفهم في أحسن صورة من اللفظ.
اختلف واختلط، والتشاجر: الاختلاف في الكلام والأمر.
ضيقة - شكًا - إثما.
ينقادوا انقيادًا ويدعونوا إذعائًا.

(إِنَّ اللَّهَ نِعْمًا يَعِظُكُمْ بِهِ) ﴿١﴾

(نَنْزَعْنَكُمْ) ﴿٢﴾

(وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا) ﴿٣﴾

(يَرْغَبُونَ) ﴿٤﴾

(ضَلَالًا بَعِيدًا) ﴿٥﴾

(يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا) ﴿٦﴾

(بِمَا قَدَّمْتَأْيَدِيهِمْ) ﴿٧﴾

(وَتَوْفِيقًا) ﴿٨﴾

(وَعِظْهُمْ) ﴿٩﴾

(بَلِيغًا) ﴿١٠﴾

(شَجَرَ) ﴿١١﴾

(حَرَجًا) ﴿١٢﴾

(وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا) ﴿١٣﴾

أداء الأمانات

س: من المخاطبون بقوله تعالى: ﴿١٣﴾.

ج: لأهل العلم في ذلك أقوال:

أحدها: أن المخاطبين بالآية هم ولاية الأمور، أما الأمانات فهي حقوق الرعية بصفة عامة، ويدخل فيها ما للرعية من الحقوق من الفيء والغنائم والحكم والقسمة بينهم بالعدل، والأخذ للمظلوم من الظالم، والوعظ، والتذكير.

الثاني: أن المخاطب بذلك هو رسول الله ﷺ أمر برد مفاتيح الكعبة لعثمان بن

طلحة، إلا أن سبب النزول بذلك لا يصح.

الثالث: أن المراد كل من أوّتمن على شيء، أمر برد الأمانة كاملة مستوفاة، فيدخل في ذلك ما ذكر أوّلاً، وتدخل الأمانات التي تكون بين الأشخاص كالأمانات المالية والعينية ونحوها، وكذلك الشهادات وأنواع الإقرار، وتدخل في ذلك أنواع العلوم كذلك، فكل من آتاه الله علماً فهو مؤتمن عليه.

هذا وقد جمع الرازي في «تفسيره»^(١) عموم ما ذكر وزاد عليه فقال:

«وَأَعْلَمُ أَنَّ مُعَامَلَةَ الْإِنْسَانِ إِمَّا أَنْ تَكُونَ مَعَ رَبِّهِ أَوْ مَعَ سَائِرِ الْعِبَادِ، أَوْ مَعَ نَفْسِهِ، وَلَا بُدَّ مِنْ رِعَايَةِ الْأَمَانَةِ فِي جَمِيعِ هَذِهِ الْأَقْسَامِ الثَّلَاثَةِ.

أَمَّا رِعَايَةُ الْأَمَانَةِ مَعَ الرَّبِّ: فَهِيَ فِي فِعْلِ الْمَأْمُورَاتِ وَتَرْكِ الْمَنْهِيَّاتِ، وَهَذَا بَحْرٌ لَا سَاحِلَ لَهُ قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ: الْأَمَانَةُ فِي كُلِّ شَيْءٍ لَا زِمَةَ، فِي الْوُضُوءِ وَالْجَنَابَةِ وَالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَالصَّوْمِ. وَقَالَ ابْنُ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: إِنَّهُ تَعَالَى خَلَقَ فَرَجَ الْإِنْسَانِ وَقَالَ هَذَا أَمَانَةٌ خَبَأْتُهَا عِنْدَكَ فَأَحْفَظْهَا إِلَّا بِحَقِّهَا، وَأَعْلَمُ أَنَّ هَذَا بَابٌ وَاسِعٌ، فَأَمَانَةُ اللِّسَانِ أَنْ لَا يَسْتَعْمِلَهُ فِي الْكَذِبِ وَالْغِيْبَةِ وَالنَّمِيمَةِ وَالْكَفْرِ وَالْبِدْعَةِ وَالْفُحْشِ وَغَيْرِهَا، وَأَمَانَةُ الْعَيْنِ أَنْ لَا يَسْتَعْمِلَهَا فِي النَّظَرِ إِلَى الْحَرَامِ، وَأَمَانَةُ السَّمْعِ أَنْ لَا يَسْتَعْمِلَهُ فِي سَمَاعِ الْمَلَاهِي وَالْمَنَاهِي، وَسَمَاعِ الْفُحْشِ وَالْأَكَاذِبِ وَغَيْرِهَا، وَكَذَا الْقَوْلُ فِي جَمِيعِ الْأَعْضَاءِ.

وَأَمَّا الْقِسْمُ الثَّانِي: وَهُوَ رِعَايَةُ الْأَمَانَةِ مَعَ سَائِرِ الْخَلْقِ فَيَدْخُلُ فِيهَا رَدُّ الْوَدَائِعِ، وَيَدْخُلُ فِيهِ تَرْكُ التَّطْفِيفِ فِي الْكِيلِ وَالْوَزْنِ، وَيَدْخُلُ فِيهِ أَنْ لَا يُفْشِيَ عَلَى النَّاسِ عُيُوبَهُمْ، وَيَدْخُلُ فِيهِ عَدْلُ الْأُمَرَاءِ مَعَ رَعِيَّتِهِمْ وَعَدْلُ الْعُلَمَاءِ مَعَ الْعَوَامِّ بِأَنْ لَا يَحْمِلُوهُمْ عَلَى التَّعَصُّبَاتِ الْبَاطِلَةِ، بَلْ يَرْشِدُونَهُمْ إِلَى اعْتِقَادَاتٍ وَأَعْمَالٍ تَنْفَعُهُمْ فِي دُنْيَاهُمْ وَأُخْرَاهُمْ، وَيَدْخُلُ فِيهِ نَهْيُ الْيَهُودِ عَنْ كَيْتْمَانِ أَمْرِ مُحَمَّدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَنَهْيُهُمْ عَنْ قَوْلِهِمْ لِلْكَفَّارِ: إِنَّ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ أَفْضَلُ مِنْ دِينِ مُحَمَّدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَيَدْخُلُ فِيهِ أَمْرُ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بِرَدِّ الْمِفْتَاحِ إِلَى عُثْمَانَ بْنِ طَلْحَةَ، وَيَدْخُلُ فِيهِ أَمَانَةُ الزَّوْجَةِ

(١) «التفسير الكبير» للبخاري (١٣٨/١٠-١٣٩).

تنبيه: في تفسير الفخر الرازي في كثير من المسائل بعد استطراد فيما لا فائدة فيه، بل وخطأ، ولكن هذا لا يمنعنا أن نأخذ منه ما أفاد فيه وأصاب وأجاد.

لِلزَّوْجِ فِي حِفْظِ فَرْجِهَا، وَفِي أَنْ لَا تُلْحَقَ بِالزَّوْجِ وَلَدًا يُولَدُ مِنْ غَيْرِهِ. وَفِي إِخْبَارِهَا عَنْ انْقِصَاءِ عِدَّتِهَا.

وَأَمَّا الْقِسْمُ الثَّالِثُ: وَهُوَ أَمَانَةُ الْإِنْسَانِ مَعَ نَفْسِهِ فَهُوَ أَنْ لَا يَخْتَارَ لِنَفْسِهِ إِلَّا مَا هُوَ الْأَنْفَعُ وَالْأَصْلَحُ لَهُ فِي الدِّينِ وَالْدُّنْيَا، وَأَنْ لَا يُقَدِّمَ بِسَبَبِ الشَّهْوَةِ وَالْغَضَبِ عَلَى مَا يَضُرُّهُ فِي الْآخِرَةِ، وَلِهَذَا قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ». فقوله: {يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا} يَدْخُلُ فِيهِ الْكُلُّ.

وَقَدْ عَظَّمَ اللَّهُ أَمْرَ الْأَمَانَةِ فِي مَوَاضِعَ كَثِيرَةٍ مِنْ كِتَابِهِ فَقَالَ: {إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ} [الْأَنْزَاب: ٧٢] وَقَالَ: {وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ} [الْمُؤْمِنُونَ: ٨] وَقَالَ: {وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ} [الْأَنْفَال: ٢٧].

وَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «لَا إِيمَانَ لِمَنْ لَا أَمَانَةَ لَهُ». **وَقَالَ مَيْمُونُ بْنُ مِهْرَانَ:** ثَلَاثَةٌ يُؤَدِّينَ إِلَى الْبَرِّ وَالْفَاجِرِ: الْأَمَانَةُ وَالْعَهْدُ وَصِلَةُ الرَّحِمِ.

وَقَالَ الْقَاضِي: لَفْظُ الْأَمَانَةِ وَإِنْ كَانَ مُتَنَاوِلًا لِلْكُلِّ إِلَّا أَنَّهُ تَعَالَى قَالَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا فَوَجَبَ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ بِهَذِهِ الْأَمَانَةِ مَا يَجْرِي مَجْرَى الْمَالِ، لِأَنَّهَا هِيَ الَّتِي يُمَكِّنُ أَدَاؤُهَا إِلَى الْغَيْرِ.

س: هل تؤدي الأمانات إلى أصحابها الفجار؟

ج: قال صديق حسن خان في «فتح البيان»: وأجمعوا على أن الأمانات مردودة إلى أربابها الأبرار منهم والفجار، كما قال ابن المنذر.

قلت (مصطفى): وإن ورد نوع من الاستثناء فذلك حسن، فعلى سبيل المثال: إذا استأمن شخص شخصاً على سلاح، ثم جاءه يطلب سلاحه كي يقتل به مسلماً ظالماً وعدواناً فمنعته السلاح ولم أعطه - ليس من باب جحد الأمانة، ولكن من باب نصرته ظالماً بمنعه من الظلم فهذا - فيما أرى والله أعلى - صنيع حسن. وكذلك إذا استأمني رجل على مالٍ، ثم جاء يطلب ماله وأنا موقن أنه سيشتري

به مخدرات ومسكرات؛ فمنعه المال حينئذٍ أولى من إعطائه، والله أعلم؛ وذلك لنصوص عدة، كقوله تعالى: ﴿البقرة: ٢٠٥﴾، وكقوله تعالى: ﴿المائدة: ٢﴾.

وقد قال تعالى في شأن الأيتام: ﴿النساء: ٦﴾.

س: هل يجوز لرجل اغتصب ماله أن يأخذ من مال المغتصب بغير إذن المغتصب؟

ج: نعم يجوز ذلك، قال الله تبارك وتعالى: ﴿الشورى: ٤٠﴾، وقال تعالى: ﴿الحج: ٦٠﴾، وفي الباب قصة هند كذلك، ففي «الصحيحين»^(١) من حديث عائشة رضي الله عنها أن هنداً بنت عتبة قالت: يا رسول الله، إن أبا سفيان رجل شحيح، وليس يعطيني ما يكفيني وولدي إلا ما أخذت منه وهو لا يعلم، فقال: «خذي ما يكفيك وولديك بالمعروف».

س: ما مدى صحة حديث: «أد الأمانة إلى من ائتمنك ولا تخن من خانك»؟

ج: هذا الحديث ضعيف من كل طريقه التي وقفت عليها، وقد أخرجه أبو داود والترمذي وأحمد والطبري وآخروه، وفي كل الطرق عندهم ضعف. وأحب أن أورد هنا ما أورده الحافظ في «التلخيص».

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى:

حَدِيثُ: «أَدَّ الْأَمَانَةَ إِلَى مَنْ ائْتَمَنَكَ وَلَا تَخُنْ مَنْ خَانَكَ» أَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ وَالْحَاكِمُ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ تَفَرَّدَ بِهِ طَلْقُ بْنُ عَنَامٍ عَنْ شَرِيكِ، وَاسْتَشْهَدَ لَهُ الْحَاكِمُ بِحَدِيثِ أَبِي التَّيَّاحِ عَنْ أَنَسٍ وَفِيهِ أَيُّوبُ بْنُ سُوَيْدٍ مُخْتَلَفٌ فِيهِ وَذَكَرَ الطَّبْرَانِيُّ أَنَّهُ تَفَرَّدَ بِهِ. وَفِي الْبَابِ عَنْ أَبِي بَنٍ كَعْبٍ ذَكَرَهُ ابْنُ الْجَوْزِيِّ فِي الْعِلَلِ الْمُتَنَاهِيَةِ وَفِي إِسْنَادِهِ مَنْ لَا يُعْرَفُ، وَرَوَى أَبُو دَاوُدَ وَالْبَيْهَقِيُّ مِنْ طَرِيقِ يُونُسَ بْنِ مَاهَكَ عَنْ فُلَانٍ عَنْ آخَرَ وَفِيهِ هَذَا الْمَجْهُولُ وَقَدْ صَحَّحَهُ ابْنُ السَّكَنِ، وَرَوَاهُ الْبَيْهَقِيُّ مِنْ طَرِيقِ أَبِي أُمَامَةَ بِسَنَدٍ ضَعِيفٍ ٤، وَمِنْ طَرِيقِ الْحَسَنِ مُرْسَلًا، قَالَ الشَّافِعِيُّ هَذَا الْحَدِيثُ لَيْسَ بِثَابِتٍ وَقَالَ ابْنُ الْجَوْزِيِّ لَا يَصِحُّ مِنْ جَمِيعِ طُرُقِهِ وَنُقِلَ عَنِ الْإِمَامِ أَحْمَدَ أَنَّهُ قَالَ هَذَا حَدِيثٌ بَاطِلٌ

(١) البخاري (حديث ٣٥٦٤)، ومسلم (حديث ١٧١٤).

لَا أَعْرِفُهُ مِنْ وَجْهِ يَصِحُّ.

س: إذا تلفت الأمانة هل يلزم المؤمن غرمها؟

ج: قال القرطبي رحمته الله: فَإِذَا تَلَفَتِ الْأَمَانَةُ لَمْ يَلْزَمْ الْمُؤْتَمَنُ غَرْمُهَا لِأَنَّهُ مُصَدِّقٌ.
قُلْتُ: بينما ذهب فريق آخر من العلماء إلى أن العارية مضمونة، وهذا الأخير قول الإمام الشافعي رحمه الله تعالى وحجته الآية الكريمة: ﴿النساء: ٥٨﴾.
قُلْتُ (مصطفى): وينبغي أن يكون هناك تفصيل بين المفرد في حفظ الأمانة والمحافظ عليها ولكنها تلفت بغير إرادته، أو فقدت منه بغير تفريط والله أعلم.

نصوص تحت على العدل بين الناس

س: اذكر بعض النصوص التي تحت على العدل بين الناس في الحكم.

ج: من ذلك ما يلي:

- * قول الله تبارك وتعالى: ﴿النساء: ٥٨﴾.
- * وقوله تعالى: ﴿الأعراف: ١٨١﴾.
- * وقوله تعالى: ﴿المائدة: ٨﴾.
- * وقوله تعالى: ﴿الحجرات: ٨﴾.
- * وقول النبي ﷺ: «إِنَّ الْمُقْسِطِينَ عِنْدَ اللَّهِ عَلَى مَنَابِرٍ مِنْ نُورٍ، عَنْ يَمِينِ الرَّحْمَنِ ﷻ، وَكِلْتَا يَدَيْهِ يَمِينٌ، الَّذِينَ يَعْدِلُونَ فِي حُكْمِهِمْ وَأَهْلِيهِمْ وَمَا وَلُّوا»^(١).
- * وقوله ﷺ: «كُلُّ سُلَامَى مِنَ النَّاسِ عَلَيْهِ صَدَقَةٌ، كُلُّ يَوْمٍ تَطْلُعُ فِيهِ الشَّمْسُ يَعْدِلُ بَيْنَ النَّاسِ صَدَقَةٌ..»^(٢) الحديث.

س: هل يتجه الحاكم إلى الإصلاح بين الخصوم، وإن استبان له الحق؟

ج: نعم يجوز له ذلك، فله أن يحث صاحب الحق على التنازل عن شيء من حقه، وذلك للأدلة الآتية:

(١) أخرجه مسلم (حديث ١٨٢٧)، وقوله: (وما دولوا) أي: من كانت له عليهم ولاية.

(٢) البخاري (حديث ٢٧٠٧)، ومسلم (حديث ١٠٠٩).

* ورد من حديث كعب بن مالك رضي الله عنه ^(١) أنه تقاضى ابن أبي حدرد دينًا كان له عليه في المسجد، فارتفعت أضواتهما حتى سمعها رسول الله ﷺ وهو في بيته، فخرج إليهما حتى كشف سجنف حُجْرَتِهِ، فنادى: «يا كعب»، قال: لبيك يا رسول الله! قال: «ضع من دينك هذا»، وأومأ إليه - أي: الشطر - قال: لقد فعلت يا رسول الله، قال: «قم فاقضه».

فهنا حث النبي ﷺ كعب بن مالك على وضع النصف من ماله الذي له عند ابن أبي حدرد، وهذا نوع من أنواع الإصلاح، أما القضاء فيستلزم أن يستوفي كعب حقه كاملاً.

وفي «الصحيح» ^(٢) أيضاً من حديث عبد الله بن الزبير رضي الله عنه، أن رجلاً من الأنصار خاصم الزبير عند النبي ﷺ، في شراج ^(٣) الحرة التي يسقون بها النخل، فقال الأنصاري: سرح ^(٤) الماء يمر، فأبى عليه؟ فاختصما عند النبي ﷺ، فقال رسول الله ﷺ للزبير: «اسق يا زبير، ثم أرسل الماء إلى جارك»، فغضب الأنصاري، فقال: أن كان ابن عمّتك؟ فتلون وجه رسول الله ﷺ، ثم قال: «اسق يا زبير، ثم احبس الماء حتى يرجع إلى الجدر» ^(٥)، فقال الزبير: والله إنني لأحسب هذه الآية نزلت في ذلك: {فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ} [النساء: ٦٥].

فهنا أشار عليهما النبي ﷺ بأمر لهما في سعة، على سبيل الإصلاح بينهما، فلما أبى الأنصاري ذلك استوفى النبي ﷺ للزبير حقه كاملاً، فأمره أن يسقي حتى تمتلئ أرضه بالماء (حتى يرجع الماء إلى الجدر) ثم يرسله إلا الأنصاري.

وقد بوب البخاري لهذا الحديث بباب: إذا أشار الإمام بالصلح فأبى حكم عليه

(١) انظر البخاري (حديث ٢٧١٠)، و (٢٧٠٦)، ومسلم (حديث ١٥٥٨).

(٢) البخاري (حديث ٢٧١٠)، ومسلم (حديث ١٥٥٨).

(٣) شراج: هو مسيل الماء، أما الحرة، فهي موضع بمدينة رسول الله ﷺ.

(٤) سرح الماء: أي: أطلق الماء، قال الحافظ في الفتح: وإنما قال له ذلك؛ لأن الماء كان يمر بأرض الزبير قبل أرض الأنصاري، فيحسبه لإكمال سقي أرضه، ثم يرسله إلى أرض جاره، فالتمس منه الأنصاري تعجيل ذلك فامتنع.

(٥) في رواية للبخاري (حديث ٤٥٨٥). وانظر أيضاً: (حديث ٢٧٠٨) «واستوعى له حقه».

بالحكم البين.

وكنحو ذلك الوارد في قوله تعالى: ﴿النساء: ١٢٨﴾.

جاء في البخاري من حديث عائشة رضي الله عنها أنها قالت في هذه الآية: الرَّجُلُ تَكُونُ عِنْدَهُ الْمَرْأَةُ، لَيْسَ بِمُسْتَكْثَرٍ مِنْهَا، يُرِيدُ أَنْ يُفَارِقَهَا، فَتَقُولُ: أَجْعَلُكَ مِنْ شَأْنِي فِي حِلٍّ، فَزَلْتُ هَذِهِ الْآيَةَ فِي ذَلِكَ.

س: ما وجه ختام الآية الكريمة بقوله تعالى: ﴿﴾؟

ج: وجه ذلك أن الله يحذر عباده من خيانة الأمانات، وذلك بإخبارهم أنه سبحانه سميع لأقوالهم بصيرٌ بهم وبأفعالهم ومن ثمَّ سيجازيهم على حفظهم للأمانات ويعاقبهم على خيانتها والله أعلم، فهو سبحانه حافظ لأعمالهم حتى يجازي المحسن بإحسانه ويعاقب المسيء بإساءته.

س: ما مدى صحى الحديث الذي فيه أن النبي ﷺ قرأ هذه الآية: ﴿﴾ فوضع إبهامه اليمنى على أذنه اليمنى؟

ج: أخرج أبو داود^(١) وغيره بإسناد صحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قرأ هذه الآية: ﴿﴾ إلى قوله تعالى: ﴿﴾ قال: رأيت رسول الله ﷺ يضع إبهامه على أذنه والتي تليها على عينه، قال أبو هريرة: رأيت رسول الله ﷺ يقرؤها ويضع إصبعه.

س: وضع سبب نزول قوله تعالى: ﴿﴾.

ج: سبب ذلك ما أخرجه البخاري ومسلم^(٢) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: ﴿﴾ قال: نزلت في عبد الله بن حذافة بن قيس بن عدي إذ بعثه النبي ﷺ في سرية. **قُلْتُ:** ولعل هذا البعث يتضح من حديث علي رضي الله عنه قال: بعث رسول الله ﷺ سرية، واستعمل عليهم رجلاً من الأنصار. وأمرهم أن يسمعوا له ويطيعوا، فأغضبوه

(١) أبو داود (٤٧٢٨)، وابن خزيمة في «التوحيد» (ص ٤٣)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» حديث (٣٩٠)، وغيرهم جمٌ غفير، وإسناده صحيح كما أشرنا إليه، والله أعلم.

(٢) البخاري (حديث ٤٥٨٤). ومسلم (حديث ١٨٣٤).

في شيء، فقال: اجمعوا لي حطبًا. فجمعوا له، ثم قال: أوقدوا نارًا، فأوقدوا. ثم قال: ألم يأمركم رسول الله ﷺ أن تسمعوا لي وتطيعوا؟ قالوا: بلى. قال: فادخلوها. قال: فنظر بعضهم إلى بعض، فقالوا: إنما فررنا إلى رسول الله ﷺ من النار، فكانوا كذلك، وسكن غضبه، وطُفِئَت النار، فلما رجعوا ذكروا ذلك للنبي ﷺ فقال: «لو دخلوها ما خرجوا منها، إنما الطاعة في المعروف».

س: فيم تتمثل طاعة رسول الله ﷺ؟

ج: تتمثل طاعة رسول الله ﷺ في امتثال أوامره، واجتناب نواهيه في حياته، وامثالها أيضًا بعد مماته.

س: اذكر بعض النصوص التي تحت على طاعة الله ورسوله.

ج: من ذلك ما يلي:

* قوله تعالى: ﴿﴾ [الأنفال: ٢٠-٢١].

* وقوله تعالى: ﴿﴾ [النور: ٥٤].

* وقوله تعالى: ﴿﴾ [النساء: ٦٤].

* وقوله تعالى: ﴿﴾ [النور: ٦٣].

* وقوله تعالى: ﴿﴾ [النساء: ٥٩].

* وقوله تعالى: ﴿﴾ [النساء: ٨٠].

* وقوله تعالى: ﴿﴾ [آل عمران: ٣١].

* وقوله تعالى: ﴿﴾ [الحشر: ٧].

وقول النبي ﷺ: «مَنْ أَطَاعَنِي فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ عَصَى اللَّهَ..».

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿﴾ وَقَلِيلٌ مِّنْهُمْ حَقٌّ لَا تُكُونَ فَتْنَةً وَيَكُونُ الَّذِينَ كَلِمَةُ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣١﴾ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَكُمْ نِعَمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعَمَ النَّصِيرِ ﴿٤٠﴾.

ج: المعنى - والله أعلم - : وقاتلوا يا أهل الإيمان أهل الكفر حتى لا تكون في الأرض فتنة، وقيل الفتنة الشرك، وصرف الناس عن الإيمان إلى الكفر، وهذه أعظم الفتن ومن معاني الفتنة الصرف والتحويل، أي: وقاتلوهم حتى لا ينصرف الناس من الإيمان والإسلام إلى الكفر والشرك.

وقيل: الفتنة هنا البلاء والعذاب، فالمعنى: وقاتلوهم؛ لأنهم إذا استمروا على كفرهم نزل بالأرض بلاء وعذاب، إذا لم تقاتلوهم وتأخذوا على أيديهم. أما قوله تعالى: ﴿وَيَكُونُ الَّذِينَ كُفُّوا إِلَهُهُ﴾ أي: وينتهي الشرك بالله ويكون الدين في الأرض، هو التوحيد الخالص، وعند ذلك يعبد الله ﷻ وحده لا يشرك به معه غيره، فإن انتهى هؤلاء الكفار عن شركهم وكفرهم وقاتلهم بالباطل فإن الله ﷻ مطلعٌ عليهم وعالم بهم وبنواياهم وسيكرم أهل طاعته والإنابة إليه وسيستقم من أهل الظلم وأهل الكفر والجحود والنكران والغش والخداع، أما قوله تعالى ذكره: ﴿وَلَوْ تَوَلَّوْا﴾ أي: وإن أعرضوا عن الاستجابة للإسلام ولم يؤمنون ﴿فَاعْلَمُوا﴾ يا أهل الإيمان ﴿أَنَّ اللَّهَ مَوْلَكُمْ﴾ متولي أمركم ومعينكم وناصركم فهو ﴿نِعَمَ الْمَوْلَى﴾ نعم من تولى الأمور ﴿وَنِعَمَ النَّصِيرِ﴾ الذي ينصر عباده المؤمنين.

وينحو هذا قال أهل العلم بالتأويل.

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره للمؤمنين به وبرسوله: وإن يعد هؤلاء لحربك، فقد رأيتم ستي فيمن قاتلكم منهم يوم بدر، وأنا عائد بمثلها فيمن حاربكم منهم، فقاتلوهم حتى لا يكون شرك، ولا يعبد إلا الله وحده لا شريك له، فيرتفع البلاء عن عباد الله من الأرض، وهو «الفتنة»، ﴿وَيَكُونُ الَّذِينَ كُفُّوا إِلَهُهُ﴾، يقول: حتى تكون الطاعة والعبادة كلها لله خالصة دون غيره.

ثم قال رحمه الله:

وأما قوله: ﴿فَإِنْ أَنْتَهُوْا﴾، فإن معناه: فإن انتهوا عن الفتنة، وهي الشرك بالله، وصاروا إلى الدين الحق معكم، ﴿فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ يقول: فإن الله لا يخفى عليه ما يعملون من ترك الكفر والدخول في دين الإسلام، لأنه يبصركم ويبصر

أعمالكم، والأشياء كلها متجلية له، لا تغيب عنه، ولا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين.

وقد قال بعضهم: معنى ذلك، فإن انتهوا عن القتال.

قال أبو جعفر: والذي قلنا في ذلك أولى بالصواب، لأن المشركين وإن انتهوا عن القتال، فإنه كان فرضاً على المؤمنين قتالهم حتى يسلموا.

وقال في تأويل قوله: ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا فَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَكُمْ نِعَمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعَمَ النَّصِيرِ﴾.

يقول تعالى ذكره: وإن أدبر هؤلاء المشركون عما دعوتهم إليه، أيها المؤمنون من الإيمان بالله ورسوله، وترك قتالكم على كفرهم، فأبوا إلا الإصرار على الكفر وقاتلكم، فقاتلوهم، وأيقنوا أن الله معينكم عليهم وناصركم ﴿نِعَمَ الْمَوْلَىٰ﴾، هو لكم، يقول: نعم المعين لكم ولأوليائه ﴿وَنِعَمَ النَّصِيرِ﴾، وهو الناصر.

وقال ابن كثير رحمه الله:

وقوله: ﴿فَإِنْ أَنْتَهُوْا﴾ أي: بقاتلكم عما هم فيه من الكفر، فكفوا عنه وإن لم تعلموا بواطنهم، ﴿فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ كقوله: ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ **[التوبة: ٥]**، وفي الآية الأخرى: ﴿فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ﴾ **[التوبة: ١١]**.

وقال: ﴿وَقَنَلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنْ أَنْتَهُوْا فَلَا عُدُونَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾.

[البقرة: ١٩٣]

وفي الصحيح ^(١) أن رسول الله ﷺ قال لأسماء -لما علا ذلك الرجل بالسيف، فقال: «لا إله إلا الله»، فضربه فقتله، فذكر ذلك لرسول الله -فقال لأسماء: «أقتلته بعد ما قال: لا إله إلا الله؟ وكيف تصنع بلا إله إلا الله يوم القيامة؟» فقال: يا رسول الله، إنما قالها تعوداً. قال: «هلا شققت عن قلبه؟»، وجعل يقول ويكرر عليه: «من لك بلا إله إلا الله يوم القيامة؟» قال أسماء: حتى تمنيت أني لم أكن أسلمت إلا ذلك اليوم.

وقوله: ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا فَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَكُمْ نِعَمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعَمَ النَّصِيرِ﴾ أي: وإن

(١) البخاري (٤٢٦٩)، ومسلم (٩٦).

استمروا على خلافكم ومحاربتكم، ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَكُمْ﴾ وسيدكم وناصركم على أعدائكم، فنعم المولى ونعم النصير.

وأورد ابن كثير عددًا من الآثار عن السلف في تفسير قوله تعالى: ﴿وَيَكُونُ الَّذِينَ كُفُّهُ لَكُمْ﴾ مؤداها حتى يُقال لا إله إلا الله، ولا يكون مع الإسلام دين ثم قال بعد أن أوردتها.

ويشهد لهذا ما ثبت في الصحيحين^(١) عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فإذا قالوها، عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها، وحسابهم على الله ﷻ».

وفي الصحيحين^(٢) عن أبي موسى الأشعري قال: سئل رسول الله ﷺ عن الرجل يقاتل شجاعة ويقاتل حمية، ويقاتل رياءً، أي ذلك في سبيل الله، ﷻ؟ فقال: «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا، فهو في سبيل الله ﷻ».

قال السعدي رحمه الله:

﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ أي: شرك وصد عن سبيل الله، واذعنوا لأحكام الإسلام، ﴿وَيَكُونُ الَّذِينَ كُفُّهُ لَكُمْ﴾ فهذا المقصود من القتال والجهاد لأعداء الدين، أن يدفع شرهم عن الدين، وأن يذب عن دين الله الذي خلق الخلق له، حتى يكون هو العالي على سائر الأديان.

﴿فَإِنْ أَنْتَهُوَ﴾ عن ما هم عليه من الظلم ﴿فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ لا تخفى عليه منهم خافية.

﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ عن الطاعة وأوضاعوا في الإضاعة ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَكُمْ نِعَمَ الْمَوْلَى﴾ الذي يتولى عباده المؤمنين، ويوصل إليهم مصالحهم، ويسر لهم منافعهم الدينية والدنيوية. ﴿وَنِعَمَ النَّصِيرُ﴾ الذي ينصرهم، فيدفع عنهم كيد الفجار، وتكالب الأشرار. ومن كان الله مولاه وناصره فلا خوف عليه، ومن كان الله عليه فلا عزَّ له ولا قائمة تقوم له.

(١) البخاري (٢٥)، ومسلم (٢٢).

(٢) البخاري (٢٨١٠)، ومسلم (١٩٠٤).

هذا، وقد وردت عدة آثار عند تفسير هذه الآية الكريمة منها:

ما أخرجه البخاري^(١) من طريق نافع عن ابن عمر؛ أن رجلاً جاءه فقال: يا أبا عبد الرحمن، ألا تسمع ما ذكر الله في كتابه: ﴿وَلَا تَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ظَنُّكَ بِاللَّهِ أَنْ يَرْزُقَكَ إِنْ أَرَادَ بِكَ ضَرْبًا﴾ الآية [الحجرات: ٩]، فما يمنعك ألا تقاتل كما ذكر الله في كتابه؟ فقال: يا ابن أخي، أُعِيرَ بهذه الآية ولا أقاتل، أحب إلي من أن أُعِيرَ بالآية التي يقول الله ﷻ: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا...﴾ إلى آخر الآية [النساء: ٩٣]، قال: فإن الله تعالى يقول: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾؟ قال ابن عمر: قد فعلنا على عهد رسول الله ﷺ إذ كان الإسلام قليلاً وكان الرجل يُفْتَنُ في دينه: إما أن يقتلوه، وإما أن يوثقوه، حتى كثر الإسلام فلم تكن فتنة، فلما رأى أنه لا يوافقهما فيما يريد، قال: فما قولك في علي وعثمان؟ قال ابن عمر: أما قولي في علي وعثمان؟ أما عثمان فكان الله قد عفا عنه، وكرهتم أن يعفو الله عنه، وأما علي فابن عم رسول الله ﷺ وخَتَنُهُ -وأشار بيده - وهذه ابنته أو: بنته - حيث ترون.

ثم أورد البخاري بسنده إلى سعيد بن جبير قال: خرج علينا -أو: إلينا- ابن عمر، فقال رجل: كيف ترى في قتال الفتنة؟ فقال: وهل تدري ما الفتنة؟ كان محمد ﷺ يقاتل المشركين، وكان الدخول عليهم فتنة، وليس بقتالكم على الملك^(٢).

ومنها ما أخرجه الطبري من طريق عروة بن الزبير^(٣) أن عبد الملك بن مروان كتب إليه يسأله عن أشياء، فكتب إليه عروة: «سلام عليك، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو. أما بعد، فإنك كتبت إليّ تسألني عن مخرج رسول الله ﷺ من مكة، وسأخبرك به، ولا حول ولا قوة إلا بالله. كان من شأن خروج رسول الله ﷺ من مكة، أن الله أعطاه النبوة، فنعم النبي! ونعم السيد! ونعم العشيرة! فجزاه الله خيراً، وعرفنا وجهه في الجنة، وأحياناً على ملته، وأماتنا عليها، وبعثنا عليها. وإنه لما دعا قومه لما بعثه الله له من الهدى والنور الذي أنزل عليه، لم يَبْعُدُوا منه أوّل ما دعاهم إليه،

(١) البخاري (٤٦٥٠).

(٢) البخاري (٤٦٥١).

(٣) وهذا مرسل.

وكادوا يسمعون له، حتى ذكر طواغيتهم. وقدم ناس من الطائف من قريش، لهم أموال، أنكر ذلك ناس، واشتدوا عليه، وكرهوا ما قال، وأغروا به من أطاعهم، فانصفق عنه عامة الناس فتركوه، إلا من حفظه الله منهم، وهم قليل. فمكث بذلك ما قدّر الله أن يمكث، ثم ائتمرت رؤوسهم بأن يفتنوا من اتبعه عن دين الله من أبنائهم وإخوانهم وقبائلهم، فكانت فتنة شديدة الزلزال، فافتتن من افتتن، وعصم الله من شاء منهم. فلما فعل ذلك بالمسلمين، أمرهم رسول الله ﷺ أن يخرجوا إلى أرض الحبشة. وكان بالحبشة ملك صالح يقال له «النجاشي»، لا يظلم أحد بأرضه، وكان يُننى عليه مع ذلك صلاح، وكانت أرض الحبشة متجرًا لقريش، يتجرون فيها، ومساكن لتجارهم يجدون فيها رفاغًا من الرزق وأمنًا ومتجرًا حسنًا، فأمرهم بها النبي ﷺ، فذهب إليها عامتهم لما قُهرُوا بمكة، وخاف عليهم الفتن. ومكث هو فلم يبرح. فمكث ذلك سنوات يشتدّون على من أسلم منهم. ثم إنه فشا الإسلام فيها، ودخل فيه رجال من أشrafهم ومنعتهم. فلما رأوا ذلك، استرخوا استرخاءة عن رسول الله ﷺ وعن أصحابه. وكانت الفتنة الأولى هي أخرجت من خرج من أصحاب رسول الله ﷺ قبل أرض الحبشة، مخافتها، وفرارًا مما كانوا فيه من الفتن والزلال. فلما استرخي عنهم، ودخل في الإسلام من دخل منهم، تُحدثت باسترخائهم عنهم. فبلغ ذلك من كان بأرض الحبشة من أصحاب رسول الله ﷺ: أنه قد استرخي عمن كان منهم بمكة، وأنهم لا يفتنون. فرجعوا إلى مكة، وكادوا يأمنون بها، وجعلوا يزدادون، ويكثرون. وأنه أسلم من الأنصار بالمدينة ناس كثير، وفشا بالمدينة الإسلام، وطفق أهل المدينة يأتون رسول الله ﷺ بمكة. فلما رأت ذلك قريش، تذامرت على أن يفتنوهم ويشتدوا عليهم، فأخذوهم، وحرصوا على أن يفتنوهم، فأصابهم جهد شديد. وكانت الفتنة الآخرة. فكانت ثنتين: فتنة أخرجت من خرج منهم إلى أرض الحبشة، حين أمرهم رسول الله ﷺ بها، وأذن لهم في الخروج إليها، وفتنة لما رجعوا ورأوا من يأتيهم من أهل المدينة. ثم إنه جاء رسول الله ﷺ من المدينة سبعون نقيبًا، رؤوس الذين أسلموا، فوافوه بالحج، فبايعوه بالعقبة، وأعطوه عهدهم على أنا منك وأنت منا، وعلى أن من جاء من أصحابك أو جئتنا، فإننا نمنعك مما نمنع منه أنفسنا.

فاشتدت عليهم قريش عند ذلك. فأمر رسول الله ﷺ أصحابه أن يخرجوا إلى المدينة، وهي الفتنة الآخرة التي أخرج فيها رسول الله ﷺ أصحابه، وخرج هو، وهي التي أنزل الله فيها: ﴿وَقَنَلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾.



قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:

(﴿ وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ
وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أُنزَلْنَا عَلَىٰ
عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّقَىٰ أَجْمَعِينَ ۖ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾
إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدُوَّةِ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدُوَّةِ الْقُصْوَىٰ وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ
مِنْكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لِاخْتِلَافْتُمْ فِي الْمِيعَدِ وَلَكِنَّ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا
كَانَ مَفْعُولًا لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ
وَإِنَّا لَنَسْمِعُ ۙ عَلَيْهِمْ ﴿٤٢﴾ إِذْ يُرِيكُهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا وَلَوْ
أَرَادْتُمْ كَثِيرًا لَفَاشَلْتُمْ وَلَنَنْزَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ
إِنَّهُ ۖ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٤٣﴾ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ التَّقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ
قَلِيلًا وَيَقْلِلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى
اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٤٤﴾ ﴾

[الأنفال: ٤١-٤٤].

س: وضع معنى ما يلي:

﴿يَوْمَ الْفُرْقَانِ - الْجَمْعَانِ - بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا - بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى - وَالرَّكْبِ أَسْفَلَ مِنْكُمْ - لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾.

ج:

الكلمة	معناها
(يَوْمَ الْفُرْقَانِ) ﴿	اليوم الذي فرَّق الله فيه بين الحق والباطل ونصر أهل الحق وخذل أهل الباطل.
(الْجَمْعَانِ) ﴿	جمع الكفار وجمع المؤمنين.
(بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا) ﴿	ناحية الوادي القريبة من المدينة.
(بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى) ﴿	ناحية الوادي القريبة من مكة، والبعيدة عن المدينة.
(وَالرَّكْبِ أَسْفَلَ مِنْكُمْ) ﴿	ركب أبي سفيان، العير التي تحمل التجارات التي أتى بها أبو سفيان من الشام، وقيل: الإبل التي كانت تحمل متاع الرسول وأصحابه.
(لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ) ﴿	ليكفر ويهلك بكفره من هلك وهو على بصيرة بأنه على ضلال، ويؤمن من آمن فيحيا بالإيمان، من هو على بصيرة بأنه على الحق، وبأن القرآن من عند الله .

الفرق بين الغنيمة والفِيء

س: ما المراد بالغنيمة وما المراد بالفِيء؟

ج: الظاهر - والله أعلم - أن المراد بالغنائم ما يغنمه المسلمون من الكفار بعد هزيمة الكفار وبعد حربهم.

أما الفِيء فهو ما أفاء الله به على أهل الإسلام من أهل الكفر بدون قتال. وأحياناً يطلق الفِيء على الغنيمة وتطلق الغنيمة على الفِيء بحسب ما يقتضيه المقام والسياق، والله أعلم.

قال ابن الجوزي في زاد المسير:

قوله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِّن شَيْءٍ﴾ اختلفوا، هل الغنيمة والفِيء بمعنى واحد أم يختلفان؟ على قولين:

أحدهما: أنهما يختلفان، ثم في ذلك قولان. **أحدهما:** أن الغنيمة ما ظهر عليه من أموال المشركين، والفِيء: ما ظهر عليه من الأرضين، قاله عطاء بن السائب. **والثاني:** أن الغنيمة ما أخذ عنوة والفِيء ما أخذ عن صلح قاله سفيان الثوري وقيل بل الفِيء ما لم يوجف عليه بخيل ولا ركاب كالعشور والجزية وأموال المهادنة والصلح وما هربوا عنه.

والثاني: أنهما واحد، وهما كل ما نيل من المشركين، ذكره الماوردي. وقال الزجاج: الأموال ثلاثة أصناف؛ فما صار إلى المسلمين من المشركين في حال الحرب، فقد سماه الله تعالى: أنفالاً وغنائم؛ وما صار من المشركين من خراج أو جزية مما لم يؤخذ في الحرب، فقد سماه فيئاً؛ وما خرج من أموال المسلمين، كالزكاة، والنذر، والقرب، سماه: صدقة. وأما قوله: ﴿مِّن شَيْءٍ﴾ فالمراد به: كل ما وقع عليه اسم الشيء، قال مجاهد: المخيط من الشيء.

وقال الشنقيطي في أضواء البيان:

اعلم أولاً أن أكثر العلماء: فرقوا بين الفِيء والغنيمة فقالوا: الفِيء: هو ما يسره الله للمسلمين من أموال الكفار من غير انتزاعه منهم بالقهر، كفيء بني النضير الذين نزلوا على حكم النبي ﷺ ومكنوه من أنفسهم وأموالهم يفعل فيها ما يشاء لشدة

الرعب الذي ألقاه الله في قلوبهم، ورضي لهم ﷺ أن يرتحلوا بما يحملون على الإبل غير السلاح، وأما الغنيمة: فهي ما انتزعه المسلمون من الكفار بالغلبة والقهر، وهذا التفريق يفهم من قوله: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ﴾، الآية مع قوله: ﴿فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ﴾، فإن قوله تعالى: ﴿فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ﴾، الآية: ظاهر في أنه يراد به بيان الفرق بين ما أوجفوا عليه وما لم يوجفوا عليه كما ترى.

قال القرطبي رحمه الله:

قوله تعالى ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ﴾، الغنيمة في اللغة ما يناله الرجل أو الجماعة بسعي، ومن ذلك قول الشاعر:

وقد طوفت في الآفاق حتى رضيت من الغنيمة بالإياب

وقال آخر:

ومطعم الغنم يوم الغنم مطعمه أنى توجه والمحروم محروم

والمغنم والغنيمة بمعنى؛ يقال: غنم القوم غنمًا. وأعلم أن الاتفاق حاصل على أن المراد بقوله تعالى: ﴿غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ﴾، مال الكفار إذا ظفر به المسلمون على وجه الغلبة والقهر. ولا تقتضي اللغة هذا التخصيص على ما بيناه، ولكن عرف الشرع قيد اللفظ بهذا النوع. وسمى الشرع الواصل من الكفار إلينا من الأموال باسمين: غنيمةً وفيثًا. فالشيء الذي يناله المسلمون من عدوهم بالسعي وإيجاف الخيل والركاب يسمى غنيمة. ولزم هذا الاسم هذا المعنى حتى صار عرفًا. والفيء مأخوذ من فاء يفيء إذا رجع، وهو كل مال دخل على المسلمين من غير حرب ولا إيجاف. كخراج الأرضين وجزية الجماجم وخمس الغنائم. ونحو هذا قال سفيان الثوري وعطاء بن السائب. وقيل: إنهما واحد، وفيهما الخمس؛ قاله قتادة. وقيل: الفيء عبارة عن كل ما صار للمسلمين من الأموال بغير قهر. والمعنى متقارب.

أ س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿مِنْ شَيْءٍ﴾.

ج: قال الطبري رحمه الله:

وأما قوله: ﴿مِنْ شَيْءٍ﴾، فإنه مرادٌ به: كل ما وقع عليه اسم ﴿شَيْءٍ﴾، مما خوله

الله المؤمنين من أموال من غلبوا على ماله من المشركين، مما وقع عليه القسم، حتى الخيط والمخيط.

س: هل قوله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ﴾ على عمومه أم

أنه يدخله الخصوص، واستثنت منه أشياء؟

ج: بل هو مخصوص، خصص واستثنت منه أشياء.

قال القرطبي رحمه الله:

لم يختلف العلماء أن قوله: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ ليس على عمومه، وأنه يدخله الخصوص، فمما خصصوه بإجماع أن قالوا: سلب المقتول لقاتله إذا نادى به الإمام. وكذلك الرقاب، أعني الأسارى، الخيرة فيها إلى الإمام بلا خلاف، على ما يأتي بيانه. ومما خص به أيضًا الأرض. والمعنى: ما غنمتم من ذهب وفضة وسائر الأمتعة والسبي. وأما الأرض فغير داخلية في عموم هذه الآية، لما روى أبو داود عن عمر بن الخطاب أنه قال: «لولا آخر الناس ما فتحت قرية إلا قسمتها كما قسم رسول الله ﷺ خيبر». ومما يصحح هذا المذهب ما رواه الصحيح عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «منعت العراق قفيزها ودرهمها ومنعت الشام مدها ودينارها» الحديث. قال الطحاوي: «منعت» بمعنى ستمنع، فدل ذلك على أنها لا تكون للغانمين، لأن ما ملكه الغانمون لا يكون فيه قفيز ولا درهم، ولو كانت الأرض تقسم ما بقي لمن جاء بعد الغانمين شيء. والله تعالى يقول: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ [الحشر: ١٠] بالعطف على قوله: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ﴾ [الحشر: ٨]. قال: وإنما يقسم ما ينقل من موضع إلى موضع. وقال الشافعي: كل ما حصل من الغنائم من أهل دار الحرب من شيء قل أو كثر من دار أو أرض أو متاع أو غير ذلك قسم، إلا الرجال البالغين فإن الإمام فيهم مخير أن يمن أو يقتل أو يسبي. وسبيل ما أخذ منهم وسبي سبيل الغنيمة. واحتج بعموم الآية. قال: والأرض مغنومة لا محالة، فوجب أن تقسم كسائر الغنائم. وقد قسم رسول الله ﷺ ما افتتح عنوة من خيبر. قالوا: ولو جاز أن يدعى الخصوص في الأرض جاز أن يدعى في غير الأرض فيبطل حكم الآية.

استحقاق القاتل سلب القاتل

س: اذكر ما يدل على أن من قتل قتيلاً فله سلبه؟

ج: من ذلك ما أخرجه البخاري ومسلم^(١) من حديث عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: بَيْنَا أَنَا وَاقِفٌ فِي الصَّفِّ يَوْمَ بَدْرٍ، نَظَرْتُ عَنْ يَمِينِي وَشِمَالِي، فَإِذَا بِغُلَامَيْنِ مِنَ الْأَنْصَارِ حَدِيثَةَ أَسْنَانُهُمَا تَمَنَّيْتُ أَنْ أَكُونَ بَيْنَ أَضْلَعِ مِنْهُمَا، فَعَمَزَنِي أَحَدُهُمَا فَقَالَ: يَا عَمَّ هَلْ تَعْرِفُ أَبَا جَهْلٍ؟ قُلْتُ: نَعَمْ، مَا حَاجَتُكَ إِلَيْهِ يَا ابْنَ أَخِي؟ قَالَ: أُخْبِرْتُ أَنَّهُ يَسُبُّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَئِنْ رَأَيْتُهُ لَا يُفَارِقُ سَوَادِي سَوَادَهُ حَتَّى يَمُوتَ الْأَعْجَلُ مِنَّا. قَالَ: فَتَعَجَّبْتُ لِذَلِكَ، فَعَمَزَنِي الْآخَرُ فَقَالَ لِي مِثْلَهَا. فَلَمْ أَنْشَبْ أَنْ نَظَرْتُ إِلَى أَبِي جَهْلٍ يَجُولُ فِي النَّاسِ قُلْتُ: أَلَا إِنَّ هَذَا صَاحِبُكُمَا الَّذِي سَأَلْتُمَانِي، فَأَبْتَدَرَاهُ بِسَيْفَيْهِمَا فَضَرَبَاهُ حَتَّى قَتَلَاهُ. ثُمَّ انْصَرَفَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَأَخْبَرَاهُ فَقَالَ: «أَيُّكُمَا قَتَلَهُ؟» قَالَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا: أَنَا قَتَلْتُهُ. فَقَالَ: «هَلْ مَسَحْتُمَا سَيْفَيْكُمَا؟» قَالَا: لَا. فَطَرَفَ فِي السَّيْفَيْنِ فَقَالَ: «كِلَاكُمَا قَتَلَهُ سَلْبُهُ لِمُعَاذِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ الْجُمُوحِ» وَكَانَا مُعَاذُ بْنُ عَفْرَاءَ وَمُعَاذُ بْنُ عَمْرٍو بْنِ الْجُمُوحِ.

وأخرج البخاري ومسلم^(٢) من حديث أَبِي قَتَادَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ حُنَيْنٍ: فَلَمَّا التَقَيْنَا كَانَتْ لِلْمُسْلِمِينَ جَوْلَةٌ، فَرَأَيْتُ رَجُلًا مِنَ الْمُشْرِكِينَ عَلَا رَجُلًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ؛ فَاسْتَدْرْتُ حَتَّى أَتَيْتُهُ مِنْ وَرَائِهِ حَتَّى ضَرَبْتُهُ بِالسَّيْفِ عَلَى حَبْلٍ عَاتِقِهِ، فَأَقْبَلَ عَلَيَّ فَضَمَّنِي ضَمَّةً وَجَدْتُ مِنْهَا رِيحَ الْمَوْتِ؛ ثُمَّ أَدْرَكَهُ الْمَوْتُ فَأَرْسَلَنِي، فَلَحِقْتُ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ فَقُلْتُ: مَا بَالُ النَّاسِ؟ قَالَ: أَمْرُ اللَّهِ، ثُمَّ إِنَّ النَّاسَ رَجَعُوا، وَجَلَسَ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ: «مَنْ قَتَلَ قَتِيلًا لَهُ عَلَيْهِ بَيِّنَةٌ فَلَهُ سَلْبُهُ». فَقُمْتُ فَقُلْتُ: مَنْ يَشْهَدُ لِي؟ ثُمَّ جَلَسْتُ. ثُمَّ قَالَ: «مَنْ قَتَلَ قَتِيلًا لَهُ عَلَيْهِ بَيِّنَةٌ فَلَهُ سَلْبُهُ». فَقُمْتُ فَقُلْتُ: مَنْ يَشْهَدُ لِي؟ ثُمَّ جَلَسْتُ. ثُمَّ قَالَ الْثَالِثَةُ مِثْلَهُ فَقُمْتُ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا لَكَ يَا أَبَا قَتَادَةَ؟» فَأَقْتَصَصْتُ عَلَيْهِ الْقِصَّةَ فَقَالَ رَجُلٌ: صَدَقَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَسَلْبُهُ عِنْدِي، فَأَرْضِهِ عَنِّي. فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لَا هَا اللَّهُ إِذَا لَا يَعْمَدُ إِلَى أَسَدٍ مِنْ أَسَدِ اللَّهِ يُقَاتِلُ عَنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﷺ يُعْطِيكَ سَلْبَهُ. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «صَدَقَ» فَأَعْطَاهُ، فَبِعْتُ

(١) البخاري (٣١٤١)، ومسلم (١٧٥٢).

(٢) البخاري (٣١٤٢)، ومسلم (١٧٥١).

الدَّرْعَ فَابْتَعْتُ بِهِ مَخْرَفًا، فِي بَنِي سَلَمَةَ، فَإِنَّهُ لَأَوَّلُ مَالٍ تَأَثَّلَتْهُ فِي الْإِسْلَامِ.

ا س: هل يشترط حتى يأخذ من قتل قتيلاً في المعركة سلب القتل أن يأذن الإمام له بذلك، بمعنى إذا قتل مسلمٌ كافرًا بعينه في المعركة فأخذ غنيمته هل له أن يأخذها دون إذن الإمام أم أنه يلزم أنه يأذن له الإمام بأخذها؟

ج: قال الشنقيطي في ذلك (أضواء البيان):

واعلم أن العلماء اختلفوا في استحقاق القاتل السلب، هل يشترط فيه قول الإمام: «من قتل قتيلاً فله سلبه!» أو يستحقه مطلقاً قال الإمام ذلك أو لم يقله؟ وممن قال بهذا الأخير: الإمام أحمد، والشافعي، والأوزاعي، والليث، وإسحاق، وأبو عبيد، وأبو ثور، والطبري، وابن المنذر. وممن قال بالأول: الذي هو أنه لا يستحقه إلا بقول الإمام: «من قتل قتيلاً» إلخ الإمام أبو حنيفة، ومالك، والثوري.

وقد قدمنا عن مالك وأصحابه: أن قول الإمام ذلك: لا يجوز قبل القتال، لئلا يؤدي إلى فساد النية، ولكن بعد وقوع الواقع، يقول الإمام: من قتل قتيلاً... إلخ.

واحتج مالك، وأبو حنيفة، ومن وافقهما بأدلة:

منها: قوله ﷺ في حديث سلمة بن الأكوع، المتفق عليه السابق ذكره له سلبه أجمع قالوا: فلو كان السلب مستحقاً له بمجرد قتله لما احتاج إلى تكرير هذا القول. ومنها حديث عبد الرحمن بن عوف المتفق عليه في قصة قتل معاذ بن عمرو بن الجموح، ومعاذ ابن عفراء الأنصاريين لأبي جهل يوم بدر. فإن فيه: «ثم انصرفا إلى رسول الله ﷺ، فأخبراه، فقال: «أيكما قتله؟!»، فقال كل واحد منهما: أنا قتلته، فقال: «هل مسحتما سيفيكما؟» قالوا: لا، فنظر في السيفين، فقال: «كلاكما قتله»، وقضى بسلبه لمعاذ بن عمرو بن الجموح. اهـ.

قالوا: فتصريحه ﷺ في هذا الحديث، المتفق عليه، بأن كليهما قتله، ثم تخصيص أحدهما بسلبه، دون الآخر صريح في أن القاتل لا يستحق السلب، إلا بقول الإمام: إنه له، إذ لو كان استحقاقه له بمجرد القتل لما كان لمنع معاذ بن عفراء وجهه مع أن النبي ﷺ صرح بأنه قتله مع معاذ بن عمرو، ولجعله بينهما.

ومنها: ما رواه الإمام أحمد، ومسلم، وأبو داود، عن عوف بن مالك قال: قتل رجل من حمير رجلاً من العدو، فأراد سلبه، فمنعه خالد بن الوليد - وكان والياً عليهم - فأتى رسول الله ﷺ، عوف بن مالك فأخبره. فقال لخالد: «ما منعك أن تعطيه سلبه» قال: استكثرته يا رسول الله، قال: «ادفعه إليه»، فمر خالد بعوف فجر بردائه، ثم قال: هل أنجزت لك ما ذكرت لك من رسول الله ﷺ؟ فاستغضب فقال: «لا تعطه يا خالد، لا تعطه يا خالد، هل أنتم تاركون لي أمرائي، إنما مثلكم ومثلهم، كمثل رجل استرعى إبلاً، أو غنماً فرعاها، ثم تحين سقيها فأوردها حوضاً فشرعت فيه، فشربت صفوه، وتركت كدره، فصفوه لكم وكدره عليهم».

وفي رواية عند مسلم أيضاً: عن عوف بن مالك الأشجعي، قال: خرجت مع من خرج مع زيد بن حارثة، في غزوة مؤتة، ورافقني مددي من اليمن، وساق الحديث عن النبي ﷺ بنحوه، غير أنه قال في الحديث: قال عوف بن مالك: فقلت: يا خالد، أما علمت أن رسول الله ﷺ قضى بالسلب للقاتل، قال بلى، ولكنني استكثرته، هذا لفظ مسلم في صحيحه.

وفي رواية عن عوف أيضاً، عند الإمام أحمد وأبي داود قال: خرجت مع زيد بن حارثة في غزوة مؤتة، ورافقني مددي من أهل اليمن، ومضينا فلقينا جموع الروم، وفيهم رجل على فرس له، أشقر، عليه سرج مذهب. وسلاح مذهب. فجعل الرومي يفري في المسلمين. ففعد له المددي خلف صخرة فمر به الرومي فعرقب فرسه. فخر وعلاه فقتله. وحاز فرسه. وسلاحه. فلما فتح الله ﷻ للمسلمين بعث إليه خالد بن الوليد، فأخذ السلب.

قال عوف: فأتيته. فقلت: يا خالد أما علمت أن رسول الله ﷺ قضى بالسلب للقاتل. قال. بلى ولكن استكثرته. قلت: لتردنه إليه، أو لأعرفنكها عند رسول الله ﷺ، فأبى أن يرد عليه، قال عوف: فاجتمعنا عند رسول الله ﷺ، فقصصت عليه قصة المددي، وما فعل خالد، وذكر بقية الحديث بمعنى ما تقدم. اهـ.

فقول النبي ﷺ في هذا الحديث الصحيح: «لا تعطه يا خالد» دليل على أنه لم يستحق السلب بمجرد القتل، إذ لو استحقه به، لما منعه منه النبي ﷺ.

ومنها: ما ذكره ابن أبي شيبة، قال: حدثنا أبو الأحوص، عن الأسود بن قيس، عن بشر بن علقمة قال: بارزت رجلاً يوم القادسية، فقتلته، وأخذت سلبه، فأتيت سعداً، فخطب سعد أصحابه، ثم قال: هذا سلب بشر بن علقمة لهو خير من اثني عشر ألف درهم، وإنا قد نفلناه إياه.

فلو كان السلب للقاتل قضاء من النبي ﷺ، لما أضاف الأمراء ذلك التنفيل إلى أنفسهم باجتهادهم، ولأخذ القاتل دون أمرهم، قاله القرطبي.
قال مقبده - عفا الله عنه -: أظهر القولين عندي دليلاً أن القاتل لا يستحق السلب إلا بإعطاء الإمام؛ لهذه الأدلة الصحيحة التي ذكرنا، فإن قيل: هي شاهدة لقول إسحاق: إن كان السلب يسيراً فهو للقاتل، وإن كان كثيراً خمس.

فالجواب: أن ظاهرها العموم مع أن سلب أبي جهل لم يكن فيه كثرة زائدة، وقد منع منه النبي ﷺ معاذ ابن عفراء.

مصارف الخمس

س: قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ﴾ أين تصرف الأربعة أخماس الأخرى؟

ج: هذه تصرف للمجاهدين، أي: الأربعة أخماس الأخرى تقسم بين المجاهدين.

قال الشنقيطي في أضواء البيان:

اعلم أن جماهير علماء المسلمين على أن أربعة أخماس الغنيمة للغزاة الذين غنموها، وليس للإمام أن يجعل تلك الغنيمة لغيرهم، ويدل لهذا قوله تعالى: ﴿غَنِمْتُمْ﴾، فهو يدل على أنها غنيمة لهم فلما قال: ﴿فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ﴾ علمنا أن الأخماس الأربعة الباقية لهم لا لغيرهم، ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ آبَاؤُهُ فَلَهُمُ الثُّلُثُ﴾ [النساء: ١١] أي ولأبيه الثلثان الباقيان إجماعاً، فكذلك قوله: ﴿فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ﴾ أي وللغانمين ما بقي، وهذا القول هو الحق الذي لا شك فيه.

قال ابن الجوزي في زاد المسير:

أجمع العلماء على أن أربعة أخماس الغنيمة لأهل الحرب خاصة فأما الخمس

الخامس فكيف يقسم فيه ثلاثة أقوال:

أحدها: يقسم منه الله وللرسول وللمن ذكر في الآية وقد ذكرنا أن هذا مما انفرد به أبو العالية وهو يقتضي أن يقسم على ستة أسهم.

والثاني: أنه مقسوم على خمسة أسهم: سهم للرسول، وسهم لذوي القربى، وسهم لليتامى، وسهم للمساكين، وسهم لأبناء السبيل على ظاهر الآية وبه قال الجمهور.

والثالث: أنه يقسم على أربعة أسهم: فسهم الله ﷻ، وسهم رسوله عائد على ذوي القربى؛ لأن رسول الله ﷺ لم يكن يأخذ منه شيئاً وهذا المعنى رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس.

س: كيف يُجاب على ما صنعه النبي ﷺ تخصيص بعض القوم يوم حنين بعطاء أكثر من غيرهم كأبي سفيان والأقرع بن حابس وعيينة بن حصن والعباس بن مرداس وغيرهم؟

ج: أجاب الشنقيطي على ذلك بقوله:

وأما ما وقع في قصة حنين فالجواب عنه ظاهر، وهو أن النبي ﷺ استطاب نفوس الغزاة عن الغنيمة ليؤلف بها قلوب المؤلفة قلوبهم لأجل المصلحة العامة للإسلام والمسلمين، ويدل على ذلك أنه ﷺ لما سمع أن بعض الأنصار قال: يمنعنا ويعطي قريشاً، وسيوفنا تقطر من دمائهم، جمعهم النبي ﷺ، وكلمهم كلامه المشهور البالغ في الحسن، ومن جملة أنه قال لهم: « ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاء والبعير وترجعون برسول الله ﷺ إلى رحالكم » إلى آخر كلامه، فرضي القوم، وطابت نفوسهم، وقالوا: رضينا برسول الله ﷺ قسماً وحظاً، وهذا ثابت في الصحيح.

قلت: هذا، ومن العلماء من قال إن النبي ﷺ أعطى المؤلفة قلوبهم من الخمس الذي له ﷺ.

س: لماذا لم تُقسَم مكة لما فتحها النبي ﷺ؟

ج: قال الشنقيطي جواباً على ذلك:

ومن أظهر الأجوبة عما وقع في فتح مكة، أن مكة ليست كغيرها من البلاد، لأنها حرام بحرمة الله من يوم خلق السماوات والأرض إلى يوم القيامة، وإنما أحلت له ﷺ ساعة من نهار، ولم تحل لأحد قبله ولا بعده، وما كان بهذه المثابة فليس كغيره من البلاد التي ليست لها هذه الحرمة العظيمة.

|

س: الخمس الخامس المذكور في قوله تعالى: ﴿فَأَن لِّلَّهِ خُمُسُهُ﴾ كيف يصنع به؟
ج: يُقسم بين من ذكرهم الله تعالى إذ قال: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِّن شَيْءٍ فَإِنَّ لِّلَّهِ خُمُسُهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾.

س: قوله تعالى: ﴿فَأَن لِّلَّهِ خُمُسُهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ ستة فهل الخمس يقسم إلى ستة أقسام قسم لله ﷻ، ثم قسم للرَّسُولِ، وقسم لذي القربى، وقسم لليتامى، وقسم للمساكين، وقسم لابن السبيل أم ماذا؟

ج: ذهب أكثر العلماء إلى أنه يُقسم إلى خمسة أقسام فقط، أي: القسم الخامس يقسم إلى خمسة أقسام فقط أي: أن كل قسم منها يكون بالنسبة للغنيمة الكلية يمثل واحداً من خمسة وعشرين قسمًا.

س: إذا كان القسم الخامس إنما يقسم خمسة أقسام فقط، فما توجيه القول بأن المذكورين ستة؟

ج: لأهل العلم هنا أقوال:

أحدها: أن قوله تعالى: ﴿فَأَن لِّلَّهِ خُمُسُهُ﴾ مفتاح كلام، بمعنى أن كل شيء لله ﷻ وذكر الله ﷻ هنا استفتاح كلام للتبرك، فعلى هذا فالأقسام خمسة للرَّسُولِ ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل.

القول الثاني: أن الإمام قبل أن يقسم الخمس الخامس يضرب بيده فيه فيأخذ قبل تقسيمه شيئاً منه فيضعه للكعبة ثم يقسم الباقي إلى خمسة أقسام سهم للرَّسُولِ، وسهم لذي القربى، وسهم لليتامى، وسهم للمساكين، وسهم لابن السبيل.

القول الثالث: أن خمس الله ورسوله واحد، أي: سهم واحد.

القول الرابع: أن الواو زائدة في قوله: ﴿لِّلَّهِ﴾ و﴿لِلرَّسُولِ﴾ كالواو في قوله: ﴿فَلَمَّا أَسْلَمُوا وَتَلَّهٗ لِلْجَبِينِ﴾ [الصافات: ١٠٣]، فيكون المعنى؛ فإن لله خمسه، وبيانه للرَّسُولِ ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل.

القول الخامس: أن الخمس يُقسم على ستة فيجعل السدس للكعبة، وهو الذي لله ﷻ، وهذا راجع إلى القول الثاني الذي ذكرناه لكن بتحديد الذي يجعل للكعبة بأنه السدس، وهذه بعض أقوال العلماء في ذلك.

أورد الطبري بإسناد صحيح عن قيس بن مسلم قال: سألت الحسن عن قول الله ﷻ: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ...﴾ قال: مفتاح كلام، لله الدنيا والآخرة.

وقال القرطبي رحمه الله:

واختلف العلماء في كيفية قسم الخمس على أقوال ستة:

الأول: قالت طائفة: يقسم الخمس على ستة، فيجعل السدس للكعبة، وهو الذي لله. والثاني: لرسول الله ﷺ. والثالث: لذوي القربى. والرابع: لليتامى. والخامس: للمساكين، والسادس: لابن السبيل. وقال بعض أصحاب هذا القول: يرد السهم الذي لله على ذوي الحاجة.

الثاني: قال أبو العالية والريبع: تقسم الغنيمة على خمسة، فيعزل منها سهم واحد، وتقسم الأربعة على الناس، ثم يضرب بيده على السهم الذي عزله فما قبض عليه من شيء جعله للكعبة، ثم يقسم بقية السهم الذي عزله على خمسة، سهم للنبي ﷺ، وسهم لذوي القربى، وسهم لليتامى، وسهم للمساكين، وسهم لابن السبيل.

الثالث: قال المنهال بن عمرو: سألت عبد الله بن محمد بن علي وعلي بن الحسين عن الخمس فقال: هو لنا. قلت لعلي: إن الله تعالى يقول: ﴿وَأَلَيْتَنِي وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ فقال: أيتامنا ومساكيننا.

الرابع: قال الشافعي: يقسم على خمسة. ورأى أن سهم الله ورسوله واحد، وأنه يصرف في مصالح المؤمنين، والأربعة الأخماس على الأربعة الأصناف المذكورين في الآية.

الخامس: قال أبو حنيفة: يقسم على ثلاثة: اليتامى والمساكين وابن السبيل. وارتفع عنده حكم قرابة رسول الله ﷺ بموته، كما ارتفع حكم سهمه. قالوا: ويبدأ من الخمس بإصلاح القناطر، وبناء المساجد، وأرزاق القضاة والجند، وروي نحو هذا عن الشافعي أيضاً.

السادس: قال مالك: هو موكول إلى نظر الإمام واجتهاده، فيأخذ منه من غير تقدير، ويعطي منه القرابة باجتهاد، ويصرف الباقي في مصالح المسلمين. وبه قال

الخلفاء الأربعة، وبه عملوا. وعليه يدل قوله ﷺ: «ما لي مما أفاء الله عليكم إلا الخمس والخمس مردود عليكم». فإنه لم يقسمه أخماساً ولا أثلاثاً، وإنما ذكر في الآية من ذكر على وجه التنبيه عليهم، لأنهم من أهم من يدفع إليه. قال الزجاج محتجاً لمالك: قال الله ﷻ: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُ مِنْ خَيْرٍ فَلِلَّهِ وَالَّذِينَ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ [البقرة: ٢١٥] وللرجل جائز بإجماع أن ينفق في غير هذه الأصناف إذا رأى ذلك. وذكر النسائي عن عطاء قال: خمس الله وخمس رسوله واحد، كان رسول الله ﷺ يحمل منه ويعطي منه ويضعه حيث شاء ويصنع به ما شاء.

قال ابن الجوزي في زاد المسير:

قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ﴾، وروى عبد الوارث: «خُمُسُهُ» بسكون الميم. وفي المراد بالكلام قولان:

أحدهما: أن نصيب الله مستحق يصرف إلى بيته قال أبو العالية كان يجاء بالغنيمة فيقسمها رسول الله ﷺ على خمسة أسهم فيقسم أربعة بين الناس ثم يجعل من السهم الخامس للكعبة وهذا مما انفرد به أبو العالية فيما يقال.

والثاني: أن ذكر الله هاهنا لأحد وجهين أحدهما: لأنه المتحكم فيه والمالك له والمعنى فإن للرسول خمسه، ولذي القربى كقوله: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ والثاني: أن يكون المعنى إن الخمس مصروف في وجوه القرب إلى الله تعالى وهذا قول الجمهور فعلى هذا تكون الواو زائدة كقوله: ﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْبَجِينِ﴾ [الصافات: ١٠٣] المعنى نادينا ومثله كثير.

قال الشنقيطي في أضواء البيان:

والتحقيق أن نصيب الله جل وعلا، ونصيب الرسول ﷺ واحد، وذكر اسمه جل وعلا استفتاح كلام للتعظيم.

هذا، وقد استدلل الحافظ ابن كثير رحمه الله للقول بأن خمس الله ﷻ وخمس رسوله ﷺ واحد بحديث رواه البيهقي^(١) فقال ابن كثير رحمه الله:

(١) البيهقي (٦/٣٢٤).

ويؤيد هذا ما رواه الإمام الحافظ أبو بكر البيهقي بإسناد صحيح، عن عبد الله بن شقيق، عن رجل من بلقين قال: أتيت رسول الله ﷺ وهو بوادي القرى، وهو يعرض فرساً، فقلت: يا رسول الله، ما تقول في الغنيمة؟ فقال: «الله خمسها، وأربعة أخماس للجيش». قلت: فما أحد أولى به من أحد؟ قال: «لا ولا السهم تستخرجه من جنبك، ليس أنت أحق به من أخيك المسلم».

وأورد عدة آثار عن السلف تفيد أن خمس الله ورسوله واحد. وأورد أيضاً حديثاً ضعيف الإسناد من حديث المقدام بن معد يكرب عن عبادة بن الصامت مرفوعاً، وفي سنده ضعف.

ا س: ما يخص رسول الله ﷺ من الخمس المذكور في قوله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا

غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ...﴾ ماذا يصنع به رسول الله ﷺ؟

ج: ذهب كثير من العلماء إلى أن النبي ﷺ كان يضعه في المصالح العامة للمسلمين، وكان له أن يضطفي شيئاً منه لنفسه صلوات الله وسلامه عليه.

قال الشنقيطي رَحِمَهُ اللهُ (أضواء البيان):

وعن عمرو بن عبسة، أن رسول الله ﷺ صلى بهم إلى بغير من المغنم، فلما سلم أخذ وبرة من هذا البعير. ثم قال: «ولا يحل لي من غنائمكم مثل هذه إلا الخمس، والخمس مردود عليكم» رواه أبو داود، والنسائي^(١).

فإذا عرفت أن التحقيق أن الخمس في حياة النبي ﷺ يقسم خمسة أسهم، لأن اسم الله ذكر للتعظيم، وافتتاح الكلام به، مع أن كل شيء مملوك له جل وعلا، فاعلم أن النبي ﷺ كان يصرف نصيبه، الذي هو خمس الخمس، في مصالح المسلمين. بدليل قوله في الأحاديث التي ذكرناها آنفاً. «والخمس مردود عليكم»، وهو الحق. ويدل له ما ثبت في الصحيح: من أنه كان يأخذ قوت سنته من فيء بني النضير، كما سيأتي إن شاء الله تعالى.

وقال السعدي في تفسيره (تيسير الكريم الرحمن):

(١) أبو داود (٢٧٥٥).

سهم لله ولرسوله، يصرف في مصالح المسلمين العامة، من غير تعيين لمصلحة؛ لأن الله جعله له ولرسوله، والله ورسوله غنيان عنه، فعلم أنه لعباد الله. فإذا لم يُعين الله له مصرفاً، دل على أن مصرفه للمصالح العامة.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ:

وقد كان للنبي ﷺ من المغنم شيء يصطفيه لنفسه عبداً أو أمة أو فرساً أو سيفاً أو نحو ذلك، كما نصَّ على ذلك محمد بن سيرين وعامر الشعبي، وتبعهما على ذلك أكثر العلماء.

وأورد الحافظ ابن كثير بعض الأحاديث بذلك وقال:

وعن عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قالت: كانت صفية من الصّفي. رواه أبو داود في سننه^(١). وروى أيضاً بإسناده، والنسائي أيضاً عن يزيد بن عبد الله قال: كنا بالمربد إذ دخل رجل معه قطعة أديم، فقرأناها فإذا فيها: «من محمد رسول الله إلى بني زهير بن أقيش، إنكم إن شهدتم أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وأقمتم الصلاة، وآتيتم الزكاة، وأديتم الخمس من المغنم، وسهم النبي ﷺ وسهم الصّفي، أنتم آمنون بأمان الله ورسوله». فقلنا: من كتب لك هذا؟ فقال: رسول الله ﷺ^(٢).

فهذه أحاديث جيدة تدل على تقرير هذا وثبوتها؛ ولهذا جعل ذلك كثيرون من الخصائص له - صلوات الله وسلامه عليه.

وقال آخرون: إن الخمس يتصرف فيه الإمام بالمصلحة للمسلمين، كما يتصرف في مال الفيء.

وقال شيخنا الإمام العلامة ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: وهذا قول مالك وأكثر السلف، وهو أصح الأقوال.

إسهم رسول الله ﷺ بعد الموت

س: ماذا يُصنع بسهم رسول الله ﷺ بعد موته؟

(١) أبو داود (٢٩٩٤).

(٢) أبو داود (٢٩٩٩)، والنسائي (١٣٤ / ٧).

ج: ذهب كثيرٌ من أهل العلم إلى أن سهم رسول الله ﷺ ينتقل بعد مماته إلى الخليفة من بعده ينفقه في مصالح المسلمين العامة.

وذهب بعض العلماء إلى سقوط سهم النبي ﷺ بوفاته.

وذهب بعضهم إلى أنه يرجع إلى أهل بيته أي: إلى ذوي القربى.

وتم أقوال آخر.

وهذه بعض أقوال العلماء في ذلك.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ:

فإذا ثبت هذا وعلم، فقد اختلف أيضًا في الذي كان يناله ﷺ من الخمس، ماذا يُصنع به من بعده؟ فقال قائلون: يكون لمن يلي الأمر من بعده. رُوي هذا عن أبي بكر وعلي وقتادة وجماعة، وجاء فيه حديث مرفوع^(١).

وقال آخرون: يصرف في مصالح المسلمين.

وقال آخرون: بل هو مردود على بقية الأصناف: ذوي القربى، واليتامى، والمساكين، وابن السبيل، اختاره ابن جرير.

وقال آخرون: بل سهم النبي ﷺ وسهم ذوي القربى مردودان على اليتامى والمساكين وابن السبيل.

قال ابن جرير: وذلك قول جماعة من أهل العراق.

وقيل: إن الخمس جميعه لذوي القربى.

وقال الشنقيطي رَحِمَهُ اللهُ (أضواء البيان):

وأما بعد وفاته، وانتقاله إلى الرفيق الأعلى - صلوات الله وسلامه عليه. فإن بعض العلماء يقول بسقوط نصيبه بوفاته.

وممن قال بذلك: أبو حنيفة رَحِمَهُ اللهُ، واختاره ابن جرير.

(١) وكأنه يشير على ما ورد من طريق الوليد بن جميع عن أبي الطفيل: لما سألت فاطمة أبا بكر عن الخمس فقال: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا أطعم الله نبيًا طعمة ثم قبضه، كانت للذي يلي بعده» فلما وليت رأيت أن أردّه على المسلمين.

أخرجه البيهقي (٣٠٣/٦) السنن الكبرى.

وزاد أبو حنيفة سقوط سهم ذوي القربى أيضًا: بوفاته عليه السلام.
والصحيح أن نصيبه عليه السلام باقٍ، وأن إمام المسلمين يصرفه فيما كان يصرفه فيه
رسول الله عليه السلام من مصالح المسلمين.
وقال بعض العلماء يكون نصيبه عليه السلام لمن يلي الأمر بعده، وروي عن أبي بكر،
وعلي وقتادة، وجماعة، قال ابن كثير: وجاء فيه حديث مرفوع.
قال مقيدة - عفا الله عنه -: والظاهر أن هذا القول راجع في المعنى إلى ما ذكرنا
أنه الصحيح، وأن معنى كونه لمن يلي الأمر بعده، أنه يصرفه فيما كان يصرفه فيه عليه السلام،
والنبي قال: «والخمس مردود عليكم» وهو واضح كما ترى.
ولا يخفى أن كل الأقوال في نصيب النبي عليه السلام بعد وفاته. راجعة إلى شيء واحد.
وهو صرفه في مصالح المسلمين.

وقد كان الخلفاء الراشدون المهديون عليهم السلام يصرفونه فيما كان يصرفه فيه عليه السلام.
وكان أبو بكر، وعمر رضي الله عنهما يصرفانه في الكراع والسلاح.

وقال الشنقيطي أيضًا:

وأما قول بعض أهل البيت. كعبد الله بن محمد بن علي، وعلي بن الحسين
رضي الله عنهم: بأن الخمس كله لهم دون غيرهم، وأن المراد باليتامى، والمساكين: يتاماهم،
ومساكينهم، وقول من زعم أنه بعد النبي عليه السلام، يكون لقراة الخليفة الذي يوليه
المسلمون، فلا يخفى ضعفهما - والله تعالى أعلم.

وقال ابن الجوزي رحمته الله (زاد المسير):

فأما سهم الرسول عليه السلام، فإنه كان يصنع فيه ما بيّنّا.
وهل سقط بموته، أم لا؟ فيه قولان:

أحدهما: لم يسقط بموته، وبه قال أحمد، والشافعي في آخرين. وفيما يُصنع به قولان:
أحدهما: أنه للخليفة بعده، قاله قتادة.

والثاني: أنه يُصرف في المصالح، وبه قال أحمد، والشافعي.

والثاني: أنه يسقط بموته كما يسقط الصفّي، فيرجع إلى جملة الغنيمة، وبه قال أبو
حنيفة.

وأورد الطبري رأياً آخر في المسألة واختاره فقال:

والصواب من القول في ذلك عندنا: أن سهم رسول الله ﷺ مردود في الخمس، والخمس مقسوم على أربعة أسهم، على ما روي عن ابن عباس^(١): للقرابة سهم، ولليتامي سهم، وللمساكين سهم، ولابن السبيل سهم، لأن الله أوجب الخمس لأقوام موصوفين بصفات، كما أوجب الأربعة الأخماس الآخرين. وقد أجمعوا أن حق الأربعة الأخماس لن يستحقه غيرهم، فكذاك حق أهل الخمس لن يستحقه غيرهم. فغير جائز أن يخرج عنهم إلى غيرهم، كما غير جائز أن تخرج بعض السهمان التي جعلها الله لمن سماه في كتابه بفقد بعض من يستحقه، إلى غير أهل السهمان الآخر.

تعريف (ذوي القربى)

س: من هم ذوو القربى الذين قال الله في شأنهم: ﴿فَأَن لَّهِ خُمُسُهُمْ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ...﴾؟

ج: ذهب جمهور العلماء^(٢) إلى أنهم بنو هاشم وبنو المطلب.

ومن الدليل على ذلك ما أخرجه البخاري^(٣) من حديث جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ قَالَ: مَشَيْتُ أَنَا وَعُثْمَانُ بْنُ عَفَّانٍ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَعْطَيْتَ بَنِي الْمُطَّلَبِ وَتَرَكْتَنَا، وَنَحْنُ وَهُمْ مِنْكَ بِمَنْزِلَةٍ وَاحِدَةٍ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّمَا بَنُو الْمُطَّلَبِ وَبَنُو هَاشِمٍ شَيْءٌ وَاحِدٌ» قَالَ اللَّيْثُ: حَدَّثَنِي يُونُسُ وَزَادَ. قَالَ جُبَيْرٌ: وَلَمْ يَقْسِمِ النَّبِيُّ ﷺ لِبَنِي عَبْدِ شَمْسٍ، وَلَا لِبَنِي نَوْفَلٍ، وَقَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: عَبْدُ شَمْسٍ وَهَاشِمٌ وَالْمُطَّلَبُ إِخْوَةٌ لِأُمٍّ. وَأُمُّهُمْ عَاتِكَةُ بِنْتُ مَرْثَدَةَ. وَكَانَ نَوْفَلٌ أَخَاهُمْ لِأَبِيهِمْ. وذهب بعض أهل العلم إلى أنهم بنو هاشم فقط وذلك لما أخرجه مسلم^(٤) أن

(١) المسند الذي أورده إلى ابن عباس في ذلك فيه مقال.

(٢) نقل هذا عن الجمهور الحافظ ابن كثير رَحِمَهُمُ اللَّهُ.

(٣) البخاري (٣١٤٠).

(٤) مسلم (١٨١٢).

نَجْدَةٌ^(١) كَتَبَ إِلَى ابْنِ عَبَّاسٍ يَسْأَلُهُ عَنْ خُمْسٍ خِلَالٍ فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: لَوْلَا أَنْ أَكْتُمَ عِلْمًا^(٢) مَا كَتَبْتُ إِلَيْهِ، كَتَبَ إِلَيْهِ نَجْدَةٌ أَمَّا بَعْدُ: ... وَعَنْ الْخُمْسِ لِمَنْ هُوَ؟ فَكَتَبَ إِلَيْهِ ابْنُ عَبَّاسٍ ... وَكَتَبْتُ تَسْأَلُنِي عَنِ الْخُمْسِ لِمَنْ هُوَ؟ وَإِنَّا كُنَّا نَقُولُ هُوَ لَنَا فَأَبَى عَلَيْنَا قَوْمًا ذَاكَ.

قلت (مصطفى): وقد وردت في هذا الحديث (في بعض طرقه) زيادة فيها ضعف، بعد قوله: (فأبى علينا ذلك قومنا) وهي: وقالوا قريش كلها ذوو قربي، زادها أبو معشر وهو ضعيف.

هذا وهناك من قال: قريش كلها ذوو قربي.

قلت (مصطفى): والذي عليه الجمهور، هو ما تقدم من أن ذوي القربى الذين يُخرج لهم الخمس هم بنو هاشم وبنو المطلب كما ورد في الحديث، والله أعلم، وهذه بعض الأقوال في ذلك.

قال الشنقيطي (في أضواء البيان):

أما ذو القربى: فهم بنو هاشم، وبنو المطلب. على أظهر الأقوال دليلاً، وإليه ذهب الشافعي، وأحمد بن حنبل، وأبو ثور، ومجاهد، وقتادة، وابن جريج، ومسلم ابن خالد.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ:

وأما سهم ذوي القربى فإنه يصرف إلى بني هاشم وبني المطلب؛ لأن بني المطلب وازروا بني هاشم في الجاهلية وفي أول الإسلام، ودخلوا معهم في الشعب غضباً لرسول الله ﷺ وحماية له: مسلمهم طاعة لله ولرسوله، وكافرهم حمية للعشيرة وأنفة وطاعة لأبي طالب عم رسول الله ﷺ. وأما بنو عبد شمس وبنو نوفل - وإن كانوا بني عمهم - فلم يوافقوهم على ذلك، بل حاربوهم ونابدوهم، ومالؤوا بطون قريش على حرب الرسول؛ ولهذا كان دَمُ أَبِي طَالِبٍ لَهُمْ فِي قَصِيدَتِهِ اللَّامِيَةِ أَشَدَّ مِنْ غَيْرِهِمْ، لشدة قربهم. ولهذا يقول في أثناء قصيدته:

(١) وهو نجدة الحروري.

(٢) ذلك لأن نجدة كان من الخوارج.

جَزَىٰ اللَّهُ عَنَّا عَبْدَ شَمْسٍ وَنَوَفَلًا عُقُوبَةً شَرًّا عَاجِلٍ غَيْرَ آجِلٍ
بِمِيزَانٍ قَسْطٍ لَا يَخِيسُ شَعِيرَةً لَهُ شَاهِدٌ مِّنْ نَّفْسِهِ غَيْرَ عَائِلٍ
لَقَدْ سَفَّهَتْ أَحْلَامُ قَوْمٍ تَبَدَّلُوا بَنِي خَلْفٍ قَيْضًا بَنًا وَالْغَيَاطِلِ
وَنَحْنُ الصَّمِيمُ مِنْ ذُؤَابَةِ هَاشِمٍ وَآلِ قُصَيٍّ فِي الْخُطُوبِ الْأَوَائِلِ

وقال جبير بن مطعم بن عديّ بن نوفل مشيت أنا وعثمان بن عفان -يعني ابن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس- إلى رسول الله ﷺ، فقلنا: يا رسول الله! أعطيت بني المطلب من خمس خيبر وتركنا، ونحن وهم منك بمنزلة واحدة، فقال: «إنما بنو هاشم وبنو عبد المطلب شيء واحد»^(١).

وهذا قول جمهور العلماء أنهم بنو هاشم وبنو المطلب.

س: هل سهم ذوي القربى باقٍ بعد وفاة رسول الله ﷺ؟

ج: نعم باقٍ بعد وفاة رسول الله ﷺ ولا يسقط.

قال الشنقيطي رحمه الله:

وجمهور العلماء على أن نصيب ذوي القربى باقٍ، ولم يسقط بموته ﷺ.

س: هل ذوو القربى الأغنياء يأخذون من الخمس، أم أن الخمس (أعني خمس

الخمس) لا يعطى إلا لفقرائهم؟

ج: الجمهور من العلماء على أنه يشترك فيه غنيهم وفقيرهم؛ لأن الله ﷻ لم يقيد بالفقراء.

قال الشنقيطي رحمه الله (أضواء البيان):

وجمهور العلماء القائلين بنصيب القرابة على أنه يقسم على جميعهم. ولم يترك منهم أحد خلافاً لقوم.

والظاهر شمول غنيهم خلافاً لمن خصص به فقراءهم؛ لأنه ﷺ لم يخصص به فقراءهم، بخلاف نصيب اليتامى، والمساكين، وابن السبيل. فالظاهر أنه يخصص به فقراؤهم، ولا شيء لأغنيائهم.

(١) تقدم تخريجه.

قال السعدي رَحِمَهُ اللهُ:

والخمس الثاني: لذي القربى، وهم قرابة النبي ﷺ من بني هاشم وبني المطلب. وأضافه الله إلى القرابة دليلاً على أن العلة فيه مجرد القرابة، فيستوي فيه غنيهم وفقيرهم، ذكرهم وأنثاهم.

ا س: وضح المراد بقوله تعالى: ﴿وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينِ وَآبَنَ السَّبِيلِ﴾ وهل يتامى

الأغنياء لهم من الغنيمة نصيب أم أن هذا خاص باليتامى الفقراء فحسب؟

ج: أما يتامى: فهم من مات أبائهم وهم دون البلوغ، والظاهر - والله أعلم - أن اليتيم الغني يدخل فيهم أيضاً؛ لأن الله ﷻ لم يقيد اليتامى بالفقراء، وأيضاً للمواساة فيدخل في اليتامى أبناء من قتلوا في المعارك.

أما المساكين: فهم الذين لا تكفيهم الأموال التي تدخل عليهم، أي: لا تكفيهم دخولهم.

أما أبناء السبيل: فهم الغرباء الذين انقطعت بهم النفقة ولا يجدون ما لا يرجعون به إلى أهاليهم.

وينحو هذا قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ اللهُ:

وأما «اليتامى»، فهم أطفال المسلمين الذين قد هلك آبائهم.

و«المساكين»، هم أهل الفاقة والحاجة من المسلمين.

و«ابن السبيل»، المجتاز سفرًا قد انقطع به.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ:

وقوله: ﴿وَالْيَتَامَى﴾ أي: أيتام المسلمين. واختلف العلماء هل يختص بالأيتام الفقراء، أو يعم الأغنياء والفقراء؟ على قولين.

﴿وَالْمَسْكِينِ﴾ هم المحاويج الذين لا يجدون ما يسد خلتهم ومسكنهم.

﴿وَأَبَنَ السَّبِيلِ﴾ هو المسافر، أو المريد للسفر، إلى مسافة تقصر فيها الصلاة،

وليس له ما ينفقه في سفره ذلك.

وقال السعدي رَحِمَهُ اللهُ:

والخمس الثالث لليتامى، وهم الذين فقدت آباؤهم وهم صغار، جعل الله لهم خمس الخمس رحمة بهم، حيث كانوا عاجزين عن القيام بمصالحهم، وقد فقد من يقوم بمصالحهم.

والخمس الرابع للمساكين، أي: المحتاجين الفقراء من صغار وكبار، ذكور وإناث.

والخمس الخامس لابن السبيل، وهو الغريب المنقطع به في غير بلده.

س: هل هذا الخمس الذي ذكره الله ع إذ قال: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَآبَنِ السَّبِيلِ﴾ يُقسم بالتساوي بين من ذكرهم الله جل ذكره أم أنه لا يشترط التساوي في ذلك؟

ج: لأهل العلم في ذلك قولان:

أحدهما: أنه يلزم التساوي وهذا القول أحوط.

والثاني: أنه لا يلزم، وأن الآية كآية الصدقات، إذ الله قال: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَمِلِينَ عَلَيْهَا...﴾ فلا يلزم تقسيم الزكاة بالتساوي بين الأصناف الثمانية.

قال السعدي رحمه الله (تيسير الكريم الرحمن):

وبعض المفسرين يقول إن خمس الغنيمة لا يخرج عن هذه الأصناف ولا يلزم أن يكونوا فيه على السواء بل ذلك تبع للمصلحة وهذا هو الأولى.

وهذا رأي لمالك رحمه الله:

قال الشنقيطي (في أضواء البيان):

ومذهب الإمام مالك رحمه الله أن أمر خمس الغنيمة موكل إلى نظر الإمام واجتهاده. فيما يراه مصلحة، فيأخذ منه من غير تقدير، ويعطي القراة باجتهاده، ويصرف الباقي في مصالح المسلمين.

قال القرطبي في تفسير هذه الآية الكريمة التي نحن بصددتها: ويقول مالك هذا: قال الخلفاء الأربعة، وبه عملوا، وعليه يدل قوله رحمه الله: «مالي مما أفاء الله عليكم إلا الخمس، والخمس مردود عليكم»، فإنه لم يقسمه أخماساً، ولا أثلاثاً، وإنما ذكر في

الآية من ذكر على وجه التنبيه عليهم؛ لأنهم من أهم من يدفع إليه.
قال الزجاج: محتجاً لمالك، قال الله ﷻ: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُ مِنْ خَيْرٍ فَلِلَّذِينَ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ [البقرة: ٢١٥].

أداء الخمس من الإيمان

س: اذكر ما يدل على أن الخمس من الدين؟

ج: يدل على ذلك ما أخرجه البخاري ومسلم^(١) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قَالَ: قَدِمَ وَفَدُ عَبْدُ الْقَيْسِ فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّا هَذَا الْحَيَّ مِنْ رِبْعَةٍ، بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ كُفَّارٌ مُضَرٌّ، فَلَسْنَا نَصِلُ إِلَيْكَ إِلَّا فِي الشَّهْرِ الْحَرَامِ، فَمُرْنَا بِأَمْرٍ نَأْخُذُ بِهِ وَنَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ وَرَاءِنَا، قَالَ: «أَمُرُّكُمْ بِأَرْبَعٍ، وَأَنْهَاكُمْ عَنْ أَرْبَعٍ: الْإِيمَانُ بِاللَّهِ شَهَادَةٌ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ - وَعَقْدَ بَيْدِهِ - وَإِقَامِ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَصِيَامِ رَمَضَانَ، وَأَنْ تُؤَدُّوا لِلَّهِ خُمْسَ مَا غَنِمْتُمْ. وَأَنْهَاكُمْ عَنِ الدُّبَاءِ، وَالنَّقِيرِ، وَالْحَتَمِ، وَالْمَرْفَتِ».

| مزيد من الحديث عن غزوة بدر

وضح معنى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّقَى أَجْمَعِينَ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾^(٤١).

ج: المعنى -والله تعالى أعلم- أقرؤا يا أهل الإسلام بتقسيم الغنائم على النحو الذي ذكرناه لكم واعملوا فيها بما أمرناكم به إذ قال تعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ...﴾، أقرؤا بذلك واعملوا فيها بما بين الله لكم إن كنتم آمنتم بالله وصدقتم بوحدانيته وأقررتم بما جاءكم به نبيه ﷺ، وإن كنتم آمنتم بما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان الذي فرّق الله ﷻ فيه بين الحق والباطل فنصر أهل الحق، ورفع رايتهم وهزم أهل الباطل وشتت شملهم، وفرق جمعهم في ذلكم اليوم الذي التقى فيه الجمعان، جمع أهل الإيمان، وجمع إبليس الذي قد كان جمع، وهو جمع المشركين عتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، والوليد بن عتبة، وأبو جهل ابن هشام وغير هؤلاء.

﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، ومن بيان شيء قدرته كون نصركم وأنتم أذلة ضعفاء أقل عددًا وأقل عدة وسلاحًا.

وبنحو هذا قال أهل العلم.

قال الطبري رحمته الله:

(١) البخاري (٣٠٩٥)، ومسلم (١٩٩٧).

يقول تعالى ذكره: أيقنوا أيها المؤمنون، أنما غنمتم من شيء فمقسوم القسم الذي بينته، وصدقوا به إن كنتم أقررتم بوحداية الله وبما أنزل الله على عبده محمد ﷺ يوم فرّق بين الحق والباطل ببدر، فأبان فلج المؤمنين وظهورهم على عدوهم، وذلك ﴿يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ﴾، جمع المؤمنين وجمع المشركين، والله على إهلاك أهل الكفر وإذلالهم بأيدي المؤمنين، وعلى غير ذلك مما يشاء ﴿قَدِيرٌ﴾، لا يمتنع عليه شيء أراد.

وقال ابن كثير رحمه الله:

وقوله: ﴿إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى عَبْدِنَا﴾ أي: امتثلوا ما شرعنا لكم من الخمس في الغنائم، إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر وما أنزل على رسوله؛ ولهذا جاء في الصحيحين، من حديث عبد الله بن عباس، في حديث وفد عبد القيس^(١): أن رسول الله ﷺ قال لهم: «وأمركم بأربع وأنهاكم عن أربع: أمركم بالإيمان بالله ثم قال: هل تدرون ما الإيمان بالله؟ شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، وأن تؤدوا الخمس من المغنم...» الحديث بطوله فجعل أداء الخمس من جملة الإيمان.

وقال الحافظ ابن كثير أيضاً:

وقوله: ﴿يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾^(٢) ينبه تعالى على نعمته وإحسانه إلى خلقه بما فرّق به بين الحق والباطل ببدر ويسمى «الفرقان»؛ لأن الله تعالى أعلى فيه كلمة الإيمان على كلمة الباطل، وأظهر دينه ونصر نبيه وحزبه.

وأورد بإسناد صحيح^(٢) عن عروة بن الزبير في قوله: ﴿يَوْمَ الْفُرْقَانِ﴾ يوم فرق الله بين الحق والباطل، وهو يوم بدر، وهو أول مشهد شهده رسول الله ﷺ. وكان رأس المشركين عتبة بن ربيعة، فالتقوا يوم الجمعة لتسع عشرة -أو: سبع عشرة- مضت من رمضان، وأصحاب رسول الله ﷺ يومئذ ثلاثمائة وبضعة عشر رجلاً والمشركون

(١) البخاري (٥٣)، ومسلم (١٧).

(٢) وعزاه لعبد الرزاق، ولكنه مرسل كما هو واضح.

ما بين الألف والتسعمائة.

فهزم الله المشركين، وقتل منهم زيادة على السبعين، وأسر منهم مثل ذلك.

وأورد آثار أخر.

وقال القرطبي رَحِمَهُ اللهُ:

قوله تعالى: ﴿إِنْ كُنتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ﴾ قال الزجاج عن فرقة: المعنى فاعلموا أن الله مولاكم إن كنتم، ف (إن) متعلقة بهذا الوعد. وقالت فرقة: إن (إن) متعلقة بقوله ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ﴾. قال ابن عطية: وهذا هو الصحيح؛ لأن قوله ﴿وَأَعْلَمُوا﴾ يتضمن الأمر بالانقياد والتسليم لأمر الله في الغنائم، فعلق (إن) بقوله: ﴿وَأَعْلَمُوا﴾ على هذا المعنى، أي إن كنتم مؤمنين بالله فانقادوا وسلموا لأمر الله فيما أعلمكم به من حال قسمة الغنيمة.

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ﴾ (ما) في موضع خفض عطف على اسم الله ﴿يَوْمَ الْفُرْقَانِ﴾ أي اليوم الذي فرقت فيه بين الحق والباطل، وهو يوم بدر. ﴿يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ﴾ حزب الله وحزب الشيطان. ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

وقال السعدي رَحِمَهُ اللهُ:

وجعل الله أداء الخمس على وجهه شرطاً للإيمان فقال: ﴿إِنْ كُنتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أَرْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ﴾، وهو يوم «بدر» الذي فرق الله به بين الحق والباطل. وأظهر الحق وأبطل الباطل.

﴿يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ﴾، جمع المسلمين، وجمع الكافرين، أي: إن كان إيمانكم بالله، وبالحق الذي أنزله الله على رسوله يوم الفرقان، الذي حصل فيه من الآيات والبراهين، ما دل على أن ما جاء به هو الحق. ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٤١) لا يغالبه أحد إلا غلبه.

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿إِذْ أَنتُمْ بِالْمُدَوَّةِ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْمُدَوَّةِ الْفُصُوءِ وَالرَّكْبِ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لَأَخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَكِنْ لَيَقْضَى اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (٤٢).

ج: المعنى - والله تعالى أعلم - واذكروا يوم الفرقان الذي نصركم الله فيه

وَأَعَزَّكُمْ وَخَذَلْ عِدُوكُمْ، اذْكُرُوا ﴿إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدُوِّ الدُّنْيَا﴾ أَي: كَانَ مَنْزَلُكُمْ لِلْقِتَالِ عِنْدَ جَانِبِ الْوَادِي الْأَقْرَبِ إِلَى الْمَدِينَةِ، وَأَهْلُ الْكُفْرِ ﴿بِالْعُدُوِّ الْفُصُوءِ﴾ بِجَانِبِ الْوَادِي الْأَقْصَى مِنَ الْمَدِينَةِ وَالْأَقْرَبِ إِلَى مَكَّةَ، وَالرَّكْبُ رَكْبُ أَبِي سَفْيَانَ أَسْفَلَ مِنْكُمْ هُنَاكَ تَجَاهَ الْبَحْرِ وَعَلَى سَاحِلِهِ، وَقَدْ جَمَعَ اللَّهُ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ عِدُوكُمْ عَلَى غَيْرِ مِيعَادٍ، فَلَوْ كُنْتُمْ تَوَاعَدْتُمْ لِتُخْلِفْتُمْ إِذَا سَمِعْتُمْ بِكَثْرَةِ أَعْدَائِكُمْ وَكَثْرَةِ عِدِّهِمْ وَعُدْدِهِمْ، وَلَكِنْ اللَّهُ جَمَعَكُمْ بَعْدَكُمْ عَلَى غَيْرِ مِيعَادٍ لِيَقْضِيَ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِيَنْصُرَ الْإِسْلَامَ وَأَهْلَهُ وَيُحِلَّ الْعِقَابَ بِالشَّرْكِ وَأَهْلِهِ وَيُقْتَلَ مَنْ قُتِلَ مِنْ أَهْلِ الشَّرْكِ، وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ كَاتِنًا مَتَحَقِّقًا لَا مُحَالَةً.

فَعَلْنَا ذَلِكَ بِهِمْ وَأَنْزَلْنَا بِأَهْلِ الشَّرْكِ عِقَابَنَا، وَنَصَرْنَا الْإِسْلَامَ وَأَهْلَهُ حَتَّى تَبَيَّنَ الْحَقَائِقُ وَتَظْهَرَ، فَيُظْهَرُ أَنَّ اللَّهَ نَاصِرٌ دُنْيَهُ وَمَعْلِي كَلِمَتِهِ وَمُخْذَلٌ أَهْلَ الشَّرْكِ وَالْبَاطِلِ، ذَلِكَ لِيَبْقَى مِنْ بَقِي عَلَى الْكُفْرِ، وَهُوَ عَلَى بَصِيرَةٍ بِأَنَّهُ كَافِرٌ وَأَنَّهُ مُبْطَلٌ، وَيُؤْمِنُ مَنْ أَمِنَ وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُ عَلَى الْحَقِّ، ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ﴾ لِأَقْوَالِ الْعِبَادِ سَمِيعٌ لِكُلِّ شَيْءٍ ﴿عَلِيمٌ﴾ بِأَفْعَالِهِمْ وَبِكُلِّ شَيْءٍ.

وَبِنْهَوْ هَذَا قَالَ أَهْلُ الْعِلْمِ.

قَالَ الطَّبْرِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ: أَتَقْنُوا، أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ، وَاعْلَمُوا أَنَّ قِسْمَ الْغَنِيمَةِ عَلَى مَا بَيَّنَّهَ لَكُمْ رَبُّكُمْ، إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ يَوْمَ بَدْرٍ، إِذْ فَرَّقَ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ مِنْ نَصْرِ رَسُولِهِ، ﴿إِذْ أَنْتُمْ﴾، حِينَئِذٍ، ﴿بِالْعُدُوِّ الدُّنْيَا﴾، يَقُولُ: بِشَفِيرِ الْوَادِي الْأَدْنَى إِلَى الْمَدِينَةِ، ﴿وَهُمْ بِالْعُدُوِّ الْفُصُوءِ﴾، يَقُولُ: وَعِدُوكُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ نَزُولُ شَفِيرِ الْوَادِي الْأَقْصَى إِلَى مَكَّةَ، ﴿وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ﴾، يَقُولُ: وَالْعِيرُ فِيهِ أَبُو سَفْيَانَ وَأَصْحَابُهُ فِي مَوْضِعِ أَسْفَلَ مِنْكُمْ إِلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ.

وَأُورِدَ بِإِسْنَادٍ حَسَنٍ عَنْ قَتَادَةَ قَوْلُهُ: ﴿إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدُوِّ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدُوِّ الْفُصُوءِ﴾، وَهُمَا شَفِيرِ الْوَادِي. كَانَ نَبِيُّ اللَّهِ بِأَعْلَى الْوَادِي، وَالْمُشْرِكُونَ أَسْفَلَ، ﴿وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ﴾، يَعْنِي: أَبَا سَفْيَانَ، انْحَدَرَ بِالْعِيرِ عَلَى حَوْزَتِهِ، حَتَّى قَدَّمَ بِهَا مَكَّةَ.

وَبِإِسْنَادٍ حَسَنٍ عَنِ السَّيِّدِيِّ قَالَ: ذَكَرَ مَنَازِلَ الْقَوْمِ وَالْعِيرِ فَقَالَ: ﴿إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدُوِّ

الَّذِينَ وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى وَالرَّكْبِ ﴿١٠٩﴾: هو أبو سفيان، ﴿أَسْفَلَ مِنْكُمْ﴾، على شاطئ البحر.

وقال في تأويل قوله: ﴿وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَكِنْ لِيَقْضَى اللَّهُ أَمْرًا كَانَتْ مَفْعُولًا﴾.

قال أبو جعفر: يعنى تعالى ذكره: ولو كان اجتماعكم في الموضع الذي اجتمعتم فيه، أنتم أيها المؤمنون وعدوكم من المشركين، عن ميعاد منكم ومنهم، ﴿لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ﴾، لكثرة عدد عدوكم، وقلة عددكم، ولكن الله جمعكم على غير ميعاد بينكم وبينهم، ﴿لِيَقْضَى اللَّهُ أَمْرًا كَانَتْ مَفْعُولًا﴾، وذلك القضاء من الله، كان نصره أوليائه من المؤمنين بالله ورسوله، وهلاك أعدائه وأعدائهم ببدر بالقتل والأسر.

وأورد بإسناد صحيح^(١) عن عمير بن إسحاق قال: أقبل أبو سفيان في الركب من الشام، وخرج أبو جهل ليمنعه من رسول الله ﷺ وأصحابه، فالتقوا ببدر، ولا يشعر هؤلاء بهؤلاء، ولا هؤلاء بهؤلاء، حتى التقت السقاة. قال: ونهّد الناس بعضهم لبعض.

وقال في تأويل قوله: ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

يقول تعالى ذكره: ولكن الله جمعهم هنالك، ليقضي أمراً كان مفعولاً ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾.

وهذه اللام في قوله: ﴿لِيَهْلِكَ﴾، مكررة على «اللام» في قوله: ﴿لِيَقْضَى﴾، كأنه قال: ولكن ليهلك من هلك عن بينة، جمعكم.

ويعني بقوله: ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾، ليموت من مات من خلقه، عن حجة لله قد أثبتت له وقطعت عذره، وعبرة قد عاينها ورآها ﴿وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾، يقول: وليعيش من عاش منهم عن حجة لله قد أثبتت له وظهرت لعينه فعلها، جمعنا بينكم وبين عدوكم هنالك.

(١) ولكنه مرسل.

وأما قوله: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ ٢٤، فإن معناه: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ﴾، أيها المؤمنون، ﴿لَسَمِيعٌ﴾، لقولكم وقول غيركم، حين يُري الله نبيه في منامه ويرىكم، عدوكم في أعينكم قليلاً وهم كثير، ويراكم عدوكم في أعينهم قليلاً ﴿عَلِيمٌ﴾، بما تضره نفوسكم، وتنطوي عليه قلوبكم، حينئذ وفي كل حال.

يقول جل ثناؤه لهم ولعباده: فاتقوا ربكم، أيها الناس، في منطقتكم: أن تنطقوا بغير حق، وفي قلوبكم: أن تعتقدوا فيها غير الرُّشد، فإن الله لا يخفى عليه خافية من ظاهر أو باطن.

وقال القرطبي رحمه الله:

قوله تعالى: ﴿إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى﴾ أي أنزلنا إذ أنتم على هذه الصفة. أو يكون المعنى: واذكروا إذ أنتم. والعدوة: جانب الوادي. وقرئ بضم العين وكسرها، فعلى الضم يكون الجمع عُدَى، وعلى الكسر عِدَى، مثل لحية ولحى، وفرية وفرى. والدنيا: تأنيث الأدنى. والقصوى: تأنيث الأقصى. من دنا يدنو، وقصا يقصو. ويقال: القصيا، والأصل الواو، وهي لغة أهل الحجاز قصوى. فالدنيا كانت مما يلي المدينة، والقصوى مما يلي مكة. أي إذ أنتم نزول بشفير الوادي بالجانب الأدنى إلى المدينة، وعدوكم بالجانب الأقصى. ﴿وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ﴾ يعني ركب أبي سفيان وغيره. كانوا في موضع أسفل منهم إلى ساحل البحر فيه الأمتعة. وقيل: هي الإبل التي كانت تحمل أمتعتهم، وكانت في موضع يأمنون عليها توفيقاً من الله ﷻ لهم، فذكرهم نعمه عليهم. ﴿وَالرَّكْبُ﴾ ابتداء ﴿أَسْفَلَ مِنْكُمْ﴾ ظرف في موضع الخبر. أي مكاناً أسفل منكم. وأجاز الأخفش والكسائي والفراء ﴿وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ﴾ أي أشد تسفلاً منكم. والركب جمع راكب. ولا تقول العرب: ركب إلا للجماعة الراكبي الإبل. وحكى ابن السكيت وأكثر أهل اللغة أنه لا يقال راكب وركب إلا للذي على الإبل، ولا يقال لمن كان على فرس أو غيرها راكب. والركب والأركب والركبان والراكبون لا يكونون إلا على جمال، عن ابن فارس. ﴿وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ﴾ أي لم يكن يقع الاتفاق لكثرتهم وقتلهم، فإنكم لو عرفتم كثرتهم لتأخرتم فوفق الله ﷻ لكم. ﴿لَيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾

من نصر المؤمنين وإظهار الدين. واللام في ﴿لَيَقْضَى﴾ متعلقة بمحذوف. والمعنى: جمعهم ليقضي الله، ثم كررها فقال: ﴿لَيَهْلِكَ﴾ أي: جمعهم هنالك ليقضي أمراً. ﴿لَيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ﴾ ﴿مَنْ﴾ في موضع رفع. ﴿وَيَحْيَى﴾ في موضع نصب عطف على ليهلك. والبيئة إقامة الحجة والبرهان. أي ليموت من يموت عن بيئة رآها وعبرة عاينها، فقامت عليه الحجة. وكذلك حياة من يحيا. وقال ابن إسحاق: ليكفر من كفر بعد حجة قامت عليه وقطعت عذره، ويؤمن من آمن على ذلك. وقرئ (من حيي) بياءين على الأصل. وبياء واحدة مشددة، الأولى قراءة أهل المدينة والبزي وأبي بكر. والثانية قراءة الباقيين، وهي اختيار أبي عبيد، لأنها كذلك وقعت في المصحف.

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ:

يقول تعالى مخبراً عن يوم الفرقان: ﴿إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا﴾ أي: إذ أنتم نزول بعدوة الوادي الدنيا القريبة إلى المدينة، ﴿وَهُمْ﴾ أي: المشركون نزول ﴿بِالْعُدْوَةِ الْبُيُوتِ﴾ أي: البعيدة من المدينة إلى ناحية مكة، ﴿وَالرَّكْبُ﴾ أي: العير الذي فيه أبو سفيان بما معه من التجارة ﴿أَسْفَلَ مِنْكُمْ﴾ أي: مما يلي سيف البحر ﴿وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ﴾ أي: أنتم والمشركون إلى مكان ﴿لَا خَتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ﴾.

قال محمد بن إسحاق: وحدثني يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير، عن أبيه في هذه الآية قال: ولو كان ذلك عن ميعاد منكم ومنهم، ثم بلغكم كثرة عددهم وقلة عددكم، ما لقيتموهم، ﴿وَلَكِنْ لَيَقْضَى اللَّهُ أَمْرًا كَانَتْ مَفْعُولًا﴾ أي: ليقضي الله ما أراد بقدرته من إعزاز الإسلام وأهله، وإذلال الشرك وأهله، من غير ملأ منكم، ففعل ما أراد من ذلك بلطفه.

وفي حديث كعب بن مالك قال^(١): إنما خرج رسول الله ﷺ والمسلمون يريدون عِيرَ قريش، حتى جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد.

ثم قال ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ:

قال محمد بن إسحاق: وحدثني يزيد بن رومان، عن عروة بن الزبير قال^(٢):

(١) البخاري (٣٩٥١).

(٢) وهذا مرسل مع أنه حسن الإسناد إلى عروة.

وبعث رسول الله ﷺ - حين دنا من بدر - علي بن أبي طالب، وسعد بن أبي وقاص، والزبير بن العوام، في نفر من أصحابه، يتجسسون له الخبر فأصابوا سُقَاةَ لُقْرِيش: غلاما لبني سعيد بن العاص، وغلاما لبني الحجاج، فأتوا بهما رسول الله ﷺ، فوجدوه يصلي، فجعل أصحاب رسول الله ﷺ يسألونهما: لمن أنتما؟ فيقولان: نحن سُقَاةُ لُقْرِيش، بعثونا نسقيهم من الماء. فكره القوم خبرهما، ورجوا أن يكونا لأبي سفيان، فضربوهما فلما أذلقوهما قالا نحن لأبي سفيان. فتركوهما، وركع رسول الله ﷺ وسجد سجدتين، ثم سلم وقال: «إذا صدقاكم ضربتموهما، وإذا كذباكم تركتموهما. صدقا، والله إنهما لُقْرِيش، أخبراني عن قريش». قالاهم وراء هذا الكثيب الذي ترى بالعدوة القصوى - والكثيب: العقنقل - فقال لهما رسول الله ﷺ: «كم القوم؟» قالوا: كثير. قال: «ما عدتكم؟» قالوا: ما ندري. قال: «كم ينحرون كل يوم؟» قالوا: يومًا تسعًا، ويومًا عشرًا، قال رسول الله ﷺ: «القوم ما بين التسعمائة إلى الألف». ثم قال لهما: «فمن فيهم من أشرف قريش؟» قالوا: عتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، وأبو البختری بن هشام، وحكيم بن حزام، ونوفل بن خويلد، والحارث بن عامر بن نوفل، وطُعَيْمَة بن عدي بن نوفل، والنضر بن الحارث، وزَمْعَة بن الأسود، وأبو جهل بن هشام، وأمّية بن خلف، ونُبَيْهَة ومُنَبِّه ابنا الحجاج، وسهيل بن عمرو، وعمرو بن عبد ود. فأقبل رسول الله ﷺ على الناس فقال: «هذه مكة قد ألقت إليكم أفلاذ كبدها».

وقال ابن كثير أيضًا:

قال محمد بن إسحاق، خ: وحدثني عبد الله بن أبي بكر بن حزم^(١): أن سعد بن معاذ قال لرسول الله ﷺ، لما التقى الناس يوم بدر: يا رسول الله، ألا نبني لك عريشًا تكون فيه، ونُيِّخَ إليك ركائبك، ونلقى عدونا، فإن أظهرنا الله عليهم وأعزنا فذاك ما نحب، وإن تكن الأخرى فتجلس على ركائبك، وتلحق بمن وراءنا من قومنا، فقد - والله - تخلف عنك أقوام ما نحن بأشدَّ لك حُبًّا منهم، لو علموا أنك تلقى حربًا ما

(١) وهذا أيضًا مرسل.

تخلفوا عنك، ويوازرونك وينصرونك. فأثنى عليه رسول الله ﷺ خيراً، ودعا له به. فبُني له عريش، فكان فيه رسول الله ﷺ وأبو بكر، ما معهما غيرهما.

ثم قال ابن كثير رحمه الله:

وقوله: ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ قال محمد بن إسحاق: أي ليكفر من كفر بعد الحجة، لما رأى من الآية والعبرة، ويؤمن من آمن على مثل ذلك.

وهذا تفسير جيد. وبسط ذلك أنه تعالى يقول: إنما جمعكم مع عدوكم في مكان واحد على غير ميعاد، لينصركم عليهم، ويرفع كلمة الحق على الباطل، ليصير الأمر ظاهراً، والحجة قاطعة، والبراهين ساطعة، ولا يبقى لأحد حجة ولا شبهة، فحينئذ (يَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ) أي: يستمر في الكفر من استمر فيه على بصيرة من أمره أنه مبطل، لقيام الحجة عليه، ﴿وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ﴾ أي: يؤمن من آمن ﴿عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ أي: حجة وبصيرة. والإيمان هو حياة القلوب، قال الله تعالى: ﴿أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾ [الأنعام: ١٢٢]، وقالت عائشة في قصة الإفك: في هلك من هلك أي: قال فيها ما قال من الكذب والبهتان والإفك.

وقوله: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ﴾ أي: لدعائكم وتضرعكم واستغاثتكم به ﴿عَلِيمٌ﴾ أي: بكم وأنكم تستحقون النصر على أعدائكم الكفرة المعاندين.

وقال السعدي §:

﴿إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا﴾ أي: بعدوة الوادي القريبة من المدينة، (وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْفُصُوءِ) أي: جانبه البعيدة من المدينة، فقد جمعكم وادٍ واحد. ﴿وَالرَّكْبِ﴾ الذي خرجتم لطلبه، وأراد الله غيره ﴿أَسْفَلَ مِنْكُمْ﴾ مما يلي ساحل البحر.

﴿وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ﴾ أنتم وإياهم على هذا الوصف وبهذه الحال ﴿لَا تَخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ﴾ أي: لا بد من تقدم أو تأخر أو اختيار منزل، أو غير ذلك، مما يعرض لكم أو لهم، يصدقكم عن ميعادهم.

﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ جَمَعَكُمْ عَلَىٰ هَذِهِ الْحَالِ﴾ لَيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَتْ مَفْعُولًا ﴿أَي: مقدرًا في الأزل، لا بد من وقوعه.

﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ أي: ليكون حجة وبينة للمعاند، فيختار الكفر على بصيرة وجزم بطلانه، فلا يبقى له عذر عند الله.

﴿وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ أي: يزداد المؤمن بصيرة ويقينا، بما أرى الله الطائفتين من أدلة الحق وبراهينه، ما هو تذكرة لأولي الألباب.

﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ﴾ سميع لجميع الأصوات، باختلاف اللغات، على تفنن الحاجات، ﴿عَلِيمٌ﴾ بالظواهر والضمائر والسرائر، والغيب والشهادة.

وكان الله قد أرى رسوله المشركين في الرؤيا قليلاً فبشر بذلك أصحابه، فاطمأنت قلوبهم وثبتت أفئدتهم.

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿إِذْ يُرِيكُهُمُ اللَّهُ فِي مَنَايِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَأَيْتَهُمْ كَثِيرًا
لَفَشِلْتُمْ وَلَتَنْزَعْتُمْ فِي الْأُمَرِ وَلَئِنْ كُنَّ إِلَّا اللَّهُ سَلَمٌ لَإِنَّهُ عَلَيْكُمْ بَدَاتِ الصُّدُورِ ﴿٤٣﴾﴾.

ج: المعنى - والله أعلم - واذكر يا رسول الله نعمتي عليك وعلى أصحابك ليلة بدر إذ أن الله ﷻ أراك رؤيا منامية، رأيت فيها وأنت نائم أهل الشرك الذين ستحاربهم، ورأيتهم وعددهم قليل فقويت بذلك نفسك، وأخبرت بذلك أصحابك فقويت همهم ونفوسهم وتجرؤوا لقتال عدوهم ولو أراكمهم الله كثيرًا، لاختلفتم فيما بينكم وتنازعتهم بسبب كثرة عددهم، ولجبتهم عن لقاءهم، ولكن الله ﷻ سلم من المخالفة والفشل والجبن، إنه عليم بدواخل الصدور، وما يفكر فيه عباده، وعليم بما يصلحهم وما ينفعهم.

وبنحو هذا قال أهل العلم.

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره: وإن الله، يا محمد، سميع لما يقول أصحابك، عليم بما يضمرونه، إذ يريك الله عدوك وعدوهم ﴿فِي مَنَايِكَ قَلِيلًا﴾، يقول: يريكهم في نومك قليلًا فتخبرهم بذلك، حتى قويت قلوبهم، واجترؤوا على حرب عدوهم، ولو أراك ربك عدوك وعدوهم كثيرًا، لفشل أصحابك، فجنبوا وخاموا، ولم يقدرُوا على حرب القوم، ولتنازعوا في ذلك، ولكن الله سلمهم من ذلك بما أراك في منامك من الرؤيا، إنه عليم بما تُجنُّه الصدور، لا يخفى عليه شيء مما تضره القلوب.

وقال في اختياره لتفسير قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ كُنَّ إِلَّا اللَّهُ سَلَمٌ﴾ ما ذكره إذ قال:

وأولى القولين في ذلك بالصواب عندي ما قاله ابن عباس، وهو أن الله سلم القوم - بما أرى نبيه ﷺ في منامه - من الفشل والتنازع، حتى قويت قلوبهم، واجترؤوا على حرب عدوهم. وذلك أن قوله: ﴿وَلَئِنْ كُنَّ إِلَّا اللَّهُ سَلَمٌ﴾ عقيب قوله: ﴿وَلَوْ أَرَأَيْتَهُمْ كَثِيرًا لَفَشِلْتُمْ وَلَتَنْزَعْتُمْ فِي الْأُمَرِ﴾، فالذي هو أولى بالخبر عنه، أنه سلمهم منه جل ثناؤه، ما كان مخوفًا منه لو لم يُر نبيه ﷺ من قلة القوم في منامه.

وقال ابن كثير رحمه الله:

وقوله: ﴿وَلَوْ أَرَأَيْتَهُمْ كَثِيرًا لَفَشِلْتُمْ﴾ أي: لجبنتم عنهم واختلفتم فيما بينكم،

﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ سَكَنٌ﴾ أي: من ذلك: بأن أراكم قليلاً ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ أي: بما تجننه الضمائر، وتنطوي عليه الأحشاء، فيعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور.

وقال القرطبي رحمه الله:

ومعنى ﴿لَفَشَلْتُمْ﴾ لجبنتم عن الحرب. ﴿وَلَنَنْزَعَنَّ فِي الْأَمْرِ﴾ اختلفتم. ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ سَكَنٌ﴾ أي سلمكم من المخالفة. ابن عباس: من الفشل. ويحتمل منهما. وقيل: سلم أي أتم أمر المسلمين بالظفر.

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ اتَّقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضَى اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾.

ج: المعنى - والله أعلم - : واذكر أيضاً يا رسول الله نعم الله عليك وعلى أصحابك عند لقاء العدو في اليقظة فقد رأيتم أهل الكفر أيضاً في أعينكم قليلاً حتى تجرؤوا عليهم، وأيضاً فقد قلل الله ﷻ عددكم في نظر أهل الكفر حتى لا ينسحبوا قبل القتال، بل تجرؤوا لقتلكم، كل ذلك ليتمكنكم الله من قتلهم والظفر بهم، وهذا أمرٌ قدره الله ولا بد أن يتحقق، وإلى الله ترجع أمور الخلائق كلها، وهو الذي يُدبر للمؤمنين أمرهم.

وبنحو ما ذكر قال أهل العلم.

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾، إذ يري الله نبيه في منامه المشركين قليلاً وإذ يريهم الله المؤمنين إذ لقوهم في أعينهم قليلاً وهم كثير عددهم، ويقلل المؤمنين في أعينهم، ليتركوا الاستعداد لهم، فتهون على المؤمنين شوكتهم. وقوله: ﴿لِيَقْضَى اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾، يقول جل ثناؤه: قللتكم أيها المؤمنون، في أعين المشركين، وأريتكموهم في أعينكم قليلاً حتى يقضي الله بينكم ما قضى من قتال بعضكم بعضاً، وإظهاركم أيها المؤمنون على أعدائكم من المشركين والظفر بهم، لتكون كلمة الله هي العليا، وكلمة الذين كفروا السفلى. وذلك أمرٌ كان الله فاعله وبالغاً فيه أمره.

﴿وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾، يقول جل ثناؤه: مصير الأمور كلها إليه في الآخرة،

فيجازي أهلها على قدر استحقاقهم المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ:

وقوله: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ التَّيَقُّمِ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا﴾ وهذا أيضًا من لطفه تعالى بهم، إذ أراهم إياهم قليلًا في رأي العين، فيجرؤهم عليهم، ويطمعهم فيهم.

وقال رَحِمَهُ اللهُ:

ومعنى هذا أنه تعالى أغرى كلاً من الفريقين بالآخر، وقلَّله في عينه ليطمع فيه، وذلك عند المواجهة. فلما التحم القتال وأيد الله المؤمنين بألف من الملائكة مردفين، بقي حزب الكفار يرى حزب الإيمان ضعفيه، كما قال تعالى: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَهُمْ رَأَى الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصَرِهِ مَن يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ (آل عمران: ١٣)، وهذا هو الجمع بين هاتين الآيتين، فإن كلاً منها حق وصدق، والله الحمد والمنة.

قلت (مصطفى): وارجع إلى تفسيري التسهيل عند قوله تعالى من سورة آل عمران: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَهُمْ رَأَى الْعَيْنِ...﴾.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:

(يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٤٦﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِشَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾ وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي لَأَكُونُ بِكُمْ فَارًّا فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقَبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٤٨﴾ إِذْ يَكْفُلُ الْمُنَافِقُونَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هَوَاهُمْ دِينُهُمْ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾)

[الأنفال: ٤٥-٤٩].

س: وضع معنى ما يلي:

﴿فِئَةٌ - وَلَا تَنْزَعُوا - فَتَفْشَلُوا - وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ - بَطْرًا - وَرِثَاءَ النَّاسِ - وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ - مُحِيطٌ - زَيْنٌ - جَارٌّ لَكُمْ - تَرَاءَتِ الْفِتَتَانِ - نَكَصَ عَلَى عَقَبَيْهِ - غَرَّ هَوًى لَاءَ دِينِهِمْ - يَتَوَكَّلْ﴾.

ج:

الكلمة	معناها
﴿فِئَةٌ﴾	جماعة (من أهل الشرك).
﴿وَلَا تَنْزَعُوا﴾	ولا تختلفوا.
﴿فَتَفْشَلُوا﴾	فتضعفوا وتجنبوا.
﴿وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾	تذهب قوتكم ويذهب النصر عنكم.
﴿بَطْرًا﴾	جحودًا للحق وإنكارًا له - استعانة بنعم الله على معاصيه
﴿وَرِثَاءَ النَّاسِ﴾	مراة للناس - كي يراهم الناس.
﴿وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾	يمنعون الناس من الدخول في دين الله.
﴿مُحِيطٌ﴾	أحاط بهم علمًا وبأعمالهم.
﴿زَيْنٌ﴾	حسن.
﴿جَارٌّ لَكُمْ﴾	ناصرٌ لكم - أجيركم.
﴿تَرَاءَتِ الْفِتَتَانِ﴾	رأى كل فئة الفئة الأخرى.
﴿نَكَصَ عَلَى عَقَبَيْهِ﴾	رجع هاربًا، ولى هاربًا.
﴿غَرَّ هَوًى لَاءَ دِينِهِمْ﴾	جرأ هؤلاء المسلمين على القتال دينهم الإسلام (هو الذي أوردتهم هذا المورد).
﴿يَتَوَكَّلْ﴾	يعتمد.

الثبات والإكثار

من ذكر الله عند لقاء العدو

س: وضع معنى قوله تعالى: ﴿يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ ٤٥ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَأَصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ ٤٦.

ج: هذا توجيه لأهل الإيمان بالله ﷻ وبيان لما يصنعون عند لقاء عدوهم، يقول تعالى ذكره: ﴿يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً﴾ جماعة من أهل الكفر في القتال ﴿فَاثْبُتُوا﴾ أمامهم ولا تجبنوا ولا تفروا ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ تفوزون بمطلوبكم وتهزمون عدوكم وتتصرون عليه، ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ فيما أمركم به ﴿وَلَا تَنَازَعُوا﴾ ولا تختلفوا ولا تخالفوا أمر الله ورسوله ﴿فَنَفْشَلُوا﴾ فتجبنوا عن لقاء عدوكم ﴿وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ وتذهب قوتكم وتفرقوا، ﴿وَأَصْبِرُوا﴾ على لقاء عدوكم ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ ٤٦ يؤيدهم ويقويهم وينصرهم.

وبنحو ما ذكر قال أهل العلم.

قال الطبري رحمه الله:

وهذا تعريف من الله جل ثناؤه أهل الإيمان به، السيرة في حرب أعدائه من أهل الكفر به، والأفعال التي يُرجى لهم باستعمالها عند لقاءهم النصر عليهم والظفر بهم. ثم يقول لهم جل ثناؤه: ﴿يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾، صدقوا الله ورسوله ﴿إِذَا لَقِيتُمْ﴾ جماعة من أهل الكفر بالله للحرب والقتال، فاثبتوا لقتالهم، ولا تنهزموا عنهم ولا تولوهم الأدبار هاربين، إلا متحرفاً لقتال أو متحيزاً إلى فئة منكم ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا﴾، يقول: وادعوا الله بالنصر عليهم والظفر بهم، وأشعروا قلوبكم وألستكم ذكره ﴿لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾، يقول: كيما تنجحوا فتظفروا بعدوكم، ويرزقكم الله النصر والظفر عليهم.

وأورد بإسناد حسن عن قتادة قوله: ﴿يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ ٤٥، افترض الله ذكره عند أشغل ما تكونون، عند الضراب بالسيوف.

وقال رحمه الله في تفسير قوله تعالى: ﴿وَاطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾:

يقول تعالى ذكره للمؤمنين به: أطيعوا أيها المؤمنون، ربكم ورسوله فيما أمركم به ونهاكم عنه، ولا تخالفوهما في شيء ﴿وَلَا تَنَزَعُوا فَنَفْسَلُوا﴾، يقول: ولا تختلفوا وتتفرقوا وتختلف قلوبكم ﴿فَنَفْسَلُوا﴾، يقول: فتضعفوا وتجنبوا، ﴿وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾. وهذا مثل. يقال للرجل إذا كان مقبلا ما يحبه ويسر به «الريح مقبلة عليه»، يعني بذلك: ما يحبه، ومن ذلك قول عبيد بن الأبرص:

كَمَا حَمَيْتَاكَ يَوْمَ النَّعْفِ مِنْ شَطَبٍ وَالْفَضْلُ لِلْقَوْمِ مِنْ رِيحٍ وَمِنْ عَدَدٍ

يعني: من البأس والكثرة.

وإنما يراد به في هذا الموضع: وتذهب قوتكم وبأسكم، فتضعفوا ويدخلكم الوهن والخلل.

﴿وَأَصْبِرُوا﴾، يقول: اصبروا مع نبي الله ﷺ عند لقاء عدوكم، ولا تنهزموا عنه وتتركوه ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ (٤٦)، يقول: اصبروا فإني معكم.

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله:

هذا تعليم الله عباده المؤمنين آداب اللقاء، وطريق الشجاعة عند مواجهة الأعداء، فقال: ﴿يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا﴾.

ثبت في الصحيحين^(١)، عن عبد الله بن أبي أوفى، عن رسول الله ﷺ أنه انتظر في بعض أيامه التي لقي فيها العدو حتى إذا مالت الشمس قام فيهم فقال: «يا أيها الناس، لا تتمنوا لقاء العدو، واسألوا الله العافية، فإذا لقيتموهم فاصبروا واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف». ثم قام النبي ﷺ وقال: «اللهم، منزل الكتاب، ومجري السحاب، وهازم الأحزاب، اهزمهم وانصرنا عليهم».

ثم قال ابن كثير رحمه الله:

فأمر تعالى بالثبات عند قتال الأعداء والصبر على مبارزتهم، فلا يفروا ولا يتركوا ولا ينجسوا، وأن يذكروا الله في تلك الحال ولا ينسوه بل يستعينوا به ويتوكلوا عليه،

(١) البخاري (٢٩٣٣) وفي غير موضع، ومسلم (١٧٤٢).

ويسأله النصر على أعدائهم، وأن يطيعوا الله ورسوله في حالهم ذلك. فما أمرهم الله تعالى به ائتمروا، وما نهاهم عنه انزعجوا، ولا يتنازعوا فيما بينهم أيضا فيختلفوا فيكون سببا لتخاذلهم وفشلهم.

﴿وَتَذَهَبَ رِيحُكُمْ﴾ أي: قوتكم وحدثكم وما كنتم فيه من الإقبال، ﴿وَأَصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾.

وقد كان للصحابة رضي الله عنهم في باب الشجاعة والائتمار بما أمرهم الله ورسوله، وامثال ما أرشدهم إليه ما لم يكن لأحد من الأمم والقرون قبلهم، ولا يكون لأحد ممن بعدهم؛ فإنهم ببركة الرسول، صلوات الله وسلامه عليه، وطاعته فيما أمرهم، فتحوا القلوب والأقاليم شرقا وغربا في المدة اليسيرة، مع قلة عددهم بالنسبة إلى جيوش سائر الأقاليم، من الروم والفرس والترك والصقالبة والبربر والحبوش وأصناف السودان والقبط، وطوائف بني آدم، قهروا الجميع حتى علّت كلمة الله، وظهر دينه على سائر الأديان، وامتدت الممالك الإسلامية في مشارق الأرض ومغاربها، في أقل من ثلاثين سنة، فرضي الله عنهم وأرضاهم أجمعين، وحشرنا في مرمتهم، إنه كريم وهاب.

قال القرطبي رحمته الله:

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً﴾ أي جماعة ﴿فَاتَّبِعُوا﴾ أمر بالثبات عند قتال الكفار، كما في الآية قبلها النهي عن الفرار عنهم، فالتقى الأمر والنهي على سواء. وهذا تأكيد على الوقوف للعدو والتجلد له. قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

للعلماء في هذا الذكر ثلاثة أقوال:

الأول: اذكروا الله عند جزع قلوبكم، فإن ذكره يعين على الثبات في الشدائد.

الثاني: اثبتوا بقلوبكم، واذكروه بألستكم، فإن القلب لا يسكن عند اللقاء ويضطرب اللسان، فأمر بالذكر حتى يثبت القلب على اليقين، ويثبت اللسان على الذكر، ويقول ما قاله أصحاب طالوت: ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا مَبْرَأً وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾.

[البقرة: ٢٥٠]. وهذه الحالة لا تكون إلا عن

قوة المعرفة، واتقاد البصيرة، وهي الشجاعة المحموده في الناس.

الثالث: اذكروا ما عندكم من وعد الله لكم في ابتياعه أنفسكم ومثامنته لكم.

قلت: والأظهر أنه ذكر اللسان الموافق للجنان. قال محمد بن كعب القرظي: لو رخص لأحد في ترك الذكر لرخص لزريريا، يقول الله ﷻ: ﴿لَا تُكَلِّمُ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمَزًا وَادَّكَّرَ بَكَ كَثِيرًا﴾ [آل عمران: ٤١]. ولرخص للرجل يكون في الحرب، يقول الله ﷻ: ﴿إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا﴾. وقال قتادة: افترض الله جل وعز ذكره على عباده، أشغل ما يكونون عند الضراب بالسيوف. وحكم هذا الذكر أن يكون خفيا، لأن رفع الصوت في مواطن القتال رديء مكروه إذا كان الذكور واحدا. فأما إذا كان من الجميع عند الحملة فحسن، لأنه يفت في أعضاء العدو.

وقال رحمه الله:

قوله تعالى: ﴿وَأَصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [٤٦] أمر بالصبر، وهو محمود في كل المواطن وخاصة موطن الحرب، كما قال: ﴿إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا﴾.

وقال السعدي رحمه الله:

يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً﴾ أي: طائفة من الكفار تقاتلكم. ﴿فَاثْبُتُوا﴾ لقاتلها، واستعملوا الصبر وحبس النفس على هذه الطاعة الكبيرة، التي عاقبتها العز والنصر.

واستعينوا على ذلك بالإكثار من ذكر الله ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ أي: تدركون ما تطلبون من الانتصار على أعدائكم، فالصبر والثبات والإكثار من ذكر الله من أكبر الأسباب للنصر.

﴿وَاطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ في استعمال ما أمروا به، والمشى خلف ذلك في جميع الأحوال.

﴿وَلَا تَنَزَعُوا﴾ تنازعا يوجب تشتت القلوب وتفرقها، ﴿فَنَفْسُوا﴾ أي: تجنبوا ﴿وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ أي: تنحل عزائمكم، وتفرق قوتكم، ويرفع ما وعدتم به من النصر على طاعة الله ورسوله.

﴿وَأَصْبِرُوا﴾ نفوسكم على طاعة الله ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ بالعون والنصر

والتأييد، واخشعوا لربكم واخضعوا له.

س: ما مدى صحة هذا الحديث: «إن الله يحب الصمت عند ثلاث عند تلاوة القرآن،

وعند الزحف، وعند الجنازة»؟

ج: هذا حديث ضعيف لا يثبت عن رسول الله ﷺ، أخرجه الطبراني^(١) وفيه رجل لم يسم وله طرق أخر فيها ضعف. والله أعلم.

التحذير من الكبر والرياء

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ يَمَّا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾.

ج: المعنى - والله تعالى أعلم -: ولا تكونوا يا أهل الإيمان عند خروجكم لقتال عدوكم، وكذا لا تكونوا في عموم أحوالكم منكبين للحق جاحدين لله، مستعينين بنعم الله على معصيته مرآئين للناس تبتغون وجوههم ومرضاتهم صادين الناس عن طاعة الله ﷻ، فالمعنى: ولا تكونوا يا أهل الإسلام كأهل الشرك بالله الذين خرجوا يوم بدر من ديارهم، وهم للحق جاحدين وهم منكرون لوحداية الله ﷻ، خرجوا لنصرة صاحبهم أبي سفيان وللمحافظة على العير، فلما سلم الله لهم العير، وقيل لهم: ارجعوا فقد سلمت عيركم وتجارتمكم أصروا على الذهاب إلى بدر مرآة للناس مع جحودهم الحق، وهم في ذات الوقت صادين الناس عن دخول الإسلام وسلوك طريق الهداية، قائلين لن نرجع حتى نأتي بدرًا نشرب عندها الخمر، وتعزف علينا القيان وتغني لنا وتسمع بنا العرب فلا تزال تخشانا وتهابنا أما قوله: ﴿وَاللَّهُ يَمَّا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ أي: والله عالم بهم لا يخفى عليه شيء من أمرهم، قادرٌ عليهم كذلك.

وبنحو هذا قال أهل العلم.

قال الطبري رحمه الله:

وهذا تقدّم من الله جل ثناؤه إلى المؤمنين به وبرسوله، أن لا يعملوا عملاً إلا الله خاصة، وطلب ما عنده، لا رياء الناس، كما فعل القوم من المشركين في مسيرهم إلى بدر طلب رياء الناس. وذلك أنهم أخبروا بقوت العير رسول الله ﷺ وأصحابه، وقيل

(١) الطبراني في الكبير (٢١٣/٥).

لهم: «انصرفوا فقد سلمت العير التي جئتم لنصرتها!»، فأبوا وقالوا: «نأتي بدرًا فنشرب بها الخمر، وتعزف علينا القيان، وتحدث بنا العرب فيها»، فسقوا مكان الخمر كؤوس المنايا.

وأورد بإسناد صحيح^(١) عن عروة قال: كانت قريش قبل أن يلقاهم النبي ﷺ يوم بدر، قد جاءهم راكب من أبي سفيان والركب الذين معه: إنا قد أجزنا القوم، وأن ارجعوا. فجاء الركب الذين بعثهم أبو سفيان الذين يأمرهم قريشًا بالرجعة بالجحفة، فقالوا: «والله لا نرجع حتى نزل بدرًا، فنقيم فيه ثلاث ليالٍ، ويرانا من غشينا من أهل الحجاز، فإنه لن يرانا أحد من العرب وما جمعنا فيقاتلنا». وهم الذين قال الله: ﴿كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِثَاءَ النَّاسِ﴾، والتقوا هم والنبي ﷺ، ففتح الله على رسوله، وأخزى أئمة الكفر، وشفى صدور المؤمنين منهم.

وأورد من طريق ابن إسحاق - في حديث ذكره - قال، حدثني محمد بن مسلم، وعاصم بن عمر، وعبد الله بن أبي بكر، ويزيد بن رومان، عن عروة بن الزبير وغيره من علمائنا، عن ابن عباس قال: لما رأى أبو سفيان أنه أحرز عيره، أرسل إلى قريش: إنكم إنما خرجتم لتمنعوا عيركم ورجالكم وأموالكم، فقد نجاها الله، فارجعوا! فقال أبو جهل بن هشام: والله لا نرجع حتى نرد بدرًا، وكان «بدر» موسمًا من مواسم العرب، يجتمع لهم بها سوق كل عام - فنقيم عليه ثلاثًا، وننحر الجُزُر، ونطعم الطعام، ونسقي الخمر، وتعزف علينا القيان، وتسمع بنا العرب، فلا يزالون يهابوننا أبدًا، فامضوا.

وأورد بإسناد حسن^(٢) عن قتادة: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِثَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ يَمَّا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾، قال: كان مشركو قريش الذين قاتلوا نبي الله يوم بدر، خرجوا ولهم بغي وفخر. وقد قيل لهم يومئذ: «ارجعوا، فقد انطلقت عيركم، وقد ظفرتم». قالوا: «لا والله، حتى يتحدث أهل الحجاز بمسيرنا وعدنا!». قال: وذكر لنا أن نبي الله ﷺ قال يومئذ: «اللهم إن قريشًا أقبلت

(١) ولكنه مرسل لأن عروة تابعي.

(٢) ولكنه مرسل.

بفخرها وخيلائها لتحادّك ورسولك!».

قال الطبري رحمه الله:

فتأويل الكلام إذا: ولا تكونوا، أيها المؤمنون بالله ورسوله، في العمل بالرياء والسمعة، وترك إخلاص العمل لله، واحتساب الأجر فيه، كالجيش من أهل الكفر بالله ورسوله الذين خرجوا من منازلهم بطراً ومراعاة الناس بزيّهم وأموالهم وكثرة عددهم وشدة بطانتهم، ﴿وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾، يقول: ويمنعون الناس من دين الله والدخول في الإسلام، بقتالهم إياهم، وتعذيبهم من قدروا عليه من أهل الإيمان بالله، ﴿وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾، من الرياء والصدّ عن سبيل الله، وغير ذلك من أفعالهم، ﴿مُحِيطٌ﴾، يقول: عالم بجميع ذلك، لا يخفى عليه منه شيء، وذلك أن الأشياء كلها له متجلية، لا يعزب عنه منها شيء، فهو لهم بها معاقب، وعليها معذب.

وقال ابن كثير رحمه الله:

يقول تعالى بعد أمره المؤمنين بالإخلاص في القتال في سبيله وكثرة ذكره، ناهياً لهم عن التشبه بالمشرّكين في خروجهم من ديارهم ﴿بَطَرًا﴾ أي: دفعاً للحق، ﴿وَرِثَاءَ النَّاسِ﴾ وهو: المفارقة والتكبر عليهم، كما قال أبو جهل - لما قيل له: إن العير قد نجا فارجعوا - فقال: لا والله لا نرجع حتى نرد ماء بدر، وننحر الجُرُرَ، ونشرب الخمر، وتعزف علينا القيان، وتحدث العرب بمكاننا فيها يومنا أبداً، فانعكس ذلك عليه أجمع؛ لأنهم لما وردوا ماء بدر وردوا به الحمام، ورُمُوا في أطواء بدر مهانين أذلاء، صغرة أشقياء في عذاب سرمدي أبدي؛ ولهذا قال: ﴿وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ أي: عالم بما جاؤوا به وله، ولهذا جازاهم على ذلك شر الجزاء لهم.

قال ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، والضحاك، والسدي في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِثَاءَ النَّاسِ﴾ قالوا: هم المشركون، الذين قاتلوا رسول الله ﷺ يوم بدر.

وقال السعدي رحمه الله:

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِثَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: هذا مقصدهم الذي خرجوا إليه، وهذا الذي أبرزهم من ديارهم الأشر والبطر في

الأرض، وليراهم الناس ويفخروا لديهم.
والمقصود الأعظم أنهم خرجوا ليصدوا عن سبيل الله من أراد سلوكه، ﴿وَاللَّهُ بِمَا
يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ (٤٧) ﴿فَلَذَلِكَ أَخْبِرْكُمْ بِمَا كَادْتُمْ أَنْ تَبْلُغُوا بِهِمْ، فَإِنَّهُ
سَيُعَاقِبُهُمْ عَلَى ذَلِكَ أَشَدَّ الْعُقُوبَةِ. فليكن قصدكم في خروجكم وجه الله تعالى
وإعلاء دين الله، والصد عن الطرق الموصلة إلى سخط الله وعقابه، وجذب الناس
إلى سبيل الله القويم الموصل لجنت النعيم.

تزيين الشيطان لأهل الباطل باطلهم وتمثل الشيطان بسراقة بن مالك

س: وضع معنى قوله تعالى: ﴿وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَأَتْهُ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقَبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنْكُمْ إِنِّي أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ١٨﴾.

ج: المعنى -والله تعالى أعلم- واذكر يا رسول الله واذكروا يا أهل الإيمان وقتاً زين الشيطان لأهل الشرك أعمالهم، وهذا يوم بدر زين لهم خروجهم للقتال وحسنه لهم، وكان الخوف قد تسرب إليهم وترددوا، قال كثيرٌ من أهل العلم، وذلك لأنه كانت بينهم وبين بعض قبائل العرب إحنٌ وحروبٌ، وكانوا يخشون من قبيلة بني بكر أن تأتيهم من الخلف وتقاتلهم.

قال كثير من أهل العلم فتمثل لهم الشيطان: وتبدى لهم في صورة سراقة بن مالك وقال لهم: لا تخشوا بأس بني بكر فإني أحفظكم منهم، وأدفع عنكم شرهم فسيروا وفرغوا أنفسكم لقتال محمد وأصحابه، فأنا لكم جارٌ ولن يغلبكم أحدٌ من الناس فلما تراءت الفئتان فئة المسلمين، وفئة الكفار، رأت كل فئة منهم الفئة الأخرى، وتنزل جبريل عليه السلام وعليه أداة الحرب رآه الشيطان فولى هارباً مدبراً متخلياً عن أصحابه قائلاً: ﴿إِنِّي بَرِيءٌ مِّنْكُمْ إِنِّي أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ﴾ يعني الملائكة ﴿إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ﴾ أن يهلكني الآن ﴿وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ لمن خالفه وكفر به.

وينحو هذا قال أهل العلم بالتأويل.

أورد الطبري رحمه الله عدة آثار في تفسيره منها ما هو ضعيف الإسناد إلى قائله، ومنها ما هو صحيح الإسناد إلى قائله لكنه مرسل، ولكن في جملتها تصحيح وتؤكد أن إبليس تمثل لأهل الشرك وتبدى لهم في صورة سراقة بن مالك بن جعشم وطمانهم وقال: إني جارٌ لكم ثم بعد ذلك لما رأى جبريل والملائكة نكص على عقبيه متبراً منهم، من هذه الآثار، أثر ابن عباس^(١) قال: جاء إبليس يوم بدر في جُندٍ من الشياطين، معه رايته، في صورة رجل من بني مُدَلج، والشيطان في صورة سراقة بن مالك بن

(١) وهو ضعيف الإسناد إلى ابن عباس رضي الله عنهما.

جعشم، فقال الشيطان للمشركين: ﴿لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنَّ جَارَ لَكُمْ﴾. فلما اصطف الناس، أخذ رسول الله ﷺ قبضةً من التراب فرمى بها في وجهه المشركين، فولّوا مدبرين. وأقبل جبريل إلى إبليس، فلما رآه، وكانت يده في يد رجل من المشركين، انتزع. إبليس يده فولّى مدبراً هو وشيعته، فقال الرجل: يا سراقه، تزعم أنك لنا جار؟ قال: ﴿إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ (٤٨)، وذلك حين رأى الملائكة.

ومنها أثر بإسناد حسن^(١) عن السدي قال: أتى المشركين إبليس في صورة سراقه بن مالك بن جعشم الكناني الشاعر، ثم المدلجي، فجاء على فرس، فقال للمشركين: ﴿لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ﴾! فقالوا: ومن أنت؟ قال: أنا جاركم سراقه، وهؤلاء كنانة قد أتوكم!

ومنها أثر عن عروة بن الزبير^(٢) قال: لما أجمعت قريش المسير، ذكرت الذي بينها وبين بني بكر - يعني من الحرب - فكاد ذلك أن يثنى عليهم، فتبدّى لهم إبليس في صورة سراقه بن مالك بن جعشم المدلجي، وكان من أشرف بني كنانة، فقال: «أنا جار لكم من أن تأتیکم كنانة من خلفكم بشيء تكرهونه!» فخرجوا سراعاً.

وأثر أيضاً بإسناد حسن عن قتادة^(٣) قال: ذكر لنا أنه رأى جبريل تنزل معه الملائكة، فزعم عدو الله أنه لا يَدِيْ له بالملائكة، وقال: ﴿إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ﴾، وكذب والله عدو الله، ما به مخافة الله، ولكن علم أن لا قوة له ولا منعة له، وتلك عادة عدو الله لمن أطاعه واستقاد له، حتى إذا التقى الحق والباطل أسلمهم شر مُسْلَمٍ، وتبرأ منهم عند ذلك.

وأثر عن طلحة بن عبيد الله بن كريز^(٤)، وهو من التابعين أن رسول الله ﷺ قال: ما رُئي إبليس يوماً هو فيه أصغر، ولا أحقر، ولا أدحر، ولا أغيط من يوم عرفة، وذلك

(١) ولكنه مرسل.

(٢) ولكنه مرسل.

(٣) ولكنه مرسل.

(٤) ولكنه مرسل.

مما يرى من تنزيل الرحمة والعفو عن الذنوب، إلا ما رأى يوم بدر! قالوا: يا رسول الله، وما رأى يوم بدر؟ قال: «أما إنه رأى جبريل يَزْعُ الملائكة». وبإسناده عن الحسن في قوله: ﴿إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ﴾ قال: رأى جبريل معتجراً بُرْدٍ، يمشي بين يدي النبي ﷺ، وفي يده اللجام، ما ركب. وغير ذلك من الآثار، وكذا أورد ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ وغيره عددٌ كبير من الآثار تدور حول هذا المعنى، وهي بلا شك ولكثرتها تصحح المعنى المذكور، والله أعلم.

قال الطبري رَحِمَهُ اللهُ:

فتأويل الكلام: ﴿وَإِذْ أَلَّهَ لَسَمِيعٍ عَلِيمٍ﴾، في هذه الأحوال، وحين زين لهم الشيطان خروجهم إليكم، أيها المؤمنون، لحربكم وقتالكم وحسن ذلك لهم وحثم عليكم، وقال لهم: لا غالب لكم اليوم من بني آدم، فاطمئنوا وأبشروا، ﴿وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ﴾، من كنانة أن تأتكم من ورائكم فمعيذكم، أجيركم وأمنعكم منهم، فلا تخافوهم، واجعلوا حدكم وبأسكم على محمد وأصحابه، ﴿فَلَمَّا تَرَأَتِ الْفُتَاتِ﴾، يقول: فلما تزاхفت جنود الله من المؤمنين وجنود الشيطان من المشركين، ونظر بعضهم إلى بعض، ﴿نَكَصَ عَلَى عَقَبَيْهِ﴾، يقول: رجع القهقري على قفاه هارباً.

يقال منه: «نكص ينكص وينكص نكوصاً»، ومنه قول زهير:

هُم يَضْرِبُونَ حَيْبَكَ الْبَيْضَ إِذْ لَحِقُوا لَا يَنْكُصُونَ، إِذَا مَا اسْتُلْجِمُوا وَحُمُوا

وقال للمشركين: ﴿إِنِّي بَرِيءٌ مِّنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ﴾، يعني أنه يرى الملائكة الذين بعثهم الله مدداً للمؤمنين، والمشركون لا يرونهم، إني أخاف عقاب الله، وكذب عدو الله، ﴿وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ:

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ﴾ الآية: حسن لهم -لعنه الله- ما جاؤوا له وما هموا به، وأطمعهم أنه لا غالب لهم اليوم من الناس، ونفى عنهم الخشية من أن يؤتوا في ديارهم من عدوهم بني بكر فقال: أنا جار لكم، وذلك أنه تبدى لهم في صورة سُرَاقَةَ بن مالك بن

جُعْشَم، سيد بني مُدَلَج، كبير تلك الناحية، وكل ذلك منه، كما قال الله تعالى عنه: ﴿يَعِدُّهُمْ وَيَمْنِيهِمْ وَمَا يَعِدُّهُمْ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [النساء: ١٢٠].

وأورد ابن كثير جملة من الآثار، وقال بعد إيراده أثر قتادة المتقدم:

قلت: يعني بعبادته لمن أطاعه قوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ [الحشر: ١٦]، وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٢٢].

وقال السعدي في تفسيره:

﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ﴾ حسننها في قلوبهم وخدعهم. ﴿وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ﴾ فإنكم في عددٍ وعددٍ وهيئة لا يقاومكم فيها محمد ومن معه. ﴿وَإِنِّي جَارٌّ لَكُمْ﴾ من أن يأتيكم أحد ممن تخشون غائلته، لأن إبليس قد تبدى لقريش في صورة سراقه بن مالك بن جعشم المدلجي، وكانوا يخافون من بني مدلج لعداوة كانت بينهم.

فقال لهم الشيطان: أنا جار لكم، فاطمأنت نفوسهم وأتوا على حرد قادرين. ﴿فَلَمَّا تَرَأَتْهُ الْفُتَيَانُ﴾ المسلمون والكافرون، فرأى الشيطان جبريل عليه السلام يزع الملائكة خاف خوفا شديدا و﴿نَكَصَ عَلَى عَقَبَيْهِ﴾ أي: ولى مدبرا. ﴿وَقَالَ﴾ لمن خدعهم وغرهم: ﴿إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ﴾ أي: أرى الملائكة الذين لا يدان لأحد بقتالهم. ﴿إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ﴾ أي: أخاف أن يعاجلني بالعقوبة في الدنيا ﴿وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾. ومن المحتمل أن يكون الشيطان، قد سول لهم، ووسوس في صدورهم أنه لا غالب لهم اليوم من الناس، وأنه جار لهم، فلما أوردتهم مواردهم، نكص عنهم، وتبرأ منهم، كما قال تعالى: ﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ [١٦] فكان عِقْبَتُهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴿١٧﴾.

اس: وضع معنى قوله تعالى: (إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَابْتَغِ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾).

ج: المعنى - والله تعالى أعلم -: أن الله ﷻ سميع عليم لأقوال أهل النفاق ومرضى القلوب وهم الذين أسلموا وفي قلوبهم شك وفي قلوبهم ريب، هؤلاء، وأولئك المنافقون قالوا يوم بدر لما رأوا عدد المسلمين قليلاً وكذا رأوا عددهم قليلة قالوا ﴿غَرَّ هَؤُلَاءِ﴾ - يعنون: المسلمين - ﴿دِينُهُمْ﴾ أي: أن الذي جرأ هؤلاء المسلمين وأوردهم هذا المورد الذي سيقتلون فيه ويبادون، الذي غرهم للقتال هو دينهم الذي هم عليه، الذي هو من وجهة نظر المنافقين ومرضى القلوب، ليس بدين حق، لكن الله ﷻ ثبت أهل الإيمان، وحثهم على حسن التوكل عليه والاعتماد عليه بقوله: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ يعتمد على الله في شؤونه كلها ﴿فَابْتَغِ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾ لا يغلب وكذا فهو غالب على أمره ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما يشرع ﷻ وفيما يقضي.

وبنحو هذا قال أهل العلم بالتأويل.

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾، في هذه الأحوال، ﴿إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ﴾، وكرّ بقوله: ﴿إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ﴾، على قوله: ﴿إِذْ يُرِيكُهُمُ اللَّهُ فِي مَنَايِكَ قَلِيلًا﴾، ﴿وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾، يعني: شك في الإسلام، لم يصحّ يقينهم، ولم تُشرح بالإيمان صدورهم، ﴿غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ﴾، يقول: غر هؤلاء الذين يقاتلون المشركين من أصحاب محمد ﷺ من أنفسهم، دينهم، وذلك الإسلام. وذكر أن الذين قالوا هذا القول، كانوا نفراً ممن كان قد تكلم بالإسلام من مشركي قريش، ولم يستحكم الإسلام في قلوبهم.

وأورد بإسناد صحيح عن عامر (وهو الشعبي) ^(١): في هذه الآية: ﴿إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ﴾، قال: كان ناسٌ من أهل مكة تكلموا بالإسلام، فخرجوا مع المشركين يوم بدر، فلما رأوا قلة المسلمين قالوا: ﴿غَرَّ هَؤُلَاءِ

(١) ولكنه مرسل.

دِينُهُمْ ﴿١٣٣﴾

وبإسناد حسن عن قتادة قوله: ﴿إِذْ يَكْفُلُ الْمُنَافِقُونَ وَلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ إلى قوله: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (١٣٣)، قال: رأوا عصابة من المؤمنين تشردت لأمر الله. وذكر لنا أن أبا جهل عدو الله لما أشرف على محمد ﷺ وأصحابه قال: «والله لا يُعبد الله بعد اليوم!»، قسوة وعُتُوًّا.

وأورد آثارًا أخر وقال:

وأما قوله: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾، فإن معناه: ومن يسلم أمره إلى الله، ويثق به، ويرض بقضائه، فإن الله حافظه وناصره، لأنه ﴿عَزِيزٌ﴾، لا يغلبه شيء، ولا يقهره أحد، فجارهُ منيع، ومن يتوكل عليه مكفيٌّ. وهذا أمرٌ من الله جل ثناؤه المؤمنين به من أصحاب رسول الله وغيرهم، أن يفوضوا أمرهم إليه، ويسلموا لقضائه، كيما يكفيهم أعداءهم، ولا يستذلهم من ناوأهم، لأنه ﴿عَزِيزٌ﴾ غير مغلوب، فجاره غير مقهور ﴿حَكِيمٌ﴾، يقول: هو فيما يدبر من أمر خلقه حكيم، لا يدخل تدبيره خلل.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ في قوله تعالى:

وقوله: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ أي: يعتمد على جنابه، ﴿فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾ أي: لا يُضام من التجأ إليه، فإن الله عزيز منيع الجنب، عظيم السلطان، ﴿حَكِيمٌ﴾ في أفعاله، لا يضعها إلا في مواضعها، فينصر من يستحق النصر، ويخذل من هو أهل لذلك.

وقال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ:

قيل: المنافقون: الذين أظهروا الإيمان وأبطنوا الكفر. والذين في قلوبهم مرض: الشاكون، وهم دون المنافقين، لأنهم حديثو عهد بالإسلام، وفيهم بعض ضعف نية. قالوا عند الخروج إلى القتال وعند التقاء الصفين: غر هؤلاء دينهم. وقيل: هما واحد، وهو أولى. ألا ترى إلى قوله ﷻ: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ [البقرة: ٣] ثم قال

﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ [البقرة: ٤] وهما لواحد.

وقال السعدي رحمه الله:

﴿إِذْ يَكْفُلُ الْمُنَافِقُونَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ﴾ أي: شك وشبهة، من ضعفاء الإيمان، للمؤمنين حين أقدموا - مع قتلهم - على قتال المشركين مع كثرتهم. ﴿غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ﴾ أي: أوردتهم الدين الذي هم عليه هذه الموارد التي لا يدان لهم بها، ولا استطاعة لهم بها، يقولونه احتقارا لهم واستخفافا لعقولهم، وهم - والله - الأخفَاء عقولا الضعفاء أحلاما.

فإن الإيمان يوجب لصاحبه الإقدام على الأمور الهائلة التي لا يقدم عليها الجيوش العظام، فإن المؤمن المتوكل على الله، الذي يعلم أنه ما من حول ولا قوة ولا استطاعة لأحد إلا بالله تعالى، وأن الخلق لو اجتمعوا كلهم على نفع شخص بمثقال ذرة لم ينفعوه، ولو اجتمعوا على أن يضروه لم يضروه إلا بشيء قد كتبه الله عليه، وعلم أنه على الحق، وأن الله تعالى حكيم رحيم في كل ما قدره وقضاه، فإنه لا يبالي بما أقدم عليه من قوة وكثرة، وكان واثقا بربه، مطمئن القلب لا فزعا ولا جباناً، ولهذا قال: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَارَبُّ اللَّهِ عَزِيزٌ﴾ لا يغالب قوته قوة. ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما قضاه وأجراه.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:

(وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ
وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْت أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَمٍ
لِّلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾ كَذَّابِ ۖ آلِ فِرْعَوْنَ ۖ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ
اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۖ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٥٢﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً
أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ۖ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾ كَذَّابِ
ۖ آلِ فِرْعَوْنَ ۖ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا
ۖ آلَ فِرْعَوْنَ ۖ وَكُلُّ كَانُوا ظَالِمِينَ ﴿٥٤﴾ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ
لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾ الَّذِينَ عَاهَدَتْ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ
لَا يَنْقُوتُونَ ﴿٥٦﴾ فَمَا تَتَّقِفْنَهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرَّدَ بِهِمْ مَن خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ
يَذْكُرُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِنَّمَا تَخَافُكَ مِن قَوْمٍ خِيَانَةٌ ۖ فَانْصُرْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ ۖ إِنَّ اللَّهَ
لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ ﴿٥٨﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا ۖ إِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾ ﴿٥٩﴾

[الأنفال: ٥٠-٥٩].

س: وضع معنى ما يلي:

﴿يَتَوَقَّى﴾ - وَأَذْبَرَهُمْ - عَذَابَ الْحَرِيقِ - قَدَمْتَ أَيْدِيَكُمْ - كَذَابٍ - فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ - حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ - شَرَّ الدَّوَابِّ - تَثْقَفَنَّهُمْ - فَشَرَّدَ بِهِمْ مَنْ خَلَفَهُمْ - يَذْكُرُونَ - فَأَنْذِرْ لَهُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ - سَبَقُوا - لَا يَعْرِضُونَ ﴿﴾.

ج:

الكلمة	معناها
﴿يَتَوَقَّى﴾	تقبض أرواحهم عند استيفاء آجالهم.
﴿وَأَذْبَرَهُمْ﴾	ظهورهم - أعجازهم - أسأهمهم.
﴿عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾	العذاب المُحرق.
﴿قَدَمْتَ أَيْدِيَكُمْ﴾	اكتسبتم من الذنوب والمعاصي والكفر - جرائمكم التي ارتكبتها.
﴿كَذَابٍ﴾	كعادة - كشأن.
﴿فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾	فعاقبهم الله بسبب ذنوبهم بأخذهم بالعذاب الشديد.
﴿حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾	حتى يتحولوا من شكرٍ وطاعة إلى جحود وعصيان ونكران.
﴿شَرَّ الدَّوَابِّ﴾	شر ما دبَّ على الأرض من الخلائق.
﴿تَثْقَفَنَّهُمْ﴾	تجدنهم - تتمكن منهم وتأسرهم.
﴿فَشَرَّدَ بِهِمْ مَنْ خَلَفَهُمْ﴾	فاجعلهم عبرةً وعظةً ونكالا لغيرهم فبدد بهم من خلفهم، واجعل غيرهم يتفكرون ولا يفكرون في نقض العهد.

يَتَعَطُونَ - يَتَعَبُونَ.	(يَذْكُرُونَ) ﴿
اطرح إليهم العهد وأخبرهم أنك تحللت من العقد الذي بينك وبينهم بسبب بوادر الخيانة التي ظهرت منهم حتى تستوي أنت وهم في العلم بأن بعضكم لبعض حربٌ.	(فَأَنذِرْهُمْ عَلَى سَوَاءٍ) ﴿
سبقونا ولن ندرکہم ولن نعذبہم فأتونا فلن نقدر على إلحاق العذاب بهم.	(سَبِّحُوا) ﴿
لا يغلبوننا، ولن نعجز عنهم.	(لَا يَعْجِزُونَ) ﴿

حال الكفار عند قبض أرواحهم

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَذْهَبْنَاهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ٥٠﴾ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْت أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلِيمٍ فَلْيَعْبُدِ ﴿٥١﴾.

ج: المعنى - والله تعالى أعلم - ولو ترى يا عبد الله حال الكفار عندما تتوفاهم الملائكة، عندما تقبض الملائكة أرواحهم لرأيت أمراً عظيماً تقشعر منه الجلود والأبدان، إنهم يضربونهم ضرباً شديداً عند قبض الأرواح، وسواء كان هذا يوم بدر يوم قبضت الملائكة أرواح أهل الكفر أو كان في غير يوم بدر، فإن الملائكة تضرب الكفار عند الاحتضار ضرباً شديداً على الوجوه والأدبار ومن الأمام ومن الخلف وعلى الظهر والأستاه (جمع است)، ومما يزيد هذا الضرب قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ ٥٠﴾.

[الأنعام: ٩٣]

وكما قال تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَذْهَبْنَاهُمْ ٥٧﴾.

[محمد: ٢٧]

أما الأدبار فقال غير واحد: إنها الظهر.

وقال كثيرون: إنها الأستاه (جمع است) ولكن الله حيي كريم يُكِنِّي عنها بالأدبار.

هذا، ثم إن الملائكة أيضاً تبشرهم بالنار عند الاحتضار فتقول لهم: وذوقوا عذاب الحريق أي: وستذوقوا العذاب المحرق، ذلك العذاب، وذلك الضرب، وذلك التبشير بعذاب الحريق، كل ذلك بسبب ما قدمته أيديكم بما اقترفتموه من الذنوب والآثام وبما اجترحتموه من الجرائم، فربكم يجازيكم بأعمالكم ولا يظلمكم شيئاً.

وبنحو هذا قال أهل العلم بالتأويل.

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: ولو تعاین، يا محمد، حين يتوفى الملائكة أرواح الكفار، فتنزعهما من أجسادهم، تضرب الوجوه منهم والأستاه، ويقولون لهم: ذوقوا عذاب النار التي تحرقكم يوم ورودكم جهنم.

وأورد الطبري رحمه الله عن عدد من العلماء في تفسير قوله: ﴿وَأَذْبَرَهُمْ﴾ قال: وأستاهمهم، ولكنه كريم يُكْنَى.

ثم قال: وفي الكلام محذوف، استغني بدلالة الظاهر عليه من ذكره، وهو قوله: «ويقولون»، ﴿وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾، حذفت «يقولون»، كما حذفت من قوله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا﴾ [السجدة: ٢١]، بمعنى: يقولون: ربنا أبصرنا.

وقال في تأويل قوله: ﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ﴾.

قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره مخبراً عن قيل الملائكة لهؤلاء المشركين الذين قتلوا بدر، أنهم يقولون لهم وهم يضربون وجوههم وأدبارهم: «ذوقوا عذاب الله الذي يحرقكم»، هذا العذاب لكم، ﴿بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيكُمْ﴾، أي: بما كسبت أيديكم من الآثام والأوزار، واجترحتهم من معاصي الله أيام حياتكم، فذوقوا اليوم العذاب، وفي معادكم عذاب الحريق؛ وذلك لكم بأن الله ﴿لَيْسَ بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ﴾، لا يعاقب أحداً من خلقه إلا بجرم اجترمه، ولا يعذبه إلا بمعصيته إياه، لأن الظلم لا يجوز أن يكون منه.

وفي فتح «أن» من قوله: (وأن الله)، وجهان من الإعراب:

أحدهما: النصب، وهو للعطف على «ما» التي في قوله: ﴿بِمَا قَدَّمْتُمْ﴾، بمعنى: ﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيكُمْ﴾، وبأن الله ليس بظلام للعبيد، في قول بعضهم، والخفض، في قول بعض.

والآخر: الرفع، على ﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ﴾، وذلك أن الله.

قال ابن كثير رحمه الله:

يقول تعالى: ولو عاينت يا محمد حال توفي الملائكة أرواح الكفار، لرأيت أمراً عظيماً هائلاً فظيماً منكراً؛ إذ يضربون وجوههم وأدبارهم، ويقولون لهم: ﴿وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾.

وهذا السياق - وإن كان سببه وقعة بدر - ولكنه عام في حق كل كافر؛ ولهذا لم يخصه تعالى بأهل بدر، بل قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ تَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ

يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ ﴿١٤٠﴾ وفي سورة القتال مثلها وتقدم في سورة الأنعام قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ﴾ **[الأنعام: ٩٣]** أي: باسطوا أيديهم بالضرب فيهم، يأمرونهم إذ استصعبت أنفسهم، وامتنعت من الخروج من الأجساد أن تخرج قهراً. وذلك إذ بشروهم بالعذاب والغضب من الله، كما في حديث البراء: أن ملك الموت - إذا جاء الكافر عند احتضاره في تلك الصورة المنكرة - يقول: اخرجني أيتها النفس الخبيثة إلى سَمُومٍ وحميم، وظل من يحموم، فتفرق في بدنه، فيستخرجونها من جسده، كما يخرج السفود من الصوف المبلول فتخرج معها العروق والعصب؛ ولهذا أخبر تعالى أن الملائكة تقول لهم: ﴿وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَكُمْ﴾ أي: هذا الجزاء بسبب ما عملتم من الأعمال السيئة في حياتكم الدنيا، جازاكم الله بها هذا الجزاء، ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ لَلْعَبِيدِ﴾ (٥١) أي: لا يظلم أحداً من خلقه، بل هو الحكم العدل، الذي لا يجور، ع وتقدس وتنزه الغني الحميد؛ ولهذا جاء في الحديث الصحيح عند مسلم^(١)، رَحِمَ اللَّهُ، من رواية أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ: يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي، وَجَعَلْتَهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا فَلَا تَظَالَمُوا. يَا عِبَادِي، إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أَحْصِيهَا لَكُمْ، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ».

سنن الله ﷻ في الظالمين

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿كَذَّابٌ آلُ فِرْعَوْنَ ۖ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ۝٥٤﴾.

ج: المعنى - والله أعلم -: شأن هؤلاء الكفار وعادتهم كشأن آل فرعون وعادتهم فال فرعون جاءهم رسول الله موسى ﷺ فكذبوه فانتقمنا منهم، وهؤلاء المشركون جاءهم رسول الله محمد ﷺ فكذبوه فانتقمنا منهم. فقوم فرعون والذين من قبلهم كفروا بآيات الله وجحدوها فأخذهم الله بالعذاب الشديد بسبب ذنوبهم وهؤلاء المشركون كذلك إن الله قوي لا يمنعه مما يريد مانع، ولا يغلبه غالب ﴿شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ لأهل التكذيب والجحود والنكران، وبنحوه قال العلماء.

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره: فَعَلُ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ مِنْ قَرِيشٍ الَّذِينَ قَتَلُوا بَيْدَرَ، كَعَادَةِ قَوْمِ فِرْعَوْنَ وَصَنِيعِهِمْ وَفَعْلِهِمْ وَفَعَلَ مِنْ كَذِّبٍ بِحُجَجِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ مِنَ الْأُمَمِ الْخَالِيَةِ قَبْلِهِمْ، فَفَعَلْنَا بِهِمْ كَفَعَلْنَا بِأُولَئِكَ.

وقد بينا فيما مضى أن «الدَّابَّ»، هو الشأن والعادة.

وقوله: ﴿فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾، يقول: فعاقبهم الله بتكذيبهم حججه ورسله، ومعصيتهم ربهم، كما عاقب أشكالهم والأمم الذين قبلهم، ﴿إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ﴾، لا يغلبه غالب، ولا يرد قضاءه رادُّ، يُنْفِذُ أَمْرَهُ، وَيُمْضِي قَضَاءَهُ فِي خَلْقِهِ ﴿شَدِيدٌ﴾ عقابه لمن كفر بالله وجحد حُججه.

وقال ابن كثير رحمه الله:

فعل هؤلاء المشركون المكذبون بما أرسلت به يا محمد كما فعل الأمم المكذبة قبلهم، ففعلنا بهم ما هو دأبنا، أي: عادتنا وستتنا في أمثالهم من المكذبين من آل فرعون ومن قبلهم من الأمم المكذبة بالرسول، الكافرين بآيات الله. ﴿فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾ أي: بسبب ذنوبهم أهلكتهم، فأخذهم أخذ عزيز مقتدر ﴿إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ أي: لا يغلبه غالب، ولا يفوته هارب.

وقال القرطبي رَحِمَهُ اللهُ:

الدُّأْبُ العادة. وقد تقدَّم في «آل عمران». أي: العادة في تعذيبهم عند قبض الأرواح وفي القبور كعادة آل فرعون. وقيل: المعنى جُوزي هؤلاء بالقتل والسبي كما جُوزي آل فرعون بالغرق أي: دأبهم كدأب آل فرعون.

ازوال النعم بالمعاصي

س: **وضح معنى قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ يَأْتِكُ اللَّهُ لِمَ يَكُ مُغِيرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغِيرُوا مَا يَأْنفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (٥٣).**

ج: **المعنى -** والله تعالى أعلم - ذلك الذي صنعاه بالمشركون من أهل مكة وما أحللناه بهم من القتل والأسر يوم بدر بعد أن كانوا آمنين ببلادهم مطمئنين ليس ظلماً منا لهم ولكننا لا نغيّر نعمتنا على قوم ونقلبها عليهم نعمةً في غالب الأحوال إلا إذا غيَّروا حالهم من طاعة إلى كفر وعصيان فإذا جاءتهم نعمنا فشكروها وحفظناها عليهم وزدناهم منها، وإذا كفروا بها وجحدوا أخذناهم بالعذاب، والله سميع لأقوال خلقه ولحركاتهم عليم بنواياهم وبكل شيء.

وبنحو هذا قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ اللهُ:

يقول تعالى ذكره: وأخذنا هؤلاء الذين كفروا بآياتنا من مشركي قريش ببدر بذنوبهم، وفعلنا ذلك بهم، بأنهم غيَّروا ما أنعم الله عليهم به من ابتعائه رسوله منهم وبين أظهرهم، بإخراجهم إياه من بينهم، وتكذيبهم له، وحرهم إياه، فغيرنا نعمتنا عليهم بإهلاكنا إياهم، كفعلنا ذلك في الماضين قبلهم ممن طغى علينا وعصى أمرنا. **وأورد بإسناد حسن عن السدي:** ﴿ذَلِكَ يَأْتِكُ اللَّهُ لِمَ يَكُ مُغِيرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغِيرُوا مَا يَأْنفُسِهِمْ﴾، يقول: «نعمة الله»، محمد ﷺ، أنعم به على قريش، وكفروا، فنقله إلى الأنصار.

وقوله: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾، يقول: لا يخفى عليه شيء من كلام خلقه، يسمع كلام كل ناطق منهم بخير نطق أو بشر، ﴿عَلِيمٌ﴾ بما تضمرة صدورهم، وهو مجازيهم ومثيبيهم على ما يقولون ويعملون، إن خيراً فخييراً، وإن شراً فشرّاً.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ:

يخبر تعالى عن تمام عدله، وقسطه في حكمه، بأنه تعالى لا يغير نعمة أنعمها على أحد إلا بسبب ذنب ارتكبه، وكقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ﴾ [الرعد: ١١].

وقال السعدي رَحِمَهُ اللهُ:

﴿ذَلِكَ﴾ العذاب الذي أوقعه الله بالأمم المكذبة وأزال عنهم ما هم فيه من النعم والنعيم، بسبب ذنوبهم وتغييرهم ما بأنفسهم، بأن الله لم يك مغيراً نعمة أنعمها على قوم من نعم الدين والدنيا، بل يبقئها ويزيدهم منها، إن ازدادوا له شكراً. ﴿حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ من الطاعة إلى المعصية فيكفروا نعمة الله ويبدلوا بها كفراً، فيسلبهم إياها ويغيرها عليهم كما غيروا ما بأنفسهم.

ولله الحكمة في ذلك والعدل والإحسان إلى عباده، حيث لم يعاقبهم إلا بظلمهم، وحيث جذب قلوب أوليائه إليه، بما يذيق العباد من النكال إذا خالفوا أمره. ﴿وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ يسمع جميع ما نطق به الناطقون، سواء من أسر القول ومن جهر به، ويعلم ما تنطوي عليه الضمائر، وتخفيه السرائر، فيجري على عباده من الأقدار ما اقتضاه علمه وجرت به مشيئته.

وقال القرطبي رَحِمَهُ اللهُ:

تعليل. أي هذا العقاب؛ لأنهم غيروا وبدلوا، ونعمة الله على قريش الخصب والسعة، والأمن والعافية. ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٦٧] الآية. وقال السدي: نعمة الله عليهم محمد ﷺ فكفروا به، فنقل إلى المدينة وحل بالمشركين العقاب.

وقال ابن الجوزي (زاد المسير):

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ﴾ أي: ذلك الأخذ والعقاب بأن الله ﴿لَمْ يَكْ مُغَيِّرًا نِّعَمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا﴾ بالكفران وترك الشكر قال مقاتل: والمراد بالقوم هاهنا أهل مكة أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف ثم بعث فيهم محمداً ﷺ فلم يعرفوا المنعم عليهم فغير الله ما بهم.

وأوضح الشنقيطي في أضواء البيان بقوله:

ذكر تعالى في هذه الآية الكريمة أنه لا يغير نعمة أنعمها على أحد إلا بسبب ذنب ارتكبه. وأوضح هذا المعنى في آيات أخر كقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَّالٍ﴾ [الرعد: ١١]، وقوله: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِّن مُّصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠]، وقوله: ﴿وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ [النساء: ٧٩] إلى غير ذلك من الآيات.

دفع إشكال

س: كيف يجمع بين الآية الكريمة وبين ما يحدث للصالحين من ابتلاءات؟

ج: هذه الابتلاءات التي تحدث للصالحين إنما تحدث لرفعة الدرجات ولإعلاء المقامات بصبرهم عليها ورضاهم بقضاء الله ﷻ والله أعلم.

س: ما فائدة التكرير في قوله تعالى: ﴿كَذَّابٌ ءَالِ فِرْعَوْنَ...﴾؟

ج: أجاب بعض العلماء بأن هذا ليس بتكرير

قال القرطبي رحمه الله:

ليس هذا بتكرير؛ لأن الأول للعادة في التكذيب، والثاني: للعادة في التغيير، وباقي الآية بين.

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿كَذَّابٌ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ

رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا ءَالَ فِرْعَوْنَ وَكُلُّ كَاذِبٍ لَّئِيمٌ﴾؟

ج: المعنى - والله أعلم -: شأن هؤلاء إذ غيرنا عليهم نعمنا فبعد أن كانوا في أمنٍ وأمانٍ ويتخطف الناس من حولهم وبعد أن كانت بلادهم يأتيها رزقها رغداً من كل مكان فكفروا بذلك ولم يشكروا النعم بل كذبوا خبر رسول أرسل إليهم، لذا فإننا أحللنا بهم العذاب، وأنزلنا بهم النكال كعادتنا في آل فرعون وفي الأمم المكذبة كقوم عادٍ وثمود وقوم إبراهيم، وقوم لوط، وأصحاب مدين وغير هؤلاء لما كذبوا بآيات ربهم أهلكهم الله ﷻ بذنوبهم وأغرق آل فرعون، وكل هذه الأمم المكذبة التي أهلكها الله كانت ظالمة بشركها بالله وبتكذيبها المرسلين فبدلت نعم الله عليهم إلى نقم.

وبنحو هذا قال أهل العلم.

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره: غير هؤلاء المشركون بالله، المقتولون ببدر، نعمة ربهم التي أنعم بها عليهم، بابتعائه محمداً منهم وبين أظهرهم، داعياً لهم إلى الهدى، بتكذيبهم إياه، وحرهم له، ﴿كَذَّابٌ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾، كسنة آل فرعون وعاداتهم وفعلهم بموسى نبي الله، في تكذيبهم إياه، وقصدهم لحربه، وعادة من قبلهم من الأمم المكذبة رسلها وصنيعهم، ﴿فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ﴾، بعضاً بالرجفة، وبعضاً بالخسف،

وبعضًا بالريح ، ﴿وَأَغْرَقْنَاهُ آلَ فِرْعَوْنَ﴾ ، في اليم ، ﴿وَكُلُّ كَانُوا ظَالِمِينَ﴾ ، يقول: كل هؤلاء الأمم التي أهلكناها كانوا فاعلين ما لم يكن لهم فعله، من تكذيبهم رسل الله والجحود لآياته، فكَذلك أهلكنا هؤلاء الذين أهلكناهم ببدر، إذ غيروا نعمة الله عندهم، بالقتل بالسيف، وأذللنا بعضهم بالإسار والسَّباء.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ:

وقوله: ﴿كَذَّابٍ آلَ فِرْعَوْنَ﴾ أي: كصنعه بآل فرعون وأمثالهم حين كذبوا بآياته، أهلكهم بسبب ذنوبهم، وسلبهم تلك النعم التي أسداها إليهم من جنات وعيون، وزروع وكنوز ومقام كريم، ونعمة كانوا فيها فاكهين، وما ظلمهم الله في ذلك، بل كانوا هم الظالمين.

وقال السعدي رَحِمَهُ اللهُ:

﴿كَذَّابٍ آلَ فِرْعَوْنَ﴾ أي: فرعون وقومه ﴿وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ حين جاءتهم ﴿فَأَهْلَكْنَاهُمْ يَذُنُّوهُمْ﴾ كل بحسب جرمه. ﴿وَأَغْرَقْنَاهُ آلَ فِرْعَوْنَ كُلُّ﴾ من المهلكين المعذبين ﴿كَانُوا ظَالِمِينَ﴾ لأنفسهم، ساعين في هلاكها، لم يظلمهم الله، ولا أخذهم بغير جرم اقترفوه، فليحذر المخاطبون أن يشابهوهم في الظلم، فيحل الله بهم من عقابه ما أحل بأولئك الفاسقين.

التصرف مع أهل الكفر من ناقضي العهود والمواثيق

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾^(٥٥) الَّذِينَ عَاهَدَتْ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَنْقُوتُ^(٥٦) فَإِنَّمَا تَشَفَّعْنَاهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرَدَبْ بِهِمْ مَن خَلَفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَدَّكَّرُونَ^(٥٧).

ج: المعنى - والله تعالى أعلم - إن شر من دب على الأرض من المخلوقات هم أهل الكفر الذين لا يؤمنون بآيات الله بل ويكذبونها ويجحدونها هؤلاء الذين تعاهدهم العهود وتواثقهم المواثيق فلا تمر مرة إلا وهم ينقضون العهود والمواثيق ولا يخافون الله ولا يوقرون حدوده، ولا يتقون عقوبة نقض العهد والميثاق فإذا مكنتك الله ﷻ منهم وظفرت بهم فأنزل بهم أشد العقاب وأليم العذاب حتى يتعظ غيرهم بهم، وحتى يكونوا عبرة لغيرهم وعظة فلا يجترأ غيرهم على نقض العهود والمواثيق معك ففي قوله: ﴿فَشَرَدَبَ بِهِمْ مَن خَلَفَهُمْ﴾ أي: نكل بهم من بعدهم، أي: اجعلهم نكالا وعبرة وعظة يتعظ بها غيرهم أي: افعل بهم فعلا تفرق به من خلفهم فلا يجتمعون على نقض عهدك الذي عاهدتهم.

وبنحو هذا قال أهل العلم.

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره: إن شر ما دب على الأرض عند الله، الذين كفروا ببرهم، فجحدوا وحدانيته، وعبدوا غيره، ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾^(٥٥)، يقول: فهم لا يصدقون رسل الله، ولا يقرّون بوحيه وتنزيله.

وقال في تأويل قوله: ﴿الَّذِينَ عَاهَدَتْ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَنْقُوتُ﴾^(٥٦).

يقول تعالى ذكره: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، ﴿الَّذِينَ عَاهَدَتْ مِنْهُمْ﴾، يا محمد، يقول: أخذت عهودهم ومواثيقهم أن لا يحاربوك، ولا يظاهروا عليك محاربا لك، كقريظة ونظرائهم ممن كان بينك وبينهم عهد وعقد، ﴿ثُمَّ يَنْقُضُونَ﴾، عهودهم ومواثيقهم كلما عاهدوك وواثقوك، حاربوك وظاهروا عليك، وهم لا يتقون الله، ولا يخافون في فعلهم ذلك أن يوقع بهم وقعة تجتاحهم وتهلكهم.

وقال في تأويل قوله: ﴿فَإِمَّا تَثَقَّفَنَّهٗمُ فِي الْحَرْبِ فَشَرِدَ بِهِمْ مِّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَدْكُرُونَ﴾



قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره لنبية محمد ﷺ: **فإما تلقين في الحرب هؤلاء الذين عاهدتهم فنقضوا عهدك مرة بعد مرة من قريظة، فتأسرهم، ﴿فَشَرِدَ بِهِمْ مِّنْ خَلْفَهُمْ﴾، يقول: فافعل بهم فعلا يكون مشرداً من خلفهم من نظرائهم، ممن بينك وبينه عهد وعقد.**

و«التشريد»، التطريد والتبديد والتفريق.

وإنما أمر بذلك نبي الله ﷺ أن يفعل بالناقض العهد بينه وبينهم إذا قدر عليهم فعلاً يكون إخافة لمن وراءهم، ممن كان بين رسول الله ﷺ وبينه عهد، حتى لا يجترئوا على مثل الذي اجترأ عليه هؤلاء الذين وصف الله صفتهم في هذه الآية من نقض العهد.

وأورد الطبري عدة آثار: في معنى قوله: ﴿فَشَرِدَ بِهِمْ مِّنْ خَلْفَهُمْ﴾ مؤداها ما ذكرناه (نكّل بهم من وراءهم) وعظّم بهم من سواهم من الناس.

وأورد أثر السدي^(١) وفيه: ﴿فَإِمَّا تَثَقَّفَنَّهٗمُ فِي الْحَرْبِ فَشَرِدَ بِهِمْ مِّنْ خَلْفَهُمْ﴾، يقول: نكل بهم من خلفهم، من بعدهم من العدو، لعلهم يحذرون أن ينكثوا فتصنع بهم مثل ذلك.

وأثراً عن ابن زيد بإسناد صحيح: ﴿فَإِمَّا تَثَقَّفَنَّهٗمُ فِي الْحَرْبِ فَشَرِدَ بِهِمْ مِّنْ خَلْفَهُمْ﴾، قال: أخفهم بما تصنع بهؤلاء. وقرأ: ﴿وَأَخْرَيْنَ مِنْ دُونِهِمْ لَا نَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾.

[الأنفال: ٦٠]

وأما قوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَدْكُرُونَ﴾، فإن معناه: كي يتعظوا بما فعلت بهؤلاء الذين وصفت صفتهم، فيحذروا نقض العهد الذي بينك وبينهم خوف أن ينزل بهم منك ما نزل بهؤلاء إذا هم نقضوه.

وقال ابن كثير رحمه الله:

(١) وسنده إلى السدي حسن.

أخبر تعالى أن شر ما دب على وجه الأرض هم الذين كفروا فهم لا يؤمنون، الذين كلما عاهدوا عهدا نقضوه، وكلما أكدوه بالآيمان نكثوه، ﴿وَهُمْ لَا يَنْقُوتُ﴾ أي: لا يخافون من الله في شيء ارتكبه من الآثام.

﴿فَمَا تَتَّقُهُمْ فِي الْحَرْبِ﴾ أي: تغلبهم وتظفر بهم في حرب، ﴿فَشَرِدَ بِهِمْ مِّنْ خَلْفِهِمْ﴾ أي: نكل بهم، قاله: ابن عباس، والحسن البصري، والضحاك، والسدي، وعطاء الخراساني، وابن عيينة، ومعناه: غلظ عقوبتهم وأثخنهم قتلاً ليخاف من سواهم من الأعداء، من العرب وغيرهم، ويصيروا لهم عبرة ﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾. وقال السدي: يقول: لعلهم يحذرون أن ينكثوا فيصنع بهم مثل ذلك.

وقال القرطبي رحمه الله:

قوله تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ﴾ أي: من يدب على وجه الأرض في علم الله وحكمه.

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ نظيره ﴿الضُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [الأنفال: ٢٢]. ثم وصفهم فقال: ﴿الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَنْقُوتُ﴾ ٥٦ أي: لا يخافون الانتقام. «ومن» في قوله: «منهم» للتبعية، لأن العهد إنما يجري مع أشرافهم ثم ينقضونه. والمعني بهم قريظة والنضير، في قول مجاهد وغيره. نقضوا العهد فأعانوا مشركي مكة بالسلاح، ثم اعتذروا فقالوا: نسينا، فعاهدتهم ﷺ ثانية فنقضوا يوم الخندق.

وقال في قوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ أي: يتذكرون بوعدك إياهم. وقيل: هذا يرجع إلى من خلفهم، لأن من قُتل لا يتذكر. أي: شرد بهم من خلفهم من عمل بمثل عملهم.

وقال السعدي رحمه الله:

﴿إِنَّ﴾ هؤلاء الذين جمعوا هذه الخصال الثلاث: الكفر، وعدم الإيمان، والخيانة، بحيث لا يثبتون على عهد عاهدوه ولا قول قالوه، هم ﴿شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ﴾ فهم شر من الحمير والكلاب وغيرها، لأن الخير معدوم منهم، والشر متوقع فيهم، فإذهاب هؤلاء ومحققهم هو المتعين، لئلا يسري داؤهم لغيرهم، ولهذا قال:

﴿فَمَا تَتْلِفْنَهُمْ فِي الْحَرْبِ﴾ أي: تجدنهم في حال المحاربة، بحيث لا يكون لهم عهد وميثاق.

﴿فَشَرَدَ بِهِمْ مَنْ خَلَفَهُمْ﴾ أي: نكل بهم غيرهم، وأوقع بهم من العقوبة ما يصيرون به، عبرة لمن بعدهم ﴿لَعَلَّهُمْ﴾ أي من خلفهم ﴿يَذْكُرُونَ﴾ صنيعهم، لئلا يصيبهم ما أصابهم، وهذه من فوائد العقوبات والحدود المرتبة على المعاصي، أنها سبب لازدجار من لم يعمل المعاصي، بل وزجرًا لمن عملها أن لا يعاودها. ودل تقييد هذه العقوبة في الحرب أن الكافر - ولو كان كثير الخيانة سريع الغدر - أنه إذا أُعطي عهدًا لا يجوز خيانتته وعقوبته.

نبذ العهود لمن ظهرت منه بوادر الغدر والخيانة

س: وضع معنى قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا تَخَافَتْ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَأَنذَرَ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَائِزِينَ﴾ (٥٨).

ج: المعنى - والله تعالى أعلم - وإما ترى يا رسول الله من المشركين بوادر الخيانة والغدر وتظهر أمارات ذلك منهم وتظهر علاماته فرد إليهم الأمان والعهد الذي أخذوه منك، وقل لهم لا أمان لكم مني ولا إمضاء للعهد الذي بيني وبينكم فقد نقضتموه بما ظهر منكم من علامات النقض والخيانة ومن أماراتها فلم أعد أقبل قولكم لي: أنت منا في أمان، وقد ظهر منكم علامات الخيانة، وكذا لا تنتظروا مني أماناً فيها أنا ذا أخبركم أن العهد الذي بيني وبينكم قد أُلغي بما بدر منكم من بوادر النقض فلا عهد لي عندكم ولا عهد لكم عندي.

أخبرهم بذلك يا رسول الله حتى يستوي علمك وعلمهم في هذا الباب فيعلم كل منكم أنه حربٌ على الآخر.

أخبرهم بذلك فإن الله ﷻ لا يحب الخائنين الناقضين للعهود والمواثيق.

وبنحو هذا قال أهل العلم.

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره: ﴿وَلَمَّا تَخَافَتْ﴾، يا محمد، من عدو لك بينك وبينه عهد وعقد، أن ينكث عهده. وينقض عقده، ويغدر بك، وذلك هو «الخيانة» والغدر، ﴿فَأَنذَرَ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ﴾، يقول: فناجزهم بالحرب، وأعلمهم قبل حربك إياهم أنك قد نسخت العهد بينك وبينهم، بما كان منهم من ظهور أمار الغدر والخيانة منهم، حتى تصير أنت وهم على سواء في العلم بأنك لهم محارب، فيأخذوا للحرب آلتها، وتبرأ من الغدر، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَائِزِينَ﴾ (٥٨)، الغادرين بمن كان منه في أمان وعهد بينه وبينه أن يغدر به فيحاربه، قبل إعلامه إياه أنه له حرب، وأنه قد فاسخه العقد.

فإن قال قائل: وكيف يجوز نقض العهد بخوف الخيانة، و«الخوف» ظنٌ، لا

يقين؟

قيل: إن الأمر بخلاف ما إليه ذهب، وإنما معناه: إذا ظهرت أمار الخيانة من

عدوك، وخفت وقوعهم بك، فألقى إليهم مقاليد السلم وأذنهم بالحرب. وذلك كالذي كان من بني قريظة إذ أجابوا أبا سفيان ومن معه من المشركين إلى مظاهرتهم على رسول الله ﷺ ومحاربتهم معه، بعد العهد الذي كانوا عاهدوا رسول الله ﷺ على المسالمة، ولن يقاتلوا رسول الله ﷺ. فكانت إجابتهم إياه إلى ذلك، موجباً لرسول الله ﷺ خوف الغدر به وبأصحابه منهم. فكذاك حكم كل قوم أهل موادةٍ للمؤمنين، ظهر لإمام المسلمين منهم من دلائل الغدر مثل الذي ظهر لرسول الله ﷺ وأصحابه من قريظة، فحق على إمام المسلمين أن ينبذ إليهم على سواء، ويؤذنهم بالحرب.

ومعنى قوله: ﴿عَلَى سَوَاءٍ﴾، أي: حتى يستوي علمك وعلمهم بأن كل فريق منكم حرب لصاحبه لا سلم.

وأورد الطبري عدة أقوال في تفسير قوله تعالى: ﴿عَلَى سَوَاءٍ﴾ وقال:

وكذلك هذه المعاني متقاربة، لأن «العدل»، وسط لا يعلو فوق الحق ولا يقصر عنه، وكذلك «الوسط» عدل، واستواء علم الفريقين فيما عليه بعضهم لبعض بعد المهادنة، عدل من الفعل ووسط.

وقال ابن كثير رحمه الله:

يقول تعالى لنبيه، صلوات الله وسلامه عليه ﴿وَمَا تَخَافُكَ مِنْ قَوْمٍ﴾ قد عاهدتهم ﴿خِيَانَةً﴾ أي: نقضاً لما بينك وبينهم من الموائيق والعهود، ﴿فَأُنْذِرْهُمْ﴾ أي: عهدهم ﴿عَلَى سَوَاءٍ﴾ أي: أعلمهم بأنك قد نقضت عهدهم حتى يبقى علمك وعلمهم بأنك حرب لهم، وهم حرب لك، وأنه لا عهد بينك وبينهم على السواء، أي: تستوي أنت وهم في ذلك، قال الراجز:

فَاضْرِبْ وَجُوهَ الْغُدرِ لِلْأَعْدَاءِ حتى يجيئك إلى السواء

وقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾ أي: حتى ولو في حق الكفار، لا يجبها أيضاً.

وقال القرطبي رحمه الله:

قال ابن العربي: فإن قيل: كيف يجوز نقض العهد مع خوف الخيانة، والخوف

ظن لا يقين معه، فكيف يسقط يقين العهد مع ظن الخيانة؟! فالجواب من وجهين: أحدهما: أن الخوف قد يأتي بمعنى اليقين، كما قد يأتي الرجاء بمعنى العلم، قال الله تعالى: ﴿مَالِكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ فَارًا﴾ (١٣) ﴿انوح: ١٣﴾. الثاني: إذا ظهرت آثار الخيانة وثبتت دلائلها، وجب نبذ العهد لئلا يوقع التماذي عليه في الهلكة، وجاز إسقاط اليقين هنا ضرورة. وأما إذا علم اليقين فيستغنى عن نبذ العهد إليهم، وقد سار النبي ﷺ إلى أهل مكة عام الفتح، لما اشتهر منهم نقض العهد من غير أن ينبذ إليهم عهدهم. والنبذ: الرمي والرفض.

قال السعدي رحمه الله (تيسير الكريم الرحمن):

أي: وإذا كان بينك وبين قوم عهد وميثاق على ترك القتال فخفت منهم خيانة، بأن ظهر من قرائن أحوالهم ما يدل على خيانتهم من غير تصريح منهم بالخيانة. ﴿فَأُنْذِرْ إِلَيْهِمْ﴾ عهدهم، أي: ارمه عليهم، وأخبرهم أنه لا عهد بينك وبينهم. ﴿عَلَى سَوَاءٍ﴾ أي: حتى يستوي علمك وعلمهم بذلك، ولا يحل لك أن تغدرهم، أو تسعى في شيء مما منعه موجب العهد، حتى تخبرهم بذلك. ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾ بل يبغضهم أشد البغض، فلا بد من أمر بين يبرئكم من الخيانة.

ودلت الآية على أنه إذا وجدت الخيانة المحققة منهم لم يحتج أن ينبذ إليهم عهدهم، لأنه لم يخف منهم، بل علم ذلك، ولعدم الفائدة ولقوله: ﴿عَلَى سَوَاءٍ﴾ وهنا قد كان معلوماً عند الجميع غدرهم.

ودل مفهومها أيضاً أنه إذا لم يخف منهم خيانة، بأن لم يوجد منهم ما يدل على ذلك، أنه لا يجوز نبذ العهد إليهم، بل يجب الوفاء إلى أن تتم مدته.

أ س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ﴾.

ج: المعنى - والله أعلم - ولا يحسبن الذين كفروا، جحدوا وحادانية الله وكذبوا رسوله لا يحسبن هؤلاء أنهم سبقونا فلن ندرکہم بعذابنا ولن يلحقهم بأسنا، كلا بل إنهم لن يُعْزِزُونَا، لن نعجز عن تعذيبهم ولن نعجز عن إدراكهم ولن يغلبونا. هذا، وقد قرأ بعض أهل العلم (ولا تحسبن) بالتاء، وجعل الخطاب فيها لرسول

الله ﷻ، أو للمؤمنين عموماً، فالمعنى: لا تحسبن يا رسول الله أن أهل الكفر سبقونا فلن ندركهم بعذابنا.

قال الطبري رحمه الله بعد أو أورد القراءتين:

والصواب من القراءة في ذلك عندي، قراءة من قرأ: (لَا تَحْسَبَنَّ)، بالتاء ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِيَّاهُمْ﴾، بكسر الألف من «إنهم»، ﴿لَا يَعْجِزُونَ﴾، بمعنى: ولا تحسبن أنت، يا محمد، الذين جحدوا حجج الله وكذبوا بها، سبقونا بأنفسهم ففاتونا، إنهم لا يعجزوننا، أي: يفوتوننا بأنفسهم، ولا يقدرّون على الهرب منا.

وقال الحافظ ابن كثير رحمه الله:

يقول تعالى لنبيه ﷺ: (وَلَا تَحْسَبَنَّ) يا محمد ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا﴾ أي: فاتونا فلا نقدر عليهم، بل هم تحت قهر قدرتنا وفي قبضة مشيئتنا فلا يعجزوننا كما قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْفِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ ﴿٤﴾ **العنكبوت: ٤** أي: يظنون، وقال تعالى: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَكَ فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ مِنَ النَّارِ وَلَيْسَ الْمَصِيرُ﴾ ﴿٥٧﴾ **النور: ٥٧**، وقال تعالى: ﴿لَا يَغْرَنَكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ﴾ ﴿١١٦﴾ **متن: قليل ثم ما أولئهم جهنم وليس الهاد** **آل عمران: ١٩٦، ١٩٧.**

وقال السعدي رحمه الله:

أي: لا يحسب الكافرون برهم المكذبون بآياته، أنهم سبقوا الله وفاتوه، فإنهم لا يعجزونه، والله لهم بالمرصاد.

وله تعالى الحكمة البالغة في إمهالهم وعدم معاجلتهم بالعقوبة، التي من جملتها ابتلاء عباده المؤمنين وامتحانهم، وتزودهم من طاعته ومراضيه، ما يصلون به المنازل العالية، واتصافهم بأخلاق وصفات لم يكونوا بغيره بالغيها.

الوفاء بالعهود حتى مع الكفار والتحذير من نقضها

س: هل يجب الوفاء بالعهود وعدم الغدر مع الكفار؟

ج: نعم يجب الوفاء بالعهود والمواثيق حتى مع أهل الكفر ما دامت بوادر الخيانة لم تظهر منهم، ومن الأدلة على ذلك العمومات الواردة في كتاب الله ﷻ كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ [المائدة: ١].

❦ وكقوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الِأَيْمَنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ [النحل: ٩١].

❦ وكقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُؤْفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الِإِيثَاقَ﴾ [الرعد: ٢٠].

❦ وكقوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُضُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مَدَّتِهِمْ﴾ [التوبة: ٤].

وأخرج الإمام أحمد بسند صحيح^(١) عَنْ أَبِي الْفَيْضِ عَنْ سُلَيْمِ بْنِ عَامِرٍ قَالَ: كَانَ مُعَاوِيَةُ يَسِيرُ فِي أَرْضِ الرُّومِ وَكَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ أَمَدٌ، فَأَرَادَ أَنْ يَدْنُو مِنْهُمْ فَإِذَا انْقَضَى الْأَمَدُ غَزَاهُمْ، فَإِذَا شَيْخٌ عَلَى دَابَّةٍ يَقُولُ: اللَّهُ أَكْبَرُ اللَّهُ أَكْبَرُ وَفَاءٌ لَا عَدْرًا إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مَنْ كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ قَوْمٍ عَهْدٌ فَلَا يَحِلُّنَّ عُقْدَةً وَلَا يَشُدُّهَا حَتَّى يَنْقُضِيَ أَمَدُهَا أَوْ يَنْبِذَ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ» فَبَلَغَ ذَلِكَ مُعَاوِيَةَ، فَرَجَعَ؛ وَإِذَا الشَّيْخُ عَمُرُو بْنُ عَبْسَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

هذا، وقد قدمت طائفة كبيرة من الأدلة الواردة في هذا الباب في أول سورة المائدة فارجع إليها إن شئت.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:

1

مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا
 وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٩﴾ يَتَأَيَّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّمَن فِي أَيْدِيكُمْ مِّنَ
 الْأَسْرِ إِن يَّعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أَخَذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرَ لَكُمْ
 وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٠﴾ وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ
 مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾

[الأنفال: ٦٠-٧١].

|

س: وضع معنى ما يلي:
﴿رَبَاطُ الْخَيْلِ - يُوفِّ إِلَيْكُمْ - لَا تُظْلَمُونَ - جَنَحُوا لِلْسَّلَامِ﴾.
ج:

معناها	الكلمة
الخيال المربوطة المعدة للجهاد.	﴿رَبَاطُ الْخَيْلِ﴾
ثابون عليه يوم القيامة ويخلف الله عليكم أيضًا - إن شاء - في الدنيا.	﴿يُوفِّ إِلَيْكُمْ﴾
لا تبخسون شيئًا من حقوقكم.	﴿لَا تُظْلَمُونَ﴾
مالوا إلى المسالمة والمهادنة والموادعة والمصالحة.	﴿جَنَحُوا لِلْسَّلَامِ﴾

التحريض على تسليح المسلمين
واستعدادهم بما استطاعوا من السلاح

س: وضع معنى قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾.

ج: المعنى - والله تعالى أعلم - وأعدوا يا أهل الإسلام كل قوة تستطيعون إعدادها، وكذا احتبسوا الخيول واجعلوها مُعدة للغزو في أي وقت وحين، واجعلوها مُعدة للدفاع كذلك لإرهاب أعداء الله ﷻ وأعدائكم، لتخويفهم وخزيهم، وقذف الرعب في قلوبهم حتى لا يفكروا في غزوكم ولا في النيل منكم ولا في الغدر بكم، وكذا ترهبون بهذه القوة قومًا آخرين غير الأعداء الظاهرين لكم، ترهبون به قومًا لا تعلمونهم، فإذا رأوا قوتكم حاضرة مُعدة جاهزة، وإذا رأوا خيولكم مرتبطة مستعدة للقتال والغزو والدفاع قذف الرعب في قلوبهم فكفاكم الله بذلك شرهم، هذا واعلموا أن ما تنفقونه من أموالكم في هذا الباب - باب إعداد العدة للقتال في سبيل الله - يوف إليكم ويجازيكم الله به، ولا تبخسون شيئًا مما أنفقتموه، ولا من ثوابه.

هذا، وقد ورد عن رسول الله ﷺ^(١) أنه قال وهو على المنبر: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ ألا إن القوة الرمي، ألا إن القوة الرمي، وليس معنى هذا أن القوة تنحصر في الرمي، إنما المراد أن أغلب القوة الرمي وأفضلها الرمي، وهذا يشمل كل صور الرمي التي منها القذف بالصواريخ والرمي بالطائرات والدبابات، والرمي بالرصاص والرمي بالسهم والنبال وكل صور الرمي.

هذا، وقد اختلف العلماء في تعيين الذين عناهم الله بقوله: ﴿وَأَخْرَيْنَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ فقال بعض أهل العلم: إنهم بنو قريظة، وقال آخرون: إنهم الفرس (أهل فارس)، وقال آخرون: إنهم المنافقون، وقال آخرون: إنهم الجن.

والصواب من القول: أنهم قوم لا نعلمهم في الظاهر والله ﷻ أعلم بهم.

وهذه أقوال بعض أهل العلم في ذلك.

(١) أخرجه أحمد (٤/١٥٦)، ومسلم (١٩١٧) وغيرهم.

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره: ﴿وَأَعِدُّوا﴾، لهؤلاء الذين كفروا بربهم، الذين بينكم وبينهم عهد، إذا خفتم خيانتهم وغدرهم، أيها المؤمنون بالله ورسوله، ﴿مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾، يقول: ما أطقتم أن تعدّوه لهم من الآلات التي تكون قوة لكم عليهم، من السلاح والخيّل، ﴿تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾، يقول: تخيفون بإعدادكم ذلك عدو الله وعدوكم من المشركين.

وقال الطبري رحمه الله:

والصواب من القول في ذلك أن يقال: إن الله أمر المؤمنين بإعداد الجهاد وآلة الحرب وما يتقوّون به على جهاد عدوه وعدوهم من المشركين، من السلاح والرمي وغير ذلك، ورباط الخيل، ولا وجه لأن يقال: عني بـ «القوة»، معنى دون معنى من معاني «القوة»، وقد عمّ الله الأمر بها. فإن قال قائل: فإن رسول الله ﷺ قد بيّن أن ذلك مرادٌ به الخصوص بقوله: «ألا إن القوة الرمي»؟

قيل له: إن الخبر، وإن كان قد جاء بذلك، فليس في الخبر ما يدلّ على أنه مرادٌ بها الرمي خاصة، دون سائر معاني القوة عليهم، فإن الرمي أحد معاني القوة، لأنه إنما قيل في الخبر: «ألا إن القوة الرمي»، ولم يقل: «دون غيرها»، ومن «القوة» أيضاً السيف والرمح والحرّبة، وكل ما كان معونة على قتال المشركين، كمعونة الرمي أو أبلغ من الرمي فيهم وفي النكاية منهم. هذا مع وهاء سند الخبر بذلك عن رسول الله ﷺ^(١).

وأما قوله: ﴿وَأَخْرَيْنَ مِنْ دُونِهِمْ لَا نَعْلَمُونَهُمْ﴾، فإن قول من قال: عني به الجن، أقرب وأشبه بالصواب، لأنه جل ثناؤه قد أدخل بقوله: ﴿وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾، الأمر بارتباط الخيل لإرهاب كل عدو الله وللمؤمنين يعلمونهم، ولا شك أن المؤمنين كانوا عالمين بعداوة قريظة وفارس لهم، لعلمهم بأنهم مشركون، وأنهم لهم حرب. ولا معنى لأن يقال: وهم يعلمونهم لهم أعداء:

(١) وما أدري مراد الطبري بقوله: (مع وهاء سند الخبر) فإن كان يقصد حديث: «ألا إن القوة الرمي» فهو ثابت صحيح في صحيح مسلم، وغيره.

﴿وَأَخْرَيْنَ مِنْ دُونِهِمْ لَا نَعْلَمُونَهُمْ﴾، ولكن معنى ذلك إن شاء الله: ترهبون بارتباطكم، أيها المؤمنون، الخيل عدو الله وأعداءكم من بني آدم الذين قد علمتم عداوتهم لكم، لكفرهم بالله ورسوله، وترهبون بذلك جنسًا آخر من غير بني آدم، لا تعلمون أماكنهم وأحوالهم، الله يعلمهم دونكم، لأن بني آدم لا يرونهم. وقيل: إن سهيل الخيل يهرب الجن، وأن الجن لا تقرب دارًا فيها فرس.

فإن قال قائل: فإن المؤمنين كانوا يعلمون ما عليه المنافقون، فما تنكر أن يكون عني بذلك المنافقون؟

قيل: فإن المنافقين لم يكن تروعههم خيل المسلمين ولا سلاحهم، وإنما كان يروعههم أن يظهر المسلمون على سرائرهم التي كانوا يستترون من الكفر، وإنما أمر المؤمنون بإعداد القوة لإرهاب العدو، فأما من لم يرهبه ذلك، فغير داخل في معنى من أمر بإعداد ذلك له المؤمنون. وقيل: «لا تعلمونهم»، فاكتمى لـ «العلم»، بمنصوب واحد في هذا الموضع، لأنه أريد: لا تعرفونهم، كما قال الشاعر:

فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُنِي وَوَهْبًا وَأَنَا سَوْفَ يَلْقَاهُ كِلَانَا

وقال في تأويل قوله: ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾



قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: وما أنفقتم، أيها المؤمنون، من نفقة في شراء آلة حرب من سلاح أو حراب أو كراع أو غير ذلك من النفقات، في جهاد أعداء الله من المشركين يخلفه الله عليكم في الدنيا، ويدخر لكم أجوركم على ذلك عنده، حتى يوفيكموها يوم القيامة ﴿وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾، يقول: يفعل ذلك بكم ربكم، فلا يضيع أجوركم عليه.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

ثم أمر تعالى بإعداد آلات الحرب لمقاتلتهم حسب الطاقة والإمكان والاستطاعة، فقال: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ أي: مهما أمكنكم، ﴿مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ﴾.

وأورد عددًا من الأحاديث وقال: وقوله: ﴿تَرْهَبُونَ﴾ أي: تخوفون ﴿بِهِ﴾ عدو الله وعدوكم أي: من الكفار ﴿وَالْآخِرِينَ مِنْ دُونِهِمْ﴾ قال مجاهد: يعني: قريظة، وقال السدي: فارس، وقال سفيان الثوري: قال ابن يمان: هم الشياطين التي في الدور. وأورد حديثاً ضعيفاً في أن الذين لا نعلم هم الجن، ثم قال في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ...﴾ أي: مهما أنفقتم في الجهاد، فإنه يوفى إليكم على التمام والكمال، ولهذا جاء في حديث رواه أبو داود: أن الدرهم يضاعف ثوابه في سبيل الله إلى سبعمائة ضعف كما تقدم في قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦١].

وقال القرطبي رحمه الله:

إن قوله: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ كان يكفي، فلم خص الرمي والخيال بالذكر؟ قيل له: إن الخيل لما كانت أصل الحروب وأوزارها التي عقد الخير في نواصيها، وهي أقوى القوة وأشد العدة وحصون الفرسان، وبها يجال في الميدان، خصها بالذكر تشريفاً، وأقسم بغبارها تكريماً. فقال: ﴿وَالْعَدِيدَاتِ ضَبْحًا﴾ [العاديات: ١] الآية. ولما كانت السهام من أنجع ما يتعاطى في الحروب والنكاية في العدو وأقربها تناولا للأرواح، خصها رسول الله ﷺ بالذكر لها والتنبيه عليها. ونظير هذا في التنزيل، ﴿وَجَبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ﴾ [البقرة: ٩٨] ومثله كثير.

وقال السعدي رحمه الله:

فلهذا قال لعباده المؤمنين: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ إلى ﴿وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾.

أي: ﴿وَأَعِدُّوا﴾ لأعدائكم الكفار الساعين في هلاككم وإبطال دينكم. ﴿مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ أي: كل ما تقدر على من القوة العقلية والبدنية وأنواع الأسلحة ونحو ذلك مما يعين على قتالهم، فدخل في ذلك أنواع الصناعات التي تعمل فيها أصناف الأسلحة والآلات من المدافع والرشاشات، والبنادق، والطائرات الجوية، والمراكب البرية والبحرية، والقلاع والخنادق، وآلات الدفاع، والرأي والسياسة التي

بها يتقدم المسلمون ويندفع عنهم به شر أعدائهم، وتَعَلَّمُ الرَّمِي، والشجاعة والتدبير.
ولهذا قال النبي ﷺ: «أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْيَ» ومن ذلك: الاستعداد بالمراكب
المحتاج إليها عند القتال، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ
وَعَدُوَّكُمْ﴾.

وهذه العلة موجودة فيها في ذلك الزمان، وهي إرهاب الأعداء، والحكم يدور
مع علته.

فإذا كان شيء موجود أكثر إرهاباً منها، كالسيارات البرية والهوائية، المعدة
للقتل التي تكون النكاية فيها أشد، كانت مأموراً بالاستعداد بها، والسعي لتحصيلها،
حتى إنها إذا لم توجد إلا بتعلم الصناعة، وجب ذلك، لأن ما لا يتم الواجب إلا به،
فهو واجب وقوله: ﴿تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ ممن تعلمون أنهم أعداؤكم.
﴿وَأَخْرَيْنَ مِنْ دُونِهِمْ لَا نَعْلَمُونَهُمْ﴾ ممن سيقاتلونكم بعد هذا الوقت الذي يخاطبهم الله
به ﴿اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ فلذلك أمرهم بالاستعداد لهم، ومن أعظم ما يعين على قتالهم
بذلك النفقات المالية في جهاد الكفار.

ولهذا قال تعالى مرغباً في ذلك: ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ قليلاً كان أو
كثيراً ﴿يُوفَّ إِلَيْكُمْ﴾ أجره يوم القيامة مضاعفاً أضعافاً كثيرة، حتى إن النفقة في سبيل
الله، تضاعف إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة. ﴿وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ أي:
لا تنقصون من أجرها وثوابها شيئاً.

فضل الخيل

س: اذكر بعض الوارد في فضل الخيل واحتباسها في سبيل الله؟

ج: من ذلك ما يلي:

ما أخرجه البخاري^(١) من حديث عُرْوَةَ الْبَارِقِي أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «الْخَيْلُ مَعْقُودٌ فِي نَوَاصِيهَا الْخَيْرُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ: الْأَجْرُ وَالْمَغْنَمُ».

وما أخرجه البخاري ومسلم^(٢) من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «الْخَيْلُ لثَلَاثَةٍ: لِرَجُلٍ أَجْرٌ، وَلِرَجُلٍ سِتْرٌ، وَعَلَى رَجُلٍ وَزْرٌ، فَأَمَّا الَّذِي لَهُ أَجْرٌ فَرَجُلٌ رَبَطَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ، فَأَطَاعَ لَهَا فِي مَرْجٍ أَوْ رَوْضَةٍ، فَمَا أَصَابَتْ فِي طِيلِهَا ذَلِكَ فِي الْمَرْجِ أَوْ الرَّوْضَةِ كَانَ لَهُ حَسَنَاتٍ، وَلَوْ أَنَّهَا قَطَعَتْ طِيلَهَا فَاسْتَنْتَ شَرَفًا أَوْ شَرَفَيْنِ، كَانَتْ أَثَارُهَا وَأَرْوَاهَا حَسَنَاتٍ لَهُ، وَلَوْ أَنَّهَا مَرَّتْ بِنَهْرٍ فَشَرِبَتْ مِنْهُ، وَلَمْ يُرِدْ أَنْ يَسْقِيَ بِهِ، كَانَ ذَلِكَ حَسَنَاتٍ لَهُ، فَهِيَ لِذَلِكَ الرَّجُلِ أَجْرٌ، وَرَجُلٌ رَبَطَهَا تَغْنِيًا وَتَعَفُّفًا، وَلَمْ يَنْسَ حَقَّ اللَّهِ فِي رِقَابِهَا وَلَا ظُهُورِهَا، فَهِيَ لَهُ سِتْرٌ، وَرَجُلٌ رَبَطَهَا فَخْرًا وَرِئَاءً وَنَوَاءً فَهِيَ عَلَى ذَلِكَ وَزْرٌ».

وَسُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنِ الْحُمْرِ فَقَالَ: «مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيَّ فِيهَا إِلَّا هَذِهِ الْآيَةُ الْجَامِعَةُ الْفَادَةُ: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ (٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ».

﴿الزلزلة: ٧، ٨﴾.

المصالحات مع الكفار عند الاحتياج إليها

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَلِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (١١).

ج: المعنى - والله أعلم - وإن حال هؤلاء المشركين إلى المصالحة والموادعة والمهادنة فأجبهم إلى طلبهم واعتمد على الله ﷻ في شؤونك كلها إنه هو السميع لأقوالك وأقوالهم العليم بنواياك ونواياهم وكذا سميع لكل ما يسمع وعليم بكل شيء.

وبنحو هذا قال أهل العلم.

قال الطبري رحمه الله:

(١) البخاري (٢٨٥٠).

(٢) البخاري (٢٣٧١)، ومسلم (٩٨٧).

يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: وإما تخافن من قوم خيانة وهدرا، فانبذ إليهم على سواء وأذنهم بالحرب، ﴿١٦٥﴾ وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْعَلْ لَهُمْ، وإن مالوا إلى مسالمتك وم�اركتك الحرب؛ إما بالدخول في الإسلام، وإما بإعطاء الجزية، وإما بموادة، ونحو ذلك من أسباب السلم والصلح، ﴿١٦٦﴾ فَاجْعَلْ لَهُمْ، يقول: فمل إليها، وابذل لهم ما مالوا إليه من ذلك وسألوكه.

وقال رحمه الله:

وقوله: ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (١٦٦)، يعني بذلك: إن الله الذي تتوكل عليه، «سميع»، لما تقول أنت ومن تسالمة وتتركه الحرب من أعداء الله وأعدائك عند عقد السلم بينك وبينه، وما يشترط كل فريق منكم على صاحبه من الشروط، «العليم»، بما يضمره كل فريق منكم للفريق الآخر من الوفاء بما عاقده عليه، ومن المضمّر ذلك منكم في قلبه، والمنطوي على خلافه لصاحبه.

وقال ابن كثير رحمه الله:

يقول تعالى: إذا خفت من قوم خيانة فانبذ إليهم عهدهم على سواء، فإن استمروا على حربك ومنابذتك فقاتلهم، ﴿١٦٥﴾ وَإِنْ جَنَحُوا ﴿١٦٦﴾ أَي: مالوا ﴿لِلسَّلَامِ﴾ أَي: المسالمة والمصالحة والمهادنة، ﴿فَاجْعَلْ لَهُمْ﴾ أَي: فمل إليها، واقل منهم ذلك؛ ولهذا لما طلب المشركون عام الحديبية الصلح ووضع الحرب بينهم وبين رسول الله ﷺ تسع سنين؛ أجابهم إلى ذلك مع ما اشترطوا من الشروط الأخر.

قال السعدي رحمه الله:

يقول تعالى: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا﴾ أَي: الكفار المحاربون، أَي: مالوا ﴿لِلسَّلَامِ﴾ أَي: الصلح وترك القتال.

﴿فَاجْعَلْ لَهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ أَي: أجبهم إلى ما طلبوا متوكلا على ربك، فإن في ذلك فوائد كثيرة.

منها: أن طلب العافية مطلوب كل وقت، فإذا كانوا هم المبتدئين في ذلك، كان أولى لإجابتهم.

ومنها: أن في ذلك استجماما لقواكم، واستعدادا منكم لقتالهم في وقت آخر، إن

احتيج إلى ذلك.

ومنها: أنكم إذا أصلحتم وأمن بعضكم بعضاً، وتمكن كل من معرفة ما عليه الآخر، فإن الإسلام يعلو ولا يُعلى عليه، فكل من له عقل وبصيرة إذا كان معه إنصاف فلا بد أن يؤثره على غيره من الأديان، لحسنه في أوامره ونواهيه، وحسنه في معاملته للخلق والعدل فيهم، وأنه لا جور فيه ولا ظلم بوجه، فحينئذٍ يكثُر الراغبون فيه والمتبعون له، فصار هذا السلم عوناً للمسلمين على الكافرين.

ا س: هل هذه الآية الكريمة منسوخة: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاِجْنَحْ لَهَا...﴾ منسوخة؟

ج: اختلف العلماء في ذلك، فقال بعضهم: إنها منسوخة بآية براءة: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾.

وقال آخرون: بل محكمة، ثم إن منهم من نزلها على أهل الكتاب، إذا جنحوا إلى المصالحة ودفعوا الجزية.

ومنهم من قال بعمومها إذا احتاج المسلمون إلى ذلك، فقد يأتي على المسلمون زمنٌ يحتاجون فيها إلى مهادنةٍ ومصالحةٍ مع أهل الكفر لضعف قوى أهل الإيمان، أو لتقوية شوكتهم أو لغير ذلك، فحينئذٍ إذا مالوا للصالح فلا جناح عليهم، وها هي بعض أقوال العلماء في ذلك.

أورد الطبري بإسنادٍ صحيح لغيره عن قتادة: قوله: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ﴾، إلى الصلح، ﴿فَاِجْنَحْ لَهَا﴾، قال: وكانت هذه قبل «براءة»، وكان نبي الله ﷺ يوادع القوم إلى أجل، فإذا أن يسلموا، وإما أن يقاتلهم، ثم نسخ ذلك بعد في «براءة» فقال: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾، وقال: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً﴾ **التوبة: ٣٦**، ونبذ إلى كل ذي عهد عهده، وأمره بقتالهم حتى يقولوا «لا إله إلا الله» ويسلموا، وأن لا يقبل منهم إلا ذلك. وكل عهد كان في هذه السورة وفي غيرها، وكل صلح يصلح به المسلمون المشركين يتوادعون به، فإن «براءة» جاءت بنسخ ذلك، فأمر بقتالهم على كل حال حتى يقولوا: «لا إله إلا الله».

وتعقب الطبري هذا بقوله:

فأما ما قاله قتادة ومن قال مثل قوله، من أن هذه الآية منسوخة، فقول لا دلالة

عليه من كتاب ولا سنة ولا فطرة عقل.

وقد دللنا في غير موضع من كتابنا هذا وغيره على أن الناسخ لا يكون إلا ما نفى حكم المنسوخ من كل وجه. فأما ما كان بخلاف ذلك، فغير كائنٍ ناسخًا. وقول الله في براءة: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾، غير نافٍ حكمه حكم قوله: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْنَحْ لَهَا﴾، لأن قوله: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ﴾، إنما عني به بنو قريظة، وكانوا يهودًا أهل كتاب، وقد أذن الله جل ثناؤه للمؤمنين بصلح أهل الكتاب ومتاركتهم الحرب على أخذ الجزية منهم. وأما قوله: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾، فإنما عني به مشركو العرب من عبدة الأوثان، الذين لا يجوز قبول الجزية منهم. فليس في إحدى الآيتين نفي حكم الأخرى، بل كل واحدة منهما محكمة فيما أنزلت فيه.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقول ابن عباس، ومجاهد، وزيد بن أسلم، وعطاء الخراساني، وعكرمة، والحسن، وقتادة: إن هذه الآية منسوخة بآية السيف في «براءة»: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا يَوْمِ الْآخِرِ﴾ الآية [التوبة: ٢٩] فيه نظر أيضًا؛ لأن آية براءة فيها الأمر بقتالهم إذا أمكن ذلك، فأما إذا كان العدو كثيرًا، فإنه تجوز مهادنتهم، كما دلت عليه هذه الآية الكريمة، وكما فعل النبي ﷺ يوم الحديبية، فلا منافاة ولا نسخ ولا تخصيص، والله أعلم.

وقال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ:

قال ابن العربي: وهذا يختلف الجواب عنه، وقد قال الله ﷻ: ﴿فَلَا تَهْتَفُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلَامِ وَأَنْتُمْ لَا عَلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ﴾ [محمد: ٣٥]. فإذا كان المسلمون على عزة وقوة ومنعة، وجماعة عديدة، وشدة شديدة فلا صلح، كما قال:

فلا صلح حتى تطعن الخيل بالقنا وتضرب بالبيض الرقاق الجماجم

وإن كان للمسلمين مصلحة في الصلح، لنفع يجتلبونه، أو ضرر يدفعونه، فلا بأس أن يبتدئ المسلمون به إذا احتاجوا إليه. وقد صالح رسول الله ﷺ أهل خيبر

على شروط نقضوها فنقض صلحهم. وقد صالح الضمري وأكيدر دومة وأهل نجران، وقد هادن قريشا لعشرة أعوام حتى نقضوا عهده. وما زالت الخلفاء والصحابة على هذه السبيل التي شرعناها سالكة، وبالوجه التي شرحنها عاملة.

الحث على التوكل على الله

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيْدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾ (١٦٢).

ج: المعنى - والله تعالى أعلم - وإن يُرد هؤلاء الذين جنحوا للسلم وطلبوا المصالحة والمهادنة والمسالمة أن يخدعوك بصنيعهم هذا فتوكل على الله واعتمد عليه في شؤونك كلها فهو الذي قواك بنصره الذي نصرك يوم بدر وفي غيرها، وقواك كذلك بأهل الإيمان من الأنصار وغيرهم، وبنحو هذا قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: وإن يرد، يا محمد، هؤلاء الذين أمرتك بأن تنبذ إليهم على سواء إن خفت منهم خيانة، وبمسالمتهم إن جنحوا للسلم، خداعك والمكر بك، ﴿فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ﴾، يقول: فإن الله كافيكهم وكافيك خداعهم إياك، لأنه متكفل بإظهار دينك على الأديان، ومتضمن أن يجعل كلمته العليا وكلمة أعدائه السفلى، ﴿هُوَ الَّذِي أَيْدَكَ بِنَصْرِهِ﴾، يقول: الله الذي قواك بنصره إياك على أعدائه، ﴿وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾، يعني بالأنصار.

وقال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ﴾ أي بأن يظهروا لك السلم، ويبطنوا الغدر والخيانة، فاجنح فما عليك من نياتهم الفاسدة. ﴿فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ﴾ كافيك الله، أي يتولى كفايتك وحياطتك. قال الشاعر:

إذا كانت الهيجاء وانشقت العصا فحسبك والضحاك سيف مهند

أي كافيك وكافي الضحاك سيف.

قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَيْدَكَ بِنَصْرِهِ﴾ أي قواك بنصره. يريد يوم بدر. ﴿وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾ قال النعمان بن بشير: نزلت في الأنصار.

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ:

وقوله: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ أي: صالحهم وتوكل على الله، فإن الله كافيك وناصرك، ولو كانوا يريدون بالصلح خديعة ليتقوا ويستعدوا، ﴿فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ﴾ أي: كافيك وحده.

| الله هو الذي يؤلف بين القلوب

س: وضع معنى قوله تعالى: ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

ج: المعنى - والله تعالى أعلم - فإن كافيك الله ﷻ وناصرك فهو الذي أيدك بنصره وبالمؤمنين وجمع بين قلوب المؤمنين بعد أن كانت متفرقة متشتتة متباعدة متباغضة كالذي كان بين الأوس والخزرج من الأنصار من القتال والتباعد والتباغض، فجمع الله بين قلوب هؤلاء وقلوب أولئك، وما كان هذا بوسعك فلو أنفقت ما في الأرض جميعًا ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ﷻ هو الذي ألف بين قلوبهم وجمع بينها إنه عزيز لا يُغلب حكيماً فيما يصنع ويشرع، وبنحو هذا قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ اللهُ:

يريد جل ثناؤه بقوله: ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾، وجمع بين قلوب المؤمنين من الأوس والخزرج، بعد التفرق والتشتت، على دينه الحق، فصيرهم به جميعًا بعد أن كانوا أشتاتًا، وإخوانًا بعد أن كانوا أعداء.

وقوله: ﴿لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾، يقول تعالى ذكره لنبية محمد ﷺ: لو أنفقت، يا محمد، ما في الأرض جميعًا من ذهب وورق وعرض، ما جمعت أنت بين قلوبهم بحيلك، ولكن الله جمعها على الهدى فألفت واجتمعت، تقوية من الله لك وتأيدًا منه ومعونة على عدوك. يقول جل ثناؤه: والذي فعل ذلك وسببه لك حتى صاروا لك أعوانًا وأنصارًا ويدًا واحدة على من بغاك سوءًا هو الذي إن رام عدوُّ منك مرامًا يكفيك كيده وينصرك عليه، فثق به وامض لأمره، وتوكل عليه.

وقال رسول الله:

وقوله: ﴿إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾، يقول: إن الله الذي ألف بين قلوب الأوس والخزرج بعد تشتت كلمتهما وتعاديهما، وجعلهم لك أنصاراً، ﴿عَزِيزٌ﴾، لا يقهره شيء، ولا يردّ قضاءه رادّاً، ولكنه ينفذ في خلقه حكمه. يقول: فعليه فتوكل، وبه فتق، ﴿حَكِيمٌ﴾، في تدبير خلقه.

وقال ابن كثير رحمه الله:

ثم ذكر نعمته عليه بما أيده به من المؤمنين المهاجرين والأنصار؛ فقال: ﴿هُوَ الَّذِي آتَاكَ بِصُرَّةِ إِيْمَانِكُمْ﴾ (١٢) ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ أي: جمعها على الإيمان بك، وعلى طاعتك ومناصرتك وموازرتك ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ أي: لما كان بينهم من العداوة والبغضاء فإن الأنصار كانت بينهم حروب كثيرة في الجاهلية، بين الأوس والخزرج، وأمور يلزم منها التسلسل في الشر، حتى قطع الله ذلك بنور الإيمان، كما قال تعالى: ﴿وَأَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (١٣) [آل عمران: ١٠٣].

وفي الصحيحين^(١) أن رسول الله ﷺ لما خطب الأنصار في شأن غنائم حنين قال لهم: «يا معشر الأنصار، ألم أجدكم ضلالاً فهداكم الله بي، وعالة فأغناكم الله بي، وكنتم متفرقين فألفكم الله بي» كلما قال شيئاً قالوا: الله ورسوله أمّن.

ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (١٣) أي: عزيز الجنب، فلا يخيب رجاء من توكل عليه، حكيم في أفعاله وأحكامه.

وأورد ابن كثير^(٢) خ بإسناد صحيح عن ابن عباس قال: إن الرحم لتقطع، وإن النعمة لتكفر، وإن الله إذا قارب بين القلوب لم يزحزحها شيء، ثم قرأ: ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾.

وقال السعدي رحمه الله:

(١) البخاري (٤٣٣٠)، ومسلم (١٠٦١).

(٢) وعزاه لعبد الرزاق.

﴿وَأَلْفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ فاجتمعوا واثتلفوا، وازدادت قوتهم بسبب اجتماعهم، ولم يكن هذا بسعي أحد، ولا بقوة غير قوة الله، وإنك لو أنفقت ما في الأرض جميعا من ذهب وفضة وغيرهما لتأليفهم بعد تلك النفرة والفرقة الشديدة ﴿مَا أَلَفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ لأنه لا يقدر على قلب القلوب إلا الله تعالى.

﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (١٦٣) ومن عزته أن ألف بين قلوبهم، وجمعها بعد الفرقة كما قال تعالى: ﴿وَأَذْكُرُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَاصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا﴾.

وقال القرطبي رحمه الله:

﴿وَأَلَفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ أي جمع بين قلوب الأوس والخزرج. وكان تألف القلوب مع العصبية الشديدة في العرب من آيات النبي ﷺ ومعجزاته، لأن أحدهم كان يلطم اللطمة فيقاتل عنها حتى يستقيدها. وكانوا أشد خلق الله حمية، فألف الله بالإيمان بينهم، حتى قاتل الرجل أباه وأخاه بسبب الدين. وقيل: أراد التأليف بين المهاجرين والأنصار. والمعنى متقارب.

وقال ابن الجوزي في زاد المسير:

قوله تعالى: ﴿وَأَلَفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ يعني الأوس والخزرج وهم الأنصار كانت بينهم عداوة في الجاهلية فألف الله بينهم بالإسلام وهذا من أعجب الآيات لأنهم كانوا ذوي أنفة شديدة فلو أن رجلا لطم رجلا لقاتلت عنه قبيلته حتى تدرك ثأره فآل بهم الإسلام إلى أن يقتل الرجل ابنه وأباه.

| الله الذي يحفظ ويُسلم

س: وضع معنى قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هُمْ أَلْفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾.

ج: المعنى - والله أعلم - يا أيها النبي كافيك الله ﷻ وحافظك وناصرك، وكذا فإنه ﷻ كافي وحافظ وناصر أتباعك من المؤمنين كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ﴾ (١٧١) إِنَّهُمْ هُمُ الْمُصْطَرُونَ (١٧٢) وَلِنْ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿[الصفات: ١٧١-١٧٣].

هذا رأي الأكثرين من العلماء في تأويل الآية، بينما ذهب بعضهم إلى أن قوله: ﴿وَمِنْ أَتْبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ معناه: حسبك أيضا من أتبعك من المؤمنين، أي:

وناصرك بعد الله أتباعك المؤمنين، والقول الأول أصح وأسلم، والله أعلم.

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: ﴿يَتَأْتِيَهَا النَّيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ﴾، وحسب من اتبعك من المؤمنين، الله يقول لهم جل ثناؤه: ناهضوا عدوكم، فإن الله كافيكم أمرهم، ولا يهولنكم كثرة عددهم وقلة عددكم، فإن الله مؤيدكم بنصره.

وأورد بإسناد صحيح عن ابن زيد في قوله: ﴿يَتَأْتِيَهَا النَّيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾، قال: يا أيها النبي حسبك الله، وحسب من اتبعك من المؤمنين، إنَّ حسبك أنت وهم، الله.

ثم قال الطبري رحمه الله:

ف«من» من قوله: ﴿وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾، على هذا التأويل الذي ذكرناه عن الشعبي، نصب، عطفا على معنى «الكاف» في قوله: ﴿حَسْبُكَ اللَّهُ﴾ لا على لفظه، لأنها في محل خفض في الظاهر، وفي محل نصب في المعنى، لأن معنى الكلام: يكفيك الله، ويكفي من اتبعك من المؤمنين.

وقد قال بعض أهل العربية في «من»، أنها في موضع رفع على العطف على اسم «الله»، كأنه قال: حسبك الله ومتبعوك إلى جهاد العدو من المؤمنين، دون القاعدين عنك منهم. واستشهد على صحة قوله ذلك بقوله: ﴿حَرَضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ﴾.

وقال ابن كثير رحمه الله:

يحرض تعالى نبيه - صلوات الله وسلامه عليه - والمؤمنين على القتال ومناجزة الأعداء ومبارزة الأقران، ويخبرهم أنه حسبهم، أي: كافيتهم وناصرهم ومؤيدهم على عدوهم، وإن كثرت أعدادهم وترادفت أمدادهم، ولو قل عدد المؤمنين.

وقال القرطبي رحمه الله:

قوله تعالى: ﴿وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ قيل: المعنى حسبك الله، وحسبك المهاجرون والأنصار. وقيل: المعنى كافيك الله، وكافي من تبعك، قاله الشعبي وابن زيد. والأول عن الحسن. واختاره النحاس وغيره. ف«من» على القول الأول في موضع رفع، عطفا على اسم الله تعالى. على معنى: فإن حسبك الله وأتباعك من المؤمنين.

وعلى الثاني على إضمار. ومثله قوله ﷺ: «يكفينيه الله وأبناء قيلة». وقيل: يجوز أن يكون المعنى ﴿وَمَنْ أَتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿حَسْبُكَ اللَّهُ﴾، فيضمهم الله، فيضمهم الخبر. ويجوز أن يكون «مَنْ» في موضع نصب، على معنى: يكفيك الله ويكفي من اتبعك.

وقال الشنقيطي رحمه الله (أضواء البيان):

قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٦٤﴾ قال بعض العلماء: إن قوله: ﴿وَمَنِ اتَّبَعَكَ﴾ في محل رفع بالعطف على اسم الجلالة، أي حسبك الله، وحسبك أيضًا من اتبعك من المؤمنين.

وممن قال بهذا الحسن، واختاره النحاس وغيره، كما نقله القرطبي، وقال بعض العلماء: هو في محل خفض بالعطف على الضمير الذي هو الكاف في قوله: ﴿حَسْبُكَ﴾ وعليه، فالمعنى حسبك الله أي كافيك وكافي من اتبعك من المؤمنين، وبهذا قال الشعبي، وابن زيد وغيرهما، وصدر به صاحب الكشف، واقتصر عليه ابن كثير وغيره، والآيات القرآنية تدل على تعيين الوجه الأخير، وأن المعنى كافيك الله، وكافي من اتبعك من المؤمنين لدلالة الاستقراء في القرآن على أن الحسب والكفاية لله وحده كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ﴾ [التوبة: ٥٩]، فجعل الإيتاء لله ورسوله، كما قال: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾ [الحشر: ٧]، وجعل الحسب له وحده، فلم يقل: وقالوا حسبنا الله ورسوله، بل جعل الحسب مختصًا به وقال: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ [الزمر: ٣٦]؟ فخص الكفاية التي هي الحسب به وحده، وتمدح تعالى بذلك في قوله: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: ٣]، وقال تعالى: ﴿وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيْدَكَ بِبَصَرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ٦٢] ففرق بين الحسب والتأييد فجعل الحسب له وحده وجعل التأيد له بنصره وبعباده.

وقد أثنى على أهل التوحيد والتوكل من عباده حيث أفردوه بالحسب، فقال تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَبَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣] وقال تعالى: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ﴾ [

التوبة: ١٢٩ | الآية. إلى غير ذلك من الآيات.

وقال ابن الجوزي (زاد المسير):

قوله تعالى ﴿حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ﴾ فيه قولان:

أحدهما: حسبك الله وحسب من اتبعك هذا قول أبي صالح عن ابن عباس وبه قال ابن زيد ومقاتل والأكثر.

والثاني: حسبك الله ومتبعوك قاله مجاهد وعن الشعبي كالقولين.

وأجاز الفراء والزجاج الوجهين وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس قال أسلم مع رسول الله ﷺ تسعة وثلاثون ثم أسلم عمر فصاروا أربعين فنزلت هذه الآية قال أبو سليمان الدمشقي هذا لا يحفظ والسورة مدنية بإجماع والقول الأول أصح.

س: اذكر سبب نزول قول الله ع: ﴿أَتَنْخَفُفُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ (٢٦).

ج: سبب نزولها ما أخرجه البخاري^(١) في صحيحه من طريق عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لَمَّا نَزَلَتْ: ﴿إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ﴾ شَقَّ ذَلِكَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ حِينَ فُرِضَ عَلَيْهِمْ أَنْ لَا يَفِرَّ وَاحِدٌ مِنْ عَشْرَةٍ فَجَاءَ التَّخْفِيفُ فَقَالَ: ﴿أَتَنْخَفُفُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ﴾ قَالَ: فَلَمَّا خَفَّفَ اللَّهُ عَنْهُمْ مِنَ الْعِدَّةِ نَقَصَ مِنَ الصَّبْرِ بِقَدَرِ مَا خَفَّفَ عَنْهُمْ.

س: في قوله تعالى: (ضَعْفًا) قراءتان.

ج: إيضاحهما (ضَعْفًا) بضم الضاد، والأخرى (ضَعْفًا) بفتحها، وصح الوجهين الطبري.

وأورد وجهًا ثالثًا وعزاه لبعض المدنيين ولم يجنح إليه وهو (ضُعفاء) وحكم على هذه الأخيرة بالشدوذ.

(١) البخاري (٤٦٥٣).

تحريض المؤمنين على القتال

س: ما صورة تحريض المؤمنين على القتال؟

ج: لذلك صور منها: تذكيرهم بفضل الجهاد في سبيل الله، وتذكيرهم بفضل الشهادة في سبيل الله، ومن ذلك تقدمه بين أيديهم للجهاد ابتغاء وجه الله والبذل والعطاء في سبيل الله ولذلك صور متعددة أخر. وبالله التوفيق.

ا س: وضع معنى قوله تعالى: (يَأَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴿١٦﴾ أَلَنْ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿١٧﴾).

ج: المعنى - والله تعالى أعلم - يا أيها النبي حث المؤمنين على القتال ورغبهم فيه وأرشدهم إليه وبين لهم فضائله، حثهم على القتال في سبيل الله لإعلاء كلمة الله، وأخبرهم أن الله ﷻ معينهم وناصرهم، فإن يكن منهم عشرون صابرون محتسبون يرجون ثواب الله ويتبعون وجهه ولا يفرون إذا التقوا بعدوهم فإنهم يغلبوا مائتين من أهل الكفر، وإن يكن منهم مائة يغلبوا ألفاً من أهل الكفر، ذلك بأن أهل الكفر لا يفقهون حقيقة ما هم فيه، ولا يفقهون لماذا يقاتلون ولا يفقهون ما عند الله من الثواب لمن جاهد في سبيله ولا يفقهون لكونهم ينكرون البعث والثواب والعقاب.

هذا، ومن العلماء من قال إن قوله تعالى: ﴿إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ...﴾ هذا إخبار من الله ﷻ بأن العشرين يغلبوا مائتين، ولكنه أمر من الله ﷻ أي أنه أمر في صدره الخبر، والمعنى إذا كنتم عشرون لا تفروا من مائتين، وإن كنتم مائة لا تفروا من ألف من أهل الكفر بل قاتلوهم واطلبوهم لقتالهم، فإن الله ناصركم فحاصل الأمر أن الواحد لا يفر في الحرب من العشرة من الكفار، قالوا: ثم نسخ هذا الأمر بالآية التي بعده، ألا وهي قوله تعالى: ﴿أَلَنْ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿١٦﴾﴾ أي: أن الواحد بعد أن كان مكلفاً بقتال العشرة من الكفار، وبعد أن كان العشرون مأمورون بجهاد مائتين من الكفار، والمائة المؤمنة مكلفة بالشباب

أمام ألف من الكفار، بل وبطلبهم خفف هذا، وأصبح المؤمن مكلفاً باثنين فقط وبجهد الاثنين فقط، أي: أن العدو إذا كان عدده يربو على ضعف عدد المسلمين فإن المسلمين لا يطالبون بمواجهته آنذاك ولا يُطالبون ولا يكلفون بطلبه لقتاله.

فقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ﴾ يؤيد أن الخبر الأول كان معناه الأمر ثم نسخ هذا الأمر بقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ...﴾.

هذا، ومن العلماء من قال إن قوله تعالى: ﴿إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَاعِدُونَ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ...﴾ تضمن أمراً وبشارةً لأهل الإيمان فنسخ الأمر وبقيت البشارة.

أما قوله تعالى: ﴿يَاذْنِ اللَّهُ﴾ فمفاده أن النصر من عند الله، ولن تنتصروا يا أهل الإيمان بقوتكم ولا بعددكم ولا عددكم إنما النصر من الله، وبإذن الله.

أما قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ يؤيدهم ويرعاهم وينصرهم ويقويهم.

وبنحو هذا قال أهل العلم.

أخرج البخاري^(١) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: ﴿إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَاعِدُونَ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ فَكُتِبَ عَلَيْهِمْ أَنْ لَا يَفِرَّ وَاحِدٌ مِنْ عَشْرَةٍ فَقَالَ سُفْيَانُ^(٢) غَيْرَ مَرَّةٍ: أَنْ لَا يَفِرَّ عَشْرُونَ مِنْ مِائَتَيْنِ ثُمَّ نَزَلَتْ: ﴿الَّذِينَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ﴾ الْآيَةَ. فَكُتِبَ أَنْ لَا يَفِرَّ مِائَةٌ مِنْ مِائَتَيْنِ.

وَرَادَ سُفْيَانُ مَرَّةً: نَزَلَتْ ﴿حَرِّضَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَاعِدُونَ﴾ قَالَ سُفْيَانُ: وَقَالَ ابْنُ شُبْرُمَةَ: وَأَرَى الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ مِثْلَ هَذَا.

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ حَرِّضَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ﴾، حُثَّ متبعية ومصداقك على ما جئتهم به من الحق، على قتال من أدبر وتولى عن الحق من المشركين، ﴿إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ﴾ رجلاً، ﴿صَاعِدُونَ﴾، عند لقاء العدو، ويحتسبون أنفسهم ويثبتون لعدوهم، ﴿يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ﴾، من عدوهم ويقهروهم،

(١) البخاري (٤٦٥٢).

(٢) سفیان أحد رجال الإسناد، فسند البخاري حدثنا علي بن عبد الله، حدثنا سفیان بن عمرو عن ابن عباس رضي الله عنهما.

﴿وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ﴾، عند ذلك ﴿يَغْلِبُوا﴾، منهم ﴿أَلْفًا﴾، ﴿يَأْتُهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُوهُ﴾، يقول: من أجل أن المشركين قوم يقاتلون على غير رجاء ثواب، ولا لطلب أجر ولا احتساب، لأنهم لم يفقهوا أن الله مُوجبٌ لمن قاتل احتسابًا، وطلب موعود الله في الميعاد، ما وعد المجاهدين في سبيله، فهم لا يثبتون إذا صدقوا في اللقاء، خشية أن يُقتلوا فتذهب دنياهم. ثم خفف تعالى ذكره عن المؤمنين، إذ علم ضعفهم فقال لهم: ﴿أَلَنْ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا﴾، يعني: أن في الواحد منهم عن لقاء العشرة من عدوهم ضعفًا، ﴿فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ﴾، عند لقاءهم للثبات لهم، ﴿يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ﴾ منهم، ﴿وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ﴾ منهم، ﴿يَاذُنِ اللَّهِ﴾ يعني: بتخليفة الله إياهم لغلبتهم، ومعونته إياهم، ﴿وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾، لعدوهم وعدو الله، احتسابًا في صبره، وطلبًا لجزيل الثواب من ربه، بالعون منه له، والنصر عليه.

وأورد الطبري عددًا من الآثار ثم قال:

وهذه الآية - أعني قوله: ﴿إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ﴾ - وإن كان مخرجها مخرج الخبر، فإن معناها الأمر. يدل على ذلك قوله: ﴿أَلَنْ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ﴾، فلم يكن التخفيف إلا بعد التثقيل. ولو كان ثبوت العشرة منهم للمائة من عدوهم كان غير فرض عليهم قبل التخفيف، وكان ندبًا، لم يكن للتخفيف وجه، لأن التخفيف إنما هو ترخيص في ترك الواحد من المسلمين الثبوت للعشرة من العدو. وإذا لم يكن التشديد قد كان له متقدمًا، لم يكن للترخيص وجه، إذ كان المفهوم من الترخيص إنما هو بعد التشديد. وإذا كان ذلك كذلك، فمعلوم أن حكم قوله: ﴿أَلَنْ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا﴾، ناسخ لحكم قوله: ﴿إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ﴾ وإن يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا. وقد بينا في كتابنا «البيان عن أصول الأحكام»، أن كل خبر من الله وعد فيه عباده على عمل ثوابًا وجزاء، وعلى تركه عقابًا وعذابًا، وإن لم يكن خارجًا ظاهره مخرج الأمر، ففي معنى الأمر، بما أغنى عن إعادته في هذا الموضع.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ حَرَضَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ﴾ أي: حثهم وذمر عليه، ولهذا كان رسول الله ﷺ يحرص على القتال عند صفهم ومواجهة العدو، كما قال لأصحابه يوم بدر، حين أقبل المشركون في عددهم وعددهم: «قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض». فقال عمير بن الحُمام: عرضها السموات والأرض؟! فقال رسول الله ﷺ: «نعم» فقال: بخ بخ، فقال: «ما يحملك على قولك بخ بخ؟» قال: رجاء أن أكون من أهلها! قال: «فإنك من أهلها» فتقدم الرجل فكسر جفن سيفه، وأخرج تمرات فجعل يأكل منهن، ثم ألقى بقيتهن من يده، وقال: لئن أنا حييت حتى آكلهن إنها حياة طويلة! ثم تقدم فقاتل حتى قتل، **رَوَاهُ النَّسَاءُ (١)**.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

ثم قال تعالى مُبَشِّرًا لِلْمُؤْمِنِينَ وَآمِرًا: ﴿إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَدِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ كل واحد بعشرة ثم نسخ هذا الأمر وبقيت البشارة.

وأورد أثر ابن عباس الذي قدمناه.

قال السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ (تفسير الكريم الرحمن):

يقول تعالى لنبيه ﷺ: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ حَرَضَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ﴾ أي: حثهم وأستنهضهم إليه بكل ما يقوي عزائمهم وينشط هممهم، من الترغيب في الجهاد ومقارعة الأعداء، والترهيب من ضد ذلك، وذكر فضائل الشجاعة والصبر، وما يترتب على ذلك من خير في الدنيا والآخرة، وذكر مضار الجبن، وأنه من الأخلاق الرذيلة المنقصة للدين والمروءة، وأن الشجاعة بالمؤمنين أولى من غيرهم ﴿إِنْ تَكُونُوا تَأْمُونُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْمُونُونَ كَمَا تَأْمُونُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ **[النساء: ١٠٤]**.
﴿إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ﴾ أيها المؤمنون ﴿عَشْرُونَ صَدِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يكون الواحد بنسبة عشرة من الكفار، وذلك بأن الكفار ﴿قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ أي: لا علم عندهم بما أعد الله للمجاهدين في سبيله، فهم

يقاتلون لأجل العلو في الأرض والفساد فيها، وأنتم تفقهون المقصود من القتال، أنه لإعلاء كلمة الله وإظهار دينه، والذب عن كتاب الله، وحصول الفوز الأكبر عند الله، وهذه كلها دواعٍ للشجاعة والصبر والإقدام على القتال.

ثم إن هذا الحكم خففه الله على العباد فقال: ﴿أَكُنْ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا﴾ فلذلك اقتضت رحمته وحكمته التخفيف، ﴿فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ بعونه وتأييده.

وهذه الآيات صورتها صورة الإخبار عن المؤمنين، بأنهم إذا بلغوا هذا المقدار المعين يغلبون ذلك المقدار المعين في مقابله من الكفار، وأن الله يمتن عليهم بما جعل فيهم من الشجاعة الإيمانية.

ولكن معناها وحقيقتها الأمر وأن الله أمر المؤمنين - في أول الأمر - أن الواحد لا يجوز له أن يفر من العشرة، والعشرة من المائة، والمائة من الألف.

ثم إن الله خفف ذلك، فصار لا يجوز فرار المسلمين من مثلهم من الكفار، فإن زادوا على مثليهم جاز لهم الفرار، ولكن يرد على هذا أمران:

أحدهما: أنها بصورة الخبر، والأصل في الخبر أن يكون على بابه، وأن المقصود بذلك الامتنان والإخبار بالواقع.

والثاني: تقييد ذلك العدد أن يكونوا صابرين بأن يكونوا متدربين على الصبر.

ومفهوم هذا أنهم إذا لم يكونوا صابرين، فإنه يجوز لهم الفرار، ولو أقل من مثليهم، إذا غلب على ظنهم الضرر، كما تقتضيه الحكمة الإلهية.

ويجاب عن الأول بأن قوله: ﴿أَكُنْ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ﴾ إلى آخرها، دليل على أن هذا أمر لازم وأمر محتتم، ثم إن الله خففه إلى ذلك العدد، فهذا ظاهر في أنه أمر، وإن كان في صيغة الخبر.

وقد يقال: إن في إتيانه بلفظ الخبر، نكتة بديعة لا توجد فيه إذا كان بلفظ الأمر، وهي تقوية قلوب المؤمنين، والبشارة بأنهم سيغلبون الكافرين.

ويجاب عن الثاني: أن المقصود بتقييد ذلك بالصابرين، أنه حث على الصبر، وأنه ينبغي منكم أن تفعلوا الأسباب الموجبة لذلك. فإذا فعلوها صارت الأسباب

الإيمانية والأسباب المادية مبشرة بحصول ما أخبر الله به من النصر لهذا العدد القليل.

س: اذكر سبب نزول قول الله تعالى: ﴿ مَا كَانَتْ لِنَبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أُسْرَى حَتَّى يُنْخِثَ فِي الْأَرْضِ ... ﴾.

ج: أخرج الحاكم في المستدرک بسند حسن^(١):

عن مجاهد عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: استشار رسول الله ﷺ في الأسارى أبا بكر فقال: قومك وعشيرتك فخل سبيهم، فاستشار عمر فقال: اقتلهم، قال: ففداهم رسول الله ﷺ فأنزل الله ﻋَﻠَﻴْكَ: ﴿ مَا كَانَتْ لِنَبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أُسْرَى حَتَّى يُنْخِثَ فِي الْأَرْضِ ﴾ إلى قوله: ﴿ فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا ﴾ قال: فلقى النبي ﷺ عمر قال: «كاد أن يصيبنا بلاء في خلافك».

هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وقال الذهبي: قلت: على شرط مسلم.

الحكم في الأسرى

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ مَا كَانَتْ لِنَبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أُسْرَى حَتَّى يُنْخِثَ فِي الْأَرْضِ تَرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾.

ج: هذا عتاب من الله ﻋَﻠَﻴْكَ لرسوله ﷺ وللمؤمنين، وما كان قد صدر منهم يوم بدر من قبولهم الفدية من أهل الشرك فيقول تعالى: ﴿ مَا كَانَتْ لِنَبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أُسْرَى حَتَّى يُنْخِثَ فِي الْأَرْضِ ﴾ أي: ما كان ينبغي لنبي أن يكون له أسرى حتى يتخذ أسرى حتى يكثر من القتل، قتل الأسرى المشركين، أتريدون بقبولكم الفدية من المشركين وترك قتلهم متاع الحياة الدنيا الزائل، والله يريد لكم ثواب الآخرة، والله عزيز لا يغلب حكيم فيما يشرع.

وبنحو هذا قال أهل العلم.

قال الطبري رحمته الله:

يقول تعالى ذكره: ما كان لنبي أن يحتبس كافرًا قدر عليه وصار في يده من عبدة الأوثان للفداء أو للممن.

(١) الحاكم (٣٢٩/٢)، ومسلم (٨٧/١٢).

و«الأسر» في كلام العرب: الحبس، يقال منه: «مأسور»، يراد به: محبوس. ومسموع منهم: «أباله الله أسراً».

وإنما قال الله جل ثناؤه ذلك لنبهه محمد ﷺ، يعرفه أن قتل المشركين الذين أسرههم ﷺ يوم بدر ثم فادى بهم، كان أولى بالصواب من أخذ الفدية منهم وإطلاقهم.

وقوله: ﴿حَتَّى يُتَخَذَ فِي الْأَرْضِ﴾، يقول: حتى يبالغ في قتل المشركين فيها، ويقهرهم غلبة وقسراً.

يقال منه: «أثخن فلان في هذا الأمر»، إذا بالغ فيه. وحكي: «أثخته معرفة»، بمعنى: قتلتها معرفة.

﴿تُرِيدُونَ﴾، يقول للمؤمنين من أصحاب رسول الله ﷺ: ﴿تُرِيدُونَ﴾، أيها المؤمنون، ﴿عَرَضَ الدُّنْيَا﴾، بأسركم المشركين، وهو ما عَرَضَ للمرء منها من مال ومتاع. يقول: تريدون بأخذكم الفداء من المشركين متاع الدنيا وطعمها، ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾، يقول: والله يريد لكم زينة الآخرة وما أعد للمؤمنين وأهل ولايته في جناته، بقتلكم إياهم وإثخانكم في الأرض. يقول لهم: فاطلبوا ما يريد الله لكم وله اعملوا لا ما تدعوكم إليه أهواء أنفسكم من الرغبة في الدنيا وأسبابها، ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ﴾، يقول: إن أنتم أردتم الآخرة، لم يغلبكم عدو لكم، لأن الله عزيز لا يقهر ولا يغلب، وأنه ﴿حَكِيمٌ﴾ في تدبيره أمر خلقه.

وأورد الطبري عدة آثار في هذا الصدد.

وأخرج مسلم^(١) في صحيحه حديث ابن عباس رضي الله عنهما عن عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ قَالَ: لَمَّا كَانَ يَوْمُ بَدْرٍ نَظَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى الْمُشْرِكِينَ فَإِذَا هُمْ أَلْفٌ... فذكر الحديث وفيه:

فَلَمَّا أَسْرُوا الْأَسَارَى قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ: «مَا تَرَوْنَ فِي هَؤُلَاءِ

(١) مسلم (١٧٦٣).

الْأَسَارَى؟» فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ! هُمْ بَنُو الْعَمِّ وَالْعَشِيرَةِ، أَرَى أَنْ تَأْخُذَ مِنْهُمْ فِدْيَةً فَتَكُونُ لَنَا قُوَّةً عَلَى الْكُفَّارِ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُمْ لِلْإِسْلَامِ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا تَرَى يَا ابْنَ الْخَطَّابِ؟» قُلْتُ: لَا وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا أَرَى الَّذِي رَأَى أَبُو بَكْرٍ، وَلَكِنِّي أَرَى أَنْ تُمَكِّنَّا فَنَضْرِبَ أَعْنَاقَهُمْ فَتُمْكِنَ عَلَيْنَا مِنْ عَقِيلٍ فَيَضْرِبَ عُنُقَهُ، وَتُمْكِنِي مِنْ فَلَانٍ نَسِيًّا لِعُمَرَ، فَأَضْرِبَ عُنُقَهُ^(١)، فَإِنَّ هَؤُلَاءِ أَيْمَةُ الْكُفْرِ وَصَنَادِيدُهَا، فَهَوِيَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَا قَالَ أَبُو بَكْرٍ وَلَمْ يَهُوَ مَا قُلْتُ، فَلَمَّا كَانَ مِنَ الْغَدِ جِئْتُ فَإِذَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَبُو بَكْرٍ قَاعِدَيْنِ يَبْكِيَانِ، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَخْبِرْنِي مِنْ أَيِّ شَيْءٍ تَبْكِي أَنْتَ وَصَاحِبُكَ، فَإِنْ وَجَدْتُ بُكَاءً بَكَيتُ، وَإِنْ لَمْ أَجِدْ بُكَاءً تَبَاكَيْتُ لِبُكَائِكُمَا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَبْكِي لِلَّذِي عَرَضَ عَلَيَّ أَصْحَابُكَ مِنْ أَخْذِهِمُ الْفِدَاءَ لَقَدْ عَرَضَ عَلَيَّ عَذَابُهُمْ أَذْنَى مِنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ» (شَجَرَةٍ قَرِيبَةٍ مِنْ نَبِيِّ اللَّهِ ﷺ) وَأَنْزَلَ اللَّهُ ﷻ: ﴿مَا كَانَتْ لِنَبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَشْرَى حَتَّى يُشْخِزَ فِي الْأَرْضِ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا﴾ فَأَحَلَّ اللَّهُ الْغَنِيمَةَ لَهُمْ.

وأورد بإسناد حسن عن قتادة قوله: ﴿مَا كَانَتْ لِنَبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَشْرَى حَتَّى يُشْخِزَ فِي الْأَرْضِ تَرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا﴾، الآية، قال: أراد أصحاب نبيِّ اللَّهِ ﷺ يوم بدر الفداء، ففادوهم بأربعة آلاف أربعة آلاف. ولعمري ما كان أثخن رسول اللَّهِ ﷺ يومئذ! وكان أول قتال قاتله المشركين.

وأورد ابن كثير رحمه الله ما أخرجه أحمد^(٢) من حديث أنس رضي الله عنه قال: استشار رسول اللَّهِ ﷺ الناس في الأسارى يوم بدر، فقال: «إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَمَكَّنَكُمْ مِنْهُمْ» فقام عمر ابن الخطاب فقال: يَا رَسُولَ اللَّهِ، اضْرِبْ أَعْنَاقَهُمْ. فَأَعْرَضَ عَنْهُ النَّبِيُّ ﷺ، ثُمَّ عَادَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَمَكَّنَكُمْ مِنْهُمْ، وَإِنَّمَا هُمْ إِخْوَانُكُمْ بِالْأَمْسِ». فقام عمر فقال: يَا رَسُولَ اللَّهِ، اضْرِبْ أَعْنَاقَهُمْ. فَأَعْرَضَ عَنْهُ النَّبِيُّ ﷺ، ثُمَّ عَادَ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ لِلنَّاسِ مِثْلَ ذَلِكَ، فقام أبو بكر الصديق رضي الله عنه فقال: يَا رَسُولَ اللَّهِ، نَرَى أَنْ تَعْفُو

(١) في رواية أحمد (١/ ٣٠-٣١): وتمكن حمزة من فلان أخيه فيضرب عنقه حتى يعلم الله أنه ليست في قلوبنا هودة للمشركين.

(٢) أحمد (٣/ ٢٤٣) وسنده صحيح.

عنهم، وأن تقبل منهم الفداء. قال: فذهب عن وجه رسول الله ﷺ ما كان فيه من الغم، فغفا عنهم، وقبل منهم الفداء. قال: وأنزل الله ﷻ: ﴿لَوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ﴾ الآية.

وقال السعدي رحمه الله:

هذه معاتبة من الله لرسوله وللمؤمنين يوم «بدر» إذ أسروا المشركين وأبقوهم لأجل الفداء، وكان رأي: أمير المؤمنين عمر بن الخطاب في هذه الحال، قتلهم واستئصالهم.

فقال تعالى: ﴿مَا كَانَتْ لِيَنِّي أَن يَكُونَ لَهُ أُسْرَى حَتَّى يُنْخَضَ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: ما ينبغي ولا يليق به إذا قاتل الكفار الذين يريدون أن يطفئوا نور الله ويسعوا لإخماد دينه، وأن لا يبقى على وجه الأرض من يعبد الله، أن يتسرع إلى أسرهم وإبقائهم لأجل الفداء الذي يحصل منهم، وهو عرض قليل بالنسبة إلى المصلحة المقضية لإبادتهم وإبطال شرهم، فما دام لهم شر وصوله، فالأوفق أن لا يؤسروا. فإذا أئخذوا، وبطل شرهم، واضمحل أمرهم، فحينئذ لا بأس بأخذ الأسرى منهم وإبقائهم.

يقول تعالى: ﴿تُرِيدُونَ﴾ بأخذكم الفداء وإبقائهم ﴿عَرْضَ الدُّنْيَا﴾ أي: لا لمصلحة تعود إلى دينكم. ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾ بإعزاز دينه، ونصر أوليائه، وجعل كلمتهم عالية فوق غيرهم، فيأمركم بما يوصل إلى ذلك. ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ أي: كامل العزة، ولو شاء أن يتنصر من الكفار من دون قتال لفعل، لكنه حكيم، يتلي بعضكم ببعض.

وقال ابن الجوزي في زاد المسير:

قال المفسرون: معنى الآية: ما كان لنبي أن يحبس كافرا قدر عليه للفداء أو المن قبل الإثخان في الأرض. وكانت غزاة بدر أول قتال قاتله رسول الله ﷺ ولم يكن قد أئخذ في الأرض بعد.

﴿تُرِيدُونَ عَرْضَ الدُّنْيَا﴾ وهو المال وكان أصحاب النبي ﷺ قد فادوا يومئذ بأربعة

آلاف أربعة آلاف وفي قوله: ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾ قولان:

أحدهما: يريد لكم الجنة قاله ابن عباس.

والثاني: يريد العمل بما يوجب ثواب الآخرة ذكره الماوردي.

وقال ابن الجوزي أيضًا:

وقد روي عن ابن عباس ومجاهد في آخرين أن هذه الآية منسوخة بقوله: ﴿فَلَمَّا مَتَّأ بَعْدُ وَإِنَّمَا فِدَاءٌ﴾ [محمد: ٤]، وليس للنسخ وجه لأن غزاة بدر كانت وفي المسلمين قلة فلما كثروا واشتد سلطانهم نزلت الآية الأخرى ويبين هذا قوله ﴿حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ﴾.

س: هل صح لقوله تعالى: ﴿لَوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾

﴿سبب نزول؟﴾

ج: أخرج الطبري وغيره بسند صحيح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما أحلت الغنائم لأحدٍ سِوِ الرُّؤوس من قبلكم، كانت تنزل نارٌ من السماء وتأكلها، حتى كان يوم بدر، فوقع الناس في الغنائم، فأنزل الله: ﴿لَوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ﴾، حتى بلغ، ﴿حَلَالًا طَيِّبًا﴾».

ا س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿لَوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾

﴿سبب نزول؟﴾

ج: المعنى - والله تعالى أعلم - لولا أن الله ﷻ كتب عليكم يا أهل بدر أن لا يعذبكم بسبب صنيعكم الذي صنعتوه لمسكم بسبب ما أخذتموه من الفدية عذاب عظيم، أي لمسكم بسبب قبولكم الفدية عذاب عظيم.

وقال بعض أهل العلم: لولا كتاب من الله سبق بإحلال الغنائم، لمسكم بسبب قبولكم الفدية عذاب عظيم، وثم أقوال آخر.

وهذه بعض أقوال العلماء في ذلك:

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره لأهل بدر الذين غنموا وأخذوا من الأسرى الفداء: ﴿لَوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ﴾، يقول: لولا قضاء من الله سبق لكم أهل بدر في اللوح المحفوظ، بأن

الله مُجَلِّلٌ لكم الغنيمة، وأن الله قضى فيما قضى أنه لا يُضِلُّ قومًا بعد إذ هداهم حتى يبين لهم ما يتقون، وأنه لا يعذب أحدًا شهد المشهد الذي شهدتموه ببدر مع رسول الله ﷺ ناصراً دين الله، لنالكم من الله، بأخذكم الغنيمة والفداء، عذاب عظيم.

وأورد الطبري بإسناد صحيح عن الحسن في قوله: ﴿لَوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ﴾ الآية، قال: إن الله كان مُطْعِمٌ هذه الأمة الغنيمة، وإنهم أخذوا الفداء من أسارى بدر قبل أن يؤمروا به. قال: فعاب الله ذلك عليهم، ثم أحله الله.

وفي رواية أخرى بإسناد صحيح أيضاً عن الحسن في قول الله: ﴿لَوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ﴾ الآية، وذلك يوم بدر، وأخذ أصحاب النبي ﷺ المغانم والأسارى قبل أن يؤمروا به، وكان الله ع قد كتب في أم الكتاب: «المغانم والأسارى حلال لمحمد وأمته»، ولم يكن أحله لأمة قبلهم، وأخذوا المغانم وأسروا الأسارى قبل أن ينزل إليهم في ذلك، قال الله: ﴿لَوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ﴾، يعني في الكتاب الأول. أن المغانم والأسارى حلال لكم، ﴿لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

وأورد سبب النزول الذي أشرت إليه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وقال الطبري رحمه الله:

وقال آخرون: معنى ذلك: لولا كتاب من الله سبق لأهل بدر، أن لا يعذبهم، لمسهم عذاب عظيم.

وأورد بسند حسن عن قتادة قوله: ﴿لَوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾، كان سبق لهم من الله خير، وأحل لهم الغنائم.

وبسند صحيح عن ابن زيد في قوله: ﴿لَوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾، لمسكم فيما أخذتم من الغنائم يوم بدر قبل أن أحلها لكم. فقال: سبق من الله العفو عنهم والرحمة لهم، سبق أنه لا يعذب المؤمنين، لأنه لا يعذب رسوله ومن آمن به وهاجر معه ونصره.

وقال آخرون: معنى ذلك: ﴿لَوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ﴾، أن لا يؤخذ أحدًا بفعل أتاها على جهالة، ﴿لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

ثم قال الطبري رحمه الله:

وأولى الأقوال في ذلك بالصواب، ما قد بيناه قبل. وذلك أن قوله: ﴿لَوْلَا كَتَبَ مِنَّ اللَّهِ سَبْقٌ﴾، خبر عامٌ غير محصور على معنى دون معنى، وكل هذه المعاني التي ذكرتها عمن ذكرت، مما قد سبق في كتاب الله أنه لا يؤخذ بشيء منها هذه الأمة، وذلك: ما عملوا من عمل بجهالة، وإحلال الغنيمة، والمغفرة لأهل بدر، وكل ذلك مما كتب لهم. وإذا كان ذلك كذلك، فلا وجه لأن يخص من ذلك معنى دون معنى، وقد عم الله الخبر بكل ذلك، بغير دلالة توجب صحة القول بخصوصه.

واستشهد الحافظ ابن كثير رحمته الله لصحة ما ذهب إليه الطبري بأدلة، فقال ابن كثير رحمته الله بعد أن ذكر أن المراد: (لولا كتاب من الله سبق لهذه الأمة بإحلال الغنائم):

ويستشهد لهذا القول بما أخرجاه في الصحيحين ^(١)، عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أعطيت خمساً، لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي: نصرت بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي، وأعطيت الشفاعة، وكان النبي يبعث إلى قومه وبعثت إلى الناس عامة». وقال الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لم تحل الغنائم لسود الرؤوس غيرنا» ^(٢).

ولهذا قال الله تعالى: ﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ فعند ذلك أخذوا من الأسارى الفداء.

وقال ابن كثير رحمته الله:

وقد استقر الحكم في الأسرى عند جمهور العلماء: أن الإمام مخير فيهم: إن شاء قتل كما فعل بيني قريظة وإن شاء فادى بمال كما فعل بأسرى بدر أو بمن أسر من المسلمين كما فعل رسول الله ﷺ في تلك الجارية وابنتها اللتين كانتا في سبي سلمة بن الأكوع، حيث ردهما وأخذ في مقابلهما من المسلمين الذين كانوا عند المشركين، وإن شاء استرق من أسر. هذا مذهب الإمام الشافعي وطائفة من العلماء،

(١) البخاري (٣٣٥)، ومسلم (٥٢١).

(٢) الطبري، والترمذي (٣٠٨٥)، وقد أشرت إليه قريباً، وقال الترمذي: حديث حسن صحيح غريب، من حديث الأعمش.

وفي المسألة خلاف آخر بين الأئمة مقرر في موضعه من كتب الفقه.

وقال ابن الجوزي في زاد المسير:

قوله تعالى: ﴿لَوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ﴾ في معناه خمسة أقوال:

أحدها: لولا أن الله كتب في أم الكتاب أنه سيحل لكم الغنائم لمسكم فيما تعجلتم من المغانم والفداء يوم بدر قبل أن تؤمروا بذلك عذاب عظيم، روى هذا المعنى علي بن أبي طلحة عن ابن عباس، وبه قال مقاتل. وقال أبو هريرة: تعجل ناس من المسلمين فأصابوا الغنائم، فنزلت الآية.

والثاني: لولا كتاب من الله سبق أنه لا يعذب من أتى ذنبا على جهالة لعوقبتم روى هذا المعنى عطاء عن ابن عباس، وابن جريج عن مجاهد، وقال ابن اسحاق: سبق أن لا أعذب إلا بعد النهي ولم يكن نهاهم.

والثالث: لولا ما سبق لأهل بدر أن الله لا يعذبهم، لعذبتم، قاله الحسن، وابن جبير، وابن أبي نجیح، عن مجاهد.

والرابع: لولا كتاب من الله سبق من أنه يغفر لمن عمل الخطايا ثم علم ما عليه فتاب، ذكره الزجاج.

والخامس: لولا القرآن الذي اقتضى غفران الصغائر، لعذبتم، ذكره الماوردي. فيخرج في الكتاب قولان:

أحدهما: أنه كتاب مكتوب حقيقة. ثم فيه قولان:

أحدهما: أنه ما كتبه الله في اللوح المحفوظ. **والثاني:** أنه القرآن.

والثاني: أنه بمعنى القضاء.

إباحة الغنائم لأمة محمد ﷺ

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (١٨٨).

ج: المعنى - والله تعالى أعلم - فكلوا يا أهل الإسلام، يا أصحاب رسول الله ﷺ مما غنمتموه يوم بدر، وغيره حلالاً فقد أحللنا لكم الغنائم، كلوه في حال كونه طيباً مباحاً مستساعاً ليس بحرام ولا بخبيث واتقوا الله بمراعاة حدوده ولزوم شرعه، إن الله غفور لما صدر منكم، وغفور لذنوبكم كذلك، غفور لعباده يغفر لهم رحيم بهم في عدم إنزاله العذاب عليهم ورحيم بهم في إحلال الغنائم لهم.

وينحو هذا قال أهل العلم.

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره للمؤمنين من أهل بدر: ﴿فَكُلُوا﴾، أيها المؤمنون، ﴿مِمَّا غَنِمْتُمْ﴾، من أموال المشركين، ﴿حَلَالًا﴾، بإحلاله لكم، ﴿طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾، يقول: وخافوا الله أن تعودوا، أن تفعلوا في دينكم شيئاً بعد هذه من قبل أن يُعْهَدَ فيه إليكم، كما فعلتم في أخذ الفداء وأكل الغنيمة، وأخذتموها من قبل أن يحل لكم، ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

وهذا من المؤخر الذي معناه التقديم، وتأويل الكلام: ﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا﴾، ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾، ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾.

ويعني بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ﴾، لذنوب أهل الإيمان من عباده، ﴿رَحِيمٌ﴾ بهم، أن يعاقبهم بعد توبتهم منها.

وقال السعدي رحمه الله:

﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا﴾ وهذا من لطفه تعالى بهذه الأمة، أن أحل لها الغنائم ولم يحلها لأمة قبلها.

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ في جميع أموركم ولازموها، شكرا للنعم الله عليكم، ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ﴾ يغفر لمن تاب إليه جميع الذنوب، ويغفر لمن لم يشرك به شيئاً جميع

المعاصي.

﴿رَجِمْ﴾ بكم، حيث أباح لكم الغنائم وجعلها حلالاً طيباً.

ا س: وضح معنى قوله تعالى: (يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ قُلُوبًا لِّمَنِ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَىٰ إِنَّ يَعْلَمَ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِيكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرَ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٠﴾)؟

ج: هذا في أسارى بدر من أهل الشرك الذين أسرهم المسلمون يوم بدر. قال بعضهم لما طلب منه الفداء، قال: إني كنت مُسْلِمًا ولكنني أكرهت على الخروج معكم، وكان من هؤلاء القائلين بهذا العباس بن عبد المطلب عم رسول الله ﷺ لما أُسر وطلب منه الفداء قال: إني كنت مُسْلِمًا، وقد وردت بذلك عدة آثار، وإن كان في أسانيدھا مقال، إلا أنها تصح بمجموعھا، والله أعلم.

فقوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ قُلُوبًا لِّمَنِ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَىٰ﴾ الذي أسرتهم يوم بدر ﴿إِنَّ يَعْلَمَ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا﴾ إيمانًا وإسلامًا ﴿يُؤْتِيكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ﴾ يؤتكم ويعوض عليكم بأفضل مما أخذ منكم من المال، ولذا فقد أصبح العباس رضي الله عنه من أهل الشراء بعد ذلك، وفضلًا عن ذلك ﴿وَيَغْفِرَ لَكُمْ﴾ ما ارتكبتهموه من الكفر والعناد وقتال رسول الله ﷺ ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ﴾ لذنوبكم ﴿رَجِمْ﴾ بكم إذ فتح لكم باب التوبة والإنابة.

وينحو هذا قال أهل العلم.

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: يا أيها النبي، قل لمن في يديك وفي أيدي أصحابك من أسرى المشركين الذين أخذ منهم من الفداء ما أخذ: ﴿إِنَّ يَعْلَمَ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا﴾، يقول: إن يعلم الله في قلوبكم إسلامًا، ﴿يُؤْتِيكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ﴾، من الفداء، ﴿وَيَغْفِرَ لَكُمْ﴾، يقول: ويصفح لكم عن عقوبة جُرمكم الذي اجتريتموه بقتالكم نبي الله وأصحابه وكفركم بالله، ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ﴾، لذنوب عباده إذا تابوا، ﴿رَجِمْ﴾ بهم، أن يعاقبهم عليها بعد التوبة.

وذكر أن العباس بن عبد المطلب كان يقول في نزلت هذه الآية.

قلت (مصطفى): وأورد الطبري وابن كثير عدة آثار تدل على أن العباس قال ذلك، وإن كان - كما أسلفت فيها مقال - لكنها قد تصح بمجموع طرقها عند بعض أهل العلم.

فقد ذكر الطبري من خمسة وجوه عن ابن عباس ما مفاده أن العباس قال ذلك. وأورد ابن كثير وجوهاً آخر تؤيد ذلك.

ومما أورد الطبري قول ابن عباس، قال: قال العباس: في نزلت: ﴿مَا كُنَّا لِنَنِيَّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُخْرَجَ فِي الْأَرْضِ﴾، فأخبرت النبي ﷺ بإسلامي، وسألته أن يحاسبني بالعشرين الأوقية التي أخذ مني فأبى، فأبدلني الله بها عشرين عبداً، كلهم تاجر، مالي في يديه^(١).

ومن وجه آخر عند الطبري أيضاً، وفيه مقال:

عن ابن عباس قوله: ﴿يَأْتِيهَا النَّيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى﴾ الآية، وكان العباس أسير يوم بدر، فافتدى نفسه بأربعين أوقية من ذهب، فقال العباس حين نزلت هذه الآية: لقد أعطاني الله خصلتين، ما أحب أن لي بهما الدنيا: أني أسرت يوم بدر ففديت نفسي بأربعين أوقية، فأتاني أربعين عبداً، وأنا أرجو المغفرة التي وعدنا الله.

وأورد الطبري بإسناد حسن^(٢): عن قتادة قوله: ﴿قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى﴾ الآية، قال: ذكر لنا أن نبي الله ﷺ لما قدم عليه مأل البحرين ثمانون ألفاً، وقد توضعاً لصلاة الظهر، فما أعطى يومئذ شاكياً ولا حرم سائلاً وما صلى يومئذ حتى فرقه، وأمر العباس أن يأخذ منه ويحتثي، فأخذ. قال: وكان العباس يقول: هذا خير مما أخذ منا، وأرجو المغفرة.

وكما أسلفت فهناك وجوه آخر عن ابن عباس بهذا المعنى.

وأورد ابن كثير بسند فيه مقال عن الزهري، عن جماعة سماهم قالوا: بعثت قريش إلى رسول الله ﷺ في فداء أسراهم، ففدى كل قوم أسيرهم بما رضوا، وقال العباس: يا رسول الله، قد كنت مسلماً! فقال رسول الله ﷺ: «الله أعلم بإسلامك، فإن يكن كما تقول

(١) وفي سنده ضعف من وجوه.

(٢) ولكنه مرسل.

فإن الله يجزيك، وأما ظاهرك فقد كان علينا، فافتد نفسك وابني أخيك: نوفل بن الحارث بن عبد المطلب، وعقيل بن أبي طالب بن عبد المطلب، وحليفك عتبة بن عمرو أخي بني الحارث بن فهر» قال: ما ذاك عندي يا رسول الله! قال: «فأين المال الذي دفنته أنت وأم الفضل؟ فقلت لها: إن أصبتُ في سفري هذا، فهذا المال الذي دفنته لبني: الفضل، وعبد الله، وقُثم». قال: والله يا رسول الله، إني لأعلم أنك رسول الله، إن هذا لشيء ما علمه أحد غيري وغير أم الفضل، فاحسب لي يا رسول الله ما أصبتم مني: عشرين أوقية من مال كان معي؟ فقال رسول الله ﷺ: «لا ذاك شيء أعطانا الله تعالى منك». ففدى نفسه وابني أخويه وحليفه، وأنزل الله ﷻ فيه: ﴿يَتَأْتِيَ النَّبِيَّ قُلُوبٌ لِّمَن فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَىٰ إِن يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أَخَذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرَ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (٧٠) قال العباس: فأعطاني الله مكان العشرين الأوقية في الإسلام عشرين عبدا، كلهم في يده مال يضرب به، مع ما أرجو من مغفرة الله ﷻ.

وأخرج البخاري معلقاً^(١): قال: وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ طَهْمَانَ: عَنْ عَبْدِ الْعَزِيزِ بْنِ صُهَيْبٍ عَنْ أَنَسِ أَبِي النَّبِيِّ ﷺ بِمَالٍ مِنَ الْبَحْرَيْنِ فَقَالَ: «انْثُرُوهُ فِي الْمَسْجِدِ» فَكَانَ أَكْثَرَ مَالٍ أُتِيَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذْ جَاءَهُ الْعَبَّاسُ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَعْطِنِي إِنِّي فَادَيْتُ نَفْسِي، وَفَادَيْتُ عَقِيلًا، قَالَ: «خُذْ» فَحَثَا فِي ثَوْبِهِ ثُمَّ ذَهَبَ يَقْلُهُ فَلَمْ يَسْتَطِعْ، فَقَالَ: أَمُرْ بَعْضَهُمْ يَرْفَعُهُ إِلَيَّ، قَالَ: «لَا» قَالَ: فَارْفَعُهُ أَنْتَ عَلَيَّ. قَالَ: «لَا» فَتَنَرَّ مِنْهُ ثُمَّ ذَهَبَ يَقْلُهُ فَلَمْ يَرْفَعْهُ. فَقَالَ: فَمُرْ بَعْضَهُمْ يَرْفَعُهُ عَلَيَّ. قَالَ: «لَا» قَالَ: فَارْفَعُهُ أَنْتَ عَلَيَّ. قَالَ: «لَا» فَتَنَرَّ مِنْهُ ثُمَّ احْتَمَلَهُ عَلَى كَاهِلِهِ، ثُمَّ انْطَلَقَ فَمَا زَالَ يُتْبِعُهُ بَصَرُهُ حَتَّى خَفِيَ عَلَيْنَا عَجَبًا مِنْ حِرْصِهِ، فَمَا قَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَثَمَّ مِنْهَا دِرْهَمٌ.

وقال ابن كثير أيضاً:

وقال^(٢) يعقوب بن سفيان حدثنا عمرو بن عاصم حدثنا سليمان بن المغيرة عن حميد بن هلال قال: بعث ابن الحضرمي إلى رسول الله ﷺ من البحرين ثمانين ألفاً، ما أتاه مال أكثر منه لا قبل ولا بعد. قال: فنشرت على حصير ونودي بالصلاة. قال:

(١) البخاري (معلقاً/ ٣٦٥١).

(٢) وانظر الحاكم في المستدرک (٣/ ٣٢٩).

وجاء رسول الله ﷺ، فمثل قائما على المال، وجاء أهل المسجد فما كان يومئذ عدد ولا وزن، ما كان إلا قبضاً، قال وجاء العباس بن عبد المطلب يحثي في خميصه عليه، وذهب يقوم فلم يستطع، قال: فرفع رأسه إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، ارفع علي. قال: فتبسم رسول الله ﷺ حتى خرج ضاحكه - أو نابه - وقال له: «أعد من المال طائفة، وقم بما تطيق». قال: ففعل، وجعل العباس يقول - وهو منطلق -: أما إحدى اللتين وعدنا الله فقد أنجزنا، وما ندري ما يصنع في الأخرى: ﴿يَأْتِيهَا النَّيُّ قُل لِّمَن فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى...﴾ الآية، ثم قال: هذا خير مما أخذ منا، ولا أدري ما يصنع الله في الأخرى فما زال رسول الله ﷺ ماثلاً على ذلك المال، حتى ما بقي منه درهم، وما بعث إلى أهله بدرهم، ثم أتى الصلاة فصلى.

وقال السعدي رحمه الله:

وهذه نزلت في أسارى يوم بدر، وكان في جملتهم العباس عم رسول الله ﷺ، فلما طلب منه الفداء، ادّعى أنه مسلم قبل ذلك، فلم يسقطوا عنه الفداء، فأنزل الله تعالى جبراً لخاطره ومن كان على مثل حاله.

﴿يَأْتِيهَا النَّيُّ قُل لِّمَن فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى إِن يَعْلَمَ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أَخَذَ مِنْكُمْ﴾ أي: من المال، بأن يسر لكم من فضله، خيراً وأكثر مما أخذ منكم. ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ ذنوبكم، ويدخلكم الجنة ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ وقد أنجز الله وعده للعباس وغيره، فحصل له - بعد ذلك - من المال شيء كثير، حتى إنه مرة لما قدم على النبي ﷺ مال كثير، أتاه العباس فأمره أن يأخذ منه بثوبه ما يطيق حمله، فأخذ منه ما كاد أن يعجز عن حمله.

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَلَا يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾؟

ج: المعنى - والله أعلم - إن يُرد بعض هؤلاء الذين قالوا: إنا كنا مسلمين بعد أن وقعوا في الأسر، إن يريدوا بهذا القول خيانتك وخداعك، فهذا شأنهم فقد خانوا الله من قبل، فأمكنك الله منهم يوم بدر، وجعلك مُمكنًا من رقابهم تقتلهم وتأسرهم ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بقلوب العباد وبما تنطوي على صدورهم ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما يشرع وفي

كل شيء.

وبنحو هذا قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى ذكره لنبيه: وإن يرد هؤلاء الأسارى الذين في أيديكم، ﴿خِيَانَتُكَ﴾، أي: الغدر بك والمكر والخداع بإظهارهم لك بالقول خلاف ما في نفوسهم، ﴿فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ﴾، يقول: فقد خالفوا أمر الله من قبل وقعة بدر، وأمكن منهم ببدر المؤمنين، ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بما يقولون بألسنتهم ويضمرونه في نفوسهم، ﴿حَكِيمٌ﴾، في تدبيرهم وتدبير أمور خلقه سواهم.

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقوله: ﴿وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتُكَ﴾ أي: فيما أظهروا لك من الأقوال، ﴿فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ﴾ أي: من قبل بدر بالكفر به، ﴿فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ﴾ أي: بالإسار يوم بدر، ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أي: عليم بما يفعله، حكيم فيه.

وقال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ:

﴿وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتُكَ﴾ أي إن كان هذا القول منهم خيانة ومكرا ﴿فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ﴾ بكفرهم ومكرهم بك وقتالهم لك. وإن كان هذا القول منهم خيرا ويعلمه الله فيقبل منهم ذلك ويعوضهم خيرا مما خرج عنهم ويغفر لهم ما تقدم من كفرهم وخيانتهم ومكرهم. وجمع خيانة خيائن، وكان يجب أن يقال: خوائن لأنه من ذوات الواو، إلا أنهم فرقوا بينه وبين جمع خائنة. ويقال: خائن وخوان وخونة وخانة.

وقال ابن الجوزي (زاد المسير):

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتُكَ﴾ يعني إن أراد الأسراء خيانتك بالكفر بعد الإسلام ﴿فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ﴾ إذ كفروا به قبل أسرهم وقال ابن زيد: فقد خانوا بخروجهم مع المشركين.

وقال السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ:

﴿وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتُكَ﴾ في السعي لحربك ومنابدتك، ﴿فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ﴾ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ ﴿فليحذروا خيانتك، فإنه تعالى قادر عليهم وهم تحت قبضته، ﴿وَاللَّهُ

عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٩٤﴾ أي: عليم بكل شيء، حكيم يضع الأشياء مواضعها، ومن علمه وحكمته أن شرع لكم هذه الأحكام الجليلة الجميلة، وقد تكفل بكفائتكم شأن الأسرى وشرهم إن أرادوا خيانة.

| النوايا الصالحة سبب في الخير |

س: الله ﷻ يثيب على ما في القلوب من خير دَلِّلَ على ذلك؟

ج: من ذلك ما يلي:

قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ قُلُوبًا لِّمَن فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَىٰ إِن يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أَخَذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرَ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٠﴾﴾.

وقوله تعالى في شأن أصحاب النبي ﷺ وما كان من أمرهم يوم الحديبية: ﴿فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا...﴾.

[الفتح: ١٧، ١٨]

وقوله ﷻ: «المرء مع من أحب» والحب محله القلب كما هو معلوم إلى غير ذلك من الأدلة.

|

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:

(إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ
وَالَّذِينَ ءَاوُوا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ
مِنْ وَلِيَّتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا وَإِنْ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمْ النَّصْرُ
إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٧٢﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا
بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ
﴿٧٣﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوُوا وَنَصَرُوا
أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٤﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْ بَعْدِ
وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ
اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧٥﴾)

[الأنفال: ٧٢-٧٥].

شيء من فضائل المهاجرين والأنصار

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوُوا وَنَصَرُوا أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُم مِّنْ وَلِيَّتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمْ النَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٧٢﴾﴾.

ج: المعنى - والله تعالى أعلم - إن الذين آمنوا بالله ﷻ وصدقوا رسول الله ﷺ فشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله ثم هاجروا لإقامة دينهم، ولإعلاء كلمة الله ﷻ، وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم لإعلاء كلمة الله، وهؤلاء هم المهاجرون ﴿وَالَّذِينَ ءَاوُوا﴾ والذين استقبلوا هؤلاء المهاجرين في بلادهم وآووهم إليهم وناصروهم، وقاتلوا معهم لإعلاء كلمة الله، وهم الأنصار، هؤلاء الأنصار، وأولئك المهاجرون بعضهم أولياء بعض، بعضهم أنصار لبعض، وبعضهم أتباع لبعض وأعوان لبعضهم البعض على أهل الشرك والكفر. هذا قول، وثم قول آخر حاصله أن قوله تعالى: ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ يرث بعضهم بعضاً دون قراباتهم الذين لم يسلموا، فكان في أولى أمر الهجرة، ولما آخى النبي ﷺ بين المهاجرين والأنصار، كان المهاجري يرث الأنصاري دون ذوي رحمه وكانوا يتوارثون بالأخوة التي آخى النبي ﷺ بينهم.

إذ آخى بين سلمان وأبي الدرداء على سبيل المثال وكذا بين عبد الرحمن بن عوف وسعد بن الربيع وغير هؤلاء ثم إن هذا التوارث نسخ بقوله تعالى: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾.

أما قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا﴾ أي: إلى مدينة رسول الله ﷺ ﴿مَا لَكُمْ مِّنْ وَلِيَّتِهِمْ﴾ ما عليكم يا أهل الإسلام يا من هاجرتم، وما عليكم معشر الأنصار من نصرة هؤلاء الذين لم يهاجروا حتى يهاجروا، فإن هاجروا فلهم حق النصرة عليكم، وحق التوارث إذ كان التوارث مشروعا^(١)، أما إذا قاتلوا قوماً وطلبوا منكم نصرتهم، وكان بمقدوركم أن تنصروهم فانصروهم وقاتلوا معهم إلا إذا كان من يحاربهم قوماً

(١) ثم نسخ التوارث الذي كان بين المهاجرين والأنصار وبقيت النصرة.

بينكم وبينهم عهد فلا تنقضوا العهود ولا المواثيق، والله بعملكم جميعاً بصير،
وعليكم رقيب وشاهد، وبنحو هذا قال أهل العلم.

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره: إن الذين صدقوا الله ورسوله، ﴿وَهَاجَرُوا﴾، يعني: هجروا قومهم وعشيرتهم ودورهم، يعني: تركوهم وخرجوا عنهم، وهجرهم قومهم وعشيرتهم، ﴿وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾، يقول: بالغوا في إيتاب نفوسهم وإنصابتها في حرب أعداء الله من الكفار، ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾، يقول: في دين الله الذي جعله طريقاً إلى رحمته والنجاة من عذابه، ﴿وَالَّذِينَ ءَاوُوا وَنَصَرُوا﴾، يقول: والذين آووا رسول الله والمهاجرين معه، يعني: أنهم جعلوا لهم مأوى يأوون إليه، وهو المشوى والمسكن، يقول: أسكنوهم، وجعلوا لهم من منازلهم مساكن إذ أخرجهم قومهم من منازلهم، ﴿وَنَصَرُوا﴾، يقول: ونصروهم على أعدائهم وأعداء الله من المشركين، ﴿أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾، يقول: هاتان الفرقتان، يعني المهاجرين والأنصار، بعضهم أنصار بعض، وأعوان على من سواهم من المشركين، وأيديهم واحدة على من كفر بالله، وبعضهم إخوان لبعض دون أقربائهم الكفار.

وقد قيل: إنما عني بذلك أن بعضهم أولى بميراث بعض، وأن الله ورث بعضهم من بعض بالهجرة والنصرة، دون القرابة والأرحام، وأن الله نسخ ذلك بعد بقوله: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾، [الأنفال: ٧٥، الأحزاب: ٦].

وأورد بإسناده فيه مقال عن ابن عباس: قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوُوا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾، يعني: في الميراث، جعل الميراث للمهاجرين والأنصار دون ذوي الأرحام، قال الله: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلِيَّتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا﴾، يقول: ما لكم من ميراثهم من شيء، وكانوا يعملون بذلك حتى أنزل الله هذه الآية: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾، في الميراث، فنسخت التي قلبها، وصار الميراث لذوي الأرحام.

وأورد بإسناده حسن عن قتادة: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوُوا وَنَصَرُوا﴾، إلى قوله: ﴿مَا لَكُمْ مِنْ وَلِيَّتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا﴾ قال:

لبث المسلمون زمانا يتوارثون بالهجرة، والأعرابي المسلم لا يرث من المهاجر شيئاً، فنسخ ذلك بعد ذلك، فالحق الله: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَىٰ أَوْلِيَائِكُمْ مَّعْرُوفًا﴾ [الأحزاب: ٦]، أي: من أهل الشرك، فأجيزت الوصية، ولا ميراث لهم، وصارت الموارث بالملل، والمسلمون يرث بعضهم بعضاً من المهاجرين والمؤمنين، ولا يرث أهل ملتين.

وبإسناد حسن عن السدي: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوُوا وَنَصَرُوا أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾ ، في الميراث ، ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا﴾ ، وهؤلاء الأعراب ، ﴿مَا لَكُمْ مِنْ وَلِيَّتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ ، في الميراث ، ﴿وَإِنْ أَسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ﴾ يقول: بأنهم مسلمون ، ﴿فَعَلَيْكُمْ النَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (٧٢) ، ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾ ، في الميراث ، ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدِ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ﴾ ، ثم نسختها الفرائض والموارث ، ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ﴾ . الذين توارثوا على الهجرة ، ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ ، فتوارث الأعراب والمهاجرون.

وقال في تأويل قوله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلِيَّتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا﴾ وَإِنْ أَسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمْ النَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٧٢﴾ .

يعني بقوله تعالى ذكره: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ . الذين صدقوا بالله ورسوله ، ﴿وَلَمْ يُهَاجِرُوا﴾ . قومهم الكفار، ولم يفارقوا دار الكفر إلى دار الإسلام ، ﴿مَا لَكُمْ﴾ ، أيها المؤمنون بالله ورسوله. المهاجرون قومهم المشركين وأرض الحرب ، ﴿مِنْ وَلِيَّتِهِمْ﴾ ، يعني: من نصرتهم وميراثهم.

وقد ذكرت قول بعض من قال: «معنى الولاية، ههنا الميراث»، وسأذكر إن شاء الله من حضري ذكره بعد.

﴿مِنْ شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا﴾ ، قومهم ودورهم من دار الحرب إلى دار الإسلام ، ﴿وَإِنْ أَسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ﴾ ، يقول: إن استنصركم هؤلاء الذين آمنوا ولم يهاجروا ، ﴿فِي﴾

الَّذِينَ ﴿، يعني: بأنهم من أهل دينكم على أعدائكم وأعدائهم من المشركين، ﴿فَعَلَيْكُمْ﴾، أيها المؤمنون من المهاجرين والأنصار، ﴿الْتَصِرُوا﴾ أن يستنصروكم ﴿عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ﴾، يعني: عهد قد وثق به بعضكم على بعض أن لا يحاربه، ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (٧٢)، يقول: والله بما تعملون فيما أمركم ونهاكم من ولاية بعضكم بعضاً، أيها المهاجرون والأنصار، وترك ولاية من آمن ولم يهاجر ونصرتكم إياهم عند استنصاركم في الدين، وغير ذلك من فرائض الله التي فرضها عليكم، ﴿بَصِيرٌ﴾، يراه ويبصره، فلا يخفى عليه من ذلك ولا من غيره شيء.

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله:

ذكر تعالى أصناف المؤمنين، وقسمهم إلى مهاجرين، خرجوا من ديارهم وأموالهم، وجاؤوا لنصر الله ورسوله، وإقامة دينه، وبذلوا أموالهم وأنفسهم في ذلك. وإلى أنصار، وهم: المسلمون من أهل المدينة إذ ذاك، آووا إخوانهم المهاجرين في منازلهم، وواسوهم في أموالهم، ونصروا الله ورسوله بالقتال معهم، فهؤلاء بعضهم أولى ببعض أي: كل منهم أحق بالآخر من كل أحد؛ ولهذا آخى رسول الله ﷺ بين المهاجرين والأنصار، كل اثنين أخوان، فكانوا يتوارثون بذلك إراثاً مقدماً على القرابة، حتى نسخ الله تعالى ذلك بالمواريث، ثبت ذلك في صحيح البخاري (١)، عن ابن عباس.

قلت (مصطفى): لفظ البخاري بسنده إلى ابن عباس رضي الله عنهما ﴿وَلِكُلِّ جَعَلْنَا مَوْلَى﴾ (وَالَّذِينَ عَاقَدْتَ أَيْمَانُكُمْ) قَالَ: كَانَ الْمُهَاجِرُونَ حِينَ قَدِمُوا الْمَدِينَةَ يَرِثُ الْأَنْصَارِيُّ الْمُهَاجِرِيُّ دُونَ ذَوِي رَحِمِهِ لِلْأُخُوَّةِ الَّتِي آخَى النَّبِيُّ ﷺ بَيْنَهُمْ، فَلَمَّا نَزَلَتْ: ﴿وَلِكُلِّ جَعَلْنَا مَوْلَى﴾ قَالَ: نَسَخْتَهَا ﴿وَالَّذِينَ عَقَدْتَ أَيْمَانُكُمْ﴾.

ثم قال ابن كثير رحمه الله:

وقد أثنى الله ورسوله على المهاجرين والأنصار في غير ما آية في كتابه، فقال: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ الْمُقَدَّمُونَ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَنٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا

(١) البخاري (٦٧٤٧).

عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَذَّتْ تَجَرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ... ﴿الآية [المتوبة: ١٠٠] ، وقال: ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ...﴾ الآية. [التوبة: ١١٧] ، وقال تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ بَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ...﴾ الآية [الحشر: ٨، ٩].

وأحسن ما قيل في قوله: ﴿وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا﴾ أي: لا يحسدونهم على فضل ما أعطاهم الله على هجرتهم، فإن ظاهر الآيات تقديم المهاجرين على الأنصار، وهذا أمر مجمع عليه بين العلماء، لا يختلفون في ذلك. **وقال:** ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُم مِّن وَلِيَّتِهِمْ﴾ قرأ حمزة: (ولايتهم) بالكسر، والباقون بالفتح، وهما واحد كالدلالة والدلالة ﴿مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا﴾ هذا هو الصنف الثالث من المؤمنين، وهم الذين آمنوا ولم يهاجروا، بل أقاموا في بَوَادِيهِمْ فهؤلاء ليس لهم في المغانم نصيب، ولا في خمسها إلا ما حضروا فيه القتال.

وأورد ما أخرجه مسلم^(١) من حديث بُرَيْدَةَ بْنِ الْحَصِيبِ الْأَسْلَمِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كان رسول الله ﷺ إذا بعث أميراً على سرية أو جيش، أو صاه في خاصة نفسه بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيراً، وقال: «اغزوا باسم الله في سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله، إذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى إحدى ثلاث خصال -أو: خلال- فأيتهم ما أجابوك إليها فاقبل منهم، وكف عنهم: ادعهم إلى الإسلام، فإن أجابوك فاقبل منهم، وكف عنهم، ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين، وأعلمهم إن فعلوا ذلك أن لهم ما للمهاجرين، وأن عليهم ما على المهاجرين. فإن أبوا واختاروا دارهم فأعلمهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين، يجري عليهم حكم الله الذي يجري على المؤمنين، ولا يكون لهم في الفبيء والغنيمة نصيب، إلا أن يجاهدوا مع المسلمين، فإن هم أبوا فادعهم إلى إعطاء الجزية. فإن أجابوا فاقبل منهم وكف عنهم، فإن أبوا فاستعن

(١) أحمد (٣٥٢/٥)، ومسلم (١٧٣١).

بالله ثم قاتلهم».

وقال رحمه الله:

وقوله: ﴿وَإِنْ أَسْتَنْصِرُكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمْ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (٧٢) يقول تعالى: وإن استنصروكم هؤلاء الأعراب، الذين لم يهاجروا في قتال ديني، على عدو لهم فانصروهم، فإنه واجب عليكم نصرهم؛ لأنهم إخوانكم في الدين، إلا أن يستنصروكم على قوم من الكفار ﴿بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ﴾ أي: مهادنة إلى مدة، فلا تخفروا ذمتكم، ولا تنقضوا أيمانكم مع الذين عاهدتم. وهذا مروي عن ابن عباس، رضي الله عنه.

قال القرطبي رحمه الله:

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ ختم السورة بذكر الموالاة ليعلم كل فريق وليه الذي يستعين به. وقد تقدم معنى الهجرة والجهاد لغة ومعنى. ﴿وَالَّذِينَ ءَاوَأُوا وَنَصَرُوا﴾ معطوف عليه. وهم الأنصار الذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم، وانصوى إليهم النبي ﷺ والمهاجرون. ﴿أُولَئِكَ﴾ رفع بالابتداء. ﴿بَعْضُهُمْ﴾ ابتداء ثان ﴿أُولَئِكَ بَعْضٌ﴾ خبره، والجميع خبر ﴿إِنَّ﴾. قال ابن عباس: ﴿أُولَئِكَ بَعْضٌ﴾ في الميراث، فكانوا يتوارثون بالهجرة، وكان لا يرث من آمن ولم يهاجر من هاجر فنسخ الله ذلك بقول: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ﴾ الآية. أخرجه أبو داود. وصار الميراث لذوي الأرحام من المؤمنين. ولا يتوارث أهل ملتين شيئاً. ثم جاء قوله ﷻ: ﴿الْحَقُّوا الْفُرَاقَ بِأَهْلِهَا﴾ على ما تقدم بيانه في آية الموارث. وقيل: ليس هنا نسخ، وإنما معناه في النصرة والمعونة، كما تقدم في «النساء». ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ ابتداء والخبر ﴿مَا لَكُمْ مِنْ وَلِيَّتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ وقرأ يحيى بن وثاب والأعمش وحمزة (من ولايتهم) بكسر الواو. وقيل هي لغة. وقيل: هي من وليت الشيء، يقال: ولي بين الولاية. ووال بين الولاية. والفتح في هذا أبين وأحسن، لأنه بمعنى النصرة والنسب. وقد تطلق الولاية والولاية بمعنى الإمارة.

وقال: قوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَسْتَنْصِرُكُمْ فِي الدِّينِ﴾ يريد إن دعوا هؤلاء المؤمنون الذين لم يهاجروا من أرض الحرب عونكم بنفير أو مال لاستنقاذهم فأعينوهم، فذلك فرض عليكم فلا تخذلوهم. إلا أن يستنصروكم على قوم كفار بينكم وبينهم

ميثاق فلا تنصروهم عليه، ولا تنقضوا العهد حتى تتم مدته. ابن العربي: إلا أن يكونوا أسراء مستضعفين فإن الولاية معهم قائمة والنصرة لهم واجبة، حتى لا تبقى منا عين تطرف حتى نخرج إلى استنقاذهم إن كان عددنا يحتمل ذلك، أو نبذل جميع أموالنا في استخراجهم حتى لا يبقى لأحد درهم. كذلك قال مالك وجميع العلماء، فإننا لله وإنا إليه راجعون، على ما حل بالخلق في تركهم إخوانهم في أسر العدو وبأيديهم خزائن الأموال، وفضول الأحوال والقدرة والعدد والقوة والجلد. الزجاج: ويجوز ﴿فَعَلَيْكُمْ النَّصْرُ﴾ بالنصب على الإغراء.

وقال السعدي رحمه الله:

هذا عقد موالة ومحبة، عقدها الله بين المهاجرين الذين آمنوا وهاجروا في سبيل الله، وتركوا أوطانهم لله لأجل الجهاد في سبيل الله، وبين الأنصار الذين آووا رسول الله ﷺ وأصحابه وأعانوهم في ديارهم وأموالهم وأنفسهم، فهؤلاء بعضهم أولياء بعض، لكمال إيمانهم وتماثل اتصال بعضهم ببعض.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَبَالٍ مِّنْ شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا﴾ فإنهم قطعوا ولايتكم بانفصالهم عنكم في وقت شدة الحاجة إلى الرجال، فلما لم يهاجروا لم يكن لهم من ولاية المؤمنين شيء. لكنهم ﴿وَإِنْ أَسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ﴾ أي: لأجل قتال من قاتلهم لأجل دينهم ﴿فَعَلَيْكُمْ النَّصْرُ﴾ والقتال معهم، وأما من قاتلوهم لغير ذلك من المقاصد فليس عليكم نصرهم.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ﴾ أي: عهد بترك القتال، فإنهم إذا أراد المؤمنون المتميزون الذين لم يهاجروا قتالهم، فلا تعينوهم عليهم، لأجل ما بينكم وبينهم من الميثاق.

﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ يعلم ما أنتم عليه من الأحوال، فيشرع لكم من الأحكام ما يليق بكم.

وقال ابن الجوزي (زاد المسير):

﴿وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا﴾ يعني الأنصار آووا رسول الله ﷺ وأسكنوا المهاجرين ديارهم ونصروهم على أعدائهم ﴿أُولَٰئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ فيه قولان:

أحدهما: في النصرة. والثاني: في الميراث.

قال المفسرون: كانوا يتوارثون بالهجرة وكان المؤمن الذي لم يهاجر لا يرث قريبه المهاجر وهو معنى قوله: ﴿مَا لَكُمْ مِنْ وَلِيَّتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾.

اس: وضع معنى قوله تعالى: (وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةً فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٧٣﴾).

ج: المعنى - والله أعلم - وأهل الكفر والشرك والجحود لوحداية الله ﷻ بعضهم أولياء بعض، قيل: بعضهم أعوان لبعض وقيل: بعضهم يرث بعضًا. أي: أن الولاية فيها قولان:

أحدهما: أنها في التناصر (بعضهم ينصر بعضًا).

والثاني: أنها في التوارث بعضهم يرث بعضًا.

أما قوله تعالى: ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ﴾ فهو عائد أيضًا على عموم ما ذكر، وليس فقط ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ...﴾ إنما عائدٌ على ذلك وعلى ما قبله.

والمعنى: أن أهل الإيمان بعضهم يناصر بعضًا وبعضهم عونًا لبعض، وكذا فاعلموا أن أهل الكفر بعضهم يناصر بعضًا وبعضهم يعادون بعضًا إلا تفقهوا هذا يا أهل الإيمان، وإن لم تتناصروا مع المؤمنين وإن لم تفقهوا أن أهل الكفر يناصر بعضهم بعضًا فستكن فتنة في الأرض.

نعم ستكون فتنة في الأرض إذا لم يوالي المؤمنون بعضهم بعضًا وسيكون الشر والفساد إذا لم يناصر بعضهم بعضًا.

وكذلك ستكون الفتنة والفساد في الأرض إذا لم نتحيز عن الشرك وأهله ونعلم أن أهل الكفر يناصر بعضهم بعضًا، سنخدع ونخدع أنفسنا بجهلنا بهذا، وحينئذٍ سنفضي بأسرارنا إلى أهل الشرك وسنواليهم وستفضي تلك الموالاة لهم إلى الفتنة (التي فيها انصراف المسلمين عن دينهم) وستفضي أيضًا إلى الفساد الكبير في الأرض بالتمكين للمشركين.

هذا، والذي قالوا إن المراد التوارث قالوا: إلا تركوا الكفار يرث بعضهم بعضًا تكن فتنة في الأرض وفساد كبير والله أعلم.

وهذه بعض أقوال العلماء فيما ذكر، وبالله التوفيق.

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾، بالله ورسوله، ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾، يقول: بعضهم أعوان بعض وأنصاره، وأحق به من المؤمنين بالله ورسوله. وقد ذكرنا قول من قال: «عنى بذلك أن بعضهم أحق بميراث بعض من قرابتهم من المؤمنين».

وأورد بإسناد صحيح عن ابن زيد في قوله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلِيَّتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا﴾، إلى قوله: ﴿وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾، قال: كان المؤمن المهاجر والمؤمن الذي ليس بمهاجر، لا يتوارثان وإن كانا أخوين مؤمنين. قال: وذلك لأن هذا الدين كان بهذا البلد قليلا حتى كان يوم الفتح، فلما كان يوم الفتح، وانقطعت الهجرة توارثوا حيثما كانوا بالأرحام. وقال النبي ﷺ: «لا هجرة بعد الفتح»، وقرأ: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾.

قال الطبري: وقال آخرون: معنى ذلك: أن الكفار بعضهم أنصار بعض، وأنه لا يكون مؤمناً من كان مقيماً بدار الحرب ولم يهاجر.

وأورد أثراً عن قتادة بذلك.

ثم قال:

وأما قوله: ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ (٧٢)، فإن أهل التأويل اختلفوا في تأويله.

فقال بعضهم: معناه: إلا تفعلوا، أيها المؤمنون، ما أمرتم به من موارثة المهاجرين منكم بعضهم من بعض بالهجرة، والأنصار بالإيمان، دون أقربائهم من أعراب المسلمين ودون الكفار، ﴿تَكُنْ فِتْنَةٌ﴾، يقول: يحدث بلاء في الأرض بسبب ذلك، ﴿وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾، يعني: ومعاصي الله.

وأورد بإسناد صحيح عن ابن زيد في قوله: ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ (٧٢)، إلا تفعلوا هذا، تتركوهم يتوارثون كما كانوا يتوارثون، ﴿تَكُنْ فِتْنَةٌ﴾

فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٧٣﴾. قال: ولم يكن رسول الله ﷺ يقبل الإيمان إلا بالهجرة، ولا يجعلونهم منهم إلا بالهجرة.

قال الطبري:

وقال آخرون: معنى ذلك: إلا تناصروا، أيها المؤمنون، في الدين، تكن فتنة في الأرض وفساد كبير.

ثم قال الطبري:

وأولى التأويلين بتأويل قوله: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾، قول من قال: معناه: أن بعضهم أنصار بعض دون المؤمنين، وأنه دلالة على تحريم الله على المؤمن المقام في دار الحرب وترك الهجرة، لأن المعروف في كلام العرب من معنى «الولي»، أنه النصير والمعين، أو: ابن العم والنسيب. فأما الوارث فغير معروف ذلك من معانيه، إلا بمعنى أنه يليه في القيام بإرثه من بعده. وذلك معنى بعيد، وإن كان قد يحتمله الكلام. وتوجيه معنى كلام الله إلى الأظهر الأشهر، أولى من توجيهه إلى خلاف ذلك.

وإذ كان ذلك كذلك، فبين أن أولى التأويلين بقوله: ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ ﴿٧٣﴾، تأويل من قال: إلا تفعلوا ما أمرتكم به من التعاون والنصرة على الدين، تكن فتنة في الأرض، إذ كان مبتدأ الآية من قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾. بالحث على الموالاة على الدين والتناصر جاء، فكذاك الواجب أن تكون خاتمتها به.

وقال ابن كثير رحمه الله:

ومعنى قوله تعالى: ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ ﴿٧٣﴾ أي: إن لم تجانبوا المشركين وتوالوا المؤمنين، وإلا وقعت الفتنة في الناس، وهو التباس الأمر، واختلاط المؤمنين بالكافرين، فيقع بين الناس فساد منتشر عريض طويل.

وقال السعدي في تفسيره (تيسير الكريم الرحمن):

وقوله: ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ﴾ أي: موالاة المؤمنين ومعاداة الكافرين، بأن واليتموهم أو

عاديتموهم كلهم، أو واليتم الكافرين وعاديتم المؤمنين.
﴿تَكُنْ فِتْنَةً فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ (٧٣) فإنه يحصل بذلك من الشر ما لا ينحصر من اختلاط الحق بالباطل، والمؤمن بالكافر، وعدم كثير من العبادات الكبار، كالجهاد والهجرة، وغير ذلك من مقاصد الشرع والدين التي تفوت إذا لم يتخذ المؤمنون وحدهم أولياء بعضهم لبعض.

وقال القرطبي رحمه الله:

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ قطع الله الولاية بين الكفار والمؤمنين، فجعل المؤمنين بعضهم أولياء بعض، والكفار بعضهم أولياء بعض، يتناصرون بدينهم ويتعاملون باعتقادهم. قال علماؤنا في الكافرة يكون لها الأخ المسلم: لا يزوجه، إذ لا ولاية بينهما، ويزوجه أهل ملتها. فكما لا يزوج المسلمة إلا مسلم فكذلك الكافرة لا يزوجه إلا كافر قريب لها، أو أسقف، ولو من مسلم، إلا أن تكون معتقة، فإن عقد على غير المعتقة فسخ إن كان لمسلم، ولا يعرض للنصراني. وقال أصبغ: لا يفسخ، عقد المسلم أولى وأفضل.
قوله تعالى: ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ﴾ الضمير عائد على الموارثة والتزامها. المعنى: إلا تتركوهم يتوارثون كما كانوا يتوارثون، قاله ابن زيد. وقيل: هي عائدة على التناصر والمؤازرة والمعاونة واتصال الأيدي. ابن جريج وغيره: وهذا إن لم يفعل تقع الفتنة عنه عن قريب، فهو أكد من الأول.

وقال ابن الجوزي في زاد المسير:

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ فيه قولان:
أحدهما: في الميراث قاله ابن عباس.

والثاني: في النصرة قاله قتادة.

وفي قوله: ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ﴾ قولان:

أحدهما: أنه يرجع إلى الميراث فالمعنى إلا تأخذوا في الميراث بما أمرتكم قاله ابن عباس.

والثاني: أنه يرجع إلى التناصر فالمعنى إلا تتعاونوا وتتناصروا في الدين قاله ابن

جريح. وبيانه: أنه إذا لم يتولَّ المؤمن المؤمن توليًّا حقًّا، ويتبرأ من الكافر جدًّا، أدَّى ذلك إلى الضلال والفساد في الدين. فإذا هجر المسلم أقاربه الكفار، ونصر المسلمين، كان ذلك أدعى لأقاربه الكفار إلى الإسلام وترك الشرك.

س: ما مدى صحة هذا الحديث: «لا يرث المسلم الكافر ولا الكافر المسلم»؟

ج: الحديث ثابت في الصحيحين^(١) من حديث أسامة بن زيد رضي الله عنه عن رسول

الله صلَّى الله عليه وآله وسلم.

|

(١) البخاري (٦٧٦٤)، ومسلم (١٦١٤).

تضعيف حديث:

«إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه»

س: ما مدى صحة هذا الحديث: «إِذَا أَتَاكُمْ مَنْ تَرْضَوْنَ دِينَهُ وَخُلُقَهُ فَرُجُّوهُ إِلَّا تَفْعَلُوا تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ»؟

ج: هذا حديث معلول ضعيف على الراجح لديّ ثم إن متنه متعقبٌ كذلك^(١).
| حديث:

«أنا بريء من المسلم يعيش بين ظهرائي المشركين»

س: ما مدى صحة هذا الحديث وما معناه: «أَنَا بَرِيءٌ مِنْ كُلِّ مُسْلِمٍ يَعِيشُ بَيْنَ ظَهْرَائِي الْمُشْرِكِينَ»^(٢)؟

ج: أما عن معناه - والله أعلم - فالمراد به أنا غير مسؤول عن أي شيء يحدث للمسلم الذي أثر ترك الهجرة فلم يهاجر وعاش بين المشركين، فإذا أصابه شيء فلست بمسؤول عنه، كما في الآية: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَكِيلٍ﴾ على قول من الأقوال في تفسيرها.

أما عن صحة الحديث ففي سنده بعض المقال.

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوُوا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾^(٣).

ج: هذه بشرى لأهل الإيمان من المهاجرين والمجاهدين في سبيل الله، وللأنصار، وثناء عليهم، فيقول تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا﴾ وهم المهاجرون إلى مدينة رسول الله ﷺ لنصرته ولنصرة دينه ﴿وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ لإعلاء كلمة الله، ﴿وَالَّذِينَ ءَاوُوا﴾ هؤلاء المهاجرين وأسكنوهم معهم وأكرموا منازلهم ﴿وَنَصَرُوا﴾ الدين ونصروا رسول الله ﷺ ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ حق الإيمان، فقد حققوا القول بالعمل، واتبعوا النوايا الصالحة والإيمان الصادق بعمل صالح مع قول صالح، فكانوا جديرين بأن يوصفوا بأنهم المؤمنون حقاً، ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ﴾ لذنوبهم

(١) وقد أوضحت ذلك بما فيه كفاية بحمد الله في كتابي جامع أحكام النساء.

(٢) أبو داود (٢٦٤٥)، والترمذي (١٦٠٤) وغيرهما.

﴿وَرَزَقُ كَرِيمٌ﴾ وهو الجنة جعلنا الله من أهلها.

وبنحو هذا قال أهل العلم.

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوَوْا وَنَصَرُوا﴾، آووا رسول الله ﷺ والمهاجرين معه ونصروهم، ونصروا دين الله، أولئك هم أهل الإيمان بالله ورسوله حقاً، لا من آمن ولم يهاجر دار الشرك، وأقام بين أظهر أهل الشرك، ولم يغز مع المسلمين عدوهم، ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ﴾، يقول: لهم ستر من الله على ذنوبهم، بعفوه لهم عنها، ﴿وَرَزَقُ كَرِيمٌ﴾، يقول: لهم في الجنة مطعم ومشرب هنيئ كريم، لا يتغير في أجوافهم فيصير نجواً، ولكنه يصير رشحاً كرشح المسك.

وهذه الآية تنبئ عن صحة ما قلنا: أن معنى قول الله: ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ في هذه الآية، وقوله: ﴿مَا لَكُمْ مِّنْ وَلِيَّتِهِمْ مِّنْ شَيْءٍ﴾، إنما هو النصرة والمعونة، دون الميراث. لأنه جل ثناؤه عقب ذلك بالثناء على المهاجرين والأنصار والخبر عما لهم عنده، دون من لم يهاجر بقوله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوَوْا وَنَصَرُوا﴾، الآية، ولو كان مراداً بالآيات قبل ذلك، الدلالة على حكم ميراثهم، لم يكن عقيب ذلك إلا الحث على إمضاء الميراث على ما أمر. وفي صحة ذلك كذلك، الدليل الواضح على أن لا ناسخ في هذه الآيات لشيء، ولا منسوخ.

وقال ابن كثير رحمه الله:

لما ذكر تعالى حكم المؤمنين في الدنيا، عطف بذكر ما لهم في الآخرة، فأخبر عنهم بحقيقة الإيمان، كما تقدم في أول السورة، وأنه سبحانه سيجازيهم بالمغفرة والصفح عن ذنوب إن كانت، وبالرزق الكريم، وهو الحسن الكثير الطيب الشريف، دائم مستمر أبدا لا ينقطع ولا ينقضي، ولا يسأم ولا يمل لحسنه وتنوعه.

وقال السعدي رحمه الله (تيسير الكريم الرحمن):

الآيات السابقة في ذكر عقد الموالاة بين المؤمنين من المهاجرين والأنصار وهذه الآيات في بيان مدحهم وثوابهم، فقال: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوَوْا وَنَصَرُوا أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ﴾ أي: المؤمنون من المهاجرين والأنصار

﴿هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ لأنهم صدقوا إيمانهم بما قاموا به من الهجرة والنصرة والموالاتة بعضهم لبعض، وجهادهم لأعدائهم من الكفار والمنافقين.

﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ﴾ من الله تمحى بها سيئاتهم، وتضمنحل بها زلاتهم، ﴿وَلَهُمْ رِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ أي: خير كثير من الرب الكريم في جنات النعيم.

وربما حصل لهم من الثواب المعجل ما تقر به أعينهم، وتطمئن به قلوبهم.

ا س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ﴾.

ج: المعنى - والله أعلم - والذين آمنوا وهاجروا من بعد المهاجرين الأولين، وجاهدوا معكم فأولئك منكم يا أهل الإيمان.

وقيل: هاجروا من بعد صلح الحديبية.

فأولئك منكم يا أهل الإيمان.

وقيل: في قوله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي: من بعد ما بينته لكم يا أهل الإيمان من حكم موالاتة المؤمنين لبعضهم وحكم موالاتة الكافرين لبعضهم، وخطر الإقامة في ديار الشرك.

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾، بالله ورسوله، من بعد تباني ما بينت من ولاية المهاجرين والأنصار بعضهم بعضاً، وانقطاع ولايتهم ممن آمن ولم يهاجر حتى يهاجر، ﴿وَهَاجَرُوا﴾، دار الكفر إلى دار الإسلام، ﴿وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ﴾، أيها المؤمنون، ﴿فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ﴾، في الولاية، يجب عليكم لهم من الحق والنصرة في الدين والموارثة، مثل الذي يجب لكم عليهم، ولبعضكم على بعض، كما: حدثنا ابن حميد قال: حدثنا سلمة، عن ابن إسحاق، قال: ثم ردّ الموارث إلى الأرحام ممن أسلم بعد الولاية من المهاجرين والأنصار دونهم، إلى الأرحام التي بينهم، فقال: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾، أي: بالميراث، ﴿إِنَّ اللَّهَ يَكُلُّ شَيْءٌ عَلِيمٌ﴾.

وقال القرطبي رحمه الله:

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا﴾ يريد من بعد الحديبية وبيعة الرضوان. وذلك أن الهجرة من بعد ذلك كانت أقل رتبة من الهجرة الأولى. والهجرة الثانية هي التي وقع فيها الصلح، ووضعت الحرب أوزارها نحو عامين ثم كان فتح مكة. ولهذا قال عليه السلام: «لا هجرة بعد الفتح». فبين أن من آمن وهاجر من بعد يلتحق بهم. ومعنى ﴿مَنْكُورٌ﴾ أي مثلكم في النصر والموالاة.

ا س: هل صح لقوله تعالى: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ سبب نزول؟

ج: أخرج الطيالسي من طريق^(١) سماك عن عكرمة عن ابن عباس قال: آخى رسول الله ﷺ بين أصحابه وورث بعضهم من بعض حتى نزلت: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ﴾ فتركوا ذلك وتوارثوا بالنسب.

وفي رواية سماك عن عكرمة مقال، لكن أخرج الطبري بسند صحيح عن عيسى بن الحارث: أن أخاه شريح بن الحارث كانت له سُرِّيَّة، فولدت منه جارية، فلما شبت الجارية زُوِّجت، فولدت غلاماً، ثم ماتت السُرِّيَّة، واختصم شريح بن الحارث والغلام إلى شريح القاضي في ميراثها، فجعل شريح بن الحارث يقول: ليس له ميراث في كتاب الله! قال: ففضى شريح بالميراث للغلام. قال: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾، فركب ميسرة بن زيد إلى ابن الزبير، فأخبره بقضاء شريح وقوله، فكتب ابن الزبير إلى شريح: «إن ميسرة أخبرني أنك قضيت بكذا وكذا»، وقلت: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾، وإنه ليس كذلك، إنما نزلت هذه الآية: أن الرجل كان يعاقد الرجل يقول: «ترثني وأرثك»، فنزلت: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾. فجاء بالكتاب إلى شريح، فقال شريح: أعتقها حيتان بطنها! وأبى أن يرجع عن قضائه.

وفي رواية عند الطبري كان الرجل يعاقد الرجل يقول: ترثني وأرثك فلما نزلت ترك ذلك.

فحسن بعض أهل العلم سبب النزول بالطريقين المتقدمين، فالله أعلم.

(١) الطيالسي (١٩/٢).

(٢١٢) أحمر
أسود



التعريف بأولي الأرحام

س: من الذين عناهم الله ﷻ بقوله: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾؟

ج: من العلماء من قال إن المراد بقوله: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾ أن أولي الأرحام هنا هم الذين ذكرهم الله ﷻ في آيات الموارث. قالوا: هؤلاء الذين ذكروا في آيات الموارث يأخذون أنصبتهم دون غيرهم من الذين كان النبي ﷺ آخى بينهم، أي: أن النبي ﷺ كان قد آخى بين المهاجري والأنصاري فكان المهاجري يرث الأنصاري، والأنصاري يرث المهاجري دون ذوي رحمه، فأنزل الله آية الموارث فنسخت آية الموارث التوارث بالتأخي^(١) الذي كان بين المهاجري والأنصاري.

قالوا: فعليه إذا مات المهاجري فالذين يرثونه هم من ذكرهم الله في كتابه الكريم: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلَّذِ كَرِمَتُ لَكَ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَّ...﴾ إلى غير ذلك من آيات الموارث فيعطى كل من له نصيب نصيبه، والباقي يرجع لبيت مال المسلمين. وقال آخرون من أهل العلم: إن المراد بذوي الأرحام العصباء خاصة، والمراد قرابة الأب دون قرابة الأم.

قلت: وليعلم أن النبي ﷺ قال: «الْحَقُّوا الْفَرَائِضَ بِأَهْلِهَا فَمَا بَقِيَ فَهُوَ لِأَوْلَىٰ رَجُلٍ ذَكَرَ».

وقال فريق ثالث من أهل العلم: إن الآية على عمومها فأوجبوا الميراث لذوي الأرحام إذا لم يوجد وارث بفرض أو تعصيب. وهناك بعض الاختلافات الأخرى في كيفية توريثهم.

قال الشنقيطي في أضواء البيان:

قوله تعالى: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾. لم يعين تعالى في هذه الآية الكريمة المراد بأولي الأرحام. واختلف العلماء في هذه الآية، هل جاء في القرآن ما يبين المراد منها أو لا. فذهب جماعة من أهل العلم

(١) أي: ما يختص بالتأخي بين المهاجري والأنصاري من الميراث.

إلى أنها بيئتها آيات المواريث. كما قدمنا نظيره في قوله: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ﴾ [النساء: ٧].

قالوا: فلا إرث لأحد من أولي الأرحام غير من عينت لهم حقوقهم في آيات المواريث. وممن قال بهذا زيد بن ثابت، ومالك، والشافعي، والأوزاعي، وأبو ثور، وداود، وابن جرير وغيرهم. وقالوا: الباقي عن نصيب الورثة المنصوص على إرثهم لبيت مال المسلمين، واستدلوا بقوله ﷺ «إن الله قد أعطى كل ذي حق حقه، فلا وصية لوارث».

وخرج الشنقيطي رحمه الله هذا الحديث ثم قال:

وقد قال بعض أهل هذا القول: المراد بذوي الأرحام العصبية خاصة، قالوا: ومنه قول العرب وصلتك رحم، يعنون قرابة الأب دون قرابة الأم، ومنه قول قتيلة بنت الحارث، أو بنت النضر بن الحارث:

ظلت سيوف بني أبيه تنوشه لله أرحام هناك تشقق

فأطلقت الأرحام على قرابة بني أبيه، والأظهر على القول بعدم التوريث، أن المراد بذوي الأرحام القرباء، الذين بينت حقوقهم بالنص مطلقاً.

وأورد بعض الأحاديث الضعيفة ثم قال:

وقال جماعة من أهل العلم: لا بيان للآية من القرآن، بل هي باقية على عمومها، فأوجبوا الميراث لذوي الأرحام.

وضابطهم: أنهم الأقارب الذين لا فرض لهم ولا تعصيب.

وهم أحد عشر حيزاً:

- ١- أولاد البنات.
- ٢- وأولاد الأخوات.
- ٣- وبنات الإخوة.
- ٤- وأولاد الأخوة من الأم.
- ٥- والعمات من جميع الجهات.
- ٦- والعم من الأم.
- ٧- والأخوال.
- ٨- والخالات.
- ٩- وبنات الأعمام.
- ١٠- والجدة أبو الأم.
- ١١- وكل جدة أدلت بأب بين أمين، أو بأب أعلى من الجد.

فهؤلاء، ومن أدلى بهم يسمون ذوي الأرحام.
وممن قال بتوريثهم. إذا لم يوجد وارث بفرض أو تعصيب - إلا الزوج والزوجة - الإمام أحمد.

قلت: وذكره الشنقيطي عن عددٍ من أهل العلم وأورد له بعض الاستدلالات.

وقال القرطبي رَحِمَهُ اللهُ:

قوله تعالى: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ﴾ ابتداء. والواحد ذو، والرحم مؤنثة، والجمع أرحام. والمراد بها ههنا العصبات دون المولود بالرحم. ومما يبين أن المراد بالرحم العصبات قول العرب: وصلتك رحم. لا يريدون قرابة الأم.

ثم قال القرطبي رَحِمَهُ اللهُ:

واختلف السلف ومن بعدهم في توريث ذوي الأرحام - وهو من لا سهم له في الكتاب - من قرابة الميت وليس بعصبة، كأولاد البنات، وأولاد الأخوات وبنات الأخ، والعمة والخالة، والعم أخ الأب للأم، والجد أبي الأم، والجدة أم الأم، ومن أدلى بهم. فقال قوم: لا يرث من لا فرض له من ذوي الأرحام. وأورد القرطبي أقوالاً آخر.

قلت: ومحل بسط الخلاف في هذه المسألة أبواب الفقه والفرائض وبالله التوفيق، أما عن تفسير الآية إجمالاً فانظر السؤال الآتي والإجابة عليه.

س: وضح المعنى الإجمالي لقوله تعالى: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾
إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧٥﴾؟

ج: المعنى - والله تعالى أعلم - وأولوا الأرحام الذين قد بُيِّنَتْ أنصبتهم في كتاب الله ﷻ وفي سنة رسول الله ﷺ وقامت على توريثه الأدلة، هؤلاء أولى بالميراث من المهاجرين والأنصار، بمعنى أن ورثة المهاجري المذكورون في الكتاب والسنة والذين قامت الأدلة على توريثهم أولى بالميراث من الأنصاري الذي كان يرث المهاجري بالمؤاخاة التي آخى بينهم رسول الله ﷺ، وكذا ورثة الأنصاري أولى به من المهاجري، فعليه فنسخ التوارث الذي كان بين المهاجري والأنصاري وبقي التناصر، وبقي التوادد.

أما قوله تعالى: ﴿فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ فقليل في معناه: في حكم الله، وقيل: في اللوح المحفوظ، الذي عند الله، وقيل: بل في القرآن، إذ قد بين الله نصيب كلٍّ، أما قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ نعم عليمٌ ربي بكل شيء، وبالذي ينفع عباده ولذا شرع لهم ما شرع من الأحكام والمواريث التي تنفعهم فلا اعتراض على ما شرع فهو يعلم من خلق ويشرع لهم ما يريد، والله أعلم.

وينحو هذا قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: والمتناسبون بالأرحام، ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾، في الميراث، إذا كانوا ممن قسم الله له منه نصيباً وحظاً، من الحليف والولي، ﴿فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾، يقول: في حكم الله الذي كتبه في اللوح المحفوظ والسابق من القضاء، ﴿إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾، يقول: إن الله عالم بما يصلح عباده، في توريثه بعضهم من بعض في القرابة والنسب، دون الحلف بالعقد، وبغير ذلك من الأمور كلها، لا يخفى عليه شيء منها.

وقال السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ (تيسير الكريم الرحمن):

وكذلك من جاء بعد هؤلاء المهاجرين والأنصار، ممن اتبعهم بإحسان فآمن وهاجر وجاهد في سبيل الله. ﴿فَأُولَٰئِكَ مِنْكُمْ﴾ لهم ما لكم وعليهم ما عليكم .
فهذه الموالاة الإيمانية - وقد كانت في أول الإسلام - لها وقع كبير وشأن عظيم، حتى إن النبي ﷺ آخى بين المهاجرين والأنصار أخوة خاصة، غير الأخوة الإيمانية العامة، وحتى كانوا يتوارثون بها، فأنزل الله ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ فلا يرثه إلا أقاربه من العصبات وأصحاب الفروض، فإن لم يكونوا، فأقرب قراباته من ذوي الأرحام، كما دل عليه عموم هذه الآية الكريمة، وقوله: ﴿فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ أي: في حكمه وشرعه.

﴿إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ ومنه ما يعلمه من أحوالكم التي يجري من شرائعها الدينية عليكم ما يناسبها.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

وأما قوله تعالى: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ أي: في حكم الله، وليس

المراد بقوله: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ﴾ خصوصية ما يطلقه علماء الفرائض على القرابة، الذين لا فرض لهم ولا هم عصبه، بل يُدْلون بوارث، كالخالة، والخال، والعمة، وأولاد البنات، وأولاد الأخوات، ونحوهم، كما قد يزعمه بعضهم ويحتج بالآية، ويعتقد ذلك صريحا في المسألة، بل الحق أن الآية عامة تشمل جميع القربات. كما نص عليه ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، والحسن، وقتادة وغير واحد: على أنها ناسخة للإرث بالحلف والإخاء اللذين كانوا يتوارثون بهما أولا وعلى هذا فتشمل ذوي الأرحام بالاسم الخاص. ومن لم يورثهم يحتج بأدلة من أقواها حديث: «إن الله قد أعطى كل ذي حق حقه، فلا وصية لوارث»، قالوا: فلو كان ذا حق لكان له فرض في كتاب الله مسمى، فلما لم يكن كذلك لم يكن وارثا، والله أعلم.

وقال ابن الجوزي في زاد المسير:

قوله تعالى: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾ أي في الموارث بالهجرة. قال ابن عباس: أخى النبي ﷺ بين أصحابه وكانوا يتوارثون بذلك الإخاء حتى نزلت هذه الآية فتوارثوا بالنسب.

قوله تعالى ﴿فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ فيه ثلاثة أقوال:

أحدها: أنه اللوح المحفوظ.

والثاني: أنه القرآن وقد بين لهم قسمة الميراث في سورة النساء.

والثالث: أنه حكم الله ذكره الزجاج.

تفسير سورة التوبة

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:

(بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١﴾ فَيَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُحْزِي الْكَافِرِينَ ﴿٢﴾ وَأَذْنٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣﴾ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْفُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾ فَإِذَا أَنْسَلَخَ الْأَشْهُرَ الْحُرُمَ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَأَحْصُرُوهُمْ وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ ابْلِغْهُ مَا مَنَّهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ ❦

[التوبة: ١-٦].

س: وضع معنى ما يلي:

﴿بَرَاءَةٌ - عَهْدُكُمْ - فَيَسِيحُوا - غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ - مُخْزِي الْكَافِرِينَ - وَأَذَانٌ - يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ - بَرِيءٌ - ثُبُثُمْ - تَوَلَّيْتُمْ - يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا - أَسْلَخَ - الْأَشْهُرَ الْحُرُمَ - وَأَخْصَرُوهُمْ - كُلَّ مَرَصِدٍ - فَخَلَّوْا سَبِيلَهُمْ - أَسْتَجَارَكَ - أَيْلَغَهُ مَا مِنْهُ﴾.

ج:

الكلمة	معناها
(بَرَاءَةٌ) ﴿	تبرؤ من العهود والمواثيق السابقة - تبرؤ مما سيحدث لهم.
(عَهْدُكُمْ) ﴿	كانت بينكم وبينهم عهود ومواثيق.
(فَيَسِيحُوا) ﴿	سيروا آمنين مطمئنين مقبلين ومدبرين.
(غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ) ﴿	غير فائتين من الله وعقابه - لن تعجزوا ربكم.
(مُخْزِي الْكَافِرِينَ) ﴿	مذل ومهين.
() وَأَذَانٌ ﴿	إعلام وإخبار.
(يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ) ﴿	يوم النحر، وقيل: يوم عرفة.
(بَرِيءٌ) ﴿	متبرؤ.
(ثُبُثُمْ) ﴿	رجعتم عن الشرك إلى الإسلام والتوحيد.
(تَوَلَّيْتُمْ) ﴿	أعرضتم عن الإيمان.
(يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا) ﴿	يعاونوا عليكم أحداً.
(أَسْلَخَ) ﴿	مضت - انقضت - انتهت.

٧	سُورَةُ النَّازِعَاتِ	النَّزِيلُ لِأَوَّلِ النَّزِيلِ
قيل: إنها الأشهر الحرم الأربعة (ذو القعدة وذو الحجة وشهر الله المحرم ورجب) ولكن انسلاخها يكون بانتهاء شهر الله المحرم وقيل: إنها أشهر الأمان التي قال الله فيها لأهل الشرك ﴿فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ أي: من بداية التأذين ببراءة يوم النحر ولمدة أربعة أشهر.	﴿الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ﴾	
كل مكان ترصدونهم وترقبونهم فيه.	﴿كُلَّ مَرَصِدٍ﴾	
فاتركوهم ولا تعترضوهم بسوء.	﴿فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾	
طلب منك أن تجعله في جوارك. استأمنك على نفسه طلب منك الأمان كي يسمع القرآن ويتعرف على ما فيه.	﴿اسْتَجَارَكَ﴾	
وصّله إلى المكان الذي يأمن فيه على نفسه.	﴿أَبْلَغَهُ مَأْمَنَهُ﴾	

بعض أسماء سورة براءة

س: اذكر بعض أسماء هذه السورة المباركة؟

ج: من أشهر أسمائها، التوبة، وبراءة وهذا كثيرًا ما يحدث في عددٍ من السور تسمى السورة باسم، وتسمى أيضًا بمطلعها كسورة السجدة، ويطلق عليها آلم تنزيل، وسورة البينة ويطلق عليها لم يكن، وسورة النبأ، ويطلق عليها (عم) إلى غير ذلك. ثم إن العلماء ذكروا لهذه السورة أسماءً أخرى.

قال ابن الجوزي في زاد المسير:

ولها تسعة أسماء: أحدها: سورة التوبة. والثاني: براءة وهذان مشهوران بين الناس. والثالث: سورة العذاب. قاله حذيفة. والرابع: المقشقة. قاله ابن عمر. والخامس: سورة البحوث؛ لأنها بحثت عن سرائر المنافقين. قاله المقداد بن الأسود. والسادس: الفاضحة؛ لأنها فضحت المنافقين. قاله ابن عباس. والسابع: المبعثرة؛ لأنها بعثت أخبار الناس وكشفت عن سرائرهم. قاله الحاث بن يزيد وابن إسحاق. والثامن: المثيرة؛ لأنها أثارت مخازي المنافقين ومثالبهم. قاله قتادة. والتاسع: الحافرة؛ لأنها حفرت عن قلوب المنافقين. قاله الزجاج.

ا س: لماذا لم تثبت البسملة (بسم الله الرحمن الرحيم) في أول هذه السورة كما أثبتت في غيرها؟

ج: لأهل العلم في ذلك أقوال:**أحدها:** أن جبريل عليه السلام لم ينزل بها في هذه السورة.

قال القرطبي رحمته الله بعد أن أورد وجوهاً... والصحيح أن التسمية لم تكتب؛ لأن جبريل عليه السلام ما نزل بها في هذه السورة.

الثاني: وهو راجع في معناه إلى الأول في الجملة أن قصتها شبيهة بقصة سورة الأنفال فاختلفوا هل هما سورة واحدة أم سورتان فميزوا بينهما لقول من قال إنهما سورتان، وحذفوا البسملة لقول من قال إنهما سورة واحدة.

وقد ورد بهذا حديث أخرجه الترمذي وغيره^(١) في سنده ضعف من طريق يزيد الفارسي، أخبرني ابن عباس قال: قلت لعثمان بن عفان: ما حملكم أن عمدتم إلى الأنفال، وهي من المثاني، وإلى براءة وهي من المثني، فقرنتم بينهما، ولم تكتبوا بينهما سطر ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ ووضعتموها في السبع الطَّوْل، ما حملكم على ذلك؟ فقال عثمان: كان رسول الله ﷺ مما يأتي عليه الزمان وهو يُنزل عليه السور ذوات العدد، فكان إذا نزل عليه شيء دعا بعض من كان يكتب، فيقول: ضعوا هذه الآيات في السورة التي يُذكر فيها كذا وكذا، فإذا نزلت عليه الآية فيقول: ضعوا هذه في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا، وكانت الأنفال من أول ما نزل بالمدينة، وكانت براءة من آخر ما نزل من القرآن، وكانت قصتها شبيهة بقصتها وحسبت أنها منها، وقبض رسول الله ﷺ ولم يبين لنا أنها منها، فمن أجل ذلك قرنت بينهما، ولم أكتب بينهما سطر ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ فوضعتهما في السبع الطول.

القول الثالث: (من أسباب سقوط البسملة):

أن العرب كان من شأنهم في الجاهلية أنهم إذا كان بينهم وبين قوم عهد فإذا أرادوا نقضه كتبوا إليهم كتاباً ولم يكتبوا فيه بسملة، فلما نزلت سورة براءة بنقض العهد الذي كان بين النبي والمشركين بعث بها النبي ﷺ علي بن أبي طالب رضي الله عنه فقرأها عليهم في الموسم ولم ييسمل في ذلك على ما جرت به عادتهم في نقض العهد من ترك البسملة.

القول الرابع: أن البسملة سقطت لما في السورة من تهديد ووعد وبيان لفضائح أهل الشرك ومخازيهم^(٢).

الخامس: أن أول سورة براءة نسخ تلاوة فنسخت معه البسملة.

السادس: لكون أهل الشرك ردوا البسملة في صلح الحديبية، فلم تكرر هاهنا.

(١) الترمذي (٣٠٨٦)، وأحمد (٥٧/١)، وأبو داود (٧٨٦)... وغيرهم، ويزيد الفارسي ضعيف.

(٢) نقل ابن الجوزي في زاد المسير عن محمد ابن الحنفية قال: قلت لأبي: لِمَ كَمْ تكتبوا في براءة «بسم الله الرحمن الرحيم»، فقال: يا بني إن براءة نزلت بالسيف وإن «بسم الله الرحمن الرحيم» أمان. وسئل سفيان بن عيينة عن هذا فقال: لأن التسمية رحمة، والرحمة أمان، وهذه السورة نزلت في المنافقين.

وهناك أقوال آخر في هذا الصدد.

إبراء آخر ما نزل من القرآن

س: هل ورد أن سورة براءة آخر ما نزل من السور؟

ج: نعم قد ورد ما يفيد ذلك أخرج البخاري في صحيحه^(١) بسنده إلى أبي إسحاق؛ قال: سمعت البراء يقول: آخر آية نزلت: ﴿يَسْتَغْفِرُكَ قُلُوبُ اللَّهِ يُفَتِّحُكُمْ فِي الْكَلْبَةِ﴾، وآخر سورة نزلت براءة.

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.

ج: المعنى - والله أعلم - : هذه براءة من الله ورسوله، أي: تبرؤ من العهود التي عاهد رسول الله ﷺ المشركين عليها، فهي إخبار بأن العهود التي عاهد رسول الله ﷺ عليها أهل الشرك منقوضة.

وقوله: ﴿إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ﴾ المراد: الذين عاهدهم رسول الله ﷺ؛ لأن النبي ﷺ هو الذي كان يُبرم العقود والعهود مع أهل الشرك. والله أعلم.

قال الطبري رحمه الله:

يعني بقوله جل ثناؤه: ﴿بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾، هذه براءة من الله ورسوله.

ف«براءة»، مرفوعة بمحذوف، وهو «هذه»، كما قوله: ﴿سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا﴾، [النور: ١]، مرفوعة بمحذوف هو «هذه».

وأورد قولاً آخر ثم علل اختياره الذي ذكره بقوله:

لأن من شأن العرب أن يضمروا لكل معاين نكرة كان أو معرفة ذلك المعاين، «هذا» و«هذه»، فيقولون عند معايتهم الشيء الحسن: «حسن والله»، والقبيح: «قبيح والله»، يريدون: هذا حسن والله، وهذا قبيح والله، فلذلك اخترت القول الأول.

وقال: ﴿بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ﴾، والمعنى: إلى الذين عاهد رسول الله ﷺ من المشركين، لأن العهود بين المسلمين والمشركين عهد رسول الله ﷺ، لم يكن يتولى عقدها إلا رسول الله ﷺ أو من يعقدها بأمره، ولكنه خاطب المؤمنين بذلك لعلمهم بمعناه، وأن عقود النبي ﷺ على أمته كانت عقودهم، لأنهم كانوا لكل

(١) البخاري (٤٦٥٤، ٤٣٦٤)، ومسلم (١٦١٨).

أفعاله فيهم راضين، ولعقوده عليهم مسلمين، فصار عقده عليهم كعقودهم على أنفسهم، فلذلك قال: ﴿إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾، لما كان من عقد رسول الله ﷺ وعهده.

وقال القرطبي رحمه الله:

قوله تعالى: ﴿إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ يعني إلى الذين عاهدهم رسول الله ﷺ؛ لأنه كان المتولي للعقود وأصحابه بذلك كلهم راضون فكأنهم عاهدوا وعاهدوا فنسب العقد إليهم. وكذلك ما عقده أئمة الكفر على قومهم منسوب إليهم محسوب عليهم يؤخذون به إذ لا يمكن غير ذلك فإن تحصيل الرضا من الجميع متعذر فإذا عقد الإمام لما يراه من المصلحة أمراً لزم جميع الرعايا.

وقال السعدي رحمه الله:

أي: هذه براءة من الله ومن رسوله إلى جميع المشركين المعاهدين، أن لهم أربعة أشهر يسيحون في الأرض على اختيارهم، آمنين من المؤمنين، وبعد الأربعة الأشهر فلا عهد لهم، ولا ميثاق. وهذا لمن كان له عهد مطلق غير مقدر، أو مقدر بأربعة أشهر فأقل، أما من كان له عهد مقدر بزيادة على أربعة أشهر، فإنه يتعين أن يتم له عهده إذا لم يخف منه خيانة، ولم يبدأ بنقض العهد.

قال ابن الجوزي في زاد المسير:

قال المفسرون والبراءة هاهنا قطع الموالاة، وارتفاع العصمة وزوال الأمان والخطاب في قوله: ﴿إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ﴾ لأصحاب رسول الله ﷺ والمراد رسول الله ﷺ؛ لأنه هو الذي كان يتولى المعاهدة وأصحابه راضون فكأنهم بالرضا عاهدوا أيضاً وهذا عام في كل من عاهد رسول الله ﷺ.

س: وضع ما قد يبدو للبعض أن به تعارض أو أن بينه اختلاف، وذلك من قوله

تعالى: ﴿فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتُوا إِلَيْهِمْ عَاهِدٌ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾.

فالأولى أمد المشركين فيها أربعة أشهر.

والثانية: أنه يتم إليهم العهد إلى مدته.

والثالثة: أمدها انقضاء الأشهر الحرم فكيف التوفيق؟

ج: للإجابة على هذا وإيضاحه أقول مستعيناً بالله ﷻ:

إن أهل الشرك كانوا من رسول الله ﷺ على أقسام:

❖ قسم منهم عاهده النبي ﷺ عهداً توفي للنبي ﷺ بهذه العهود ولم يغدر ولم تظهر منه بوادر الخيانة ولا الغدر، ولم يعاون أحداً على رسول الله ﷺ، فهذا القسم يفي لهم رسول الله ﷺ بعهدهم وإن كان أمد العهد طويلاً، وهؤلاء - والله أعلم - هم الذين عناهم الله بقوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئاً وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَداً فَأَتِمُوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مَدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾
فأمر النبي ﷺ أن يتم لهم عهدهم إلى مدتهم.

❖❖❖ وقسم ثان لم يعاهده النبي ﷺ أية عهود ولم يعقد معه أية عقود ولم يلتزم لهم بأية التزامات، فهؤلاء أُجِّلوا إلى انقضاء الأشهر الحرم التي نهايتها انتهاء شهر الله المحرم.

قال بعض العلماء: وهم الذين عناهم الله بقوله: ﴿فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَأَحْضُرُوهُمْ وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ إِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

❖❖❖ وقسم ثالث عاهدهم النبي ﷺ عهداً لكن أمدها أقل من أربعة أشهر أي: إن وقت الهدنة ينتهي قبل أربعة أشهر فهؤلاء وقت انقضاء العهد معهم فيه قولان:

أحدهما: أن وقت انقضاء عهدهم هو المنصوص عليه في الاتفاقيات، إلا إذا كان الانقضاء في الأشهر الحرم فينتظر بهم إلى انقضاء الأشهر الحرم.

والثاني: أن وقت انقضاء عهدهم يمتد إلى أربعة أشهر؛ لقوله تعالى: ﴿فَيَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾.

❖❖❖ أما القسم الرابع من أقسام المشركين فهم قوم من أهل الشرك كان

بينهم وبين رسول الله ﷺ معاهدات أمدها ينتهي بعد أربعة أشهر، ولكنهم ظهرت منهم بوادر الخيانة والغدر وظاهروا (أي عاونوا) المشركين على رسول الله ﷺ وسعوا في نقض العهد فهؤلاء يُمهّلوا أربعة أشهر كحد أقصى وبعد ذلك يقاتلوا. ولعل هؤلاء يدخلون في المشار إليهم بقوله تعالى في سورة الأنفال، وإما تخافن لله قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء إن الله لا يحب الخائنين. هذا الذي يترأى لي في هذه الآيات الكريمات المباركات، والله أعلم بالصواب من تأويل كتابه العزيز.

وها هي أقوال بعض أهل العلم في ذلك.

قال الطبري رحمه الله:

وقد اختلف أهل التأويل فيمن برى الله ورسوله إليه من العهد الذي كان بينه وبين رسول الله من المشركين، فأذن له في السياحة في الأرض أربعة أشهر. فقال بعضهم: هم صنفان من المشركين: أحدهما كانت مدة العهد بينه وبين رسول الله ﷺ أقل من أربعة أشهر، وأمهّل بالسياحة أربعة أشهر، والآخر منهما: كانت مدة عهده بغير أجل محدود، فقصر به على أربعة أشهر ليرتاد لنفسه، ثم هو حرب بعد ذلك لله ولرسوله وللمؤمنين، يقتل حيثما أدرك ويؤسر، إلا أن يتوب. **وقال آخرون:** بل كان إمهال الله ﷺ بسياحة أربعة أشهر، من كان من المشركين بينه وبين رسول الله ﷺ عهد، فأما من لم يكن له من رسول الله عهد، وإنما كان أجله خمسين ليلة، وذلك عشرون من ذي الحجة والمحرم كله. قالوا: وإنما كان ذلك كذلك؛ لأن أجل الذين لا عهد لهم كان إلى انسلاخ الأشهر الحرم، كما قال الله: ﴿فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾، الآية **[التوبة: ٥]**. قالوا: والنداء ببراءة، كان يوم الحج الأكبر، وذلك يوم النحر في قول قوم، وفي قول آخرين يوم عرفة، وذلك خمسون يومًا. قالوا: وأما تأجيل الأشهر الأربعة، وإنما كان لأهل العهد بينهم وبين رسول الله ﷺ من يوم نزلت «براءة». قالوا: ونزلت في أول شوال، فكان انقضاء مدة أجلهم، انسلاخ الأشهر الحرم. وقد كان بعض من يقول هذه المقالة يقول: ابتداء التأجيل كان للفريقين واحدًا - أعني الذي له العهد، والذي لا

عهد له - غير أن أجل الذي كان له عهد كان أربعة أشهر، والذي لا عهد له انسلاخ الأشهر الحرم، وذلك انقضاء المحرم.

وقال آخرون: كان ابتداء تأخير المشركين أربعة أشهر وانقضاء ذلك لجميعهم، وقتاً واحداً. قالوا: وكان ابتداءه يوم الحج الأكبر، وانقضاؤه انقضاء عشر من ربيع الآخر.

وقال آخرون: إنما كان تأجيل الله الأشهر الأربعة المشركين في السياحة، لمن كان بينه وبين رسول الله ﷺ عهد أمته أقل من أربعة أشهر. أما من كان له عهد مدته أكثر من أربعة أشهر، فإنه أمر ﷺ أن يتم له عهده إلى مدته.

وقال آخرون ممن قال: «ابتداء الأجل لجميع المشركين وانقضاؤه كان واحداً». كان ابتداءه يوم نزلت «براءة»، وانقضاء الأشهر الحرم، وذلك انقضاء المحرم. **وأورد الطبري آثاراً لكل قول،** وإن كانت هذه الآثار لا تخلو أسانيداً من مقال.

ثم قال الطبري رحمه الله:

وأولى الأقوال في ذلك بالصواب، قول من قال: الأجل الذي جعله الله لأهل العهد من المشركين، وأذن لهم بالسياحة فيه بقوله: ﴿فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾، إنما هو لأهل العهد الذين ظاهروا على رسول الله ﷺ، ونقضوا عهدهم قبل انقضاء مدته. فأما الذين لم ينقضوا عهدهم ولم يظاهروا عليه، فإن الله جل ثناؤه أمر نبيه ﷺ بإتمام العهد بينه وبينهم إلى مدته بقوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾.

فإن ظنَّ ظانٌّ أن قول الله تعالى ذكره: ﴿فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ [التوبة: ٥]، يدلُّ على خلاف ما قلنا في ذلك، إذ كان ذلك ينبئ على أن الفرض على المؤمنين كان بعد انقضاء الأشهر الحرم، قتل كل مشرك، فإن الأمر في ذلك بخلاف ما ظن، وذلك أن الآية التي تتلو ذلك تبين عن صحة ما قلنا، وفساد ما ظنه من ظنَّ أن انسلاخ الأشهر الحرم كان يبيح قتل كل مشرك، كان له عهد من رسول الله ﷺ أو لم يكن له منه عهد وذلك قوله: ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقْتُمُوا لَكُمْ

فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿١٧﴾ [التوبة: ١٧]، فهو لاء مشركون، وقد أمر الله نبيه ﷺ والمؤمنين بالاستقامة لهم في عهدهم، ما استقاموا لهم بترك نقض صلحهم، وترك مظاهرة عدوهم عليهم.

وبعد، ففي الأخبار المتظاهرة عن رسول الله ﷺ: أنه حين بعث علياً رحمة الله عليه ببراءة إلى أهل العهود بينه وبينهم، أمره فيما أمره أن ينادي به فيهم: «ومن كان بينه وبين رسول الله ﷺ عهد فعهدته إلى مدته»، أوضح الدليل على صحة ما قلنا. وذلك أن الله لم يأمر نبيه ﷺ بنقض عهد قوم كان عاهدتهم إلى أجل فاستقاموا على عهدهم بترك نقضه، وأنه إنما أجل أربعة أشهر من كان قد نقض عهده قبل التأجيل، أو من كان له عهد إلى أجل غير محدود. فأما من كان أجل عهده محدوداً، ولم يجعل بنقضه على نفسه سبيلاً فإن رسول الله ﷺ كان بإتمام عهده إلى غاية أجله مأموراً. وبذلك بعث مناديه ينادي به في أهل الموسم من العرب.

ثم أورد جملة من الأحاديث والآثار الأخر منها الصحيح، ومنها الضعيف ثم قال:

فقد أنبأت هذه الأخبار ونظائرها عن صحة ما قلنا، وأن أجل الأشهر الأربعة إنما كان لمن وصفنا. فأما من كان عهده إلى مدة معلومة، فلم يجعل لرسول الله ﷺ وللمؤمنين لنقضه ومظاهرة أعدائهم عليهم سبيلاً فإن رسول الله ﷺ قد وفى له بعهدته إلى مدته، عن أمر الله إياه بذلك. وعلى ذلك دلّ ظاهر التنزيل، وتظاهرت به الأخبار عن الرسول ﷺ.

وأما الأشهر الأربعة، فإنها كانت أجل من ذكرنا. وكان ابتداءها يوم الحج الأكبر، وانقضاؤها انقضاء عشر من ربيع الآخر، فذلك أربعة أشهر متتابعة، جعل لأهل العهد الذين وصفنا أمرهم، فيها، السياحة في الأرض، يذهبون حيث شاؤوا، لا يعرض لهم فيها من المسلمين أحدٌ بحرب ولا قتل ولا سلب.

فإن قال قائل: فإذا كان الأمر في ذلك كما وصفت، فما وجه قوله: ﴿فَإِذَا أَنْسَلَخَ الْأَشْهُرَ الْحَرَّمَ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾. وقد علمت أن انسلاخها انسلاخ المحرم، وقد زعمت أن تأجيل القوم من الله ومن رسوله كان أربعة أشهر، وإنما بين يوم الحج الأكبر وانسلاخ الأشهر الحرم خمسون يوماً أكثره، فأين الخمسون يوماً

من الأشهر الأربعة؟

قيل: إن انسلاخ الأشهر الحرم، إنما كان أجل من لا عهد له من المشركين من رسول الله ﷺ، والأشهر الأربعة لمن له عهد، إما إلى أجل غير محدود، وإما إلى أجل محدود قد نقضه، فصار بنقضه إياه بمعنى من خيف خيانتته، فاستحق النبذ إليه على سواء، غير أنه جعل له الاستعداد لنفسه والارتداد لها من الأجل الأربعة الأشهر. ألا ترى الله يقول لأصحاب الأشهر الأربعة، ويصفهم بأنهم أهل عهد: ﴿بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ۝١﴾ فَيَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ ۝٢، ووصف المجعول لهم انسلاخ الأشهر الحرم أجلا بأنهم أهل شرك لا أهل عهد فقال: ﴿وَأَذِّنْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ ۝٣﴾ الآية، ﴿إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ۝٤﴾ الآية؟ ثم قال: ﴿فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ ۝٥﴾، فأمر بقتل المشركين الذين لا عهد لهم بعد انسلاخ الأشهر الحرم، وبإتمام عهد الذين لهم عهد. إذا لم يكونوا نقضوا عهدهم بالمظاهرة على المؤمنين، وإدخال النقص فيه عليهم.

فإن قال قائل: وما الدليل على أن ابتداء التأجيل كان يوم الحج الأكبر، دون أن يكون كان من شوال على ما قاله قائلو ذلك؟

قيل له: إن قائلي ذلك زعموا أن التأجيل كان من وقت نزول «براءة»، وذلك غير جائز أن يكون صحيحًا، لأن المجعول له أجل السياحة إلى وقت محدود إذا لم يعلم ما جعل له، ولا سيما مع عهد له قد تقدم قبل ذلك بخلافه، فكمن لم يجعل له ذلك، لأنه إذا لم يعلم ما له في الأجل الذي جعل له وما عليه بعد انقضائه، فهو كهيئته قبل الذي جعل له من الأجل. ومعلوم أن القوم لم يعلموا بما جعل لهم من ذلك إلا حين نودي فيهم بالموسم. وإذا كان ذلك كذلك. صحَّ أن ابتداءه ما قلنا، وانقضاه كان ما وصفنا.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

اختلف المفسرون ها هنا اختلافًا كثيرًا، فقال قائلون: هذه الآية لذوي العهود المطلقة غير المؤقتة، أو من له عهد دون أربعة أشهر، فيكمل له أربعة أشهر، فأما من

كان له عهد مؤقت فأجله إلى مدته، مهما كان؛ لقوله تعالى: ﴿فَاتِمُوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ ﴿٤﴾ ولما سيأتي في الحديث: «ومن كان بينه وبين رسول الله ﷺ عهد فعده إلى مدته». وهذا أحسن الأقوال وأقواها، وقد اختاره ابن جرير، **رحمته الله**، ورؤي عن الكلبي ومحمد بن كعب القرظي، وغير واحد.

قال ابن الجوزي في زاد المسير:

فأما سبب نزولها فقال المفسرون أخذت العرب تنقض عهودا بنتها مع رسول الله ﷺ فأمره الله تعالى بالقاء عهودهم إليهم فأنزل براءة في سنة تسع فبعث رسول الله ﷺ أبا بكر أميرا على الموسم ليقم للناس الحج في تلك السنة وبعث معه صدرا من براءة ليقراها على أهل الموسم فلما سار دعا رسول الله ﷺ عليا فقال: «أخرج بهذه القصة من صدر براءة وأذن في الناس بذلك» فخرج علي على ناقه رسول الله ﷺ العضباء حتى أدرك أبا بكر فرجع أبو بكر فقال يا رسول الله أنزل في شأني شيء قال: «لا ولكن لا يبلغ عني إلا رجل مني أما ترضى أنك كنت صاحبي في الغار وأنتك صاحبي على الحوض» قال بلى يا رسول الله فسار أبو بكر أميرا على الحج وسار علي ليؤذن بـ«براءة».

وقال الشنقيطي في أضواء البيان مؤيدا قول الطبري...

ويؤيده حديث علي **رضي الله عنه** أن النبي ﷺ، بعثه حين أنزلت «براءة» بأربع: «ألا يطوف بالبيت عريان. ولا يقرب المسجد الحرام مشرك بعد عامهم هذا. ومن كان بينه وبين رسول الله ﷺ عهد فهو إلى مدته. ولا يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة».

س: بداية الأربعة أشهر التي قال الله ﷻ: ﴿فَسَبِّحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ تبدأ من متى؟

ج: تبدأ منذ أن أذن في الناس ببراءة، وذلك يوم الحج الأكبر، وسيأتي بيانه هل هو يوم عرفة أم أنه يوم النحر، وهو شهور هلالية عربية كما هو معلوم.

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿فَسَبِّحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَلِّمُوا أَنْكَرَ غَيْرِ مُعْجِزِ اللَّهِ﴾

وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ ﴿٢﴾﴾؟

ج: المعنى - والله أعلم - فسيروا في الأرض يا أهل الكفر آمنين مطمئنين ذاهبين وآيين لمدة أربعة أشهر لن تعترضوا بسوء ولن تصابوا من نبينا بمكروه واعلموا أنكم

وإن تركناكم هذه المدة وأنتم على كفركم فلن تهربوا من ربكم ولن يعجز عنكم ربكم **عَلَيْكُمْ**، لن تُعجزوه إذا أراد إدراككم، واعلموا أن الله مذلٌّ ومهينٌ لأهل الكفر.

وينحو هذا قال العلماء.

قال الطبري رحمه الله:

وأما قوله: ﴿فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ فإنه يعني: فسيروا فيها مقبلين ومدبرين، آمنين غير خائفين من رسول الله وأتباعه.

يقال منه: «ساح فلان في الأرض يسبح سياحةً، وسُيُوحًا، وسَيَحَانًا».

وأما قوله: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ عَيْرٌ مُعْجِزُ اللَّهِ﴾، فإنه يقول لأهل العهد من الذين كان بينهم وبين رسول الله ﷺ عهدٌ قبل نزول هذه الآية: اعلّموا، أيها المشركون، أنكم إن سحتم في الأرض، واخترتم ذلك مع كفركم بالله. على الإقرار بتوحيد وتصديق رسوله، ﴿عَيْرٌ مُعْجِزُ اللَّهِ﴾، يقول: غير مُفِيتيه بأنفسكم، لأنكم حيث ذهبتم وأين كنتم من الأرض، ففي قبضته وسلطانه، لا يمنعكم منه وزيرٌ، ولا يحول بينكم وبينه إذا أرادكم بعذاب معقلٌ ولا موئل. إلا الإيمان به وبرسوله. والتوبة من معصيته. يقول: فبادروا عقوبته بتوبة، ودعوا السياحة التي لا تنفعكم.

وأما قوله: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ﴾، يقول: واعلموا أن الله مُذلُّ الكافرين، ومُورثهم العارَ في الدنيا، والنارَ في الآخرة.

وقال القرطبي رحمه الله:

قوله تعالى: ﴿فَسِيحُوا﴾ رجع من الخبر إلى الخطاب أي قل لهم سيحوا أي سيروا في الأرض مقبلين ومدبرين آمنين غير خائفين أحدا من المسلمين بحرب ولا سلب ولا قتل ولا أسر. يقال ساح فلان في الأرض يسبح سياحةً وسيوحا وسيحانا ومنه السيح في الماء الجاري المنبسط ومنه قول طرفة بن العبد:

لو خفت هذا منك ما نلتني حتى ترى خيلا أمامي تسيح

المراد بيوم الحج الأكبر

س: ما المراد بيوم الحج الأكبر؟

ج: ذهب كثيرون من أهل العلم إلى أن يوم الحج الأكبر هو يوم النحر، وهو يوم العاشر من ذي الحجة، ومن أهل العلم من قال: إنه يوم عرفة، وهذان أقوى الأقوال في الباب وإن كانت هنالك أقوال آخر لا وجه لها ولم يقل بها كبير قائل. أما حجج القائلين بأنها يوم النحر فمنها.

ما أخرجه البخاري^(١) من حديث أبي هريرة قال: بَعَثَنِي أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي تِلْكَ الْحَجَّةِ فِي الْمُؤَذِّنِينَ الَّذِينَ بَعَثَهُمْ يَوْمَ النَّحْرِ يُؤَذِّنُونَ بِمَنَى أَنْ لَا يَحُجَّ بَعْدَ الْعَامِ مُشْرِكٌ، وَلَا يَطُوفَ بِالْبَيْتِ عُرْيَانٌ، قَالَ حُمَيْدٌ: ثُمَّ أَرَدَفَ النَّبِيُّ ﷺ بِعَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ فَأَمَرَهُ أَنْ يُؤَذِّنَ بِبَرَاءَةٍ. قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: فَأَذَّنَ مَعَنَا عَلِيٌّ فِي أَهْلِ مَنَى يَوْمَ النَّحْرِ بِبَرَاءَةٍ وَأَنْ لَا يَحُجَّ بَعْدَ هَذَا الْعَامِ مُشْرِكٌ وَلَا يَطُوفَ بِالْبَيْتِ عُرْيَانٌ.

وفي رواية أخرى عند البخاري^(٢) من حديث أبي هريرة أيضًا قال: بَعَثَنِي أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِيمَنْ يُؤَذِّنُ يَوْمَ النَّحْرِ بِمَنَى: لَا يَحُجُّ بَعْدَ الْعَامِ مُشْرِكٌ، وَلَا يَطُوفُ بِالْبَيْتِ عُرْيَانٌ. وأورد الطبري آثارًا أخرى كثيرة جدًا في الباب للقائلين بأنه يوم النحر وللقائلين بأنه يوم عرفة.

قال الطبري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

حدثنا محمد بن عبد الله بن عبد الحكم قال، أخبرنا أبو زرعة وهب الله بن راشد قال، أخبرنا حيوة بن شريح قال، أخبرنا أبو صخر: أنه سمع أبا معاوية البجلي من أهل الكوفة يقول: سمعت أبا الصهباء البكري وهو يقول: سألت علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن «يوم الحج الأكبر» فقال: إن رسول الله ﷺ بعث أبا بكر بن أبي قحافة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقيم للناس الحج، وبعثني معه بأربعين آية من براءة، حتى أتى عرفة فخطب الناس يوم عرفة، فلما قضى خطبته التفت إلي، فقال: قم يا علي وأد رسالة رسول الله ﷺ؛ فقامت فقرأت عليهم أربعين آية من «براءة»، ثم صدرنا، حتى أتينا مَنَى، فرميت

(١) البخاري (٤٦٥٥).

(٢) البخاري (٣١٧٧).

الجمرة ونحرتُ البدنة، ثم حلقت رأسي، وعلمت أن أهل الجمع لم يكونوا حضروا خطبة أبي بكر يوم عرفة، فطفقت أتبع بها الفساطيط أقرؤها عليهم. فمن ثم إخال حسبت أنه يوم النحر، ألا وهو يوم عرفة.

وهذا يمكن أن يجمع به بين الأقوال لكن إن سلم سنده.

وأخرج الإمام أحمد^(١) بسند صحيح عن الشعبي عن مُحَرَّرِ بْنِ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: كُنْتُ مَعَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ حِينَ بَعَثَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى أَهْلِ مَكَّةَ بِرَاءَةً. فَقَالَ: مَا كُنْتُمْ تُنَادُونَ؟ قَالَ: كُنَّا نُنَادِي أَنَّهُ لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ إِلَّا مُؤْمِنٌ، وَلَا يَطُوفُ بِالْبَيْتِ عُرْيَانٌ، وَمَنْ كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَهْدٌ فَإِنْ أَجَلَهُ أَوْ أَمَدَهُ إِلَى أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ، فَإِذَا مَضَتْ الْأَرْبَعَةُ الْأَشْهُرُ فَإِنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ، وَلَا يَحُجُّ هَذَا الْبَيْتَ بَعْدَ الْعَامِ مُشْرِكٌ، قَالَ: فَكُنْتُ أُنَادِي حَتَّى صَحَلَ صَوْتِي.

وقال الشعبي: حدثني مُحَرَّرُ بْنُ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنْ أَبِيهِ قَالَ: كُنْتُ مَعَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، حِينَ بَعَثَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَنَادِي، فَكَانَ إِذَا صَحَلَ نَادِيْتُ. قُلْتُ: بِأَيِّ شَيْءٍ كُنْتُمْ تُنَادُونَ؟ قَالَ: بِأَرْبَعٍ: لَا يَطُوفُ بِالْكَعْبَةِ عُرْيَانٌ، وَمَنْ كَانَ لَهُ عَهْدٌ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَعَهْدُهُ إِلَى مَدَّتِهِ، وَلَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ إِلَّا نَفْسٌ مُؤْمِنَةٌ، وَلَا يَحُجُّ بَعْدَ عَامِنَا مُشْرِكٌ.

قال الطبري: وأخشى أن يكون وهماً من بعض نقلته؛ لأن الأخبار المتظاهرة في الأجل بخلافه.

وأخرج الإمام أحمد^(٢) بسند صحيح عن سَمَاكِ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بَعَثَ بِرَاءَةً مَعَ أَبِي بَكْرٍ، فَلَمَّا بَلَغَ ذَا الْحُلَيْفَةِ قَالَ: «لَا يُبْلَغُهَا إِلَّا أَنَا أَوْ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ بَيْتِي» فَبَعَثَ بِهَا مَعَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وعلى كل فأكثر الأقوال على أن يوم الحج الأكبر هو يوم النحر، وهذا اختيار الطبري وابن كثير وغيرهما.

قال الطبري رحمه الله:

وأولى الأقوال في ذلك عندنا بالصحة، قول من قال: «يوم الحج الأكبر، يوم

(١) أحمد (٢/ ٢٩٩).

(٢) أحمد (٣/ ٢٨٣)، ولكن هناك وجوه أخر عن سماك. وأخشى أن يكون اختلافاً على سماك.

النحر»، لنظاير الأخبار عن جماعة من أصحاب رسول الله ﷺ أن علياً نادى بما أرسله به رسول الله ﷺ من الرسالة إلى المشركين، وتلا عليهم «براءة»، يوم النحر. هذا، مع الأخبار التي ذكرناها عن رسول الله ﷺ أنه قال يوم النحر: «أتدرون أي يوم هذا؟ هذا يوم الحج الأكبر».

وبعد، فإن «اليوم» إنما يضاف إلى المعنى بالذي يكون فيه، كقول الناس: «يوم عرفة»، وذلك يوم وقوف الناس بعرفة، و«يوم الأضحى»، وذلك يوم يضحون فيه، «ويوم الفطر»، وذلك يوم يفطرون فيه. وكذلك «يوم الحج»، يوم يحجون فيه، وإنما يحج الناس ويقضون مناسكهم يوم النحر، لأن في ليلة نهار يوم النحر الوقوف بعرفة غير فائت إلى طلوع الفجر، وفي صبيحتها يعمل أعمال الحج. فأما يوم عرفة، فإنه وإن كان فيه الوقوف بعرفة، فغير فائت الوقوف به إلى طلوع الفجر من ليلة النحر، والحج كله يوم النحر.

وأما ما قال مجاهد: من أن «يوم الحج»، إنما هو أيامه كلها، فإن ذلك وإن كان جائزاً في كلام العرب، فليس بالأشهر الأعراف في كلام العرب من معانيه، بل أغلب على معنى «اليوم» عندهم أنه من غروب الشمس إلى مثله من الغد. وإنما محمل تأويل كتاب الله على الأشهر الأعراف من كلام من نزل الكتاب بلسانه.

اس: وضح معنى الآية الكريمة: ﴿وَأَذِّنْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ عِزٌّ مُعْجِزٌ لِلَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾.

ج: المعنى - والله تعالى أعلم -: وإعلام وإخبار من الله ﷻ ورسوله ﷺ بأمر ربه إلى الناس يوم الحج الأكبر - الذي هو يوم النحر على رأي الأكثرين - أن الله ﷻ بريء من أهل الشرك، وكذا رسوله ﷺ بريء من العهود التي كانت بينه وبين أهل الشرك، ولا يوصف رسوله بغدر فقد نبذ إليهم العهود والمواثيق من الآن ولأمدٍ محدّدٍ حتى تكونوا أنتم وهم على علم بأن بعضكم حربٌ لبعض. أما قوله تعالى: ﴿فَإِنْ تُبْتُمْ﴾ من شرككم ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ من بقائكم على الكفر والشرك ﴿وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ﴾ أعرضتم عن الإيمان ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ عِزٌّ مُعْجِزٌ لِلَّهِ﴾

لن تفوتوا ربكم، ولن يعجز عن إدراككم، ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ بعذاب مؤلم موجه وهذه أقوال بعض أهل العلم في ذلك.

قال الطبري رحمه الله:

وأما قوله: ﴿أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ﴾، فإن معناه: أن الله بريء من عهد المشركين ورسوله، بعد هذه الحجة.

ومعنى الكلام: وإعلام من الله ورسوله إلى الناس في يوم الحج الأكبر: أن الله ورسوله من عهد المشركين بريئان.

وقال في تأويل قوله: ﴿فَإِنْ تَبُتُّمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ عِزٌّ مُّعْجِزٌ لِلَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (٣٠).

يقول تعالى ذكره: ﴿فَإِنْ تَبُتُّمْ﴾، من كفرتم، أيها المشركون، ورجعتم إلى توحيد الله وإخلاص العبادة له - دون الآلهة والأنداد - فالرجوع إلى ذلك ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾، من الإقامة على الشرك في الدنيا والآخرة، ﴿وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ﴾، يقول: وإن أدبرتم عن الإيمان بالله وأبيتم إلا الإقامة على شرككم، ﴿فَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ عِزٌّ مُّعْجِزٌ لِلَّهِ﴾، يقول: فأيقنوا أنكم لا تفتنون الله بأنفسكم من أن يحل بكم عذابه الأليم وعقابه الشديد، على إقامتكم على الكفر، كما فعل بمن قبلكم من أهل الشرك من إنزال نقمه به، وإحلاله العذاب عاجلاً بساحته، ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، يقول: وأعلم يا محمد الذين جحدوا نبوتك وخالفوا أمر ربهم، ﴿بِعَذَابٍ﴾، موجه يحل بهم.

وقال ابن كثير رحمه الله:

يقول تعالى: وإعلام ﴿مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ وتقدّم وإنذار إلى الناس، ﴿يَوْمَ الْحِجِّ الْأَكْبَرِ﴾ وهو يوم النحر الذي هو أفضل أيام المناسك وأظهرها وأكثرها جمعا ﴿أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ﴾ أي: بريء منهم أيضا.

ثم دعاهم إلى التوبة إليه فقال: ﴿فَإِنْ تَبُتُّمْ﴾ أي: مما أنتم فيه من الشرك والضلال ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ﴾ أي: استمررتم على ما أنتم عليه ﴿فَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ عِزٌّ مُّعْجِزٌ لِلَّهِ﴾ بل هو قادر، وأنتم في قبضته، وتحت قهره ومشيتته، ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أي: في الدنيا بالخزي والنكال، وفي الآخرة بالمقامع والأغلال.

قال السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ:

نصر الله رسوله والمؤمنين حتى افتتح مكة، وأذل المشركين، وصار للمؤمنين الحكم والغلبة على تلك الديار.

فأمر النبي مؤذنه أن يؤذن يوم الحج الأكبر - وهو يوم النحر - وقت اجتماع الناس مسلمهم وكافرهم، من جميع جزيرة العرب، أن يؤذن بأن الله بريء ورسوله من المشركين، فليس لهم عنده عهد وميثاق، فأينما وجدوا قتلوا، وقيل لهم: لا تقربوا المسجد الحرام بعد عامكم هذا، وكان ذلك سنة تسع من الهجرة.

وحج بالناس أبو بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وأذن ببراءة - يوم النحر - ابن عم رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ثم رغب تعالى المشركين بالتوبة، ورهبهم من الاستمرار على الشرك فقال: ﴿إِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ عِزٌّ مُعْجِزٌ لِلَّهِ﴾ أي: فائتيه، بل أنتم في قبضته، قادر أن يسلط عليكم عباده المؤمنين. ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أي: مؤلم مفضع في الدنيا بالقتل والأسر، والجلاء، وفي الآخرة، بالنار، وبئس القرار.

أي هذه البراءة التامة المطلقة من جميع المشركين.

|

س: لماذا أطلق عليه ﴿يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ﴾ وما المراد بالحج الأكبر؟

ج: لأهل العلم في ذلك أقوال:

أحدها: لأنه اجتمع فيه عيد المسلمين مع عيد اليهود والنصارى، وحج المسلمين مع حج المشركين.

الثاني: أنه أطلق عليه يوم الحج الأكبر لكون أكثر أعمال الحج فيه، هذا ومن العلماء من قال الحج الأكبر هو الحج والحج الأصغر هو العمرة.

وتم قول لا مستند له - وأراه بعيداً عن الصواب - وهو قول من قال إن الحج الأكبر هو القران، والحج الأصغر هو الأفراد.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

وأولى هذه الأقوال بالصواب في ذلك عندي، قول من قال: «الحج الأكبر الحج»؛ لأنه أكبر من العمرة بزيادة عمله على عملها، فقليل له: «الأكبر»، لذلك. وأما «الأصغر» فالعمرة؛ لأن عملها أقل من عمل الحج؛ فلذلك قيل لها: «الأصغر» لنقصان عملها عن عمله.

الوفاء بالعهود حتى مع أهل الشرك

س: **وضح معنى قوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُوا لِمَتَّهِمْ عَهْدَكُمْ إِلَىٰ مَدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾.**

ج: استثنى من التبرؤ من العهود والإمهال إلى أربعة أشهر أهل الشرك الذين بينهم وبين رسول الله ﷺ عهود ومواثيق أكثر من أربعة أشهر، ومع ذلك فلم تصدر منهم بوادر خيانات ولا غدر فهؤلاء أتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم ما داموا أوفياء بالعهود ولم يتعاونوا مع غيرهم من الكفار عليكم فأتموا إلى هؤلاء عهودهم إلى المدد المتفق عليها معهم أيًا كانت هذه المدد، إن الله يحب المتقين الذين يتقون الشرك بالله، ويتقون نقص العهود والمواثيق.

وهذه أقوال بعض العلماء في ذلك.

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره: ﴿وَأَذِّنْ لِلنَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ﴾، إلا من عاهد الذين عاهدتم من المشركين أيها المؤمنون، ﴿ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا﴾، من عهدهم الذي عاهدتموهم، ﴿وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا﴾، من عدوكم، فيعينوهم بأنفسهم وأبدانهم، ولا بسلاح ولا خيل ولا رجال، ﴿فَأَتِمُوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مَدَّتِهِمْ﴾، يقول: ففؤا لهم بعهدهم الذي عاهدتموهم عليه، ولا تنصبوا لهم حربًا إلى انقضاء أجل عهدهم الذي بينكم وبينهم، ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾، يقول: إن الله يحب من اتقاه بطاعته، بأداء فرائضه واجتناب معاصيه.

وأورد بإسناد حسن عن قتادة قوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا﴾، الآية، قال: هم مشركو قريش، الذين عاهدهم رسول الله ﷺ زمن الحديبية، وكان بقي من مدتهم أربعة أشهر بعد يوم النحر. فأمر الله نبيه أن

يوفي لهم بعهدهم إلى مدتهم، ومن لا عهد له إلى انسلاخ المحرم، ونبذ إلى كل ذي عهد عهده، وأمره بقتالهم حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وأن لا يقبل منهم إلا ذلك.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ:

هذا استثناء من ضرب مدة التأجيل بأربعة أشهر، لمن له عهد مطلق ليس بمؤقت، فأجله، أربعة أشهر، يسبح في الأرض، يذهب فيها لينجو بنفسه حيث شاء، إلا من له عهد مؤقت، فأجله إلى مدته المضروبة التي عوهد عليها، وقد تقدمت الأحاديث: «ومن كان له عهد مع رسول الله ﷺ فعهدته إلى مدته» وذلك بشرط ألا ينقض المعاهد عهده، ولم يظاهر على المسلمين أحداً، أي: يمالئ عليهم من سواهم، فهذا الذي يوفي له بدمته وعهده إلى مدته؛ ولهذا حرض الله تعالى على الوفاء بذلك فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ (٤) أي: الموفين بعهدهم.

وقال القرطبي رَحِمَهُ اللهُ:

﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ في موضع نصب بالاستثناء المتصل، المعنى: أن الله بريء من المشركين إلا من المعاهدين في مدة عهدهم. وقيل: الاستثناء منقطع، أي إن الله بريء منهم ولكن الذين عاهدتم فثبتوا على العهد فأتوا إليهم بعهدهم. وقوله: ﴿ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا﴾ يدل على أنه كان من أهل العهد من خاس بعهدته ومنهم من ثبت على الوفاء، فأذن الله سبحانه لنبيه ﷺ في نقض عهد من خاس، وأمر بالوفاء لمن بقي على عهده إلى مدته. ومعنى ﴿لَمْ يَنْقُصُوكُمْ﴾ أي من شروط العهد شيئاً. ﴿وَلَمْ يُظَاهِرُوا﴾ لم يعاونوا. وقرأ عكرمة وعطاء بن يسار (ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ) بالضاد معجمة على حذف مضاف، التقدير ثم لم ينقضوا عهدهم. يقال: إن هذا مخصوص يراد به بنو ضمرة خاصة. ثم قال: ﴿فَأَتَمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ﴾ أي وإن كانت أكثر من أربعة أشهر.

وقال السعدي في تفسيره (تيسير الكريم الرحمن):

﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ واستمروا على عهدهم، ولم يجبر منهم ما يوجب النقض، فلا نقصوكم شيئاً، ولا عاونوا عليكم أحداً، فهؤلاء أتموا لهم عهدهم

إلى مدتهم، قَلَّتْ، أو كثرت، لأن الإسلام لا يأمر بالخيانة وإنما يأمر بالوفاء.
﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ الذين أدوا ما أمروا به، واتقوا الشرك والخيانة، وغير ذلك من المعاصي.

وقال الشنقيطي رَحِمَهُ اللَّهُ (أضواء البيان):

قوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ﴾.

يفهم من مفهوم مخالفة هذه الآية: أن المشركين إذا نقضوا العهد جاز قتالهم، ونظير ذلك أيضاً، قوله تعالى: ﴿فَمَا اسْتَقَمُّوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ﴾ [التوبة: ٧] وهذا المفهوم في الآيتين صرح به جل وعلا في قوله: ﴿وإن كُفَرُوا بِعَهْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَتَلُوا أَيْمَةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ﴾ (١٢).

[التوبة: ١٢]

المراد بالأشهر الحرم

س: ما المراد بالأشهر الحرم التي قال الله ﷻ: ﴿فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ الآية؟

ج: ذهب بعض أهل العلم إلى أن المراد بالأشهر الحرم في هذه الآية هي الأشهر الحرم المذكورة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾.

وهي ذو القعدة وذو الحجة وشهر الله المحرم ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان، ولكن هذا القائل - وهو الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ - ذهب إلى أن انسلاخها بنهاية شهر الله المحرم، أي: على وجه التقريب بعد خمسين يوماً من الأذان ببراءة ذلك أن الأذان ببراءة كان يوم النحر، يوم العاشر من ذي الحجة، فيبقى لنهاية محرم خمسون يوماً على التقريب والله أعلم.

هذا، وذهب آخرون إلى أن المراد بالأشهر الحرم في قوله ﴿فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ﴾ هي أشهر الأمان التي أَمَّنَ الله فيها المشركين من قتال النبي ﷺ والمؤمنين، أي: هي التي قال الله في شأنها ﴿فَيَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾.

وهذا اختيار ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ فقد استظهر أن المراد بها أشهر التيسير الأربعة المنصوص عليها ﴿فَإِذَا أُنْسِلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ﴾، وسيأتي قوله إن شاء الله.

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ:

اختلف المفسرون في المراد بالأشهر الحرم هاهنا، ما هي؟ فذهب ابن جرير إلى أنها المذكورة في قوله تعالى: ﴿مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكََ الَّذِينَ أَلْقِيَتْمْ فَلَا تَطْلُمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ﴾ الآية [التوبة: ٣٦]، قاله أبو جعفر الباقر، لكن قال ابن جرير: آخر الأشهر الحرم في حقهم المحرم.

قال ابن كثير وفيه نظر والذي يظهر من السياق.. أن المراد بها أشهر التيسير الأربعة المنصوص عليها في قوله: ﴿فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ ثُمَّ قَالَ: ﴿فَإِذَا أُنْسِلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ﴾ أي: إذا انقضت الأشهر الأربعة التي حرمتنا عليكم فيها قتالهم، وأجلناهم فيها، فحيثما وجدتموهم فاقتلوهم؛ لأن عود العهد على مذكور أولى من مقدر؛ ثم إن الأشهر الأربعة المحرمة سيأتي بيان حكمها في آية أخرى بعد في هذه السورة الكريمة.

أ س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿فَإِذَا أُنْسِلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَأَحْصُرُوهُمْ وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

ج: المعنى - والله تعالى أعلم -: فإذا انقضت الأشهر الحرم ومضت ^(١) فاقتلوا المشركين في أي مكان وجدتموهم فيه في الحل والحرم، وفي أي زمان وحاصروهم وامنعوهم من السير في البلاد، واقعدوا لهم في كل طريق وترصدوا لهم في كل مكان لقتلهم وحرهم فإن تابوا من شركهم وحافظوا على الصلوات وأدوا الزكوات المفترضة عليهم فتركوهم ولا تعترضوهم، فإن الله ﷻ فتح باب التوبة أمام مريد التوبة مهما اقترف من الذنوب وارتكب من الآثام ما دام عليك أمر نفسه فمن تاب تاب الله عليه، أما من مات على الشرك فلن يغفر له.

هذا، وللجزئيات المذكورة في ثنايا الشرح فقه واسع يأتي في كله، فهل كل مُشرك

(١) وقد بينت اختلاف العلماء فيها، وأن كثيراً من العلماء رجح أنها أشهر الأمان الأربعة التي قال الله ﷻ: ﴿فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾.

يُقتل؟ أم أن هناك أماناً لبعضهم؟! وماذا يصنع المؤمنون في أوقات الاستضعاف؟! وهل هناك أنواع صلح ومعاهدات بين المسلمين وغيرهم أم لا؟ ولا شك أن كل هذا ينبني على ما هو الصالح العام لأهل الإسلام ما لم يخالفوا نصوحاً من كتاب الله ﷻ، ولا من سنة رسوله ﷺ فالقصد أن المسائل المذكورة لها فقه لا يتسع المقام هنا لذكره، وبالله تعالى التوفيق، وفيه العون والسداد.

ثم هذه بعض أقوال العلماء في تفسير الآية الكريمة.

قال الطبري رحمه الله:

يعني جل ثناؤه بقوله: ﴿فَإِذَا أَسْلَخَ الْأَشْهُرَ الْحُرُمَ﴾، فإذا انقضى ومضى وخرج. يقال منه: سلخنا شهر كذا نسلخه سلخاً وسُلُوخاً، بمعنى: خرجنا منه. ومنه قولهم: «شاة مسلوخة»، بمعنى: المنزوعة من جلدها، المخرجة منه.

ويعني بـ «الأشهر الحرم»، ذا القعدة، وذا الحجة، والمحرم.

وإنما أريد في هذا الموضع انسلاخ المحرم وحده، لأن الأذان كان ببراءة يوم الحج الأكبر. فمعلوم أنهم لم يكونوا أجَّلوا الأشهر الحرم كلها - وقد دللنا على صحة ذلك فيما مضى - ولكنه لما كان متصلاً بالشهرين الآخرين قبله الحرامين، وكان هو لهما ثالثاً، وهي كلها متصل بعضها ببعض، قيل: ﴿فَإِذَا أَسْلَخَ الْأَشْهُرَ الْحُرُمَ﴾، ومعنى الكلام: فإذا انقضت الأشهر الحرم الثلاثة عن الذين لا عهد لهم، أو عن الذين كان لهم عهد فنقضوا عهدهم بمظاهرتهم الأعداء على رسول الله وعلى أصحابه، أو كان عهدهم إلى أجل غير معلوم.

﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ﴾، يقول: فاقتلوهم، ﴿حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾، يقول: حيث لقيتموهم من الأرض في الحرم، وغير الحرم في الأشهر الحرم وغير الأشهر الحرم، ﴿وَاخْذُوهُمْ﴾ يقول: وأسروهم، ﴿وَأَحْضَرُوهُمْ﴾، يقول: وامنعوهم من التصرف في بلاد الإسلام ودخول مكة، ﴿وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ﴾، يقول: واقعدوا لهم بالطلب لقتلهم أو أسرهم، ﴿كُلَّ مَرْصِدٍ﴾، يعني: كل طريق ومرقب.

وهو «مفعول»، من قول القائل: «رصدت فلاناً أرضه رصداً»، بمعنى: رقبته.

﴿فَإِنْ تَابُوا﴾، يقول: فإن رجعوا عما هم عليه من الشرك بالله وجحود نبوة نبيه

محمد ﷺ، إلى توحيد الله وإخلاص العبادة له دون الآلهة والأنداد، والإقرار بنبوّة محمد ﷺ، ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾، يقول: وأدّوا ما فرض الله عليهم من الصلاة بحدودها، وأعطوا الزكاة التي أوجبها الله عليهم في أموالهم أهلها، ﴿فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾، يقول: فدعوهم يتصرفون في أمصاركم، ويدخلون البيت الحرام، ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾، لمن تاب من عباده، فأنا ب إلى طاعته، بعد الذي كان عليه من معصيته، سائر على ذنبه، رحيم به، أن يعاقبه على ذنوبه السالفة قبل توبته، بعد التوبة.

وقال القرطبي رحمه الله:

قوله تعالى: ﴿فَأَقْضُوا الشَّرْكَاءَ﴾ عام في كل شرك، لكن السنة خصت منه ما تقدم بيانه في سورة «البقرة» من امرأة وراهب وصبي وغيرهم. وقال الله تعالى في أهل الكتاب: ﴿حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ﴾. إلا أنه يجوز أن يكون لفظ المشركين لا يتناول أهل الكتاب، ويقتضي ذلك منع أخذ الجزية من عبدة الأوثان وغيرهم، على ما يأتي بيانه.

وقال ابن كثير رحمه الله:

وقوله: ﴿فَأَقْضُوا الشَّرْكَاءَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ أي: من الأرض. وهذا عام، والمشهور تخصيصه بتحريم القتال في الحرم بقوله: ﴿وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يَقْتُلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ﴾ [البقرة: ١٩١]

وقوله: ﴿وَحَدُّوهُمْ﴾ أي: وائسروهم، إن شئتم قتلاً وإن شئتم أسراً. وقوله: ﴿وَأَحْصُرُوهُمْ وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ﴾ أي: لا تكتفوا بمجرد وجدانكم لهم، بل اقصدوهم بالحصار في معاقلهم وحصونهم، والرصد في طرقهم ومسالكهم حتى تضيقوا عليهم الواسع، وتضطروهم إلى القتل أو الإسلام؛ ولهذا قال: ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

ولهذا اعتمد الصديق رحمه الله في قتال مانعي الزكاة على هذه الآية الكريمة وأمثالها، حيث حرمت قتالهم بشرط هذه الأفعال، وهي الدخول في الإسلام، والقيام بأداء واجباته. ونبه بأعلاها على أدناها، فإن أشرف أركان الإسلام بعد الشهادتين: الصلاة، التي هي حق الله ﷻ، وبعدها أداء الزكاة التي هي نفع متعدد إلى الفقراء والمحاويج، وهي أشرف الأفعال المتعلقة بالمخلوقين؛ ولهذا كثيراً ما يقرن الله بين الصلاة

والزكاة، وقد جاء في الصحيحين عن ابن عمر، رضي الله عنهما، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة» الحديث.

وأورد ابن كثير جملة أحاديث وأثار منها حديث: أنس؛ أن رسول الله ﷺ قال: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فإذا شهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، واستقبلوا قبلتنا، وأكلوا ذبيحتنا، وصلوا صلاتنا، فقد حرمت علينا دماؤهم وأموالهم إلا بحقها، لهم ما للمسلمين، وعليهم ما عليهم» ^(١).

وقال السعدي رحمته الله (تيسير الكريم الرحمن):

يقول تعالى: ﴿فَإِذَا أَنْسَلَخَ الْأَشْهُرَ الْحُرُمَ﴾ أي: التي حرم فيها قتال المشركين المعاهدين، وهي أشهر التسيير الأربعة، وتمام المدة لمن له مدة أكثر منها، فقد برئت منهم الذمة.

﴿فَأَقْضُوا الْإِثْمَ وَالْكَافِرَةَ﴾ في أي مكان وزمان، ﴿وَاخْذُوا الْيَتَامَىٰ وَالْيَتَامَىٰ﴾ أي: ضيقوا عليهم، فلا تدعوهم يتوسعون في بلاد الله وأرضه، التي جعلها الله معبداً لعباده.

فهؤلاء ليسوا أهلاً لسكنائها، ولا يستحقون منها شبراً؛ لأن الأرض أرض الله، وهم أعداؤه المنابذون له ولرسله، المحاربون الذين يريدون أن يخلو الأرض من دينه، ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون.

﴿وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ﴾ أي: كل ثنية وموضع يمرون عليه، ورابطوا في جهادهم وابدلوا غاية مجهودكم في ذلك، ولا تزالوا على هذا الأمر حتى يتوبوا من شركهم.

ولهذا قال: ﴿فَإِنْ تَابُوا﴾ من شركهم ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ أي: أدوها بحقوقها ﴿وَأَتَوْا الزَّكَاةَ﴾ لمستحقها ﴿فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾ أي: اتركوهم، وليكونوا مثلكم، لهم ما لكم، وعليهم ما عليكم.

(١) البخاري (٣٩٢).

ب الد ٣١ ب الد التَّسْمِيلُ لِأَوَّلِ النَّزِيلِ سُورَةُ النَّاسِ

﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ يغفر الشرك فما دونه للتائبين، ويرحمهم بتوفيقهم للتوبة،
ثم قبولها منهم.

|

آية السيف

س: ذكر بعض العلماء أن هذه الآية: (فَإِذَا أَنْسَلَخَ الْأَشْهُرَ الْحُرُمَ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ...) هي آية السيف فمن القائل بهذا؟

ج: القائلون بهذا كثيرون، منهم ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ قَالَ رَحِمَهُ اللهُ:

وهذه الآية الكريمة هي آية السيف التي قال فيها الضحاك بن مزاحم: إنها نسخت كل عهد بين النبي ﷺ وبين أحد من المشركين، وكل عهد، وكل مدة. وأورد بعض الآثار ضعيفة الأسانيد في هذا الباب منها أثر ضعيف الإسناد عن عليٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: بعث النبي ﷺ بأربعة أسياف: سيف في المشركين من العرب قال الله: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾.

قال ابن كثير: هكذا رواه مختصراً، وأظن أن السيف الثاني هو قتال أهل الكتاب في قوله تعالى: ﴿فَقَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا يَتْلُونَ الْآخِرَ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ [التوبة: ٢٩] والسيف الثالث: قتال المنافقين في قوله: ﴿يَتَأْتِيَ النَّبِيَّ جَهْدُ الْكَافِرِ وَالْمُنَافِقِينَ...﴾ [التوبة: ٧٣، والتحريم: ٩] والرابع: قتال الباغين في قوله: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ﴾ [الحجرات: ٩].

س: هل هذه الآية (آية السيف): (فَإِذَا أَنْسَلَخَ الْأَشْهُرَ الْحُرُمَ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ...) منسوخة؟ وما ناسخها عند من قال بالنسخ؟

ج: ذهب بعض العلماء إلى أنها منسوخة بقوله تعالى: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَتَخْتَمُّوهُمْ فَشُدُّوا الْوَتَاكَ فِيمَا مَنَّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا...﴾.

[محمد: ٤]

وعكس البعض القضية فقالوا إن آية السيف هي النسخة، والظاهر عدم النسخ، وأن هذه لها مواطن، وتلك لها مواطن، والله أعلم.

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ:

ثم اختلف المفسرون في آية السيف هذه، فقال الضحاك والسدي: هي منسوخة

بقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ بَعْدَ وَإِمَّا فِدَاءً﴾ وقال قتادة بالعكس.

وقال القرطبي رحمه الله:

ثم اختلفوا، فقال الحسين بن الفضل: نسخت هذه كل آية في القرآن فيها ذكر الإعراض والصبر على أذى الأعداء. وقال الضحاك والسدي وعطاء: هي منسوخة بقوله: ﴿فَأَمَّا مَنْ بَعْدَ وَإِمَّا فِدَاءً﴾. وأنه لا يقتل أسير صبرا، إما أن يمن عليه وإما أن يفادى. وقال مجاهد وقاتدة: بل هي ناسخة لقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ بَعْدَ وَإِمَّا فِدَاءً﴾ وأنه لا يجوز في الأسارى من المشركين إلا القتل. وقال ابن زيد: الآيتان محكمتان. وهو الصحيح، لأن المن والقتل والفداء لم يزل من حكم رسول الله ﷺ فيهم من أول حرب حاربهم، وهو يوم بدر كما سبق. وقوله: ﴿وَحُذُّوهُمْ﴾ يدل عليه. والأخذ هو الأسر. والأسر إنما يكون للقتل أو الفداء أو المن على ما يراه الإمام. ومعنى: ﴿وَأَحْضُرُوهُمْ﴾ يريد عن التصرف إلى بلادكم والدخول إليكم، إلا أن تأذنوا لهم فيدخلوا إليكم بأمان.

ا س: ما المراد بـ (كلام الله) في قوله تعالى: ﴿حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ﴾؟

ج: المراد به القرآن.

ا س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ

اللَّهِ ثُمَّ آتِلْغُهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ﴾؟

ج: المعنى - والله تعالى أعلم -: وإن طلب منك أحد من المشركين أن تُجيره أي: توفر له سبل الأمان، بدخوله في جوارك طالبا منك الأمان فأمنه حتى يسمع كلام الله الذي هو القرآن، حتى يفهم ماذا يريد منه ربه ﷻ وعن أي شيء ينهاه، حتى يسمع كلام الله بما فيه من مواعظ وحكم وقصص وعبر وأحكام، حتى يتضح له ما خفي عليه ثم رده إلى حيث يأمن، رده إلى أهله إن أراد ذلك، وهذا الذي أمرناك به في شأنه؛ لأن هؤلاء قوم لا يعلمون عن القرآن كبير شيء.

وبنحو ما ذكر قال أهل العلم.

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره لنبيه: وإن استأمنك يا محمد من المشركين الذين أمرتك بقتالهم وقتلهم بعد انسلاخ الأشهر الحرم أحد ليسمع كلام الله منك، وهو القرآن

الذي أنزله الله عليه ، ﴿فَأَجِرُهُ﴾ ، يقول: فأمنه ﴿حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ﴾ وتتلوه عليه ، ﴿ثُمَّ أَلْبَغْهُ مَأْمَنَهُ﴾ ، يقول: ثم رُدَّه بعد سماعه كلام الله إن هو أبي أن يسلم، ولم يتعظ لما تلوته عليه من كلام الله فيؤمن، «إلى مأمنه»، يقول: إلى حيث يأمن منك وممن في طاعتك، حتى يلحق بداره وقومه من المشركين، ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ، يقول: تفعل ذلك بهم، من إعطائك إياهم الأمان ليسمعوا القرآن، وردك إياهم إذا أبوا الإسلام إلى مأمنهم، من أجل أنهم قوم جهلة لا يفقهون عن الله حجة، ولا يعلمون ما لهم بالإيمان بالله لو آمنوا، وما عليهم من الوزر والإثم بتركهم الإيمان بالله.

وقال الحافظ ابن كثير رحمه الله:

يقول تعالى لنبيه صلوات الله وسلامه عليه: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ الذين أمرتك بقتالهم، وأحللت لك استباحة نفوسهم وأموالهم ﴿أَسْتَجَارَكَ﴾ أي: استأمنك، فأجبه إلى طلبته ﴿حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ﴾ أي: القرآن تقرأه عليه وتذكر له شيئاً من أمر الدين تقيم عليه به حجة الله، ﴿ثُمَّ أَلْبَغْهُ مَأْمَنَهُ﴾ أي: وهو آمن مستمر الأمان حتى يرجع إلى بلاده وداره ومأمنه، ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: إنما شرعنا أمان مثل هؤلاء ليعلموا دين الله، وتنتشر دعوة الله في عباده.

وقال ابن أبي نجيح^(١)، عن مجاهد، في تفسير هذه الآية، قال: إنسان يأتيك يسمع ما تقول وما أنزل عليك، فهو آمن حتى يأتيك فيسمع كلام الله، وحتى يبلغ مأمنه، حيث جاء.

ومن هذا كان رسول الله ﷺ يعطي الأمان لمن جاءه، مسترشداً أو في رسالة، كما جاء يوم الحديبية جماعة من الرسل من قريش، منهم: عروة بن مسعود، ومكرز بن حفص، وسهيل بن عمرو، وغيرهم واحداً بعد واحد، يترددون في قضية بينه وبين المشركين، فرأوا من إعظام المسلمين رسول الله ﷺ ما بهرهم وما لم يشاهدوه عند ملك ولا قيصر، فرجعوا إلى قومهم وأخبروهم بذلك، وكان ذلك وأمثاله من أكبر أسباب هداية أكثرهم.

(١) وفي رواية ابن أبي نجيح عن مجاهد في التفسير مقال.

ولهذا أيضًا لما قدم رسول مسيلمة الكذاب على رسول الله ﷺ قال له: «أشهد أن مسيلمة رسول الله؟» قال: نعم. فقال رسول الله ﷺ: «لولا أن الرسل لا تقتل لضربت عنقك»^(١) وقد قيض الله له ضرب العنق في إمارة ابن مسعود على الكوفة، وكان يقال له: ابن النواحة، ظهر عنه في زمان ابن مسعود أنه يشهد لمسيلمة بالرسالة، فأرسل إليه ابن مسعود فقال له: إنك الآن لست في رسالة، وأمر به فضربت عنقه، لا رحمه الله ولعنه.

والغرض أن من قدم من دار الحرب إلى دار الإسلام في أداء رسالة أو تجارة، أو طلب صلح أو مهادنة أو حمل جزية، أو نحو ذلك من الأسباب، فطلب من الإمام أو نائبه أمانًا، أعطي أمانًا ما دام مترددًا في دار الإسلام، وحتى يرجع إلى مأمنه ووطنه. لكن قال العلماء: لا يجوز أن يمكن من الإقامة في دار الإسلام سنة، ويجوز أن يمكن من إقامة أربعة أشهر، وفيما بين ذلك فيما زاد على أربعة أشهر ونقص عن سنة قولان، عن الإمام الشافعي وغيره من العلماء، رحمهم الله.

وقال القرطبي رحمه الله:

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ أي من الذين أمرت بقتالهم. ﴿اسْتَجَارَكَ﴾ أي سأل جوارك، أي أمانك وذمامك، فأعطه إياه ليسمع القرآن، أي يفهم أحكامه وأوامره ونواهيه. فإن قبل أمرًا فحسن، وإن أبى فرده إلى مأمنه. وهذا ما لا خلاف فيه. والله أعلم. قال مالك: إذا وجد الحربي في طريق بلاد المسلمين فقال: جئت أطلب الأمان. قال مالك: هذه أمور مشتبهة، وأرى أن يرد إلى مأمنه. قال ابن قاسم: وكذلك الذي يوجد وقد نزل تاجرًا بساحلنا فيقول: ظننت ألا تعرضوا لمن جاء تاجرًا حتى يبيع. وظاهر الآية إنما هي فيمن يريد سماع القرآن والنظر في الإسلام، فأما الإجارة لغير ذلك فإنما هي لمصلحة المسلمين والنظر فيما تعود عليهم به منفعتة.

ولا خلاف بين كافة العلماء أن أمان السلطان جائز، لأنه مقدم للنظر والمصلحة،

(١) أحمد (٣/ ٤٨٧)، وأبو داود (٢٧٦١).

نائب عن الجميع في جلب المنافع ودفع المضار. واختلفوا في أمان غير الخليفة، فالحر يمضي أمانه عند كافة العلماء. إلا أن ابن حبيب قال: ينظر الإمام فيه. وأما العبد فله الأمان في مشهور المذهب، وبه قال الشافعي وأصحابه وأحمد وإسحاق والأوزاعي والثوري وأبو ثور وداود ومحمد بن الحسن. وقال أبو حنيفة: لا أمان له، وهو القول الثاني لعلمائنا. والأول أصح، لقوله ﷺ: «المسلمون متكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم». قالوا: فلما قال «أدناهم» جاز أمان العبد، وكانت المرأة الحرة أخرى بذلك، ولا اعتبار بعله «لا يسهم له». وقال عبد الملك بن الماجشون: لا يجوز أمان المرأة إلا أن يجيزه الإمام، فشذ بقوله عن الجمهور.

وقال السعدي رَحِمَهُ اللهُ (تيسير الكريم الرحمن):

لما كان ما تقدم من قوله: ﴿فَإِذَا أَنْسَخَ الْأَشْهُرَ الْحُرُمَ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَأَخْصِرُوهُمْ وَأَقْعِدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ﴾ أمراً عاماً في جميع الأحوال، وفي كل الأشخاص منهم، ذكر تعالى، أن المصلحة إذا اقتضت تقريب بعضهم جاز، بل وجب ذلك فقال: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ﴾ أي: طلب منك أن تجيره، وتمنعه من الضرر؛ لأجل أن يسمع كلام الله، وينظر حالة الإسلام. ﴿فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ﴾ ثم إن أسلم، فذاك، وإلا فأبلغه مأمنه، أي: المحل الذي يأمن فيه، والسبب في ذلك أن الكفار قوم لا يعلمون، فربما كان استمرارهم على كفرهم لجهل منهم، إذا زال اختاروا عليه الإسلام، فلذلك أمر الله رسوله، وأمته أسوته في الأحكام، أن يجيروا من طلب أن يسمع كلام الله. وفي هذا حجة صريحة لمذهب أهل السنة والجماعة، القائلين بأن القرآن كلام الله غير مخلوق، لأنه تعالى هو المتكلم به، وأضافه إلى نفسه إضافة الصفة إلى موصوفها، وبطلان مذهب المعتزلة ومن أخذ بقولهم: أن القرآن مخلوق. وكم من الأدلة الدالة على بطلان هذا القول، ليس هذا محل ذكرها.

قال ابن الجوزي في زاد المسير:

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ﴾ قال المفسرون: وإن أحد من المشركين الذين أمرتك بقتلهم استأمنك يبتغي أن يسمع القرآن وينظر فيما أمر به

ونهي عنه فأجره ثم أبلغه الموضع الذي يأمن فيه.

وفي قوله: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ﴾ قولان:

أحدهما: أن المعنى ذلك الذي أمرناك به من أن يعرفوا ويجاروا لجهلهم بالعلم.

والثاني: ذلك الذي أمرناك به من رده إلى مأمنه إذا امتنع من الإيمان لأنهم قوم

جهلة بخطاب الله.

اس: هل قوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ...﴾ منسوخ؟

ج: الذي يظهر أنه ليس بمنسوخ.

قال الطبري رحمه الله:

والصواب من القول في ذلك عندي، قول من قال: «ليس ذلك بمنسوخ». وقد دللنا على أن معنى «النسخ»، هو نفي حكم قد كان ثبت بحكم آخر غيره. ولم تصح حجة بوجوب حكم الله في المشركين بالقتل بكل حال، ثم نسخه بترك قتلهم على أخذ الفداء، ولا على وجه المنّ عليهم. فإذا كان ذلك كذلك، وكان الفداء والمنّ والقتل لم يزل من حكم رسول الله ﷺ فيهم من أول حرب حاربهم، وذلك من يوم بدر، كان معلوماً أن معنى الآية: فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم، وخذوهم

قال الله تعالى:

﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقِيمُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ (٧) كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ (٨) اشْتَرَوْا عِثَابَ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩) لَا يَرْقُبُونَ فِي

مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ ﴿١٠﴾ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ
 وَآتَوْا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ وَإِنْ نَكَثُوا
 أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَتَلُوا أَيْمَةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا
 أَيْمَنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ ﴿١٢﴾ أَلَا نُقَاتِلُوكَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ
 وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ
 أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ قَتَلُوهُمْ يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ
 وَيُخْزِيهِمْ وَيَصْرِكُمْ عَلَيْهِمْ وَيُشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيَذْهَبَ عِظَ
 قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾

[التوبة: ٧-١٥].

س: وضع معنى ما يلي:

﴿فَمَا اسْتَقْتُمُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ﴾ - يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ - لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ - إِلَّا - ذِمَّةٌ - وَتَأَنَّى قُلُوبُهُمْ - فَدَسِقُونَ - فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ - سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ - نَكَثُوا أَيْمَنَهُمْ - وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ - آيَةً الْكُفْرِ - لَا أَيْمَنَ لَهُمْ - وَيُخْزِيهِمْ - غِيْظَ قُلُوبِهِمْ ﴿

ج:

الكلمة	معناها
(فَمَا اسْتَقْتُمُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ) ﴿	فما داموا مستقيمين على العهود موفين لها فكونوا أوفياء للعهود كذلك.
(يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ) ﴿	يغلبوكم - ينتصروا عليكم.
(لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ) ﴿	لا يراعوا فيكم - لا يخشون إذا آذوكم - لا يوقروا فيكم - لا يحافظوا.
(إِلَّا) ﴿	قيل: الله - وقيل: عهداً - وقيل: قرابة - وقيل: حلفاً.
(ذِمَّةٌ) ﴿	قيل: عهداً.
(وَتَأَنَّى قُلُوبُهُمْ) ﴿	ترفض قلوبهم الإيمان.
(فَدَسِقُونَ) ﴿	خارجون عن الطاعة.
(فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ) ﴿	منعوا الناس من دخول الإسلام الذي هو الطريق إلى الله ﷻ
(سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) ﴿	أصحاب عمل سيئ، أعمالهم سيئة لا ترضى الله ولا توافق شرعه.
(نَكَثُوا أَيْمَنَهُمْ) ﴿	نقضوا عهودهم.
(وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ) ﴿	عابوا دينكم وانتقصوه وسبوه.
(آيَةً الْكُفْرِ) ﴿	رؤوس الشر والضلال والسعاة في الكفر الدعاة إليه.

الد	٤٠	ب	الد
التَّسْمِيْلُ لِأَوَّلِ النَّزِيلِ	سُوْرَةُ النَّاسِ	ب	الد
لا عهد لهم.	(لَا أَيْمَنَ لَهُمْ) ❖		
يُذِلُّهُمْ - يُهَيِّنُهُمْ.	(وَيُخْزِيهِمْ) ❖		
كرب قلوبهم - الضيق الذي في قلوبهم الحزن الذي بقلوبهم.	(غَيَّظَ قُلُوبَهُمْ) ❖		

الْغَدْرُ حَالُ أَهْلِ الشَّرْكِ

س: وضع معنى قوله تعالى: ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقْتُمُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾.

ج: المعنى - والله تعالى أعلم -: كيف يكون لأهل الشرك عهد عند الله ﷻ وعند رسوله ﷺ، وهم قد نقضوا العهود والمواثيق، وبدت منه بوادر الخيانات والغدر، فهؤلاء الذين بدرت منهم بوادر الخيانة والغدر، والذين نقضوا العهود والميثاق لا عهود لهم فإنهم نقضوها ولا يتصور منهم بعد وفاء لعهد ولا رعاية لميثاق، لكن منهم طائفة قليلة عاهدت ووفت ولم تغدر ولم تخن، فهؤلاء الذين عاهدتموهم عند المسجد الحرام، وفوا لهم بالعهد والميثاق وما داموا موفين للعهود والمواثيق فوفوا لهم أيضاً، وما داموا مستقيمين على العهود والمواثيق فاستقيموا لهم أيضاً إن الله يحب الذين يتقون، ويتقون حدوده ومحارمه، ويحب الذين يفون بالعهد والميثاق ولا يغدرون.

وبنحو هذا قال العلماء.

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره: أتى يكون أيها المؤمنون بالله ورسوله، وبأي معنى، يكون للمشركين برهم عهد وذمة عند الله وعند رسوله، يوفى لهم به، ويتركوا من أجله آمنين يتصرفون في البلاد؟ وإنما معناه: لا عهد لهم، وأن الواجب على المؤمنين قتلهم حيث وجدوهم، إلا الذين أعطوا العهد عند المسجد الحرام منهم، فإن الله جل ثناؤه أمر المؤمنين بالوفاء لهم بعهدهم، والاستقامة لهم عليه، ما داموا عليه للمؤمنين مستقيمين.

وأورد الطبري خلافاً ليس من ورائه كبير طائل في الذين عناهم الله بقول: ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ...﴾ ثم قال:

وأما قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾، فإن معناه: إن الله يحب من اتقى الله وراقبه في أداء فرائضه، والوفاء بعهده لمن عاهده، واجتناب معاصيه، وترك الغدر بعهوده

لمن عاهده.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

يبين تعالى حكمته في البراءة من المشركين ونظرته إياهم أربعة أشهر، ثم بعد ذلك السيف المرهف أين ثقفوا، فقال تعالى: ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ﴾ وأمان ويتركون فيما هم فيه وهم مشركون بالله كافرون به ورسوله، ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ يعني يوم الحديبية، كما قال تعالى: ﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدَىٰ مَعَكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَحَلَّهُمْ﴾ الآية [الفتح: ٢٥]، ﴿فَمَا اسْتَقِيمُوا لَكُمْ فَأَسْتَقِيمُوا لَهُمْ﴾ أي: مهما تمسكوا بما عاهدتموهم عليه وعاهدتموهم من ترك الحرب بينكم وبينهم عشر سنين ﴿فَأَسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ وقد فعل رسول الله ﷺ ذلك والمسلمون، استمر العقد والهدنة مع أهل مكة من ذي القعدة في سنة ست، إلى أن نقضت قريش العهد ومالؤوا حلفاءهم وهم بنو بكر على خزاعة أحلاف رسول الله ﷺ، فقتلوه معهم في الحرم أيضًا، فعند ذلك غزاهم رسول الله ﷺ في رمضان سنة ثمان، ففتح الله عليه البلد الحرام، ومكنه من نواصيتهم، والله الحمد والمنة، فأطلق من أسلم منهم بعد القهر والغلبة عليهم، فسموا الطلقاء، وكانوا قريباً من ألفين، ومن استمر على كفره وفر من رسول الله ﷺ بعث إليه بالأمان والتسيير في الأرض أربعة أشهر، يذهب حيث شاء: منهم صفوان ابن أمية، وعكرمة بن أبي جهل وغيرهما، ثم هداهم الله بعد ذلك إلى الإسلام التام، والله المحمود على جميع ما يقدره ويفعله.

وقال السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ:

هذا بيان للحكمة الموجبة لأن يتبرأ الله ورسوله من المشركين، فقال: ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ﴾ هل قاموا بواجب الإيمان، أم تركوا رسول الله والمؤمنين من أذيتهم؟ أم حاربوا الحق ونصروا الباطل؟ أم سعوا في الأرض فساداً؟ فيحق عليهم أن يتبرأ الله منهم، وأن لا يكون لهم عهد عنده ولا عند رسوله.

﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ﴾ من المشركين ﴿عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ فإن لهم في العهد

وخصوصا في هذا المكان الفاضل حرمة، أوجب أن يراعوا فيها.
﴿فَمَا اسْتَقْتُمُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ ولهذا قال: ﴿كَيْفَ
وَإِنْ يَظْهَرُوا﴾ إلى قوله: ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾.

اس: وضع معنى قوله تعالى: ﴿إِلَّا وَلَا ذِمَّةٌ﴾.

ج: أما قوله تعالى:

﴿إِلَّا﴾ فللعلماء فيه أقوال:

أحدها: ﴿إِلَّا﴾ بمعنى الله فالمعنى: لا يراقبون الله فيكم، ولا يخافون من الله إن
الحقوا بكم أذى أو غدروا بكم.

الثاني: ﴿إِلَّا﴾ بمعنى عهدا وعقدا.

الثالث: ﴿إِلَّا﴾ بمعنى قرابة.

الرابع: ﴿إِلَّا﴾ بمعنى حلفا.

أما قوله تعالى: ﴿وَلَا ذِمَّةٌ﴾: فالذمة: قيل: إنها العهد.

أورد الطبري بإسناد صحيح عن أبي مجلز في قوله: ﴿لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَا ذِمَّةٌ﴾، قال: مثل قوله: «جبرائيل»، «ميكائيل»، «إسرافيل»، كأنه يقول: يضيف «جبر»
و «ميكاء» و «إسراف»، إلى «إيل»، يقول: عبد الله، ﴿لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا﴾، كأنه يقول:
لا يرقبون الله.

وأورد الطبري بإسناد حسن عن السدي: ﴿كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ﴾،
المشركون، ﴿لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ﴾، عهدا ولا قرابة ولا ميثاقا.

وبإسناد حسن عن قتادة قوله: ﴿لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا وَلَا ذِمَّةٌ﴾، قال: «الإل»، الحلف،
و «الذمة»، العهد.

وبإسناد صحيح عن ابن زيد في قوله: ﴿لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا وَلَا ذِمَّةٌ﴾، قال: لا يرقبوا
فيكم عهدا ولا ذمة. قال: إحداهما من صاحبها كهيئة «غفور»، «رحيم»، قال:
فالكلمة واحدة، وهي تفترق. قال: والعهد هو «الذمة».

قال الطبري رحمه الله:

وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: إن الله تعالى ذكره أخبر عن هؤلاء

المشركين الذين أمر نبيّه والمؤمنين بقتلهم بعد انسلاخ الأشهر الحرم، وحصرهم والعودة لهم على كل مرصد: أنهم لو ظهروا على المؤمنين لم يرقبوا فيهم «إلا».

و«الإل»: اسم يشتمل على معان ثلاثة: وهي العهد والعقد، والحلف، والقراية، وهو أيضا بمعنى «الله». فإذا كانت الكلمة تشمل هذه المعاني الثلاثة، ولم يكن الله خص من ذلك معنى دون معنى، فالصواب أن يُعم ذلك كما عم بها جل ثناؤه معانيها الثلاثة، فيقال: لا يرقبون في مؤمن الله، ولا قرايةً، ولا عهداً، ولا ميثاقاً.

اس: وضع معنى قوله تعالى: ﴿كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً﴾

يَرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٨﴾.

ج: المعنى - والله تعالى أعلم - كيف تتركون أهل الشرك بالله ولا تنزلون بهم ما أمركم الله به، وكيف تطمئننون إليهم، وهم إذا تمكنوا منكم وانتصروا عليكم وغلبوكم لن يراعوا فيكم رباً ولا قرايةً ولا عهداً ولا ميثاقاً وإنما هم الآن يتكلمون معكم بكلام يرضونكم به، أما قلوبهم فإنها تضمّر الكفر والنفاق، وتأبى أن تؤمن، وتضمّر الشر وتضمّر بكم المكائد لو أنهم تمكنوا منكم، وأكثرهم أهل فسق لا يطيعون الله ولا يوقرون عهداً ولا ميثاقاً.

وهذه أقوال بعض أهل العلم.

قال الطبري رحمه الله:

يعني جل ثناؤه بقوله: كيف يكون لهؤلاء المشركين الذين نقضوا عهدهم أو لمن لا عهد له منهم منكم، أيها المؤمنون، عهد وذمة، وهم، ﴿وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ﴾، يغلبوكم، ﴿لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً﴾.

واكتفى بـ«كيف» دليلاً على معنى الكلام، لتقدم ما يراد من المعنى بها قبلها. وكذلك تفعل العرب، إذا أعادت الحرف بعد مضي معناه، استجازوا حذف الفعل، كما قال الشاعر:

وَحَبَّرْتُ مَانِي أَنَّمَا الْمَوْتُ فِي الْقُرَى فَكَيْفَ وَهَذِي هَضْبَةٌ وَكَثِيبُ

فحذف الفعل بعد «كيف»، لتقدم ما يراد بعدها قبلها. ومعنى الكلام: فكيف

يكون الموت في القرى، وهذي هضبة وكثيب، لا ينجو فيهما منه أحد.
ثم قال بعد أن أورد أقوال العلماء في الإل والذمة وأن معنى الإل الله - العهد -
القراة - الحلف - العقد، قال:

فأما قوله: ﴿يَرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾، فإنه يقول: يعطونكم بألسنتهم من القول،
خلاف ما يضمرونه لكم في نفوسهم من العداوة والبغضاء، ﴿وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ﴾، أي:
تأبى عليهم قلوبهم أن يذعنوا لكم، بتصديق ما يبدونه لكم بألسنتهم. يحذّر جل ثناؤه
أمرهم المؤمنين، ويشحذهم على قتلهم واجتياحهم حيث وجدوا من أرض الله، وأن
لا يقصّروا في مكروهم بكل ما قدروا عليه، ﴿وَأَكْثَرُهُمْ فَسِيقُونَ﴾، يقول: وأكثرهم
مخالفون عهدكم، ناقضون له، كافرون برهم، خارجون عن طاعته.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ:

يقول تعالى محرضاً للمؤمنين على معاداة المشركين والتبري منهم، ومبيناً أنهم
لا يستحقون أن يكون لهم عهد لشركهم بالله تعالى وكفرهم برسول الله ﷺ ولو أنهم
إذ ظهروا على المسلمين وأدبلوا عليهم، لم يبقوا ولم يذروا، ولا راقبوا فيهم إلا ولا
ذمة.

وقال القرطبي رَحِمَهُ اللهُ:

قوله تعالى: ﴿كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ﴾ أعاد التعجب من أن يكون لهم
عهد مع خبث أعمالهم، أي كيف يكون لهم عهد وإن يظهروا عليكم لا يرقبوا فيكم
إلا ولا ذمة. يقال: ظهرت على فلان أي غلبته، وظهرت البيت علوته، ومنه ﴿فَمَا
أَسْطَعُوا أَنْ يَظْهَرُوا﴾ [الكهف: ٩٧] أي يعلوا عليه.
قوله تعالى: ﴿لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً﴾ يَرْقُبُوا يحافظوا. والرقيب الحافظ.

وقال السعدي رَحِمَهُ اللهُ:

أي: ﴿كَيْفَ﴾ يكون للمشركين عند الله عهد وميثاق ﴿وَالْحَالُ أَنَّهُمْ﴾ وإن
يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ بالقدرة والسلطة، لا يرحمكم، و ﴿لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً﴾ أي:
لا ذمة ولا قراة، ولا يخافون الله فيكم، بل يسومونكم سوء العذاب، فهذه حالكم
معهم لو ظهروا.

ولا يغرنكم منهم ما يعاملونكم به وقت الخوف منكم، فإنهم ﴿يَرْضَوْنَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ﴾ الميل والمحبة لكم، بل هم الأعداء حقاً، المبغضون لكم صدقاً، ﴿وَأَكْثَرُهُمْ فَسِيقُونَ﴾ لا ديانة لهم ولا مروءة.

ا س: وضح معنى قوله تعالى: (أَشْتَرَوُا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١﴾ لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا أَوْلَٰدَ مَثَلًا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ ﴿١٠﴾ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخِوْا نَكُمْ فِي الدِّينِ وَنُقْضِلْ أَلَا يَتَذَكَّرُونَ ﴿١١﴾). **فَإِنْ تَابُوا**

ج: المعنى - والله تعالى أعلم - أن أهل الكفر هؤلاء الذين نقضوا العهود والمواثيق، اعتاضوا عن الإيمان بالله واليوم الآخر، اعتاضوا عن الإيمان بكتاب الله وملائكته ورسوله، اعتاضوا عن ذلك كله بعرض زائل من أعراض الحياة الدنيا فرضوا بمتاع الحياة الدنيا الزائل الفاني فمنعوا الناس من الدخول في دين الله ﷻ والاستقامة على أمره، فبئس العمل الذي عملوه فما أسوأه وما أقبحه.

هؤلاء أهل الكفر والعناد والشقاق والصد عن سبيل الله لا يرقبون في مؤمن عهداً ولا قرابةً ولا يخشون رباً ولا يفون بميثاق ولا يحافظون على عقود ﴿وَأُولَٰئِكَ﴾ أهل الكفر هؤلاء ﴿هُمُ الْمُعْتَدُونَ﴾ المتعدون لحدود الله المنتهكون لحرماته.

﴿فَإِنْ تَابُوا﴾ من شركهم وكفرهم، ورجعوا عن الشرك إلى التوحيد، ومن الكفر إلى الإسلام ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ حافظوا عليها ﴿وَأَتَوُا الزَّكَاةَ﴾ أدوا ما افترضه الله عليهم من الزكوات ﴿فَخِوْا نَكُمْ فِي الدِّينِ﴾ فهم مسلمون والمسلمون إخوة، فمؤمنون والمؤمنون إخوة، لكم ما لهم وعليكم ما عليهم، ونوضح الآيات ونبينها ونظهرها ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ فالذين يعلمون أن الله واحد لا شريك له هم المستفيدون المنتفعون بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وبعموم الآيات.

قال الطبري رحمه الله:

يقول جل ثناؤه: ابتاع هؤلاء المشركون الذين أمركم الله، أيها المؤمنون، بقتلهم حيث وجدتموهم، بتركهم اتباع ما احتج الله به عليهم من حججه، يسيراً من العوض قليلاً من عرض الدنيا.

وذلك أنهم، فيما ذكر عنهم، كانوا نقضوا العهد الذي كان بينهم وبين رسول الله

بِأَكْلِهِ أَطْعَمَهُمُوهَا أَبُو سَفْيَانَ بْنِ حَرْبٍ ^(١).

وأما قوله: ﴿فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ﴾، فإن معناه: فمنعوا الناس من الدخول في الإسلام، وحاولوا ردَّ المسلمين عن دينهم، ﴿إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾، يقول جل ثناؤه: إن هؤلاء المشركين الذين وصفت صفاتهم، ساء عملهم الذي كانوا يعملون، من اشترائهم الكفر بالإيمان، والضلالة بالهدى، وصدّهم عن سبيل الله من آمن بالله ورسوله، أو من أراد أن يؤمن.

وقال في تأويل قوله: ﴿لَا يَرْفُؤُونَ فِي مَوْمِنٍ إِلَّا لَأَ وَلَا ذِمَّةً وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ﴾.

قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: لا يتقي هؤلاء المشركون الذين أمرتكم، أيها المؤمنون بقتلهم حيث وجدتموهم، في قتل مؤمن لو قدورا عليه، ﴿إِلَّا لَأَ وَلَا ذِمَّةً﴾، يقول: فلا تبقوا عليهم، أيها المؤمنون، كما لا يبقون عليكم لو ظهروا عليكم، ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ﴾، يقول: المتجاوزون فيكم إلى ما ليس لهم بالظلم والاعتداء.

وقال في تأويل قوله: ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾.

قال أبو جعفر: يقول جل ثناؤه: فإن رجع هؤلاء المشركون الذين أمرتكم، أيها المؤمنون، بقتلهم عن كفرهم وشركهم بالله، إلى الإيمان به وبرسوله، وأنابوا إلى طاعته، ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾، المكتوبة، فأدّوها بحدودها، ﴿وَأَتَوُا الزَّكَاةَ﴾، المفروضة أهلها، ﴿فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ﴾، يقول: فهم إخوانكم في الدين الذي أمركم الله به، وهو الإسلام، ﴿وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ﴾، يقول: ونبين حجج الله وأدلته على خلقه، ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾، ما بيّن لهم، فنشرحها لهم مفصلة، دون الجهال الذين لا يعقلون عن الله بيانه ومحكم آياته.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى ذمًّا للمشركين وحثًّا للمؤمنين على قتالهم: ﴿أَشْتَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا

(١) الإسناد بذلك ضعيف.

قَلِيلًا ﴿ يَعْنِي: أَنَّهُمْ اعْتَاضُوا عَنْ اتِّبَاعِ آيَاتِ اللَّهِ بِمَا تَهْوَاهُ مِنْ أُمُورِ الدُّنْيَا الْخَسِيسَةِ، ﴿ فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ ﴾ أَي: مَنْعُوا الْمُؤْمِنِينَ مِنْ اتِّبَاعِ الْحَقِّ.

قال السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ:

﴿ أَشْتَرَوْا بِعَايَةِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ أَي: اخْتَارُوا الْحِظَّ الْعَاجِلَ الْخَسِيسَ فِي الدُّنْيَا. عَلَى الْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَالْإِنْقِيَادِ لِآيَاتِ اللَّهِ.

﴿ فَصَدُّوا ﴾ بِأَنْفُسِهِمْ، وَصَدُّوا غَيْرَهُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ﴿ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ لَا يَقْبُضُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً ﴿ أَي لَأَجْلِ عِدَاوَتِهِمْ لِلْإِيمَانِ وَأَهْلِهِ.

فالوصف الذي جعلهم يعادونكم لأجله ويبغضونكم هو الإيمان فذبوا عن دينكم وانصروه واتخذوا من عاداه عدوًّا ومن نصره لكم وليًّا واجعلوا الحكم يدور معه وجودًا وعدمًا لا تجعلوا الولاية والعداوة طبعية تميلون بهما حيثما مال الهوى وتتبعون فيهما النفس الأمارة بالسوء ولهذا ﴿ فَإِنْ تَابُوا ﴾ عَنْ شُرَكَاهُمْ وَرَجَعُوا إِلَى الْإِيمَانِ ﴿ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ ﴾ وَتَنَاسَوُا تِلْكَ الْعِدَاةَ إِذْ كَانُوا مُشْرِكِينَ لَتَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ الْمَخْلُسِينَ وَبِهَذَا يَكُونُ الْعَبْدُ عَبْدًا حَقِيقَةً لِمَا بَيْنَ مِنْ أَحْكَامِهِ الْعَظِيمَةِ مَا بَيْنَ وَوَضَحَ مِنْهَا مَا وَضَحَ أَحْكَامًا وَحُكْمًا وَحُكْمًا وَحِكْمَةً قَالَ: ﴿ وَنُقِصِلُ الْأَبْتِ ﴾ أَي نوضحها ونميزها ﴿ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ فَإِلَيْهِمْ سِيَاقُ الْكَلَامِ وَبِهِمْ تَعْرِفُ الْآيَاتِ وَالْأَحْكَامَ وَبِهِمْ عَرَفَ دِينَ الْإِسْلَامِ وَشَرَائِعَ الدِّينِ.

ا س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ وَإِنْ تَكْثُرُوا أَئِمَّتُهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ

فَقَتِّلُوا أئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ ﴾.

ج: المعنى - والله تعالى أعلم - وإن نقض أهل الشرك هؤلاء العهود التي بينكم وبينهم وعابوا دينكم وانتقصوه فقاتلوا أئمة الضلال منهم كبراءهم ورؤساءهم والسعاة في الشر منهم عمومًا، قاتلوا من نقض العهود والمواثيق وقاتلوا أتباعهم وجندهم إنهم أئمة الكفر هؤلاء لا عهود لهم، لا يوترون عهدًا ولا يفون بميثاق قاتلوهم لعلهم ينتهون عن نقض العهود والمواثيق ولعلهم ينتهون عن الطعن في دينكم وعيب آلهتكم.

وبنحو هذا قال أهل العلم.

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره: فإن نقض هؤلاء المشركون الذين عاهدتموهم من قريش، عهودهم من بعد ما عاهدوكم أن لا يقاتلوكم ولا يظاهروا عليكم أحداً من أعدائكم، ﴿وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ﴾، يقول: وقد حوا في دينكم الإسلام، فثلبوه وعابوه، ﴿فَقَنَلُوا أَيْمَةَ الْكُفْرِ﴾، يقول: فقاتلوا رؤساء الكفر بالله، ﴿إِنَّهُمْ لَا أَيْمَنَ لَهُمْ﴾، يقول: إن رؤساء الكفر لا عهد لهم، ﴿لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُوْكَ﴾، لكي ينتهوا عن الطعن في دينكم والمظاهرة عليكم.

وأورد أقوالاً في بيان أئمة الكفر منها ما أورده عن قتادة بسند حسن: ﴿وإن نكثوا أَيْمَنَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ﴾، إلى: ﴿يَنْتَهُوْكَ﴾، فكان من أئمة الكفر: أبو جهل بن هشام، وأمّية بن خلف، وعتبة بن ربيعة، وأبو سفيان، وسهيل بن عمرو، وهم الذين همّوا بإخراجه.

وأورد بسند صحيح عن مجاهد قال: أبو سفيان منهم.

وأورد الطبري بسند صحيح عن صلة عن عمار بن ياسر في قوله: ﴿لَا أَيْمَنَ لَهُمْ﴾ لا عهد لهم.

ونحوه بسند صحيح عن صلة عن حذيفة.

قال الطبري: وأما (النكث) فإن أصله النقض.

وقال ابن كثير رحمه الله:

يقول تعالى: ﴿وإن نكثوا﴾ هؤلاء المشركون الذين عاهدتموهم على مدة معينة ﴿أَيْمَنَهُمْ﴾، أي: عهودهم ومواثيقهم، ﴿وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ﴾ أي: عابوه وانتقصوه. ومن هاهنا أخذ قتل من سب الرسول، صلوات الله وسلامه عليه، أو من طعن في دين الإسلام أو ذكره بتقص؛ ولهذا قال: ﴿فَقَنَلُوا أَيْمَةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُوْكَ﴾ أي: يرجعون عما هم فيه من الكفر والعناد والضلال.

وقال السعدي (تيسير الكريم الرحمن):

﴿وإن نكثوا أَيْمَنَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ﴾ أي: نقضوها وحلّوها، فقاتلوكم أو أعانوا على قتالكم، أو نقصوكم، ﴿وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ﴾ أي: عابوه، وسخروا منه.

ويدخل في هذا جميع أنواع الطعن الموجهة إلى الدين، أو إلى القرآن، ﴿فَقَتِلُوا
أَيِّمَةَ الْكُفْرِ﴾ أي: القادة فيه، الرؤساء الطاعنين في دين الرحمن، الناصرين لدين
الشیطان، وخصهم بالذكر لعظم جنائتهم، ولأن غيرهم تبع لهم، ولیدل على أن من
طعن في الدين وتصدى للرد عليه، فإنه من أئمة الكفر.
﴿إِنَّهُمْ لَا أَيْمَنَ لَهُمْ﴾ أي: لا عهود ولا موثيق يلازمون على الوفاء بها، بل لا
يزالون خائنين، ناكثين للعهد، لا يوثق منهم.
﴿لَعَلَّهُمْ﴾ في قتالكم إياهم ﴿يَنْتَهُوْا﴾ عن الطعن في دينكم، وربما دخلوا فيه،
ثم حث على قتالهم، وهيج المؤمنين بذكر الأوصاف، التي صدرت من هؤلاء
الأعداء، والتي هم موصوفون بها، المقتضية لقتالهم.

التحريض على قتال من نقضوا العهود

س: وضع معنى قوله تعالى: ﴿الْأَفْتِنُيْلُونَ قَوْمًا نَكَّثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أُولَئِكَ نَخْشَوْنَهُمْ فَأَلَّهَ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾.

ج: المعنى - والله أعلم - ولماذا ترددون في قتال هؤلاء المشركين، فهو تحريض على قتالهم وتوبيخ من تخلف عن قتالهم، ألا تقاتلون قوماً نقضوا العهود والمواثيق إذ قد نقضوا ما بينهم وبين رسول الله ﷺ لما أعانوا بني بكر على حلفاء رسول الله ﷺ من قبيلة خزاعة، فنقضوا العهود، وهموا بإخراج الرسول قبل كذلك من بلده، بل وأخرجوه، وكذا فإنهم بدؤكم بالقتال، وذلك يوم بدر بعد أن سلم الله غيرهم، وكذا بدأوا بالقتال إذ قد اعتدوا على حلفاء رسول الله ﷺ وآزروا غيرهم عليهم، أتخافون يا أصحاب رسول الله أهل الشرك هؤلاء؟! فالله أحق أن تخشوه وتخافون إن كنتم مؤمنين حق الإيمان.

وبنحو هذا قال أهل العلم.

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره للمؤمنين بالله ورسوله، حاضاً لهم على جهاد أعدائهم من المشركين: ﴿الْأَفْتِنُيْلُونَ﴾، أيها المؤمنون، هؤلاء المشركين الذين نقضوا العهد الذي بينكم وبينهم، وطعنوا في دينكم، وظاهروا عليكم أعداءكم، ﴿وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ﴾ من بين أظهرهم فأخرجوه، ﴿وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أُولَئِكَ نَخْشَوْنَهُمْ﴾ بالقتال، يعني فعلهم ذلك يوم بدر، وقيل: قتالهم حلفاء رسول الله ﷺ من خزاعة، ﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ﴾، يقول: أتخافونهم على أنفسكم فتركوا قتالهم خوفاً على أنفسكم منهم، ﴿فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ﴾، يقول: فالله أولى بكم أن تخافوا عقوبته بترككم جهادهم، وتحذروا سخطه عليكم، من هؤلاء المشركين الذين لا يملكون لكم ضرراً ولا نفعاً إلا بإذن الله، ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾، يقول: إن كنتم مقررين أن خشية الله لكم أولى من خشية هؤلاء المشركين على أنفسكم.

وقال ابن كثير رحمه الله:

وهذا أيضاً تهيج وتحضيض وإغراء على قتال المشركين الناكثين لأيمانهم، الذين هموا بإخراج الرسول من مكة، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ ۖ﴾ (٣٠).

[الأنفال: ٣٠]

وقال تعالى: ﴿يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ﴾ الآية [المتحنة: ١] وقال تعالى: ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذَا لَا يَلْبِثُونَ خِلْفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ۖ﴾ (٧٦) [الإسراء: ٧٦] وقوله: ﴿وَهُمْ بَدَأُوكُمْ أُولَئِكَ مِرَّةً﴾ قيل: المراد بذلك يوم بدر، حين خرجوا لنصر غيرهم فلما نجت وعلموا بذلك استمروا على وجوههم طلباً للقتال، بغياً وتكبراً، كما تقدم بسط ذلك.

وقيل: المراد نقضهم العهد وقتالهم مع حلفائهم بني بكر لخزاعة أحلاف رسول الله ﷺ، حتى سار إليهم رسول الله ﷺ عام الفتح، وكان ما كان، والله الحمد. وقوله: ﴿أَتَخَشَّوْنَهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ أَهَقُ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (١٣) يقول تعالى: لا تخشوهم واخشون، فأنا أهل أن يخشى العباد من سطوتي وعقوبي، فبيدي الأمر، وما شئت كان، وما لم أشأ لم يكن.

وقال القرطبي رحمه الله:

قوله تعالى: ﴿أَلَا تَقْنَلُونَ قَوْمًا نَكَرُوا أَيْمَانَهُمْ﴾ توبيخ وفيه معنى التحضيض نزلت في كفار مكة كما ذكرنا آنفاً. ﴿وَهُمْ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْعَهْدِ إِذْ وَاعَىٰ إِلَيْهِمْ فَكُلُوا مِنْ مِمَّا كَفَرُوا بِهِ﴾ وقيل: أخرجوا الرسول ﷺ من المدينة لقتال أهل مكة للنكت الذي كان منهم: عن الحسن. ﴿وَهُمْ بَدَأُوكُمْ﴾ بالقتال. ﴿أُولَئِكَ مِرَّةً﴾ أي نقضوا العهد وأعانوا بني بكر على خزاعة. وقيل: بدؤوكم بالقتال يوم بدر؛ لأن النبي ﷺ خرج للغير ولما أحرزوا غيرهم كان يمكنهم الانصراف، فأبوا إلا الوصول إلى بدر وشرب الخمر بها؛ كما تقدم. ﴿فَاللَّهُ أَهَقُ أَنْ تَخْشَوْهُ﴾ أي تخافوا عقابه في ترك قتالهم من أن تخافوا أن ينالكم في قتالهم مكروه.

وقال الشنقيطي رحمه الله:

ذكر تعالى في هذه الآية الكريمة: أن كفار مكة هموا بإخراجه ﷺ من مكة، وصرح

في مواضع أخر بأنهم أخرجوه بالفعل، كقوله: ﴿يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ﴾ [المتحنة: ١] الآية، وقوله: ﴿وَكَلَّيْنِ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجْنَاكَ﴾ [محمد: ١٣] وقوله: ﴿إِلَّا نَضْرِبُهَا فَعَدَّ نَصْرَهُ اللَّهُ إِذَا أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [التوبة: ٤٠] الآية، وذكر في مواضع أخر: محاولتهم لإخراجه قبل أن يخرجوه، كقوله: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾ [الأنفال: ٣٠]، وقوله: ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا﴾ [الإسراء: ٧٦] الآية.

وقال السعدي رحمه الله:

﴿أَلَا تُقْنِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ﴾ الذي يجب احترامه وتوقيره وتعظيمه؟ وهموا أن يجلوه ويخرجوه من وطنه وسعوا في ذلك ما أمكنهم، ﴿وَهُمْ بِكَدِّكُمْ أَوْلَك مَرَّةً﴾ حيث نقضوا العهد وأعانوا عليكم، وذلك حيث أعانت قريش - وهم معاهدون - بني بكر حلفاءهم على خزاعة حلفاء رسول الله ﷺ، وقاتلوا معهم كما هو مذكور مبسوط في السيرة.

﴿اتَّخَشُونَهُمْ﴾ في ترك قتالهم ﴿فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ فالله أكرم بقتالهم، وأكد ذلك عليكم غاية التأكيد.

فإن كنتم مؤمنين فامثلوا لأمر الله، ولا تخشوهم فتركوا أمر الله، ثم أمر بقتالهم وذكر ما يترتب على قتالهم من الفوائد، وكل هذا حث وإنهاض للمؤمنين على قتالهم.

س: **وضح معنى قوله تعالى: ﴿قَتِلُوهُمْ يَعْذِبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِيهِمْ وَيَضْرِبْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ﴾ (١٤) وَيَذْهَبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (١٥).**

ج: هذا - والله أعلم - أمر من الله ﷻ لعباده المؤمنين، أمر بقتال ناقض العهود من أهل الشرك، وبيان لبعض فوائد هذا القتال، وبشارة لأهل الإيمان، فقال تعالى: ﴿قَتِلُوهُمْ﴾ قاتلوا أهل الشرك ونقض العهود ﴿يَعْذِبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾ ينزل بهم الله العذاب على أيديكم، وذلك من قتل وسبي وجراح وغير ذلك، ﴿وَيُخْزِيهِمْ﴾ ويذلهم ويهينهم، ﴿وَيَضْرِبْكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ يجعل لكم الغلبة عليهم ﴿وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ﴾

﴿مُؤْمِنِينَ﴾ من الغم والضيق والهم الذي حلَّ بها، ﴿وَيَذْهَبَ غِظَ قُلُوبِهِمْ﴾ يذهب الكرب الذي في قلوبهم والحزن الذي في قلوبهم، وبقتالكم أهل الكفر ينزجر من سلم منهم، ومن نجا منهم، ينزجر عن كفره ويقلع عن كفره ويبادر بالدخول في الإسلام ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بخلقه وبما ينفعهم وعليم بكل شيء، ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما يشرع لعباده.

وبنحو هذا قال أهل العلم.

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره: قاتلوا، أيها المؤمنون بالله ورسوله، هؤلاء المشركين الذين نكثوا أيمانهم، ونقضوا عهودهم بينكم وبينهم، وأخرجوا رسول الله ﷺ من بين أظهرهم، ﴿يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾، يقول: يقتلهم الله بأيديكم، ﴿وَيُخْزِيهِمْ﴾، يقول: ويذلهم بالأسر والقهر، ﴿وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ﴾، فيعطيكم الظفر عليهم والغلبة، ﴿وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾، يقول: ويرى داء صدور قوم مؤمنين بالله ورسوله، بقتل هؤلاء المشركين بأيديكم، وإذلالكم وقهركم إياهم. وذلك الداء، هو ما كان في قلوبهم عليهم من الموجدة بما كانوا ينالونهم به من الأذى والمكروه.

وقيل: إن الله عني بقوله: ﴿وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾، صدور خزاعة حلفاء رسول الله ﷺ. وذلك أن قريشاً نقضوا العهد بينهم وبين رسول الله ﷺ بمعونتهم بكراً عليهم.

وقال في تأويل قوله: ﴿وَيَذْهَبَ غِظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

يقول الله تعالى ذكره: ويذهب وجد قلوب هؤلاء القوم المؤمنين من خزاعة، على هؤلاء القوم الذين نكثوا أيمانهم من المشركين، وغمها وكربها بما فيها من الوجد عليهم، بمعونتهم بكراً عليهم.

وقال الطبري أيضاً:

وأما قوله: ﴿وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ﴾، فإنه خبر مبتدأ، ولذلك رفع، وجُزِمَ الأحرافُ الثلاثة قبل ذلك على وجه المجازاة، كأنه قال: قاتلوهم، فإنكم إن قاتلوهم

يعذبهم الله بأيديكم، ويخزهم، وينصركم عليهم، ثم ابتداءً فقال: ﴿وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ﴾، لأن القتال غير موجب لهم التوبة من الله، وهو موجبٌ لهم العذاب من الله، والخزي، وشفاء صدور المؤمنين، وذهاب غيظ قلوبهم، فجزم ذلك شرطاً وجزاءً على القتال، ولم يكن موجباً القتال التوبة، فابتدئ الخبر به ورفعه.

ومعنى الكلام: ويمن الله على من يشاء من عباده الكافرين، فيقبل به إلى التوبة بتوفيقه إياه، ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾، بسرائر عباده، ومن هو للتوبة أهل فيتوب عليه، ومن منهم غير أهل لها فيخذه، ﴿حَكِيمٌ﴾، في تصريح عباده من حال كفر إلى حال إيمان بتوفيقه من وفقه لذلك، ومن حال إيمان إلى كفر، بخذلانه من خذل منهم عن طاعته وتوحيده، وغير ذلك من أمرهم.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

ثم قال تعالى عزيمة على المؤمنين، وبياناً لحكمته فيما شرع لهم من الجهاد مع قدرته على إهلاك الأعداء بأمر من عنده: ﴿قَتَلُوهُمْ يَعْذِبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ﴾ وهذا عام في المؤمنين كلهم. وقال مجاهد وعكرمة، والسدي في هذه الآية: ﴿وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ﴾ يعني: خزاعة.

وأعاد الضمير في قوله: ﴿وَيَذْهَبْ غَيْظُ قُلُوبِهِمْ﴾ عليهم أيضاً.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

﴿وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ﴾ أي: من عباده، ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ أي: بما يصلح عباده، ﴿حَكِيمٌ﴾ في أفعاله وأقواله الكونية والشرعية، فيفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد، وهو العادل الحاكم الذي لا يجور أبداً، ولا يضيع مثقال ذرة من خير وشر، بل يجازي عليه في الدنيا والآخرة.

وقال السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ:

﴿قَتَلُوهُمْ يَعْذِبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾ بالقتل ﴿وَيُخْزِهِمْ﴾ إذا نصركم الله عليهم، وهم الأعداء الذين يطلب خزيهم ويحرص عليه، ﴿وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ هذا وعد من الله وبشارة قد أنجزها.

﴿وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ۖ وَيُذْهِبَ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ﴾ ١٤ ﴿فَإِنْ فِي قُلُوبِهِمْ مِنَ
الْحَنَقِ وَالْغَيْظِ عَلَيْهِمْ مَا يَكُونُ قِتَالَهُمْ وَقَتْلَهُمْ شِفَاءً لِّمَا فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ مِنَ الْغَمِّ
وَالْهَمِّ إِذْ يَرُونَ هَؤُلَاءِ الْأَعْدَاءَ مُحَارِبِينَ لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ سَاعِينَ فِي إِطْفَاءِ نُورِ اللَّهِ وَزَوَالِ
لِلْغَيْظِ الَّذِي فِي قُلُوبِهِمْ وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى مَحَبَّةِ اللَّهِ لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ وَاعْتِنَائِهِ بِأَحْوَالِهِمْ
حَتَّى إِنَّهُ جَعَلَ - مِنْ جَمَلَةِ الْمَقَاصِدِ الشَّرْعِيَّةِ - شِفَاءَ مَا فِي صُدُورِهِمْ وَذَهَابَ غَيْظِهِمْ .
ثُمَّ قَالَ ﴿وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ﴾ ١٥ ﴿ مِنْ هَؤُلَاءِ الْمُحَارِبِينَ بِأَنْ يُوَفِّقَهُمُ لِلدَّخُولِ فِي
الْإِسْلَامِ وَيُزِينَهُ فِي قُلُوبِهِمْ وَيُكْرِهَ إِلَيْهِمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ .
﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ ١٦ يَضَعُ الْأَشْيَاءَ مَوَاضِعَهَا وَيَعْلَمُ مَنْ يَصْلَحُ لِلْإِيمَانِ فِيهِدِيهِ وَمَنْ
لَا يَصْلَحُ فَيَبْقِيهِ فِي غِيهِ وَطُغْيَانِهِ .

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِجَنَّةٍ وَاللَّهُ خَيْرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ (١٦) مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسْجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكَفْرِ أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسْجِدَ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَىٰ أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴾ (١٨)

[التوبة: ١٦-١٨]

س: وضح معنى ما يلي:
﴿ أَمْرَحَسِبْتُمْ - وَلِجَّةٌ - شَهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكَفْرِ - حِطَّتْ أَعْمَالُهُمْ ﴾ .
ج:

الكلمة	معناها
(أَمْرَحَسِبْتُمْ)	أفطنتم.
(وَلِجَّةٌ)	بطانة (من الكفار) - أولياء - من يلج فيكم، وليس منكم (من منافقين ونفاق وكفار وكفر...).
(شَهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكَفْرِ)	مُقرِّين على أنفسهم بأنهم كفار، فاليهودي يقول عن نفسه يهودي، وكذا النصراني يقول عن نفسه أنه نصراني، وكذا المشرك يعلن أنه يعبد مع الله إلهاً آخر، وقيل: أعمالهم شاهدة عليهم بأنهم كفار لكونهم يعملون أعمال الكفار.
(حِطَّتْ أَعْمَالُهُمْ)	ذهب ثوابها - بطلت.

حتمية الابتلاء

س: وضع معنى قوله تعالى: (أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِجَنَّةٍ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ) ﴿١﴾ .

ج: المعنى - والله أعلم - أفظنتم يا أهل الإيمان أن تتركوا بلا ابتلاء ولا اختبار ولا بتكليف ولما يعلم الله صدقكم في دعواكم للإيمان علماً يترتب عليه الثواب والعقاب، ولما يعلم من الممثلين منكم أمره بالجهاد في سبيله، والناكثين عن أمره، أفظنتم يا أهل الإيمان أن تتركوا ولا تختبروا حتى يُعلم الصادق من الكاذب، الصادق الذي والى أهل الإيمان، واتخذهم له بطانة ووالى الله ورسوله، والكاذب الذي والى أهل الكفر، أفحسبتم أن تتركوا دون أن يظهر ذلك منكم كلاب ستكلفوا حتى يظهر ذلك منكم ظهوراً ينبني عليه الثواب والعقاب، وإلا فالله ﷻ خبيرٌ بكل أعمالكم، ومطلع عليها وشاهد، وعليم أيضاً إلى ماذا ستؤول أموركم.

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره للمؤمنين الذين أمرهم بقتال هؤلاء المشركين، الذين نقضوا عهدهم الذي بينهم وبينه بقوله: ﴿ قَتَلُوهُمْ يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ ﴾، الآية، حاضاً على جهادهم: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ ﴾، أيها المؤمنون، أن يترككم الله بغير محنة يمتحنكم بها، وبغير اختبار يختبركم به، فيعرف الصادق منكم في دينه من الكاذب فيه، ﴿ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ ﴾، يقول: أحسبتم أن تتركوا بغير اختبار يعرف به من أهل ولايته المجاهدين منكم في سبيله، من المضيئين أمر الله في ذلك المفرطين، ﴿ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ ﴾، يقول: ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم، والذين لم يتخذوا من دون الله ولا من دون رسوله ولا من دون المؤمنين، ﴿ وَلِجَنَّةٍ ﴾.

هو الشيء يدخل في آخر غيره، يقال منه: «ولج فلان في كذا يلججه، فهو وليجة».

وإنما عنى بها في هذا الموضع: البطانة من المشركين. نهى الله المؤمنين أن يتخذوا من عدوهم من المشركين أولياء، يفشون إليهم أسرارهم، ﴿ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾، يقول: والله ذو خبرة بما تعملون، من اتخاذه من دون الله ودون رسوله والمؤمنين به أولياء وبطانة، بعد ما قد نهاكم عنه، لا يخفى ذلك عليه، ولا

غيره من أعمالكم، والله مجازيكم على ذلك، إن خيرًا فخيرًا، وإن شرًا فشرًا.
وأورد بإسناد صحيح عن ابن زيد، في قوله: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا﴾، إلى قوله:
 ﴿وَلِيجَةٍ﴾، قال: أبى أن يدعهم دون التمهيص. وقرأ: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا
 يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ﴾ [آل عمران: ١٤٢]، ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا
 يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ﴾، الآيات كلها، [البقرة: ٢١٤] أخبرهم أن لا يتركهم حتى
 يمحّصهم ويختبرهم. وقرأ: ﴿الَّذِينَ أَحْسَبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ
 ٢﴾، لا يختبرون ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ
 ٣﴾، [العنكبوت: ١ - ٣]، أبى الله إلا أن يمحّص.

وقال الحافظ ابن كثير رحمه الله:

يقول تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ﴾ أيها المؤمنون أن نترككم مهملين، لا نختبركم
 بأمور يظهر فيها أهل العزم الصادق من الكاذب؟ ولهذا قال: ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ
 جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً﴾ أي: بطانة
 ودخيلة بل هم في الظاهر والباطن على النصيح لله ولرسوله، فاكتمى بأحد القسمين
 عن الآخر، كما قال الشاعر:

وما أدري إذا يمت أرضا أريد الخير أيهما يليني

وقد قال الله تعالى في الآية الأخرى: ﴿أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا
 يُفْتَنُونَ ٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ٣﴾
 [العنكبوت: ١-٣] وقال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ
 وَيَعْلَمَ الصَّادِقِينَ ١٤٢﴾ [آل عمران: ١٤٢]
 وقال تعالى: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ
 اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ﴾ [آل عمران: ١٧٩].

والحاصل أنه تعالى لما شرع الجهاد لعباده، بين أن له فيه حكمة، وهو اختبار
 عبيده: من يطيعه ممن يعصيه، وهو تعالى العالم بما كان وما يكون، وما لم يكن لو
 كان كيف كان يكون؟ فيعلم الشيء قبل كونه، ومع كونه على ما هو عليه، لا إله إلا

هو، ولا رب سواه، ولا راد لما قدره وأمضاه.

قال السعدي رحمه الله:

يقول تعالى لعباده المؤمنين بعد ما أمرهم بالجهاد: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا﴾ من دون ابتلاء وامتحان، وأمر بما يبين به الصادق والكاذب. ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ﴾ أي: علماً يظهر مما في القوة إلى الخارج، ليترتب عليه الثواب والعقاب، فيعلم الذين يجاهدون في سبيله: لإعلاء كلمته ﴿وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِجَنَّةٍ﴾ أي: ولياً من الكافرين، بل يتخذون الله ورسوله والمؤمنين أولياء.

فشرع الله الجهاد ليحصل به هذا المقصود الأعظم، وهو أن يتميز الصادقون الذين لا يتحيزون إلا لدين الله، من الكاذبين الذين يزعمون الإيمان وهم يتخذون الولائج والأولياء من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين. ﴿وَاللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ أي: يعلم ما يصير منكم ويصدر، فيبتليكم بما يظهر به حقيقة ما أنتم عليه، ويجازيكم على أعمالكم خيرها وشرها.

عُمار المساجد من هم؟

س: وضع معنى قوله تعالى: (مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسْجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿١٧﴾) إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسْجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾ .

ج: ما كان من شأن أهل الشرك، وما كان ينبغي لهم، وما كان من خالص قلوبهم أن يعمرُوا مساجد الله بالحضور فيها والصلاة فيها وتوحيد الله فيها، فليس هذا من شأنهم وليس من شأنهم تعظيمها وبنائها وتوقيرها والمساجد إنما بنيت لتوحيد الله ﷻ وإفراده بالعبودية وتوحيده والإخلاص له، وهم - أعني أهل الشرك - ليسوا من ذلك في شيء ولا على شيء منه، وهم يقرون على أنفسهم بأنهم كفار، يقرون على ذلك بصنيعهم الذي يصنعون من الشرك بالله ودعاء غير الله وعبادة الأصنام وكذا يؤدون بألسنتهم على أنفسهم، فإذا سألت النصراني عن دينه قال: نصراني، واليهودي يقول: أنا يهودي والصابئ يقول: إنه صابئ والمشرِك يُقرُّ بعبادة الوثن والصنم ويجادل عن ذلك، بل ويقول: إنه مشرك.

فأمثال هؤلاء لا ينتظر منهم توقيرٌ لمساجد الله ولا عمارة لها، وهؤلاء قد حبطت أعمالهم، ذهب ثوابها، ﴿وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ﴾ ﴿١٧﴾ لشركهم وكفرهم، فالشرك يخلد أهله الذين ماتوا عليه في النار.

أما الذين يعمرُون مساجد الله حضوراً فيها وصلاةً وتوحيداً لله فيها، وكذا بناءً وتنظيفاً وتوقيراً فهم الذين آمنوا بالله وحده لا شريك له وأفردوه بالعبودية وصدقوا بوحديته، وكذا آمنوا باليوم الآخر وما فيه من الحساب والثواب والعقاب، وكذا أقاموا الصلاة كما أمرهم بها ربهم وكما وردت على لسان نبيهم ﷺ، وهذا متضمن الإيمان برسول الله ﷺ وكذا آتوا الزكاة التي افترضها الله عليهم ولم يرهبوا أحداً سوى الله، ولم يخافوا أحداً غير الله، ﴿فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ ﴿١٨﴾ من الذين سلكوا سبيل السلامة والنجاة ووقفوا للعمل بمرضاة الله والسير على الطريق الموصلة إلى جناته ومرضاته.

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره: ما ينبغي للمشركين أن يعمروا مساجد الله وهم شاهدون على أنفسهم بالكفر. يقول: إن المساجد إنما تعمر لعبادة الله فيها، لا للكفر به، فمن كان بالله كافراً، فليس من شأنه أن يعمر مساجد الله.

وأورد بإسناد حسن عن السدي قوله: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسْجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكَفْرِ﴾، يقول: ما ينبغي لهم أن يعمروها. وأما ﴿شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكَفْرِ﴾، فإن النصراني يسأل: ما أنت؟ فيقول: نصراني، واليهودي، فيقول: يهودي، والصابي، فيقول: صابي، والمشرک يقول إذا سأله: ما دينك؟ فيقول: مشرك! لم يكن ليقوله أحد إلا العرب.

وقوله: ﴿أُولَئِكَ حِطَّتْ أَعْمَالُهُمْ﴾، يقول: بطلت وزهبت أجورها، لأنها لم تكن لله بل كانت للشيطان، ﴿وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ﴾، يقول: ماكثون فيها أبداً، لا أحياء ولا أمواتاً.

وقال في تأويل قوله: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسْجِدَ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَىٰ أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾.

يقول تعالى ذكره: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسْجِدَ اللَّهِ﴾، المصدق بوحداية الله، المخلص له العبادة، ﴿وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾، يقول: الذي يصدق ببعث الله الموتى أحياء من قبورهم يوم القيامة، ﴿وَأَقَامَ الصَّلَاةَ﴾، المكتوبة، بحدودها، وأدى الزكاة الواجبة عليه في ماله إلى من أوجبها الله له، ﴿وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ﴾، يقول: ولم يرهب عقوبة شيء على معصيته إياه، سوى الله، ﴿فَعَسَىٰ أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾، يقول: فخليق بأولئك الذين هذه صفتهم، أن يكونوا عند الله ممن قد هداه الله للحق وإصابة الصواب.

قال ابن كثير رحمه الله:

يقول تعالى: ما ينبغي للمشركين بالله أن يعمروا مساجد الله التي بنيت على اسمه وحده لا شريك له. ومن قرأ: «مسجد الله» فأراد به المسجد الحرام، أشرف المساجد في الأرض، الذي بني من أول يوم على عبادة الله وحده لا شريك له. وأسس خليل

الرحمن هذا، وهم شاهدون على أنفسهم بالكفر، أي: بحالهم وقالهم، كما قال السُّدِّي: لو سألت النصراني: ما دينك؟ لقال: نصراني، واليهودي: ما دينك؟ لقال: يهودي، والصابئ، لقال: صابئي، والمشرک، لقال: مشرك.

﴿أُولَئِكَ حِطَّتْ أَعْمَلُهُمْ﴾ أي: بشركهم، ﴿وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَمَا لَهُمْ آلَا يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَائِهِ إِلَّا الْمُنَافِقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٣٤]؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسْجِدَ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ فشهد تعالى بالإيمان لعمار المساجد.

وأورد آثاراً ثم قال:

وقوله: ﴿وَأَقَامَ الصَّلَاةَ﴾ أي: التي هي أكبر عبادات البدن، ﴿وَأَتَى الزَّكَاةَ﴾ أي: التي هي أفضل الأعمال المتعدية إلى بر الخلائق، وقوله: ﴿وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ﴾ أي: ولم يخف إلا من الله تعالى، ولم يخش سواه، ﴿فَعَسَىٰ أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾.

قال السعدي رحمه الله:

يقول تعالى: ﴿مَا كَانَ﴾ أي: ما ينبغي ولا يليق ﴿لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسْجِدَ اللَّهِ﴾ بالعبادة، والصلاة، وغيرها من أنواع الطاعات، والحال أنهم شاهدون ومقرون على أنفسهم بالكفر بشهادة حالهم وفطرهم، وعلم كثير منهم أنهم على الكفر والباطل. فإذا كانوا ﴿شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ بِالْكَفْرِ﴾ وعدم الإيمان، الذي هو شرط لقبول الأعمال، فكيف يزعمون أنهم عُمَّارُ مساجد الله، والأصل منهم مفقود، والأعمال منهم باطلة؟! ولهذا قال: ﴿أُولَئِكَ حِطَّتْ أَعْمَلُهُمْ﴾ أي: بطلت وضلت ﴿وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ﴾.

ثم ذكر من هم عمار مساجد الله فقال: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسْجِدَ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ﴾ الواجبة والمستحبة، بالقيام بالظاهر منها والباطن. ﴿وَأَتَى الزَّكَاةَ﴾ لأهلها ﴿وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ﴾ أي قصر خشيته على ربه، فكف عما حرم الله، ولم يقصر بحقوق الله الواجبة. فوصفهم بالإيمان النافع، وبالقيام بالأعمال الصالحة التي أمَّها الصلاة والزكاة،

وبخشية الله التي هي أصل كل خير، فهؤلاء عمار المساجد على الحقيقة وأهلها الذين هم أهلها.

﴿فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ و «عسى» من الله واجبة. وأما من لم يؤمن بالله ولا باليوم الآخر، ولا عنده خشية لله، فهذا ليس من عمار مساجد الله، ولا من أهلها الذين هم أهلها، وإن زعم ذلك وادعاه.

قال ابن الجوزي في زاد المسير:

فإن قيل: كيف يشهدون على أنفسهم بالكفر. وهم يعتقدون أنهم على الصواب، فعنه ثلاثة أجوبة:

أحدها: أنه قول اليهودي: أنا يهودي وقول النصراني: أنا نصراني، قاله السدي.

والثاني: أنهم ثبتوا على أنفسهم الكفر بعدولهم عن أمر النبي ﷺ وهو حق لا يخفى على مميز فكانوا بمنزلة من شهد على نفسه.

والثالث: أنهم آمنوا بأنبياء شهدوا لمحمد ﷺ بالتصديق، وحرّضوا على اتباعه، فلما آمنوا بهم وكذبوه، دلوا على كفرهم، وجرى ذلك مجرى الشهادة على أنفسهم بالكفر، لأن الشهادة هي تبين وإظهار. ذكرهما ابن الأنباري.

فإن قيل: ما وجه قوله: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنِ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ ولم يذكر الرسول، والإيمان لا يتم إلا به. فالجواب: أن فيه دليلاً على الرسول، لقوله: ﴿وَأَقَامَ الصَّلَاةَ﴾ أي: الصلاة التي جاء بها الرسول، قاله الزجاج. فإن قيل: ﴿فَعَسَىٰ﴾ ترجّح، وفاعل هذه الخصال مهتد بلا شك. فالجواب: أن «عسى» من الله واجبة، قاله ابن عباس. فإن قيل: قد يعمر مساجد الله من ليس فيه هذه الصفات. فالجواب: أن المراد أنه من كان على هذه الصفات المذكورة، كان من أهل عمارتها؛ وليس المراد أن من عمرها كان بهذه الصفة.

المراد بعمارة المساجد

س: ما المراد بعمارة المساجد التي عنها الله بقوله: (مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ)؟

ج: لأهل العلم في ذلك قولان:

أحدهما: دخول المساجد وعبادة الله ﷻ فيها وتوحيده ودعاؤه ورجاؤه وتلاوة كتابه والصلاة له.

الثاني: بناء المساجد وتطهيرها.

قال ابن الجوزي في زاد المسير:

وفي المراد بالعمارة قولان:

أحدهما: دخوله والجلوس فيه. والثاني: البناء له وإصلاحه؛ فكلاهما محظور على الكافر. والمراد من قوله: ﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ ﴾ أي: يجب على المسلمين منعهم من ذلك. قال الزجاج: وقوله: ﴿ شَاهِدِينَ ﴾ حال. المعنى ما كانت لهم عمارته في حال إقرارهم بالكفر ﴿ أُولَئِكَ حِطَّتْ أَعْمَلُهُمْ ﴾ لأن كفرهم أذهب ثوابها.

س: هل ثبت سند حديث: «إِذَا رَأَيْتُمُ الرَّجُلَ يَعْتَادُ الْمَسَاجِدَ فَاشْهَدُوا لَهُ بِالْإِيمَانِ»؟

ج: لم يصح سنده، وقد أخرجه غير واحد من أهل العلم كأحمد والترمذي^(١) وغيرهما وفي سنده دراج يرويه عن أبي الهيثم، هذا سند ضعيف. ولكن على كل حال فمعنى الآية الكريمة قائم بذاته والمعنى واضح فيها وكامنٌ والله أعلم.

(١) أحمد (٦٨/٣)، والترمذي (٣٠٩٣).

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:

(﴿١٩﴾ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ
وَجَاهِدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٩﴾
الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَكْثَرُ دَرَجَةً عِنْدَ
اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ
لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾
يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا ءَابَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا
الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٣﴾
قُلْ إِن كَانَ ءَابَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ
اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسْكَنٌ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ
مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَكُمُ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا
يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٤﴾)

[التوبة: ١٩-٢٤].

س: وضع معنى ما يلي:

﴿سِقَايَةَ الْحَاجِّ - وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ - اسْتَحْبُوا الْكُفْرَ - يَتَوَلَّاهُمْ - وَعَشِيرَتُكُمْ - أَفْتَرَفْتُمُوهَا - كَسَادَهَا - فَتَرَبَّصُوا - بِأَمْرِ﴾.

ج:

الكلمة	معناها
﴿سِقَايَةَ الْحَاجِّ﴾	سقى الحجاج (حمل الماء إلى الحجاج ليشربوا).
﴿وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ﴾	بناء المسجد - تنظيفه - رعايته.
﴿اسْتَحْبُوا الْكُفْرَ﴾	اختاروا الكفر ورضوا به.
﴿يَتَوَلَّاهُمْ﴾	يتخذهم أولياء وبطانة، يصادقهم ويناصرهم ويستنصحهم ويعينهم.
﴿وَعَشِيرَتُكُمْ﴾	أقرباءكم.
﴿أَفْتَرَفْتُمُوهَا﴾	اكتسبتموها - جمعتموها.
﴿كَسَادَهَا﴾	ركودها - بوارها - عدم بيعها.
﴿فَتَرَبَّصُوا﴾	فانتظروا.
﴿بِأَمْرِ﴾	بأمره بفتح مكة - بأمره بتعذيبكم.

ومن فضل الجهاد في سبيل الله

س: اذكر سبب نزول هذه الآية الكريمة: ﴿ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾.

ج: أخرج مسلم في صحيحه من حديث النُّعْمَانُ بْنُ بَشِيرٍ قَالَ: كُنْتُ عِنْدَ مِنْبَرِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ رَجُلٌ: مَا أَبَالِي أَنْ لَا أَعْمَلَ عَمَلًا بَعْدَ الْإِسْلَامِ إِلَّا أَنْ أُسْقِيَ الْحَاجَّ. وَقَالَ آخَرُ: مَا أَبَالِي أَنْ لَا أَعْمَلَ عَمَلًا بَعْدَ الْإِسْلَامِ إِلَّا أَنْ أَعْمُرَ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ. وَقَالَ آخَرُ: الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَفْضَلُ مِمَّا قُلْتُمْ. فَزَجَرَهُمْ عُمَرُ وَقَالَ: لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ عِنْدَ مِنْبَرِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ يَوْمُ الْجُمُعَةِ، وَلَكِنْ إِذَا صَلَّيْتُ الْجُمُعَةَ دَخَلْتُ فَاسْتَفْتَيْتُهُ فِيمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﷻ: ﴿ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ الْآيَةَ إِلَى آخِرِهَا.

هذا، وقد وردت أسباب نزول أخر في أسانيدها ضعف، لكن معنى الآية الكريمة ينظمها، بغض النظر عن الأسماء، أورد هذه الأسباب ابن الجوزي (في زاد المسير)، وأوردها غيره أيضًا.

قال ابن الجوزي:

والثاني: أن العباس بن عبد المطلب قال يوم بدر: لئن كنتم سبقتمونا بالإسلام والهجرة والجهاد، لقد كنا نعمر المسجد الحرام ونسقي الحاج ونفك العاني، فنزلت هذه الآية، رواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس.

والثالث: أن المشركين قالوا: عمارة بيت الله الحرام، والقيام على السقاية، خير ممن آمن وجاهد، وكانوا يفتخرون بالحرم من أجل أنهم أهله، فنزلت هذه الآية، رواه عطية العوفي عن ابن عباس.

والرابع: أن عليًا والعباس وطلحة - يعني سادن الكعبة - افتخروا، فقال طلحة: أنا صاحب البيت، بيدي مفتاحه، ولو أشاء بتُّ فيه، وقال العباس: أنا صاحب

السقاية، والقائم عليها، ولو أشاء بئ في المسجد. وقال علي: ما أدري ما تقولون، لقد صليت ستة أشهر قبل الناس، وأنا صاحب الجهاد، فنزلت هذه الآية، قاله الحسن، والشعبي، والقرظي.

والخامس: أنهم لما أمروا بالهجرة قال العباس: أنا أسقي الحاج، وقال طلحة: أنا صاحب الكعبة فلا نهاجر، فنزلت هذه الآية والتي بعدها، قاله مجاهد. هكذا ذكر مجاهد، وإنما الصواب عثمان بن طلحة؛ لأن طلحة هذا لم يسلم.

والسادس: أن علياً قال للعباس: ألا تلحق بالنبي ﷺ، فقال: ألسْتُ في أفضل من الهجرة، ألسْتُ أسقي حاج بيت الله وأعمر المسجد الحرام؟ فنزلت هذه الآية والتي بعدها، قاله مرة الهمداني، وابن سيرين، قال الزجاج: ومعنى الآية: أجعلتم أهل سقاية الحاج وأهل عمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله، فحذف المضاف، وأقام المضاف إليه مقامه. قال الحسن: كان يُنبذ زبيبٌ، فيسقون الحاج في الموسم. وقال ابن عباس: عمارة المسجد: تجميره، وتخليقه، فأخبر الله أن أفعالهم تلك لا تنفعهم مع الشرك، وسماهم ظالمين لشركهم.

قلت (مصطفى): وكما أسلفت فكلها أسباب في أسانيدھا مقال، ولا يثبت منها إلا حديث النعمان بن بشير. والله أعلم.

ا س: **وضح المعنى الإجمالي لقوله تعالى: ﴿ أَجْعَلْتُمْ سَقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهِدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ (١٨) الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَكْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾ (٢٠) يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَتِهِ وَنُهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّتْ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴾ (٢١) خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ (٢٢).**

ج: المعنى - والله تعالى أعلم - أجعلتم أيها الناس سقيا الحجيج وعمارة المسجد الحرام وكونكم بأيديكم مفاتيح الكعبة وتنظيف المسجد الحرام، وتتميم الناقص من بنيانه كإيمان من آمن بالله واليوم الآخر وجاهد في سبيل الله، أي: أجعلتم من يسقي الحجيج ويعمر المسجد الحرام بالتشييد والبناء، وهو مشرك بالله كالمؤمن الذي يؤمن بالله واليوم الآخر ويجاهد في سبيل الله؟!

فالآية الكريمة تنتظم أكثر من صنف.
فتنتظم المؤمنون الذين رأى بعضهم أن سقيا الحجيج وعمارة المسجد الحرام أفضل.

وتنتظم الذين قالوا: إن عمارة المسجد الحرام أفضل، فقليل لهؤلاء ما حاصله إن الإيمان بالله واليوم الآخر حق الإيمان، والجهاد في سبيل الله لإعلاء كلمة الله أفضل مما ذكرتموه.

وكذا قيل لأهل الشرك الذين رأوا أن سقيا الحجيج، وعمارة المسجد أفضل من الإيمان والهجرة والجهاد.

فقليل لهؤلاء بل لا يستوي المؤمنون المجاهدون مع غيرهم، ولا يستوي المؤمنون المجاهدون مع أهل الشرك الذين كفروا، وإن عمروا المسجد الحرام وإن سقوا الحجيج، لا يستوي هؤلاء وأولئك عند الله والله لا يوفق إلى طاعته ومرضاته وإلى الإيمان به وإلى صالح العمل القوم الظالمين المشركين ما داموا قائمين على شركهم وكفرهم، والله لا يوفق للإيمان من كتبت عليه الشقاوة كذلك، ثم إن الله ﷻ، وبعد أن ذكر هذا الاستفهام التوبيخي في قوله: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ﴾ بيّن من هم الأفضل والأهدى سبيلاً إذ قال: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا﴾ لمدينة رسولهم وإقامة دينهم ﴿وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ﴾ لإعلاء كلمة ربهم بالمال والنفس لهؤلاء ﴿أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ﴾ أعظم من أهل الشرك درجات.

ولا يقال إن أهل الشرك على درجة وهؤلاء أعظم منهم، كلا بل هذا من أفعال التفضيل التي ليس في المقابل منها شيء، كما قال تعالى: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٤]، وأصحاب النار ليسوا على أي شيء من الخيرية.

أما قوله تعالى: ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَآرِغُونَ﴾ الذين نالوا مطلوبهم وهو رضوان الله عليهم ودخولهم جنته، والنجاة من عذابه ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ﴾ يخبرهم بأنه رحمهم وسلمهم ونجّاهم من العذاب ﴿وَرِضْوَانٍ﴾ أي: ويشرهم أيضاً برضاه عنهم ﴿وَجَنَّاتٍ﴾ وحدائق وبساتين ﴿لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ﴾ ما يتنعمون به من صنوف النعيم

﴿مُقِيمٌ﴾ لا يتحول ولا يزول ولا ييغون عنه تحولاً ولا انتقالاً بل هم ﴿خَالِدِينَ﴾ فيها أبداً إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿ثواب عظيم لهؤلاء على طاعتهم له واستقامتهم على أمره.﴾

وهذه بعض أقوال العلماء في ذلك.

قال الطبري رحمه الله:

قال أبو جعفر: وهذا توبيخ من الله تعالى ذكره لقوم افتخروا بالسقاية وسدانة البيت، فأعلمهم جل ثناؤه أن الفخر في الإيمان بالله واليوم الآخر والجهاد في سبيله، لا في الذي افتخروا به من السدانة والسقاية.

وأورد عدداً من الآثار ثم قال: فتأويل الكلام إذا: أجعلتم، أيها القوم، سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام، كإيمان من آمن بالله واليوم الآخر وجاهد في سبيل الله، ﴿لَا يَسْتَوُونَ﴾ هؤلاء، وأولئك، ولا تعتدل أحوالهما عند الله ومنازلهما، لأن الله تعالى لا يقبل بغير الإيمان به وباليوم الآخر عملاً، ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾، يقول: والله لا يوفق لصالح الأعمال من كان به كافراً ولتوحيده جاحداً.

وقال في تأويل قوله: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَهِدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَكْثَرُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾.

وهذا قضاء من الله بين فرق المفتخرين الذين افتخروا أحدهم بالسقاية، والآخر بالسدانة، والآخر بالإيمان بالله والجهاد في سبيله. يقول تعالى ذكره: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ بالله، وصدقوا بتوحيده من المشركين، ﴿وَهَاجَرُوا﴾ دور قومهم ﴿وَجَهِدُوا﴾ المشركين في دين الله، ﴿بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَكْثَرُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ﴾، وأرفع منزلة عنده، من سقاة الحاج وعمّار المسجد الحرام، وهم بالله مشركون، ﴿وَأُولَئِكَ﴾، يقول: وهؤلاء الذين وصفنا صفتهم، أنهم آمنوا وهاجروا وجاهدوا، ﴿هُمُ الْفَائِزُونَ﴾، بالجنة، الناجون من النار.

وقال في تأويل قوله: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ﴾.

يقول تعالى ذكره: يبشر هؤلاء الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله،

﴿رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ﴾، لهم، أنه قد رحمهم من أن يعذبهم، وبرضوان منه لهم، بأنه قد رضي عنهم بطاعتهم إياه، وأدائهم ما كلفهم، ﴿وَجَنَّتِ﴾، يقول: وبساتين، ﴿لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ﴾، لا يزول ولا يبيد، ثابت دائماً أبداً لهم.

وأورد بإسنادٍ رجاله ثقات عن جابر بن عبد الله قال: إذا دخل أهل الجنة الجنة، قال الله سبحانه: أعطيتكم أفضل من هذا، فيقولون: ربنا، أي شيء أفضل من هذا؟ قال: رضواني.

وقال في تأويل قوله: ﴿خَلَدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ (٢٢).

يقول تعالى ذكره: ﴿خَلَدِينَ فِيهَا﴾، ماكثين فيها، يعنى في الجنات، ﴿أَبَدًا﴾، لا نهاية لذلك ولا حد، ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ (٢٢)، يقول: إن الله عنده لهؤلاء المؤمنين الذين نعتهم جل ثناؤه النعت الذي ذكر في هذه الآية، ﴿أَجْرٌ﴾، ثواب على طاعتهم لربهم، وأدائهم ما كلفهم من الأعمال، ﴿عَظِيمٌ﴾، وذلك النعيم الذي وعدهم أن يعطيهم في الآخرة.

وأورد القرطبي رحمه الله حديث النعمان بن بشير في سبب نزول الآية ثم قال:

وهذا المساق يقتضي أنها إنما نزلت عند اختلاف المسلمين في الأفضل من هذه الأعمال. وحيث لا يليق أن يقال لهم في آخر الآية: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (١٩) فتعين الإشكال. وإزالته بأن يقال: إن بعض الرواة تسامح في قوله، فأنزل الله الآية. وإنما قرأ النبي ﷺ الآية على عمر حين سأله فظن الراوي أنها نزلت حيثئذ. واستدل بها النبي ﷺ على أن الجهاد أفضل مما قال أولئك الذين سمعهم عمر، فاستفتى لهم فتلا عليه ما قد كان أنزل عليه، لا أنها نزلت في هؤلاء. والله أعلم.

فإن قيل: فعلى هذا يجوز الاستدلال على المسلمين بما أنزل في الكافرين، ومعلوم أن أحكامهم مختلفة. قيل له: لا يستبعد أن ينتزع مما أنزل الله في المشركين أحكام تليق بالمسلمين. وقد قال عمر: إنا لو شئنا لاتخذنا سلائق وشواء وتوضع صحفة وترفع أخرى ولكننا سمعنا قول الله تعالى: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيْبَتَكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا﴾ [الأحقاف: ٢٠]. وهذه الآية نص في الكفار، ومع ذلك ففهم منها عمر الزجر عما يناسب أحوالهم بعض المناسبة، ولم ينكر عليه أحد من الصحابة. فيمكن

أن تكون هذه الآية من هذا النوع. وهذا نفيس وبه يزول الإشكال ويرتفع الإبهام، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ في موضع رفع بالابتداء. وخبره ﴿أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ﴾. و﴿دَرَجَةً﴾ نصب على البيان، أي من الذين افتخروا بالسقي والعمارة. وليس للكافرين درجة عند الله حتى يقال: المؤمن أعظم درجة. والمراد أنهم قدروا لأنفسهم الدرجة بالعمارة والسقي فخاطبهم على ما قدروه في أنفسهم وإن كان التقدير خطأ كقوله تعالى: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا﴾ [الفرقان: ٢٤]. وقيل: ﴿أَعْظَمُ دَرَجَةً﴾ من كل ذي درجة، أي لهم المزية والمرتبة العلية. ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ بذلك.

وقوله تعالى: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ﴾ أي يعلمهم في الدنيا ما لهم في الآخرة من الثواب الجزيل والنعيم المقيم. والنعيم: لين العيش ورغده.

قوله تعالى: ﴿خَالِدِينَ﴾ نصب على الحال. والخلود الإقامة. ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ أي أعد لهم في دار كرامته ذلك الثواب.

قال السعدي رحمه الله:

لما اختلف بعض المسلمين، أو بعض المسلمين وبعض المشركين، في تفضيل عمارة المسجد الحرام، بالبناء والصلاة والعبادة فيه وسقاية الحاج، على الإيمان بالله والجهاد في سبيله، أخبر الله تعالى بالتفاوت بينهما، فقال: ﴿أَجْعَلْتُمْ سَقَايَةَ الْحَاجِّ﴾ أي: سقيهم الماء من زمزم كما هو المعروف إذا أطلق هذا الاسم، أنه هو المراد ﴿وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ﴾. فالجهاد والإيمان بالله أفضل من سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام بدرجات كثيرة، لأن الإيمان أصل الدين، وبه تقبل الأعمال، وتزكو الخصال. وأما الجهاد في سبيل الله فهو ذروة سنام الدين، الذي به يحفظ الدين الإسلامي ويتسع، وينصر الحق ويخذل الباطل.

وأما عمارة المسجد الحرام وسقاية الحاج، فهي وإن كانت أعمالاً صالحة، فهي متوقفة على الإيمان، وليس فيها من المصالح ما في الإيمان والجهاد، فلذلك قال: ﴿لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ أي: الذين وصفهم الظلم، الذين لا

يصلحون لقبول شيء من الخير، بل لا يليق بهم إلا الشر.

ثم صرح بالفضل فقال: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَهِدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ﴾ بالنفقة في الجهاد وتجهيز الغزاة ﴿وَأَنْفُسِهِمْ﴾ بالخروج بالنفس ﴿أَعْظَمَ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأَوْلَيْكَ هُمْ أَفْكَرُونَ﴾ أي: لا يفوز بالمطلوب ولا ينجو من المرهوب، إلا من اتصف بصفاتهم، وتخلق بأخلاقهم.

﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ﴾ رحمة منه، وكرمًا وبرًا بهم، واعتناء ومحبة لهم، ﴿بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ﴾ أزال بها عنهم الشرور، وأوصل إليهم بها كل خير. ﴿وَرِضْوَانٍ﴾ منه تعالى عليهم، الذي هو أكبر نعيم الجنة وأجله، فيحل عليهم رضوانه، فلا يسخط عليهم أبدًا. ﴿وَجَنَّتْ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ﴾ من كل ما تشتهي الأنفس، وتلذ الأعين، مما لا يعلم وصفه ومقداره إلا الله تعالى، الذي منه أن الله أعد للمجاهدين في سبيله مائة درجة، ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض، ولو اجتمع الخلق في درجة واحدة منها لوسعتهم.

﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ لا ينتقلون عنها، ولا يبغون عنها حولا ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ لا تستغرب كثرة على فضل الله، ولا يتعجب من عظمه وحسنه على من يقول للشيء كن فيكون.

النهي عن موالة الكافرين ولو كانوا من الأقربين

س: **وضح معنى قوله تعالى: (يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا ءَابَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَوَلَّيْكَ هُمْ الظَّالِمُونَ) ﴿٣٣﴾**

ج: **المعنى -** والله أعلم - يا أهل الإيمان يا من آمنتم بالله وصدقتم رسوله ﷺ وأقرتم برسالته وآمنتم بملائكة الله وكتبه ورسله واليوم الآخر، وقضاء الله وقدره وسائر ما أمرتم به، يا هؤلاء لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أنصارًا وأصدقاء وبطانات تناصروهم وتوالونهم وتفشون إليهم بأسراركم ودواخلكم ﴿إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ﴾، إن اختاروا الكفر بديلاً عن الإيمان، ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَوَلَّيْكَ هُمْ الظَّالِمُونَ﴾ بمناصرتهم ومصاحبتهم وإفشاء الأسرار إليهم واستشاراتهم ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ الذين ظلموا أنفسهم وبخسوها حقها وأنزلوها منزلة لا تأمن فيها من العذاب، وبنحو هذا

قال أهل العلم.

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره للمؤمنين به وبرسوله: لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم بطانة وأصدقاء تفشون إليهم أسراركم، وتطلعونهم على عورة الإسلام وأهله، وتؤثرون المكث بين أظهرهم على الهجرة إلى دار الإسلام، ﴿إِنْ أَسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ﴾، يقول: إن اختاروا الكفر بالله، على التصديق به والإقرار بتوحيده، ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ﴾، يقول: ومن يتخذهم منكم بطانة من دون المؤمنين، ويؤثر المقام معهم على الهجرة إلى رسول الله ﷺ ودار الإسلام، ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾، يقول: فالذين يفعلون ذلك منكم، هم الذين خالفوا أمر الله، فوضعوا الولاية في غير موضعها، وعصوا الله في أمره.

وقيل: إن ذلك نزل نهيًا من الله المؤمنين عن موالة أقربائهم الذين لم يهاجروا من أرض الشرك إلى دار الإسلام.

وقال الحافظ ابن كثير رحمه الله:

أمر الله تعالى بمباينة الكفار به، وإن كانوا آباء أو أبناء، ونهى عن موالاتهم ﴿إِنْ أَسْتَحَبُّوا﴾ أي: اختاروا الكفر على الإيمان، وتوعد على ذلك كقوله: ﴿لَا يَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ الآية [المجادلة: ٢٢].

قال القرطبي رحمه الله:

ظاهر هذه الآية أنها خطاب لجميع المؤمنين كافة، وهي باقية الحكم إلى يوم القيامة في قطع الولاية بين المؤمنين والكافرين. وروى فرقة أن هذه الآية إنما نزلت في الحضر على الهجرة ورفض بلاد الكفرة. فالمخاطبة على هذا إنما هي للمؤمنين الذين كانوا بمكة وغيرها من بلاد العرب، خوطبوا بالألوالاء والآباء والإخوة فيكونوا لهم تبعًا في سكنى بلاد الكفر. ﴿إِنْ أَسْتَحَبُّوا﴾ أي أحبوا، كما يقال: استجاب بمعنى أجاب. أي لا تطيعوهم ولا تخصوهم. وخص الله سبحانه الآباء والإخوة إذ لا قرابة

أقرب منها. فنفى الموالاة بينهم كما نفهاها بين الناس بقوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَرَىٰ أَوْلِيَاءَ﴾ [المائدة: ٥١] ليعين أن القرب قرب الأديان لا قرب الأبدان.

ثم قال:

ولم يذكر الأبناء في هذه الآية إذ الأغلب من البشر أن الأبناء هم التبع للآباء. والإحسان والهبة مستثناة من الولاية. قالت أسماء: يا رسول الله، إن أُمِّي قدمت علي رغبة وهي مشركة أفأصلها؟ قال: «صلي أمك» خرجه البخاري. قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ قال ابن عباس: هو مشرك مثلهم لأن من رضي بالشرك فهو مشرك.

وقال السعدي رحمه الله:

يقول تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ اعملوا بمقتضى الإيمان، بأن توالوا من قام به، وتعادوا من لم يقم به. و﴿لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ﴾ الذين هم أقرب الناس إليكم، وغيرهم من باب أولى وأحرى، فلا تتخذوهم ﴿أَوْلِيَاءَ﴾ إِنِ اسْتَحَبُّوا أَي: اختاروا على وجه الرضا والمحبة ﴿الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ﴾. ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ لأنهم تجرؤوا على معاصي الله، واتخذوا أعداء الله أولياء، وأصل الولاية: المحبة والنصرة، وذلك أن اتخاذهم أولياء، موجب لتقديم طاعتهم على طاعة الله، ومحبتهم على محبة الله ورسوله. ولهذا ذكر السبب الموجب لذلك، وهو أن محبة الله ورسوله، يتعين تقديمها على محبة كل شيء، وجعل جميع الأشياء تابعة لهما.

وقال الشنقيطي رحمه الله:

نهى الله تعالى في هذه الآية الكريمة عن موالاة الكفار، ولو كانوا قرباء، وصرح في موضع آخر: بأن الاتصاف بوصف الإيمان مانع من موادة الكفار ولو كانوا قرباء، وهو قوله: ﴿لَا يَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ [المجادلة: ٢٢] الآية.

اس: وضع معنى قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾.

ج: المعنى - والله تعالى أعلم -: قل يا رسول الله لهؤلاء الذين يؤثرون أهاليهم وعشائرهم على أهل الإيمان، وعلى طاعة الله ومرضاته ومرضاة رسوله ﷺ وعلى الجهاد في سبيل الله، قل لهم إن كان حبكم لأبائكم وأبناءكم وإخوانكم وكذا حبكم لأزواجكم وعشائركم وحبكم لدينكم بما فيها من أموال اكتسبتموها، ومن التجارات التي تخشون أن تكسد وتبور، بزعمكم، وكذا إذا كانت مساكنكم التي تعيشون فيها ورضيتم بها مساكن، إذا كان هذا كله أحب إليكم من ﴿اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾، من الإيمان بالله وبرسوله، وأحب إليكم من طاعة الله ورسوله، وأحب إليكم من الجهاد في سبيل الله لإعلاء كلمة الله، فانتظروا ماذا سيحل بكم، انتظروا أمر الله الذي سينزل وسيأتي فقد ينزل عليكم عذابٌ، وقد ينصر الله أهل الإيمان ويفتح عليهم مكة فيندم أهل النفاق الذين قالوا بألستهم ما ليس في قلوبهم، والله لا يوفق لطاعته ولا لمرضاته ولا للعمل الصالح أهل الفسق والفجور والعصيان والانحراف عن الطاعة. وبنحو هذا قال أهل العلم.

قال الطبري رحمه الله:

يقول ع لنبيه محمد ﷺ: ﴿قُلْ﴾ يا محمد، للمتخلفين عن الهجرة إلى دار الإسلام، المقيمين بدار الشرك: إن كان المقام مع آبائكم وأبنائكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم، وكانت ﴿وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا﴾، يقول: اكتسبتموها، ﴿وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا﴾، بفراقكم بلدكم، ﴿وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا﴾، فسكتتموها، ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُمْ﴾، من الهجرة إلى الله ورسوله، من دار الشرك، ومن جهاد في سبيله، يعني: في نصره دين الله الذي ارتضاه، ﴿فَتَرَبَّصُوا﴾، يقول: فتنظروا، ﴿حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ﴾، حتى يأتي الله بفتح مكة، ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾، يقول: والله لا يوفق للخير الخارجين عن طاعته وفي معصيته.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ:

ثم أمر تعالى رسوله أن يتوعد من أثر أهله وقرابته وعشيرته على الله وعلى رسوله وجهاد في سبيله، فقال: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا ﴿١﴾ أَي: اكتسبتموها وحصلتموها ﴿٢﴾ وَبِحَرَثَةٍ تَحْشُونَ كَسَادَهَا وَمَسْكِنٌ تَرْضَوْنَهَا ﴿٣﴾ أَي: تحبونها لطيبها وحسنها، أَي: إِنْ كَانَتْ هَذِهِ الْأَشْيَاءُ ﴿٤﴾ أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا ﴿٥﴾ أَي: فانتظروا ماذا يحل بكم من عقابه ونكاله بكم؛ ولهذا قال: ﴿حَتَّى يَأْتِيَكُمُ اللَّهُ بِأَمْرٍ وَأَلَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٦﴾. وأورد ما أخرجه أحمد والبخاري ^(١) من حديث زُهْرَةَ بِنْتِ مَعْبِدٍ أَنَّهَا سَمِعَتْ جَدَّهَ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ هِشَامٍ قَالَ: كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ وَهُوَ آخِذٌ بِيَدِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِلَّا مِنْ نَفْسِي. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لَا وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِنْ نَفْسِكَ». فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: فَإِنَّهُ الْآنَ وَاللَّهِ لَأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ نَفْسِي. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «الآنَ يَا عُمَرُ».

وقال ابن كثير أيضًا:

وقد ثبت في الصحيح ^(٢) عنه ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَالِدِهِ وَوَلَدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ».

قال القرطبي رَحِمَهُ اللهُ:

لما أمر رسول الله ﷺ بالهجرة من مكة إلى المدينة جعل الرجل يقول لأبيه والأب لابنه والأخ لأخيه والرجل لزوجته: إنا قد أمرنا بالهجرة، فمنهم من تسارع لذلك، ومنهم من أبى أن يهاجر، فيقول: والله لئن لم تخرجوا إلى دار الهجرة لا أنفعكم ولا أنفق عليكم شيئاً أبداً. ومنهم من تتعلق به امرأته وولده ويقولون له: أنشدك بالله ألا تخرج فنضيع بعدك، فمنهم من يرق فيدع الهجرة ويقيم معهم، فنزلت ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنْ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ ﴿١﴾﴾. يقول: إِنْ اخْتَارُوا الْإِقَامَةَ عَلَى الْكُفْرِ بِمَكَّةَ عَلَى الْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَالْهَجْرَةِ إِلَى

(١) البخاري (٦٦٣٢)، وأحمد (٣٣٦/٤)، وقد أورده من طريق الإمام أحمد ولكن أثرت إيراده من البخاري.

(٢) البخاري (بنحوه رقم ١٤)، ومسلم (٤٤).

المدينة ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنكُمْ﴾ بعد نزول الآية ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ ثم نزل في الذين تخلفوا ولم يهاجروا: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ﴾ وهي الجماعة التي ترجع إلى عقد واحد كعقد العشرة فما زاد، ومنه المعاشرة وهي الاجتماع على الشيء. ﴿وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا﴾ يقول: اكتسبتموها بمكة. وأصل الاقتراف اقتطاع الشيء من مكانه إلى غيره. ﴿وَتَحَرَّةٌ نَحْشُونَ كِسَادَهَا﴾ قال ابن المبارك: هي البنات والأخوات إذا كسدن في البيت لا يجدن لهن خاطبًا. قال الشاعر:

كسدن من الفقر في قومهن وقد زادهن مقامي كسودا

﴿وَمَسْكِنٌ تَرْضَوْنَهَا﴾ يقول: ومنازل تعجبكم الإقامة فيها. ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُمْ﴾ من أن تهاجروا إلى الله ورسوله بالمدينة. و﴿أَحَبَّ﴾ خبر كان. ويجوز في غير القرآن رفع «أحب» على الابتداء والخبر، واسم كان مضممر فيها. وأنشد سيبويه:

إذا مت كان الناس صنفان: شامت وآخر مثن بالذي كنت أصنع

وأنشد:

هي الشفاء لدائي لو ظفرت بها وليس منها شفاء الداء مبذول

وفي الآية دليل على وجوب حب الله ورسوله، ولا خلاف في ذلك بين الأمة، وأن ذلك مقدم على كل محبوب. وقد مضى في «آل عمران» معنى محبة الله تعالى ومحبة رسوله. ﴿وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا﴾ صيغته صيغة أمر ومعناه التهديد. يقول: انتظروا. ﴿حَتَّى يَأْتِيَكُمُ اللَّهُ بِأَمْرٍ﴾ يعني القتال وفتح مكة، عن مجاهد. الحسن: بعقوبة آجلة أو عاجلة. وفي قوله: ﴿وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ﴾ دليل على فضل الجهاد، وإشارته على راحة النفس وعلاقتها بالأهل والمال. وسيأتي فضل الجهاد في آخر السورة. وقد مضى من أحكام الهجرة في «النساء» ما فيه كفاية، والحمد لله. وفي الحديث الصحيح: «إن الشيطان قعد لابن آدم ثلاث مقاعد قعد له في طريق الإسلام فقال: لم تذر دينك ودين آبائك فخالفه وأسلم وقعد له في طريق الهجرة فقال له: أتذر مالك وأهلك فخالفه وهاجر ثم قعد في طريق الجهاد فقال له: تجاهد فتقتل فينكح أهلك ويقسم مالك فخالفه وجاهد

فحق على الله أن يدخله الجنة». وأخرجه النسائي من حديث سبرة بن أبي فاكه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الشيطان...» ذكره. قال البخاري: (ابن الفاكه) ولم يذكر فيها اختلافاً. وقال ابن أبي عدي: يقال ابن الفاكه وابن أبي الفاكه. انتهى.

قال السعدي رحمه الله:

﴿قَدْ إِنْ كَانَ أَبَاؤُكُمْ﴾ ومثلهم الأمهات ﴿وَأَبْنَاؤُكُمْ﴾ وَإِخْوَانُكُمْ ﴿فِي النَّسَبِ وَالْعَشِيرَةِ﴾ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ ﴿أَي: قَرَابَاتِكُمْ عَمُومًا﴾ وَأَمْوَالُكُمْ أَقْرَبَتْكُمْ هَا ﴿أَي: اكْتَسَبْتُمُوهَا وَتَعَبْتُمْ فِي تَحْصِيلِهَا، خَصَّهَا بِالذِّكْرِ، لِأَنَّهَا أَرْغَبُ عِنْدَ أَهْلِهَا، وَصَاحِبِهَا أَشَدَّ حِرْصًا عَلَيْهَا مِمَّنْ تَأْتِيهِ الْأَمْوَالُ مِنْ غَيْرِ تَعَبٍ وَلَا كَدٍّ.

﴿وَتَجَرَّةٌ تَحْشُونَ كَسَادَهَا﴾ أَي: رَخَصَهَا وَنَقَصَهَا، وَهَذَا شَامِلٌ لَجَمِيعِ أَنْوَاعِ التِّجَارَاتِ وَالْمَكَاسِبِ مِنْ عَرُوضِ التِّجَارَاتِ، مِنَ الْأَثْمَانِ، وَالْأَوَانِي، وَالْأَسْلِحَةِ، وَالْأَمْتَعَةِ، وَالْحُبُوبِ، وَالْحُرُوثِ، وَالْأَنْعَامِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ.

﴿وَمَسْكَنٌ تَرْضَوْنَهَا﴾ مِنْ حَسَنَتِهَا وَزَخْرَفَتِهَا وَمَوَافَقَتِهَا لِأَهْوَائِكُمْ، فَإِنْ كَانَتْ هَذِهِ الْأَشْيَاءُ ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ﴾ فَأَنْتُمْ فَسَقَةٌ ظَلَمَةٌ.

﴿فَقَرَّبُوهَا﴾ أَي: أَنْتَظِرُوا مَا يَحِلُّ بِكُمْ مِنَ الْعِقَابِ ﴿حَتَّى يَأْتِيَكَ اللَّهُ بِأَمْرٍ﴾ الَّذِي لَا مَرْدَ لَهُ.

﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ أَي: الْخَارِجِينَ عَنْ طَاعَةِ اللَّهِ، الْمَقْدَمِينَ عَلَى مَحَبَةِ اللَّهِ شَيْئًا مِنَ الْمَذْكُورَاتِ.

وهذه الآية الكريمة أعظم دليل على وجوب محبة الله ورسوله، وعلى تقديمها على محبة كل شيء، وعلى الوعيد الشديد والمقت الأكيد، على من كان شيء من هذه المذكورات أحب إليه من الله ورسوله، وجهاد في سبيله.

وعلامة ذلك، أنه إذا عرض عليه أمران، أحدهما يحبه الله ورسوله، وليس لنفسه فيه هوى، والآخر تحبه نفسه وتشتهيه، ولكنه يُفَوِّتُ عليه محبوباً لله ورسوله، أو ينقصه، فإنه إن قدم ما تهواه نفسه، على ما يحبه الله، دل ذلك على أنه ظالم، تارك لما يجب عليه.

قال ابن الجوزي رحمه الله (في زاد المسير):

وفي قوله ﴿حَتَّى يَأْتِيَكَ اللَّهُ بِأَمْرٍ﴾ قولان:

أحدهما: أنه فتح مكة، قاله مجاهد والأكثر، ومعنى الآية: إن كان المقام في أهاليكم، وكانت الأموال التي اكتسبتموها ﴿وَتَحَرُّهُ تَحْشُونَ كَسَادَهَا﴾ لفراقكم بلدكم ﴿وَمَسْكَنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ﴾ من الهجرة، فأقيموا غير مثابين حتى تفتح مكة فيسقط فرض الهجرة.

والثاني: أنه العقاب. قاله الحسن.

دفع إشكالات وجمع بين آيات

س: كيف التوفيق بين قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ (٢٤) وأيضاً ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (١٩) وبين ما حدث من أن الله ﷻ هدى أقواماً لا حصر لهم من أهل الظلم والفسق والكفر إلى الإسلام؟

ج: هنا جوابان يذكرهما العلماء:

أحدهما: أن المراد بالظالمين والفاستقين والكفار الذين لن يهديهم الله هم أهل الشقاوة الذين كتبت عليهم الشقاوة وكتب عليهم أنهم سيموتون على الكفر.

الثاني: أن الله لا يوفق أهل الظلم والفساق ما داموا قائمين على فسقهم ولا يرغبون في ترك ما هم عليه.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:

(لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٧﴾ يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نجسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾ قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿٢٩﴾ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرُ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتِلْهُمْ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا

وَحْدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾ يُرِيدُونَ أَنْ
يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُنِيرَ نُّورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ
﴿٣٢﴾ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ
وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾

[التوبة: ٢٥-٣٣]

س: وضع معنى ما يلي:

﴿مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ - حُنَيْنٍ - وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ - بِمَا رَحُبَتْ - وَلَيُتِمَّ
مُدِيرِينَ - سَكِنَتْهُ - جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا - يَتُوبُ اللَّهُ - نَجَسٌ - عَيْلَةً - وَلَا يَدْرِيُونَ - دِينَ الْحَقِّ -
الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ - الْحِزْبَ - عَنِ يَدٍ - صَغُرُونَ - يُضَاهَوْنَ - أَنَّى
يُؤْفَكُونَ - أَحْبَابَهُمْ - وَرَهْبَتُهُمْ - أَزْكَأَ - مِّنْ دُونِ اللَّهِ - سُبْحَنَهُ - عَمَّا
يُشْرِكُونَ - يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ - وَيَأْبَى اللَّهُ - بِالْهُدَى - لِيُظْهِرَهُ - الَّذِينَ كُفِلَهُ.﴾

ج:

الكلمة	معناها
(مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ) ﴿	غزوات متعددة - معارك متفرقة - أماكن كثيرة
(حُنَيْنٍ) ﴿	موطن بين مكة والطائف، وهو الذي حصلت عنده الغزوة الشهيرة (غزوة حنين)
(وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ) ﴿	ضاقَت عليكم الأرض رغم اتساعها لملاحقة العدو لكم وعدم ووجود مكان للفرار.
(بِمَا رَحُبَتْ) ﴿	بما اتسعت - رغم أنها متسعة.
(وَلَيُتِمَّ مُدِيرِينَ) ﴿	انصرفتم مسرعين هاربين
(سَكِنَتْهُ) ﴿	طمأنينته
(جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا) ﴿	هم الملائكة
(يَتُوبُ اللَّهُ) ﴿	يرجع برحمته - يتفضل على أهل الشرك بهدايتهم
(نَجَسٌ) ﴿	نجس المعتقد - أجناب (في غالب الأحوال على جنابة إذ لا يغتسلون منها)
(عَيْلَةً) ﴿	فقراً - حاجة

لا يتعبدون الله - لا يقرون - لا يتبعون الدين الحق، وهو الإسلام	(وَلَا يَدِينُونَ) ❖
دين الله سبحانه، والله هو الحق	(دِينَ الْحَقِّ) ❖
اليهود والنصارى	(الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ) ❖
مبلغ من المال يدفع كي لا يقاتلوا وكي يأمنوا في بلاد المسلمين	(الْجَزِيَّةَ) ❖
عن قهْرٍ (طائعين) ومكرهين، وقيل: كل يدفع جزيته بيده بلا واسطة	(عَنْ يَدٍ) ❖
أذلاء مُهانون	(صَغِيرُونَ) ❖
يشابهون	(يُضَاهَوْنَ) ❖
من أي وجه يُصرفون عن الحق إلى الباطل	(أَنْفٍ يُؤَفِّكُونَ) ❖
علماءهم	(أَحْبَارَهُمْ) ❖
عبادهم	(وَرُؤُسَهُمْ) ❖
كالأرباب يطيعونهم فيما حرم الله، فيحلوا لهم ما حرمه الله ويحرمون عليهم ما أحله الله فيتبعونهم	(أَرْبَابًا) ❖
غير الله - مع الله	(مِنْ دُونِ اللَّهِ) ❖
تنزه عن الشريك الذي يتخذونه له	(سُبْحَنَهُ، عَمَّا يُشْرِكُونَ) ❖
يخمدوا الإسلام ويمحون معالمه ويشوشون على آياته	(يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ) ❖

d	٨٧	b	سُورَةُ النَّازِعَاتِ	d	السَّهِيلُ لِأَوَّلِ النَّزِيلِ	b
			يمنع الله تحقيق مرادهم	(وَيَأْجِبُ اللَّهُ ﷻ)		
			بالدلالات الواضحات والآيات البينات	(بِالْهُدَى ﷻ)		
			لِيُعْلِيَهُ - لِيَجْعَلَهُ غَالِبًا	(لِيُظْهِرَهُ ﷻ)		
			الأديان الباطلة كلها	(الَّذِينَ كُفُّوا ﷻ)		

غزوة حنين

س: وضح معنى هذه الآيات: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمْ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمُ مُدْبِرِينَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٧﴾﴾.

ج: المعنى - والله أعلم -: لقد نصركم الله يا أهل الإسلام ويا أصحاب رسول الله ﷺ في عدة معارك، وفي عدة أماكن، ولقد نصركم أيضًا يوم حنين إذ خرجتم إليها لقتال العدو الذي كان قد جمع لكم الجموع وأعدَّ لكم العدد، لقد خرجتم إلى حنين وعددكم كثير، وقد اختلط بكم من اختلط من ضعفاء الإيمان من الذين أسلموا حديثًا من أهل مكة، أسلموا على ضعف خرجتم جميعًا، وكان عددكم كبيرًا جدًا. فاغترَّ بعضكم الكثرة وأعجب بها، وكأنه غفل عن أن النصر من عند الله العزيز الحكيم، فلما غفل أغرَّته الكثرة فاغترَّ بها، وكان عدوكم قد أعدَّ لكم عددًا وعُدَدًا، فلم تُجد عنكم كثرتم ولم تدفع عنكم بطش عدوكم فقد انهيار عليكم عدوكم بالنبال، بعد أن كمن لكم وفاجأكم بالنبال تارة يرشقكم بها والسيوف ضربًا مفاجئًا مباغتًا فلم تدروا كيف تصنعون فبحثتم عن موطن للفرار ولا موطن أمامكم ورغم سعة الأرض وانبساطها إلا أن الملاحقة أشد فضاقت عليكم الأرض رغم اتساعها فانصرفتم هاربين مسرعين ممعنين في الفرار.

لكن رسولكم ﷺ لم يفر بل ثبت وثبت معه بعض الفضلاء من أصحابه رضي الله عنهم ثبتهم جميعًا ربههم ع وأنزل عليهم السكينة، وأنزل الله الطمأنينة على رسوله ﷺ وعلى من معه من المؤمنين، فلم يخافوا ولم ينسحبوا ولم يفروا، ولم يهربوا، بل تقدم النبي ﷺ وابن عمه أبو سفيان بن الحارث يقود له الناقة، وكان أبو سفيان بن الحارث أسلم حديثًا، وقبلها كان شديد العداوة لرسول الله ﷺ ولكن لما أسلم حسن إسلامه جدًا، وكان شجاعًا مغوارًا فطفق يقود ناقة النبي ﷺ صوب العدو وناحية العدو، ورسول الله ﷺ لا يبالي بأعداء الله، بل يقول: «أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبد المطلب».

ومع رسول الله ﷺ من أصحابه عدد من المهاجرين والأنصار، ولكنهم كانوا في أول الأمر قلة، كان معه أبو بكر وعمر رضي الله عنهما، وكان معه من آل بيته كما سلف أبو سفيان بن الحارث وابنه، والعباس بن عبد المطلب، وعلي بن أبي طالب، والفضل بن عباس رضي الله عنهما وغيرهم ممن سيأتي بيان بعضهم إن شاء الله، تقدموا صوب العدو، ومكن الله علياً من بعض رؤوس الكفر - كما سيأتي بيانه إن شاء الله - تقدم رسول الله ﷺ واثقاً بالله مستعيناً به مستجيراً مستغيثاً به عليه سكينه من الله هو ومن معه، وأنزل الله ملائكة من السماء بما معها من السكينه، أنزل الله هذه الملائكة جنوداً يؤيد بها رسوله ﷺ ويؤيد بها أهل الإيمان فنصر الله رسوله ﷺ وأهل الإيمان بعد أن صدر من نداءات للأنصار ناداهم العباس عم رسول الله ﷺ، فاجتمعوا حول رسول الله ﷺ من كل صوبٍ وحدث قائلين للعباس وهو يناديهم يا معشر الأنصار يا أصحاب سورة البقرة، ويا من بايعتم تحت الشجرة، وهم يقولون: يا لبيك يا لبيك فاجتمعوا حول رسول الله ﷺ بعد تفرق، والتمموا بعد تمزقٍ وتشتتٍ فتبدلت الأمور والأحوال، ونصر الله ﷺ نبيه والمؤمنين، فطفقوا يضربون رقاب أهل الكفر ويسبون نساءهم ويأخذونهم غنائم ويأخذون سائر الغنائم، فقتل من أهل الكفر من قُتل، وأسر من أُسر وسُبي من سُبي وجمعت الغنائم العظيمة والأموال والسبايا، وذلك أن أهل الكفر من هوازن وغيرهم كانوا قد جمعوا جموعهم وأخرجوا معهم نساءهم وصبيانهم ومواشيهم وأموالهم فمن الله على المؤمنين بالنصر والغنيمة.

ثم إن أهل الشرك لما فروا، أقبلوا إلى رسول الله ﷺ، وقد أسلموا بعد كفر، وأقبلوا على الإسلام بعد إدبار، ولكنهم أقبلوا أيضاً يريدون من رسول الله ﷺ أن يرد إليهم أموالهم ونساءهم وصبيانهم فخيرهم رسول الله ﷺ بين المال والسبي فاخترأوا السبي، فرده رسول الله ﷺ إليهم، على ما سيأتي بيانه.

أما قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ﴾ فمعناه: ويتفضل الله ﷻ على من يشاء من أهل الشرك فيرجع عليه برحمته فيسلم ويقبل الله توبته، ويتوب الله على من فر من أهل الإيمان أيضاً ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ﴾ كثير المغفرة ﴿رَحِيمٌ﴾ بالعباد، ورحيم بالمؤمنين.

وبنحو هذا قال أهل العلم.

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ﴾، أيها المؤمنون، في أماكن حرب توطنون فيها أنفسكم على لقاء عدوكم، ومشاهد تلتقون فيها أنتم وهم كثيرة، ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ﴾، يقول: وفي يوم حنين أيضًا قد نصركم.

و«حنين» وادٍ، فيما ذكر، بين مكة والطائف.

﴿إِذْ أَعْجَبَتْكُم كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا﴾، يقول: فلم تغن عنكم كثرتكم شيئًا، ﴿وَضَافَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾، يقول: وضافت الأرض بسعتها عليكم.

و«الباء» ههنا في معنى «في»، ومعناه: وضافت عليكم الأرض في رحبها، وبرحبها.

يقال منه: «مكان رحيب»، أي واسع. وإنما سميت الرّحاب «رحابًا» لسعتها.

﴿ثُمَّ وَلَيْتُمْ مُدْرِيكُمْ﴾، عن عدوكم منهزمين، ﴿مُدْرِيكُمْ﴾، يقول: وليتموهم، الأدبار، وذلك الهزيمة. يخبرهم ع أن النصر بيده ومن عنده، وأنه ليس بكثرة العدد وشدة البطش، وأنه ينصر القليل على الكثير إذا شاء، ويخلي الكثير والقليل، فيَهْزِمَ الكثير.

وأورد الطبري آثارًا ثم قال:

في تأويل قوله: ﴿ثُمَّ أُنْزِلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾.

يقول تعالى ذكره: ثم من بعد ما ضاقت عليكم الأرض بما رحبت، وتوليتكم الأعداء أديباركم، كشف الله نازل البلاء عنكم، بأنزاله السكينة - وهي الأمانة والطمأنينة - عليكم.

وقد بينا أنها «فعيلة»، من «السكون»، فيما مضى من كتابنا هذا قبل، بما أغنى عن إعادته في هذا الموضع.

﴿وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا﴾، وهي الملائكة التي ذكرت في الأخبار التي قد مضى ذكرها، ﴿وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، يقول: وعذب الله الذين جحدوا وحدانيته ورسالة

رسوله محمد ﷺ، بالقتل وسبّي الأهلين والذراري، وسلب الأموال والذلة، ﴿وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾، يقول: هذا الذي فعلنا بهم من القتل والسبي، ﴿جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾، يقول: هو ثواب أهل جحود وحدانيته ورسالة رسوله.

وقال في تأويل قوله: ﴿ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٢٧).

قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: ثم يتفضل الله بتوفيقه للتوبة والإنابة إليه، من بعد عذابه الذي به عذب من هلك منهم قتلا بالسيف، ﴿عَلَى مَنْ يَشَاءُ﴾، أي يتوب الله على من يشاء من الأحياء، يُقْبَلُ به إلى طاعته، ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ﴾، لذنوب من أناب وتاب إليه منهم ومن غيرهم منها، ﴿رَحِيمٌ﴾، بهم، فلا يعذبهم بعد توبتهم، ولا يؤاخذهم بها بعد إنابتهم.

وقال ابن كثير رحمه الله:

يذكر تعالى للمؤمنين فضله عليهم وإحسانه لديهم في نصره إياهم في مواطن كثيرة من غزواتهم مع رسوله وأن ذلك من عنده تعالى، وتأييده وتقديره، لا بعددهم ولا بُعدهم ونهبهم على أن النصر من عنده، سواء قل الجمع أو كثر، فإن يوم حُنين أعجبتهم كثرتهم، ومع هذا ما أجدى ذلك عنهم شيئا فولوا مدبرين إلا القليل منهم مع رسول الله ﷺ. ثم أنزل الله نصره وتأييده على رسوله وعلى المؤمنين الذين معه، كما سنبينه إن شاء الله تعالى مفصلا ليعلمهم أن النصر من عنده تعالى وحده وبإمداده وإن قل الجمع، فكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله، والله مع الصابرين.

ثم قال رحمه الله:

وقد كانت وقعة: «حُنين» بعد فتح مكة في شوال سنة ثمان من الهجرة، وذلك لما فرغ ﷺ من فتح مكة، وتمهدت أمورها، وأسلم عامة أهلها، وأطلقهم رسول الله ﷺ، فبلغه أن هوازن جمعوا له ليقاتلوه، وأن أميرهم مالك بن عوف النَّضْرِي، ومعه ثقيف بكمالها، وبنو جُشم وبنو سعد بن بكر، وأوزاع من بني هلال، وهم قليل، وناس من بني عمرو بن عامر، وعوف بن عامر، وقد أقبلوا معهم النساء والولدان والشاء والنعم، وجاءوا بقضّهم وقضّيضهم فخرج إليهم رسول الله ﷺ في جيشه الذي

جاء معه للفتح، وهو عشرة آلاف من المهاجرين والأنصار وقبائل العرب، ومعه الذين أسلموا من أهل مكة، وهم الطلقاء في ألفين أيضاً، فسار بهم إلى العدو، فالتقوا بواد بين مكة والطائف يقال له «حنين»، فكانت فيه الوقعة في أول النهار في غلس الصباح، انحدروا في الوادي وقد كمنت فيه هوازن، فلما تواجهوا لم يشعر المسلمون إلا بهم قد ثاوروهم ورشقوا بالنبال، وأصلتوا السيوف، وحملوا حملة رجل واحد، كما أمرهم ملكهم. فعند ذلك ولى المسلمون مدبرين، كما قال الله، ﷺ وثبت رسول الله ﷺ، وهو راكب يومئذ بغلته الشهباء يسوقها إلى نحر العدو، والعباس عمه أخذ بركابها الأيمن، وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب أخذ بركابها الأيسر، يثقلاها لئلا تسرع السير، وهو ينوه باسمه، عليه الصلاة والسلام، ويدعو المسلمين إلى الرجعة ويقول: «أين يا عباد الله؟ إني أنا رسول الله»، ويقول في تلك الحال: «أنا النبي لا كذب... أنا ابن عبد المطلب...».

وثبت معه من أصحابه قريب من مائة، ومنهم من قال: ثمانون، فمنهم: أبو بكر، وعمر، ﷺ، والعباس وعلي، والفضل بن عباس، وأبو سفيان بن الحارث، وأيمن ابن أم أيمن، وأسامة بن زيد، وغيرهم، ﷺ ثم أمر ﷺ عمه العباس - وكان جهير الصوت - أن ينادي بأعلى صوته: يا أصحاب الشجرة - يعني شجرة بيعة الرضوان، التي بايعه المسلمون من المهاجرين والأنصار تحتها، على ألا يفروا عنه - فجعل ينادي بهم: يا أصحاب السمرة ويقول تارة: يا أصحاب سورة البقرة، فجعلوا يقولون: يا لبيك، يا لبيك، وانعطف الناس فجعلوا يترجعون إلى رسول الله ﷺ، حتى إن الرجل منهم إذا لم يطاوعه بغيره على الرجوع، لبس درعه، ثم انحدر عنه، وأرسله، ورجع بنفسه إلى رسول الله ﷺ. فلما اجتمعت شرذمة منهم عند رسول الله ﷺ، أمرهم ﷺ أن يصدقوا الحملة، وأخذ قبضة من التراب بعدما دعا ربه واستنصره، وقال: «اللهم أنجز لي ما وعدتني» ثم رمى القوم بها، فما بقي إنسان منهم إلا أصابه منها في عينيه وفمه ما شغله عن القتال، ثم انهزموا، فاتبع المسلمون أقفاءهم يقتلون ويأسرون، وما تراجع بقية الناس إلا والأسارى مجذلة بين يدي رسول الله ﷺ.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ أَيْضًا:

وفي الصحيحين^(١) من حديث شعبة، عن أبي إسحاق، عن البراء بن عازب، **رضي الله عنه**، أن رجلاً قال له: يا أبا عمار، أفررتم عن رسول الله **ﷺ** يوم حنين، فقال: لكن رسول الله **ﷺ** لم يفر، إن هوازن كانوا قوماً رُماة، فلما لقيناهم وحملنا عليهم انهزموا، فأقبل الناس على الغنائم، فاستقبلونا بالسهام، فانهزم الناس، فلقد رأيت رسول الله **ﷺ** وأبا سفيان بن الحارث أخذ بلجام بغلته البيضاء، وهو يقول: «أنا النبي لا كذب... أنا ابن عبد المطلب».

قلت: وهذا في غاية ما يكون من الشجاعة التامة، إنه في مثل هذا اليوم في حومة الوغى، وقد انكشف عنه جيشه، وهو مع ذلك على بغلة وليست سريعة الجري، ولا تصلح لكرٍّ ولا لفرٍّ ولا لهرب، وهو مع هذا أيضاً يركضها إلى وجوههم وينوّه باسمه ليعرفه من لم يعرفه، صلوات الله وسلامه عليه دائماً إلى يوم الدين، وما هذا كله إلا ثقة بالله، وتوكلاً عليه، وعلماً منه بأنه سينصره، ويتم ما أرسله به، ويظهر دينه على سائر الأديان؛ ولهذا قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ﴾ أي: طمأنينته وثباته على رسوله، ﴿وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: الذين معه، ﴿وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا﴾ وهم الملائكة.

ثم قال **ﷺ:**

وقوله: ﴿ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ قد تاب الله على بقية هوازن، وأسلموا وقدموا عليه مسلمين، ولحقوه وقد قارب مكة عند الجعرانة، وذلك بعد الواقعة بقريب من عشرين يوماً، فعند ذلك خيّرهم بين سبيهم وبين أموالهم، فاختاروا سبيهم، وكانوا ستة آلاف أسير ما بين صبي وامرأة، فردّه عليهم، وقسم أموالهم بين الغانمين، ونفل أناساً من الطلقاء ليتألف قلوبهم على الإسلام، فأعطاهم مائة مائة من الإبل، وكان من جملة من أعطي مائة مالك بن عوف النضري، واستعمله على قومه كما كان، فامتدحه بقصيدته التي يقول فيها:

ما إن رأيت ولا سمعتُ بمثله في الناس كُلّهم بمثلُ مُحَمَّد

(١) البخاري (٢٨٦٤)، ومسلم (١٧٧٦).

وَمَتَى تَشَاءُ يُخْبِرُكَ عَمَّا فِي غَدٍ أَوْفَى وَأَعْطَى لِلْجَزِيلِ إِذَا اجْتَدَى
بِالسَّمْهَرِيِّ وَضَرْبِ كُلِّ مُهَنْدٍ وَإِذَا الْكَتِيبَةُ عَرَدَتْ أَنْبَاهُهَا
فَكَأَنَّهُ لَيْثٌ عَلَى أَشْبَالِهِ وَسَطُ الْهَبَاءِ خَادِرٌ فِي مَرَصَدٍ

وقال السعدي رحمه الله:

يمتن تعالى على عباده المؤمنين، بنصره إياهم في مواطن كثيرة من مواطن اللقاء، ومواضع الحروب والهيحاء، حتى في يوم «حنين» الذي اشتدت عليهم فيه الأزمة، ورأوا من التخاذل والفرار، ما ضاقت عليهم به الأرض على رحبها وسعتها.

وذلك أن النبي ﷺ لما فتح مكة، سمع أن هوازن اجتمعوا لحربه، فسار إليهم ﷺ في أصحابه الذين فتحوا مكة، وممن أسلم من الطلقاء أهل مكة، فكانوا اثني عشر ألفاً، والمشركون أربعة آلاف، فأعجب بعض المسلمين بكثرتهم، وقال بعضهم: لن نغلب اليوم من قلة.

فلما التقوا هم وهوازن، حملوا على المسلمين حملة واحدة، فانهزموا لا يلوي أحد على أحد، ولم يبق مع رسول الله ﷺ، إلا نحو مائة رجل، ثبتوا معه، وجعلوا يقاتلون المشركين، وجعل النبي ﷺ، يركض بغلته نحو المشركين ويقول: «أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبد المطلب».

ولما رأى من المسلمين ما رأى، أمر العباس بن عبد المطلب أن ينادي في الأنصار وبقية المسلمين، وكان رفيع الصوت، فناداهم: يا أصحاب السمرة، يا أهل سورة البقرة.

فلما سمعوا صوته، عطفوا عطفة رجل واحد، فاجتلدوا مع المشركين، فهزم الله المشركين، هزيمة شنيعة، واستولوا على معسكرهم ونسائهم وأموالهم.

وذلك قوله تعالى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ﴾ وهو اسم للمكان الذي كانت فيه الوقعة بين مكة والطائف.

﴿إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا﴾ أي: لم تفدكم شيئاً، قليلاً ولا كثيراً ﴿وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ﴾ بما أصابكم من الهم والغم حين انهزمت

﴿بِمَارَحِبَتِ﴾ أي: على رحبها وسعتها، ﴿ثُمَّ وَلَيْتُمْ مُدْرِيتُ﴾ أي: منهزمين.
 ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ والسكينة ما يجعله الله في
 القلوب وقت القلاقل والزلازل والمفطعات، مما يثبتها، ويسكنها ويجعلها مطمئنة،
 وهي من نعم الله العظيمة على العباد.
 ﴿وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ وهم الملائكة، أنزلهم الله معونة للمسلمين يوم حنين،
 يثبتونهم، ويبشرونهم بالنصر.
 ﴿وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالهزيمة والقتل، واستيلاء المسلمين على نساءهم
 وأولادهم وأموالهم.
 ﴿وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾ يعذبهم الله في الدنيا، ثم يردهم في الآخرة إلى عذاب
 غليظ.

﴿ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ﴾. فتاب الله على كثير ممن كانت
 الواقعة عليهم، وأتوا إلى النبي ﷺ مسلمين تائبين، فرد عليهم نساءهم، وأولادهم.
 ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أي: ذو مغفرة واسعة، ورحمة عامة، يعفو عن الذنوب
 العظيمة للتائبين، ويرحمهم بتوفيقهم للتوبة والطاعة، والصفح عن جرائمهم، وقبول
 توباتهم، فلا يأسن أحد من مغفرته ورحمته، ولو فعل من الذنوب والإجرام ما فعل.

| بعض الوارد من الأحاديث والآثار في غزوة حنين

س: اذكر بعض الأحاديث والآثار الواردة في غزوة حنين؟

ج: أخرج مسلم^(١) في صحيحه من طريق إياس بن سلمة حَدَّثَنِي أَبِي قَالَ: غَزَوْنَا مَعَ
 رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حُنَيْنًا، فَلَمَّا وَاجَهْنَا الْعَدُوَّ تَقَدَّمْتُ، فَأَعْلُو ثَنِيَّةً، فَاسْتَقْبَلَنِي رَجُلٌ مِنَ
 الْعَدُوِّ فَأَرَمِيهِ بِسَهْمٍ، فَتَوَارَى عَنِّي، فَمَا دَرَيْتُ مَا صَنَعَ. وَنَظَرْتُ إِلَى الْقَوْمِ فَإِذَا هُمْ قَدْ
 طَلَعُوا مِنْ ثَنِيَّةٍ أُخْرَى، فَالْتَقَوْا هُمْ وَصَحَابَةُ النَّبِيِّ ﷺ، فَوَلَّى صَحَابَةُ النَّبِيِّ ﷺ، وَأَرْجَعُ
 مُنْهَزِمًا، وَعَلَيَّ بُرْدَتَانِ، مُتَزَرًّا بِأَحَدَاهُمَا مُرْتَدِيًّا بِالْأُخْرَى، فَاسْتَطَلَقَ إِزَارِي، فَجَمَعْتُهُمَا
 جَمِيعًا، وَمَرَرْتُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مُنْهَزِمًا، وَهُوَ عَلَى بَغْلَتِهِ الشَّهْبَاءِ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ
 ﷺ: «لَقَدْ رَأَى ابْنُ الْأَكْوَعِ فَرَعًا» فَلَمَّا غَشَوْا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ نَزَلَ عَنِ الْبَغْلَةِ، ثُمَّ قَبَضَ

فَبَضَّةٌ مِنْ تُرَابٍ مِنَ الْأَرْضِ، ثُمَّ اسْتَقْبَلَ بِهِ وُجُوهَهُمْ، فَقَالَ: «شَاهَتِ الْوُجُوهُ» فَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْهُمْ إِنْسَانًا إِلَّا مَلَأَ عَيْنِيهِ تُرَابًا، يَتْلِكَ الْقَبْضَةَ، فَوَلَّوْا مُدْبِرِينَ. فَهَزَمَهُمُ اللَّهُ ﷻ وَقَسَمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ غَنَائِمَهُمْ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ.

وأخرج مسلم^(١) بسنده إلى ابنِ شِهَابٍ قَالَ: حَدَّثَنِي كَثِيرُ بْنُ عَبَّاسٍ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ قَالَ: قَالَ عَبَّاسٌ: شَهِدْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ حُنَيْنٍ، فَلَزِمْتُ أَنَا وَأَبُو سُفْيَانَ بْنَ الْحَارِثِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ. فَلَمَ نَفَارَقَهُ وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى بَغْلَةٍ لَهُ بَيْضَاءُ، أَهْدَاهَا لَهُ فَرَوْهُ بْنُ ثِقَاتَةَ الْجَذَامِيِّ، فَلَمَّا التَقَى الْمُسْلِمُونَ وَالْكَفَّارُ، وَلَّى الْمُسْلِمُونَ مُدْبِرِينَ، فَطَفِقَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَرْكُضُ بَغْلَتَهُ قَبْلَ الْكَفَّارِ. قَالَ عَبَّاسٌ: وَأَنَا أَخِذْتُ بِلِجَامِ بَغْلَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، أَكْفُفُهَا إِرَادَةً أَنْ لَا تُسْرِعَ، وَأَبُو سُفْيَانَ أَخِذَ بِرِكَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَيُّ عَبَّاسٍ! نَادِ أَصْحَابَ السَّمُرَةِ». فَقَالَ عَبَّاسٌ (وَكَانَ رَجُلًا صَيِّتًا): فَقُلْتُ بِأَعْلَى صَوْتِي: أَيْنَ أَصْحَابُ السَّمُرَةِ؟ قَالَ: فَوَاللَّهِ! لَكَأَنَّ عَطْفَتَهُمْ حِينَ سَمِعُوا صَوْتِي عَطْفَةُ الْبَقْرِ عَلَى أَوْلَادِهَا. فَقَالُوا: يَا لَبِيْكَ! يَا لَبِيْكَ! قَالَ: فَاقْتَتَلُوا وَالْكَفَّارَ وَالِدَّعُوَّةَ فِي الْأَنْصَارِ يَقُولُونَ: يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ! يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ! قَالَ: ثُمَّ قُصِرَتِ الدَّعُوَّةُ عَلَى بَنِي الْحَارِثِ بْنِ الْخَزَرَجِ. فَقَالُوا: يَا بَنِي الْحَارِثِ بْنِ الْخَزَرَجِ! يَا بَنِي الْحَارِثِ بْنِ الْخَزَرَجِ! فَظَنَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ عَلَى بَغْلَتِهِ، كَالْمُتَطَاوِلِ عَلَيْهَا إِلَى قِتَالِهِمْ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «هَذَا حِينَ حَمِيَ الْوُطَيْسُ» قَالَ: ثُمَّ أَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَصِيَّاتٍ فَرَمَى بِهِنَّ وُجُوهَ الْكَفَّارِ. ثُمَّ قَالَ: «انْهَزْمُوا وَرَبِّ مُحَمَّدٍ!» قَالَ: فَذَهَبْتُ أَنْظُرُ فَإِذَا الْقِتَالُ عَلَى هَيْئَتِهِ فِيمَا أَرَى، قَالَ: فَوَاللَّهِ! مَا هُوَ إِلَّا أَنْ رَمَاهُمْ بِحَصِيَّاتِهِ، فَمَا زِلْتُ أَرَى حَدَّهُمْ كَلِيلًا وَأَمْرَهُمْ مُدْبِرًا.

وأخرج البخاري ومسلم^(٢) من طريق أبي إسحاق سَمِعَ الْبَرَاءَ - وَسَأَلَهُ رَجُلٌ مِنْ قَيْسٍ: أَفَرَرْتُمْ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ حُنَيْنٍ؟ فَقَالَ: لَكِنْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لَمْ يَفِرَّ، كَانَتْ هَوَازِنُ رُمَاءٍ وَإِنَّا لَمَّا حَمَلْنَا عَلَيْهِمْ انْكَشَفُوا فَأَكْبَبْنَا عَلَى الْغَنَائِمِ، فَاسْتَقْبَلْنَا بِالسَّهَامِ. وَلَقَدْ رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَلَى بَغْلَتِهِ الْبَيْضَاءِ، وَإِنَّ أَبَا سُفْيَانَ بْنَ الْحَارِثِ أَخِذَ بِرِمَامِهَا

(١) مسلم (١٧٧٥).

(٢) البخاري (٤٣١٧)، ومسلم (١٧٧٦).

وَهُوَ يَقُولُ: «أَنَا النَّبِيُّ لَا كَذِبٌ».

قال ابن إسحاق^(١): وحدثني عاصم بن عمر بن قتادة، عن محمود بن لبيد، عن أبي سعيد الخدري قال: لما أعطى رسول الله ﷺ ما أعطى من تلك العطايا في قريش، وفي قبائل العرب، ولم يكن في الأنصار منها شيء، وجد هذا الحي من الأنصار في أنفسهم، حتى كثرت فيهم القالة، حتى قال قائلهم: لقي الله رسول الله ﷺ قومه، فدخل عليه سعد بن عباد، فقال: يا رسول الله؛ إن هذا الحي من الأنصار قد وجدوا عليك في أنفسهم لما صنعت في هذا الفيء الذي أصبت، قسمت في قومك، وأعطيت عطايا عظاماً في قبائل العرب، ولم يكن في هذا الحي من الأنصار منها شيء. قال: «فَأَيْنَ أَنْتَ مِنْ ذَلِكَ يَا سَعْدُ؟» قال: يا رسول الله؛ ما أنا إلا من قومي. قال: «فاجمع لي قومك في هذه الحظيرة» قال: فجاء رجال من المهاجرين، فتركهم، فدخلوا، وجاء آخرون فردهم، فلما اجتمعوا، أتى سعد، فقال: قد اجتمع لك هذا الحي من الأنصار، فاتاهم رسول الله ﷺ، فحمد الله، وأثنى عليه بما هو أهله، ثم قال: «يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ؛ مَا قَالَهُ بَلَّغْتَنِي عَنْكُمْ، وَجِدَّةً وَجَدْتُمُوهَا فِي أَنْفُسِكُمْ، أَلَمْ آتِكُمْ ضَلَالًا فَهَدَاكُمْ اللَّهُ بِي، وَعَالَةً فَأَغْنَاكُمْ اللَّهُ بِي، وَأَعْدَاءً فَأَلْفَ اللَّهُ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ؟» قالوا: الله ورسوله أمّن وأفضل، ثم قال: «أَلَا تُجِيبُونِي يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ؟» قالوا: بماذا نجيبك يا رسول الله، الله ورسوله المنّ والفصل؟ قال: «أَمَا وَاللَّهِ لَوْ شِئْتُمْ، لَقُلْتُمْ، فَلَصَدَقْتُمْ وَلَصَدَّقْتُمْ: أَتَيْنَا مُكَذِّبًا فَصَدَقْنَاكَ، وَمَخْذُولًا فَنَصَرْنَاكَ، وَطَرِيدًا فَأَوْيْنَاكَ، وَعَائِلًا فَأَسَيْنَاكَ، أَوْ جَدْتُمْ عَلَيَّ يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ فِي أَنْفُسِكُمْ فِي لُعَاعَةٍ مِنَ الدُّنْيَا تَأَلَّفَتْ بِهَا قَوْمًا لِيُسَلِّمُوا، وَوَكَلْتُمْ إِلَى إِسْلَامِكُمْ، أَلَا تَرْضَوْنَ يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ أَنْ يَذْهَبَ النَّاسُ بِالشَّاءِ وَالْبَعِيرِ، وَتَرْجِعُونَ بِرَسُولِ اللَّهِ إِلَى رِحَالِكُمْ، فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَمَا تَنْقَلِبُونَ بِهِ خَيْرٌ مِمَّا يَنْقَلِبُونَ بِهِ، وَلَوْ لَا الْهَجْرَةُ، لَكُنْتُ امْرَأً مِنَ الْأَنْصَارِ، وَلَوْ سَلَكَ النَّاسُ شِعْبًا وَوَادِيًا، وَسَلَكَتِ الْأَنْصَارُ شِعْبًا وَوَادِيًا لَسَلَكَتُ شِعْبَ الْأَنْصَارِ وَوَادِيَهَا، الْأَنْصَارُ شِعَارٌ، وَالنَّاسُ دِثَارٌ، اللَّهُمَّ ارْحَمِ الْأَنْصَارَ وَأَبْنَاءَ الْأَنْصَارِ، وَأَبْنَاءَ أَبْنَاءِ الْأَنْصَارِ».

(١) نقلًا عن زاد المعاد، وسنده حسن.

قال: فبكى القوم حتى أخضلوا لحاهم، وقالوا: رضينا برسول الله ﷺ قسماً وحظاً، ثم انصرف رسول الله ﷺ وتفرقوا.

وأخرج البخاري ومسلم^(١) من حديث عبد الله بن زيد أن رسول الله ﷺ لما فتح حنيناً قسم الغنائم. فأعطى المؤلفة قلوبهم. فبلغه أن الأنصار يحبون أن يصيوا ما أصاب الناس. فقام رسول الله ﷺ فخطبهم. فحمد الله وأثنى عليه. ثم قال: «يا معشر الأنصار ألم أجدكم ضالّالاً فهداكم الله بي وعالة فاعناكم الله بي ومتمفرقين فجمعكم الله بي؟» ويقولون: الله ورسوله آمن. فقال: «ألا تحبونني؟» فقالوا: الله ورسوله آمن. فقال: «أما إنكم لو شئتم أن تقولوا كذا وكذا وكان من الأمر كذا وكذا. لأشياء عددها. زعم عمرؤ أن لا يحفظها. فقال: «ألا ترضون أن يذهب الناس بالشاء والابل، وتذهبون برسول الله ﷺ إلى رحالكُم؟ الأنصار شعار والناس دنار. ولولا الهجرة لكنتُ امرأ من الأنصار. ولو سلك الناس وادياً وشعباً، لسلكت وادي الأنصار وشعبهم. إنكم ستلقون بعدي أثرة. فاصبروا حتى تلقوني على الحوض».

وأخرج البخاري^(٢) من طريق عروة بن الزبير أن مروان والمصور بن مخرمة أخبراه أن رسول الله ﷺ قام حين جاءه وفد هوازن مسلمين فسأله أن يرده إليهم أموالهم وسبيهم، فقال لهم رسول الله ﷺ: «معي من ترون، وأحب الحديث إليّ أصدقّه، فاختاروا إحدى الطائفتين: إما السبي وإما المال. وقد كنتُ استأثيت بكُم» - وكان أنظرهم رسول الله ﷺ بضع عشرة ليلة حين قفل من الطائف - فلما تبين لهم أن رسول الله ﷺ غير راد إليهم إلا إحدى الطائفتين قالوا: فإننا نختار سبينا، فقام رسول الله ﷺ في المسلمين، فأثنى على الله بما هو أهله، ثم قال: «أما بعد فإن إخوانكم قد جاءونا تائبين، وإنني قد رأيت أن أرد إليهم سبيهم، فمن أحب منكم أن يطيب ذلك فليفعل. ومن أحب منكم أن يكون على خطئه حتى نعطيه إياه من أول ما يفيء الله علينا فليفعل. فقال الناس: قد طيبتنا ذلك يا رسول الله. فقال رسول الله ﷺ: «إننا لا ندري من أذن منكم في ذلك ممن لم يأذن فارجعوا حتى يرفع إلينا عرفاؤكم أمركم»

(١) البخاري (٤٣٣٠)، ومسلم (١٠٦١).

(٢) البخاري (٤٣١٨، ٤٣١٩).

فَرَجَعَ النَّاسُ، فَكَلَّمَهُمْ عُرْفَاؤُهُمْ، ثُمَّ رَجَعُوا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَأَخْبَرُوهُ أَنَّهُمْ قَدْ طَيَّبُوا وَأَذْنُوا. هَذَا الَّذِي بَلَغَنِي عَنْ سَيِّ هَوَازِنَ.

أورد الطبري بإسناد حسن^(١) عن قتادة قوله: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ﴾، حتى بلغ: ﴿وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾، قال: «حنين»، ما بين مكة والطائف، قاتل عليها نبي الله هوازن وثقيف، قال: وذكر لنا أنه خرج يومئذ مع رسول الله ﷺ اثنا عشر ألفاً: عشرة آلاف من المهاجرين والأنصار، وألفان من الطُّلُقَاءِ، وذكر لنا أنَّ رجلاً قال يومئذ: «لن نغلب اليوم بكثرة»! قال: وذكر لنا أن الطُّلُقَاءِ انجفلوا يومئذ بالناس، وجلّوا عن نبي الله ﷺ حتى نزل عن بغلته الشهباء. وذكر لنا أن نبي الله قال: «أي رب، آتني ما وعدتني»! قال: والعباسُ أخذ بلجام بغلة رسول الله، فقال له النبي ﷺ: «ناد يا معشر الأنصار، ويا معشر المهاجرين!»، فجعل ينادي الأنصار فخذوا فخذاً، ثم قال: «ناد بأصحاب سورة البقرة!»، قال: فجاء الناس عُتْقًا واحدًا. فالتفت نبي الله ﷺ، وإذا عصابة من الأنصار، فقال: «هل معكم غيركم؟» فقالوا: يا نبي الله، والله لو عمدت إلى بَرَكِ الغِمَادِ من ذي يَمَنِ لَكُنَّا مَعَكَ، ثم أنزل الله نصره، وهزَمَ عدوهم، وتراجع المسلمون. قال: وأخذ رسول الله كفاً من تراب -أو: قبضةً من حصباء- فرمى بها وجوه الكفار، وقال: «شاهت الوجوه!»، فانهزموا. فلما جمع رسول الله ﷺ الغنائم، وأتى الجعرانة، فقسم بها مغنم حنين، وتألَّفَ أناساً من الناس، فيهم أبو سفيان بن حرب، والحارث بن هشام، وسهيل بن عمرو، والأقرع بن حابس، فقالت الأنصار: «أمن الرجل وأثر قومه»! فبلغ ذلك رسول الله ﷺ وهو في قُبَّةٍ له من أَدَمَ، فقال: «يا معشر الأنصار، ما هذا الذي بلغني؟ ألم تكونوا ضلّالاً فهداكم الله، وكنتم أذلةً فأعزكم الله، وكنتم وكنتم!» قال: فقال سعد بن عبادَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ائذن لي فأتكلم! قال: «تكلم». قال: أما قولك: «كنتم ضلّالاً فهداكم الله»، فكنا كذلك، «وكنتم أذلةً فأعزكم الله»، فقد علمت العربُ ما كان حيي من أحياء العرب أَمْنَعُ لما وراء ظهورهم منّا! فقال عمر: يا سعد أتدري من تُكَلِّمُ! فقال: نعم أكلم رسول الله

(١) ولكنه مرسل.

ﷺ. فقال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده، لو سلكَتِ الأنصارُ واديًا والناس واديًا لسلكَت وادي الأنصار، ولولا الهجرة لكنت امرأً من الأنصار». وذكر لنا أن نبي الله ﷺ كان يقول: «الأنصار كَرشي وَعَيْتي، فاقبلوا من مُحسنهم وتجاوزوا عن مسيئهم». ثم قال رسول الله ﷺ: «يا معشر الأنصار، أما ترضون أن ينقلب الناس بالإبل والشاء، وتقبلون برسولِ الله إلى بيوتكم!» فقالت الأنصار: رضينا عن الله ورسوله، والله ما قلنا ذلك إلا حرصاً على رسول الله ﷺ! فقال رسول الله ﷺ: «إن الله ورسوله يصدّقانكم ويعزّزانكم».

وأخرج البخاري^(١) من حديث أبي قتادة قال: خَرَجْنَا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ عَامَ حُنَيْنٍ، فَلَمَّا التَقِينَا كَانَتْ لِلْمُسْلِمِينَ جَوْلَةٌ، فَرَأَيْتُ رَجُلًا مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَدْ عَلَا رَجُلًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ، فَضَرْبَتُهُ مِنْ وَرَائِهِ عَلَى حَبْلِ عَاتِقِهِ بِالسَّيْفِ فَقَطَعْتُ الدَّرْعَ، وَأَقْبَلَ عَلَيَّ فَضَمَّنِي ضُمَّةً وَجَدْتُ مِنْهَا رِيحَ الْمَوْتِ، ثُمَّ أَدْرَكَهُ الْمَوْتُ فَأَرْسَلَنِي، فَلَحِقْتُ عُمرَ فَقُلْتُ: مَا بَالُ النَّاسِ؟ قَالَ: أُمِرُ اللهُ ﷻ. ثُمَّ رَجِعُوا، وَجَلَسَ النَّبِيُّ ﷺ فقال: «مَنْ قَتَلَ قِتِيلًا لَهُ عَلَيْهِ بَيَّةٌ فَلَهُ سَلْبُهُ» فَقُلْتُ: مَنْ يَشْهَدُ لِي؟ ثُمَّ جَلَسْتُ. قَالَ: ثُمَّ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ مثله. فَقُمْتُ فَقُلْتُ: مَنْ يَشْهَدُ لِي؟ ثُمَّ جَلَسْتُ قَالَ: ثُمَّ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ مثله فَقُمْتُ فَقَالَ: «مَا لَكَ يَا أَبَا قَتَادَةَ؟» فَأَخْبَرْتُهُ، فَقَالَ رَجُلٌ: صَدَّقَ وَسَلْبُهُ عِنْدِي، فَأَرْضِه مِنِّي. فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: لَا هَذَا اللَّهُ، إِذَا لَا يَعْمِدُ إِلَى أُسَدٍ مِنْ أُسُدِ اللَّهِ يُقَاتِلُ عَنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﷺ فَيُعْطِيكَ سَلْبَهُ. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «صَدَّقَ فَأَعْطَاهُ» فَأَعْطَانِيهِ، فَأَبْنَعْتَ بِهِ مَخْرَفًا فِي بَنِي سَلِيمَةٍ، فَإِنَّهُ لِأَوَّلِ مَالٍ تَأَثَّلْتُهُ فِي الْإِسْلَامِ.

وأخرج البخاري ^(٢) من حديث أَبِي مُوسَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: لَمَّا فَرَغَ النَّبِيُّ ﷺ مِنْ حُتَيْنٍ بَعَثَ أَبَا عَامِرٍ عَلَى جَيْشٍ إِلَى أَوْطَاسٍ، فَلَقِيَ دُرَيْدَ بْنَ الصَّمَّةِ، فَقَتَلَ دُرَيْدًا، وَهَزَمَ اللَّهُ أَصْحَابَهُ. قَالَ أَبُو مُوسَى: وَبَعَثَنِي مَعَ أَبِي عَامِرٍ، فَرَمِيَ أَبُو عَامِرٍ فِي رُكْبَتِهِ، رَمَاهُ جُشَمِيُّ بَسْهَمٍ فَأَثْبَتَهُ فِي رُكْبَتِهِ، فَاثْنَيْتُ إِلَيْهِ فَقُلْتُ: يَا عَمُّ مَنْ رَمَاكَ، فَأَشَارَ إِلَيَّ أَبِي مُوسَى، فَقَالَ: ذَاكَ قَاتِلِي الَّذِي رَمَانِي، فَقَصَدْتُ لَهُ فَلَحِيقَتُهُ فَلَمَّا رَأَنِي وَلَّى فَاتَّبَعْتُهُ وَجَعَلْتُ

(١) البخاري (٤٣٢١).

(۲) البخاری (۴۳۲۳).

أَقُولُ لَهُ: أَلَا تَسْتَحْيِي أَلَا تَتُبْتُ، فَكَفَّ فَاخْتَلَفْنَا ضَرْبَتَيْنِ بِالسَّيْفِ فَقَتَلْتُهُ، ثُمَّ قُلْتُ لِأَبِي عَامِرٍ: قَتَلَ اللَّهُ صَاحِبَكَ، قَالَ: فَانْزِعْ هَذَا السَّهْمَ فَتَرَعْتُهُ فَتَرَا مِنْهُ الْمَاءُ. قَالَ: يَا ابْنَ أَخِي أَفَرَأَى النَّبِيَّ ﷺ السَّلَامَ، وَقُلْتُ لَهُ: اسْتَغْفِرْ لِي، وَاسْتَخْلَفْنِي أَبُو عَامِرٍ عَلَى النَّاسِ، فَمَكْتُ يَسِيرًا ثُمَّ مَاتَ، فَزَجَعْتُ، فَدَخَلْتُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فِي بَيْتِهِ عَلَى سَرِيرٍ مُرْمَلٍ، وَعَلَيْهِ فِرَاشٌ قَدْ أَثَرَ رِمَالُ السَّرِيرِ بِظَهْرِهِ وَجَنْبَيْهِ، فَأَخْبَرْتُهُ بِخَبَرِنَا وَخَبَرِ أَبِي عَامِرٍ وَقَالَ: قُلْ لَهُ: اسْتَغْفِرْ لِي فَدَعَا بِمَاءٍ فَتَوَضَّأَ ثُمَّ رَفَعَ يَدَيْهِ فَقَالَ: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِعَبِيدِ أَبِي عَامِرٍ» وَرَأَيْتُ بَيَاضَ إِبْطِيهِ ثُمَّ قَالَ: «اللَّهُمَّ اجْعَلْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَوْقَ كَثِيرٍ مِنْ خَلْقِكَ مِنَ النَّاسِ» فَقُلْتُ: وَلِي فَاسْتَغْفِرْ. فَقَالَ: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ قَيْسٍ ذَنْبَهُ وَأَدْخِلْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مُدْخَلًا كَرِيمًا» قَالَ أَبُو بَرْدَةَ: إِحْدَاهُمَا لِأَبِي عَامِرٍ، وَالْأُخْرَى لِأَبِي مُوسَى.

وأخرج ابن إسحاق^(١) في السيرة، وأحمد وغيرهما، بسند حسن من طريق عاصم بن عُمَرَ بْنِ قَتَادَةَ عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ جَابِرٍ عَنْ أَبِيهِ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، قَالَ: لَمَّا اسْتَقْبَلْنَا وَادِي حُثَيْنٍ، انْحَدَرْنَا فِي وَادٍ مِنْ أَوْدِيَةِ تَهَامَةَ أَجْوَفَ حَطُوطٍ، إِنَّمَا نُنْحَدِرُ فِيهِ انْحِدَارًا. قَالَ: وَفِي عِمَايَةِ الصُّبْحِ، وَكَانَ الْقَوْمُ سَبَقُونَا إِلَى الْوَادِي، فَكَمَنُوا لَنَا فِي شِعَابِهِ وَأَحْنَائِهِ وَمَضَابِقِهِ، قَدْ أَجْمَعُوا، وَتَهَيَّئُوا، وَأَعَدُّوا، فَوَاللَّهِ مَا رَاعَنَا وَنَحْنُ مُنْحَطُّونَ إِلَّا الْكِتَابُ، قَدْ شَدُّوا عَلَيْنَا شِدَّةَ رَجُلٍ وَاحِدٍ، وَانْشَمَرَ النَّاسُ رَاجِعِينَ لَا يَلْوِي أَحَدٌ مِنْهُمْ عَلَى أَحَدٍ، وَانْحَاَزَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ذَاتَ الْيَمِينِ ثُمَّ قَالَ: «إِلَى أَيْنَ أَيُّهَا النَّاسُ هَلُمَّ إِلَيَّ أَنَا رَسُولُ اللَّهِ أَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ» وَبَقِيَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ نَفَرٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَأَهْلُ بَيْتِهِ، وَفِيهِمْ ثَبَتَ مَعَهُ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ: أَبُو بَكْرٍ، وَعُمَرُ، وَمِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ: عَلِيٌّ، وَالْعَبَّاسُ، وَأَبُو سُفْيَانَ بْنُ الْحَارِثِ وَابْنُهُ، وَالْفَضْلُ بْنُ الْعَبَّاسِ، وَرَبِيعَةُ بْنُ الْحَارِثِ، وَأَسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ، وَأَيُّمَنُ ابْنُ أُمِّ أَيُّمَنَ، وَقَتْلَ يَوْمئِذٍ، قَالَ: وَرَجُلٌ مِنْ هَوَازِنَ عَلَى جَمَلٍ لَهُ أَحْمَرٌ بِيَدِهِ رَايَةُ سَوْدَاءَ فِي رَأْسِ رُمْحٍ طَوِيلٍ أَمَامَ هَوَازِنَ، وَهَوَازِنُ خَلْفَهُ، إِذَا أَدْرَكَ طَعَنَ بِرُمْحِهِ، وَإِذَا فَاتَهُ النَّاسُ، رَفَعَهُ لِمَنْ وَرَاءَهُ فَاتَّبَعُوهُ، فَبَيْنَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ أَهْوَى عَلَيْهِ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ، وَرَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ يُرِيدَانِهِ، قَالَ: فَاتَى عَلِيٌّ مِنْ خَلْفِهِ، فَضَرَبَ عِرْقُوبِي

(١) ابن إسحاق في السيرة (ص ٥٥٣)، وأحمد (٣/ ٣٧٦).

الْجَمَلِ، فَوَقَعَ عَلَى عَجْزِهِ، وَوَثَبَ الْأَنْصَارِيُّ عَلَى الرَّجُلِ فَضْرَبَهُ ضَرْبَةً أَطْنَّ قَدَمُهُ بِنِصْفِ سَاقِهِ، فَأَنْجَعَفَ عَنْ رَحْلِهِ، قَالَ: فَاجْتَلَدَ النَّاسُ قَالَ: فَوَاللَّهِ مَا رَجَعْتُ رَاجِعَةً النَّاسُ مِنْ هَزِيمَتِهِمْ حَتَّى وَجَدُوا الْأَسَارَى عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ.

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَحَدَّثَنِي عَاصِمُ بْنُ عُمَرَ بْنِ قَتَادَةَ، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ جَابِرٍ، عَنْ أَبِيهِ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: وَرَجُلٌ مِنْ هَوَازِنَ عَلَى جَمَلٍ لَهُ أَحْمَرٌ، بِيَدِهِ رَايَةٌ سَوْدَاءُ فِي رَأْسِ رُمْحٍ لَهُ طَوِيلٌ، أَمَامَ هَوَازِنَ، وَهَوَازِنُ خَلْفَهُ، إِذَا أَدْرَكَ طَعَنَ بِرُمْحِهِ، وَإِذَا فَاتَهُ النَّاسُ رَفَعَ رُمْحَهُ لِمَنْ وَرَاءَهُ فَاتَّبَعُوهُ^(١).

وَعَنْ^(٢) أَبِي وَقِيدٍ اللَّيْثِيِّ، أَنَّ الْحَارِثَ بْنَ مَالِكٍ قَالَ: خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِلَى حُنَيْنٍ وَنَحْنُ حَدِيثُو عَهْدٍ بِالْجَاهِلِيَّةِ، قَالَ: فَسَرْنَا مَعَهُ إِلَى حُنَيْنٍ، قَالَ: وَكَانَتْ لِكُفَّارٍ فُرُشٌ وَمَنْ سِوَاهُمْ مِنَ الْعَرَبِ لَهُمْ شَجَرَةٌ عَظِيمَةٌ خَضِرَاءُ، يُقَالُ لَهَا: ذَاتُ أَنْوَاطٍ، يَأْتُونَهَا كُلَّ سَنَةٍ، فَيَعْلَقُونَ أَسْلِحَتَهُمْ عَلَيْهَا، وَيَذْبَحُونَ عِنْدَهَا، وَيَعْكُفُونَ عَلَيْهَا يَوْمًا. قَالَ: فَزَأَيْنَا وَنَحْنُ نَسِيرُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ سِدْرَةَ خَضِرَاءَ عَظِيمَةً، قَالَ: فَتَنَادَيْنَا مِنْ جَنَابَاتِ الطَّرِيقِ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، اجْعَلْ لَنَا ذَاتَ أَنْوَاطٍ كَمَا لَهُمْ ذَاتُ أَنْوَاطٍ. قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «اللَّهُ أَكْبَرُ قُلْتُمْ وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ كَمَا قَالَ قَوْمُ مُوسَى لِمُوسَى: ﴿اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ بَٰجِلُونَ»^(٣٨) ﴿إِنَّهَا السَّنَنُ لَتَرْكَبَنَّ سُنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ﴾.

وَأَخْرَجَ مُسْلِمٌ^(٣) مِنْ حَدِيثِ أَنَسٍ أَنَّ أُمَّ سُلَيْمٍ اتَّخَذَتْ يَوْمَ حُنَيْنٍ خِنْجَرًا. فَكَانَ مَعَهَا. فَرَأَاهَا أَبُو طَلْحَةَ. فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! هَذِهِ أُمُّ سُلَيْمٍ مَعَهَا خِنْجَرٌ. فَقَالَ لَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا هَذَا الْخِنْجَرُ؟» قَالَتْ: اتَّخَذْتُهُ. إِنَّ دَنَا مِنِّي أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ بَقَرْتُ بِهِ بَطْنَهُ. فَجَعَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَضْحَكُ. قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! اقْتُلْ مَنْ بَعَدَنَا مِنَ الطُّلُقَاءِ أَنْهَزُوا بِكَ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَا أُمَّ سُلَيْمٍ إِنَّ اللَّهَ قَدْ كَفَى وَأَحْسَنَ».

بعض الفوائد التي ذكرها ابن القيم رحمه الله في غزوة حنين:

قال ابن القيم رحمه الله (زاد المعاد):

(١) وإسناده حسن أيضًا.

(٢) صحيح: أخرجه ابن إسحاق في السيرة، والترمذي (٢١٨٠)، وأحمد (٢١٨/٥)، وغيرهم.

(٣) مسلم (١٨٠٩).

فصل: فى الإشارة إلى بعض ما تضمنته هذه الغزوة من المسائل الفقهية والنكت الحكيمة

كان الله ﷻ قد وعد رسوله، وهو صادق الوعد، أنه إذا فتح مكة، دخل الناس في دينه أفواجا، ودانت له العرب بأسرها، فلما تم له الفتح المبين، اقتضت حكمته تعالى أن أمسك قلوب هوازن ومن تبعها عن الإسلام، وأن يجمعوا ويتألبوا لحرب رسول الله ﷺ والمسلمين، ليظهر أمر الله، وتمايم إعزازه لرسوله، ونصره لدينه، ولتكون غنائمهم شكريا لأهل الفتح، وليظهر الله سبحانه رسوله وعباده، وقهره لهذه الشوكة العظيمة التي لم يلق المسلمون مثلها، فلا يقاومهم بعد أحد من العرب، ولغير ذلك من الحكم الباهرة التي تلوح للمتأملين، وتبدو للمتوسمين

واقترضت حكمته سبحانه أن أذاق المسلمين أولاً مرارة الهزيمة والكسرة مع كثرة عددهم، وعددهم، وقوة شوكتهم ليطامن رؤوسا رفعت بالفتح، ولم تدخل بلده وحرمة كما دخله رسول الله ﷺ واضعاً رأسه منحنياً على فرسه، حتى إن ذقنه تكاد تمس سرجه تواضعاً لربه، وخضوعاً لعظمته، واستكانة لعزته، أن أحل له حرمة وبلده، ولم يحل لأحد قبله ولا لأحد بعده، وليبين سبحانه لمن قال: «لن تغلب اليوم عن قلة» أن النصر إنما هو من عنده، وأنه من ينصره، فلا غالب له، ومن يخذله، فلا ناصر له غيره، وأنه سبحانه هو الذى تولى نصر رسوله ودينه، لا كثر تكم التي أعجبتكم، فإنها لم تغن عنكم شيئا، فوليتم مدبرين، فلما انكسرت قلوبهم، أرسلت إليها خلج الجبر مع برید النصر، فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين، وأنزل جنودا لم تروها، وقد اقتضت حكمته أن خلج النصر وجوائزه إنما تفيض على أهل الانكسار: ﴿وَرِيدُ أَنْ تَمَنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتَضَعُوا فِي الْأَرْضِ وَيَجْعَلَهُمْ أَيْمَةً وَيَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ ﴿٥﴾ وَتُمْكِنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنَرَى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَهُنَالَيْكُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾ [القصص: ٥، ٦].

ومنها: أن الله سبحانه لما منع الجيش غنائم مكة، فلم يغنموا منها ذهابا، ولا فضة، ولا متاعا، ولا سبيًا، ولا أرضًا كما روى أبو داود، عن وهب ابن منبه، قال:

سألت جابراً: هَلْ غَنِمُوا يَوْمَ الْفَتْحِ شَيْئاً؟ قال: لا^(١). وكانوا قد فتحوها بإيجاف الخيل والركاب، وهُم عشرةُ آلاف، وفيهم حاجة إلى ما يحتاج إليه الجيش من أسباب القوة، فحرَّك سبحانه قلوبَ المشركين لغزوهم، وقذف في قلوبهم إخراج أموالهم، ونعمهم، وشائهم، وسبيهم معهم نُزْلاً، وضيافةً، وكرامةً، لحزبه وجنده، وتَمَّ تقديره سبحانه بأن أطمعهم في الظفر، وألاح لهم مبادئ النصر، ليقضى الله أمراً كان مفعولاً، فلما أنزل الله نصره على رسوله وأوليائه، وبردت الغنائم لأهلها، وجرت فيها سهامُ الله ورسوله، قيل: لا حاجة لنا في دمائكم، ولا في نسائكم وذرائعكم، فأوحى الله سبحانه إلى قلوبهم التوبة والإجابة، فجاءوا مسلمين. فقيل: إن من شُكر إسلامكم وإتيانكم أن نردَّ عليكم نساءكم وأبناءكم وسبيكم، وإن يعلم الله في قلوبكم خيراً يؤتكم خيراً ممَّا أخذ منكم ويغفر لكم والله غفورٌ رحيمٌ ﴿٧٠﴾ [الأنفال: ٧٠].

ومنها: أن الله سبحانه افتتح غزو العرب بغزوة بدر، وختم غزوهم بغزوة حنين، ولهذا يُقرَن بين هاتين الغزاتين بالذكر، فيقال: بدرٌ وحنين، وإن كان بينهما سبع سنين، والملائكة قاتلت بأنفسها مع المسلمين في هاتين الغزاتين، والنبى ﷺ رمى في وجوه المشركين بالحصباء فيهما، وهاتين الغزاتين طُفئت جمرَةُ العرب لغزو رسول الله ﷺ والمسلمين، فالأولى: خوفتهم وكسرت من حدَّهم، والثانية: استفرغت قواهم، واستنفدت سهامهم، وأذلت جمعهم حتى لم يجدوا بُداً من الدخول في دين الله.

ومنها: أن الله سبحانه جَبَر بها أهل مكة، وفرَّحهم بما نالوه من النصر والمغنم، فكانت كالدواء لما نالهم من كسرهم، وإن كان عين جبرهم، وعرفهم تمام نعمته عليهم بما صرف عنهم من شر هوازن، فإنه لم يكن لهم بهم طاقة، وإنما نُصِرُوا عليهم بالمسلمين، ولو أفردوا عنهم، لأكلهم عدوهم... إلى غير ذلك من الحكم التي لا يُحيط بها إلا الله تعالى.

فصل

وفيها من الفقه: أن الإمام ينبغي له أن يبعث العيونَ ومن يدخل بين عدوه ليأتيه

(١) حسن: أخرجه أبو داود (٣٠٢٣)، وابن سعد (١٤٣/٢).

بخبهرهم، وأن الإمام إذا سمع بقصد عدوه له، وفي جيشه قوة ومنعة لا يقعد ينتظرهم، بل يسير إليهم، كما سار رسول الله ﷺ إلى هوازن حتى لقيهم بحنين.

ومنها: أن الإمام له أن يستعير سلاح المشركين وعدتهم لقتال عدوه، كما استعار رسول الله ﷺ أدرع صفوان، وهو يومئذ مشرك.

ومنها: أن من تمام التوكل استعمال الأسباب التي نصبها الله لمسيباتها قدرًا وشرعًا، فإن رسول الله ﷺ وأصحابه أكمل الخلق توكلًا، وإنما كانوا يلقون عدوهم، وهم متحصنون بأنواع السلاح، ودخل رسول الله ﷺ مكة، والبيضة على رأسه، وقد أنزل الله عليه: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧].

وكثير ممن لا تحقيق عنده، ولا رسوخ في العلم يستشكل هذا، ويتكاس في الجواب تارة بأن هذا فعله تعليمًا للأمة، وتارة بأن هذا كان قبل نزول الآية. ووقعت في مصر مسألة سأل عنها بعض الأمراء، وقد ذكر له حديث ذكره أبو القاسم بن عساكر في «تاريخه الكبير» أن رسول الله ﷺ كان بعد أن أهدت له اليهودية الشاة المسمومة لا يأكل طعامًا قدّم له حتى يأكل منه من قدّمه^(١).

قالوا: وفي هذا أسوة للملوك في ذلك. فقال قائل: كيف يجمع بين هذا وبين قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾؟ فإذا كان الله سبحانه قد ضمن له العصمة، فهو يعلم أنه لا سبيل لبشر إليه.

وأجاب بعضهم: بأن هذا يدل على ضعف الحديث، **وبعضهم:** بأن هذا كان قبل نزول الآية، فلما نزلت لم يكن ليفعل ذلك بعدها، ولو تأمل هؤلاء أن ضمان الله له العصمة، لا ينافي تعاطيه لأسبابها، لأغناهم عن هذا التكلف، فإن هذا الضمان له من ربه ع لا يناقض احتراسه من الناس، ولا ينافيه، كما أن إخبار الله سبحانه له بأنه يظهر دينه على الدين كله، ويعليه، لا يناقض أمره بالقتال، وإعداد العدة، والقوة، ورباط الخيل، والأخذ بالجد، والحذر، والاحتراس من عدوه، ومحاربتة بأنواع الحرب، والتورية، فكان إذا أراد الغزوة، ورى غيرها، وذلك لأن هذا إخبار من الله سبحانه

(١) أخرجه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (١٤٧/٢٢) بسند فيه من لا يعرف.

عن عاقبة حاله ومآله بما يتعاطاه من الأسباب التي جعلها الله مُفضية إلى ذلك، مقتضية له، وهو ﷺ أعلم بربه، وأتبع لأمره من أن يعطل الأسباب التي جعلها الله له بحكمته موجبة لما وعده به من النصر والظفر، وإظهار دينه، وغلبته لعدوه، وهذا كما أنه سبحانه ضمن له حياته حتى يُبلِّغ رسالاته، ويُظهر دينه، وهو يتعاطى أسباب الحياة من المأكل والمشرب، والملبس والمسكن، وهذا موضع يغلط فيه كثير من الناس، حتى آل ذلك ببعضهم إلى أن ترك الدعاء، وزعم أنه لا فائدة فيه، لأن المسؤول إن كان قد قُدِّر، ناله ولا بد، وإن لم يُقدَّر، لم ينله، فأى فائدة في الاشتغال بالدعاء؟ ثم تكايس في الجواب، بأن قال: الدعاء عبادة، فيقال لهذا الغالط: بقى عليك قسم آخر وهو الحق أنه قد قُدِّر له مطلوبه بسبب إن تعاطاه، حصل له المطلوب، وإن عطل السبب، فاته المطلوب، والدعاء من أعظم الأسباب في حصول المطلوب، وما مثل هذا الغالط إلا مثل من يقول: إن كان الله قد قُدِّر لى الشبع، فأنا أشبع، أكلتُ أو لم آكل، وإن لم يُقدَّر لى الشبع، لم أشبع أكلتُ أو لم آكل، فما فائدة الأكل؟ وأمثال هذه التُّرَّهات الباطلة المنافية لحكمة الله تعالى وشرعه.. وبالله التوفيق

فصل

وفيها: أن النبي ﷺ شرط لصفوان في العارية الضمان، فقال: «بَلْ عَارِيَّةٌ مَضْمُونَةٌ» فهل هذا إخبار عن شرعه في العارية، ووصف لها بوصف شرعه الله فيها، وأن حكمها الضمان كما يُضمن المغصوب، أو إخبار عن ضمانها بالأداء بعينها، ومعناه: أنى ضامن لك تأديتها، وأنها لا تذهب، بل أردها إليك بعينها؟ هذا مما اختلف فيه الفقهاء.

فقال الشافعي وأحمد بالأول، وأنها مضمونة بالتلف، وقال أبو حنيفة ومالك بالثاني، وأنها مضمونة بالرد على تفصيل في مذهب مالك، وهو أن العين إن كانت مما لا يُغاب عليه، كالحيوان والعقار، لم تُضمن بالتلف إلا أن يظهر كذبه، وإن كانت مما يُغاب عليه كالحلى ونحوه، ضمنت بالتلف إلا أن يأتى ببينة تشهد على التلف، وسر مذهبه أن العارية أمانة غير مضمونة كما قال أبو حنيفة، إلا أنه لا يُقبل قوله فيما يخالف الظاهر، فلذلك فرَّق بين ما يُغاب عليه، وما لا يُغاب عليه.

ومأخذ المسألة أن قوله ﷺ لصفوان: «بَلْ عَارِيَّةٌ مَضْمُونَةٌ»، هل أراد به أنها مضمونة بالرد أو بالتلف؟ أى: أضمنها إن تلفت، أو أضمن لك ردّها، وهو يحتمل الأمرين، وهو في ضمان الرد أظهر لثلاثة أوجه:

أحدها: أن في اللفظ الآخر: «بَلْ عَارِيَّةٌ مُؤَدَّاةٌ»، فهذا يبين أن قوله: «مضمونة»، المراد به: المضمونة بالأداء.

الثاني: أنه لم يسأله عن تلفها، وإنما سأله هل تأخذها منى أخذ غصب تحوّل بينى وبينها؟ فقال: «لا بل أخذ عارية أؤديها إليك». ولو كان سأله عن تلفها وقال: أخاف أن تذهب، لناسب أن يقول: أنا ضامن لها إن تلفت.

الثالث: أنه جعل الضمان صفة لها نفسها، ولو كان ضمان تلف، لكان الضمان ليدلها، فلما وقع الضمان على ذاتها، دل على أنه ضمان أداء.

فإن قيل: ففي القصة أن بعض الدروع ضاع، فعرض عليه النبي ﷺ أن يضمنها، فقال: أنا اليوم في الإسلام أرغب، قيل: هل عرض عليه أمراً واجباً أو أمراً جائزاً مستحباً الأولى فعله، وهو من مكارم الأخلاق والشيم، ومن محاسن الشريعة؟ وقد يترجح الثاني بأنه عرض عليه الضمان، ولو كان الضمان واجباً، لم يعرضه عليه، بل كان يفى له به، ويقول: هذا حقك، كما لو كان الذاهب بعينه موجوداً، فإنه لم يكن ليعرض عليه رده فتأمل.

فصل

وفيها: جوازُ عقرِ فرسِ العدوِّ ومركوبه إذا كان ذلك عوناً على قتله، كما عقر على ﷺ جمل حامل راية الكفار، وليس هذا من تعذيب الحيوان المنهى عنه.

وفيها: عفوُ رسولِ الله ﷺ عمن همَّ بقتله، ولم يُعاجله، بل دعا له ومسح صدره حتى عاد، كأنه ولي حميم.

ومنها: ما ظهر في هذه الغزاة من معجزات النبوة وآيات الرسالة، من إخباره لشبية بما أضمر في نفسه، ومن ثباته، وقد تولَّى عنه الناس، وهو يقول: «أَنَا النَّبِيُّ لَا كَذِبَ، أَنَا ابْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ». وقد استقبلته كتائبُ المشركين.

ومنها: إيصالُ الله قبضته التي رمى بها إلى عيون أعدائه على البُعْدِ منه، وبركته في تلك القبضة، حتى ملأت أعينَ القوم، إلى غير ذلك من معجزاته فيها، كنزول الملائكة للقتال معه، حتى رآهم العدوُّ جهرة، ورآهم بعض المسلمين.

ومنها: جوازُ انتظار الإمام بقسم الغنائمُ إسلامَ الكفار ودخولهم في الطاعة، فيرد عليهم غنائمهم وسبيهم، وفي هذا دليل لمن يقول: إن الغنيمة إنما تُملك بالقسمة، لا بمجرد الاستيلاء عليها، إذ لو ملكها المسلمون بمجرد الاستيلاء، لم يستأن بهم النبي ﷺ ليردها عليهم، وعلى هذا فلو مات أحد من الغانمين قبل القسمة، أو إحرازها بدار الإسلام، رُدَّ نصيبه على بقية الغانمين دون ورثته، وهذا مذهب أبي حنيفة: لو مات قبل الاستيلاء لم يكن لورثته شيء، ولو مات بعد القسمة فسهمه لورثته.

نجاسة المشركين

س: ما المراد بالنجاسة في قوله: ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾؟

ج: لأهل العلم في ذلك قولان:

أحدهما: أنه نجس المعتقد، أي: أن معتقدهم نجس، أي: أنهم خبيثاء المعتقد، وأي: معتقد أخبث من معتقد شخص يجعل لله شريكاً ويرى أن الصنم ينفع ويضر، أو أمر غير الله ينفع ويضر.

ويتأيد هذا بقول النبي ﷺ: «إن المؤمن لا ينجس».

الثاني: أن المراد بالنجاسة نجاسة البدن والمعنى أنهم أجناب، أي: في غالب أحوالهم على جنابة إذ هم لا يغتسلون منها وإن اغتسلوا لا ينوون رفعها.

ا س: هل يلزم من صافح مشركاً أن يغسل يده؟

ج: لا يلزم بذلك، ولم يرد أن النبي ﷺ غسل يده من مصافحة مشرك.

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

ج: المعنى - والله أعلم - يا أهل الإيمان لا تمكنوا المشركين من دخول المسجد الحرام فإنهم نجسوا المعتقد خبيثاء المعتقد بشركهم بالله ﷻ ودعائهم غير الله وعبادتهم الأصنام، والمساجد عموماً بنيت لعبادة الله وحده لا شريك له، إذ الله قال: ﴿وَأَنَّ الْمَسْجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ (١٨) ﴿الجن: ١٨﴾، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ (٢٦) ﴿الحج: ٢٦﴾.

وقال تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أُذِنَ لِلَّهِ أَنْ تَرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا أَسْمُهُ، يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ (٣٦) ... ﴿النور: ٣٦﴾.

وكذا فإن المشركين نجسوا الأبدان في غالب الأحيان لا يغتسلون من جنابة ولا يتطهرون من حدث ولا يزيلون أثر نجاسة فكيف يمكنون وهم نجسوا المعتقد ونجسوا الأبدان من دخول المسجد الحرام.

كلا بل امنعوهم من دخوله ولا تمكنوهم من ذلك، وإن خفتهم فقرًا من عدم مجيئهم إلى بلادكم وعدم جلبهم للتجارات وعدم شرائهم منكم كذلك، فالرزق ليس بمتوقفٍ عليهم ولا على مجيئهم فإن الله ﷻ هو الغني، قادرٌ على غناكم والتوسعة عليكم من فضله، قادرٌ على أن يرسل السماء عليكم مدرارًا فترزقون بذلك، قادرٌ على أن تتناسل إبلكم وخيولكم ومواشيكم وأنعامكم عمومًا بصورة أكثر، قادر على التوسعة عليكم من أي باب من أبواب الرزق، فهو الغني خزائن كل شيءٍ بيديه ومنتهى الأمور كلها إليه.

ولكن هذا الرزق موكولٌ إليه إن شاء أغناكم وإن شاء لم يُغنكم، ذلك لأن الإغناء ليس بدليل على رضا الله ﷻ على العبد.

أما قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ﴾ بعباده وما يصلحهم.

﴿حَكِيمٌ﴾ فيما يشرع وفي كل شيء.

وينحو هذا قال أهل العلم.

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره للمؤمنين به وبرسوله وأقرؤا بوحدانيته: ما المشركون إلا نجس. واختلف أهل التأويل في معنى «النجس»، وما السبب الذي من أجله سمّاهم بذلك.

فقال بعضهم: سماهم بذلك، لأنهم يجنبون فلا يغتسلون، فقال: هم نجس، ولا يقربوا المسجد الحرام؛ لأن الجنب لا ينبغي له أن يدخل المسجد.

وأورد بإسناد حسن عن قتادة، في قوله: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾، أي: أجناب.

وقال آخرون: معنى ذلك: ما المشركون إلا رجسٌ خنزير أو كلب.

وهذا قولٌ روي عن ابن عباس من وجه غير حميد^(١)، فكرهنا ذكره.

وقوله: ﴿فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾، يقول للمؤمنين: فلا

(١) يعني أنه ضعيف جدًا، أو به كذاب.

تدعوهم أن يقربوا المسجد الحرام بدخولهم الحرم. وإنما عنى بذلك منعهم من دخول الحرم، لأنهم إذا دخلوا الحرم فقد قربوا المسجد الحرام.

وأورد بإسناد صحيح عن عطاء: الحرم كله قبله ومسجد. قال: ﴿فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ﴾، لم يعن المسجد وحده، إنما عنى مكة والحرم. قال ذلك غير مرة. وذكر عن عمر بن عبد العزيز في ذلك ما: حدثنا عبد الكريم بن أبي عمير قال: حدثني الوليد بن مسلم قال، حدثنا أبو عمرو: أن عمر بن عبد العزيز كتب: «أن امنعوا اليهود والنصارى من دخول مساجد المسلمين»، وأتبع في نهيه قول الله: ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾.

وأما قوله: ﴿بَعْدَ عَامِهِمْ هَكَذَا﴾، فإنه يعني: بعد العام الذي نادى فيه علي رحمة الله عليه ببراءة، وذلك عام حج بالناس أبو بكر، وهي سنة تسع من الهجرة^(١).

وقوله: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً﴾، يقول للمؤمنين: وإن خفتهم فاقةً وفقراً، بمنع المشركين من أن يقربوا المسجد الحرام، ﴿فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ﴾. يقال منه: عال يعيل عيلةً وعيولاً ومنه قول الشاعر:

وَمَا يَذْرِي الْفَقِيرُ مَتَى غِنَاهُ وَمَا يَذْرِي الْغَنِيُّ مَتَى يَعْـيـِلُ

وقد حكي عن بعضهم أن من العرب من يقول في الفاقة: «عال يعول» بالواو. وإنما قيل ذلك لهم، لأن المؤمنين خافوا بانقطاع المشركين عن دخول الحرم، انقطاع تجارتهم، ودخول ضرر عليهم بانقطاع ذلك. وأمّنهم الله من العيلة، وعوّضهم مما كانوا يكرهون انقطاعه عنهم، ما هو خير لهم منه، وهو الجزية، فقال لهم: ﴿فَاتْلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾، إلى:

(١) وذهب فريق من العلماء إلى أن ذلك هو سنة عشر.

قال القرطبي:

قوله تعالى: ﴿بَعْدَ عَامِهِمْ هَكَذَا﴾ فيه قولان:

أحدهما: أنه سنة تسع التي حج فيها أبو بكر.

الثاني: سنة عشر قاله قتادة. ابن العربي: وهو الصحيح الذي يعطيه مقتضى اللفظ وإن من العجب أن يقال: إنه سنة تسع وهو العام الذي وقع فيه الأذان. ولو دخل غلام رجل داره يوماً فقال له مولاه: لا تدخل هذه الدار بعد يومك لم يكن المراد اليوم الذي دخل فيه.

﴿صَغُرُونَ﴾.

وقال قوم: بإدراار المطر عليهم.

وأما قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾، فإن معناه: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ﴾، بما حدثتكم به أنفسكم، أيها المؤمنون، من خوف العيلة عليها بمنع المشركين من أن يقربوا المسجد الحرام، وغير ذلك من مصالح عباده، ﴿حَكِيمٌ﴾، في تدبيره إياهم، وتدبير جميع خلقه.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

أمر تعالى عباده المؤمنين الطاهرين ديناً وذاتاً بنفي المشركين، الذين هم نَجَسٌ ديناً، عن المسجد الحرام، وألا يقربوه بعد نزول هذه الآية. وكان نزولها في سنة تسع؛ ولهذا بعث رسول الله ﷺ علياً صحبة أبي بكر، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عامئذ، وأمره أن ينادي في المشركين: أن لا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان. فأتى الله ذلك، وحكم به شرعاً وقدرًا.

وقال عبد الرزاق: أخبرنا ابن جُرَيْج، أخبرني أبو الزبير، أنه سمع جابر بن عبد الله يقول في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾ إلا أن يكون عبداً، أو أحداً من أهل الذمة.

قال ابن الجوزي في زاد المسير:**وفي قوله ﴿فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ إن شاء ﴿ثلاثة أقوال:**

أحدها: أنه أنزل عليهم المطر عند انقطاع المشركين عنهم فكثر خيرهم. قاله عكرمة.

والثاني: أنه أغناهم بالجزية المأخوذة من أهل الكتاب، قاله قتادة، والضحاك.**والثالث:** أن أهل نجد وجرش وأهل صنعاء أسلموا فحملوا الطعام إلى مكة

على الظهر فأغناهم الله به. قاله مقاتل.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ﴾ قال ابن عباس: عليم بما يصلحكم

﴿حَكِيمٌ﴾ فيما حكم في المشركين.

قال السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ (تيسير الكريم الرحمن):

يقول تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ﴾ بالله الذين عبدوا معه غيره ﴿بَجَسٌ﴾ أي: حثاء في عقائدهم وأعمالهم، وأي نجاسة أبلغ ممن كان يعبد مع الله آلهة لا تنفع ولا تضر، ولا تغني عنه شيئاً؟».

وأعمالهم ما بين محاربة لله، وصد عن سبيل الله ونصر للباطل، ورد للحق، وعمل بالفساد في الأرض لا في الصلاح، فعليكم أن تطهروا أشرف البيوت وأطهرها عنهم.

﴿فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾ وهو سنة تسع من الهجرة، حين حج بالناس أبو بكر الصديق، وبعث النبي ﷺ ابن عمه علياً، أن يؤذن يوم الحج الأكبر بـ «براءة» فنادى أن لا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان. وليس المراد هنا، نجاسة البدن، فإن الكافر كغيره طاهر البدن، بدليل أن الله تعالى أباح وطء الكتابية ومباشرتها، ولم يأمر بغسل ما أصاب منها.

والمسلمون ما زالوا يباشرون أبدان الكفار، ولم ينقل عنهم أنهم تقذروا منها، تَقَذَّرَهُمْ من النجاسات، وإنما المراد كما تقدم نجاستهم المعنوية، بالشرك، فكما أن التوحيد والإيمان، طهارة، فالشرك نجاسة.

وقوله: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ﴾ أيها المسلمون ﴿عِيَلَكُمْ﴾ أي: فقرا وحاجة، من منع المشركين من قربان المسجد الحرام، بأن تنقطع الأسباب التي بينكم وبينهم من الأمور الدنيوية، ﴿فَسَوْفَ يُغْنِيَكُمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ فليس الرزق مقصوراً على باب واحد، ومحل واحد، بل لا ينغلق باب إلا وفتح غيره أبواب كثيرة، فإن فضل الله واسع، وجوده عظيم، خصوصاً لمن ترك شيئاً لوجهه الكريم، فإن الله أكرم الأكرمين.

وقد أنجز الله وعده، فإن الله قد أغنى المسلمين من فضله، وبسط لهم من الأرزاق ما كانوا به من أكبر الأغنياء والملوك.

وقوله: ﴿إِنْ شَاءَ﴾ تعليق للإغناء بالمشيئة، لأن الغنى في الدنيا، ليس من لوازم الإيمان، ولا يدل على محبة الله، فلهذا علقه الله بالمشيئة.

فإن الله يعطي الدنيا، من يحب، ومن لا يحب، ولا يعطي الإيمان والدين، إلا

من يحب.

﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أي: علمه واسع، يعلم من يليق به الغنى، ومن لا يليق، ويضع الأشياء مواضعها وينزلها منازلها.

وتدل الآية الكريمة، وهي قوله: ﴿فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾ أن المشركين بعد ما كانوا، هم الملوك والرؤساء بالبيت، ثم صار بعد الفتح الحكم لرسول الله والمؤمنين، مع إقامتهم في البيت، ومكة المكرمة، ثم نزلت هذه الآية. ولما مات النبي ﷺ أمر أن يجلسوا من الحجاز، فلا يبقى فيها دينان، وكل هذا لأجل بُعد كل كافر عن المسجد الحرام، فيدخل في قوله ﴿فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾

ا س: هل المراد بقوله تعالى: ﴿الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ﴾ الحرم كله (مكة كلها وسائر ما يطلق عليه حرم كمنى وجزء من مزدلفة...) أم المسجد الحرام فقط؟

ج: في هذه المسألة وجهان للعلماء:

أحدهما: أن المراد بقوله تعالى: ﴿الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ﴾ المسجد فقط، ولكن منع المشركون من دخول الحرم كله؛ لأنهم إذا دخلوا الحرم فقد اقتربوا من المسجد الحرام، وقد قال تعالى: ﴿فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ﴾.

الثاني: أن المراد بالمسجد الحرام الحرم كله، فعلى ذلك لا يدخلون الحرم كله أصالةً.

أي: أن المنع في الوجه الأول من دخول الحرم إنما هو لتهيئهم عن الاقتراب. أما المنع في الوجه الثاني: فهو منع متعلق بالحرم كله، ليس للاقتراب فحسب والله أعلم.

ا بعض ما جاء في دخول الكفار المساجد

س: هل يجوز للكفار دخول المساجد؟

ج: هذه من المسائل التي اختلفت فيها أقوال أهل العلم، وعلى ما يظهر لي، والله أعلم أن المشرك لا يدخل المسجد الحرام لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾.

أما غيره من المساجد فإن دعت الحاجة (حاجة المسلمين) إلى دخولهم دخلوا بقيد عدم تلويثه، والله أعلم.

أما عن سبب الاختلاف فهو النظر في الآية من ناحية سبب المنع وتخصيص المسجد الحرام، فالذين قالوا إن سبب المنع كونهم نجس عموماً المساجد فمنعوا المشرك من دخول المساجد كلها.

والذين نظروا إلى المنع الوارد في الآية، قالوا: المنع متعلق بالمسجد الحرام لفضيلته العظيمة قالوا: وقد دخل بعض المشركين المسجد على عهد رسول الله ﷺ في المدينة.

وفي هذا ما أخرجه البخاري ^(١) وغيره من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: بعث رسول الله ﷺ خيلاً قبل نجد فجاءت برجل من بني حنيفة يقال له: ثمامة بن أثال فربطوه بسارية من سواري المسجد.

وله بؤبؤ البخاري بباب دخول المشرك المسجد.

وفي بعض طرق الحديث ^(٢) فقال النبي ﷺ: «أطلقوا ثمامة»، فأنطلق إلى نخل قريب من المسجد فاغتسل، ثم دخل المسجد فقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله.

قال الحافظ ابن حجر خ ^(٣): وفي دخول المشرك المسجد مذاهب: فعن الحنفية الجواز مطلقاً، وعن المالكية والمزنية المنع مطلقاً، وعن الشافعية التفصيل بين المسجد الحرام وغيره للآية. وقيل: يؤذن للكتابي خاصة، وحديث الباب يرد عليه، فإن ثمامة ليس من أهل الكتاب.

قال القرطبي رحمه الله:

واختلف العلماء في دخول الكفار المساجد والمسجد الحرام على خمسة أقوال: فقال أهل المدينة الآية عامة في سائر المشركين وسائر المساجد. وبذلك كتب

(١) البخاري (٤٦٩).

(٢) البخاري أيضاً (٤٦٢).

(٣) الفتح (١/٦٦٧).

عمر بن عبدالعزيز إلى عماله ونزع في كتابه هذه الآية. ويؤيد ذلك قوله تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أُذِنَ لِلَّهِ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا أَسْمُهُ﴾ [النور: ٣٦]. ودخول الكفار فيها مناقض لترفيعها. وفي صحيح مسلم وغيره: «إن هذه المساجد لا تصلح لشيء من البول والقدر...» الحديث. والكافر لا يخلو عن ذلك وقال ﷺ: «لا أحل المسجد لحائض ولا لجنب» والكافر جنب وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ فسماه الله تعالى نجسا فلا يخلو أن يكون نجس العين أو مبعدا من طريق الحكم وأي ذلك كان فمنعه من المسجد واجب لأن العلة وهي النجاسة موجودة فيهم والحرمة موجودة في المسجد يقال: رجل نجس وامرأة نجس ورجلان نجس وامرأتان نجس ورجال نجس ونساء نجس لا يثنى ولا يجمع لأنه مصدر فأما النجس (بكسر النون وجزم الجيم) فلا يقال إلا إذا قيل معه رجس فإذا أفرد قيل نجس (بفتح النون وكسر الجيم) ونجس (بضم الجيم).

وقال الشافعي رحمه الله: الآية عامة في سائر المشركين خاصة في المسجد الحرام ولا يمنعون من دخول غيره فأباح دخول اليهودي والنصراني في سائر المساجد. قال ابن العربي: وهذا جمود منه على الظاهر لأن قوله ﷺ: ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ تنبيه على العلة بالشرك والنجاسة فإن قيل: فقد ربط النبي ﷺ ثمانية في المسجد وهو مشرك قيل له: أجاب علماؤنا عن هذا الحديث وإن كان صحيحا بأجوبة:

أحدها: أنه كان متقدما على نزول الآية.

الثاني: أن النبي ﷺ كان قد علم بإسلامه فلذلك ربطه.

الثالث: أن ذلك قضية في عين فلا ينبغي أن تدفع بها الأدلة التي ذكرناها لكونها مقيدة حكم القاعدة الكلية وقد يمكن أن يقال: إنما ربطه في المسجد لينظر حسن صلاة المسلمين واجتماعهم عليها وحسن آدابهم في جلوسهم في المسجد فيستأنس بذلك ويسلم وكذلك كان ويمكن أن يقال: إنهم لم يكن لهم موضع يربطونه فيه إلا في المسجد والله أعلم.

وقال أبو حنيفة وأصحابه: لا يمنع اليهود والنصارى من دخول المسجد الحرام

ولا غيره ولا يمنع دخول المسجد الحرام إلا المشركون وأهل الأوثان وهذا قول يرده كل ما ذكرناه من الآية وغيرها.

قال الكيا الطبري: ويجوز للذمي دخول سائر المساجد عند أبي حنيفة من غير حاجة.

وقال الشافعي: تعتبر الحاجة ومع الحاجة لا يجوز دخول المسجد الحرام. وقال عطاء بن أبي رباح: الحرم كله قبله ومسجد فينبغي أن يمنعوا من دخول الحرم، لقوله تعالى: ﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ [الإسراء: ١]. وإنما رفع من بيت أم هانئ.

وقال قتادة: لا يقرب المسجد الحرام مشرك إلا أن يكون صاحب جزية أو عبدا كافرا المسلم.

وروى إسماعيل بن إسحاق حدثنا يحيى بن عبد الحميد قال حدثنا شريك عن أشعث عن الحسن عن جابر عن النبي ﷺ قال: «لا يقرب المسجد مشرك إلا أن يكون عبدا أو أمة فيدخله لحاجة». وبهذا قال جابر بن عبد الله فإنه قال: العموم يمنع المشرك عن قربان المسجد الحرام، وهو مخصوص في العبد والأمة.

س: ما المراد بـ ﴿دِينَ الْحَقِّ﴾؟

ج: لأهل العلم في ذلك أقوال:

أحدها: أن المراد بدين الحق، دين الله فالله ﷻ من أسمائه الحق، وقد قال: ﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾ [النور: ٢٥].

الثاني: أن الحق وصف للدين، فالمعنى الدين الحق.

بعض أحكام الجزية

س: ما المراد بالجزية، وكم قدرها؟

ج: الجزية مبلغ يدفعه اليهودي والنصراني كي يقرَّ على البقاء على دينه بلا قتالٍ في بلاد المسلمين ويُحافظ عليه فلا يُعتدى عليه فيومَن بذلك. أما عن قدرها، فليس لها قدرٌ ثابت، بل تختلف من شخص على شخص ومن حال إلى حال، ومن بلدة إلى بلدة، ومن زمن إلى زمن.

س: ما المراد بقوله: ﴿عَنْ يَدٍ﴾؟

ج: لأهل العلم في ذلك أقوال:

أحدها: وهم يعطونها عن قهرٍ طائعين أو غير طائعين، أي: وهم مقهورين.
الثاني: أن كل واحدٍ منهم يُعطيها بيده ولا يوكل غيره في إعطائها.
وثمَّ أقوالٌ أخرى.

س: هل تقبل الجزية من عموم الكفار؟

ج: لا تُقبل الجزية من عموم الكفار، إنما تقبل من اليهود والنصارى، وألحق عددٌ كبير من العلماء المجوس باليهود والنصارى.

وقال ابن الجوزي في (زاد المسير):

واختلف في الذين تؤخذ منهم الجزية من الكفار، فالمشهور عن أحمد: أنها لا تقبل إلا من اليهود والنصارى والمجوس، وبه قال الشافعي. ونقل الحسن بن ثواب عن أحمد: أنه من سُبي من أهل الأديان من العرب والعجم، فالعرب إن أسلموا وإلا السيف، وأولئك إن أسلموا وإلا الجزية، فظاهر هذا أن الجزية تؤخذ من الكل، إلا من عابدي الأوثان من العرب فقط، وهو قول أبي حنيفة، ومالك. فأما صفة الذين تؤخذ منهم الجزية، فهم أهل القتال. فأما الزمن، والأعمى، والمفلوج، والشيخ الفاني، والنساء، والصبيان، والراهب الذي لا يخالط الناس، فلا تؤخذ منهم.

س: ما العمل إذا لم يستطع المسلمون فرض الجزية على أهل الكتاب؟

ج: حينئذٍ لا يكلف الله نفسًا إلى وسعها.

وقد قال تعالى: ﴿فَأَنقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦].

ا س: وضع المعنى الإجمالي لقوله تعالى: ﴿فَنِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا يَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾.

ج: المعنى، يا أهل الإسلام قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ﷻ الإيمان الصحيح، قاتلوا هؤلاء الذين يزعمون أن الله له ولد، قاتلوا هؤلاء الذين لا يؤمنون باليوم الآخر على الوجه الصحيح، قاتلوا هؤلاء الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر، ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله، بل يستبيحون المحرمات ويرتكبون الفواحش والمنكرات، قاتلوا هؤلاء الذي لا يدينون بدين الإسلام، الدين الحق الذي ارتضاه الله للعباد، قاتلوا هؤلاء حتى يرجعوا عن باطلهم أو يُقروا بجزية يدفعونها لأهل الإسلام مقابل تركهم بلا قتال، ومقابل إقامتهم آمنين مطمئنين في بلاد المسلمين. قاتلوهم حتى يعطوا هذه الجزية مقهورين أذلاء لكونهم جعلوا الله الولد، لكونهم اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله، واتخذوا المسيح ابن مريم رباً عبده من دون الله، وليعلموا أن قبول الجزية منهم وتركهم تفضيل لهم عن غيرهم من أهل الشرك، فأهل الشرك الآخرون يقاتلون حتى يُسلموا.

وبنحو ما ذكر قال أهل العلم.

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره للمؤمنين به من أصحاب رسوله ﷺ: ﴿فَنِلُوا﴾، أيها المؤمنون، القوم، ﴿الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا يَوْمِ الْآخِرِ﴾، يقول: ولا يصدقون بجنة ولا نار، ﴿وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ﴾، يقول: ولا يطيعون الله طاعة الحق، يعني: أنهم لا يطيعون طاعة أهل الإسلام، ﴿مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾، وهم اليهود والنصارى.

وكل مطيع ملكاً وذا سلطان، فهو دائن له. يقال منه: دان فلان لفلان فهو يدين له، ديناً، قال زهير:

لَئِنْ حَلَلْتَ بِجَوْ فِي بَنِي أَسَدٍ فِي دِينِ عَمْرٍو وَحَالَتْ بَيْنَنَا فَدَكُ

وقوله: ﴿مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾، يعني: الذين أعطوا كتاب الله، وهم أهل التوراة والإنجيل، ﴿حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ﴾. و«الجزية»: الفعلة من: «جزى فلان فلاناً ما عليه»، إذا قضاها، «يجزيه»، و«الجزية» مثل «القعدة» و«الجلسة». ومعنى الكلام: حتى يعطوا الخراج عن رقابهم، الذي يبذلونه للمسلمين دفعاً عنها.

وَأَمَّا قَوْلُهُ: ﴿عَنْ يَدٍ﴾، فإنه يعني: من يده إلى يد من يدفعه إليه. وكذلك تقول العرب لكل معطٍ قاهراً له، شيئاً طائعاً له أو كارهاً: «أعطاه عن يده، وعن يد». وذلك نظير قولهم: «كلمته فماً لفم»، و«لقيته كفّةً لكفّةً»، وكذلك: «أعطيته عن يدٍ ليدٍ».

وَأَمَّا قَوْلُهُ: ﴿وَهُمْ صَغُرُونَ﴾، فإن معناه: وهم أذلاء مقهورون. يقال للذليل الحقيق: «صاغر».

واختلف أهل التأويل في معنى «الصغار»، الذي عناه الله في هذا الموضع.

فقال بعضهم: أن يعطيها وهو قائم، والآخر جالس.

وقال آخرون: معنى قوله: ﴿حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَغُرُونَ﴾، عن أنفسهم، بأيديهم يمشون بها، وهم كارهون، وذلك قولٌ روي عن ابن عباس، من وجهٍ فيه نظر. وقال آخرون: إعطاؤهم إياها، هو الصغار.

وقال ابن كثير رحمه الله عقب تفسيره قوله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عِيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾:

ولهذا عوضهم عن تلك المكاسب بأموال الجزية التي يأخذونها من أهل الذمة، فقال: ﴿قَنِتْلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَغُرُونَ﴾ فهم في نفس الأمر لما كفروا بمحمد ﷺ لم يبق لهم إيمان صحيح بأحد من الرسل،

ولا بما جاءوا به، وإنما يتبعون آراءهم وأهواءهم وآباءهم فيما هم فيه، لا لأنه شرع الله ودينه؛ لأنهم لو كانوا مؤمنين بما بأيديهم إيماناً صحيحاً لقادهم ذلك إلى الإيمان بمحمد، صلوات الله عليه، لأن جميع الأنبياء بشروا به، وأمروا باتباعه، فلما جاء وكفروا به، وهو أشرف الرسل، عُلِمَ أنهم ليسوا متمسكين بشرع الأنبياء الأقدمين لأنه من عند الله، بل لحظوظهم وأهوائهم، فلهذا لا ينفعهم إيمانهم ببقية الأنبياء، وقد كفروا بسيدهم وأفضلهم وخاتمهم وأكملهم؛ ولهذا قال: ﴿ قَنِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ﴾ وهذه الآية الكريمة نزلت أول الأمر بقتال أهل الكتاب، بعد ما تمهدت أمور المشركين ودخل الناس في دين الله أفواجا، فلما استقامت جزيرة العرب أمر الله رسوله بقتال أهل الكتابين اليهود والنصارى، وكان ذلك في سنة تسع؛ ولهذا تجهز رسول الله ﷺ لقتال الروم ودعا الناس إلى ذلك، وأظهره لهم، وبعث إلى أحياء العرب حول المدينة فندبهم، فأوعبوا معه، واجتمع من المقاتلة نحو من ثلاثين ألفاً، وتخلف بعض الناس من أهل المدينة ومن حولها من المنافقين وغيرهم، وكان ذلك في عام جدب، ووقت قيظ وحر، وخرج رسول الله ﷺ، يريد الشام لقتال الروم، فبلغ تبوك، فنزل بها وأقام على مائها قريباً من عشرين يوماً، ثم استخار الله في الرجوع، فرجع عامه ذلك لضيق الحال وضعف الناس، كما سيأتي بيانه بعد إن شاء الله تعالى.

وقد استدلل بهذه الآية الكريمة من يرى أنه لا تؤخذ الجزية إلا من أهل الكتاب، أو من أشباههم كالمجوس، كما صح فيهم الحديث أن رسول الله ﷺ أخذها من مجوس هجر وهذا مذهب الشافعي، وأحمد - في المشهور عنه - وقال أبو حنيفة، **رحمهم الله**: بل تؤخذ من جميع الأعاجم، سواء كانوا من أهل الكتاب أو من المشركين، ولا تؤخذ من العرب إلا من أهل الكتاب.

وقال الإمام مالك: بل يجوز أن تضرب الجزية على جميع الكفار من كتابي، ومجوسي، ووثنى، وغير ذلك، ولما أخذ هذه المذاهب وذكر أدلتها مكان غير هذا، والله أعلم.

وقوله: ﴿حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ﴾ أي: إن لم يسلموا، ﴿عَنْ يَدٍ﴾ أي: عن قهر لهم وغلبة، ﴿وَهُمْ صَغُورٌ﴾ أي: ذليلون حقيرون مهانون. فلهذا لا يجوز إعزاز أهل الذمة ولا رفعهم على المسلمين، بل هم أذلاء صَغَرَة أشقياء، كما جاء في صحيح مسلم، عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «لا تبدءوا اليهود والنصارى بالسلام، وإذا لقيتم أحدهم في طريق فاضطروه إلى أضيقه»^(١).

وقال الحافظ ابن كثير أيضًا:

ولهذا اشترط عليهم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، تلك الشروط المعروفة في إذلالهم وتصغيرهم وتحقيرهم، وذلك مما رواه الأئمة الحفاظ، من رواية عبد الرحمن بن غنم الأشعري قال: كتبت لعمر بن الخطاب رضي الله عنه، حين صالح نصارى من أهل الشام:

«بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب لعبد الله عمر أمير المؤمنين من نصارى مدينة كذا وكذا، إنكم لما قدمتم علينا سألناكم الأمان لأنفسنا وذرائنا وأموالنا وأهل ملتنا وشرطنا لكم على أنفسنا ألا نحدث في مدينتنا ولا فيما حولها ديرًا ولا كنيسة، ولا قلاية ولا صومعة راهب، ولا نجدد ما خرب منها، ولا نحیی منها ما كان خطط المسلمين، وألا نمنع كنائسنا أن ينزلها أحد من المسلمين في ليل ولا نهار، وأن نوسع أبوابها للمارة وابن السبيل، وأن ننزل من مربنا من المسلمين ثلاثة أيام نطعمهم، ولا نأوي في كنائسنا ولا منازلنا جاسوسًا، ولا نكتم غشًا للمسلمين، ولا نعلم أولادنا القرآن، ولا نظهر شركًا، ولا ندعو إليه أحدًا؛ ولا نمنع أحدًا من ذوي قرابتنا الدخول في الإسلام إن أرادوه، وأن نوفر المسلمين، وأن نقوم لهم من مجالسنا إن أرادوا الجلوس، ولا نتشبه بهم في شيء من ملابسهم، في قلنسوة، ولا عمامة، ولا نعلين، ولا فرق شعر، ولا نتكلم بكلامهم، ولا نكتني بكُنَاهم، ولا نركب السروج، ولا نتقلد السيوف، ولا نتخذ شيئًا من السلاح، ولا نحمله معنا، ولا ننقش خواتمنا بالعربية، ولا نبيع الخمر، وأن نجز مقادير رءوسنا، وأن نلزم زينا حيثما كنا، وأن نشد الزنانير على أوساطنا، وألا نظهر

(١) مسلم (٢١٦٧).

الصليب على كنائسنا، وألا نظهر صلبنا ولا كتبنا في شيء من طرق المسلمين ولا أسواقهم، ولا نضرب نواقيسنا في كنائسنا إلا ضرباً خفياً، وألا نرفع أصواتنا بالقراءة في كنائسنا في شيء من حضرة المسلمين، ولا نخرج شعانين ولا باعوثاً، ولا نرفع أصواتنا مع موتانا، ولا نظهر النيران معهم في شيء من طرق المسلمين ولا أسواقهم، ولا نجاورهم بموتانا، ولا نتخذ من الرقيق ما جرى عليه سهام المسلمين، وأن نرشد المسلمين، ولا نطلع عليهم في منازلهم».

قال: فلما أتيت عمر بالكتاب، زاد فيه: ولا نضرب أحداً من المسلمين، شرطنا لكم ذلك على أنفسنا وأهل ملتنا، وقبلنا عليه الأمان، فإن نحن خالفنا في شيء مما شرطناه لكم وَوَضَعْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا، فلا ذمة لنا، وقد حل لكم منا ما يحل من أهل المعاندة والشقاق.

قال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿فَتَنَلُوا الذِّبْنَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا يَأْلُومُوا الْآخِرَ﴾ لما حرم الله تعالى على الكفار أن يقربوا المسجد الحرام، وجد المسلمون في أنفسهم بما قطع عنهم من التجارة التي كان المشركون يوافون بها، قال الله ﷻ: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَكُمُ﴾ [التوبة: ٢٨] الآية. على ما تقدم. ثم أحل في هذه الآية الجزية وكانت لم تؤخذ قبل ذلك، فجعلها عوضاً مما منعهم من موافاة المشركين بتجارته. فقال الله ﷻ: ﴿فَتَنَلُوا الذِّبْنَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا يَأْلُومُوا الْآخِرَ﴾ الآية. فأمر بمقاتلة جميع الكفار لإصفاقهم على هذا الوصف، وخص أهل الكتاب بالذكر إكراماً لكتابهم، ولكونهم عالمين بالتوحيد والرسول والشرائع والملل، وخصوصاً ذكر محمد ﷺ وملتته وأمته. فلما أنكروه تأكدت عليهم الحجة وعظمت منهم الجريمة، فنبه على محلهم ثم جعل للقتال غاية وهي إعطاء الجزية بدلاً عن القتل. وهو الصحيح. قال ابن العربي: سمعت أبا الوفاء علي بن عقیل في مجلس النظر يتلوها ويحتج بها. فقال: ﴿فَتَنَلُوا﴾ وذلك أمر بالعقوبة. ثم قال: ﴿الذِّبْنَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ وذلك بيان للذنب الذي أوجب العقوبة. وقوله: ﴿وَلَا يَأْلُومُوا الْآخِرَ﴾ تأكيد للذنب في جانب الاعتقاد. ثم قال: ﴿وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ زيادة للذنب في مخالفة الأعمال. ثم قال: ﴿وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ﴾

إشارة إلى تأكيد المعصية بالانحراف والمعاندة والأنفة عن الاستسلام. ثم قال: ﴿مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ تأكيد للحجة، لأنهم كانوا يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل. ثم قال: ﴿حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ﴾ فبين الغاية التي تمتد إليها العقوبة وعين البدل الذي ترتفع به.

وقد اختلف العلماء فيمن تؤخذ منه الجزية، قال الشافعي رحمته الله: لا تقبل الجزية إلا من أهل الكتاب خاصة عربا كانوا أو عجماء لهذه الآية، فإنهم هم الذين خصوا بالذكر فتوجه الحكم إليهم دون من سواهم لقوله رحمته الله: ﴿فَأَقْضُوا الْفِتْنَةَ وَجِدْهُمْ مِّمَّنْ﴾ [التوبة: ٥]. ولم يقل: حتى يعطوا الجزية كما قال في أهل الكتاب. وقال: وتقبل من المجوس بالسنة وبه قال أحمد وأبو ثور. وهو مذهب الثوري وأبي حنيفة وأصحابه. وقال الأوزاعي: تؤخذ الجزية من كل عابد وثن أو نار أو جاحد أو مكذب. وكذلك مذهب مالك، فإنه رأى الجزية تؤخذ من جميع أجناس الشرك والجحد، عربيا أو عجميا، تغلبيا أو قرشيا، كائنا من كان، إلا المرتد. وقال ابن القاسم وأشهب وسحنون: تؤخذ الجزية من مجوس العرب والأمم كلها. وأما عبدة الأوثان من العرب فلم يستن الله فيهم جزية، ولا يبقى على الأرض منهم أحد، وإنما لهم القتال أو الإسلام. ويوجد لابن القاسم: أن الجزية تؤخذ منهم، كما يقول مالك. وذلك في التفرع لابن الجلاب وهو احتمال لا نص. وقال ابن وهب: لا تقبل الجزية من مجوس العرب وتقبل من غيرهم. قال: لأنه ليس في العرب مجوسي إلا وجميعهم أسلم، فمن وجد منهم بخلاف الإسلام فهو مرتد يقتل بكل حال إن لم يسلم ولا تقبل منهم جزية. وقال ابن الجهم: تقبل الجزية من كل من دان بغير الإسلام إلا ما أجمع عليه من كفار قريش. وذكر في تعليل ذلك أنه إكرام لهم عن الذلة والصغار، لمكانهم من رسول الله رحمته الله. وقال غيره: إنما ذلك لأن جميعهم أسلم يوم فتح مكة. والله أعلم.

وأما المجوس فقال ابن المنذر: لا أعلم خلافا أن الجزية تؤخذ منهم.

قال السعدي رحمته الله:

هذه الآية أمر بقتال الكفار من اليهود والنصارى من ﴿الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا

بِالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴿١٠﴾ إيماننا صحيحاً يصدقونه بأفعالهم وأعمالهم. ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله، فلا يتبعون شرعه في تحريم المحرمات، ﴿وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ﴾ أي: لا يدينون بالدين الصحيح، وإن زعموا أنهم على دين، فإنه دين غير الحق، لأنه إما دين مبدل، وهو الذي لم يشرعه الله أصلاً وإما دين منسوخ قد شرعه الله، ثم غيره بشريعة محمد ﷺ، فيبقى التمسك به بعد النسخ غير جائز.

فأمره بقتال هؤلاء وحث على ذلك، لأنهم يدعون إلى ما هم عليه، ويحصل الضرر الكثير منهم للناس، بسبب أنهم أهل كتاب.

وعين ذلك القتال ﴿حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ﴾ أي: المال الذي يكون جزاء لترك المسلمين قتالهم، وإقامتهم آمنين على أنفسهم وأموالهم، بين أظهر المسلمين، يؤخذ منهم كل عام، كل على حسب حاله، من غني وفقير ومتوسط، كما فعل ذلك أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وغيره، من أمراء المؤمنين.

وقوله: ﴿عَنْ يَدٍ﴾ أي: حتى يبذلوها في حال ذلهم، وعدم اقتدارهم، ويعطونها بأيديهم، فلا يرسلون بها خادما ولا غيره، بل لا تقبل إلا من أيديهم، ﴿وَهُمْ صَغُورٌ﴾.

فإذا كانوا بهذه الحال، وسألوا المسلمين أن يقروهم بالجزية، وهم تحت أحكام المسلمين وقهرهم، وحصل الأمن من شرهم وفتنتهم، واستسلموا للشروط التي أجراها عليهم المسلمون بما ينفي عزهم وتكبرهم، ويوجب ذلهم وصغارهم، وجب على الإمام أو نائبه أن يعقدها لهم.

وإلا بأن لم يفوا، ولم يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون، لم يجز إقرارهم بالجزية، بل يقاتلون حتى يسلموا.

واستدل بهذه الآية الجمهور الذين يقولون: لا تؤخذ الجزية إلا من أهل الكتاب، لأن الله لم يذكر أخذ الجزية إلا منهم.

وأما غيرهم فلم يذكر إلا قتالهم حتى يسلموا، وألحق بأهل الكتاب في أخذ الجزية وإقرارهم في ديار المسلمين، المجوس، فإن النبي ﷺ، أخذ الجزية من مجوس هجر، ثم أخذها أمير المؤمنين عمر من الفرس المجوس.

وقيل: إن الجزية تؤخذ من سائر الكفار من أهل الكتاب وغيرهم، لأن هذه الآية نزلت بعد الفراغ من قتال العرب المشركين، والشروع في قتال أهل الكتاب ونحوهم، فيكون هذا القيد إخباراً بالواقع، لا مفهوماً له.

ويدل على هذا أن المجوس أخذت منهم الجزية وليسوا أهل كتاب، ولأنه قد تواتر عن المسلمين من الصحابة ومن بعدهم أنهم يدعون من يقاتلونهم إلى إحدى ثلاث: إما الإسلام، أو أداء الجزية، أو السيف، من غير فرق بين كتابي وغيره.

|

مَنْ الْعَزِيرُ

س: من عزير هذا، ولماذا قالوا عنه ابن الله؟

ج: لم أقف على خبر صحيح من كتاب أو سنة يوضح من هو العزير، إلا أن من العلماء من قال إنه الذي ﴿مَكَرَ عَلَى قَوْمِهِ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنِّي يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ. قَالَ كَمْ لَبِثْتُ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ [البقرة: ٢٥٩]. والآية التي نحن بصدددها: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ﴾.

أما لماذا قالوا ذلك، فهذا من وحي الشيطان لهم بذلك، ولا أعلم مستنداً صحيحاً يبين لماذا قالوا ذلك.

وقد أورد الطبري بإسنادٍ يُحسن عن السدي ما قد يبين سبب ذلك، وهذا من الإسرائيليات، وليس بمرفوع إلى رسول الله ﷺ، ولا يعول على مثله.

وكذا أورد الطبري بإسنادٍ ضعيف جداً عن ابن عباس سبباً لذلك.

أما أثر ابن عباس وهو ضعيف جداً عنه ففيه:

وإنما قالوا: هو ابن الله من أجل أن عُزيراً كان في أهل الكتاب، وكانت التوراة عندهم، فعملوا بها ما شاء الله أن يعملوا، ثم أضاعوها وعملوا بغير الحق، وكان التابوت فيهم. فلما رأى الله أنهم قد أضاعوا التوراة وعملوا بالأهواء، رفع الله عنهم التابوت، وأنساهم التوراة، ونسخها من صدورهم، وأرسل الله عليهم مرسلاً، فاستطلقت بطونهم حتى جعل الرجل يمشي كبده، حتى نسوا التوراة، ونسخت من صدورهم، وفيهم عزير. فمكثوا ما شاء الله أن يمكثوا بعد ما نسخت التوراة من صدورهم، وكان عزير قبل من علمائهم، فدعا عزير الله، وابتهل إليه أن يرد إليه الذي نسخ من صدره من التوراة. فبينما هو يصلي مبتهلاً إلى الله، نزل نور من الله فدخل جوفه، فعاد إليه الذي كان ذهب من جوفه من التوراة، فأذن في قومه فقال: يا قوم، قد آتاني الله التوراة وردّها إليّ! فعلق بهم يعلمهم، فمكثوا ما شاء الله وهو يعلمهم. ثم إن التابوت نزل بعد ذلك وبعد ذهابه منهم، فلما رأوا التابوت عرضوا ما كان فيه على الذي كان عزير يعلمهم، فوجدوه مثله، فقالوا: والله ما أوتي عزير هذا إلا أنه ابن الله.

قلت (مصطفى): وهذا ضعيف الإسناد جداً كما أسلفت.

أما أثر السدي ففيه:

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ﴾، إنما قالت ذلك، لأنهم ظهرت عليهم العمالة فقتلوهم، وأخذوا التوراة، وذهب علماءهم الذين بقوا، وقد دفنوا كتب التوراة في الجبال. وكان عزير غلامًا يتعبَّد في رءوس الجبال، لا ينزل إلا يوم عيد. فجعل الغلام يبكي ويقول: «ربِّ تركت بني إسرائيل بغير عالم»! فلم يزل يبكي حتى سقطت أشفَارُ عينيه، فنزل مرة إلى العيد، فلما رجع إذا هو بامرأة قد مثلت له عند قبر من تلك القبور تبكي وتقول: يا مطعماه، ويا كاسياه! فقال لها: ويحك، من كان يطعمك أو يكسوك أو يسقيك أو ينفعك قبل هذا الرجل؟ قالت: الله! قال: فإن الله حي لم يمت! قالت: يا عزير، فمن كان يعلم العلماء قبل بني إسرائيل؟ قال: الله! قالت: فلم تبكي عليهم؟ فلما عرف أنه قد خُصِم، ولَّى مدبرًا، فدعته فقالت: يا عزير، إذا أصبحت غدًا فأت نهر كذا وكذا فاغتسل فيه، ثم اخرج فصلَّ ركعتين، فإنه يأتيك شيخٌ، فما أعطاك فخذْه. فلما أصبح انطلق عزير إلى ذلك النهر، فاغتسل فيه، ثم خرج فصلَّى ركعتين. فجاءه الشيخُ فقال: افتح فمك! ففتح فمه، فألقى فيه شيئًا كهية الجمرة العظيمة، مجتمع كهية القوارير، ثلاث مرار. فرجع عزير وهو من أعلم الناس بالتوراة، فقال: يا بني إسرائيل، إني قد جئتكم بالتوراة! فقالوا: يا عزير، ما كنت كذابًا! فعمد فربط على كل إصبع له قلمًا، وكتب بأصابعه كلها، فكتب التوراة كلها. فلما رجع العلماء أخبروا بشأن عزير، فاستخرج أولئك العلماء كُتُبهم التي كانوا دفنوها من التوراة في الجبال، وكانت في خوابٍ مدفونة، فعارضوها بتوراة عزير، فوجدوها مثلها، فقالوا: ما أعطاك الله هذا إلا أنك ابنه!

قلت: وهذا من الإسرائيليات كما أشرت.

|

س: ما سبب قول النصارى المسيح ابن الله؟

ج: قال ابن الجوزي رَحِمَهُ اللهُ (زاد المسير):

قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ﴾ في سبب قولهم هذا قولان:

أحدهما: لكونه ولد من غير ذكر.

والثاني: لأنه أحيى الموتى، وأبرأ الكُفَّةَ والبُرص؛ وقد شرحنا هذا المعنى في

(المائدة: ١١٠).

| س: معلوم أن القول يخرج من الأفواه فما فائدة تكرير قوله: ﴿قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾.

ج: لأهل العلم في ذلك أقوال:

أحدها: للتأكيد، وأنهم قالوا هذا القول المفترى.

الثاني: أنهم يقولون ذلك بلا خجل ولا ورع ولا خوف، كأنهم قالوا ذلك بملء

أفواههم.

قال القرطبي رَحِمَهُ اللهُ:

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ قيل: معناه التأكيد، كما قال تعالى:

﴿يَكْتُمُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ﴾ [البقرة: ٧٩] وقوله: ﴿وَلَا طَائِرُ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ [الأنعام: ٣٨]

وقوله: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ [الحاقة: ١٣] ومثله كثير. وقيل: المعنى أنه

لما كان قول ساذج ليس فيه بيان ولا برهان، وإنما هو قول بالفم مجرد نفس دعوى لا

معنى تحته صحيح لأنهم معترفون بأن الله سبحانه لم يتخذ صاحبة فكيف يزعمون أن

له ولدا، فهو كذب وقول لسانی فقط بخلاف الأقوال الصحيحة التي تعضدها الأدلة

ويقوم عليها البرهان. قال أهل المعاني: إن الله سبحانه لم يذكر قولاً مقروناً بذكر

الأفواه والألسن إلا وكان قولاً زوراً، كقوله: ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ [آل

عمران: ١٦٧] و﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ [الكهف: ٥]

و﴿يَقُولُونَ بِاللَّسَانِ تَحْمِلُهَا قُلُوبُهُمْ﴾ [الفتح: ١١].

س: قوله تعالى: ﴿يُضَاهِيهِمْ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ﴾ من هؤلاء المعنيون

بقوله: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾؟

ج: قيل: إنهم اليهود.

أي: أن النصارى لما قالوا المسيح ابن الله شابهوا اليهود والقائلين عزيز ابن الله وقيل: إنهم الكفار عبدة الأوثان.

فلما قالت اليهود عزيز ابن الله، وقالت النصارى المسيح ابن الله، شابهوا بذلك الكفار الذين قالوا: إن الملائكة بنات الله، والكفار.

وقيل: إن اليهود والنصارى افتروا على الله الكذب بقولهم: إن الله له ولد، فشابهوا أهل الشرك في أصل افتراءهم فقد افترى أهل الشرك على الله ﷻ، وقالوا: إن له شريك، فالمشابهة في أصل الافتراء.

قال ابن الجوزي في (زاد المسير):

وفي «الَّذِينَ كَفَرُوا» هاهنا ثلاثة أقوال:

أحدها: أنهم عبدة الأوثان، والمعنى: أن أولئك قالوا الملائكة بنات الله، قاله ابن عباس.

والثاني: أنهم اليهود، فالمعنى: أن النصارى في قولهم المسيح ابن الله شابهوا اليهود في قولهم عزيز ابن الله، قاله قتادة والسدي.

والثالث: أنهم أسلافهم، تابعوهم في أقوالهم تقليدا، قاله الزجاج وابن قتيبة.

قال القرطبي رحمه الله:

قوله تعالى: «يُضْهِتُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ»، «يُضْهِتُونَ» يشابهون، ومنه قول العرب: امرأة ضهياً للتي لا تحيض أو التي لا ثدي لها، كأنها أشبهت الرجال. وللعلماء في «قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا» ثلاثة أقوال:

الأول: قول عبدة الأوثان: اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى.

الثاني: قول الكفرة: الملائكة بنات الله.

الثالث: قول أسلافهم، فقلدوهم في الباطل واتبعوهم على الكفر، كما أخبر عنهم

بقوله تعالى: «إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ» [الزخرف: ٢٣].

اس: وضح المعنى الإجمالي لقوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عِزُّنَا ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ

النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضْهِتُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا

مِنْ قَبْلُ فَتَنَّا لَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾.

ج: هذا - والله أعلم - بيان لأحوال بعض اليهود والنصارى ولأقوالهم، وفريق من اليهود، قالوا: عزيز ابن الله، فنسبوا الولد لله ﷻ تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا، وقال فريق من النصارى: إن المسيح ابن الله، فنسبوا إلى الله الولد كذلك تعالى الله عن قولهم علوًّا كبيرًا، فشابهوا بمقولاتهم تلك مقولات أهل الكفر والزيغ والضلال الذين افتروا على الله الكذب فزعم بعضهم أن الله له شريك وزعم بعضهم أن الملائكة بنات الله، فقاتل الله ولعن وعادى من تقول على الله بغير علم ونسب إلى الله الولد وادّعى له الشريك.

قال الطبري رحمه الله:

﴿وَقَالَتِ الْنَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ﴾، يعني قول اليهود: ﴿عَزِيزُ ابْنُ اللَّهِ﴾. يقول: يُشَبِّه قول هؤلاء في الكذب على الله والفرية عليه ونسبتهم المسيح إلى أنه لله ابن، كذب اليهود وفريتهم على الله في نسبتهم عزيزًا إلى أنه لله ابن، ولا ينبغي أن يكون لله ولدٌ سبحانه، بل له ما في السماوات والأرض، كل له قانتون.

وقد قيل: إن معنى ذلك: يحكون بقولهم قول أهل الأوثان، الذين قالوا: «اللات، والعزى، ومناة الثالثة الأخرى».

وأورد في تفسير قوله تعالى: ﴿فَنَلَّهُمُ اللَّهُ﴾ ما حاصله أن معناه لعنهم الله ثم قال:

وقوله: ﴿أَنْتَ يُؤْفَكُونَ﴾، يقول: أي وجه يُذهِبُ بهم، ويحيدون؟ وكيف يصدُّون عن الحق؟ وقد بينا ذلك بشواهد في ما مضى قبل.

قال ابن الجوزي رحمه الله (زاد المسير):

وفي الذين قالوا هذا عن عزيز ثلاثة أقوال:

أحدها: أنهم جميع بني إسرائيل روي عن ابن عباس.

والثاني: طائفة من سلفهم قاله الماوردي.

والثالث: جماعة كانوا على عهد رسول الله ﷺ وفيهم قولان:

أحدهما: فنحاص وحده وقد ذكرناه عن ابن عمر وابن جريج.

والثاني: الذين ذكرناهم في أول الآية عن ابن عباس.

فإن قيل: إن كان قول بعضهم فلم أضيف إلى جميعهم فعنه جوابان:

أحدهما: أن إيقاع اسم الجماعة على الواحد معروف في اللغة تقول العرب جئت من البصرة على البغال وإن كان لم يركب إلا بغلا واحدا.

والثاني: أن من لم يقله لم ينكره.

قال السعدي في تفسيره (تيسير الكريم الرحمن):

لما أمر تعالى بقتال أهل الكتاب، ذكر من أقوالهم الخبيثة، ما يهيج المؤمنين الذين يغارون لربهم ولدينهم على قتالهم، والاجتهاد وبذل الوسع فيه فقال: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ﴾ وهذه المقالة وإن لم تكن مقالة لعامتهم فقد قالها فرقة منهم، فبدل ذلك على أن في اليهود من الخبيث والشر ما أوصلهم إلى أن قالوا هذه المقالة التي تجرؤوا فيها على الله، وتنقصوا عظمتة وجلاله.

وقد قيل: إن سبب ادعائهم في ﴿عُزَيْرٌ﴾ أنه ابن الله، أنه لما تسلط الملوك على بني إسرائيل، ومزقوهم كل ممزق، وقتلوا حَمَلَةَ التوراة، وجدوا عزيزا بعد ذلك حافظا لها أو لأكثرها، فأملأها عليهم من حفظه، واستنسخوها، فادعوا فيه هذه الدعوى الشنيعة.

﴿وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ﴾ عيسى ابن مريم ﴿ابْنُ اللَّهِ﴾ قال الله تعالى ﴿ذَلِكَ﴾ القول الذي قالوه ﴿قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ لم يقيموا عليه حجة ولا برهانا.

ومن كان لا ييالي بما يقول، لا يستغرب عليه أي قول يقوله، فإنه لا دين ولا عقل، يحجزه، عما يريد من الكلام.

ولهذا قال: ﴿يُضَكَّهُتُونَ﴾ أي: يشابهون في قولهم هذا ﴿قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ﴾ أي: قول المشركين الذين يقولون: «الملائكة بنات الله» تشابهت قلوبهم، فتشابهت أقوالهم في البطلان.

﴿قَتَلَهُمُ اللَّهُ أَتَى يُؤَفَكُونَ﴾ أي: كيف يصرفون على الحق، الصرف الواضح المبين، إلى القول الباطل المبين.

وهذا - وإن كان يستغرب على أمة كبيرة كثيرة، أن تتفق على قول - يدل على بطلانه أدنى تفكر وتسلط للعقل عليه.

كيفية اتخاذ الأخبار والرهبان أرباباً من دون الله

س: وضع معنى قوله تعالى: ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ (٣١).

ج: هذا - والله أعلم - إخبار عن أحوال اليهود والنصارى وشركهم بالله ﷻ فيقول تعالى: ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ ﴾، أي: اتخذ اليهود علماءهم ﴿ وَرُهْبَانَهُمْ ﴾ أي: واتخذ النصارى عبادهم والمجتهدين في العبادة منهم ﴿ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ يعبدونهم بطاعتهم إياهم في تحليل الحرام وتحريم الحلال فيحلوا لهم ما حرمه الله عليهم، ويحرموا عليهم ما أحله الله لهم فيطيعونهم، وكذا اتخذت النصارى المسيح عيسى ابن مريم رباً يعبدونه من دون الله.

﴿ وَمَا أُمِرُوا ﴾ هؤلاء اليهود والنصارى إلا لعبادة إله واحد لا شريك له، وهو الله ﷻ تنزه ﷻ عن أن يكون له شريك أو ولد.

قال الطبري رحمه الله:

يقول جل ثناؤه: اتخذ اليهود أحبارهم، وهم العلماء.

والنصارى «رهبانهم»، وهم أصحاب الصوامع وأهل الاجتهاد في دينهم منهم. ﴿ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾، يعني: سادة لهم من دون الله، يطيعونهم في معاصي الله، فيحلون ما أحلوه لهم مما قد حرمه الله عليهم، ويحرمون ما يحرمونه عليهم مما قد أحله الله لهم.

وأورد بإسناد ضعيف عن عدي بن حاتم قال: أتيت رسول الله ﷺ وفي عنقي صليب من ذهب، فقال: «يا عدي، اطرح هذا الوثن من عنقك!» قال: فطرحته، وانتهيت إليه وهو يقرأ في «سورة براءة»، فقرأ هذه الآية: ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾، قال قلت: يا رسول الله، إنا لسنا نعبدهم! فقال:

«أليس يحرمون ما أحلَّ الله فتحرمونه، ويحلُّون ما حَرَّمَ الله فتحلُّونه؟» قال: قلت: بلى! قال: «فتلك عبادتهم!»^(١).

وأورد من طرق عن أبي البخري^(٢)، عن حذيفة: أنه سئل عن قوله: ﴿اتَّخِذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾، أكانوا يعبدونهم؟ قال: لا كانوا إذا أحلُّوا لهم شيئاً استحلوه، وإذا حرَّموا عليهم شيئاً حرَّموه.

وقال رحمه الله:

وأما قوله: ﴿وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ﴾، فإن معناه: اتخذوا أحبارهم ورهبانهم والمسيح ابن مريم أرباباً من دون الله.

وأما قوله: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا﴾، فإنه يعني به: وما أمر هؤلاء اليهود والنصارى الذين اتخذوا الأحرار والرهبان والمسيح أرباباً، إلا أن يعبدوا معبوداً واحداً، وأن يطيعوا إلهاً واحداً دون أرباب شتى، وهو الله الذي له عبادة كل شيء، وطاعة كل خلق، المستحق على جميع خلقه الدينونة له بالوحدانية والربوبية ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾، يقول تعالى ذكره: لا تنبغي الألوهية إلا للواحد الذي أمر الخلق بعبادته، ولزمت جميع العباد طاعته، ﴿سُبْحَنَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾، يقول: تنزيهاً وتطهيراً لله عما يُشرك في طاعته وربوبيته، القائلون: ﴿عَزَّزَ ابْنُ اللَّهِ﴾، والقائلون: ﴿الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ﴾، المتخذون أحبارهم أرباباً من دون الله.

وقال القرطبي رحمه الله:

﴿اتَّخِذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ﴾
الأحبار جمع حبر، وهو الذي يحسن القول وينظمه ويتقنه بحسن البيان عنه. ومنه ثوب محبر أي جمع الزينة. وقد قيل في واحد الأحبار: حبر بكسر الحاء، والدليل على ذلك أنهم قالوا: مداد حبر يريدون مداد عالم، ثم كثر الاستعمال حتى قالوا للمداد حبر. قال الفراء: الكسر والفتح لغتان. وقال ابن السكيت: الحبر بالكسر المداد، والحبر بالفتح العالم. والرهبان جمع راهب مأخوذ من الرهبة، وهو الذي

(١) أخرجه أيضاً الترمذي (٣٠٩٥)، وغير واحد، وفي سنده عطيف بن أعين وهو ضعيف مجهول.

(٢) أبو البخري لم يسمع من حذيفة والأثر ضعيف.

حملة خوف الله تعالى على أن يخلص له النية دون الناس، ويجعل زمانه له وعمله معه وأنسه به.

قوله تعالى: ﴿أَرْكَبَا بِمَنْ دُوبِ اللَّهِ﴾ قال أهل المعاني: جعلوا أحبارهم ورهبانهم كالآرباب حيث أطاعوهم في كل شيء ومنه قوله تعالى: ﴿قَالَ أَنْفُخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا﴾ [الكهف: ٩٦] أي كالنار. قال عبدالله بن المبارك:

وهل أفسد الدين إلا الملوك وأحبار سوء ورهبانها

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا﴾ أي: الذي إذا حرم الشيء فهو الحرام، وما حلله فهو الحلال، وما شرعه اتبع، وما حكم به نفذ. ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَنَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي: تعالى وتقدس وتنزه عن الشركاء والنظراء والأعوان والأضداد والأولاد، لا إله إلا هو، ولا رب سواه.

قال السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ:

فإن لذلك سببا وهو أنهم: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ﴾ وهم علماءهم ﴿وَرُهْبَانَهُمْ﴾ أي: العبّاد المتجردين للعبادة. ﴿أَرْكَبَا بِمَنْ دُوبِ اللَّهِ﴾ يُحِلُّونَ لَهُمْ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فيحلونه، ويحرمون عليهم ما أحلَّ الله فيحرمونه، ويشرعون لهم من الشرائع والأقوال المنافية لدين الرسل فيتبعونهم عليها.

وكانوا أيضا يغفلون في مشايخهم وعبادهم ويعظمونهم، ويتخذون قبورهم أوثانا تعبد من دون الله، وتقصد بالذبائح، والدعاء والاستغاثة.

﴿وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ﴾ اتخذوه إلهًا من دون الله، والحال أنهم خالفوا في ذلك أمر الله لهم على السنة رسله قال الله تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ فيخلصون له العبادة والطاعة، ويخصونه بالمحبة والدعاء، فنبدوا أمر الله وأشركوا به ما لم ينزل به سلطانا.

﴿سُبْحَنَهُ﴾ وتعالى ﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي: تنزه وتقدس، وتعالى

عظمته عن شركهم وافترائهم، فإنهم ينتقصونه في ذلك، ويصفونه بما لا يليق بجلاله، والله تعالى العالي في أوصافه وأفعاله عن كل ما نسب إليه، مما ينافي كماله المقدس.

ا س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُنِيرَ نُّورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ (٣٢).

ج: المعنى - والله تعالى أعلم - أن هؤلاء المشركين الذين اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح ابن مريم، وكذا غيرهم من أهل الشرك ويسعون جاهدين لإخماد نور الله الذي أرسله وأنزله لعباده، يريدون محو القرآن والتشويش عليه والكفر به يريدون صرف الناس عن دين الحق دين الإسلام، ويريدون صرف الناس عن رسول الله ﷺ، يريدونها ظلمات ويغونها عوجاً، ويأبى الله ﷻ أن يمكنهم، ويأبى الله ﷻ إلا أن يظهر نوره ويعللي دينه وتظهر كلمته، ولو كره هؤلاء الجاحدون المنكرون.

وبنحو هذا قال أهل العلم.

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره: يريد هؤلاء المتخذون أحبارهم ورهبانهم والمسيح ابن مريم أرباباً، ﴿أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾، يعني: أنهم يحاولون بتكذيبهم بدين الله الذي ابتعث به رسوله، وصدّهم الناس عنه بالسنتهم، أن يبطلوه، وهو النور الذي جعله الله لخلقه ضياءً، ﴿وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُنِيرَ نُّورَهُ﴾، يعلو دينه، وتظهر كلمته، ويتم الحق الذي بعث به رسوله محمداً ﷺ، ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾، إتمام الله إياه، ﴿الْكَافِرُونَ﴾، يعني: جاحديه المكذّبين به.

وقال ابن كثير رحمه الله:

يقول تعالى: يريد هؤلاء الكفار من المشركين وأهل الكتاب ﴿أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ﴾ أي: ما بعث به رسوله من الهدى ودين الحق، بمجرد جدالهم وافترائهم، فمثلهم في ذلك كمثل من يريد أن يطفى شعاع الشمس، أو نور القمر بنفخه، وهذا لا سبيل إليه، فكذلك ما أرسل الله به رسوله لا بد أن يتم ويظهر؛ ولهذا قال تعالى مقابلاً لهم فيما راموه وأرادوه: ﴿وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُنِيرَ نُّورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾.

والكافر: هو الذي يستر الشيء ويغطيه، ومنه سمي الليل «كافراً»؛ لأنه يستر الأشياء، والزارع كافراً؛ لأنه يغطي الحب في الأرض كما قال: ﴿أَعْجَبَ الْكُفَّارَ بِنِائِهِ﴾ [الحديد: ٢٠].

وقال القرطبي رحمه الله:

قوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ﴾ أي دلالته وحججه على توحيده. جعل البراهين بمنزلة النور لما فيها من البيان. وقيل: المعنى نور الإسلام، أي أن يخذلوا دين الله بتكذيبهم. ﴿بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ جمع فوه على الأصل.

قال السعدي رحمه الله (تيسير الكريم الرحمن):

فلما تبين أنه لا حجة لهم على ما قالوه، ولا برهان لما أصّلوه، وإنما هو مجرد قول قالوه وافتراء افتروه أخبر أنهم ﴿يُرِيدُونَ﴾ بهذا ﴿أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾. ونور الله: دينه الذي أرسل به الرسل، وأنزل به الكتب، وسماه الله نوراً، لأنه يستنار به في ظلمات الجهل والأديان الباطلة، فإنه علم بالحق، وعمل بالحق، وما عداه فإنه بضده، فهو لاء اليهود والنصارى ومن ضاهاهم من المشركين، يريدون أن يطفئوا نور الله بمجرد أقوالهم، التي ليس عليها دليل أصلاً.

﴿وَيَأْتِي اللَّهُ إِلَّا الْآنَ يُنْزِلُ نُورَهُ﴾ لأنه النور الباهر، الذي لا يمكن لجميع الخلق لو اجتمعوا على إطفائه أن يطفئوه، والذي أنزله جميع نواصي العباد بيده، وقد تكفل بحفظه من كل من يريده بسوء، ولهذا قال: ﴿وَيَأْتِي اللَّهُ إِلَّا الْآنَ يُنْزِلُ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ وسعوا ما أمكنهم في رده وإبطاله، فإن سعيهم لا يضر الحق شيئاً.

س: وضع معنى قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى

الَّذِينَ كَفَرُوا وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ (٣٣).

ج: المعنى - والله أعلم - الله ﷻ هو الذي أرسل رسوله محمداً ﷺ بالآيات البينات النيرات والدلالات الواضحات ودين الإسلام الذي هو دين الله الحق ليُظهره على الأديان كلها، ويجعله هو الظاهر على كل الأديان، وكلمة أهله هي العليا، وإن كره ذلك أهل الشرك.

وبنحوه قال العلماء.

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره: الله الذي يأبى إلا إتمام دينه ولو كره ذلك جاحدوه ومنكروه، ﴿الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ﴾، محمدًا ﷺ، ﴿بِالْهُدَى﴾، يعني: ببيان فرائض الله على خلقه، وجميع اللازم لهم، وبدين الحق، وهو الإسلام، ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾، يقول: ليعلي الإسلام على الملل كلها، ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾، بالله ظهوره عليها.

وقد اختلف أهل التأويل في معنى قوله: ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾.

فقال بعضهم: ذلك عند خروج عيسى، حين تصير الملل كلها واحدة.

وقال آخرون: معنى ذلك: ليعلمه شرائع الدين كلها، فيطلعها عليها.

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله:

﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ﴾ فالهدى: هو ما جاء به من الإخبارات الصادقة، والإيمان الصحيح، والعلم النافع -ودين الحق: هي الأعمال الصالحة الصحيحة النافعة في الدنيا والآخرة.

﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ أي: على سائر الأديان، كما ثبت في الصحيح، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن الله زوى لي الأرض مشارقها ومغاربها، وسيبلغ ملك أمي ما زوي لي منها»^(١).

وأورد ابن كثير بعض الأحاديث في هذا الصدد منها حديث:

تميم الداري رضي الله عنه، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ليبلغن هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار، ولا يترك الله بيت مدبر ولا وبر إلا أدخله هذا الدين، بعز عزيز، أو بذل ذليل، عزاء يعز الله به الإسلام، وذلا يذل الله به الكفر»، فكان تميم الداري يقول: قد عرفت ذلك في أهل بيتي، لقد أصاب من أسلم منهم الخير والشرف والعز، ولقد أصاب من كان منهم كافرا الذل والصغار والجزية^(٢).

(١) مسلم (٢٨٨٩).

(٢) أحمد (١٠٣/٤) وغيره، وسنده صحيح.

ومنها ما أخرجه مسلم ^(١) من حديث عائشة رضي الله عنها قَالَتْ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «لَا يَذْهَبُ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ ^(٢) حَتَّى تُعْبَدَ اللَّاتُ وَالْعُزَّى» فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! إِنْ كُنْتُ لَا أَظُنُّ حِينَ أَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ أَنَّ ذَلِكَ تَامًا قَالَ: «إِنَّهُ سَيَكُونُ مِنْ ذَلِكَ مَا شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ يَبْعَثُ اللَّهُ رِيحًا طَيِّبَةً فَتَوَفِّي كُلَّ مَنْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ خَرْدَلٍ مِنْ إِيْمَانٍ فَيَبْقَى مَنْ لَا خَيْرَ فِيهِ فَيَرْجِعُونَ إِلَى دِينِ آبَائِهِمْ».

قال القرطبي رحمته الله:

قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ﴾ يريد محمدا ﷺ. ﴿بِالْهُدَى﴾ أي بالفرقان. ﴿وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ أي بالحجة والبراهين. وقد أظهره على شرائع الدين حتى لا يخفى عليه شيء منها، عن ابن عباس وغيره. وقيل: ﴿لِيُظْهِرَهُ﴾ أي ليظهر الدين الإسلام على كل دين.

وقال ابن الجوزي (زاد المسير):

قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ﴾ يعني محمدا ﷺ. ﴿بِالْهُدَى﴾ وفيه ثلاثة أقوال:

أحدها: أنه التوحيد. **والثاني:** القرآن. **والثالث:** تبيان الفرائض فأما دين الحق فهو الإسلام وفي قوله ﴿لِيُظْهِرَهُ﴾ قولان:

أحدهما: أن الهاء عائدة على رسول الله ﷺ فالمعنى ليعلمه شرائع الدين كلها فلا يخفى عليه منها شيء قاله ابن عباس.

والثاني: أنها راجعة إلى الدين ثم في معنى الكلام قولان

أحدهما: ليظهر هذا الدين على سائر الملل ومتى يكون ذلك فيه قولان:

أحدهما: عند نزول عيسى ﷺ فإنه يتبعه أهل كل دين وتصير الملل واحدة فلا يبقى أهل دين إلا دخلوا في الإسلام أو أدوا الجزية قاله أبو هريرة والضحاك.

والثاني: أنه عند خروج المهدي قاله السدي.

(١) مسلم (٢٩٠٧).

(٢) لا ينقضي الزمان.

والقول الثاني: أن إظهار الدين إنما هو بالحجج الواضحة وإن لم يدخل الناس

فيه.

قال السعدي رَحِمَهُ اللهُ:

ثم بين تعالى هذا النور الذي قد تكفل بإتمامه وحفظه فقال: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى﴾ الذي هو العلم النافع ﴿وَدِينِ الْحَقِّ﴾ الذي هو العمل الصالح فكان ما بعث الله به محمدا ﷺ مشتملا على بيان الحق من الباطل في أسماء الله وأوصافه وأفعاله، وفي أحكامه وأخباره، والأمر بكل مصلحة نافعة للقلوب، والأرواح والأبدان من إخلاص الدين لله وحده، ومحبة الله وعبادته، والأمر بمكارم الأخلاق ومحاسن الشيم، والأعمال الصالحة والآداب النافعة، والنهي عن كل ما يضاد ذلك ويناقضه من الأخلاق والأعمال السيئة المضرة للقلوب والأبدان والدنيا والآخرة. فأرسله الله بالهدى ودين الحق ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ أي: ليعليه على سائر الأديان بالحجة والبرهان، والسيف والسنان، وإن كره المشركون ذلك، وبغوا له الغوائل، ومكروا مكربهم، فإن المكر السيئ لا يضر إلا صاحبه، فوعده الله لا بد أن ينجزه، وما ضمنه لا بد أن يقوم به.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:

(﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَخْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لِيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْتِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا ينفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنْزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كَنْتُمْ تَكْتِزُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكََ الَّذِينَ الْقِيَمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ وَقَتِّلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يَقْتُلُونَكُمْ كَافَّةً وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾ إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحْلُونَهُ عَامًا وَيُخَرِّمُونَهُ عَامًا لِّيُؤَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زَيْنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٣٧﴾)

[التوبة: ٣٤-٣٧].

س: وضع معنى ما يلي:

﴿الْأَجْبَارِ - وَالرُّهْبَانِ - بِالْبَطْلِ - وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ - يَكْذِبُونَ - جِبَاهُهُمْ - عِدَّةَ الشُّهُورِ - حُرْمٌ - الَّذِينَ أَلْفَيْمٌ - كَافَّةً - النَّسَاءُ - يُضَلُّ بِهِ - لِيُؤْطِئُوا - عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ - سُوءَ أَعْمَالِهِمْ﴾.

ج:

الكلمة	معناها
﴿الْأَجْبَارِ﴾	علماء اليهود.
﴿وَالرُّهْبَانِ﴾	عُباد النصارى.
﴿بِالْبَطْلِ﴾	بغير الحق (بالكذب والسرقة والرشوة والاختلاس وغير ذلك).
﴿وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾	يصرفون الناس عن طاعة الله، يمنعون الناس من دخول الإسلام.
﴿يَكْذِبُونَ﴾	يدخرون ولا يؤدون الزكاة.
﴿جِبَاهُهُمْ﴾	جمع جبهة.
﴿عِدَّةَ الشُّهُورِ﴾	عدد الشهور.
﴿حُرْمٌ﴾	حرمها الله وحرَّم القتال فيها وظلم العباد وعظَّم الله الحرمات فيها وشدد فيها.
﴿الَّذِينَ أَلْفَيْمٌ﴾	الدين المستقيم - الحساب الصحيح للشهور عند الله.
﴿كَافَّةً﴾	جميعاً.
﴿النَّسَاءُ﴾	التأخير، والمراد تأخير بعض الشهور (الحرم) عن وقتها أو إلغائها.

د ١٤٣ ب	سُورَةُ النَّازِعَاتِ	د السَّهِيلُ لِأَوَّلِ النَّزِيلِ ب
يُصْرَفُ بِهِ عَنِ الْحَقِّ.	(يُضِلُّ بِهِ) ❖	
لِيُؤَافِقُوا.	(لِيُؤَاطُوا) ❖	
عدد الشهور التي حرمها الله (أي أنهم يجعلون الشهور الحرم أربعة أيضًا لكن يجعلون شهرًا مكان شهر) ونحو ذلك.	(عِدَّةٌ مَا حَرَّمَ اللَّهُ) ❖	
أعمالهم السيئة.	(سَوْءٌ أَعْمَلِهِمْ) ❖	

س: ما سبب نزول قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾؟

ج: سبب نزولها ما أخرجه البخاري من طريق زيد بن وهب قال: مررت بالربذة فإذا أنا بأبي ذر رضي الله عنه فقلت له: ما أنزلك منزلك هذا؟ قال: كنت بالشَّام فاختلفت أنا ومعاوية في: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ قال معاوية: نزلت في أهل الكتاب، فقلت: نزلت فينا وفيهم فكان بيني وبينه في ذلك وكتب إلى عثمان رضي الله عنه يشكوني، فكتب إليَّ عثمان أن أقدم المدينة، فقدمتها فكثرت عليَّ الناس حتى كأنهم لم يروني قبل ذلك، فذكرت ذلك لعثمان، فقال لي: إن شئت تنحيت فكنت قريباً، فذاك الذي أنزلني هذا المنزل ولو أمروا عليَّ حبشياً لسمعت وأطعت.

س: ما المراد بقوله تعالى: ﴿وَالْبَاطِلُ﴾؟

ج: لأهل العلم في ذلك أقوال:

أحدها: الظلم.

الثاني: الرشوة في الحكم.

الثالث: الكذب.

الرابع: أخذه من غير حله.

والله أعلم.

معنى الكنز

س: ما معنى الكنز؟

ج: أخرج مالك في الموطأ^(١) بسند صحيح من طريق عبد الله بن دينار أنه قال: سَمِعْتُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وَهُوَ يُسْأَلُ عَنِ الْكَنْزِ مَا هُوَ؟ فَقَالَ: هُوَ الْمَالُ الَّذِي لَا تُؤَدِّي مِنْهُ الزَّكَاةَ.

وعند عبد الرزاق^(٢) بسند صحيح عن ابن عمر قال: ما أدى زكاته فليس بكنز، وإن كان تحت سبع أرضين، وما كان ظاهراً لا يؤدي زكاته فهو كنز.

وأخرج عبد الرزاق^(٣) بسند صحيح عن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: إذا أخرجت زكاة مالك فقد أذهبت شره وليس بكنز.

وأخرج عبد الرزاق^(٤) بسند صحيح عن عبيد بن عمير يقول: إذا أديت زكاة مالك فليس بكنز، وإن كان مدفوناً، وإن لم تؤد زكاته فهو كنز ولو كان ظاهراً.

وأخرج ابن أبي شيبة^(٥) بإسناد صحيح عن مجاهد وعطاء قالا، ليس المال بكنز وإن كان تحت الأرض إذا أدى زكاته، وإن كان لا يؤدي زكاته فهو كنز، وإن كان على وجه الأرض.

هذا، وفي اللسان: الكنز في الأصل المال المدفون تحت الأرض فإذا أخرج منه الواجب عليه لم يبق كنزاً، وإن كان مكنوزاً، وهو حكم شرعي تجوز فيه عن الأصل. **وأخرج الطبري بسند صحيح عن ابن زيد في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ﴾** **الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ** ﴿﴾، قال: «الكنز»، ما كنز عن طاعة الله وفريضته، وذلك «الكنز». وقال: افترضت الصلاة والزكاة جميعاً لم يفرق بينهما.

قال الطبري: وإنما قلنا ذلك على الخصوص، لأن «الكنز» في كلام العرب: كل شيء مجموع بعضه على بعض، في بطن الأرض كان أو على ظهرها، يدل على ذلك

(١) الموطأ (١/٢٥٦).

(٢) عبد الرزاق في المصنف (٤/١٠٧).

(٣) عبد الرزاق في المصنف (٤/١٠٧).

(٤) عبد الرزاق في المصنف (٤/١٠٧).

(٥) ابن أبي شيبة (٣/١٩٠).

قول الشاعر:

لَا دَرَّ دَرِّيَ إِنْ أَطْعَمْتُ نَازِلَكُمْ قَرَفَ الْحَتِّيِّ وَعِنْدِي الْبُرُّ مَكْنُوزٌ

يعني بذلك: وعندي البرُّ مجموع بعضه على بعض. وكذلك تقول العرب للبدن المجتمع: «مكتنز»، لانضمام بعضه إلى بعض.
وإذا كان ذلك معنى «الكنز»، عندهم، وكان قوله: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ﴾، معناه: والذين يجمعون الذهب والفضة بعضهما إلى بعض ولا ينفقونها في سبيل الله... إلى آخر ما قاله رَحِمَهُ اللهُ.

وقال الطبري رَحِمَهُ اللهُ أيضًا:

واختلف أهل العلم في معنى «الكنز». فقال بعضهم: هو كل مال وجبت فيه الزكاة، فلم تؤدَّ زكاته. قالوا: وعنى بقوله: ﴿وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾، ولا يؤدُّون زكاتها.
وأورد الطبري من عدة وجوه تصح بلا شك عن ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قال: كل مال أدَّيت زكاته فليس بكنز وإن كان مدفونًا. وكل مالٍ لم تؤدَّ زكاته، فهو الكنز الذي ذكره الله في القرآن، يَكُوى به صاحبه، وإن لم يكن مدفونًا.
قال الطبري: وقال آخرون: كل مال زاد على أربعة آلاف درهم فهو كنز أدَّيت منه الزكاة أو لم تؤدَّ.

وقال آخرون: «الكنز» كل ما فضل من المال عن حاجة صاحبه إليه.

قال الطبري رَحِمَهُ اللهُ:

وأولى الأقوال في ذلك بالصحة، القول الذي ذكر عن ابن عمر: من أن كل مالٍ أدَّيت زكاته فليس بكنز يحرم على صاحبه اكتنازه وإن كثر، وأن كل مالٍ لم تؤدَّ زكاته فصاحبه مُعاقب مستحق وعيد الله، إلا أن يتفضل الله عليه بعفوه وإن قلَّ، إذا كان مما يجب فيه الزكاة.

قال الطبري بعد أن أورد جملة آثار وأحاديث:

وإذا كان ذلك معنى «الكنز»، عندهم، وكان قوله: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ

وَالْفِضَّةَ ﴿﴾، معناه: والذين يجمعون الذهب والفضة بعضهما إلى بعض ولا ينفقونها في سبيل الله، وهو عامٌّ في التلاوة، ولم يكن في الآية بيانٌ كم ذلك القدر من الذهب والفضة الذي إذا جمع بعضه إلى بعض، استحقَّ الوعيد، كان معلومًا أن خصوص ذلك إنما أدرك، لوقف الرسول عليه، وذلك كما بينا من أنه المال الذي لم يؤدَّ حق الله منه من الزكاة دون غيره، لما قد أوضحنا من الدلالة على صحته.

وقد كان بعض الصحابة يقول: هي عامة في كل كنز غير أنها خاصة في أهل الكتاب، وإياهم عَنِ الله بها.

وأورد بإسناد صحيح^(١) عن زيد بن وهب قال: مررت بالرَّبَذَةِ، فلقيت أبا ذرٍّ، فقلت: يا أبا ذرٍّ، ما أنزلك هذه البلاد؟ قال: كنت بالشَّام، فقرأت هذه الآية: ﴿وَالَّذِينَ يَكْتُمُونَ آلَ الْذَّهَبِ وَالْفِضَّةَ﴾، الآية، فقال معاوية: ليست هذه الآية فينا، إنما هذه الآية في أهل الكتاب! قال: فقلت: إنها لفينا وفيهم! قال: فارتفع في ذلك بيني وبينه القول، فكتب إلى عثمان يشكُّوني، فكتب إليَّ عثمان أن أقبل إليَّ! قال: فأقبلت، فلما قدمت المدينة ركبني الناسُ كأنهم لم يروني قبل يومئذ، فشكوت ذلك إلى عثمان، فقال لي: تنحَّ قريبًا. قلت: والله لن أدع ما كنت أقول!

ا س: لماذا قيل: ﴿وَلَا يَنْفِقُونَهَا﴾ ولم يقل: (ولا ينفقونها) يعني الذهب والفضة؟

ج: قيل: إن هذا للتغليب كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ هَواً أَنْفَضُوا إِلَيْهَا﴾.

وكما قال تعالى: ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّهَا كَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ **البقرة:**

٤٥.

وقيل: المراد ولا ينفقون زكاتها.

قال الطبري رحمه الله:

فإن قال قائل: فكيف قيل: ﴿وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾، فأخرجت «الهاء»

و«الألف» مخرج الكناية عن أحد النوعين.

قيل: يحتمل ذلك وجهين:

(١) وقد تقدم وأنه عند البخاري.

أحدهما: أن يكون ﴿الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ﴾ مرادًا بها الكنوز، كأنه قيل: والذين يكتزون الكنوز ولا ينفقونها في سبيل الله، لأن الذهب والفضة هي «الكنوز»، في هذا الموضع.

والآخر أن يكون استغنى بالخبر عن إحداهما في عائد ذكرهما، من الخبر عن الأخرى، لدلالة الكلام على الخبر عن الأخرى مثل الخبر عنها، وذلك كثير موجود في كلام العرب وأشعارها، ومنه قول الشاعر:

نَحْنُ بِمَا عِنْدَنَا وَأَنْتَ بِمَا عِنْدَكَ رَاضٍ، وَالرَّأْيُ مُخْتَلِفٌ

فقال: «راضٍ»، ولم يقل: «رضوان»، وقال الآخر:

إِنَّ شَرَحَ الشَّبَابِ وَالشَّعَرَ الْأَسَدَ **وَدَّ مَا لَمْ يُعَاصَ كَانَ جُنُونًا**

فقال: «يعاصٍ»، ولم يقل: «يعاصيا» في أشياء كثيرة. ومنه قول الله: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا﴾، [الجمعة: ١١]، ولم يقل: «إليهما».

قال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ ولم يقل ينفقونها، ففيه أجوبة ستة:

الأول: قال ابن الأنباري: قصد الأغلب والأعم وهي الفضة، ومثله قوله: ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ﴾ [البقرة: ٤٥] رد الكناية إلى الصلاة لأنها أعم. ومثله ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا﴾ [الجمعة: ١١] فأعاد الهاء إلى التجارة لأنها الأهم وترك اللهو قاله كثير من المفسرين. وأباه بعضهم وقال: لا يشبهها، لأن ﴿أَوْ﴾ قد فصلت التجارة من اللهو فحسن عود الضمير على أحدهما.

الثاني: العكس وهو أن يكون «ينفقونها» للذهب والثاني معطوفا عليه. والذهب تؤنثه العرب تقول: هي الذهب الحمراء. وقد تذكر والتأنيث أشهر.

الثالث: أن يكون الضمير للكنوز.

الرابع: للأموال المكنوزة.

الخامس: للزكاة التقدير ولا ينفقون زكاة الأموال المكنوزة.

السادس: الاكتفاء بضمير الواحد عن ضمير الآخر إذا فهم المعنى، وهذا كثير في

(١٤٩) أحمر
أسود

d ١٤٩ b سُورَةُ النَّازِعَاتِ d السَّهِيلُ لِأَوَّلِ النَّزِيلِ b

كلام العرب.

عقوبة الكانزين

س: وضع المعنى الإجمالي لقوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَخْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٤﴾﴾.

ج: المعنى - والله تعالى أعلم - يا أهل الإيمان بالله ورسوله اعلموا أن ﴿كَثِيرًا مِنَ الْأَخْبَارِ﴾ وهم علماء اليهود، ﴿وَالرُّهْبَانِ﴾ وهم عباد النصارى ليأكلون أموال الناس بغير حق، فتارة يأكلونها عن طريق الرشوة في الحكم، فيقبلون الرشوة ويظلمون الناس وتارة يأخذون الأموال مقابل فتوى يحلّون بها الحرام، ويحرمون بها الحلال، وتارة يفرضون على أتباعهم أموالاً للكنائس والبيع والصوامع ويأخذونها لأنفسهم، وتارة يأكلون الزكوات التي هي حقوق للفقراء، وتارة يأكلون الأموال بوعود باطلة وأمانى كاذبة إلى غير ذلك من صور الباطل الذي هو غير الحق، ومع هذا كله فإنهم يصرفون الناس عن طريق الله ﷻ ويمنعونهم من الدخول في الإسلام والتدين به، ثم يُحذر الله طائفة الأغنياء والكانزين الذين يكتزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله، فيقول تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَخْرُجُونَ زَكَاةَهَا﴾ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴿فِي طَاعَةِ اللَّهِ وَمرضاته وإِعْلَاءِ كَلِمَتِهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ مُؤَلَّمٍ مَوْجِعٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

فالآية إذن تحذير لثلاث طوائف، العلماء والعباد والأثرياء، فإن فساد هؤلاء فيه فساد لسائر الناس وصلاحتهم فيه صلاح لسائر الناس في غالب الأحوال.

وبنحو هذا قال أهل العلم.

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره: يا أيها الذين صدّقوا الله ورسوله، وأقروا بوحدانية ربهم، إن كثيراً من العلماء والقُرّاء من بني إسرائيل من اليهود والنصارى، ﴿لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ﴾، يقول: يأخذون الرشى في أحكامهم، ويحرّفون كتاب الله، ويكتبون

بأيديهم كتباً ثم يقولون: «هذه من عند الله»، يأخذون بها ثمناً قليلاً من سفلتهم، ﴿وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾، يقول: ويمنعون من أراد الدخول في الإسلام الدخول فيه، بنهيهم إياهم عنه.

وأورد بإسناد حسن عن السدي قال: أما ﴿الْأَحْبَارَ﴾، فمن اليهود. وأما ﴿وَالرُّهْبَانَ﴾، فمن النصارى. وأما ﴿سَبِيلِ اللَّهِ﴾، فمحمد ﷺ.

قال الطبري:

ويقول تعالى ذكره: ﴿إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ﴾، يأكلها أيضاً معهم ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا ينفقونها فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾، يقول: بشر الكثير من الأحبار والرهبان الذين يأكلون أموال الناس بالباطل، والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله، بعذاب أليم لهم يوم القيامة، مٌوجع من الله.

وقال الحافظ ابن كثير رحمه الله:

قال السدي: الأحبار من اليهود، والرهبان من النصارى. وهو كما قال، فإن الأحبار هم علماء اليهود، كما قال تعالى: ﴿لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِلَٰهَ وَالْأَلِهَ لَهُمُ الشَّحْتُ﴾ [المائدة: ٦٣] والرهبان: عباد النصارى، والقسيسون: علماءهم، كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَتَلُوا قَتِيلِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [٨٢] [المائدة: ٨٢]

والمقصود: التحذير من علماء السوء وعُباد الضلال كما قال سفيان بن عيينة: من فسد من علمائنا كان فيه شبه من اليهود، ومن فسد من عبّادنا كان فيه شبه من النصارى. وفي الحديث الصحيح: «لتركبن سنن من كان قبلكم حذو القُذَّة بالقُذَّة». قالوا: اليهود والنصارى؟ قال: «فمن؟». وفي رواية: فارس والروم؟ قال: «فمن الناس إلا هؤلاء؟».

والحاصل التحذير من التشبه بهم في أحوالهم وأقوالهم؛ ولهذا قال تعالى: ﴿لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وذلك أنهم يأكلون الدنيا بالدين ومناصبهم ورياستهم في الناس، يأكلون أموالهم بذلك، كما

كان لأخبار اليهود على أهل الجاهلية شرف، ولهم عندهم خُرجٌ وهدايا وضرائب تجيء إليهم، فلما بعث الله رسوله، صلوات الله وسلامه عليه استمروا على ضلالهم وكفرهم وعنادهم، طمعا منهم أن تبقى لهم تلك الرياسات، فأطفأها الله بنور النبوة، وسلبهم إياها، وعوضهم بالذل والصغار، وباءوا بغضب من الله.

وقوله تعالى: ﴿وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: وهم مع أكلهم الحرام يصدون الناس عن اتباع الحق، ويلبسون الحق بالباطل، ويظهرون لمن اتبعهم من الجهلة أنهم يدعون إلى الخير، وليسوا كما يزعمون، بل هم دعاة إلى النار، ويوم القيامة لا ينصرون.

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ يَكْتُمُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَفْقَهُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ هؤلاء هم القسم الثالث من رءوس الناس، فإن الناس عالة على العلماء، وعلى العباد، وعلى أرباب الأموال، فإذا فسدت أحوال هؤلاء فسدت أحوال الناس، كما قال ابن المبارك:

وَهَلْ أَفْسَدَ الدِّينَ إِلَّا الْمُلُوكُ وَأَخْبَارُ سُوءٍ وَرُهْبَانُهَا؟

ثم أورد ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ بعض الأقوال في تعريف الكنز:

منها: أثر ابن عمر الذي تقدم ذكره وهذا عليه الأكثرون.
وأورد أحاديث آخر في الباب.

قال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿لِيَأْكُلُوا مِمَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ دخلت اللام على يفعل، ولا تدخل على فعل لمضارعة يفعل الأسماء. والأخبار علماء اليهود. والرهبان مجتهدو النصراني في العبادة. ﴿يَأْكُلُوا مِمَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ قيل: إنهم كانوا يأخذون من أموال أتباعهم ضرائب وفروضا باسم الكنائس والبيع وغير ذلك، مما يوهمونهم أن النفقة فيه من الشرع والتزلف إلى الله تعالى، وهم خلال ذلك يحجبون تلك الأموال، كالذي ذكره سلمان الفارسي عن الراهب الذي استخرج كنزه، ذكره ابن إسحاق في السير. وقيل: كانوا

يأخذون من غلاتهم وأموالهم ضرائب باسم حماية الدين والقيام بالشرع. وقيل: كانوا يرتشون في الأحكام، كما يفعل اليوم كثير من الولاة والحكام. وقوله: ﴿بِالْبَطْلِ﴾ يجمع ذلك كله. ﴿وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي يمنعون أهل دينهم عن الدخول في دين الإسلام، واتباع محمد ﷺ.

قال السعدي رحمه الله:

هذا تحذير من الله تعالى لعباده المؤمنين عن كثير من الأخبار والرهبان، أي: العلماء والعباد الذين يأكلون أموال الناس بالباطل، أي: بغير حق، ويصدون عن سبيل الله، فإنهم إذا كانت لهم رواتب من أموال الناس، أو بذل الناس لهم من أموالهم فإنه لأجل علمهم وعبادتهم، ولأجل هداهم وهدايتهم، وهؤلاء يأخذونها ويصدون الناس عن سبيل الله، فيكون أخذهم لها على هذا الوجه سحتا وظلما، فإن الناس ما بذلوا لهم من أموالهم إلا ليدلوهم على الطريق المستقيم. ومن أخذهم لأموال الناس بغير حق، أن يعطوهم ليفتوهم أو يحكموا لهم بغير ما أنزل الله، فهؤلاء الأخبار والرهبان، ليحذر منهم هاتان الحالتان: أخذهم لأموال الناس بغير حق، وصدهم الناس عن سبيل الله.

﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ﴾ أي: يمسكونها ﴿وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: طرق الخير الموصلة إلى الله، وهذا هو الكنز المحرم، أن يمسكها عن النفقة الواجبة، كأن يمنع منها الزكاة أو النفقات الواجبة للزوجات، أو الأقارب، أو النفقة في سبيل الله إذا وجبت.

﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ ثم فسر بقوله: ﴿يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا﴾ أي: على أموالهم، ﴿فِي نَارٍ جَهَنَّمَ﴾ فيحرق كل دينار أو درهم على حدته.

قال الشنقيطي رحمه الله بعد أن أورد أقوالاً للعلماء في أن الكنز كل مال لم تؤد زكاته^(١):

منها: أنها منسوخة بآيات الزكاة كقوله: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً﴾ [التوبة: ١٠٢].

س: هل يجب على كل شخص أن ينفق كل أمواله في سبيل الله؟

(١) إذا استوفيت الشروط كبلوغ النصاب وحلول الحول.

ج: لا يجب عليه ذلك بل يجب عليه أن يؤدي الزكاة التي افترضها الله ﷻ عليه. وذلك بدليل قول السائل لرسول الله ﷺ بعد أن بين له ما فرضه عليه من الزكاة: هَلْ عَلَيَّ غَيْرُهَا يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «لَا إِلَّا أَنْ تَطَّوَّعَ...» قَالَ الرَّجُلُ: وَاللَّهِ لَا أَزِيدُ عَلَى هَذَا وَلَا أَنْقُصُ. فَقَالَ ﷺ: «أَفَلَحَ إِنْ صَدَقَ»^(١).

| س: إذن فما توجيه قوله تعالى: ﴿وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ

؟﴾^(٣٤)

ج: هذا يحتمل احتمالات:

أحدها: أن هذا في الأحرار والرهبان الذين يجمعون من الناس أموالاً لإنفاقها في سبيل الله ثم هم يأخذونها لأنفسهم.

وهذا الاحتمال أراه قاصراً في هذا المقام، وذلك لعموم الآية الكريمة.

الثاني: أن هذا منسوخ كما قال بعض العلماء كان يجب على الشخص في أول أمر الإسلام أن ينفق الزائد عن حاجته لقوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْغَفْوُ﴾ [البقرة: ٢١٩].. أي الزائد عن الحاجة.

الثالث: وهو الأظهر وعليه قول أكثر أهل العلم، أن هذا في الزكوات الواجبة المفروضة فالذي يحتسبها ولا يخرجها في مصارفها، ومن مصارفها البذل في سبيل الله، فهو المتوعد بالعذاب، أي: الذي يمسك الزكوات ولا يخرجها في مصارفها. والله أعلم

قال الشنقيطي (أضواء البيان):

أظهر الأقوال وأقربها للصواب في معنى ﴿يَكْزِبُونَ﴾ في هذه الآية الكريمة، أن المراد بكنزهم الذهب والفضة وعدم إنفاقهم لها في سبيل الله، أنهم لا يؤدون زكاتها.

| س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فُتَنُ كَوَافٍ بِهِمَا جِبَاهُهُمْ

وَجُؤُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْزِبُونَ﴾^(٣٥).

ج: المعنى - والله أعلم - فبشر الكانزين بعذاب أليم يوم يحمى على كنوزهم

(١) البخاري (حديث ٤٦)، ومسلم (حديث ١١).

التي اكتنزوها ولم يؤدوا زكاتها في نار جهنم فتوضع هذه الكنوز المُحمرة التي احمرت بسبب النار التي وضعت عليها توضع على جباههم وجنوبهم وظهورهم، ويقال لهم: هذه الأموال التي كنزتموها لأنفسكم ها أنتم تكونون بها فذوقوا بها العذاب.

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره: فبشر هؤلاء الذين يكنزون الذهب والفضة، ولا يخرجون حقوق الله منها، يا محمد، بعذاب أليم، ﴿يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾، ف «اليوم» من صلة «العذاب الأليم»، كأنه قيل: ييشرهم بعذاب أليم، يعذبهم الله به في يوم يحمى عليها.

ويعني بقوله: ﴿يُحْمَى عَلَيْهَا﴾، تدخل النار فيوقد عليها، أي: على الذهب والفضة التي كنزوها، ﴿فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ﴾. وكل شيء أدخل النار فقد أحمي إحماءً، يقال منه: «أحميت الحديد في النار أحميها إحماءً».

وقوله: ﴿فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ﴾، يعني بالذهب والفضة المكنوزة، يحمى عليها في نار جهنم، يكوي الله بها. يقول: يحرق الله جباه كانزيها وجنوبهم وظهورهم، ﴿هَذَا مَا كَنْزْتُمْ﴾، ومعناه: ويقال لهم: هذا ما كنزتم في الدنيا، أيها الكافرون الذين منعوا كنوزهم من فرائض الله الواجبة فيها ﴿لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكذبون﴾، يقول: فيقال لهم: فاطعموا عذاب الله بما كنتم تمنعون من أموالكم حقوق الله وتكنزونها مكاثرة ومباهاة.

وحذف من قوله: ﴿هَذَا مَا كَنْزْتُمْ﴾ و«يقال لهم»، لدلالة الكلام عليه.

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله:

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنْزْتُمْ لَأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْذِبُونَ﴾ أي: يقال لهم هذا الكلام تبكيها وتقريعا وتهكما، كما في قوله: ﴿ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ﴾ (٤٨) ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴿الدخان: ٤٨، ٤٩﴾ أي: هذا بذلك، وهو الذي كنتم

تكنزون لأنفسكم؛ ولهذا يقال: من أحب شيئاً وقدمه على طاعة الله، عذب به. وهؤلاء لما كان جمع هذه الأموال أثر عندهم من رضا الله عنهم، عذبوا بها، كما كان أبو لهب، لعنه الله، جاهدًا في عداوة الرسول، صلوات الله وسلامه عليه وامرأته تعينه في ذلك، كانت يوم القيامة عونًا على عذابه أيضًا ﴿فِي جِيدِهَا﴾ أي: في عنقها ﴿حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾ [المسد: ٥] أي: تجمع من الحطب في النار وتلقي عليه، ليكون ذلك أبلغ في عذابه ممن هو أشفق عليه - كان - في الدنيا، كما أن هذه الأموال لما كانت أعز الأشياء على أربابها، كانت أضرب الأشياء عليهم في الدار الآخرة، فيحمى عليها في نار جهنم، وناهيك بحرها، فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم.

قال السعدي رحمه الله (تيسير الكريم الرحمن):

﴿فَتَكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ﴾ في يوم القيامة كلما بردت أعيدت في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، ويقال لهم توبيخا ولو ما: ﴿هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ فما ظلمكم ولكنكم ظلمتم أنفسكم وعذبتموها بهذا الكنز.

وذكر الله في هاتين الآيتين، وانحراف الإنسان في ماله، وذلك بأحد أمرين: إما أن ينفقه في الباطل الذي لا يجدي عليه نفعا، بل لا يناله منه إلا الضرر المحض، وذلك كإخراج الأموال في المعاصي والشهوات التي لا تعين على طاعة الله، وإخراجها للصد عن سبيل الله.

وإما أن يمسك ماله عن إخراجها في الواجبات، و«النهى عن الشيء، أمر بضده».

اس: ما الذي جرى بين أبي ذر ومعاوية رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ

الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم﴾ (٣٤)؟

ج: هذا - والله أعلم - لكون أبي ذر رضي الله عنه كان يرى وجوب إخراج الفائض عن الحاجة وكان معاوية رضي الله عنه يرى أن الآية نزلت في أهل الكتاب.

وكلا الرأيين بعيدٌ عن الصواب.

أما أبو ذر رضي الله عنه فقد سمع من النبي صلى الله عليه وسلم حديثاً أو أكثر من حديث ففهم منها الذي فهم وخفيت عليه سائر الأحاديث.

فقد أخرج البخاري ومسلم ^(١) من حديث أبي ذرٍّ رضي الله عنه قَالَ: كُنْتُ أَمْشِي مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي حَرَّةِ الْمَدِينَةِ عِشَاءً، وَنَحْنُ نَنْظُرُ إِلَى أَحَدٍ. فَقَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَا أَبَا ذَرٍّ!» قَالَ: قُلْتُ: لَبَّيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ! قَالَ: «مَا أَحَبُّ أَنْ أَحُدَا ذَاكَ عِنْدِي ذَهَبٌ. أَمْسَى ثَلَاثَةً عِنْدِي مِنْهُ دِينَارٌ؛ إِلَّا دِينَارًا أَرُصُّهُ لِدَيْنٍ؛ إِلَّا أَنْ أَقُولَ بِهِ فِي عِبَادِ اللَّهِ. هَكَذَا (حَثًّا بَيْنَ يَدَيْهِ) وَهَكَذَا (عَنْ يَمِينِهِ) وَهَكَذَا (عَنْ شِمَالِهِ) قَالَ: ثُمَّ مَشِينَا. فَقَالَ: «يَا أَبَا ذَرٍّ!» قَالَ: قُلْتُ: لَبَّيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ! قَالَ: «إِنَّ الْأَكْثَرِينَ هُمْ الْأَقْلُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَّا مَنْ قَالَ هَكَذَا وَهَكَذَا وَهَكَذَا» مِثْلَ مَا صَنَعَ فِي الْمَرَّةِ الْأُولَى. قَالَ: ثُمَّ مَشِينَا. قَالَ: «يَا أَبَا ذَرٍّ! كَمَا أَنْتَ حَتَّى آتِيكَ» قَالَ: فَانْطَلَقَ حَتَّى تَوَارَى عَنِّي. قَالَ: سَمِعْتُ لَغَطًا وَسَمِعْتُ صَوْتًا. قَالَ: فَقُلْتُ: لَعَلَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَرِضَ لَهُ. قَالَ: فَهَمَمْتُ أَنْ أَتَّبِعَهُ. قَالَ: ثُمَّ ذَكَرْتُ قَوْلَهُ: «لَا تَبْرَحْ حَتَّى آتِيكَ» قَالَ: فَانْتَظَرْتُهُ. فَلَمَّا جَاءَ ذَكَرْتُ لَهُ الَّذِي سَمِعْتُ قَالَ: فَقَالَ: «ذَاكَ جَبْرِيلُ أَتَانِي فَقَالَ مَنْ مَاتَ مِنْ أُمَّتِكَ لَا يُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا دَخَلَ الْجَنَّةَ» قَالَ: قُلْتُ: وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ؟ قَالَ: «وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ».

أما معاوية رضي الله عنه فقصر الآية على أهل الكتاب، وكما هو معلوم فالعبرة بالعموم. وهذه بعض أقوال العلماء في ذلك.

قال القرطبي رحمته الله:

قلت: ويحتمل أن يكون مجمل ما روي عن أبي ذر في هذا، ما روي أن الآية نزلت في وقت شدة الحاجة وضعف المهاجرين وقصير يد رسول الله ﷺ عن كفايتهم، ولم يكن في بيت المال ما يسعهم، وكانت السنون الجوائح هاجمة عليهم، فنهوا عن إمساك شيء من المال إلا على قدر الحاجة ولا يجوز ادخار الذهب والفضة في مثل ذلك الوقت.

فلما فتح الله على المسلمين ووسع عليهم أوجب ﷺ في مائتي درهم خمسة دراهم وفي عشرين دينارا نصف دينار ولم يوجب الكل واعتبر مدة الاستئمان، فكان ذلك منه بيانا ﷺ. وقيل: الكنز ما لم تؤد منه الحقوق العارضة، كفك الأسير وإطعام

(١) البخاري (٦٢٦٨)، ومسلم (٩٤) واللفظ له.

الجائع وغير ذلك. وقيل: الكنز لغة المجموع من النقيدين، وغيرهما من المال محمول عليهما بالقياس. وقيل: المجموع منهما ما لم يكن حلياً، لأن الحلي مأذون في اتخاذه ولا حق فيه. والصحيح ما بدأنا بذكره، وأن ذلك كله يسمى كنزاً لغة وشرعاً. والله أعلم.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ:

قلت: كان من مذهب أبي ذر، رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، تحريم ادخار ما زاد على نفقة العيال، وكان يفتي الناس بذلك، ويحثهم عليه، ويأمرهم به، ويغلظ في خلافه، فنهاه معاوية فلم ينته، فخشي أن يضر بالناس في هذا، فكتب يشكوه إلى أمير المؤمنين عثمان، وأن يأخذه إليه، فاستقدمه عثمان إلى المدينة، وأنزله بالربذة وحده، وبها مات رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، في خلافة عثمان. وقد اختبره معاوية رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وهو عنده، هل يوافق عمله قوله؟ فبعث إليه بألف دينار، ففرقها من يومه، ثم بعث إليه الذي أتاه بها فقال: إن معاوية إنما بعثني إلى غيرك فأخطأت، فهات الذهب! فقال: ويحك! إنها خرجت، ولكن إذا جاء مالي حاسبناك به.

قال الشنقيطي رَحِمَهُ اللهُ (أضواء البيان):

وقال ابن حجر في فتح الباري قَالَ ابْنُ عَبْدِ الْبَرِّ: وَرَدَتْ عَنْ أَبِي ذَرٍّ آثارٌ كَثِيرَةٌ تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ كَانَ يَذْهَبُ إِلَى أَنَّ كُلَّ مَجْمُوعٍ يَفْضُلُ عَنْ الْقُوتِ وَسَدَادِ الْعَيْشِ فَهُوَ كَنْزٌ يُدَمُّ فَاعِلُهُ، وَأَنَّ آيَةَ الْوَعِيدِ نَزَلَتْ فِي ذَلِكَ.

وَخَالَفَهُ جُمْهُورُ الصَّحَابَةِ وَمَنْ بَعْدَهُمْ وَحَمَلُوا الْوَعِيدَ عَلَى مَانِعِي الزَّكَاةِ، إِلَى أَنْ قَالَ: فَكَانَ ذَلِكَ وَاجِبًا فِي أَوَّلِ الْأَمْرِ ثُمَّ نُسِخَ. ثم ذكر عن شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ أَنَّهُ قَالَ: «كَانَ أَبُو ذَرٍّ يَسْمَعُ الْحَدِيثَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِيهِ الشُّدَّةُ ثُمَّ يَخْرُجُ إِلَى قَوْمِهِ، ثُمَّ يُرْخِصُ فِيهِ النَّبِيُّ ﷺ فَلَا يَسْمَعُ الرُّخْصَةَ وَيَتَعَلَّقُ بِالْأَمْرِ الْأَوَّلِ» اهـ.

وقال بعض العلماء: هي في خصوص أهل الكتاب، بدليل إقترانها مع قوله: ﴿وَإِنْ كَثِيرًا مِنْ الْأَجْبَارِ وَالرُّهْبَانِ﴾ الآية.

فإذا علمت أن التحقيق أن الآية عامة، وأنها في من لا يؤدي الزكاة، فاعلم أن المراد بها هو المشار إليه في آيات الزكاة. وقد قدمنا في ترجمة هذا الكتاب المبارك،

أن البيان بالقرآن إذا كان غير واف بالمقصود تتمم البيان من السنة، من حيث إنها بيان للقرآن المبين به، وآيات الزكاة كقوله: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً﴾ الآية [التوبة: ١٠٣]، وقوله: ﴿وَأَتُوا الزَّكَاةَ﴾، وقوله: ﴿أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ﴾ [البقرة: ٢٦٧] لا تفني بالبيان فتيينه بالسنة، وقد قال ابن خويز منداد المالكي، تضمنت هذه الآية: زكاة العين، وهي تجب بأربعة شروط، حرية، وإسلام، وحول، ونصاب سليم من الدين. اهـ. وفي بعض هذه الشروط خلاف.

حُلِّي المرأة هل عليه زكاة إن كان ذهباً

س: هل الحلبي الذي تتحلى به المرأة عليه زكاة إذا كان ذهباً وبلغ النصاب؟

ج: في هذه المسألة وجهان لأهل العلم:

أحدهما: أن الذهب الذي تتحلى به المرأة إذا بلغ النصاب، وحال عليه الحول، أي: مرّت عليه سنة وجبت فيه الزكاة كسائر الأموال.

الثاني: أنه لا زكاة في الحلبي ما دامت المرأة تترين به.

وهناك أقوال أخر في الباب لا دليل عليها.

أما القول الذي اختاره في هذه المسألة فهو وجوب الزكاة في الذهب الذي تتحلى به المرأة إذا بلغ النصاب وحال عليه الحول، وذلك للآتي ذكره.

أولاً: أنه مألٌ بلغ النصاب، ولم يرد دليلٌ من الكتاب العزيز، ولا دليل صحيح من السنة المباركة، ولا إجماع بأنه لا زكاة فيه، فبقينا مع الأصل أنه مال يُزكى، ومعلوم أنه يمكن تسييله إلى عملة ورقية في أي وقت، بل درج الناس على ادخار المال في صورة هذا الحلبي.

ثانياً: عموم قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَفْقَهُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَأَبْشِرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (٣٤) يَوْمَ يُخْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنْزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾.

وقد تقدم تعريف الكنز بأنه كل مالٍ لم تؤد زكاته، وإن كان فوق الأرض.

ثالثاً: العمومات الواردة أيضاً من السنة في إخراج الزكاة عن الذهب والفضة، ومنها ما أخرجه مسلم^(١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا مِنْ صَاحِبِ ذَهَبٍ وَلَا فِضَّةٍ لَا يُؤَدِّي مِنْهَا حَقَّهَا، إِلَّا إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ صُفِّحَتْ لَهُ صَفَائِحُ مِنْ نَارٍ فَأُخِمِيَ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَيُكْوَىٰ بِهَا جَنْبُهُ وَجَبِينُهُ وَظَهْرُهُ كُلَّمَا بَرَدَتْ أُعِيدَتْ لَهُ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، حَتَّى يُقْضَىٰ بَيْنَ الْعِبَادِ فَيَرَىٰ سَبِيلَهُ إِمَّا إِلَى الْجَنَّةِ وَإِمَّا إِلَى النَّارِ...» الحديث.

(١) مسلم (٩٨٧).

وفي رواية أخرى عند مسلم من حديث أبي هريرة أيضا قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا مِنْ صَاحِبِ كَنْزٍ لَا يُؤَدِّي زَكَاتَهُ إِلَّا أُحْمِيَ عَلَيْهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَيُجْعَلُ صَفَائِحُ فَيُكْوَى بِهَا جَنْبَاهُ وَجَبِينُهُ، حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَ عِبَادِهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، ثُمَّ يَرَى سَبِيلَهُ، إِمَّا إِلَى الْجَنَّةِ، وَإِمَّا إِلَى النَّارِ، وَمَا مِنْ صَاحِبِ إِبِلٍ لَا يُؤَدِّي زَكَاتَهَا إِلَّا بُطِحَ لَهَا بِقَاعٍ قَرَقَرٍ كَأَوْفَرِ مَا كَانَتْ تَسْتَنُّ عَلَيْهِ كُلَّمَا مَضَى عَلَيْهِ أُخْرَاهَا رُدَّتْ عَلَيْهِ أُولَاهَا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَ عِبَادِهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، ثُمَّ يَرَى سَبِيلَهُ، إِمَّا إِلَى الْجَنَّةِ، وَإِمَّا إِلَى النَّارِ...» الحديث.

وما أخرجه مسلم^(١) أيضا من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه يقول: «مَا مِنْ صَاحِبِ إِبِلٍ لَا يَفْعَلُ فِيهَا حَقَّهَا إِلَّا جَاءَتْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَكْثَرُ مَا كَانَتْ قَطُّ، وَقَعَدَ لَهَا بِقَاعٌ قَرَقَرٍ^(٢) تَسْتَنُّ عَلَيْهِ بِقَوَائِمِهَا وَأَخْفَافِهَا، وَلَا صَاحِبِ بَقَرٍ لَا يَفْعَلُ فِيهَا حَقَّهَا إِلَّا جَاءَتْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَكْثَرُ مَا كَانَتْ، وَقَعَدَ لَهَا بِقَاعٌ قَرَقَرٍ تَنْطَحُهُ بِقُرُونِهَا وَتَطَوُّهُ بِقَوَائِمِهَا، وَلَا صَاحِبِ غَنَمٍ لَا يَفْعَلُ فِيهَا حَقَّهَا إِلَّا جَاءَتْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَكْثَرُ مَا كَانَتْ، وَقَعَدَ لَهَا بِقَاعٌ قَرَقَرٍ تَنْطَحُهُ بِقُرُونِهَا وَتَطَوُّهُ بِأَظْلَافِهَا لَيْسَ فِيهَا جَمَاءٌ وَلَا مُنْكَسِرٌ قَرْنُهَا، وَلَا صَاحِبِ كَنْزٍ لَا يَفْعَلُ فِيهِ حَقَّهُ إِلَّا جَاءَ كَنْزُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ شَجَاعًا أَقْرَعَ يَتَّبِعُهُ فَاتِحًا فَاهُ، فَإِذَا أَتَاهُ فَرَّ مِنْهُ، فَيُنَادِيهِ خُذْ كَنْزَكَ الَّذِي حَبَّاتُهُ، فَأَنَا عَنْهُ غَنِيٌّ، فَإِذَا رَأَى أَنْ لَا بَدَّ مِنْهُ سَلَكَ يَدَهُ فِيهِ فَيَقْضُمُهَا قَضْمَ الْفَحْلِ».

وقال البخاري^(٣) في صحيحه وقال^(٤) أحمد بن شبيب بن سعيد: حَدَّثَنَا أَبِي عَنْ يُونُسَ عَنْ ابْنِ شَهَابٍ عَنْ خَالِدِ بْنِ أَسْلَمَ قَالَ: خَرَجْنَا مَعَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رضي الله عنه فَقَالَ أَعْرَابِيٌّ: أَخْبِرْنِي عَنْ قَوْلِ اللَّهِ: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾؟ قَالَ ابْنُ عُمَرَ رضي الله عنه: مَنْ كَنَزَهُمَا، فَلَمْ يُؤَدِّ زَكَاتَهُمَا فَوَيْلٌ لَهُ، إِنْ مَا كَانَ هَذَا

(١) مسلم (٩٨٨).

(٢) في رواية: بَطِحَ لَهَا بِقَاعٍ قَرَقَرٍ، والمراد بطح وقعد هو صاحب الإبل، فهو الذي يُبطح أي: ينام منبطحا في قاع مستوٍ، فتمر عليه إبله بأخفافها وقوائمها، وترفع يديها وتطرحهما معاً على صاحبها.

(٣) البخاري (١٤٠٤).

(٤) هذا صورته هنا معلق، لكن في بعض نسخ البخاري (رواية أبي ذر) حدثنا أحمد، وقد وصله أبو داود في كتاب النسخ والمنسوخ عن محمد بن يحيى وهو الذهلي عن أحمد بن شبيب بإسناده، قاله الحافظ ابن حجر.

قَبْلَ أَنْ تُنَزَلَ الزَّكَاةُ، فَلَمَّا أُنْزِلَتْ جَعَلَهَا اللَّهُ طَهْرًا لِلْأَمْوَالِ.

رابعًا: أخبار خاصة وردت في إيجاب إخراج الزكاة عن الذهب المستعمل للزينة، وإن كان في بعضها مقال لكنها تحسّن بمجموع طرقها.

فمن ذلك ما رواه أبو داود والنسائي وأحمد^(١) وغيرهم من طريق عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده، أَنَّ امْرَأَةً أَتَتْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَمَعَهَا ابْنَةٌ لَهَا وَفِي يَدِ ابْنَتِهَا مَسَكَتَانِ غَلِيطَتَانِ مِنْ ذَهَبٍ فَقَالَ لَهَا: «أَتُعْطِينَ زَكَاةَ هَذَا؟» قَالَتْ: لَا. قَالَ: «يُسْرُكُ أَنْ يُسَوِّرَكَ اللَّهُ بِهِمَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ سَوَارَيْنِ مِنْ نَارٍ» قَالَ: فَخَلَعَتْهُمَا فَأَلْقَتْهُمَا إِلَى النَّبِيِّ ﷺ وَقَالَتْ: هُمَا لِلَّهِ ﷻ وَلِرَسُولِهِ.

وله شاهد في سنده ضعف^(٢) قريب من حديث أسماء بنت يزيد قالت: دَخَلْتُ أَنَا وَخَالَتِي عَلَى النَّبِيِّ ﷺ وَعَلَيْهَا أُسُورَةٌ مِنْ ذَهَبٍ، فَقَالَ لَنَا: «أَتُعْطِيَانِ زَكَاةَهُ؟» قَالَتْ: فَقُلْنَا: لَا. قَالَ: «أَمَّا تَخَافَانِ أَنْ يُسَوِّرَكُمَا اللَّهُ أُسُورَةً مِنْ نَارٍ أَدْيَا زَكَاةَهُ». هذا، وكما أسلفت لم يصح خبر في إسقاط زكاة الحلبي.

والخبر الذي ورد عن النبي ﷺ: «ليس في الحلبي زكاة» خبر ضعيف جدًا، وقد أوضحت ضعفه في كتابي جامع أحكام النساء.

هذا، وقد ورد بعض الصحابة أيضًا القول بإخراج الزكاة عن الذهب المعد للزينة.

فروى الدارقطني بسند حسن عن عائشة وابن عمرو^(٣).

فلفظ عائشة لا بأس بلبس الحلبي إذا أُعْطِيَ زكاته.

وعبد الله بن عمرو كان يكتب إلى خازنه سالم أنه يخرج زكاة حلبي بناته كل سنة. ووردت عدة آثار عن التابعين بإخراج زكاة الذهب المعد للزينة.

فسئل سعيد بن المسيب أفي الحلبي الذهب والفضة زكاة؟ قال: نعم. قلت: إذن

(١) أبو داود (١٥٦٣)، والنسائي (٣٨/٥)، وأحمد (١٧٨/٢)، وله شاهد من حديث عائشة ؓ عند أبي داود (١٥٦٥)، وآخر من حديث أم سلمة ؓ مرفوعًا عند أبي داود (١٥٦٤).

(٢) أحمد (٤٦١/٦).

(٣) انظر الدارقطني (١٠٧/٢).

يفنى. قال: ولو.

وصح عن سعيد بن جبير نحو ذلك.

وعن عطاء والزهري وعبد الله بن شداد والثوري وغيرهم^(١)، صح عنهم القول بإخراج زكاة عن الذهب المعد للزينة، وكذا الفضة.

هذا، وغاية ما تمسك به المانعون من إخراج الزكاة عن الحلبي، أعني الذين قالوا بعدم الوجوب بعض الآثار عن بعض الصحابة كابن عمر^(٢)، وجابر^(٣)، وأسماء بنت أبي بكر^(٤)، وعائشة^(٥)، قد صح عنها أنها كانت تلي بنات أخيها يتامى في حجرها لهن الحلبي فلا تخرج من حلبيهن زكاة، وهذا كله لا يقوى على إسقاط زكاة الذهب والفضة المعدان للزينة، والصواب وجوب الإخراج إذا بلغ الذهب النصاب، وحال عليه الحول، والله أعلم.

قال الشنقيطي رَحِمَهُ اللهُ:

«إخراج زكاة الحلبي أحوط لأن « من اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه » ، « دع ما يريبك إلى ما لا يريبك » والعلم عند الله تعالى.

| س: هل الحلبي الذي تتحلّى به المرأة (غير الذهب والفضة) عليه زكاة؟

ج: ليست عليه زكاة.

قال مالك رَحِمَهُ اللهُ^(٦): ليس في اللؤلؤ، ولا في المسك، ولا في العنبر زكاة.

وقال الشافعي في الأم^(٧): وما يحلّى النساء به أو ادخرنه أو ادخره الرجال من لؤلؤ وزبرجد وياقوت ومرجان وحلية بحر وغيره فلا زكاة فيه، ولا زكاة إلا في ذهب

(١) وانظر أسانيد تلك الآثار عند عبد الرزاق في المصنف (٧٠٦٣) وغيره.

(٢) موطأ مالك (٢/٢٥٠) وغيره.

(٣) مسند الشافعي (ص ٩٦) وغيره.

(٤) ابن أبي شيبة في المصنف (٣/١٥٥).

(٥) الموطأ (١/٢٥٠) ويمكن الجمع بين أثر عائشة الآخر، بأن يقال إن ذهب يتامى لم يكن بلغ النصاب والله أعلم.

(٦) الموطأ (١/٢٥٠).

(٧) الأم (٢/٣٦).

أو ورق، ولا زكاة في صفر ولا حديد ولا رصاص ولا حجارة ولا كبريت ولا مما أخرج من الأرض ولا زكاة في عنبر ولا لؤلؤ أخذ من البحر.. إلى آخر ما قاله رَحِمَهُ اللَّهُ.

س: ما المراد بالأشهر الحرم؟

ج: بينها قول رسول الله ﷺ الذي أخرجه البخاري ومسلم^(١) وأحمد واللفظ لأحمد من حديث أبي بكر، أن النبي ﷺ خطب في حجته، فقال: «ألا إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض، السنة اثنا عشر شهراً، منها أربعة حرم، ثلاثة متواليات: ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان». ثم قال: «ألا أي يوم هذا؟» قلنا: الله ورسوله أعلم. فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه، قال: «أليس يوم النحر؟» قلنا: بلى. ثم قال: «أي شهر هذا؟» قلنا: الله ورسوله أعلم. فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه، قال: «أليس ذا الحجة؟» قلنا: بلى. ثم قال: «أي بلد هذا؟» قلنا: الله ورسوله أعلم. فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه، قال: «أليست البلدة؟» قلنا: بلى. قال: «فإن دماءكم وأموالكم - قال: وأحسبه قال: وأعراضكم - عليكم حرام كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا، وستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم، ألا لا ترجعوا بعدي ضللاً يضرب بعضكم رقاب بعض، ألا هل بلغت؟ ألا ليلغ الشاهد منكم الغائب، فلعل من يبلغه يكون أوعى له من بعض من يسمعه».

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقوله ﷺ في الحديث: «إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض»، تقرير منه، صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ، وتثبيت للأمر على ما جعله الله تعالى في أول الأمر من غير تقديم ولا تأخير، ولا زيادة ولا نقص، ولا نسيء ولا تبديل، كما قال في تحريم مكة: «إن هذا البلد حرمه الله يوم خلق السموات والأرض، فهو حرام بحرمة الله تعالى إلى يوم القيامة»، وهكذا قال هاهنا: «إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض».

(١) البخاري (٦٧) وفي غير موضع، ومسلم (١٦٧٩)، وأحمد (٣٧/٥) واللفظ له.

أي: الأمر اليوم شرعا كما ابتداء الله ذلك في كتابه يوم خلق السموات والأرض.

وقال ابن كثير أيضًا:

وقوله تعالى: ﴿مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرْمٌ﴾ فهذا مما كانت العرب أيضا في الجاهلية تحرمه، وهو الذي كان عليه جمهورهم، إلا طائفة منهم يقال لهم: «البَّسَل»، كانوا يحرمون من السنة ثمانية أشهر، تعمقا وتشديداً.

وأما قوله: «ثلاث متواليات: ذو القعدة وذو الحجة والمحرم، ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان، وإنما أضافه إلى مضر، ليبين صحة قولهم في رجب أنه الشهر الذي بين جمادى وشعبان لا كما كانت تظنه ربيعة من أن رجب المحرم هو الشهر الذي بين شعبان وشوال، وهو رمضان اليوم، فبين، ﷺ أنه رجب مضر لا رجب ربيعة. وإنما كانت الأشهر المحرمة أربعة، ثلاثة سرِّدٌ وواحد فرد؛ لأجل أداء مناسك الحج والعمرة، فحرم قبل شهر الحج شهر، وهو ذو القعدة؛ لأنهم يقعدون فيه عن القتال، وحُرِّم شهر ذي الحجة لأنهم يوقعون فيه الحج ويشغلون فيه بأداء المناسك، وحرم بعده شهر آخر، وهو المحرم؛ ليرجعوا فيه إلى نائي أقصى بلادهم آمنين، وحرم رجب في وسط الحول، لأجل زيارة البيت والاعتماد به، لمن يقدم إليه من أقصى جزيرة العرب، فيزوره ثم يعود إلى وطنه فيه آمناً.

س: ما توجيه قوله تعالى: ﴿فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِ أَنْفُسَكُمْ﴾ مع العلم بأننا نهينا عن ظلم

النفس مطلقاً؟

ج: ليس المعنى أنه يباح لنا أن نظلم أنفسنا في غيرها، وإنما المعنى التحذير الشديد من ظلم النفس فيها، فالإثم فيها أعظم من غيرها.

قال الطبري رحمه الله:

فإن قال قائل: فإن كان الأمر على ما وصفت، فقد يجب أن يكون مباحاً لنا ظلم أنفسنا في غيرهن من سائر شهور السنة؟

قيل: ليس ذلك كذلك، بل ذلك حرام علينا في كل وقتٍ وزمانٍ، ولكن الله عظم حرمة هؤلاء الأشهر وشرفهن على سائر شهور السنة، فخصَّ الذنب فيهن بالتعظيم، كما خصَّهن بالتشريف، وذلك نظير قوله: ﴿حَفِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى﴾

[البقرة: ٢٣٨]، ولا شك أن الله قد أمرنا بالمحافظة على الصلوات المفروضات كلها بقوله: ﴿حَفِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ﴾، ولم يبح ترك المحافظة عليهن، بأمره بالمحافظة على الصلاة الوسطى، ولكنه تعالى ذكره زادها تعظيمًا، وعلى المحافظة عليها تأكيدًا وفي تضييعها تشديدًا. فكذلك ذلك في قوله: ﴿مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرْمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ﴾.

وقال القرطبي رحمه الله:

خص الله تعالى الأربعة الأشهر الحرم بالذكر، ونهى عن الظلم فيها تشريفًا لها وإن كان منها عنه في كل الزمان. كما قال: ﴿فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾ **[البقرة: ١٩٧]** على هذا أكثر أهل التأويل. أي لا تظلموا في الأربعة الأشهر أنفسكم.

|

الأحكام الشرعية تبنى على الشهور الهلالية (العربية)

س: الأحكام الشرعية المتعلقة بالشهور تبنى على الشهور العربية (الهلالية) أم على الشهور الميلادية؟

ج: بل تبنى على الشهور العربية (الهلالية) لقوله تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾.

ولقوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾ [البقرة:

١٨٩].

قال القرطبي رحمه الله:

هذه الآية تدل على أن الواجب تعليق الأحكام من العبادات وغيرها إنما يكون بالشهور والسنين التي تعرفها العرب، دون الشهور التي تعتبرها العجم والروم والقبط وإن لم تزد على اثني عشر شهرا، لأنها مختلفة الأعداد، منها ما يزيد على ثلاثين ومنها ما ينقص، وشهور العرب لا تزيد على ثلاثين وإن كان منها ما ينقص، والذي ينقص ليس يتعين له شهر، وإنما تفاوتها في النقصان والتمام على حسب اختلاف سير القمر في البروج.

س: ما المراد بالظلم في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَظْلِمُوا فِي أَنْفُسِكُمْ﴾؟

ج: لأهل العلم في ذلك أقوال:

أحدها: أن المراد بظلم النفس هنا ارتكاب المعاصي والمحرمات.

الثاني: أن المراد بالظلم القتال في هذه الأشهر.

الثالث: أن المراد بالظلم تأخير هذه الأشهر الذي هو النسيء - كما سيأتي.

قال ابن الجوزي في (زاد المسير):

يخرج في معنى الظلم فيهن أربعة أقوال:

أحدها: أنه المعاصي؛ فتكون فائدة تخصيص النهي عنه بهذه الأشهر، أن شأن المعاصي يعظم فيها أشد من تعظيمه في غيرها، وذلك لفضلها على ما سواها، كقوله: ﴿وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ﴾ [البقرة: ٩٨] وإن كانا قد دخلا في جملة الملائكة، وقوله: ﴿فَكَهَنَ﴾

وَنَحْلُورَمَانُ ﴿[الرحمن: ٦٨] وَإِنْ كَانَا قَدْ دَخَلَا فِي جُمْلَةِ الْفَاكِهِةِ، وَقَوْلُهُ: ﴿فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾ [البقرة: ١٩٧] وَإِنْ كَانَ مِنْهَا فِي غَيْرِ الْحَجِّ وَكَمَا أَمَرَ بِالْمَحَافَظَةِ عَلَى الصَّلَاةِ الْوَسْطَى وَإِنْ كَانَ مَأْمُورًا بِالْمَحَافَظَةِ عَلَى غَيْرِهَا هَذَا قَوْلُ الْأَكْثَرِينَ.

والثاني: أَنْ الْمَرَادَ بِالظُّلْمِ فِيهِنَّ فَعَلَ النَّسِيءَ، وَهُوَ تَحْلِيلُ شَهْرٍ مُحَرَّمٍ وَتَحْرِيمُ شَهْرٍ حَلَالٍ، قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ.

والثالث: أَنَّهُ الْبَدَايَةُ بِالْقِتَالِ فِيهِنَّ؛ فَيَكُونُ الْمَعْنَى: فَلَا تَظْلَمُوا أَنْفُسَكُمْ بِالْقِتَالِ فِيهِنَّ إِلَّا أَنْ تُبَدَّوْا بِالْقِتَالِ، قَالَ مَقَاتِلُ.

والرابع: أَنَّهُ تَرَكَ الْقِتَالَ فِيهِنَّ فَيَكُونُ الْمَعْنَى فَلَا تَظْلَمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ بِتَرْكِ الْمُحَارَبَةِ لِعَدُوِّكُمْ. قَالَ ابْنُ بَحْرٍ. وَهُوَ عَكْسُ قَوْلِ مَقَاتِلَ، وَالسَّرُّ فِي أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى عَظُمَ بَعْضُ الشُّهُورِ عَلَى بَعْضٍ؛ لِيَكُونَ الْكَفُّ عَنِ الْهَوَى فِيهَا ذَرِيعَةً إِلَى اسْتِدَامَةِ الْكَفِّ فِي غَيْرِهَا تَدْرِيجًا لِلنَّفْسِ إِلَى فِرَاقِ مَأْلُوفِهَا الْمَكْرُوهِ شَرْعًا.

شهور السنة والأشهر الحرم

س: وضح المعنى الإجمالي لقوله تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكََ الَّذِي أَلْقَيْتُمْ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ وَقَدْ نَلَأُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَدِّرُونَكُمْ كَافَّةً وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿١٢٩﴾﴾؟

ج: المعنى، إجمالاً - والله تعالى أعلم - إن عدد شهور السنة عند الله ﷻ في كتابه الذي كتبه يوم خلق السموات والأرض، في اللوح المحفوظ اثنا عشر شهراً، منها أربعة حُرُمٌ عظمها الله ﷻ وعظم القتال فيها، نهى عن القتال فيها، وهي كما بينها النبي ﷺ ثلاث متواليات ذو القعدة وذو الحجة، وشهر الله المحرم، ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان.

وأطلق عليها رجب مضر نسبةً على قبيلة مضر فقد كانت هذه القبيلة تحافظ على هذا الشهر فلا تقدم فيه ولا تؤخر، أما سائر القبائل فكانت تتقاتل فإذا دخل رجب يُفترض أنها تتوقف عن القتال، ولكنها لا تفعل ذلك بل تستمر في القتال، وتقول مثلاً: نؤخر رجب إلى ما بعد شوال أو نؤخر رجب شهراً أو شهرين وتقدم غيره عليه أو تلغي رجب هذا العام، وهذا هو النسيء كما سيأتي بيانه.

ثم إن هذه الأشهر الحرم حُرُم القتال فيها، وذهب بعض أهل العلم إلى أن هذا التحريم منسوخ، أعني: تحريم القتال.

وعظم الله ﷻ إثم المعاصي فيها فالذي يعصي يعاقب عقاباً أشد من العاصي في غيرها.

وكذا عظم فيها الطاعات فأجرها في الأشهر الحرم أكثر من غيرها.
وقد قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ...﴾.

[المائدة: ١]

وقال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ...﴾.

[البقرة: ٢١٧]

وقال ﷺ: «أتدرون أي شهر هذا...» ثم قال: «أليس بالشهر الحرام...» ثم قال: «فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذه...» الحديث.

أما قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ الَّذِي أَلْقَيْتُمْ﴾ فالمعنى ذلك هو الدين المستقيم والحساب الصحيح الذي تحسب به الأشياء كما قال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ...﴾ [البقرة: ١٨٩] ، وقوله تعالى: ﴿فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ﴾ يعني بارتكاب المعاصي واستحلال الحرام، وكذا لا تظلموا فيهن إخوانكم فالمسلمون نفس واحدة، وخصت هذه الأشهر بالنهاي عن ظلم النفس كما تقدم لعظيم حرمتها وليتعظم أمر الآثام فيها، وقد سبق بذلك سؤال مستقل وجوابه. وقوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً﴾ قيل: إنه ناسخ لما تقدم من النهي عن القتال في الأشهر الحرم، وقوله: ﴿كَافَّةً﴾ أي: جميعاً أي: قاتلوا أهل الكفر كلهم كما يقاتلونكم جميعاً.

واعلموا أن الله مع المتقين الذين يتقون الشرك به والذين يتقون معصيته ﷺ.

وبنحو هذا قال أهل العلم.

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره: إن عدة شهور السنة عند الله اثنا عشر شهراً في كتاب الله، الذي كتب فيه كل ما هو كائن في قضائه الذي قضى ، ﴿يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾، يقول: هذه الشهور الاثنا عشر منها أربعة أشهر حرم كانت الجاهلية تعظمهن، وتحرمهن، وتحرم القتال فيهن، حتى لو لقي الرجل منهم فيهن قاتل أبيه لم يهجه، وهن: رجب مضر وثلاثة متواليات، ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم. وبذلك تظاهرت الأخبار عن رسول الله ﷺ.

وأورد رحمه الله جملة أحاديث عن رسول الله ﷺ، منها حديث عن أبي بكر: أن النبي ﷺ خطب في حجة الوداع فقال: «ألا إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله

السموات والأرض، السنة اثنا عشر شهراً، منها أربعة حرم ثلاثة متواليات: ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان».

وقال: وهو قول عامة أهل العلم.

وقال رحمه الله:

وأما قوله: ﴿ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾، فإن معناه: هذا الذي أخبرتكم به، من أن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً في كتاب الله، وأن منها أربعة حرمًا: هو الدين المستقيم.

وأورد بإسناد صحيح عن ابن زيد في قوله: ﴿ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾، قال: الأمر القيم. يقول: قال تعالى: واعلموا، أيها الناس، أن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً في كتاب الله الذي كتب فيه كل ما هو كائن، وأن من هذه الاثنى عشر شهراً أربعة أشهر حرمًا، ذلك دين الله المستقيم، لا ما يفعله النسيء من تحليله ما يحلل من شهور السنة، وتحريمه ما يحرمه منها.

وأما قوله: ﴿فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ﴾، فإن معناه: فلا تعصوا الله فيها، ولا تحلّوا فيهن ما حرم الله عليكم، فتكسبوا أنفسكم ما لا قبل لها به من سخط الله وعقابه.

وأورد بإسناد صحيح عن ابن زيد في قوله: ﴿فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ﴾، قال: الظلم العمل بمعاصي الله، والترك لطاعته.

ثم اختلف أهل التأويل في الذي عادت عليه «الهاء»، و«النون» في قوله: ﴿فِيهِنَّ﴾. **فقال بعضهم:** عاد ذلك على «الاثنى عشر الشهر»، وقال: معناه: فلا تظلموا في الأشهر كلّها أنفسكم.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: فلا تظلموا في الأربعة الأشهر الحرم أنفسكم، و«الهاء والنون» عائدة على «الأشهر الأربعة».

وأورد بإسناد حسن عن قتادة: أما قوله: ﴿فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ﴾، فإن الظلم في الأشهر الحرم أعظم خطيئةً ووزراً، من الظلم فيما سواها، وإن كان الظلم على كل حال عظيماً، ولكن الله يعظم من أمره ما شاء. وقال: إن الله اصطفى صَفَايا من خلقه،

اصطفى من الملائكة رسلاً ومن الناس رسلاً واصطفى من الكلام ذكره، واصطفى من الأرض المساجد، واصطفى من الشهور رمضان والأشهر الحرم، واصطفى من الأيام يوم الجمعة، واصطفى من الليالي ليلة القدر، فعظموا ما عظم الله، فإنما تعظم الأمور بما عظمها الله عند أهل الفهم وأهل العقل.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: فلا تظلموا في تصييركم حرام الأشهر الأربعة حلالاً وحلالها حراماً أنفسكم.

قال الطبري رَحِمَهُ اللهُ:

وأولى الأقوال في ذلك عندي بالصواب، قول من قال: فلا تظلموا في الأشهر الأربعة أنفسكم، باستحلال حرامها، فإن الله عظمها وعظم حرمتها. وأما قوله: ﴿وَقَنِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقْنِلُونَكُمْ كَافَّةً﴾، فإنه يقول جل ثناؤه: وقاتلوا المشركين بالله، أيها المؤمنون، جميعاً غير مختلفين، مؤتلفين غير مفترقين، كما يقاتلكم المشركون جميعاً، مجتمعين غير متفرقين. وأما قوله: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾، فإن معناه: واعلموا، أيها المؤمنون بالله، أنكم إن قاتلتم المشركين كافة، واتقيتم الله فأطعتموه فيما أمركم ونهاكم، ولم تخالفوا أمره فتعصوه، كان الله معكم على عدوكم وعدوه من المشركين، ومن كان الله معه لم يغلبه شيء؛ لأن الله مع من اتقاه فخافه وأطاعه فيما كلفه من أمره ونهيه.

قال القرطبي رَحِمَهُ اللهُ:

ومعنى ﴿عِنْدَ اللَّهِ﴾ في حكم الله وفيما كتب في اللوح المحفوظ.

وقال رَحِمَهُ اللهُ:

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ إنما قال: ﴿يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ ليبين أن قضاءه وقدره كان قبل ذلك، وأنه سبحانه وضع هذه الشهور وسماها بأسمائها على ما رتبها عليه يوم خلق السموات والأرض، وأنزل ذلك على أنبيائه في كتبه المنزلة. وهو معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا﴾. وحكمها باقٍ على ما كانت عليه لم يزلها عن ترتيبها تغيير المشركين

لأسمائها، وتقديم المقدم في الاسم منها. والمقصود من ذلك اتباع أمر الله فيها ورفض ما كان عليه أهل الجاهلية من تأخير أسماء الشهور وتقديمها، وتعليق الأحكام على الأسماء التي رتبوها عليه، ولذلك قال **عَلَيْكُمْ** في خطبته في حجة الوداع: «أيها الناس إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض...» على ما يأتي بيانه. وأن الذي فعل أهل الجاهلية من جعل المحرم صفرا وصفرا محرما ليس يتغير به ما وصفه الله تعالى. والعامل في **يَوْمَ** المصدر الذي هو **﴿فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾** وليس يعنى به واحد الكتب، لأن الأعيان لا تعمل في الظروف. والتقدير: فيما كتب الله يوم خلق السموات والأرض. و**﴿عِنْدَ﴾** متعلق بالمصدر الذي هو العدة، وهو العامل فيه. و**﴿فِي﴾** من قوله: **﴿فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾** متعلقة بمحذوف، هو صفة لقوله: **﴿أَتْنَا عَشَرَ﴾**. والتقدير: اثنا عشر شهرا معدودة أو مكتوبة في كتاب الله. ولا يجوز أن تتعلق بعده لما فيه من التفرقة بين الصلة والموصول بخبر إن.

وقال رحمه الله:

قوله تعالى: **﴿ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾** أي الحساب الصحيح والعدد المستوفى. وروى علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: **﴿ذَلِكَ الدِّينُ﴾** أي ذلك القضاء. مقاتل: الحق. ابن عطية: والأصوب عندي أن يكون الدين ههنا على أشهر وجوهه، أي ذلك الشرع والطاعة. **﴿الْقَيِّمُ﴾** أي القائم المستقيم، من قام يقوم. بمنزلة سيد، من ساد يسود. أصله قيوم.

وقال ابن كثير رحمه الله:

وقوله تعالى: **﴿ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾** أي: هذا هو الشرع المستقيم، من امتثال أمر الله فيما جعل من الأشهر الحرم، والحدو بها على ما سبق في كتاب الله الأول. وقال تعالى: **﴿فَلَا تَطْلُمُوا فِيهِمْ أَنْفُسَكُمْ﴾** أي: في هذه الأشهر المحرمة؛ لأنه أكد وأبلغ في الإثم من غيرها، كما أن المعاصي في البلد الحرام تضاعف، لقوله تعالى: **﴿وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَكَمِ يُظْلَمِ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾** **[الحج: ٢٥]** وكذلك الشهر الحرام تغلظ فيه الآثام؛ ولهذا تغلظ فيه الدية في مذهب الشافعي، وطائفة كثيرة من العلماء، وكذا في حق من قتل في الحرم أو قتل ذا محرم.

وقوله: ﴿وَقَتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً﴾ أي: جميعهم ﴿كَمَا يَقْتُلُونَكُمْ كَافَّةً﴾ أي: جميعهم، ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾

وقد اختلف العلماء في تحريم ابتداء القتال في الشهر الحرام: هل هو منسوخ أو محكم؟ على قولين:

أحدهما - وهو الأشهر -: أنه منسوخ؛ لأنه تعالى قال هاهنا: ﴿فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ﴾ وأمر بقتال المشركين وظاهر السياق مشعر بأنه أمر بذلك أمراً عاماً، فلو كان محرماً في الشهر الحرام لأوشك أن يقيد بانسلاخها؛ ولأن رسول الله ﷺ حاصر أهل الطائف في شهر حرام - وهو ذو القعدة - كما ثبت في الصحيحين: أنه خرج إلى هوازن في شوال، فلما كسرهم واستفاء أموالهم، ورجع فلهم، فلجئوا إلى الطائف - عمد إلى الطائف فحاصروهم أربعين يوماً، وانصرف ولم يفتحها فثبت أنه حاصر في الشهر الحرام.

والقول الآخر: أن ابتداء القتال في الشهر الحرام حرام، وأنه لم ينسخ تحريم الشهر الحرام، لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحِلُّوا شَعِيرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ﴾ الآية **[المائدة: ٢]** وقال: ﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَتُ قِصَاصٌ فَمَنْ أَعَدَّى عَلَيْكُمْ فَأَعْدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا أَعَدَّى عَلَيْكُمْ﴾ الآية **[البقرة: ١٩٤]** وقال: ﴿فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ﴾ الآية **[التوبة: ٥]**.

وقد تقدم أنها الأربعة المقررة في كل سنة، لا أشهر التسيير على أحد القولين. وأما قوله تعالى: ﴿وَقَتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يَقْتُلُونَكُمْ كَافَّةً﴾ فيحتمل أنه منقطع عما قبله، وأنه حكم مستأنف، ويكون من باب التهييج والتحريض، أي: كما يجتمعون لحربكم إذا حاربوكم فاجتمعوا أنتم أيضاً لهم إذا حاربتموهم، وقاتلوهم بنظير ما يفعلون، ويحتمل أنه أذن للمؤمنين بقتال المشركين في الشهر الحرام إذا كانت البداءة منهم، كما قال تعالى: ﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَتُ قِصَاصٌ﴾ **[البقرة: ١٩٤]** وقال تعالى: ﴿وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يَقْتُلُوَكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ﴾ الآية **[البقرة: ١٩١]**، وهكذا الجواب عن حصار رسول الله ﷺ أهل الطائف، واستصحابه الحصار إلى أن دخل الشهر الحرام، فإنه من تنمة قتال هوازن

وأحلافها من ثقيف، فإنهم هم الذين ابتدءوا القتال، وجمعوا الرجال، ودعوا إلى الحرب والنزال، فعندها قصدهم رسول الله ﷺ كما تقدم، فلما تحصنوا بالطائف ذهب إليهم لينزلهم من حصونهم، فنالوا من المسلمين، وقتلوا جماعة، واستمر الحصار بالمجانيق وغيرها قريبا من أربعين يوما. وكان ابتداءه في شهر حلال، ودخل الشهر الحرام، فاستمر فيه أياما، ثم قفل عنهم لأنه يغتفر في الدوام ما لا يغتفر في الابتداء، وهذا هو أمر مقرر، وله نظائر كثيرة، والله أعلم. ولنذكر الأحاديث الواردة في ذلك وقد حررنا ذلك في السيرة، والله أعلم

قال السعدي رحمه الله:

يقول تعالى ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ﴾ أي: في قضائه وقدره. ﴿أَشْأَعَشَرَ شَهْرًا﴾ وهي هذه الشهور المعروفة ﴿فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ أي في حكمه القدري، ﴿يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ وأجرى ليلها ونهارها، وقدر أوقاتها فقسمها على هذه الشهور الاثني عشر شهرا.

﴿مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾ وهي: رجب الفرد، وذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، وسميت حرما لزيادة حرمتها، وتحريم القتال فيها.

﴿فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ﴾ يحتمل أن الضمير يعود إلى الاثني عشر شهرا، وأن الله تعالى بين أنه جعلها مقادير للعباد، وأن تعمر بطاعته، ويشكر الله تعالى على مَنِّه بها، وتقيضها لصالح العباد، فلتحذروا من ظلم أنفسكم فيها.

ويحتمل أن الضمير يعود إلى الأربعة الحرم، وأن هذا نهي لهم عن الظلم فيها، خصوصا مع النهي عن الظلم كل وقت، لزيادة تحريمها، وكون الظلم فيها أشد منه في غيرها.

ومن ذلك النهي عن القتال فيها، على قول من قال: إن القتال في الأشهر الحرم لم ينسخ تحريمه عملا بالنصوص العامة في تحريم القتال فيها.

ومنهم من قال: إن تحريم القتال فيها منسوخ، أخذا بعموم نحو قوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً﴾ أي: قاتلوا جميع أنواع المشركين والكافرين برب العالمين.

ولا تخلصوا أحداً منهم بالقتال دون أحد، بل اجعلوهم كلهم لكم أعداء كما كانوا هم معكم كذلك، قد اتخذوا أهل الإيمان أعداء لهم، لا يألونهم من الشر شيئاً. ويحتمل أن ﴿كَافَّةً﴾ حال من الواو فيكون معنى هذا: وقاتلوا جميعكم المشركين، فيكون فيها وجوب النفير على جميع المؤمنين. وقد نسخت على هذا الاحتمال بقوله: ﴿وَمَا كَانَتِ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً﴾ الآية. ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ بعونه ونصره وتأييده، فلتحرصوا على استعمال تقوى الله في سركم وعلنكم والقيام بطاعته، خصوصاً عند قتال الكفار، فإنه في هذه الحال، ربما ترك المؤمن العمل بالتقوى في معاملة الكفار الأعداء المحاربين.

معنى النسيء

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحْلُونَهُ عَامًا وَيُخَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُؤْطِطُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيَحْلُوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زَيْنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ (٣٧).

ج: المعنى -والله أعلم-: ما النسيء الذي يصنعه هؤلاء الكفار من تأخير الأشهر الحرم وتغييرها عن أماكنها كهؤلاء الذين كانوا يتقاتلون ويكاد شهر رجب أن يدخل عليهم مثلاً، ويفترض أنهم يتوقفون عن القتال فيه لكونه من الأشهر فيقولون نؤجل رجب إلى ما بعد شعبان، أو نؤجل رجب هذا العام فنجعله العام المقبل، أو نلغي رجب، نسقطه بالمرة هذا العام فلا رجب إلى غير ذلك من صور الإنساء، الذي هو التأخير، ما هذا الإنساء إلا زيادة في الكفر، فإنهم كفروا بوحداية الله وكذبوا رسل الله وأنكروا القرآن وكذبوا المرسلين عموماً، وأنكروا البعث والحساب إلى غير ذلك من صور الكفر والضلال الذي كانوا فيه، فما النسيء الذي اختلقوه واخترعوه إلى زيادة في الكفر والضلال، فإنهم يغيرون من دين الله الأشهر الحرم، فلا يتركونها على ما هي عند الله، وعلى ما قد شرعه الله في شأنها، بل يزيدون وينقصون، ويغيرون ويبدلون، فهذا فريد من الكفر إلى كفرهم، وذلك لكونهم جحدوا ما شرعه الله من الأشهر الحرم، وانتهكوا فيها الحرمات وارتكبوا فيها المنكرات وأحلوا فيها ما حرم الله فازدادوا بذلك كفرًا إلى كفرهم أما قوله تعالى: ﴿يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: يُصرف بهذا الإنساء والتأخير أهل الكفر من الحق إلى الباطل، فيزدادون ضلالاً إلى ضلالهم، ففي عام من الأعوام يقولون لا نسيء ولا تأخير وسنترك هذه الأشهر الحرم كما هي هذا العام وفي عام آخر يؤخرونها عن مواطنها ومواعيدها.

أما قوله تعالى: ﴿لِيُؤْطِطُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ﴾ فمعناه ليوافقوا بأعمالهم المحرمة الأشهر التي حرم الله فيها القتال ﴿فَيَحْلُوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ﴾ فيقاتلون في الأشهر الحرم ويظلموا العباد فيها ﴿زَيْنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ﴾ أي: زين لهم الشياطين أعمالهم فحسنها لهم، فارتكبوا المنكرات وظنوا أنها حسنة وتمادوا في الغي وظنوا أنهم يحسنون صنعاً.

﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ لا يوفق لطاعته ولا للإيمان به، ولا للإسلام من كتبت عليه الشقاوة وقضي عليه بأنه سيموت على الكفر، والعياذ بالله، وبنحو هذا قال أهل العلم بالتأويل.

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره: ما النسيء إلا زيادة في الكفر.

و«النسيء» مصدر من قول القائل: «نسأت في أيامك، ونسأ الله في أجلك»، أي: زاد الله في أيام عمرك ومدة حياتك، حتى تبقى فيها حيًّا. وكل زيادة حدثت في شيء، فالشيء الحادث فيه تلك الزيادة بسبب ما حدث فيه: «نسيء». ولذلك قيل للبن إذا كثر بالماء: «نسيء»، وقيل للمرأة الحبلى: «نُسوء»، و«نُسئت المرأة»، لزيادة الولد فيها، وقيل: «نسأت الناقة وأنسأتها»، إذا زجرتها ليزداد سيرها.

وقد يحتمل أن: «النسيء»، «فعل» صرف إليه من «مفعول»، كما قيل: «لعين» و«قتيل»، بمعنى: ملعون ومقتول. ويكون معناه: إنما الشهر المؤخر زيادة في الكفر. وكأن القول الأول أشبه بمعنى الكلام، وهو أن يكون معناه: إنما التأخير الذي يؤخره أهل الشرك بالله من شهور الحرم الأربعة، وتصييرهم الحرام منهم حلالًا والحلال منهم حرامًا، زيادة في كفرهم وجحودهم أحكام الله وآياته. وقد كان بعض القراءة يقرأ ذلك: (إنما النسي) بترك الهمز، وترك مدّه: ﴿يُضِلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾.

واختلف القراءة في قراءة ذلك.

فقرأته عامة الكوفيين: ﴿يُضِلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بمعنى: يضل الله بالنسيء الذي ابتدعوه وأحدثوه، الذين كفروا.

وقرأ ذلك عامة قرأة المدينة والبصرة وبعض الكوفيين: (يُضِلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا)، بمعنى: يزول عن محجة الله التي جعلها لعباده طريقًا يسلكونه إلى مرضاته، الذين كفروا.

وقد حكى عن الحسن البصري: (يُضِلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا)، بمعنى: يضل بالنسيء الذي سنه الذين كفروا، الناس.

قال أبو جعفر: والصواب من القول في ذلك أن يقال: هما قراءتان مشهورتان، قد قرأت بكل واحدة القراءة أهل العلم بالقرآن والمعرفة به، وهما متقاربتا المعنى. لأن من أضله الله فهو «ضال»، ومن ضل فبإضلال الله إياه وخذلانه له ضلّ. فبأيتهما قرأ القارئ فهو للصواب في ذلك مصيبٌ.

وأما الصواب من القراءة في ﴿الْأَنفِئُ﴾، فالهمزة، وقراءته على تقدير «فعل» لأنها القراءة المستفيضة في قراءة الأمصار التي لا يجوز خلافها فيما أجمعت عليه. وأما قوله: ﴿يُحْلُونَهُ عَامًا﴾، فإن معناه: يُحلّ الذين كفروا بالنسيء، و«الهاء» في قوله: ﴿يُحْلُونَهُ﴾، عائدة عليه.

ومعنى الكلام: يحلون الذي آخروا تحريمه من الأشهر الأربعة الحرم، عامًا، ﴿وَيُحْكِمُونَهُ عَامًا لِيُؤْطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ﴾، يقول: ليوافقوا بتحليلهم ما حللوا من الشهور، وتحريمهم ما حرموا منها، عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ، ﴿فَيُحْلُوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زَيْنَ لَهُمْ سُوءَ أَعْمَالِهِمْ﴾، يقول: حُسْنُ لَهُمْ وَحُبُّ إِلَيْهِمْ سِيئَ أَعْمَالِهِمْ وقبيحها، وما خولف به أمرُ الله وطاعته، ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾، يقول: والله لا يوفق لمحاسن الأفعال وجميلها، وما لله فيه رضى، القومَ الجاحدين توحيدَه، والمنكرين نبوة محمد ﷺ، ولكنه يخذلهم عن الهدى، كما خذّل هؤلاء الناس عن الأشهر الحرم.

وأورد بإسناد حسن عن قتادة: ﴿إِنَّمَا الْأَنفِئُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ﴾، إلى قوله: ﴿الْكَافِرِينَ﴾، عمد أناسٌ من أهل الضلالة فزادوا صفرًا في الأشهر الحرم، فكان يقوم قائمهم في الموسم فيقول: «ألا إن آلهتكم قد حرمت العام المحرّم»، فيحرمونه ذلك العام. ثم يقول في العام المقبل فيقول: «ألا إن آلهتكم قد حرمت صفر»، فيحرمونه ذلك العام. وكان يقال لهما «الصفوان». قال: فكان أول من نسأ النسيء: بنو مالك بن كنانة، وكانوا ثلاثة: أبو ثمامة صفوان بن أمية أحد بني فقيم بن الحارث، ثم أحد بني كنانة.

وأما قوله: ﴿زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ﴾، فإن معناه زيادة كُفر بالنسيء، إلى كفرهم بالله قبل ابتداعهم النسيء.

وأما قوله: ﴿لِيُؤَاطُوا﴾، فإنه من قول القائل: «واطأت فلانا على كذا أو اواطئه مُواطأة»، إذا وافقته عليه، معيناً له، غير مخالف عليه.

وإنما معنى الكلام: أنهم يوافقون بعدة الشهور التي يحرمونها، عدة الأشهر الأربعة التي حرمها الله، لا يزيدون عليها ولا ينقصون منها، وإن قدّموا وأخروا. فذلك مواطأة عدتهم عدة ما حرم الله.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ:

هذا مما ذم الله تعالى به المشركين من تصرفهم في شرع الله بآرائهم الفاسدة، وتغييرهم أحكام الله بأهوائهم الباردة، وتحليلهم ما حرم الله وتحريمهم ما أحل الله، فإنهم كان فيهم من القوة الغضبية والشهامة والحمية ما استطالوا به مدة الأشهر الثلاثة في التحريم المانع لهم من قضاء أوطارهم من قتال أعدائهم، فكانوا قد أحدثوا قبل الإسلام بمدة تحليل المحرم وتأخيرهِ إلى صفر، فيحلون الشهر الحرام، ويحرمون الشهر الحلال، ليواطئوا عدة الأشهر الأربعة كما قال شاعرهم -وهو عمير بن قيس المعروف - بجذل الطعان:

لَقَدْ عَلِمْتَ مَعْدَ أَنْ قَوْمِي كَرَامَ النَّاسِ أَنْ لَهُمْ كِرَامَا
أَلْسُنَا النَّاسِيْنَ عَلَى مَعْد شُهُورَ الْجِلِّ نَجْعَلُهَا حَرَامَا
فَأَيُّ النَّاسِ لَمْ نُذَرِكْ بُوْثْرَ؟ وَأَيُّ النَّاسِ لَمْ نُغْلِكْ لِحَامَا؟

ثم قال رَحِمَهُ اللهُ:

وقد تكلم الإمام محمد بن إسحاق على هذا في كتاب «السيرة» كلاماً جيداً مفيداً حسناً، فقال: كان أول من نسا الشهور على العرب، فأحل منها ما حرم الله، وحرم منها ما أحل الله رَحِمَهُ اللهُ، «الْقَلَمَس»، وهو: حذيفة بن عبد قُيَيم بن عدي بن عامر بن ثعلبة ابن الحارث بن مالك بن كنانة بن خُزَيْمة بن مَدْرِكَة بن إِيَّاس بن مُضَر بن نزار بن مَعَدَّ بن عدنان، ثم قام بعده على ذلك ابنه عَبَاد ثم من بعد عبَاد ابنه قَلْع بن عبَاد، ثم ابنه أُمِيَّة بن قَلْع، ثم ابنه عوف بن أُمِيَّة، ثم ابنه أَبُو ثَمَامَة جنادة بن عوف، وكان آخرهم، وعليه قام الإسلام. فكانت العرب إذا فرغت من حجها اجتمعت إليه، فقام فيهم خطيباً، فحرم

رجبا، وذا القعدة، وذا الحجة، ويحل المحرم عاما، ويجعل مكانه صفر، ويحرمه عاما ليواطئ عدة ما حرم الله، فيحل ما حرم الله، يعني: ويحرم ما أحل الله - والله أعلم.

وقال القرطبي رحمه الله:

قوله تعالى: ﴿زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ﴾ بيان لما فعلته العرب من جمعها من أنواع الكفر فإنها أنكرت وجود الباري تعالى فقالت: ﴿وَمَا الرَّحْمَنُ﴾ [الفرقان: ٦٠] في أصح الوجوه. وأنكرت البعث فقالت: ﴿قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَمَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ [يس: ٧٨]. وأنكرت بعثة الرسل فقالوا: ﴿أَبَشْرًا مِمَّا وَحَدَّا نَجَّعُهُ﴾ [القمر: ٢٤]. وزعمت أن التحليل والتحريم إليها، فابتدعته من ذاتها مقتفية لشهواتها فأحلت ما حرم الله. ولا مبدل لكلماته ولو كره المشركون.

قال ابن الجوزي (زاد المسير):

قال اللغويون: النسيء: تأخير الشيء، وكانت العرب تحرم الأشهر الأربعة، وكان هذا مما تمسكت به من ملة إبراهيم، فربما احتاجوا إلى تحليل المحرم للحرب تكون بينهم، فيؤخرون تحريم المحرم إلى صفر، ثم يحتاجون إلى تأخير صفر أيضا إلى الشهر الذي بعده، ثم تتدافع الشهور شهرا بعد شهر حتى يستدير التحريم على السنة كلها، فكأنهم يستنسئون الشهر الحرام ويستقرضونه، فأعلم الله ﷻ أن ذلك زيادة في كفرهم، لأنهم أحلوا الحرام، وحرموه الحلال ﴿لِيُؤَاطِئُوا﴾ أي: ليوافقوا ﴿عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ﴾ فلا يخرجون من تحريم أربعة، ويقولون: هذه بمنزلة الأربعة الحرم، ولا يبالون بتحليل الحرام، وتحريم الحلال، وكان القوم لا يفعلون ذلك إلا في ذي الحجة، إذا اجتمعت العرب للموسم، قال الفراء: كانت العرب في الجاهلية إذا أرادوا الصدر عن منى قام رجل من بني كنانة يقال له: نعيم بن ثعلبة وكان رئيس الموسم، فيقول: أنا الذي لا أعاب، ولا أجاب، ولا يرد لي قضاء، فيقولون: أنسنا شهرا يريدون آخر عنا حرمة المحرم، واجعلها في صفر، فيفعل ذلك، وإنما دعاهم إلى ذلك توالي ثلاثة أشهر حرم لا يغيرون فيها، وإنما كان معاشهم من الإغارة، فتستدير الشهور كما بينا، وقيل: إنما كانوا يستحلون المحرم عاما فإذا كان من قابل ردوه إلى تحريمه قال أبو عبيد: والتفسير الأول أحب إلي لأن هذا القول ليس فيه استدارة.

وقال ابن الجوزي أيضًا:

قوله تعالى: ﴿يُضِلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر، وأبو بكر، عن عاصم: (يُضِلُّ) بفتح الياء وكسر الضاد، والمعنى: أنهم يكتسبون الضلال به. وقرأ حمزة، والكسائي، وحفص عن عاصم: ﴿يُضِلُّ﴾ بضم الياء وفتح الضاد، على ما لم يسم فاعله. وقرأ الحسن البصري، ويعقوب إلا الوليد: ﴿يُضِلُّ﴾ بضم الياء وكسر الضاد، وفيه ثلاثة أوجه:

أحدها: يُضِلُّ الله به، والثاني: يُضِلُّ الشيطان به، ذكرهما ابن القاسم والثالث: يُضِلُّ به الذين كفروا الناس؛ لأنهم الذين سنَّوْهُ لهم. قال أبو علي: التقدير: يُضِلُّ به الذين كفروا تابعيهم. وقال ابن القاسم: الهاء في «به» راجعة إلى النسيء، وأصل النسيء: المنسوء، أي: المؤخَّر، فينصرف عن «مفعول» إلى «فعل» كما قيل: مطبوخ وطبيخ، ومقدور وقدير، قال: وقيل: الهاء راجعة إلى الظلم، لأن النسيء كشف تأويل الظلم، فجرى مجرى المظهر والأول اختيارنا.

قال السعدي رَحِمَهُ اللهُ:

النسيء: هو ما كان أهل الجاهلية يستعملونه في الأشهر الحرم، وكان من جملة بدعهم الباطلة، أنهم لما رأوا احتياجهم للقتال في بعض أوقات الأشهر الحرم، رأوا - بآرائهم الفاسدة - أن يحافظوا على عدة الأشهر الحرم، التي حرم الله القتال فيها، وأن يؤخروا بعض الأشهر الحرم، أو يقدموه، ويجعلوا مكانه من أشهر الحل ما أرادوا، فإذا جعلوه مكانه أحلوا القتال فيه، وجعلوا الشهر الحلال حراماً، فهذا - كما أخبر الله عنهم - أنه زيادة في كفرهم وضلالهم، لما فيه من المحاذير.

منها: أنهم ابتدعوه من تلقاء أنفسهم، وجعلوه بمنزلة شرع الله ودينه، والله ورسوله بريئان منه.

ومنها: أنهم قلبوا الدين، فجعلوا الحلال حراماً، والحرام حلالاً.

ومنها: أنهم مَوَّهوا على الله بزعمهم وعلى عباده، ولبسوا عليهم دينهم، واستعملوا الخداع والحيلة في دين الله.

ومنها: أن العوائد المخالفة للشرع مع الاستمرار عليها، يزول قبحها عن

النفوس، وربما ظن أنها عوائد حسنة، فحصل من الغلط والضلال ما حصل، ولهذا قال: ﴿يُضِلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُوَاطِّئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ﴾ أي: ليوافقوها في العدد، فيحلوا ما حرم الله. ﴿زُيِّنَ لَهُمْ سُوُّ أَعْمَالِهِمْ﴾ أي: زين لهم الشياطين الأعمال السيئة، فأوها حسنة، بسبب العقيدة المزينة في قلوبهم. ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ أي: الذين انصبغ الكفر والتكذيب في قلوبهم، فلو جاءتهم كل آية، لم يؤمنوا.



قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:

(يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَتَأْخُذْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَّعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا نَنْفِرُوا يُعَذِّبُكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلَ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّا نَرَى اللَّهَ مَعَنَا فَنَزَلَ اللَّهُ سَكِينَتُهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾ أَنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَاتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٤٢﴾ عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذْنَتْ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ ﴿٤٣﴾ لَا

يَسْتَعِذُّكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ
وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا يَسْتَعِذُّكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ
وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَزَلَّتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾
[التوبة: ٣٨-٤٥].

|

س: وضع معنى ما يلي:

﴿انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ - أَثَاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ - ثَانِيكَ اثْنَيْنِ - سَكِينَتُهُ - كَلِمَةً الَّذِينَ كَفَرُوا - وَكَلِمَةُ اللَّهِ - خِفَافًا - وَثِقَالًا - عَرَضًا قَرِيبًا - وَسَفَرًا قَاصِدًا - الشُّقَّةُ - وَأَزْنَابَتْ قُلُوبُهُمْ - فِي رَبِّهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾
ج:

معناها	الكلمة
اخرجوا من بيوتكم وبلادكم للغزو لإعلاء كلمة الله	(انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴿
تكاسلتم ولزمتكم بيوتكم وبلادكم وملتم إلى البقاء والدعة	(أَثَاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ ﴿
أحد اثنين، يعني معه رجل غيره	(ثَانِيكَ اثْنَيْنِ ﴿
طمأنينته ورحمته	(سَكِينَتُهُ ﴿
المراد: كلمة الشرك وراية المشركين	(كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴿
هي كلمة لا إله إلا الله	(وَكَلِمَةُ اللَّهِ ﴿
كهولاً - شيوخاً، وقيل: شباباً	(خِفَافًا ﴿
شباباً، وقيل: شيوخاً	(وَثِقَالًا ﴿
غنيمة سهلة ليس معها تعب ولا مشقة ولا سفر	(عَرَضًا قَرِيبًا ﴿
سفراً قريباً سهلاً يُقصد من ورائه الربح والتجارة بلا مخاطر	(وَسَفَرًا قَاصِدًا ﴿
المسافة - السفر	(الشُّقَّةُ ﴿
تشككت قلوبهم (في وحدانية الله وفي وعده ووعيده)	(وَأَزْنَابَتْ قُلُوبُهُمْ ﴿

d ١٨٧ b	سُوْرَةُ النَّازِعَاتِ	d السَّهِيلُ لِأَوَّلِ النَّزِيلِ b
في شكِّهم يتحيرون		(فِي رِيَّهِمْ يَرْدَدُونَ ❁

الحث على النفر في سبيل الله

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَالَكُمُ إِذَا قِيلَ لَكُمُ أَنْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَنَا قُلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ (٢٨).

ج: هذا - والله أعلم -: توبيخ لمن تقاعس عن الجهاد في سبيل الله، وعن الخروج للغزو مع رسول الله ﷺ، وكان هذا كما قال كثير من المفسرين في غزوة تبوك لما حرض رسول الله ﷺ على الخروج إليها لغزو الروم، وكان الحرُّ شديدًا جدًّا، والمسافة بعيدةً والزاد قليل والرواحل قليلة كذلك، وفي ذات الوقت فإن الثمار في المدينة قد أينعت واقترب وقت قطافها فكان الشخص ينظر في أمره أيحجب أمر الله ﷻ ورسوله ﷺ ويخرج للغزو مع ما فيه من تعرضه للقتل في سبيل الله، ومع ما فيه من مشقة الخروج، أم أنه يبقى في المدينة حيث الظلال والنساء والثمار وطيب المقام الدنيوي، فتخلف عن الغزو عددٌ من أهل النفاق، وتكاسل بعض أهل الصلاح، على ما سيأتي بيانه، في قصة كعب بن مالك، ومرارة بن الربيع، وهلال بن أمية (رضي الله عنهم)، وجاء هاهنا العتاب ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَالَكُمُ إِذَا قِيلَ لَكُمُ أَنْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أخرجوا غزاة في سبيل الله مع رسول الله ﷺ، وذلك كما أسلفت لغزو الروم وغزوة تبوك ﴿أَنَا قُلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ﴾ أخلدتم إلى الأرض وتباطأتم عن الخروج ولزمتهم مساكنكم وثماركم وأراضيكم ﴿أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ بما فيها من متاع ﴿مِنَ الْآخِرَةِ﴾ بدلاً عن الآخرة، فإذا كان ذلك فاعلموا أن متاع الحياة الدنيا زائلٌ ومتاع الآخرة هو الدائم الباقي، ولهذا قال تعالى: ﴿فَمَا مَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾.

وينحو هذا قال أهل العلم.

قال الطبري رحمه الله:

وهذه الآية حثٌّ من الله جل ثناؤه المؤمنين به من أصحاب رسوله على غزو الروم، وذلك غزوة رسول الله ﷺ تبوك.

يقول جل ثناؤه: يا أيها الذين صدقوا الله ورسوله، ﴿مَالَكُمُ﴾، أي شيء أمركم، ﴿إِذَا قِيلَ لَكُمُ أَنْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾، يقول: إذا قال لكم رسول الله محمدٌ، ﴿أَنْفِرُوا﴾

أي: اخرجوا من منازلكم إلى مغزاكم.

وأصل «النفر»، مفارقة مكان إلى مكان لأمرٍ هاجه على ذلك. ومنه: «نفورًا الدابة». غير أنه يقال: من نفر إلى الغزو: «نفر فلان إلى ثغر كذا ينفر نفرًا ونفيرًا»، وأحسب أن هذا من الفروق التي يفرقون بها بين اختلاف المخبر عنه، وإن اتفقت معاني الخبر.

فمعنى الكلام: ما لكم أيها المؤمنون، إذا قيل لكم: اخرجوا غزاة، ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾، أي: في جهاد أعداء الله، ﴿أَتَأْقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ﴾، يقول: تشاقلتم إلى لزوم أرضكم ومساكنكم والجلوس فيها.

وقيل: «أتاقلتم» لإدغام «التاء» في «الثاء» فأحدثت لها ألف. لِيُتَوَصَّلَ إلى الكلام بها، لأن «التاء» مدغمة في «الثاء». ولو أسقطت الألف، وابتدئ بها، لم تكن إلا متحركة، فأحدثت الألف لتقع الحركة بها، كما قال جل ثناؤه: ﴿حَتَّىٰ إِذَا دَارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا﴾، [الأعراف: ٣٨]، وكما قال الشاعر:

تُولِي الضَّجِيعَ إِذَا مَا اسْتَأْفَهَا خَصِيرًا عَذَبَ الْمَذَاقِ، إِذَا مَا اتَّبَعَ الْقُبْلُ

فهو من «الثقل»، ومجازه مجاز «افتعلتم»، من «التشاقل».

وقوله: ﴿أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ﴾، يقول جل ثناؤه، أرضيتم بحظ الدنيا والدعة فيها، عوضًا من نعيم الآخرة، وما عند الله للمتقين في جنانه، ﴿فَمَا مَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ﴾، يقول: فما الذي يستمتع به المتمتعون في الدنيا من عيشها ولذاتها في نعيم الآخرة والكرامة التي أعدها الله لأوليائه وأهل طاعته، ﴿إِلَّا قَلِيلٌ﴾، يسير. يقول لهم: فاطلبوا، أيها المؤمنون، نعيم الآخرة، وشرف الكرامة التي عند الله لأوليائه، بطاعته والمصارعة إلى الإجابة إلى أمره في النفير لجهاد عدوه.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

هذا شروع في عتاب من تخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، حين طابت الثمار والظلال في شدة الحر وحمارة القيظ، فقال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: إذا دعيتم إلى الجهاد في سبيل الله ﴿أَتَأْقَلْتُمْ

إِلَى الْأَرْضِ ﴿١﴾ أَي: تكاسلتم وملتم إلى المقام في الدعة والخفض وطيب الثمار، ﴿أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ﴾ أَي: ما لكم فعلتم هكذا أرضاً منكم بالدنيا بدلاً من الآخرة.

ثم زهد **ع** في الدنيا، ورغب في الآخرة، فقال: ﴿فَمَا مَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾.

وأورد ما أخرجه أحمد^(١) بسند صحيح إلى رسول الله ﷺ: «ما الدنيا في الآخرة إلا كما يجعل إصبعه هذه في اليم، فلينظر بما ترجع؟» وأشار بالسبابة.

قال القرطبي رحمه الله:

قوله تعالى: ﴿مَا لَكُمْ﴾ ﴿مَا﴾ حرف استفهام معناه التقرير والتوبيخ التقدير: أي شيء يمنعكم عن كذا كما تقول: ما لك عن فلان معرضاً. ولا خلاف أن هذه الآية نزلت عتاباً على تخلف من تخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، وكانت سنة تسع من الهجرة بعد الفتح بعام، وسيأتي ذكرها في آخر السورة إن شاء الله. والنفر: هو التنقل بسرعة من مكان إلى مكان لأمر يحدث، يقال في ابن آدم: نفر إلى الأمر ينفر نفوراً. وقوم نفور، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَعْلَىٰ أَدْبَرِهِمْ نَفُورًا﴾ ﴿٤٦﴾ [الإسراء: ٤٦]. ويقال في الدابة: نفرت تنفر - بضم الفاء وكسرهما - نفاًراً ونفوراً. يقال: في الدابة نفار، وهو اسم مثل الحران. ونفر الحاج من منى نفراً.

قوله تعالى: ﴿أَتَأْتَلُّهُمْ إِلَى الْأَرْضِ﴾ قال المفسرون: معناه اثاقلتم إلى نعيم الأرض، أو إلى الإقامة بالأرض. وهو توبيخ على ترك الجهاد وعتاب على التقاعد عن المبادرة إلى الخروج، وهو نحو من أخلد إلى الأرض. وأصله ثاقلتكم، أدغمت التاء في الثاء لقربها منها، واحتاجت إلى ألف الوصل لتصل إلى النطق بالساكن، ومثله ﴿أَدَارَكُوا﴾ [الأعراف: ٣٨] و﴿فَادَارَ تُمْ﴾ [البقرة: ٧٢] و﴿أَطْرَفْنَا﴾ [النمل: ٤٧] و﴿وَأَزَيَّنْتَ﴾ [يونس: ٢٤].

وقال رحمه الله:

(١) مسند أحمد (٤/ ٢٢٨)، ومسلم (٢٨٥٨).

وكانت تبوك - ودعا الناس إليها - في حرارة القيظ وطيب الثمار وبرد الظلال -
كما جاء في الحديث الصحيح على ما يأتي - فاستولى على الناس الكسل فتقاعدوا
وتشاقلوا فوبخهم الله بقوله هذا وعاب عليهم الإيثار للدنيا على الآخرة. ومعنى:
﴿أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ﴾ أي بدلاً، التقدير: أرضيتم بنعيم الدنيا بدلاً
من نعيم الآخرة ف﴿مِنْ﴾ تتضمن معنى البدل، كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ
مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ﴾ ﴿٦٠﴾ [الزخرف: ٦٠] أي بدلاً منكم.

قال السعدي رحمه الله:

اعلم أن كثيرا من هذه السورة الكريمة نزلت في غزوة تبوك، إذ ندب النبي ﷺ
المسلمين إلى غزو الروم، وكان الوقت حارا، والزاد قليلا والمعيشة عسرة، فحصل
من بعض المسلمين من التشاقل ما أوجب أن يعاتبهم الله تعالى عليه ويستنهضهم،
فقال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ ألا تعملون بمقتضى الإيمان، وداعي اليقين من
المبادرة لأمر الله، والمسارة إلى رضاه، وجهاد أعدائه والنصرة لدينكم، ف﴿مَا لَكُمْ
إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَتَأْتَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ﴾ أي: تكاسلتم، وملتم إلى الأرض
والدعة والسكون فيها.

﴿أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ﴾ أي: ما حالكم إلا حال من رضي
بالدنيا وسعى لها ولم يبال بالآخرة، فكأنه ما آمن بها.

﴿فَمَا مَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ التي مالت بكم، وقدمتموها على الآخرة ﴿إِلَّا
قَلِيلٌ﴾ أفليس قد جعل الله لكم عقولا تزنون بها الأمور، وأبها أحق بالإيثار؟.

أفليست الدنيا - من أولها إلى آخرها - لا نسبة لها في الآخرة. فما مقدار عمر
الإنسان القصير جدًا من الدنيا حتى يجعله الغاية التي لا غاية وراءها، فيجعل سعيه
وكده وهمه وإرادته لا يتعدى الحياة الدنيا القصيرة المملوءة بالأكدار، المشحونة
بالأخطار.

فبأي رأي رأيتم إيثارها على الدار الآخرة الجامعة لكل نعيم، التي فيها ما تشتهي
الأنفس وتلذ الأعين، وأنتم فيها خالدون، فوالله ما أثر الدنيا على الآخرة من وقر

الإيمان في قلبه، ولا من جزل رأيه، ولا من عُدَّ من أولي الألباب.

قال ابن الجوزي (زاد المسير):

قوله تعالى: ﴿مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنْفِرُوا﴾ قال المفسرون: لما أمر رسول الله ﷺ بغزوة تبوك، وكان في زمن عسرة وجذب وحر شديد، وقد طابت الثمار، عظم ذلك على الناس وأحبوا المقام، فنزلت هذه الآية. وقوله: ﴿مَا لَكُمْ﴾ استفهام معناه: التوبيخ وقوله: ﴿أَنْفِرُوا﴾ معناه: اخرجوا، وأصل النفر: مفارقة مكان إلى مكان آخر لأمر هاج إلى ذلك. وقوله: ﴿أُتَاقَلْتُمْ﴾ قال ابن قتيبة: أراد ثناقلتم فأدغم التاء في الشاء وأحدثت الألف ليسكن ما بعدها وأراد قعدتم وفي قراءة ابن مسعود والأعمش (ثناقلتم).

وفي معنى ﴿إِلَى الْأَرْضِ﴾ ثلاثة أقوال:

أحدها: ثناقلتم إلى شهوات الدنيا حين أخرجت الأرض ثمرها قاله مجاهد.

والثاني: اطمأنتم إلى الدنيا قاله الضحاك.

والثالث: ثناقلتم إلى الإقامة بأرضكم قاله الزجاج.

قوله تعالى: ﴿أَرْضِيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي: بنعيمها من نعيم الآخرة فما يتمتع

به في الدنيا قليل بالإضافة إلى ما يتمتع به الأولياء في الجنة.

س: قوله تعالى: ﴿إِلَّا تَنْفَرُوا يُعَذِّبَكُمُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ هل هو منسوخ؟

ج: ذهب إلى ذلك بعض أهل العلم، وقالوا: إنها منسوخة بقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَتِ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفَرُوا كَافَّةً﴾.

وذهب آخرون على عدم النسخ، وقالوا: إنها خاصة بمن استنفرهم رسول الله ﷺ، وقد نقل القول بالنسخ عن الحسن وعكرمة

قال الطبري متعقبًا:

ولا خبر بالذي قال عكرمة والحسن، من نسخ حكم هذه الآية التي ذكرها، يجب التسليم له، ولا حجة نافٍ لصحة ذلك. وقد رأى ثبوت الحكم بذلك عددٌ من الصحابة والتابعين سنذكرهم بعد، وجائز أن يكون قوله: ﴿إِلَّا تَنْفَرُوا يُعَذِّبَكُمُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾، الخاص من الناس، ويكون المراد به من استنفره رسول الله ﷺ فلم ينفر، على ما ذكرنا من الرواية عن ابن عباس.

وإذا كان ذلك كذلك، كان قوله: ﴿وَمَا كَانَتِ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفَرُوا كَافَّةً﴾، نهيًا من الله المؤمنين عن إخلاء بلاد الإسلام بغير مؤمنٍ مقيم فيها، وإعلامًا من الله لهم أن الواجب التفرُّ على بعضهم دون بعض، وذلك على من استنفر منهم دون من لم يُستنفر. وإذا كان ذلك كذلك، لم يكن في إحدى الآيتين نسخ للأخرى، وكان حكم كل واحدة منهما ماضيًا فيما عُنِيَتْ به.

قال ابن الجوزي (زاد المسير):

وقد روي عن ابن عباس والحسن وعكرمة قالوا نسخ قوله: ﴿إِلَّا تَنْفَرُوا يُعَذِّبَكُمُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ بقوله: ﴿وَمَا كَانَتِ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفَرُوا كَافَّةً﴾ وقال أبو سليمان الدمشقي ليس هذا من المنسوخ إذ لا تنافي بين الآيتين وإنما حكم كل آية قائم في موضعها وذكر القاضي أبو يعلى عن بعض العلماء أنهم قالوا ليس هاهنا نسخ ومتى لم يقاوم أهل الثغور العدو ففرض على الناس النفير إليهم ومتى استغنوا عن إعانة من وراءهم عذر القاعدون عنهم وقال قوم هذا في غزوة تبوك ففرض على الناس النفير مع رسول الله ﷺ.

التحذير من التخلف عن النفير مع رسول الله ﷺ

س: وضع المعنى الإجمالي لقوله تعالى: ﴿إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٣١).

ج: هذا تهديد شديد وتحذير أكيد للمتخلفين عن رسول الله ﷺ، وعن الخروج معه، وكذا تهديد لكل متخلفٍ عن الجهاد إذا استنفره الإمام، فقال تعالى: ﴿إِلَّا تَنْفِرُوا﴾ إلا تخرجوا غزاة مع رسولكم محمد ﷺ يعذبكم الله عذاباً أليماً، مؤلماً موجعاً، ومن صور هذا العذاب، عذاب في الدنيا بتسلط أعدائكم عليكم وبمنع القطر من السماء، إلى غير ذلك، من صور العذاب الدنيوي، وكذا يعذبكم في الآخرة بالنار، وكذا ففي الدنيا فإنه يذهب بكم ويأتي بقوم آخرين أطوع لله منكم وأحسن طاعةً واتباعاً، ولا تضروا الله ﷻ بتخلفكم عن الجهاد مع رسوله ﷺ، بل الضرر واقعٌ عليكم أنتم، فإن الله قادر على نصر رسوله ﷺ ولكنه ﷻ يكرمكم ويشرفكم بالجهاد مع رسوله ﷺ ففي الجهاد معه شرف في الدنيا والآخرة ومن حرم شرف الجهاد معه فقد حُرِّم، ألا واعلموا أن الله على كل شيء قدير، قادر على نصر نبيه ﷺ وإن تخليتم عن نصره، وقادر على الذهاب بكم والإتيان بقوم آخرين، وقادر على أن ينزل عليكم عذاباً، فنعوذ بالله من غضبه وعقابه، ونعوذ بالله أن نرد على أعقابنا أو أن نفتن في ديننا.

وبنحو ما ذكر قال أهل العلم.

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره للمؤمنين به من أصحاب رسوله، متوعدّهم على ترك النّفر إلى عدوّهم من الروم: إن لم تنفروا، أيها المؤمنون، إلى من استنفركم رسول الله، يعذبكم الله عاجلاً في الدنيا، بترككم النّفر إليهم، عذاباً موجعاً، ﴿وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾، يقول: يستبدل الله بكم نبيّه قوماً غيركم، ينفرون إذا استنفروا، ويحيبونه إذا دعوا، ويطيعون الله ورسوله، ﴿وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا﴾، يقول: ولا تضروا الله، بترككم النّفير ومعصيتكم إياه شيئاً، لأنه لا حاجة به إليكم، بل أنتم أهل الحاجة إليه، وهو الغني

عنكم وأنتم الفقراء ، ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ، يقول جل ثناؤه: والله على إهلاككم واستبدال قوم غيركم بكم، وعلى كل ما يشاء من الأشياء قدير.

وقد ذكر أن «العذاب الأليم» في هذا الموضع، كان احتباس القطر عنهم. ثم تواعد تعالى على ترك الجهاد فقال: ﴿إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ قال ابن عباس: استنفر رسول الله ﷺ حيًّا من العرب، فتثاقلوا عنه، فأمسك الله عنهم القطر فكان عذابهم.

﴿وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ أي: لنصرة نبيه وإقامة دينه، كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ﴾ [محمد: ٣٨].

﴿وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا﴾ أي: ولا تضروا الله شيئًا بتوليكم عن الجهاد، ونكولكم وثاقلكم عنه، ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي: قادر على الانتصار من الأعداء بدونكم.

وقد قيل: إن هذه الآية، وقوله: ﴿انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ وقوله: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ١٢٠] إنهن منسوخات بقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَتِ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ﴾ [التوبة: ١٢٢] روي هذا عن ابن عباس، وعكرمة، والحسن، وزيد بن أسلم. ورده ابن جرير وقال: إنما هذا فيمن دعاهم رسول الله ﷺ إلى الجهاد، فتعين عليهم ذلك، فلو تركوه لعوقبوا عليه.

وهذا له اتجاه، والله أعلم بالصواب .

قال القرطبي رحمه الله:

وهو أن قوله تعالى: ﴿إِلَّا تَنْفِرُوا﴾ شرط، فلذلك حذفت منه النون. والجواب ﴿يُعَذِّبْكُمْ﴾، ﴿وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ وهذا تهديد شديد ووعيد مؤكد في ترك النفير. قال ابن العربي: ومن محققات الأصول أن الأمر إذا ورد فليس في وروده أكثر من اقتضاء الفعل. فأما العقاب عند الترك فلا يؤخذ من نفس الأمر ولا يقتضيه الاقتضاء، وإنما يكون العقاب بالخبر عنه، كقوله: إن لم تفعل كذا عذبتك بكذا، كما ورد في هذه الآية. فوجب بمقتضاها النفير للجهاد والخروج إلى الكفار لمقاتلتهم

على أن تكون كلمة الله هي العليا. وروى أبو داود عن ابن عباس قال: ﴿لَا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ و﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ﴾ إلى قوله: ﴿يَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: ١٢٠] نسختها الآية التي تليها: ﴿وَمَا كَانَتِ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً﴾ [التوبة: ١٢٢]. وهو قول الضحاك والحسن وعكرمة. ﴿يُعَذِّبْكُمْ﴾ قال ابن عباس: هو حبس المطر عنهم. قال ابن العربي: فإن صح ذلك عنه فهو أعلم من أين قال، وإلا فالعذاب الأليم هو في الدنيا باستيلاء العدو وبالنار في الآخرة.

و﴿أَلِيمًا﴾ بمعنى مؤلم، أي موجه. وقد تقدم. ﴿وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ توعده بأن يبدل لرسوله قوما لا يقعدون عند استنفاره إياهم. قيل: أبناء فارس. وقيل: أهل اليمن. ﴿وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا﴾ عطف. والهاء قيل لله تعالى، وقيل للنبي ﷺ. والتثاقل عن الجهاد مع إظهار الكراهة حرام على كل أحد. فأما من غير كراهة فمن عينه النبي ﷺ حرم عليه التثاقل وإن أمن منهما فالفرض فرض كفاية، ذكره القشيري. وقد قيل: إن المراد بهذه الآية وجوب النفير عند الحاجة وظهور الكفرة واشتداد شوكتهم. وظاهر الآية يدل على أن ذلك على وجه الاستدعاء فعلى هذا لا يتجه الحمل على وقت ظهور المشركين فإن وجوب ذلك لا يختص بالاستدعاء، لأنه متعين. وإذا ثبت ذلك فالاستدعاء والاستنفار يبعد أن يكون موجبا شيئا لم يجب من قبل إلا أن الإمام إذا عين قوما وندبهم إلى الجهاد لم يكن لهم أن يتشاوروا عند التعيين ويصير بتعيينه فرضا على من عينه لا لمكان الجهاد ولكن لطاعة الإمام. والله أعلم.

قال السعدي رحمه الله:

ثم توعدهم على عدم النفير فقال:

﴿لَا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ في الدنيا والآخرة، فإن عدم النفير في حال الاستنفار من كبائر الذنوب الموجبة لأشد العقاب، لما فيها من المضار الشديدة، فإن المتخلف، قد عصى الله تعالى وارتكب لنهيه، ولم يساعد على نصر دين الله، ولا ذب عن كتاب الله وشرعه، ولا أعان إخوانه المسلمين على عدوهم الذي يريد أن يستأصلهم ويمحق دينهم، وربما اقتدى به غيره من ضعفاء الإيمان، بل ربما فت في أعضاد من قاموا بجهاد أعداء الله، فحقيق بمن هذا حاله أن يتوعدة الله بالوعيد

الشديد، فقال: ﴿إِلَّا نَفِرُوا يُعَذِّبَكُمُ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلَ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ ثم لا يكونوا أمثالكم ﴿وَلَا تَضُرُّهُ شَيْئًا﴾ فإنه تعالى متكفل بنصر دينه وإعلاء كلمته، فسواء امتثلتم لأمر الله، أو ألقيتموه، وراءكم ظهرًا. ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ لا يعجزه شيء أراده، ولا يغالبه أحد.

قال ابن الجوزي في زاد المسير:

﴿وَيَسْتَبْدِلُ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ وعيد شديد في التخلف عن الجهاد، وإعلام بأنه يستبدل لنصر نبيه قومًا غير متثاقلين، ثم أعلمهم أنهم إن تركوا نصره لم يضروه كما لم يضره ذلك إذ كان بمكة. وفي هاء «تضروه» قولان:

أحدهما: أنها ترجع إلى الله، والمعنى: لا تضروا الله بترك النفي، قاله الحسن.

والثاني: أنها ترجع إلى رسول الله ﷺ، فالمعنى: لا تضروه بترك نصره، قاله الزجاج.

شيء من قصة الغار
ورسول الله ﷺ فيه مع أبي بكر رضي الله عنه

س: من صاحب رسول الله ﷺ بالغار؟

ج: صاحبه هو أبو بكر الصديق رضي الله عنه وسيأتي ما يؤكد ذلك بما لا يدع مجالاً للشك إن شاء الله.

س: أي غار هذا الذي قال الله عنه: ﴿إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ﴾؟

ج: هو غار ثور.

س: قوله تعالى: ﴿فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ﴾ على من؟

ج: لأهل العلم قولان:

أحدهما: على رسول الله ﷺ.

الثاني: على أبي بكر.

قال القرطبي رحمه الله:

قوله تعالى: ﴿فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ﴾ فيه قولان:

أحدهما: على النبي ﷺ.

والثاني: على أبي بكر. ابن العربي: قال علماؤنا وهو الأقوى، لأنه خاف على النبي ﷺ من القوم فأنزل الله سكينته عليه بتأمين النبي ﷺ، فسكن جأشه وذهب روعه وحصل الأمن.

س: وضع معنى قوله تعالى: ﴿إِلَّا نَنْصُرُهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا

ثَانِيَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَخْزَنَ إِنَّ اللَّهَ مَعَنا فَأَنْزَلَ اللَّهُ

سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا

السُّفْلَى وَكَلِمَةَ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾.

ج: المعنى - والله تعالى أعلم -: إن تتخلوا عن نصرة رسول الله ﷺ، وعن النفير معه للغزو يا أهل الإيمان فقد نصره الله ﷻ لما اضطره أهل الكفر إلى الخروج من

مكة، فخرج منها ثاني اثنين، أي أحد اثنين، يعني: ومعه رجل آخر غيره نصره الله حين أخرجه من بيته وسلمه وقد أزمعوا قتله ووقفوا على باب بيته متربصين به فسلمه الله آنذاك ثم سلمه الله وهو في الغار وأهل الكفر على باب الغار، وكما قال أبو بكر لرسول الله ﷺ، يا رسول الله لو نظر أحدهم تحت قدميه لأبصرنا، فيجيبه النبي ﷺ قائلاً: «يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما».

وهنا يقول تعالى: إذ يقول لصاحبه (وهو أبو بكر الصديق ﷺ) صاحبه في الغار ﴿لَا تَحْزَنْ﴾ لا تخاف ولا تقلق ولا تضطرب ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ بحفظه وتأييده ونصره ومعونته، يرانا ويحفظنا ويسلمنا ﴿فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ﴾ طمأنينة ﴿عَلَيْهِ﴾ قيل على أبي بكر فقد كان حزيناً، أما الرسول ﷺ فكان مطمئناً، وقيل: على رسول الله ﷺ فازداد طمأنينة وسكينة.

﴿وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا﴾ قَوَاهُ الله ﷻ، قَوَّى رسوله ﷺ بجنود لم تروها قيل: بالملائكة، وذلك في رحلة الهجرة وعند الغار جعلها الله سبباً في صرف وجوه الكفار، وقيل: يوم بدر، أي: ونصره الله يوم بدر بجنود لم تروها، ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى﴾ أي: وجعل كلمة الشرك، وراية الشرك راية مخذولة وكلمة منكوسة، فخذل أهلها وأذلهم ﴿وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا﴾ جعل الله كلمته، وهي لا إله إلا الله هي العليا وجعل لأتباعه النصر والغلبة والقهر والظفر ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ﴾ لا يُغلب، ولا يُمنع من شيء أرادته ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما يشرع وفيما يفعل.

وينحو هذا قال أهل العلم.

قال الطبري رحمه الله:

وهذا إعلامٌ من الله أصحاب رسوله ﷺ أنه المتوكل بنصر رسوله على أعداء دينه وإظهاره عليهم دونهم، أعانوه أو لم يعينوه، وتذكيرٌ منه لهم فعل ذلك به، وهو من العدد في قلة، والعدو في كثرة، فكيف به وهو من العدد في كثرة، والعدو في قلة؟ يقول لهم جل ثناؤه: إلا تنفروا، أيها المؤمنون، مع رسولي إذا استنفركم فتنصروه، فالله ناصرهم ومعينهم على عدوهم ومغنيهم عنكم وعن معونتكم ونصرتكم؛ كما نصره، ﴿إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، بالله من قريش من وطنه وداره، ﴿ثَانِيًا﴾

أَثْنَيْنِ ﴿١﴾، يقول: أخرجوه وهو أحد الاثنين، أي: واحد من الاثنين.

وكذلك تقول العرب: «هو ثاني اثنين» يعني: أحد الاثنين، و«ثالث ثلاثة» ورابع أربعة»، يعني: أحد الثلاثة، وأحد الأربعة. وذلك خلاف قولهم: «هو أخو ستة»، و«غلام سبعة»، لأن «الأخ»، و«الغلام» غير الستة والسبعة، «وثالث الثلاثة»، أحد الثلاثة.

وإنما عني جل ثناؤه بقوله: ﴿ثَانِيكُنِ اثْنَيْنِ﴾ رسول الله ﷺ وأبا بكر رضي الله عنه، لأنهما كانا اللذين خرجا هاربين من قريش إذ همّوا بقتل رسول الله ﷺ واختفيا في الغار. وقوله: ﴿إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ﴾، يقول: إذ رسول الله ﷺ وأبو بكر رحمة الله عليه، في الغار.

و«الغار»، النقب العظيم يكون في الجبل.

﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ﴾، يقول: إذ يقول رسول الله ﷺ لصاحبه أبي بكر، ﴿لَا تَحْزَنْ﴾، وذلك أنه خاف من الطلب أن يعلموا بمكانهما، فجنّ من ذلك، فقال له رسول الله ﷺ: ﴿لَا تَحْزَنْ﴾، لأن الله معنا والله ناصرنا،

فلن يعلم المشركون بنا ولن يصلوا إلينا.

يقول جل ثناؤه: فقد نصره الله على عدوه وهو بهذه الحال من الخوف وقلة العدد، فكيف يخذله ويُخَوِّجه إليكم، وقد كثر الله أنصاره، وعدد جنوده؟

وأورد بإسناد حسن عن قتادة قوله: ﴿إِلَّا نَضْرِبُ فَعْدَ نَصْرِهِ اللَّهُ﴾، الآية، قال: فكان صاحبه أبو بكر، وأما «الغار»، فجبل بمكة يقال له: «ثور».

وقال رحمه الله:

يقول تعالى ذكره: فَأَنْزَلَ اللَّهُ طَمَأنِينَتَهُ وسكونه على رسوله، وقد قيل: على أبي بكر، ﴿وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا﴾، يقول: وقوّاه بجنودٍ من عنده من الملائكة، لم تروها أنتم، ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، وهي كلمة الشرك، ﴿السُّفْلَى﴾، لأنها قُهرت وأذلّت، وأبطلها الله تعالى، ومحق أهلها، وكل مقهور

ومغلوب فهو أسفل من الغالب، والغالب هو الأعلى، ﴿وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ﴾، ﴿أَلْعَلَّيْكَ﴾، يقول: ودين الله وتوحيده وقول لا إله إلا الله، وهي كلمته، ﴿أَلْعَلَّيْكَ﴾، على الشرك وأهله، الغالبة.

وقال الطبري أيضًا:

وقوله: ﴿وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ أَلْعَلَّيْكَ﴾، خبر مبتدأ، غيرُ مردودٍ على قوله: ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى﴾؛ لأن ذلك لو كان معطوفاً على «الكلمة» الأولى، لكان نصباً.

وأما قوله: ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾، فإنه يعني: ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ﴾، في انتقامه من أهل الكفر به، لا يقهره قاهر، ولا يغلبه غالب، ولا ينصر من عاقبه ناصر، ﴿حَكِيمٌ﴾، في تدبيره خلقه، وتصريفه إياهم في مشيئته.

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى: ﴿إِلَّا نُنْصُرْهُ﴾ أي: تنصروا رسوله، فإن الله ناصره ومؤيده وكافيه وحافظه، كما تولى نصره ﴿إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِينَ﴾ أي: عام الهجرة، لما هم المشركون بقتله أو حبسه أو نفيه، فخرج منهم هارباً صحبة صديقه وصديقه وصاحبه أبي بكر بن أبي قحافة، فلجأ إلى غار ثور ثلاثة أيام ليرجع الطلب الذين خرجوا في آثارهم، ثم يسيرا نحو المدينة، فجعل أبو بكر، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، يجزع أن يطَّلَعَ عليهم أحد، فيخلص إلى الرسول ﷺ منهم أذى، فجعل النبي ﷺ يُسَكِّنُهُ وَيُثَبِّتُهُ ويقول: «يا أبا بكر، ما ظنك باثنين الله ثالثهما»، كما قال الإمام أحمد:

حدثنا عفان، حدثنا همام، أنبأنا ثابت، عن أنس أن أبا بكر حدثه قال: قلت للنبي ﷺ، ونحن في الغار: لو أن أحدهم نظر إلى قدميه لأبصرنا تحت قدميه. قال: فقال: «يا أبا بكر، ما ظنك باثنين الله ثالثهما» ^(١).

ولهذا قال تعالى: ﴿فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ﴾ أي: تأييده ونصره عليه، أي: على الرسول في أشهر القولين: وقيل: على أبي بكر، وروي عن ابن عباس وغيره،

(١) البخاري (٣٦٥٣)، ومسلم (٢٣٨١).

قالوا: لأن الرسول لم تزل معه سكينه، وهذا لا ينافي تجدد سكينه خاصة بتلك الحال؛ ولهذا قال: ﴿وَأَيُّكُمْ يُجْنُودُ لَمْ تَرَوْهَا﴾ أي: الملائكة، ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا﴾. قال ابن عباس: يعني ﴿كَلِمَةُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ الشرك و﴿كَلِمَةُ اللَّهِ﴾ هي: لا إله إلا الله.

وفي الصحيحين^(١) عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، قال: سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الرجل يقاتل شجاعة، ويقاتل حمية، ويقاتل رياء، أي ذلك في سبيل الله؟ فقال: «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله».

وقوله: ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ﴾ أي: في انتقامه وانتصاره، منيع الجنب، لا يُضام من لاذ بابه، واحتمى بالتمسك بخطابه، ﴿حَكِيمٌ﴾ في أقواله وأفعاله.

قال القرطبي رحمته الله:

قوله تعالى: ﴿إِلَّا نَضْرُوهُ﴾ يقول: تعينوه بالنفر معه في غزوة تبوك. عاتبهم الله بعد انصراف نبيه صلى الله عليه وسلم من تبوك. قال النقاش: هذه أول آية نزلت من سورة براءة والمعنى: إن تركتم نصره فالله يتكفل به، إذ قد نصره الله في مواطن القلة وأظهره على عدوه بالغلبة والعزة. وقيل: فقد نصره الله بصاحبه في الغار بتأنيسه له وحمله على عتقه، وبوفائه ووقايته له بنفسه ومواساته له بماله. قال الليث بن سعد: ما صحب الأنبياء صلى الله عليه وسلم مثل أبي بكر الصديق. وقال سفيان بن عيينة. خرج أبو بكر بهذه الآية من المعاتبة التي في قوله: ﴿إِلَّا نَضْرُوهُ﴾.

قوله تعالى: ﴿إِذْ أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وهو خرج بنفسه فاراً، لكن بالجائهم إلى ذلك حتى فعله، فنسب الفعل إليهم ورتب الحكم فيه عليهم، فلهذا يقتل المكروه على القتل ويضمن المال المتلف بالإكراه، لإلجائه القاتل والمتلف إلى القتل والإتلاف.

قوله تعالى: ﴿ثَافِتٌ أَثْنَيْنِ﴾ أي أحد اثنين.

(١) البخاري (٢٨١٠)، ومسلم (١٩٠٤).

وقال القرطبي كذلك:

قوله تعالى: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّكَ اللَّهُ مَعَنَا﴾ هذه الآية تضمنت فضائل الصديق رضي الله عنه. روى أصبغ وأبو زيد عن ابن القاسم عن مالك رضي الله عنه ﴿ثَافِكُ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّكَ اللَّهُ مَعَنَا﴾ هو الصديق. فحقق الله تعالى قوله له بكلامه ووصف الصحبة في كتابه. قال بعض العلماء: من أنكر أن يكون عمر وعثمان أو أحد من الصحابة صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو كذاب مبتدع. ومن أنكر أن يكون أبو بكر رضي الله عنه صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو كافر، لأنه رد نص القرآن. ومعنى ﴿إِنَّكَ اللَّهُ مَعَنَا﴾ أي بالنصر والرعاية والحفظ والكلاءة. روى الترمذي والحاثر بن أبي أسامة قالا: حدثنا عفان قال: حدثنا همام قال: أخبرنا ثابت عن أنس أن أبا بكر حدثه قال: قلت للنبي صلى الله عليه وسلم ونحن في الغار: لو أن أحدهم نظر إلى قدميه لأبصرنا تحت قدميه، فقال: «يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما». قال المحاسبي: يعني معهما بالنصر والدفاع، لا على معنى ما عم به الخلائق، فقال: ﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَافِعُهُمْ﴾ [المجادلة: ١٧].

قال ابن الجوزي في زاد المسير:

قوله تعالى: ﴿إِلَّا نَنْصُرْهُمْ﴾ أي بالنفير معه ﴿فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ﴾ إعانة على أعدائه ﴿إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ حين قصدوا إهلاكه على ما شرحنا في قوله: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [الأنفال: ٣٠] فأعلمهم أن نصره ليس بهم.

ثم قال:

وفي السكينة ثلاثة أقوال:

أحدها: أنها الرحمة. قاله ابن عباس. **والثاني:** الوقار. قاله قتادة. **والثالث:** السكون والطمأنينة. قاله ابن قتيبة وهو أصح.

وفي هاء عليه ثلاثة أقوال:

أحدها: أنها ترجع إلى أبي بكر وهو قول علي بن أبي طالب، وابن عباس، وحبيب بن أبي ثابت، واحتج من نصر هذا القول بأن النبي صلى الله عليه وسلم كان مطمئناً. **والثاني:** أنها ترجع إلى النبي صلى الله عليه وسلم قاله مقاتل.

والثالث: أن الهاء هاهنا في معنى تشنية والتقدير فأنزل الله سكينته عليهما فاكتفى بإعادة الذكر على أحدهما من إعادته عليهما كقوله: ﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ﴾ ذكره ابن الأنباري.

وقال ابن الجوزي أيضًا:

قوله تعالى: ﴿وَأَيَّدَهُ﴾ أي قواه يعني النبي ﷺ بلا خلاف ﴿يَجُنُودٌ لَّمْ تَرَوْهَا﴾ وهم الملائكة **ومتى كان ذلك فيه قولان:**

أحدهما: يوم بدر ويوم الأحزاب ويوم حنين قاله ابن عباس.

والثاني: لما كان في الغار صرفت الملائكة وجوه الكفار وأبصارهم عن رؤيته قاله الزجاج.

فإن قيل: إذا وقع الاتفاق أن هاء الكناية في أيده ترجع إلى النبي ﷺ فكيف تفارقها هاء عليه وهما متفقتان في نظم الكلام.

فالجواب: أن كل حرف يرد إلى الأليق به والسكينة إنما يحتاج إليها المنزعج ولم يكن النبي ﷺ منزعجًا فأما التأييد بالملائكة فلم يكن إلا للنبي ﷺ ونظير هذا قوله: ﴿لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ﴾ يعني النبي ﷺ ﴿وَتُسَبِّحُوهُ﴾ يعني الله ﷻ.

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى﴾ فيها قولان:

أحدهما: أن كلمة الكافرين الشرك جعلها الله السفلى؛ لأنها مقهورة وكلمة الله وهي التوحيد هي العليا؛ لأنها ظهرت هذا قول الأكثرين.

والثاني: أن كلمة الكافرين ما قدرُوا بينهم في الكيد به ليقتلوه وكلمة الله أنه ناصره.

قال السعدي في تفسيره:

﴿إِذْ يَقُولُ﴾ النبي ﷺ ﴿لَصَنِجِهِ﴾ أبي بكر لما حزن واشتد قلقه، ﴿لَا تَحْزَنْ﴾ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ﴿بِعُونِهِ وَتَأْيِيدِهِ﴾ ﴿فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ﴾ أي: الشبات والطمأنينة، والسكون المثبته للفؤاد، ولهذا لما قلق صاحبه سكنه وقال: ﴿لَا تَحْزَنْ﴾ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ﴿.

﴿وَأَيَّدُهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا﴾ وهي الملائكة الكرام، الذين جعلهم الله حرساً له، ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى﴾ أي: الساقطة المخذولة، فإن الذين كفروا قد كانوا على حرد قادرين، في ظنهم أنهم يقدرّون على قتل الرسول ﷺ، وأخذه، حنقين عليه، فعملوا غاية مجهودهم في ذلك، فخذلهم الله ولم يتم لهم مقصودهم، بل ولا أدركوا شيئاً منه.

ونصر الله رسوله بدفعه عنه، وهذا هو النصر المذكور في هذا الموضع، فإن النصر على قسمين: نصر المسلمين إذا طمعوا في عدوهم بأن يتم الله لهم ما طلبوا، وقصدوا، ويستولوا على عدوهم ويظهروا عليهم.

والثاني: نصر المستضعف الذي طمع فيه عدوه القادر، فنصر الله إياه، أن يرد عنه عدوه، ويدافع عنه، ولعل هذا النصر أنفع النصرين، ونصر الله رسوله إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين من هذا النوع.

وقوله: ﴿وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا﴾ أي كلماته القدريّة وكلماته الدينيّة، هي العالية على كلمة غيره، التي من جملتها قوله: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧]، ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهُدُ﴾ [غافر: ٥١]، ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُنَّ بِحَسَنَاتٍ﴾ [الصافات: ١٧٣] فدين الله هو الظاهر العالي على سائر الأديان، بالحجج الواضحة، والآيات الباهرة والسلطان الناصر.

﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ﴾ لا يغالبه مغالب، ولا يفوته هارب، ﴿حَكِيمٌ﴾ يضع الأشياء مواضعها، وقد يؤخر نصر حزبه إلى وقت آخر، اقتضته الحكمة الإلهية.

وفي هذه الآية الكريمة فضيلة أبي بكر الصديق بخصيصة لم تكن لغيره من هذه الأمة، وهي الفوز بهذه المنقبة الجليلة، والصحة الجميلة، وقد أجمع المسلمون على أنه هو المراد بهذه الآية الكريمة، ولهذا عدوا من أنكر صحبة أبي بكر للنبي ﷺ، كافراً، لأنه منكر للقرآن الذي صرح بها.

وفيها فضيلة السكينة، وأنها من تمام نعمة الله على العبد في أوقات الشدائد والمخاوف التي تطيش لها الأفئدة، وأنها تكون على حسب معرفة العبد بربه، وثقته بوعده الصادق، وبحسب إيمانه وشجاعته.

وفيها: أن الحزن قد يعرض لخواص عباد الله الصديقين، مع أن الأولى - إذا نزل بالعبد - أن يسعى في ذهابه عنه فإنه مضعف للقلب، موهن للعزيمة.

من فضائل الصديق أبي بكر رضي الله عنه

س: اذكر شيئاً من فضائل أبي بكر الصديق رضي الله عنه؟

ج: فضائل أبي بكر رضي الله عنه كثيرة جداً، أجتزئ منها بذكر الآتي:

ما أخرجه البخاري ^(١) من حديث ابن عباس قال: خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي مَرَضِهِ الَّذِي مَاتَ فِيهِ عَاصِبُ رَأْسِهِ بِخَرْقَةٍ فَقَعَدَ عَلَى الْمِنْبَرِ فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ ثُمَّ قَالَ: «إِنَّهُ لَيْسَ مِنَ النَّاسِ أَحَدٌ أَمَنَ عَلَيَّ فِي نَفْسِهِ وَمَالِهِ مِنْ أَبِي بَكْرٍ بِنِ أَبِي قُحَافَةٍ، وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا مِنَ النَّاسِ خَلِيلًا لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلًا، وَلَكِنْ خَلَّةُ الْإِسْلَامِ أَفْضَلُ، سُدُّوا عَنِّي كُلَّ خَوْخَةٍ فِي هَذَا الْمَسْجِدِ غَيْرَ خَوْخَةٍ أَبِي بَكْرٍ».

ما أخرجه البخاري ومسلم ^(٢) من حديث عمرو بن العاص رضي الله عنه: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ بَعَثَهُ عَلَى جَيْشِ ذَاتِ السَّلَاسِلِ، فَأَتَيْتُهُ فَقُلْتُ: أَيُّ النَّاسِ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: «عَائِشَةُ» فَقُلْتُ: مِنَ الرِّجَالِ؟ فَقَالَ: «أَبُوهَا» قُلْتُ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: «ثُمَّ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ» فَعَدَّ رِجَالًا.

ما أخرجه البخاري ^(٣) من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ بَعَثَنِي إِلَيْكُمْ فَقُلْتُمْ: كَذَبْتَ، وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: صَدَقَ، وَوَأَسَانِي بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ فَهَلْ أَنْتُمْ تَارِكُوا لِي صَاحِبِي؟» مَرَّتَيْنِ فَمَا أُودِي بَعْدَهَا.

وقول النبي ﷺ: «مَا نَفَعَنِي مَالٌ قَطُّ مَا نَفَعَنِي مَالُ أَبِي بَكْرٍ...» ^(٤).

ما أخرجه البخاري ^(٥) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه حَدَّثَهُمْ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ صَعَدَ أُحُدًا وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ وَعُثْمَانُ فَرَجَفَ بِهِمْ فَقَالَ: «اثْبُتْ أَحَدُ، فَإِنَّمَا عَلَيْكَ نَبِيٌّ وَصِدِّيقٌ وَشَهِيدَانِ».

(١) البخاري (٤٦٧).

(٢) البخاري (٣٦٦٢)، ومسلم (٢٣٨٤).

(٣) البخاري (٣٦٦١).

(٤) أحمد (٢٥٣/٢) بسند صحيح.

(٥) البخاري (٣٦٧٥).

ثم هو صاحب رسول الله ﷺ في الهجرة^(١) ويقول له النبي ﷺ: «مَا ظَنُّكَ بِأَتَيْنِ اللَّهَ ثَالِثَهُمَا»^(٢).

والبشارات لأبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بدخول الجنة كثيرة جداً، وكذا استخلاف النبي ﷺ لأبي بكر كي يصلي بالناس في وصية موته.
راجع كل ذلك في كتابنا «الصحيح المسند من فضائل الصحابة».

(١) البخاري (٣٦٥٢)، ومسلم (٣٩٠٥).

(٢) البخاري (٣٦٥٣)، ومسلم (٢٣٨١).

الحث على النفير والتأكيد عليه

س: ما المراد بقوله تعالى: ﴿خَفَافًا وَثِقَالًا﴾؟

ج: لأهل العلم في ذلك أقوال:

أحدهما: شبابًا وشيوخًا.

الثاني: شيوخًا وشبابًا.

الثالث: مشاغل وغير مشاغل.

الرابع: أغنياء وفقراء.

الخامس: نشاط وغير نشاط.

السادس: ركبًا ومشاة.

السابع: ذوو أموال وأراضي، وفقراء ليست لكم ضيعًا.

الثامن: مشاة وركبًا.

التاسع: ذوو عيال وبدون عيال.

العاشر: متزوجين وغير متزوجين.

قال الطبري رحمه الله:

وأولى الأقوال في ذلك عندنا بالصواب أن يقال: إن الله - تعالى ذكره - أمر المؤمنين بالنفر لجهاد أعدائه في سبيله، خفافًا وثقالًا. وقد يدخل في «الخفاف» كل من كان سهلًا عليه النفر لقوة بدنه على ذلك، وصحة جسمه وشبابه، ومن كان ذا يُسْرِ بمالٍ وفراغ من الاشتغال، وقادرًا على الظهر والركاب.

ويدخل في «الثقال»، كل من كان بخلاف ذلك، من ضعيف الجسم وعليه وسقيمه، ومن مُعَسِّرٍ من المال، ومشتغل بضيعة ومعاش، ومن كان لا ظهر له ولا ركاب، والشيخ وذو السن والعِيَال.

فإذ كان قد يدخل في «الخفاف» و«الثقال» من وصفنا من أهل الصفات التي ذكرنا، ولم يكن الله جل ثناؤه خصَّ من ذلك صنفًا دون صنف في الكتاب، ولا على لسان الرسول ﷺ، ولا نَصَبَ على خصوصه دليلًا وجب أن يقال: إن الله جل ثناؤه أمر المؤمنين من أصحاب رسوله بالنفر للجهاد في سبيله خفافًا وثقالًا مع رسوله ﷺ،

على كل حال من أحوال الخفة والثقل.

وقال الطبري:

حدثنا سعيد بن عمرو السكوني قال: حدثنا بقية بن الوليد قال: حدثنا حريز قال: حدثني عبد الرحمن بن ميسرة^(١) قال: حدثني أبو راشد الحبراني قال: وافيت المقداد بن الأسود فارس رسول الله ﷺ جالساً على تابوت من توابيت الصيارفة بحمص، قد فُضِّلَ عنها من عظمه، يريد الغزو، فقلت له: لقد أعذر الله إليك! فقال: أبت علينا «سورة البُحُور»: ﴿أَنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾.

وقال أيضاً:

حدثني سعيد بن عمرو قال: حدثنا بقية قال: حدثنا حريز قال: حدثني حبان بن زيد الشرعي قال: نفرنا مع صفوان بن عمرو، وكان والياً على حمص قبل الأفسوس، إلى الجراحمة، فلقيت شيخاً كبيراً همماً، قد سقط حاجباه على عينيه، من أهل دمشق، على راحلته، فيمن أغار. فأقبلت عليه فقلت: يا عم، لقد أعذر الله إليك! قال: فرفع حاجبيه، فقال: يا ابن أخي استنفرنا الله خفافاً وثقالاً من يحبه الله يبتليه، ثم يعيده فيبتليه، إنما يبتلي الله من عباده من شكر وصبر وذكر ولم يعبد إلا الله.

س: اذكر المعنى الإجمالي لقوله تعالى: ﴿أَنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾^(١).

ج: هذا خطاب لأهل الإيمان بالله ورسوله، يُقال لهم: ﴿أَنْفِرُوا﴾ اخرجوا مع رسولكم ﷺ واركبوا دياركم وبلاكم على أية حال كنتم، كنتم كهولاً أو شباناً، كنتم متزوجين أو عزاباً، كنتم مشاةً أو ركباناً، على أية حال كنتم فاخرجوا مع رسول الله ﷺ إذا استنفركم للخروج، ﴿وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ﴾ لنصرة دينكم ولإعلاء كلمة ربكم، ذلكم الجهاد والنفير خير لكم من دنياكم الفانية الزائلة إن كنتم تعلمون حق العلم وتوقنون حق اليقين، فالدنيا متاعها زائل، وما عند الله خير وأبقى.

وينحو هذا قال أهل العلم بالتأويل.

(١) عبد الرحمن بن ميسرة ما وثقه معبد إلا أن من العلماء من قال: مشائخ حريز كلهم ثقات، فبناءً على هذا، وعلى توثيق العجلي وابن حبان وثقه، أما ابن المديني فقال: مجهول، ويشهد للأثر ما بعده، والله أعلم.

قال الطبري خ: بعد أن أورد عددًا من الأقوال في تفسير قوله تعالى: ﴿انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾.

يقول تعالى ذكره للمؤمنين به وبرسوله من أصحاب رسول الله ﷺ: ﴿وَجَاهِدُوا﴾، أيها المؤمنون، الكفار، ﴿يَا مَوْلَاكُمْ﴾، فأنفقوها في مجاهدتهم على دين الله الذي شرعه لكم، حتى ينقادوا لكم فيدخلوا فيه طوعًا أو كرهًا، أو يعطوكم الجزية عن يدٍ صغائرًا، إن كانوا أهل كتاب، أو تقتلوهم، ﴿وَأَنْفُسَكُمْ﴾، يقول: وبأنفسكم، فقاتلوهم بأيديكم، يخزهم الله وينصركم عليهم، ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾، يقول: هذا الذي أمركم به من النفر في سبيل الله تعالى خفافًا وثقالًا وجهاد أعدائه بأموالكم وأنفسكم، خيرٌ لكم من الثاقل إلى الأرض إذا استنفرتم، والخلود إليها، والرضا بالقليل من متاع الحياة الدنيا عوضًا من الآخرة، إن كنتم من أهل العلم بحقيقة ما بُيِّنَ لكم من فضل الجهاد في سبيل الله على القعود عنه.

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ:

أمر الله تعالى بالنفير العام مع الرسول، صلوات الله وسلامه عليه، عام غزوة تبوك، لقتال أعداء الله من الروم الكفرة من أهل الكتاب، وحتم على المؤمنين في الخروج معه على كل حال في المنشط والمكره والعسر واليسر، فقال: ﴿انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾.

وقال علي بن زيد، عن أنس، عن أبي طلحة: كهولا وشبابًا ما أسمع الله عذر أحدًا، ثم خرج إلى الشام فقاتل حتى قُتل.

وفي رواية: قرأ أبو طلحة سورة براءة، فأتى على هذه الآية: ﴿انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ فقال: أرى ربنا يستنفرنا شيوخًا وشبابًا جهزوني يا بني. فقال بنوه: يرحمك الله، قد غزوت مع رسول الله حتى مات، ومع أبي بكر حتى مات، ومع عمر حتى مات، فنحن نغزو عنك. فأبى، فركب البحر فمات، فلم يجدوا له جزيرة يدفنوه فيها إلا بعد تسعة أيام، فلم يتغير، فدفنوه بها.

وقال ابن كثير أيضًا:

ثم رغب تعالى في النفقة في سبيله، وبذل المهج في مرضاته ومرضاة رسوله،

فقال: ﴿وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي: هذا خير لكم في الدنيا والآخرة، لأنكم تغرمون في النفقة قليلاً فيغنمكم الله أموال عدوكم في الدنيا، مع ما يدخر لكم من الكرامة في الآخرة، كما قال النبي ﷺ: «وَتَكْفُلُ اللَّهُ لِلْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِهِ إِنْ تَوَفَّاهُ أَنْ يَدْخُلَهُ الْجَنَّةَ، أَوْ يَرُدَّهُ إِلَى مَنْزِلِهِ نَائِلًا مَا نَالَ مِنْ أَجْرٍ أَوْ غَنِيمَةٍ»^(١).

ولهذا قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كَرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦]. ومن هذا القبيل ما رواه الإمام أحمد^(٢): حدثنا محمد بن أبي عدي، عن حميد، عن أنس؛ عن رسول الله ﷺ قال لرجل: «أسلم». قال: أجدني كارها. قال: «أسلم وإن كنت كارها».

قال ابن الجوزي في زاد المسير:

قوله تعالى: ﴿وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ﴾ قال القاضي أبو يعلى: أوجب الجهاد بالمال والنفس جميعاً، فمن كان له مال وهو مريض أو مقعد أو ضعيف لا يصلح للقتال. فعليه الجهاد بماله، بأن يعطيه غيره فيغزو به، كما يلزمه الجهاد بنفسه إذا كان قوياً. وإن كان له مال وقوة؛ فعليه الجهاد بالنفس والمال. ومن كان معدماً عاجزاً فعليه الجهاد بالنصح لله ورسوله لقوله: ﴿وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَحْدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [التوبة: ٩١].

قال السعدي رحمه الله:

يقول تعالى لعباده المؤمنين -مهيجا لهم على النفير في سبيله فقال: ﴿انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ أي: في العسر واليسر، والمنشط والمكره، والحر والبرد، وفي جميع الأحوال.

﴿وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: ابذلوا جهدكم في ذلك، واستفرغوا وسعكم في المال والنفس، وفي هذا دليل على أنه -كما يجب الجهاد في

(١) البخاري (٧٤٦٣)، ومسلم (١٨٧٦).

(٢) أحمد (١٠٩/٣) وإسناده صحيح.

النفس - يجب الجهاد في المال، حيث اقتضت الحاجة ودعت لذلك.
ثم قال: ﴿ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي: الجهاد في النفس والمال، خير لكم من التقاعد عن ذلك، لأن فيه رضا الله تعالى، والفوز بالدرجات العاليات عنده، والنصر لدين الله، والدخول في جملة جنده وحزبه.

أ س: وضح المعنى الإجمالي لقوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَا تَبَعُوكَ وَلَكِنْ بَعَدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾.

ج: المعنى - والله أعلم -: لو كان الذي دعوت هؤلاء المتخلفين عن الغزو معك والخروج معك يا رسول الله من أهل النفاق ﴿عَرَضًا قَرِيبًا﴾ غنيمة سهلة غير مُجهدة ولا مكلفة وسفراً سهلاً مريحاً لتجارة من ورائها مغنم، ولا قتال فيها لأجابوك حين دعوتهم، ولكن ﴿بَعَدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ﴾ شق عليهم السفر للغزو والقتال، وبعدت عليهم مسافته، ﴿وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ﴾ لكم إذا رجعتم إليهم، يحلفون معتذرين لو استطعنا الخروج ما تخلفنا ولخرجنا معكم للغزو والقتال، يهلكون أنفسهم بهذه الأيمان الكاذبة، فالذي يحلف كاذباً يضر نفسه ويستجلب لها العذاب بهذه الأيمان الكاذبة، وكان هذا شأن أهل النفاق دوماً الاتقاء بالأيمان الكاذبة والله يعلم حالهم ولا يخفى عليه أمرهم فهو يعلم أنهم لكاذبون فيما أبدوه من الأعذار الواهية الباطلة.

وينحو هذا قال أهل العلم.

قال الطبري رحمه الله:

يقول جل ثناؤه للنبي ﷺ، وكانت جماعة من أصحابه قد استأذنوه في التخلف عنه حين خرج إلى تبوك، فأذن لهم: لو كان ما تدعو إليه المتخلفين عنك والمستأذنين في ترك الخروج معك إلى مغزاك الذي استنفرتهم إليه، ﴿عَرَضًا قَرِيبًا﴾، يقول: غنيمة حاضرة، ﴿وَسَفَرًا قَاصِدًا﴾، يقول: وموضعاً قريباً سهلاً، ﴿لَا تَبَعُوكَ﴾، ونفروا معك إليهما، ولكنك استنفرتهم إلى موضع بعيد، وكلفتهم سفراً شاقاً عليهم، لأنك استنهرتهم في وقت الحر، وزمان القيظ وحين الحاجة إلى الكين،

﴿وَسِيحْلِفُوتَ بِاللَّهِ لَوْ أَسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ﴾، يقول تعالى ذكره: وسيحلف لك، يا محمد، هؤلاء المستأذنوك في ترك الخروج معك، اعتذاراً منهم إليك بالباطل، لتقبل منهم عذرهم، وتأذن لهم في التخلف عنك، بالله كاذبين، ﴿لَوْ أَسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ﴾، يقول: لو أطقنا الخروج معكم بوجود السَّعة والمراكب والظهور وما لا بُدَّ للمسافر والغازي منه، وصحة البدن والقوى، لخرجنا معكم إلى عدوكم، ﴿يَهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ﴾.

يقول: يوجبون لأنفسهم، بحلفهم بالله كاذبين، الهلاك والعطب، لأنهم يورثونها سخط الله، ويكسبونها أليم عقابه، ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَذِبُونَ﴾، في حلفهم بالله: ﴿لَوْ أَسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ﴾؛ لأنهم كانوا للخروج مطيقين، بوجود السبيل إلى ذلك بالذي كان عندهم من الأموال، مما يحتاج إليه الغازي في غزوه، والمسافر في سفره، وصحة الأبدان وقوى الأجسام.

وأورد بإسناد حسن عن قتادة قوله: ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا﴾، إلى قوله: ﴿لَكَذِبُونَ﴾، إنهم يستطيعون الخروج، ولكن كان تَبْطُئَةً من عند أنفسهم والشیطان، وزهادة في الخير.

قال ابن كثير رحمه الله:

يقول تعالى موبِّحاً للذين تخلفوا عن النبي ﷺ في غزوة تبوك، وقعدوا عن النبي ﷺ بعد ما استأذنه في ذلك، مظهرين أنهم ذوو أعدار، ولم يكونوا كذلك، فقال: ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا﴾ قال ابن عباس: غنيمة قريبة، ﴿وَسَفَرًا قَاصِدًا﴾ أي: قريباً أيضاً، ﴿لَا تَبْعُوكَ﴾ أي: لكانوا جاءوا معك لذلك، ﴿وَلَكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ﴾ أي: المسافة إلى الشام، ﴿وَسِيحْلِفُوتَ بِاللَّهِ﴾ أي: لكم إذا رجعت إليهم ﴿لَوْ أَسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ﴾ أي: لو لم تكن لنا أعدار لخرجنا معكم، قال الله تعالى: ﴿يَهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَذِبُونَ﴾.

قال ابن الجوزي (زاد المسير):

قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا﴾ قال المفسرون: نزلت في المنافقين الذين

تخلفوا عن غزوة تبوك^(١). ومعنى الآية: لو كان ما دعوا إليه عرضاً قريباً والعرض: كل ما عرض لك من منافع الدنيا، فالمعنى: لو كانت غنيمة قريبة، أو كان سفرًا قاصدًا، أي: سهلاً قريباً لاتبعوك طمعاً في المال ﴿وَلَكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ﴾ قال ابن قتيبة: الشقة السفر وقال الزجاج: الشقة: الغاية التي تقصد وقال ابن فارس: الشقة مصير إلى أرض بعيدة تقول: شق شاقة.

قوله تعالى: ﴿وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ﴾ يعني: المنافقين إذا رجعت إليهم ﴿لَوْ اسْتَطَعْنَا﴾ وقرأ زائدة عن الأعمش والأصمعي عن نافع: (لَوْ اسْتَطَعْنَا) بضم الواو وكذا أين وقع مثل: (لَوْ اطلعت عليهم) كأنه لما احتيج إلى حركة الواو حركت بالضم؛ لأنها أخت الواو والمعنى: لو قدرنا وكان لنا سعة في المال، ﴿يَهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ﴾ بالكذب والنفاق ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ لأنهم كانوا أغنياء ولم يخرجوا.

قال القرطبي رحمه الله:

لما رجع النبي ﷺ من غزوة تبوك أظهر الله نفاق قوم. والعرض: ما يعرض من منافع الدنيا. والمعنى: غنيمة قريبة. أخبر عنهم أنهم لو دعوا إلى غنيمة لاتبعوه. ﴿عَرَضًا﴾ خبر كان. ﴿قَرِيبًا﴾ نعته. ﴿وَسَفَرًا قَاصِدًا﴾ عطف عليه. وحذف اسم كان لدلالة الكلام عليه. التقدير: لو كان المدعو إليه عرضاً قريباً وسفرًا قاصدًا - أي: سهلاً معلوم الطرق - لاتبعوك. وهذه الكناية للمنافقين كما ذكرنا، لأنهم داخلون في جملة من خوطب بالنفير. وهذا موجود في كلام العرب يذكرون الجملة ثم يأتون بالإضمار عائداً على بعضها، كما قيل في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ مَنَكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ [مريم: ٧١] أنها القيامة. ثم قال جل وعز: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثًا﴾ [مريم: ٧٢] يعني جل وعز جهنم. ونظير هذه الآية من السنة في المعنى قوله ﷺ: «لو يعلم أحدهم أنه يجد عظماً سميناً أو مرماتين حستين لشهد العشاء». يقول: لو علم أحدهم أنه يجد شيئاً حاضراً معجلاً يأخذه لأتى المسجد من أجله. ﴿وَلَكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ﴾ حكى أبو عبيدة وغيره أن الشقة السفر إلى أرض بعيدة. يقال: منه شقة شاقة.

(١) وإن لم يصح سندٌ لسبب النزول هذا، ولكن سياق الآيات الكريمة دالٌّ عليه.

والمراد بذلك كله غزوة تبوك. وحكى الكسائي أنه يقال: شقة وشقة. قال الجوهري: الشقة بالضم من الثياب، والشقة أيضًا السفر البعيد وربما قالوه بالكسر. والشقة شظية تشظى من لوح أو خشبة. يقال للغضبان: احتد فطارت منه شقة، بالكسر. ﴿وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا﴾ أي لو كان لنا سعة في الظهر والمال. ﴿لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ﴾ نظيره ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران: ٩٧] فسرهما النبي ﷺ فقال: «زاد وراحلة» وقد تقدم. ﴿يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ﴾ أي بالكذب والنفاق. ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ في الاعتلال.

قال السعدي رحمه الله:

لو كان خروجهم عرضًا قريبًا، أي: لطلب العرض القريب، أي: منفعة دنيوية سهلة التناول ﴿و﴾ كان السفر ﴿سَفَرًا قَاصِدًا﴾ أي: قريبًا سهلاً. ﴿لَا تَبْعُوكَ﴾ لعدم المشقة الكثيرة، ﴿وَلَكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ﴾ أي: طالت عليهم المسافة، وصعب عليهم السفر، فلذلك تثاقفوا عنك، وليس هذا من أمارات العبودية، بل العبد حقيقة هو المتعبد لربه في كل حال، القائم بالعبادة السهلة والشاقة، فهذا العبد لله على كل حال.

﴿وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ﴾ أي: سيحلفون لتخلفهم عن الخروج أن لهم أعذاراً وأنهم لا يستطيعون ذلك. ﴿يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ﴾ بالقعود والكذب والإخبار بغير الواقع، ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾.

وهذا العتاب إنما هو للمنافقين، الذين تخلفوا عن النبي ﷺ في «غزوة تبوك» وأبدوا من الأعذار الكاذبة ما أبدوا، فعفا النبي ﷺ عنهم بمجرد اعتذارهم، من غير أن يمتحنهم، فيتبين له الصادق من الكاذب، ولهذا عاتبه الله على هذه المسارعة إلى قبول اعتذارهم فقال: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ﴾ إلى قوله: ﴿رَبِّهِمْ يَرْدُّوكَ﴾.

عتاب من الله ﷻ لرسوله ﷺ

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذْنَتْ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَذِبِينَ﴾ (٤٣).

ج: هذا عتابٌ لطيفٌ من الله ﷻ لرسوله ﷺ، تقدم العتاب بلطيف العبارة، بقوله تعالى: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ﴾، تجاوز الله عنك ولم يؤاخذك الله ﷻ، ﴿لِمَ أَذْنَتْ لَهُمْ﴾ في التخلف عن الغزو معك والخروج معك ﴿حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَذِبِينَ﴾ حتى يظهر لك أصحاب الأعداء منهم، وغير أصحاب الأعداء، فعليه فقد كان الإذن إجمالاً لكل من استأذن في التخلف، سواء كان بعدراً أو غير عذر فعوتب النبي ﷺ إذ كان من الأولى أن ينظر إلى أصحاب الأعداء فيأذن لهم والذين ليس لهم عذر فلا يأذن لهم، وحينئذ سيظهر له أهل النفاق الذين عزموا على التخلف سواء أذن لهم النبي ﷺ أم لم يأذن. هذا قول، وقول آخر أنه ﷺ عوتب لكونه أذن لهم، وكان الأولى أن لا يأذن لأي أحد ثم نسخ ذلك بعد بقوله تعالى: ﴿فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأَذْنِ لِمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهُ﴾ [النور: ٦٢].

والقول الأول أولى، إذ لا يسوغ أن يستأذن صاحب عذر ولا يؤذن له، وقد قال تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ [النور: ٦١]. وقال: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦] إلى غير ذلك من النصوص.

فالأظهر أن الرسول ﷺ كان قد أذن لكل من استأذن إحساناً للظن بهم، فعوتب على ذلك صلوات الله وسلامه عليه والله تعالى أعلم.

ثم هذه بعض أقوال العلماء في ذلك.

قال الطبري رحمه الله:

وهذا عتاب من الله تعالى ذكره، عاتب به نبيه ﷺ في إذنه لمن أذن له في التخلف عنه، حين شخص إلى تبوك لغزو الروم، من المنافقين. يقول جل ثناؤه: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ﴾، يا محمد، ما كان منك في إذنك لهؤلاء

المنافقين الذين استأذنوك في ترك الخروج معك، وفي التخلف عنك، من قبل أن تعلم صدقه من كذبه ، ﴿لَمْ أَذْنَتْ لَهُمْ﴾ ، لأي شيء أذنت لهم؟

﴿حَتَّى يَبَيِّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَذِبِينَ﴾ ، يقول: ما كان ينبغي لك أن تأذن لهم في التخلف عنك إذ قالوا لك: ﴿لَوْ أَسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ﴾ ، حتى تعرف من له العذر منهم في تخلفه، ومن لا عذر له منهم، فيكون إذ ذلك لمن أذنت له منهم على علم منك بعذره، وتعلم من الكاذب منهم المتخلف نفاقاً وشكاً في دين الله.

وأورد بإسناد حسن عن قتادة قوله: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذْنَتْ لَهُمْ حَتَّى يَبَيِّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا﴾ ، الآية، عاتبه كما تسمعون، ثم أنزل الله التي في «سورة النور»، فرخص له في أن يأذن لهم إن شاء، فقال: ﴿فَإِذَا أَسْتَدْنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأُذِنَ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ﴾ ، [النور: ٦٢] ، فجعله الله رخصةً في ذلك من ذلك.

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقال مجاهد^(١): نزلت هذه الآية في أناس قالوا: استأذنوا رسول الله فإن أذن لكم فاقعدوا، وإن لم يأذن لكم فاقعدوا.

ولهذا قال تعالى: ﴿حَتَّى يَبَيِّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا﴾ أي: في إبداء الأعداء، ﴿وَتَعْلَمَ الْكَذِبِينَ﴾ يقول تعالى: هلا تركتهم لما استأذنوك، فلم تأذن لأحد منهم في القعود، لتعلم الصادق منهم في إظهار طاعتك من الكاذب، فإنهم قد كانوا مصرين على القعود عن الغزو [وإن لم تأذن لهم فيه].

قال السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى لرسوله ﷺ: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ﴾ أي: سامحك وغفر لك ما أجريت. ﴿لَمْ أَذْنَتْ لَهُمْ﴾ في التخلف ﴿حَتَّى يَبَيِّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَذِبِينَ﴾ بأن تمتحنهم، ليتبين لك الصادق من الكاذب، فتعذر من يستحق العذر ممن لا يستحق ذلك.

قال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ:

(١) وهذا مرسل.

قوله تعالى: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذْنَتْ لَهُمْ﴾ قيل: هو افتتاح كلام، كما تقول: أصلحك الله وأعزك ورحمك كان كذا وكذا. وعلى هذا التأويل يحسن الوقف على قوله: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ﴾، حكاه مكّي والمهدوي والنحاس. وأخبره بالعفو قبل الذنب لئلا يطير قلبه فرقاً. وقيل: المعنى عفا الله عنك ما كان من ذنبك في أن أذنت لهم، فلا يحسن الوقف على قوله: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ﴾ على هذا التقدير، حكاه المهدوي واختاره النحاس. ثم قيل: في الإذن قولان:

الأول: ﴿لِمَ أَذْنَتْ لَهُمْ﴾ في الخروج معك، وفي خروجهم بلا عدة ونية صادقة فساد.

الثاني: ﴿لِمَ أَذْنَتْ لَهُمْ﴾ في القعود لما اعتلوا بأعدار، ذكرها القشيري قال: وهذا عتاب تلتف إذ قال: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ﴾. وكان عليه السلام أذن من غير وحي نزل فيه. قال قتادة وعمرو بن ميمون: ثنتان فعلهما النبي ﷺ ولم يؤمر بهما: إذنه لطائفة من المنافقين في التخلف عنه ولم يكن له أن يمضي شيئاً إلا بوحي وأخذه من الأسارى الفدية فعاتبه الله كما تسمعون. قال بعض العلماء: إنما بدر منه ترك الأولى فقدم الله العفو على الخطاب الذي هو في صورة العتاب.

قوله تعالى: ﴿حَقَّ يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَذِبِينَ﴾ أي: ليتبين لك من صدق ممن نافق. قال ابن عباس: وذلك أن رسول الله ﷺ لم يكن يومئذ يعرف المنافقين وإنما عرفهم بعد نزول سورة «التوبة». وقال مجاهد: هؤلاء قوم قالوا: نستأذن في الجلوس فإن أذن لنا جلسنا وإن لم يؤذن لنا جلسنا. وقال قتادة: نسخ هذه الآية بقوله في سورة «النور»: ﴿فَإِذَا اسْتَشْدُّوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأُذِنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ﴾ **[النور: ٦٢]**. ذكره النحاس في معاني القرآن له.

قال ابن الجوزي (زاد المسير):

قوله تعالى: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذْنَتْ لَهُمْ﴾ كان ﷺ قد أذن لقوم من المنافقين في التخلف لما خرج إلى تبوك، قال ابن عباس^(١): ولم يكن يومئذ يعرف المنافقين، قال

(١) وفي سنده لابن عباس رضي الله عنه مقال.

عمرو بن ميمون: اثنتان فعلهما رسول الله ﷺ ولم يؤمر بهما إذنه للمنافقين، وأخذه الفداء من الأسارى، فعاتبه الله كما تسمعون. قال مورك: عاتبه ربه بهذا. وقال سفيان بن عيينة: انظر إلى هذا اللطف بدأه بالعفو قبل أن يعيره بالذنب. وقال ابن الأنباري: لم يخاطب بهذا لجرم أجرمه لكن الله وقره ورفع من شأنه حين افتتح الكلام بقوله ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ﴾ كما يقول الرجل لمخاطبه إذا كان كريما عليه: عفا الله عنك ما صنعت في حاجتي ورضي الله عنك هلا زرتني.

قوله تعالى: ﴿حَقٌّ يَبَيِّنُ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا﴾ فيه قولان:

أحدهما: أن معناه حتى تعرف ذوي العذر في التخلف ممن لا عذر له.

والثاني: لو لم تأذن لهم لقعدوا وبان لك كذبهم في اعتذارهم قال قتادة: ثم إن الله تعالى نسخ هذه الآية بقوله: ﴿فَأَذِّنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ﴾ [النور: ٦٢].

س: هل قوله تعالى: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ...﴾ منسوخ، وما ناسخه؟

ج: قال بذلك بعض أهل العلم، وذهبوا إلى أن ناسخه هو قول الله تعالى: ﴿فَإِذَا اسْتَدْنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأَذِّنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهُ...﴾، والذي يظهر عدم النسخ، وإنما العتاب - كما بينت - لكون النبي ﷺ أذن لكل من أراد التخلف واستأذن، وإنما كان الأولى أن يأذن لأصحاب الأعداء فمن ثم جاء العتاب، والله أعلم.

قال القرطبي رحمه الله:

واختلف في هذه الآية، فقيل: إنها منسوخة بقوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى﴾ [التوبة: ٩١]. وقيل: الناسخ لها قوله: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ﴾ [التوبة: ١٢٢]. والصحيح أنها ليست بمنسوخة.

.... ثم قال:

وقد تكون حالة يجب فيها نفي الكل.

وذلك إذا تعين الجهاد بغلبة العدو على قطر من الأقطار، أو بحلوله بالعقر، فإذا كان ذلك وجب على جميع أهل تلك الدار أن ينفروا ويخرجوا إليه خفاً وثقلاً، شباباً وشيوخاً، كل على قدر طاقته، من كان له أب بغير إذنه ومن لا أب له، ولا

يتخلف أحد يقدر على الخروج، من مقاتل أو مكثر. فإن عجز أهل تلك البلدة عن القيام بعدوهم كان على من قاربهم وجاورهم أن يخرجوا على حسب ما لزم أهل تلك البلدة، حتى يعلموا أن فيهم طاقة على القيام بهم ومدافعهم. وكذلك كل من علم بضعفهم عن عدوهم وعلم أنه يدركهم ويمكنه غياثهم لزمه أيضًا الخروج إليهم، فالمسلمون كلهم يد على من سواهم، حتى إذا قام بدفع العدو أهل الناحية التي نزل العدو عليها واحتل بها سقط الفرض عن الآخرين. ولو قارب العدو دار الإسلام ولم يدخلوها لزمهم أيضًا الخروج إليه، حتى يظهر دين الله وتحمى البيضة وتحفظ الحوزة ويخزى العدو. ولا خلاف في هذا.

وقسم ثانٍ من واجب الجهاد - فرض أيضًا على الإمام إغزاء طائفة إلى العدو كل سنة مرة يخرج معهم بنفسه أو يخرج من يثق به ليدعوهم إلى الإسلام ويرغبهم، ويكف أذاهم ويظهر دين الله عليهم حتى يدخلوا في الإسلام أو يعطوا الجزية عن يد. ومن الجهاد أيضًا ما هو نافلة وهو إخراج الإمام طائفة بعد طائفة وبعث السرايا في أوقات العزة وعند إمكان الفرصة والإرصاد لهم بالرباط في موضع الخوف وإظهار القوة.

فإن قيل: كيف يصنع الواحد إذا قصر الجميع؟

قيل له: يعتمد إلى أسير واحد فيفديه، فإنه إذا فدى الواحد فقد أدى في الواحد أكثر مما كان يلزمه في الجماعة، فإن الأغنياء لو اقتسموا فداء الأسارى ما أدى كل واحد منهم إلا أقل من درهم. ويغزو بنفسه إن قدر وإلا جهز غازيا. قال ﷺ: «من جهز غازيًا فقد غزا ومن خلفه في أهله بخير فقد غزا» أخرجه الصحيح. وذلك لأن مكانه لا يغني وماله لا يكفي.

وقال ابن الجوزي (زاد المسير):

وروي عن ابن عباس^(١) أنه قال: نسخت هذه الآية بقوله: ﴿لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوا﴾ [النور: ٦٢] إلى آخر الآية. قال أبو سليمان الدمشقي: وليس للنسخ هاهنا

(١) وفي سنده إلى ابن عباس ﷺ مقال.

مدخل لإمكان العمل بالآيتين، وذلك أنه إنما عاب على المنافقين أن يستأذنه في القعود عن الجهاد من غير عذر، وأجاز للمؤمنين الاستئذان لما يعرض لهم من حاجة، وكان المنافقون إذا كانوا معه فعرضت لهم حاجة ذهبوا من غير استئذانه.

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾ (٤٤) إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَاتَّبَعَتْ قُلُوبُهُمْ فُتُورًا فِي رِيْبِهِمْ يَرْدَدُونَ (٤٥).

ج: المعنى - والله تعالى أعلم - لا يستأذنك يا رسول الله أهل الإيمان بالله واليوم الآخر الذين يرجون ثواب الله ويخافون عقابه ويوحدونه ولا يشركون به شيئاً، ويوقنون بوعده ووعيده، هؤلاء لا يستأذنونك في التخلف عن الجهاد، بل يبادروا بامتنال أمرك إذا دعوتهم، بل إنهم يقبلون على الجهاد معك، والغزو حباً في الجهاد ورغبة فيما عند الله من الأجر والثواب، فيبذلون أنفسهم لنصرة دين الله ويبذلون من مالهم لنصرة دين الله والله عليم بصنيعهم وعليم بالذي حملهم على ذلك.

وقوله: ﴿لَا يَسْتَأْذِنُكَ﴾ في التخلف عن الجهاد والغزو معك ﴿الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ لا يصدقون بوحدانية الله ولا بوعده الله ولا بوعيده ولا بثوابه ولا بعقابه، وتشككت قلوبهم فيما تخبرهم به وفيما جئتهم به فهم في شكهم يتحIRON والله أعلم، وبنحو هذا قال العلماء.

قال الطبري رحمه الله:

قوله: ﴿لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾، فهذا تعبير للمنافقين حين استأذنوا في القعود عن الجهاد من غير عذر، وعذر الله المؤمنين، فقال: ﴿لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوا﴾ [النور: ٦٢].

وهذا إعلام من الله نبيه ﷺ سيما المنافقين: أن من علاماتهم التي يعرفون بها تخلفهم عن الجهاد في سبيل الله، باستئذانهم رسول الله ﷺ في تركهم الخروج معه إذا استنفروا بالمعاذير الكاذبة.

يقول جل ثناؤه لنبيه محمد ﷺ: يا محمد، لا تأذن في التخلف عنك إذا خرجت لغزو عدوك، لمن استأذنك في التخلف من غير عذر، فإنه لا يستأذنك في ذلك إلا

منافق لا يؤمن بالله واليوم الآخر. فأما الذي يصدّق بالله، ويقرُّ بوحدانيته وبالبعث والدار الآخرة والثواب والعقاب، فإنه لا يستأذنك في ترك الغزو وجهاد أعداء الله بماله ونفسه، ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾، يقول: والله ذو علم بمن خافه، فاتقاه بأداء فرائضه، واجتناب معاصيه، والمصارعة إلى طاعته في غزو عدوّه وجهادهم بماله ونفسه، وغير ذلك من أمره ونهيه.

وقال الطبري أيضًا:

ويقول تعالى ذكره لنبيه ﷺ: إنما يستأذنك، يا محمد، في التخلف خلافك، وترك الجهاد معك، من غير عذر بين، الذين لا يصدّقون بالله، ولا يقرّون بتوحيده، ﴿وَأَرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ﴾، يقول: وشكت قلوبهم في حقيقة وحدانية الله، وفي ثواب أهل طاعته، وعقابه أهل معاصيه، ﴿فَهُمْ فِي رَبِّهِمْ يَرْدَدُونَ﴾، يقول: في شكهم متحيّرون، وفي ظلمة الحيرة متردّدون، لا يعرفون حقًا من باطل، فيعملون على بصيرة. وهذه صفة المنافقين. وكان جماعة من أهل العلم يرون أن هاتين الآيتين منسوختان بالآية التي ذكرت في «سورة النور»^(١).

قال القرطبي رحمه الله:

قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَعِذُّكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ أي في القعود ولا في الخروج، بل إذا أمرت بشيء ابتدروه، فكان الاستئذان في ذلك الوقت من علامات النفاق لغير عذر، ولذلك قال: ﴿إِنَّمَا يَسْتَعِذُّكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَبِّهِمْ يَرْدَدُونَ﴾. روى أبو داود عن ابن عباس قال: ﴿لَا يَسْتَعِذُّكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ نسختها التي في «النور» ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ إلى قوله: ﴿عَفْوٌ رَحِيمٌ﴾ [النور: ٦٢] ﴿أَنْ يُجَاهِدُوا﴾ في موضع نصب بإضمار في، عن الزجاج. وقيل: التقدير كراهية أن يجاهدوا، كقوله: ﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ أَنْ تَضِلُّوا﴾ [النساء: ١٧٦]. ﴿وَأَرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ شكت في الدين. ﴿فَهُمْ فِي رَبِّهِمْ يَرْدَدُونَ﴾ أي: في شكهم يذهبون ويرجعون.

(١) يعني قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ﴾.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

أخبر تعالى أنه لا يستأذنه في القعود عن الغزو أحد يؤمن بالله ورسوله، فقال: ﴿لَا يَسْتَعِذُّكَ﴾ أي: في القعود عن الغزو ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ﴾ ؛ لأن أولئك يرون الجهاد قربة، ولما ندبهم إليه بادروا وامتثلوا. ﴿وَاللَّهُ عَلَيْهِمُ بِالْمُتَّقِينَ﴾ ٢٢٢ إِنَّمَا يَسْتَعِذُّكَ ﴿أي: في القعود ممن لا عذر له﴾ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴿أي: لا يرجون ثواب الله في الدار الآخرة على أعمالهم﴾، وَأَزْثَابَتْ قُلُوبُهُمْ ﴿أي: شكت في صحة ما جئتهم به﴾، فَهُمْ فِي رَبِّهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿أي: يتحIRON، يُقَدِّمُونَ رجلا ويؤخرون أخرى، وليست لهم قدم ثابتة في شيء، فهم قوم حيارى هلكى، لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، ومن يضل الله فلن تجد له سبيلاً.

قال ابن الجوزي رَحِمَهُ اللَّهُ (زاد المسير):

قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَعِذُّكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ قال ابن عباس: هذا تعبير للمنافقين حين استأذنوا في القعود. قال الزجاج: أعلم الله ﷻ نبيه ﷺ أن علامة النفاق في ذلك الوقت الاستئذان.

قال السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ:

ثم أخبر أن المؤمنين بالله واليوم الآخر، لا يستأذنون في ترك الجهاد بأموالهم وأنفسهم، لأن ما معهم من الرغبة في الخير والإيمان، يحملهم على الجهاد من غير أن يحثهم عليه حاث، فضلاً عن كونهم يستأذنون في تركه من غير عذر. ﴿وَاللَّهُ عَلَيْهِمُ بِالْمُتَّقِينَ﴾ فيجازيهم على ما قاموا به من تقواه، ومن علمه بالمتقين، أنه أخبر، أن من علاماتهم، أنهم لا يستأذنون في ترك الجهاد. ﴿إِنَّمَا يَسْتَعِذُّكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَزْثَابَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ أي: ليس لهم إيمان تام، ولا يقين صادق، فلذلك قلَّتْ رغبتهم في الخير، وجنبوا عن القتال، واحتاجوا أن يستأذنوا في ترك القتال. ﴿فَهُمْ فِي رَبِّهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾ أي: لا يزالون في الشك والحيرة.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:

(﴿ وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴾ ٤٦) لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَا وَقْعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾ ٤٧) لَقَدْ ابْتَغُوا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ ﴾ ٤٨) وَمِنْهُمْ مَن يَقُولُ أُنْذِنَ لِي وَلَا نَفْتِنِي إِلَّا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴾ ٤٩) إِنْ تُصِيبَكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِيبَكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرًا مِنْ قَبْلُ وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ ﴾ ٥٠) قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ ٥١) قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمْ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِنْدِهِ أَوْ بَأْيُدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ ﴾ ٥٢) قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّنْ يَنْقَبَلَ مِنْكُمْ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴾ ٥٣) وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا

وَهُمْ كُفَّارٌ وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ ﴿٥٤﴾ فَلَا تُعْجِبَكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا
 أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ
 كَافِرُونَ ﴿٥٥﴾ وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَمَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ
 يَفْرُقُونَ ﴿٥٦﴾ لَوْ يَحْدُوثُ مَلْجَأٌ أَوْ مَغْرَبٌ أَوْ مَدْخَلٌ لَوْلُوا إِلَيْهِ وَهُمْ
 يَجْمَحُونَ ﴿٥٧﴾

[التوبة: ٤٦-٥٧].

|

س: وضع معنى ما يلي:

﴿الْخُرُوجَ - لَأَعِدُّوا لَهُ عُدَّةً - أَنْيَعَانَهُمْ - فَتَبَطُّهُمْ - الْقَاعِدِينَ - خَبَالًا -
وَلَا تَوَضَّعُوا خِلَالَكُمْ - يَبْغُونَكُمْ الْفِتْنَةَ - وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ - ابْتَغُوا الْفِتْنَةَ - وَقَلْبُوا لَكَ
الْأُمُورَ - الْحَقُّ - وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ - وَلَا تَفْتَحْ - آلا فِي الْفِتْنَةِ - سَقَطُوا - حَسَنَةً - قَدْ
أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِنْ قَبْلُ - وَيَكْتُولُوا - مَوْلَانَا - فَلْيَتَوَكَّلْ - تَرَبَّصُوا يَنَّا - إِحْدَى
الْحُسَيْنَيْنِ - بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ - أَوْ بِأَيْدِينَا - طَوْعًا - كَرْهًا - وَنَزَهَقَ أَنْفُسُهُمْ -
يَقْرُبُونَ - مَلَجَأًا - مَغْرِبًا - مُدْخَلًا - لَوْلَا إِلَهِهُ - يَجْمَعُونَ ﴾.

ج:

الكلمة	معناها
(الْخُرُوجَ) ﴿	المراد الخروج للغزو والجهاد في سبيل الله
(لَأَعِدُّوا لَهُ عُدَّةً) ﴿	لتجهزوا بالجهاز اللازم للغزو من سلاحٍ ومركبٍ وملبسٍ وطعام وغير ذلك
(أَنْيَعَانَهُمْ) ﴿	خروجهم - نهوضهم
(الْقَاعِدِينَ) ﴿	القاعدین لعذر كالمرضى والعجزة والنساء والصبيان
(خَبَالًا) ﴿	فسادًا - شرًا
(وَلَا تَوَضَّعُوا خِلَالَكُمْ) ﴿	ولأسرعوا بالسير بينكم بالقول المفسد والنميمة والشر. لأفسدوا صفوفكم في القتال
(يَبْغُونَكُمْ الْفِتْنَةَ) ﴿	يطلبون لكم الشر والفساد والفوضى والهزيمة والانصراف عن الدين إلى الشرك
(وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ) ﴿	وفيكُم من يصدقهم، ويسمع لهم، ويطيع لهم، وقيل: وفيكُم من يستمع منكم الأخبار وينقلها إليهم

بَحْثُوا عَنِ الشَّرِّ وَالْفُسَادِ - يَسْعُوا لِنَشْرِ الشَّرِّ وَالْفُسَادِ وَصَرَفَ النَّاسِ عَنْ دِينِهِمْ	(اِبْتَغُوا الْفِتْنَةَ ﴿١﴾)
أَثَارُوا لَكَ الْمَشَاكِلَ وَالْقَلَاقِلَ	(وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ ﴿٢﴾)
الْوَعْدَ الْحَقَّ، وَهُوَ نَصْرُكَ عَلَى أَعْدَائِكَ	(الْحَقُّ ﴿٣﴾)
ظَهَرَ الدِّينَ الْحَقَّ وَعَلَا وَارْتَفَعَ وَانْتَصَرَ أَهْلُهُ	(وَوَضَّاهُ أَمْرُ اللَّهِ ﴿٤﴾)
لَا تَوَقَّعْنِي فِي الْإِثْمِ وَالْفِتْنَةِ	(وَلَا تَفْتِنَنِي ﴿٥﴾)
أَلَا إِنَّهُمْ وَقَعُوا فِي الْإِثْمِ وَالشَّرِّ وَالْمَعْصِيَةِ بِتَخْلُفِهِمْ عَنِ الْخُرُوجِ مَعَكَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ	(أَلَا فِي الْفِتْنَةِ ﴿٦﴾ سَقَطُوا ﴿٧﴾)
شَيْءٌ يَسْعِدُكَ كَفَتَحَ مِنْ اللَّهِ - غَنِيمَةٌ تَغْنِمُهَا - دَخُولُ النَّاسِ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا	(حَسَنَةٌ ﴿٨﴾)
قَدْ احْتَطْنَا لِأَنْفُسِنَا وَأَخَذْنَا حِذْرَنَا	(قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا ﴿٩﴾ مِنْ قَبْلُ ﴿١٠﴾)
يَنْصَرِفُوا عَنْكَ	(وَيَسْتَوَلُوا ﴿١١﴾)
مَتَوَلَّى أَمْرَنَا - نَاصِرْنَا	(مَوْلَانَا ﴿١٢﴾)
فَلْيَعْتَمِدْ	(فَلْيَتَوَكَّلْ ﴿١٣﴾)
تَنْتَظِرُونَ أَنْ يَحْلُبَنَا	(تَرَبَّصُوا بِنَا ﴿١٤﴾)
إِحْدَى الْأَمْرَيْنِ الْأَحْسَنِينِ (النَّصْرَ أَوِ الشَّهَادَةَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ)	(إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ ﴿١٥﴾)
عَذَابٍ دُونَ تَدْخُلِ مِنَّا كَالْخَسْفِ أَوِ الصَّوَاعِقِ أَوِ الْمَوْتِ أَوِ الْمَجَاعَاتِ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ	(إِعْذَابٍ مِّنْ ﴿١٦﴾ عِنْدِهِ ﴿١٧﴾)
عَذَابٌ عَلَى أَيْدِينَا نَقْتُلُكُمْ وَنَأْسِرُكُمْ	(أَوْ بِأَيْدِينَا ﴿١٨﴾)

٢٢٩	سُورَةُ النَّازِعَاتِ	النَّازِعَاتِ لِأَوَّلِ النَّزِيلِ
عن طواعية	(طَوَّعًا ﴿	
وأنتم كارهون للإنفاق	(كَرْهًا ﴿	
تخرج أرواحهم عند الموت	(وَتَرْهَقَ أَنْفُسُهُمْ ﴿	
يخافون خوفًا شديدًا	(يَقْرُقُونَ ﴿	
حصنًا - مكانًا يلجؤون إليه	(مَلَجَأًا ﴿	
فتحات في الجبل - أماكن في الجبال	(مَغْدَرَاتٍ ﴿	
سربًا في الأرض - نفقًا في الأرض	(مُدَّحَلًا ﴿	
لهربوا إليه	(لَوَلَوْ أِلَيْهِ ﴿	
يسرعون لا يمنعهم من الإسراع شيءٌ	(يَجْمَحُونَ ﴿	

س: ما المراد بالعدة في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً﴾؟

ج: في ذلك قولان:

أحدهما: أن العدة ما يلزم الغازي في سبيل الله اصطحابه من سلاح وطعام وملبس ومركب وغير ذلك.

الثاني: المراد النية الصالحة.

س: من القائل: ﴿أَقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾؟

ج: لأهل العلم في ذلك أقوال:

أحدها: أن رسول الله ﷺ قال لهم ذلك غضباً عليهم وتضايقاً منهم.

الثاني: أن الله جل ذكره صدهم عن الجهاد وصرفهم عنه، وألهمهم التخلف عن الغزو خذلاً لهم.

الثالث: أن بعضهم - بعض أهل النفاق - قال ذلك للبعض الآخر.

س: ما المراد بالفتنة في قوله تعالى: ﴿يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ﴾؟

ج: لأهل العلم في ذلك أقوال:

أحدها: الشر والفساد وتفريق الجماعة، وتشيت الكلمة.

الثاني: الشرك بالله والانصراف عن دينه.

س: هل كان في الصحابة خبالٌ حتى قيل: ﴿مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾؟

ج: لم يكن فيهم خبال، ولكن هذا من الاستثناء المنقطع.

قال ابن الجوزي في (زاد المسير):

فإن قيل: كأن الصحابة كان فيهم خبال حتى قيل: ﴿مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾.

فالجواب: أنه من الاستثناء المنقطع، والمعنى: ما زادوكم قوة، لكن أوقعوا

بينكم خبالاً.

مُرِيدُ الْخَيْرِ يَعِدُّ لَهُ عُدَّةً

س: وضع المعنى الإجمالي لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً﴾

وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴿٦١﴾ لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا

زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَا وَضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَعَنُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ
بِالظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾.

ج: المعنى - والله تعالى أعلم - ولو أراد هؤلاء المنافقون المتخلفون عن الغزو معك وعن الجهاد في سبيل الله، لو أرادوا الخروج لتجهزوا له بالجهاد اللازم للغزو، وبالعدة اللازمة من المركب والسلاح والطعام وغير ذلك من مستلزمات الغازي ولعزموا عزيمة صحيحة على الغزو، ولكن كره الله خروجهم معك لنفاقهم وفسادهم فحرمهم شرف الخروج معك وشرف الجهاد في سبيل الله فأقعدهم عن الخروج وخذلهم وألهموا القعود مع المرضى والنساء والأطفال والعجزة وأصحاب الأعذار، وهذا يا رسول الله من فضل الله عليك، من فضل الله عليك أن خذلهم فلم يخرجوا معك للغزو، فإنهم لو خرجوا معك ما زادوا أصحابك إلا شرًا وفسادًا بالوشايات التي يقومون بها بين المجاهدين وبالشائعات والأراجيف، ولأسرعوا بينكم بنشر الشر والفساد، والتشيط عن الجهاد وتخويفكم من العدو وحثكم على الانسحاب والرجوع، وفيكم طائفة تستمع لكلامهم وتصدقهم إحسانًا للظن بهم، وكذا فيكم طائفة تتجسس لصالحهم، والله عليم بأهل الظلم والشر والفساد.

وينحو هذا قال أهل العلم.

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره: ولو أراد هؤلاء المستأذنونك، يا محمد، في ترك الخروج معك لجهاد عدوك، الخروج معك، ﴿لَاَعْدُوْا لَهُ عُدَّةٌ﴾، يقول: لأعدوا للخروج عدة، ولتأهبوا للسفر والعدو أهبتهما ﴿وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ﴾، يعني: خروجهم لذلك ﴿فَثَبَطَهُمْ﴾، يقول: فثقل عليهم الخروج حتى استخفوا القعود في منازلهم خلافك، واستثقلوا السفر والخروج معك، فتركوا لذلك الخروج، ﴿وَقِيلَ أَقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾، يعني: أقعدوا مع المرضى والضعفاء الذين لا يجدون ما ينفقون، ومع النساء والصبيان، واتركوا الخروج مع رسول الله ﷺ والمجاهدين في سبيل الله. وكان تشيط الله إياهم عن الخروج مع رسوله ﷺ والمؤمنين به، لعلمه بنفاقهم وغشهم للإسلام وأهله، وأنهم لو خرجوا معهم ضرروهم ولم ينفعوا. وذكر أن الذين

استأذنوا رسول الله ﷺ في القعود كانوا: «عبد الله بن أبي بن سلول»، و«الجد بن قيس»، ومن كان على مثل الذي كانا عليه.

ويقول تعالى ذكره: لو خرج، أيها المؤمنون، فيكم هؤلاء المنافقون، ﴿مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾، يقول: لم يزيدوكم بخروجهم فيكم إلا فسادًا وضرًا، ولذلك ثبَّتْهُمْ عن الخروج معكم.

وقد بينا معنى «الخبال»، بشواهد في ما مضى قبل.

﴿وَلَا وَضَعُوا يَدَيَكُمَا فِي جُحِّ السَّيْرِ﴾، يقول: ولأسرعوا بركائبهم السير بينكم.

وأصله من «إيضاع الخيل والركاب»، وهو الإسراع بها في السير، يقال للناقة إذا أسرع السير: «وضعت الناقة تَضَع وَضْعًا وَمَوْضِعًا»، و«أوضعها صاحبها»، إذا جدَّ بها وأسرع، «يوضعها إيضاعًا»، ومنه قول الراجز:

يَا لَيْتَنِي فِيهَا جَدْعٌ أَحْبَبُ فِيهَا وَأَصْغ

وأما أصل «الخلال»، فهو من «الخلل»، وهي الفرج تكون بين القوم، في الصفوف وغيرها. ومنه قول النبي ﷺ: «تَرَاوُوا فِي الصُّفُوفِ لَا يَتَخَلَّلَكُمُ الشَّيَاطِينُ، كَأَنَّهُمْ أَوْلَادُ الْحَدَفِ».

وأما قوله: ﴿يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ﴾، فإن معنى: ﴿يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ﴾، يطلبون لكم ما تفتنون به، عن مخرجكم في مغزاكم، بتشيطهم إياكم عنه.

وأما قوله: ﴿وَفِيكُمْ سَمْعُونَ لَهُمْ﴾، فإن أهل التأويل اختلفوا في تأويله.

فقال بعضهم: معنى ذلك: وفيكم سماعون لحديثكم لهم، يؤدُّونه إليهم، عيون لهم عليكم.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: وفيكم من يسمع كلامهم ويطيع لهم.

فعلى هذا التأويل: وفيكم أهل سمع وطاعة منكم، لو صحبوكم أفسدوهم عليكم، بتشيطهم إياهم عن السير معكم.

وأما على التأويل الأول، فإن معناه: وفيكم منهم سمَّاعون يسمعون حديثكم

لهم، فيبلغونهم ويؤدونه إليهم، عيون لهم عليكم.

قال أبو جعفر: وأولى التأويلين عندي في ذلك بالصواب، تأويل من قال: معناه: «وفيكم سماعون لحديثكم لهم، يبلغونه عنكم، عيون لهم»، لأن الأغلب من كلام العرب في قولهم: «سماع»، وصف من وصف به أنه سماع للكلام، كما قال الله جل ثناؤه في غير موضع من كتابه: ﴿سَمْعُونَ لِلْكَذِبِ﴾ [المائدة: ٤١]، واصفاً بذلك قومًا بسماع الكذب من الحديث. وأما إذا وصفوا الرجل بسماع كلام الرجل وأمره ونبيه وقبوله منه وانتهائه إليه فإنما تصفه بأنه: «له سامع ومطيع»، ولا تكاد تقول: «هو له سماع مطيع».

وأما قوله: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾، فإن معناه: والله ذو علم بمن يوجه أفعاله إلى غير وجوها، ويضعها في غير مواضعها، ومن يستأذن رسول الله ﷺ لعذر، ومن يستأذنه شكًا في الإسلام ونفاقًا، ومن يسمع حديث المؤمنين ليخبر به المنافقين، ومن يسمعه ليسرَّ بما سرَّ به المؤمنون، ويساء بما ساءهم، لا يخفى عليه شيء من سرائر خلقه وعلايتهم.

وقال الحافظ ابن كثير رحمه الله:

يقول تعالى: ﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ﴾ أي: معك إلى الغزو ﴿لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً﴾ أي: لكانوا تأهبوا له، ﴿وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ﴾ أي: أبغض أن يخرجوا معك قَدْرًا، ﴿فَتَبَطَّهْمُ﴾ أي: أخرجهم، ﴿وَقِيلَ أَفَعَدُّوا مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ أي: قدرًا.

ثم بين تعالى وجه كراهيته لخروجهم مع المؤمنين. فقال: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾ أي: لأنهم جناء مخذولون، ﴿وَلَا وَضَعُوا لَكُمْ خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ﴾ أي: ولا أسرعوا السير والمشى بينكم بالنميمة والبغضاء والفتنة، ﴿وَفِيكُمْ سَمْعُونَ لَهُمْ﴾ أي: مطيعون لهم ومستحسنون لحديثهم وكلامهم، يستنصحوهم وإن كانوا لا يعلمون حالهم، فيؤدي هذا إلى وقوع شر بين المؤمنين وفساد كبير.

وقال مجاهد، وزيد بن أسلم، وابن جرير: ﴿وَفِيكُمْ سَمْعُونَ لَهُمْ﴾ أي: عيون يسمعون لهم الأخبار وينقلونها إليهم.

وهذا لا يبقى له اختصاص بخروجهم معهم، بل هذا عام في جميع الأحوال، والمعنى الأول أظهر في المناسبة بالسياق، وإليه ذهب قتادة وغيره من المفسرين.

ثم أخبر تعالى عن تمام علمه فقال: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ فأخبر بأنه يعلم ما كان، وما يكون، وما لم يكن لو كان كيف كان يكون؛ ولهذا قال تعالى: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾ فأخبر عن حالهم كيف يكون لو خرجوا ومع هذا ما خرجوا، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٨] وقال تعالى: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ [الأنفال: ٢٣] وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا كُنَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ أَخْرِجُوا مِنْ دِينِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعْظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا﴾ [٦٦] وَإِذَا لَا تَأْتِنَهُمْ مِّنْ لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا [٦٧] وَلَهَدَيْنَهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا [٦٨] [النساء: ٦٦-٦٨] والآيات في هذا كثيرة.

قال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً﴾ أي لو أرادوا الجهاد لتأهبوا أهبة السفر. فتركهم الاستعداد دليل على إرادتهم التخلّف. ﴿وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ﴾ أي خروجهم معك. ﴿فَتَبَطَّهْمُ﴾ أي حبسهم عنك وخذلهم، لأنهم قالوا: إن لم يؤذن لنا في الجلوس أفسدنا وحرضنا على المؤمنين. ويدل على هذا أن بعده ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾. ﴿وَقِيلَ أَفَعُدُّوا مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾. قيل: هو من قول بعضهم لبعض. وقيل: هو من قول النبي ﷺ، ويكون هذا هو الإذن الذي تقدم ذكره. قيل: قال النبي ﷺ غضبا فأخذوا بظاهر لفظه وقالوا قد أذن لنا. وقيل: هو عبارة عن الخذلان، أي أوقع الله في قلوبهم القعود. ومعنى ﴿مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ أي مع أولي الضرر والعميان والزمنى والنسوان والصبيان.

وقوله تعالى: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾ هو تسليّة للمؤمنين في تخلف المنافقين عنهم. والخبال: الفساد والنميمة وإيقاع الاختلاف والأراجيف. وهذا استثناء منقطع، أي ما زادوكم قوة ولكن طلبوا الخبال. وقيل: المعنى لا يزيدونكم فيما يترددون فيه من الرأي إلا خبالا، فلا يكون الاستثناء منقطعا.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَوَضَّعُوا خِلَالَكُمْ﴾ المعنى لا أسرعوا فيما بينكم بالإفساد. والإيضاع، سرعة السير. وقال الراجز:

يَا لَيْتَنِي فِيهَا جَدَعٌ أَخْبُ فِيهَا وَأَضَعُ

يقال: وضع البعير إذا عدا، يضع وضعا ووضعوا إذا أسرع السير. وأوضعه حملته على العدو. وقيل: الإيضاع سير مثل الخبب. والخلل الفرجة بين الشيئين، والجمع الخلال، أي الفرج التي تكون بين الصفوف. أي لا وضعوا خلالكم بالنميمة وإفساد ذات البين. ﴿بَعُوثُكُمْ الْفِتْنَةَ﴾ مفعول ثان. والمعنى يطلبون لكم الفتنة، أي الإفساد والتحريض. ويقال: أبغيته كذا أعنته على طلبه، وبغيته كذا طلبته له. وقيل: الفتنة هنا الشرك. ﴿وَفِيكُمْ سَمْعُونَ لَهُمْ﴾ أي عيون لهم ينقلون إليهم الأخبار منكم. قتادة: وفيكم من يقبل منهم قولهم ويطيعهم. النحاس: القول الأول أولى، لأنه الأغلب من معنيه أن معنى سماع يسمع الكلام: ومثله ﴿سَمْعُونَ لِلْكَذِبِ﴾ [المائدة: ٤١]. والقول الثاني: لا يكاد يقال فيه إلا سامع، مثل قائل.

قال السعدي رحمه الله:

يقول تعالى مبينا أن المتخلفين من المنافقين قد ظهر منهم من القرائن ما يبين أنهم ما قصدوا الخروج بالكلية، وأن أعذارهم التي اعتذروها باطلة، فإن العذر هو المانع الذي يمنع إذا بذل العبد وسعه، وسعى في أسباب الخروج، ثم منعه مانع شرعي، فهذا الذي يعذر.

﴿وَأَمَّا هَؤُلَاءِ الْمُنَافِقُونَ فـ﴾ ﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً﴾ أي: لاستعدوا وعملوا ما يمكنهم من الأسباب، ولكن لما لم يعدوا له عدة، علم أنهم ما أرادوا الخروج.

﴿وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ﴾ معكم في الخروج للغزو ﴿فَتَبَطَّهْمُ﴾ قدرا وقضاء، وإن كان قد أمرهم وحثهم على الخروج، وجعلهم مقتدرين عليه، ولكن بحكمته ما أراد إعانتهم، بل خذلهم وثبطهم ﴿وَقِيلَ أَفَعُدُّوا مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ من النساء والمعدورين.

ثم ذكر الحكمة في ذلك فقال: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾ أي: نقصا. ﴿وَلَا وَضَعُوا يَدَافِكُكُمْ﴾ أي: ولسعوا في الفتنة والشر بينكم، وفرقوا جماعتكم المجتمعين، ﴿يَبْغُونَكُمْ الْفِتْنَةَ﴾ أي: هم حريصون على فتنكم وإلقاء العداوة بينكم.

﴿وَفِيكُمْ﴾ أناس ضعفاء العقول ﴿سَمَّعُونَ لَهُمْ﴾ أي: مستجيبون لدعوتهم يغترون بهم، فإذا كانوا هم حريصين على خذلانكم، وإلقاء الشر بينكم، وتثبيطكم عن أعدائكم، وفيكم من يقبل منهم ويستنصحهم. فما ظنك بالشر الحاصل من خروجهم مع المؤمنين، والنقص الكثير منهم، فلله ما أتم الحكمة حيث ثبطهم ومنعهم من الخروج مع عباده المؤمنين رحمة بهم، ولطفًا من أن يداخلهم ما لا ينفعهم، بل يضرهم.

﴿وَاللَّهُ عَلَيْهِمُ بِالْظَّالِمِينَ﴾ فيعلم عباده كيف يحذرونهم، ويبين لهم من المفسد الناشئة من مخالطتهم.

ثم ذكر أنه قد سبق لهم سوابق في الشر.

أهل النفاق يريدون الفتنة

س: **وضح معنى قوله تعالى: ﴿لَقَدْ ابْتِغَوْا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّىٰ جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ﴾ (٤٨).**

ج: المعنى - والله أعلم - لقد التمس هؤلاء المنافقون كل سبل الفتن لإلحاق الضرر بك وصرف الناس عنك يا رسول الله، وعن دينك الذي أرسلت به، وسعوا في قتلك، وسعوا في تخذيلك وسعوا في صرف الناس عنك، وسعوا في الطعن فيك وفي أهل بيتك، كما حدث في الإفك، وكما حدث يوم أحد من انصرافهم بثلاث الجيش وكما صنعوا من محالقات مع اليهود، وفي غير ذلك من المواطن سعيًا منهم للشر والتماسًا منهم للعيب وأثاروا عليك الفتن والقلاقل سعيًا لإطفاء هذا النور الذي جئت به من عند الله، ولكن خاب سعيهم وبطل عملهم، وأتم الله نوره وأظهر الله دينه وأعلى الله كلمته، وجعلها هي العليا وخذل الشرك وأهله، وأهل النفاق كارهون لكل ذلك.

وينحو هذا قال أهل العلم.

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره: لقد التمس هؤلاء المنافقون الفتنة لأصحابك، يا محمد، التمسوا صدهم عن دينهم وحرصوا على ردّهم إلى الكفر بالتخذيّل عنه، كفعل عبد الله بن أبي بك وبأصحابك يوم أحد، حين انصرف عنك بمن تبعه من قومه. وذلك كان ابتغاءهم ما كانوا ابتغوا لأصحاب رسول الله ﷺ من الفتنة من قبل. ويعني بقوله: ﴿مِنْ قَبْلُ﴾، من قبل هذا، ﴿وَقَلِّبُوا لَكَ الْأُمُورَ﴾، يقول: وأجالوا فيك وفي إبطال الدين الذي بعثك به الله الرأي بالتخذيّل عنك، وإنكار ما تأتيهم به، وردّه عليك، ﴿حَتَّىٰ جَاءَ الْحَقُّ﴾، يقول: حتى جاء نصر الله، ﴿وَوَظَّهَرَ أَمْرُ اللَّهِ﴾، يقول: وظهر دين الله الذي أمر به وافترضه على خلقه وهو الإسلام ﴿وَهُمْ كَرِهُوا﴾ يقول: والمنافقون بظهور أمر الله ونصره إياك كارهون. وكذلك الآن، يظهر الله ويظهر دينه على الذين كفروا من الروم وغيرهم من أهل الكفر به، وهم كارهون.

قال ابن كثير رحمه الله:

يقول تعالى محرضاً لنبيه ﷺ على المنافقين: ﴿لَقَدْ ابْتَغَوْا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلِّبُوا لَكَ الْأُمُورَ﴾ أي: لقد أعملوا فكرهم وأجالوا آراءهم في كيدك وكيد أصحابك وخذلان دينك وإخماله مدة طويلة، وذلك أول مقدم النبي ﷺ المدينة رمته العرب عن قوس واحدة، وحاربتهم يهود المدينة ومنافقوها، فلما نصره الله يوم بدر وأعلى كلمته، قال عبد الله بن أبي وأصحابه: هذا أمر قد توجّه. فدخلوا في الإسلام ظاهراً، ثم كلما أعز الله الإسلام وأهله غاظهم ذلك وساءهم؛ ولهذا قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ جَاءَ الْحَقُّ وَوَضَّهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَرِهُوا﴾.

قال السعدي رحمه الله:

﴿لَقَدْ ابْتَغَوْا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ﴾ أي: حين هاجرتهم إلى المدينة، فبدلوا الجهد، ﴿وَقَلِّبُوا لَكَ الْأُمُورَ﴾ أي: أداروا الأفكار، وأعملوا الحيل في إبطال دعوتكم وخذلان دينكم، ولم يقصروا في ذلك، ﴿حَتَّىٰ جَاءَ الْحَقُّ وَوَضَّهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَرِهُوا﴾ فبطل كيدهم واضمحل باطلهم، فحقيق بمثل هؤلاء أن يحذر الله عباده المؤمنين

منهم، وأن لا يبالي المؤمنون، بتخلفهم عنهم.

قال ابن الجوزي في زاد المسير:

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ ابْتِغُوا الْفِتْنَةَ﴾ في الفتنة قولان:

أحدهما: الشر قاله ابن عباس. والثاني: الشرك قاله مقاتل.

قوله تعالى: ﴿مَنْ قَبِلْ﴾ أي: من قبل غزوة تبوك.

وفي قوله: ﴿وَكَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ﴾ خمسة أقوال:

أحدها: بغوا لك الغوائل. قاله ابن عباس. وقيل: إن اثني عشر رجلا من

المنافقين وقفوا على طريقه ليلا ليفتكوا به فسلمه الله منهم.

والثاني: احتالوا في تشتت أمرك وإبطال دينك. قاله أبو سليمان الدمشقي. قال ابن

جرير: وذلك كانصراف ابن أبي يوم أحد بأصحابه.

والثالث: أنه قولهم ما ليس في قلوبهم.

والرابع: أنه ميلهم إليك في الظاهر وممالة المشركين في الباطن.

والخامس: أنه حلفهم بالله ﴿لَوْ أَسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ﴾ ذكر هذه الأقوال الثلاثة

الماوردي.

قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ جَاءَ الْحَقُّ﴾ يعني: النصر ﴿وَوَظَّهَرَ أَمْرُ اللَّهِ﴾ يعني الإسلام.

اس: من القائل: ﴿أَذْنَنِي وَلَا تَفْتِنَنِي﴾؟

ج: أكثر أهل العلم على أن قائل ذلك هو الجذ بن قيس، وقد وردت بذلك حملة

من المراسيل أراها تصح بمجموعها منها:

ما أورده الطبري من طريق محمد بن إسحاق، عن الزهري، ويزيد بن رومان، وعبد

الله بن أبي بكر، وعاصم بن عمر بن قتادة وغيرهم قال: قال رسول الله ﷺ ذات يوم وهو

في جهازه، للجد بن قيس أخي بني سلمة: «هل لك يا جدُّ العام في جلاد بني الأصفر؟»

فقال: يا رسول الله، أو تأذن لي ولا تفتني، فوالله لقد عرف قومي ما رجل أشدَّ عجبًا

بالنساء مني، وإني أخشى إن رأيت نساء بني الأصفر أن لا أصبر عنهن! فأعرض عنه

رسول الله ﷺ وقال: «قد أذنت لك»، ففي الجد بن قيس نزلت هذه الآية: ﴿وَمِنْهُمْ

مَنْ يَكْفُلُ أَذْنَ لِي وَلَا تَفْتِنَنِي﴾، الآية، أي: إن كان إنما يخشى الفتنة من نساء بني

الأصفر وليس ذلك به، فما سقط فيه من الفتنة بتخلفه عن رسول الله ﷺ والرغبة بنفسه عن نفسه، أعظم.

وعند الطبري أيضًا عن مجاهد في قول الله: ﴿أُذِّنْ لِي وَلَا تَفْتِنِّي﴾، قال: قال رسول الله ﷺ: «اغزُوا تبوك، تغنموا بنات الأصفر ونساء الروم!» فقال الجَدُّ: ائذن لنا، ولا تفتنَّ بالنساء.

وبإسناد صحيح^(١) عن ابن زيد في قوله: ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ يَكْفُلُ أُذُنَ لِي وَلَا تَفْتِنِّي﴾، قال: هو رجل من المنافقين يقال له جدُّ بن قيس، فقال له رسول الله ﷺ: «العام نغزو بني الأصفر ونتخذ منهم سراريَّ ووُصفاء»، فقال: أي رسول الله، ائذن لي ولا تفتني، إن لم تأذن لي افتنت وقعدت! وغضب رسول الله ﷺ، فقال الله: ﴿أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾.

وثم مراسيل أخر في هذا الصدد.

ا س: ما المراد بقوله: ﴿وَلَا تَفْتِنِّي﴾؟

ج: لأهل العلم أقوال في ذلك:

أحدها: لا تكسبني الإثم ولا توقعني فيه بأمرك لي بالخروج وهو غير متيسر لي.

الثاني: لا تصرفني عن شغلي.

الثالث: لا توقعني في فتنة النساء وارتكاب المحرم معهن.

ا س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ يَكْفُلُ أُذُنَ لِي وَلَا تَفْتِنِّي﴾ أَلَا فِي الْفِتْنَةِ

سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٤٩﴾.

ج: المعنى - والله أعلم - ومن أهل النفاق من يقول ائذن لي في البقاء في المدينة وعدم الخروج معك في الغزو ولا تجعلني أفتن بالنساء فإني أخشى على نفسي من نساء بني الأصفر، يعني: نساء الروم، فدعني بالمدينة حتى لا أفتن بالنساء، كذا قالوا، ولكنهم بهذا القول سقطوا في الفتن فقد وقعوا في الإثم والعصيان بطلبهم التخلف عنك في الغزو، وقد صُرفوا عن الخير بسبب قيلهم هذا، ثم إن موعدهم لآلى

(١) وهو مرسل، وابن زيد ضعيف، لكنها مجموعة من المراسيل تصحح لمجموعها.

الجحيم، فجهمنم محيطه بهم كما قال تعالى: ﴿أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا...﴾.

قال الطبري رحمه الله:

وذكر أن هذه الآية نزلت في الجد بن قيس.

ويعني جل ثناؤه بقوله: ﴿وَمَنْهُمْ﴾، ومن المنافقين، ﴿مَنْ يَقُولُ أَتَذَن لِّي﴾، أقم فلا أشخص معك، ﴿وَلَا تَفْتِنِّي﴾، يقول: ولا تبتلني برؤية نساء بني الأصفر وبناتهم، فإنني بالنساء مغرم، فأخرج وأثم بذلك.

وقال رحمه الله:

وقوله: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾، يقول: وإن النار لمحيطه بمن كفر بالله وجحد آياته وكذب رسله، محدقة بهم، جامعة لهم جميعاً يوم القيامة. يقول: فكفى للجد بن قيس وأشكاله من المنافقين بصليها خزيًا.

وقال القرطبي رحمه الله:

﴿أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا﴾ أي في الإثم والمعصية وقعوا. وهي النفاق والتخلف عن النبي ﷺ. ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ أي مسيرهم إلى النار، فهي تحدد بهم.

وقال السعدي رحمه الله:

أي: ومن هؤلاء المنافقين من يستأذن في التخلف، ويعتذر بعذر آخر عجيب، فيقول: ﴿أَتَذَن لِّي﴾ في التخلف ﴿وَلَا تَفْتِنِّي﴾ في الخروج، فإنني إذا خرجت، فرأيت نساء بني الأصفر لا أصبر عنهن، كما قال ذلك الجد بن قيس.

ومقصوده في قلبه -قبحه الله- الرياء والنفاق ويعبر بلسانه بأن مقصودي مقصود حسن، فإن في خروجي فتنة وتعرضا للشر، وفي عدم خروجي عافية وكفا عن الشر.

قال الله تعالى مبينا كذب هذا القول: ﴿أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا﴾ فإنه على تقدير صدق هذا القائل في قصده، فإن في التخلف مفسدة كبرى وفتنة عظيمة محققة، وهي معصية الله ومعصية رسوله، والتجروء على الإثم الكبير، والوزر العظيم، وأما الخروج فمفسدة قليلة بالنسبة للتخلف، وهي متوهمة، مع أن هذا القائل قصده التخلف لا غير، ولهذا توعدهم الله بقوله: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ

(٢٤١) أحمر
أسود

d ٢٤١ b السَّهِيلُ لِأَوَّلِ النَّزِيلِ d سُورَةُ النَّازِعَاتِ b

يَا كَافِرِينَ ﴿١﴾ لَيْسَ لَهُمْ عَنْهَا مَفْرٌ وَلَا مَنَاصٌ، وَلَا فَكَاكٌ، وَلَا خَلَاصٌ.

سعادة أهل النفاق بمصائب المسلمين

س: وضع معنى قوله تعالى: ﴿إِنْ تُصِيبَكَ حَسَنَةٌ فُسْوَهُمْ وَإِنْ تُصِيبَكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرًا مِنْ قَبْلٍ وَيَتَوَلَّوْهُمْ فَرِحُوا﴾.

ج: المعنى - والله أعلم - إن تصيبك أمور تسعد بها وتفرح لها وينشرح بها صدرك وتنشرح بها صدور المؤمنين كالفتوحات التي تُفتح لك وكدخول الناس في دين الله أفواجًا والغنائم التي تغنمها إلى غير ذلك من وجوه الخير التي يرزقك الله إياها، يحزن لذلك أهل النفاق ويسوؤهم ذلك ولا يسرهم، وإن تحل بك مصيبة من مرض أو فقر أو تسلط عدو أو غير ذلك يفرحوا لذلك وينصرفوا عنك فرحين قائلين قد أخذنا أمرنا، أخذنا احتياطاتنا من قبل.

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره لنبية محمد ﷺ: يا محمد، إن يصيبك سرورٌ بفتح الله عليك أرض الروم في غزاتك هذه، يسؤ الجد بن قيس ونظراءه وأشياهم من المنافقين، وإن تصيبك مصيبة بفلول جيشك فيها، يقول الجد ونظراؤه: ﴿قَدْ أَخَذْنَا أَمْرًا مِنْ قَبْلٍ﴾، أي: قد أخذنا حذرنا بتخلفنا عن محمد، وترك اتباعه إلى عدوه، ﴿مِنْ قَبْلٍ﴾، يقول: من قبل أن تصيبه هذه المصيبة، ﴿وَيَتَوَلَّوْهُمْ فَرِحُوا﴾، يقول: ويرتدوا عن محمد وهم فرحون بما أصاب محمدًا وأصحابه من المصيبة، بفلول أصحابه وانهمزاهم عنه، وقتل من قُتل منهم.

وقال ابن كثير رحمه الله:

يعلم ع نبيه بعداوة هؤلاء له؛ لأنه مهما أصابه من ﴿حَسَنَةٍ﴾ أي: فتح ونصر وظفر على الأعداء، مما يسره ويسر أصحابه، ساءهم ذلك، ﴿وَإِنْ تُصِيبَكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرًا مِنْ قَبْلٍ﴾ أي: قد احترزنا من متابعتنا من قبل هذا، ﴿وَيَتَوَلَّوْهُمْ فَرِحُوا﴾.

وقال القرطبي رحمه الله:

قوله تعالى: ﴿إِنْ تُصِيبَكَ حَسَنَةٌ فُسْوَهُمْ﴾ شرط ومجازاة، وكذا ﴿وَإِنْ تُصِيبَكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرًا مِنْ قَبْلٍ﴾ عطف عليه. والحسنة: الغنيمة

والظفر. والمصيبة الانهزام. ومعنى قولهم: ﴿أَخَذْنَا أَمْرًا مِنْ قَبْلُ﴾ أي احتطنا لأنفسنا، وأخذنا بالحزم فلم نخرج إلى القتال. ﴿وَيَكْتُولُوا﴾ أي عن الإيمان. ﴿وَهُمْ فَرِحُونَ﴾ أي معجبون بذلك.

وقال ابن الجوزي في زاد المسير:

قوله تعالى: ﴿إِنْ تُصِيبَكَ حَسَنَةٌ﴾ أي: نصر وغنيمة. والمصيبة: القتل والهزيمة. ﴿يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرًا﴾ أي: عملنا بالحزم فلم نخرج. ﴿وَيَكْتُولُوا وَهُمْ فَرِحُونَ﴾ بمصائبك وسلامتهم.

وقال السعدي رحمه الله:

يقول تعالى مبينا أن المنافقين هم الأعداء حقاً، المبغضون للدين صرفاً: ﴿إِنْ تُصِيبَكَ حَسَنَةٌ﴾ كنصر وإدالة على العدو ﴿تَسُوهُمْ﴾ أي: تحزنهم وتغمهم. ﴿وَإِنْ تُصِيبَكَ مُصِيبَةٌ﴾ كإدالة العدو عليك ﴿يَقُولُوا﴾ متبجحين بسلامتهم من الحضور معك. ﴿قَدْ أَخَذْنَا أَمْرًا مِنْ قَبْلُ﴾ أي: قد حذرنا وعملنا بما ينجينا من الوقوع في مثل هذه المصيبة.

﴿وَيَكْتُولُوا وَهُمْ فَرِحُونَ﴾ بمصيبتك، وبدعم مشاركتهم إياك فيها.

الس: وضح معنى قوله تعالى: ﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ

فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (٥١).

ج: المعنى - والله تعالى أعلم - قل: يا رسول الله لهؤلاء الشامتين الذين يتربصون بكم الدوائر، ويسعدوا لحلول المصائب بكم ويحزنوا لكل خير أصابكم، قل لهم: ﴿لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا﴾ في اللوح المحفوظ، قبل أن يخلقنا فالأمر مقدرة مكتوبة، وهو **متولي نصرنا** وعلى الله فليعتمد المؤمنون، أي: فاعتمدوا يا أهل الإيمان على ربكم واطلبوا منه النصر على عدوكم.

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره مؤدباً نبيه محمداً ﷺ: ﴿قُلْ﴾، يا محمد، لهؤلاء المنافقين الذين

تخلفوا عنك: ﴿لَنْ يُصِيبَنَا﴾، أيها المرتابون في دينهم، ﴿إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا﴾، في اللوح المحفوظ، وقضاه علينا، ﴿هُوَ مَوْلَانَا﴾، يقول: هو ناصرنا على أعدائه، ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾، يقول: وعلى الله فليتكمل المؤمنون، فإنهم إن يتوكلوا عليه، ولم يرجوا النصر من عند غيره، ولم يخافوا شيئاً غيره، يكفهم أمورهم، وينصرهم على من بغاهم وكادهم.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

أرشد الله تعالى رسوله، ﷺ إلى جوابهم في عداوتهم هذه التامة، فقال: ﴿قُلْ﴾ أي: لهم ﴿لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا﴾ أي: نحن تحت مشيئة الله، وقدره، ﴿هُوَ مَوْلَانَا﴾ أي: سيدنا وملجؤنا ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ أي: ونحن متوكلون عليه، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

وقال القرطبي:

قوله تعالى: ﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا﴾ قيل: في اللوح المحفوظ. وقيل: ما أخبرنا به في كتابه من أنا إما أن نظفر فيكون الظفر حسنى لنا، وإما أن نقتل فتكون الشهادة أعظم حسنى لنا. والمعنى كل شيء بقضاء وقدر. وقد تقدم في «الأعراف» أن العلم والقدر والكتاب سواء. ﴿هُوَ مَوْلَانَا﴾ أي ناصرنا. والتوكل تفويض الأمر إليه.

وقال السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ:

قال تعالى رادا عليهم في ذلك ﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا﴾ أي: ما قدره وأجراه في اللوح المحفوظ. ﴿هُوَ مَوْلَانَا﴾ أي: متولي أمورنا الدنيوية والدنيوية، فعلينا الرضا بأقداره وليس في أيدينا من الأمر شيء. ﴿وَعَلَى اللَّهِ﴾ وحده ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ أي: ليعتمدوا عليه في جلب مصالحهم ودفع المضار عنهم، ويثقوا به في تحصيل مطلوبهم، فلا خاب من توكل عليه، وأما من توكل على غيره، فإنه مخذول غير مدرك لما أمل.

وقال ابن الجوزي في زاد المسير:

قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا﴾ فيه ثلاثة أقوال:

أحدهما: ما قضى علينا. قاله ابن عباس.

والثاني: ما بين لنا في كتبه من أنا نظفر فيكون ذلك حسنى لنا أو نقتل فتكون الشهادة حسنى لنا أيضا. قاله الزجاج.

والثالث: لن يصيبنا في عاقبة أمرنا إلا ما كتب الله لنا من النصر الذي وعدنا ذكره الماوردي.

قوله تعالى: ﴿هُوَ مَوْلَانَا﴾ أي: ناصرنا.

اس: وضح معنى قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بَأْذِنًا فَرَبِّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ﴾.

ج: المعنى - والله أعلم - قل يا رسول الله لهؤلاء المنافقين الذين يتربصون بكم الدوائر ويتظرون بكم المصائب ويسعدهم ما يحل بك من المكروه، ويحزنهم ما يفتح الله به عليك، قل لهؤلاء ماذا عساكم أن تنتظروا أن يحل بنا، إن الذي تنتظرون أن يحل بنا أحد أمرين وكلاهما حسن، إما النصر والفوز والفتح، وإما الشهادة في سبيل الله، وكل ذلك حسنٌ ونحن به راضون، أما نحن فننتظر أن يحل بكم عذاب من عند الله بالموت أو الصواعق أو الخسف أو القحط أو غير ذلك من صور العذاب، أو أن يُمكننا الله منكم ومن رقابكم فنقتلكم فانظروا، ولنتنظر نحن الآخرون لينتظر كلٌ منا قضاء الله فيه.

وينحو هذا قال العلماء.

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: ﴿قُلْ﴾، يا محمد، لهؤلاء المنافقين الذين وصفتُ لك صفتهم وبينت لك أمرهم: هل تنتظرون بنا إلا إحدى الخلتين اللتين هما أحسن من غيرهما، إما ظفراً بالعدو وفتحاً لنا بغلبتناهم، ففيها الأجر والغنيمة والسلامة، وإما قتلاً من عدونا لنا، ففيه الشهادة، والفوز بالجنة، والنجاة من النار. وكلتاها مما نُحِبُّ ولا نكره، ﴿وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ﴾، يقول: ونحن ننتظر بكم أن يصيبكم الله بعقوبة من عنده عاجلة، تهلككم،

﴿أَوْ بِأَيْدِينَا﴾، فنقتلكم، ﴿فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ﴾، يقول: فانتظروا إنا معكم منتظرون ما الله فاعل بنا، وما إليه صائرُ أمر كلِّ فريقٍ منَّا ومنكم.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ:

يقول تعالى: ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد: ﴿هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا﴾ أي: تنتظرون بنا ﴿إِلَّا أَحَدَى الْحُسَيْنَيْنِ﴾ شهادة أو ظفرٌ بكم. قاله ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، وغيرهم. ﴿وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ﴾ أي: ننتظر بكم ﴿أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا﴾ أي: ننتظر بكم هذا أو هذا، إما أن يصيبكم الله بقارعة من عنده أو بأيدينا، بسبي أو بقتل، ﴿فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ﴾.

وقال السعدي رَحِمَهُ اللهُ:

أي: قل للمنافقين الذين يتربصون بكم الدوائر: أي شيء تربصون بنا؟ فإنكم لا تربصون بنا إلا أمرا فيه غاية نفعنا، وهو إحدى الحسينين، إما الظفر بالأعداء والنصر عليهم ونيل الثواب الأخروي والديني. وإما الشهادة التي هي من أعلى درجات الخلق، وأرفع المنازل عند الله.

وأما تربصنا بكم -يا معشر المنافقين- فنحن نتربص بكم، أن يصيبكم الله بعذاب من عنده، لا سبب لنا فيه، أو بأيدينا، بأن يسلطنا عليكم فنقتلكم. ﴿فَتَرَبَّصُوا﴾ بنا الخير ﴿إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ﴾ بكم الشر.

نفقات المنافقين غير مقبولة

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يُتَقَبَلَ مِنْكُمْ إِنْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾.

ج: المعنى - والله أعلم - قل يا رسول الله لهؤلاء المنافقين الذين اعتذروا عن الخروج معك للغزو في سبيل الله، وهم كذبة في ادعائهم واعتذارهم قل لهؤلاء أنفقوا من أموالكم ما شئتم أنفقوا مختارين أو مكرهين فلن تُقبل منكم تلك النفقات ولن يثيبكم الله عليها في الآخرة، ذلك لكونكم كنتم قوماً فاسقين أي: خارجين عن الطاعة، والمراد بالفسق هنا الكفر بدليل الآية التي بعدها. وستأتي.

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: ﴿قُلْ﴾، يا محمد، لهؤلاء المنافقين: أنفقوا كيف شئتم أموالكم في سفركم هذا وغيره، وعلى أي حال شئتم، من حال الطوع والكره، فإنكم إن تنفقوها لن يتقبل الله منكم نفقاتكم، وأنتم في شك من دينكم، وجهل منكم بنبوة نبيكم، وسوء معرفة منكم بثواب الله وعقابه، ﴿إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾، يقول: خارجين عن الإيمان بربكم.

وخرج قوله: ﴿قُلْ﴾، مخرج الأمر، ومعناه الجزاء، والعرب تفعل ذلك في الأماكن التي يحسن فيها «إن»، التي تأتي بمعنى الجزاء، كما قال جل ثناؤه: ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٨٠]، فهو في لفظ الأمر، ومعناه الجزاء، ومنه قول الشاعر:

أَسِيئِي بِنَا أَوْ أَحْسِنِي لَا مَلُومَةٌ لَدَيْنَا، وَلَا مَقْلِيَّةٌ إِنْ ثَقَلَتْ

فكذلك قوله: ﴿قُلْ﴾، أنفقوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا، إنما معناه: إن تنفقوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لن يُتَقَبَلَ منكم.

|

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقَبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَتُهُمْ إِلَّا أَنْهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَذِبُونَ﴾.

ج: المعنى - والله تعالى أعلم - وسبب عدم قبول نفقات هؤلاء المنافقين التي ينفقونها هو كفرهم بالله ﷻ وكفرهم برسول الله ﷺ فهم يجحدون وحدانية الله ﷻ، وكذا يكذبون رسوله ﷺ، ويضمرون ذلك في قلوبهم، وإن أظهره بألستهم، فهم وإن أنفقوا فنفتهم ليست بخالصة لوجه الله، وإنما يراءون بها ويدفعون بها عن أنفسهم في الدنيا، وكذا شأنهم مع الصلاة، فإنهم لا يأتون الصلاة إلا وهم كسالى، يأتونها خجلاً من المسلمين حتى يدفعوا عن أنفسهم السيف، أما إذا لم يشهدوا جماعة فإنهم لا يؤدون تلك الصلوات في بيوتهم، فصلواتهم إنما هي رياء وسمعة فقط، حتى يقال إنهم يصلون، ولكنهم في حقيقة الأمر لا يريدون الصلاة، وكذا لا ينفقون إلا عن كراهية، ليس عن حبٍّ للإِنفاق ولا رجاءٍ للثواب.

وبنحو هذا قال أهل العلم.

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره: وما منع هؤلاء المنافقين، يا محمد، أن تقبل منهم نفقاتهم التي ينفقونها في سفرهم معك، وفي غير ذلك من السبل، إلا أنهم كفروا بالله وبرسوله، ف﴿أَن﴾ الأولى في موضع نصب، والثانية في موضع رفع، لأن معنى الكلام: ما منع قبول نفقاتهم إلا كفرهم بالله، ﴿وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى﴾، يقول: لا يأتونها إلا متثاقلين بها. لأنهم لا يرجون بأدائها ثواباً، ولا يخافون بتركها عقاباً، وإنما يقيمونها مخافةً على أنفسهم بتركها من المؤمنين، فإذا آمنوهم لم يقيموها، ﴿وَلَا يُنْفِقُونَ﴾، يقول: ولا ينفقون من أموالهم شيئاً، ﴿إِلَّا وَهُمْ كَدِرْهُونَ﴾، أن ينفقونه في الوجه الذي ينفقونه فيه، مما فيه تقوية للإسلام وأهله.

وقال ابن كثير رحمه الله:

أخبر تعالى عن سبب ذلك، وهو أنهم لا يتقبل منهم، ﴿إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ أي: والأعمال إنما تصح بالإيمان، ﴿وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى﴾ أي: ليس لهم قصد صحيح، ولا همة في العمل، ﴿وَلَا يُنْفِقُونَ﴾ نفقة ﴿إِلَّا وَهُمْ كَدِرْهُونَ﴾.

وقد أخبر الصادق المصدوق: «أن الله لا يمل حتى تملوا»، و«أنه طيب لا يقبل إلا

طيباً؛ فلهذا لا يتقبل الله من هؤلاء نفقة ولا عملاً لأنه إنما يتقبل من المتقين.

قال السعدي رحمه الله:

﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَتُهُمْ إِلَّا أَنْهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ والأعمال كلها شرط قبولها الإيمان، فلهؤلاء لا إيمان لهم ولا عمل صالح، حتى إن الصلاة التي هي أفضل أعمال البدن، إذا قاموا إليها قاموا كسالى، وقد بين الله ذلك فقال: ﴿وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى﴾ أي: متثاقلون، لا يكادون يفعلونها من ثقلها عليهم. ﴿وَلَا يَنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَرِهُونَ﴾ من غير انشراح صدر وثبات نفس، ففي هذا غاية الذم لمن فعل مثل فعلهم، وأنه ينبغي للعبد أن لا يأتي الصلاة إلا وهو نشيط البدن والقلب إليها، ولا ينفق إلا وهو منشراح الصدر ثابت القلب، يرجو ذخرها وثوابها من الله وحده، ولا يتشبه بالمنافقين.

النهي عن الاغترار بالدنيا وما أوتاه المنافقون

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ ﴿٥٥﴾

ج: لأهل العلم في ذلك قولان:

أحدهما: أن الآية فيها تقديم وتأخير، والمعنى: فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم في الحياة الدنيا إنما يريد الله ليعذبهم بها في الآخرة.

الثاني: فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم إنما يريد الله ليعذبهم بها في الحياة الدنيا تكون عليهم تلك الأموال في الدنيا عذاباً، وكم من شخص معذب في الدنيا بسبب أمواله بصور متعددة من العذاب.

أما قوله: ﴿وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ﴾ أي: تخرج أرواحهم عند موتهم، وهم كافرون، أي: أنهم يموتون حين يموتون على الكفر والعياذ بالله.

وبصورة أوضح أقول - وبالله التوفيق -:

فلا تعجبك يا رسول الله هذه الأموال التي متع الله ﷺ بها أهل النفاق هؤلاء، فقد كانوا أثرياء وسع الله عليهم في الدنيا، ولا تغتر بهذه الأموال، ولا تلتفت أيضاً إلى ما متعوا به من البنين، فقد رزقهم الله أولاد، فإن ذلك كله متاع زائل ونعيم فاني وإنما متعهم الله بهذا المال، وكذا بالأولاد، لتكون عليهم عذاباً في دنياهم، فكم من شخص معه أموال وعنده أولاد، وكل ذلك عذاب عليه يُعذب عند جمع المال، ويعذب عند إنفاقه وتحدث صراعات بينه وبين أولاده وبين الناس بسبب المال، وتحدث صراعات بين أولاده بسبب المال ثم إنه أيضاً يكلف فيه بتكاليف شرعية كالزكوات وغيرها، فلا يفعل فيستجلب لنفسه بذلك عذاباً فلا تغتر يا رسول الله بهذا كله، فإن الله ﷻ يجعل المال والأولاد عذاباً على هؤلاء المنافقين، وكذا يريد لهم، والعياذ بالله - الموت على الكفر أن تخرج أرواحهم من أجسادهم حينما تخرج، على الكفر.

وبنحو هذا قال أهل العلم.

قال الطبري رحمه الله:

اختلف أهل التأويل في تأويل ذلك.

فقال بعضهم: معناه: فلا تعجبك، يا محمد، أموال هؤلاء المنافقين ولا أولادهم في الحياة الدنيا، إنما يريد الله ليعذبهم بها في الآخرة. وقال: معنى ذلك التقديم، وهو مؤخر.

وأورد بإسناد حسن عن قتادة قوله: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ﴾، قال: هذه من تقاديم الكلام، يقول: لا تعجبك أموالهم ولا أولادهم في الحياة الدنيا، إنما يريد الله ليعذبهم بها في الآخرة.

قال الطبري:

وقال آخرون: بل معنى ذلك: إنما يريد الله ليعذبهم بها في الحياة الدنيا، بما ألزمهم فيها من فرائضه.

وأورد الطبري بسندٍ ضعيف عن الحسن: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾، قال: بأخذ الزكاة والنفقة في سبيل الله.

وبإسناد صحيح عن ابن زيد في قوله: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾، بالمصائب فيها، هي لهم عذابٌ، وهي للمؤمنين أجرٌ.

قال أبو جعفر^(١): وأولى التأويلين بالصواب في ذلك عندنا، التأويل الذي ذكرنا عن الحسن. لأن ذلك هو الظاهر من التنزيل، فصرف تأويله إلى ما دلَّ عليه ظاهره أولى من صرفه إلى باطنٍ لا دلالة على صحته.

وإنما وجه من وجه ذلك إلى التقديم وهو مؤخر، لأنه لم يعرف لتعذيب الله المنافقين بأموالهم وأولادهم في الحياة الدنيا، وجهًا يوجهه إليه، وقال: كيف يعذبهم بذلك في الدنيا، وهي لهم فيها سرور؟ وذهب عنه توجيهه إلى أنه من عظيم العذاب عليه إلزامه ما أوجب الله عليه فيها من حقوقه وفرائضه، إذ كان يلزمه ويؤخذ منه وهو غير طيب النفس، ولا راجٍ من الله جزاءً، ولا من الآخذ منه حمدًا ولا شكرًا، على ضجرٍ منه وكُرْهٍ.

وأما قوله: ﴿وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾، فإنه يعني وتخرج أنفسهم، فيموتوا

(١) هو الطبري.

على كفرهم بالله، وجحودهم نبوة نبي الله محمد ﷺ.

قال ابن كثير رحمه الله:

يقول تعالى لرسوله، ﷺ: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ حَيْرٌ وَبَاقٍ﴾.

[طه: ١٣١]

وقال: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِنْ مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾.

[المؤمنون: ٥٥، ٥٦]

وقوله: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ قال الحسن البصري: بزكاتها، والنفقة منها في سبيل الله.

وقال قتادة: هذا من المقدم والمؤخر، تقديره: فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم، في الحياة الدنيا إنما يريد الله ليعذبهم بها في الآخرة.

واختار ابن جرير قول الحسن، وهو القول القوي الحسن.

وقوله: ﴿وَتَرَهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ أي: ويريد أن يميتهم حين يميتهم على الكفر، ليكون ذلك أنكى لهم وأشد لعذابهم، عياذا بالله من ذلك، وهذا يكون من باب الاستدراج لهم فيما هم فيه.

قال ابن الجوزي رحمه الله (زاد المسير):

قوله تعالى: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ﴾ أي: لا تستحسن ما أنعمنا به عليهم من الأموال والأولاد. **وفي معنى الآية أربعة أقوال:**

أحدها: فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم في الحياة الدنيا إنما يريد الله ليعذبهم بها في الآخرة. قاله ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، والسدي، وابن قتيبة، فعلى هذا في الآية تقديم وتأخير ويكون تعذيبهم في الآخرة بما صنعوا في كسب الأموال وإنفاقها.

والثاني: أنها على نظمها، والمعنى: ليعذبهم بها في الدنيا بالمصائب في الأموال والأولاد، فهي لهم عذاب، وللمؤمنين أجر. قاله ابن زيد.

والثالث: أن المعنى ليعذبهم بأخذ الزكاة من أموالهم والنفقة في سبيل الله قاله الحسن فعلى هذا ترجع الكناية إلى الأموال وحدها.

والرابع: ليعذبهم بسبي أولادهم وغنيمة أموالهم ذكره الماوردي فعلى هذا تكون في المشركين.

قوله تعالى: ﴿وَتَرَهَقَ أَنْفُسُهُمْ﴾ أي: تخرج يقال زهق السهم إذا جاوز الهدف.

وقال السعدي رحمه الله:

يقول تعالى: فلا تعجبك أموال هؤلاء المنافقين ولا أولادهم، فإنه لا غبطة فيها، وأول بركايتها عليهم أن قدموها على مرضى ربهم، وعصوا الله لأجلها ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ والمراد بالعذاب هنا، ما ينالهم من المشقة في تحصيلها، والسعي الشديد في ذلك، وهم القلب فيها، وتعب البدن.

فلو قابلت لذاتهم فيها بمشقاتهم، لم يكن لها نسبة إليها، فهي -لما ألهمتهم عن الله وذكره- صارت وبالا عليهم حتى في الدنيا.

ومن وبالها العظيم الخطر، أن قلوبهم تتعلق بها، وإرادتهم لا تتعدها، فتكون منتهى مطلوبهم وغاية مرغوبهم ولا يبقى في قلوبهم للأخرة نصيب، فيوجب ذلك أن ينتقلوا من الدنيا ﴿وَتَرَهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾.

فأي عقوبة أعظم من هذه العقوبة الموجبة للشقاء الدائم والحسرة الملازمة.

ا س: وضع معنى قوله تعالى: ﴿وَيَخْلِفُونَ بِاللَّهِ إِيَّاهُمْ لِيَمْنَكُمْ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾

يَقْرُونَ ﴿٨﴾ لَوْ يَخَذُلُوكَ مُلْجَأًا أَوْ مَفْزَعًا لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿٩﴾﴾.

ج: المعنى - والله تعالى أعلم - أن أهل النفاق هؤلاء يقسمون لكم أيما مغلظة معقدة بالله ﷻ إنهم على الإسلام والإيمان وشأنكم وشأنهم واحد، وهم وأنتم شيء واحد فيكذبهم الله ﷻ بقوله: ﴿وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ ليسوا منكم يا أهل الإيمان، وليسوا على طريقتم، ولكنهم قوم يخافونكم ويرهبونكم فلذلك حلفوا وأقسموا اتقاء لكم كما قال تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً﴾ [المجادلة: ١٦] أي: وقاية، ثم بين الله كراحتهم لك وعدم حبهم لكم بقوله: ﴿لَوْ يَخَذُلُوكَ مُلْجَأًا﴾ أي: مكان يلجئون إليه بعيداً عنكم، فإنهم لا يحبونكم، ولا يريدون أن يروكم وقد انتصرتهم، وقويت شوكتكم، وعلت كلمتكم، فلذا لو وجدوا ملجأ للجوءوا إليه ولهربوا إليه، وكذا لو وجدوا مغارة في الجبل يهربون إليها لهربوا إليها، وكذا لو وجدوا نفقاً في الأرض، أو سرباً في

الأرض لهربوا إليه، ولكن هذه أمورٌ شقت عليهم لتدخلهم بينكم وعدم الاستغناء عن أموالهم وتجاراتهم، وإلا فمجالستهم لكم عن كراهية واختلاطهم بكم عن اضطرارٍ وصحبتهم لكم عن مداراة، هذه حالهم وذاك شأنهم.

وبنحو هذا قال أهل العلم.

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره: ويحلف بالله لكم، أيها المؤمنون، هؤلاء المنافقون كذبًا وباطلاً خوفاً منكم: ﴿إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ﴾ في الدين والملة. يقول الله تعالى، مكذباً لهم: ﴿وَمَا هُمْ مِنْكُمْ﴾، أي ليسوا من أهل دينكم وملتكم، بل هم أهل شكٍ ونفاقٍ، ﴿وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرُقُونَ﴾، يقول: ولكنهم قوم يخافونكم، فهم خوفاً منكم يقولون بألسنتهم: «إنا منكم»، ليأمنوا فيكم فلا يقتلوا.

ويقول تعالى ذكره: لو يجد هؤلاء المنافقون (ملجأً)، يقول: عَصْرًا يعتصرون به من حصن، ومعقلاً يعتقلون فيه منكم، ﴿أَوْ مَغْرَتٍ﴾، وهي الغيران في الجبال، واحدها: «مغارة»، وهي «مفعلة»، من: «غار الرجل في الشيء، يغور فيه»، إذا دخل، ومنه قيل، «غارت العين»، إذا دخلت في الحذقة.

﴿أَوْ مَدْخَلًا﴾، يقول: سرباً في الأرض يدخلون فيه.

وقال: (أَوْ مَدْخَلًا)، لأنه «من ادخل يدخل».

وقوله: ﴿لَوْلَوْ إِلَٰهٌ﴾، يقول: لأدبروا إليه، هرباً منكم، ﴿وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾. يقول:

وهم يسرعون في مشيهم.

وقيل: إن «الجماح» مشي بين المشيين، ومنه قول مهلهل:

لَقَدْ جَمَحْتُ جَمَاحًا فِي دِمَائِهِمْ حَتَّى رَأَيْتُ ذَوِي أَحْسَابِهِمْ خَمْدُوا

وإنما وصفهم الله بما وصفهم به من هذه الصفة، لأنهم إنما قاموا بين أظهر أصحاب رسول الله ﷺ على كفرهم ونفاقهم وعداوتهم لهم ولما هم عليه من الإيمان بالله وبرسوله، لأنهم كانوا في قومهم وعشيرتهم وفي دورهم وأموالهم، فلم يقدرُوا على ترك ذلك وفراقه، فصانعوا القوم بالنفاق، ودافعوا عن أنفسهم وأموالهم

وأولادهم بالكفر ودعوى الإيمان، وفي أنفسهم ما فيها من البغض لرسول الله ﷺ وأهل الإيمان به والعداوة لهم. فقال الله واصفهم بما في ضمائرهم: ﴿لَوْ يَحِدُّونَ مَلَجًا أَوْ مَعَرَتٍ﴾، الآية.

قال ابن كثير رحمه الله:

يخبر الله تعالى نبيه ﷺ عن جزعهم وفزعهم وفرقهم وهلعهم أنهم ﴿وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ﴾ يميناً مؤكدة، ﴿وَمَا هُمْ بِمِنْكُمْ﴾ أي: في نفس الأمر، ﴿وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرُقُونَ﴾ أي: فهو الذي حملهم على الحلف. ﴿لَوْ يَحِدُّونَ مَلَجًا﴾ أي: حصناً يتحصنون به، وحرزاً يحترزون به، ﴿أَوْ مَعَرَتٍ﴾ وهي التي في الجبال، ﴿أَوْ مُدْخَلًا﴾ وهو السَّرَبُ في الأرض والنَفَقُ. قال ذلك في الثلاثة ابن عباس، ومجاهد، وقتادة: ﴿لَوْلَوْ إِلَهِهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾ أي: يسرعون في ذهابهم عنكم، لأنهم إنما يخالطونكم كرها لا محبة، وودوا أنهم لا يخالطونكم، ولكن للضرورة أحكام؛ ولهذا لا يزالون في هم وحزن وغم؛ لأن الإسلام وأهله لا يزال في عزٍّ ونصر ورفعة؛ فلهذا كلما سُرَّ المؤمنون ساءهم ذلك، فهم يودون ألا يخالطوا المؤمنين؛ ولهذا قال: ﴿لَوْ يَحِدُّونَ مَلَجًا أَوْ مَعَرَتٍ أَوْ مُدْخَلًا لَوْلَوْ إِلَهِهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾.

وقال السعدي رحمه الله:

﴿وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَمَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَكِنَّهُمْ﴾ قصدهم في حلفهم هذا أنهم
 ﴿قَوْمٌ يَفْرُقُونَ﴾ أي: يخافون الدوائر، وليس في قلوبهم شجاعة تحملهم على أن
 يبينوا أحوالهم. فيخافون إن أظهروا حالهم منكم، ويخافون أن تتبرأوا منهم،
 فيتخطفهم الأعداء من كل جانب.

وأما حال قوي القلب ثابت الجنان، فإنه يحمله ذلك على بيان حاله، حسنة
 كانت أو سيئة، ولكن المنافقين خلع عليهم خلعة الجبن، وحلوا بحلية الكذب.
 ثم ذكر شدة جبنهم فقال: ﴿لَوْ يَحِذُّونَ مَلَجًا﴾ يلجأون إليه عندما تنزل بهم
 الشدائد، ﴿أَوْ مَغْرَبٍ﴾ يدخلونها فيستقرون فيها ﴿أَوْ مُدْخَلًا﴾ أي: محلا يدخلونه
 فيتحصنون فيه ﴿لَوْلَا إِلَهُهُمْ يَجْمَحُونَ﴾ أي: يسرعون ويهرعون، فليس لهم ملكة،
 يقتدرون بها على الثبات.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:

(وَمَنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَاهُمْ
يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا
اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ ﴿٥٩﴾ إِنَّمَا
الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَمِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ
وَالْغَرَمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ
حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾)

[التوبة: ٥٨-٦٠].

س: وضع معنى ما يلي:

﴿يَلْمِزُكَ﴾ - الصَّدَقَاتِ - يَسْخَطُونَ - حَسْبُنَا اللَّهُ - لِلْفُقَرَاءِ - وَالْمَسْكِينِ -
وَالْعَمِلِينَ عَلَيْهَا - وَالْمَوْلَةَ فَلَهُمْ - فِي الرِّقَابِ - وَالْغَرَمِينَ - فِي سَبِيلِ اللَّهِ - وَأَبْنِ
السَّبِيلِ ﴿.

ج:

الكلمة	معناها
﴿يَلْمِزُكَ﴾	يطعن فيك - يعيبك - يشكك في ذمتك وأمانتك.
﴿الصَّدَقَاتِ﴾	الزكوات وصدقات التطوع التي عند رسول الله.
﴿يَسْخَطُونَ﴾	يتبرمون ويطعنون ويعيبون.
﴿حَسْبُنَا اللَّهُ﴾	كافينا الله.
﴿إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ﴾	إننا إلى الله لاجئون لقضاء حوائجنا وتدبير أمورنا وهدايتنا وكل ما نحتاج إليه.
﴿الصَّدَقَاتِ﴾	الزكوات.
﴿لِلْفُقَرَاءِ﴾	هم الذين لا يجدون مالاً ولا حرفة لهم تقيم أمرهم.
﴿وَالْمَسْكِينِ﴾	هم الذين لهم دخول لا تكفيهم.
﴿وَالْعَمِلِينَ عَلَيْهَا﴾	السعاة والجباة الذين يجمعون الزكوات ويحفظونها ويوزعونها.
﴿وَالْمَوْلَةَ فَلَهُمْ﴾	الذين يرغب في هدايتهم للإسلام أو دفع شرهم أو تثبيتهم على الدين لضعف إيمانهم.

في مساعدة المكاتبين، وهم العبيد الذين اشتروا أنفسهم بمال وكتبوا عقوداً بينهم وبين سادتهم وما زالوا مدينين. وأيضاً في عتق الرقاب أي: شراء العبيد وتحريرهم لكن يكون ولاؤهم للمسلمين عامة أي: إذا ماتوا ولم يكن لهم ورثة فتركتهم لبيت المال، ولا تكن حينئذٍ لمن أعتقهم لأنه أعتقهم من الزكوات.	(وَفِي الرِّقَابِ ﴿٢٥٩﴾)
المدينون - أو الذين تحملوا غرامات للإصلاح بين الناس أو ضمنوا ضمانات وتحملوها وليس عندهم السداد.	(وَالْغَدِيرِ مِينَ ﴿٢٦٠﴾)
الغزاة والمجاهدون في سبيل الله تكاليف الغزو للغزاة وتسليحهم.	(وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴿٢٦١﴾)
المسافر الذي انقطعت نفقته ولم يعد بالسهل عليه ولا باليسير أن يرجع إلى بلده.	(وَأَبْنِ السَّبِيلِ ﴿٢٦٢﴾)

س: هل ورد لقوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ﴾ سبب نزول؟

ج: ورد في ذلك ما أخرجه البخاري^(١) في صحيحه من حديث أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ: بَيْنَا النَّبِيُّ ﷺ يَتَقَسَّمُ جَاءَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ ذِي الْخُوَيْصِرَةِ التَّمِيمِيُّ فَقَالَ: اْعْدِلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَقَالَ: «وَيْلَكَ وَمَنْ يَعْدِلُ إِذَا لَمْ اْعْدِلْ؟» قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ: دَعْنِي أَضْرِبْ عُنُقَهُ. قَالَ: «دَعُهُ فَإِنَّ لَهُ أَصْحَابًا يَحْقِرُ أَحَدُكُمْ صَلَاتَهُ مَعَ صَلَاتِهِ، وَصِيَامَهُ مَعَ صِيَامِهِ، يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ، يُنْظَرُ فِي قُدْزِهِ فَلَا يُوْجَدُ فِيهِ شَيْءٌ، ثُمَّ يُنْظَرُ فِي نَصْلِهِ فَلَا يُوْجَدُ فِيهِ شَيْءٌ، ثُمَّ يُنْظَرُ فِي رِصَافِهِ فَلَا يُوْجَدُ فِيهِ شَيْءٌ، ثُمَّ يُنْظَرُ فِي نَضِيئِهِ فَلَا يُوْجَدُ فِيهِ شَيْءٌ قَدْ سَبَقَ الْفَرْثُ وَالْدَّمُ آيَتُهُمْ رَجُلٌ إِحْدَى يَدَيْهِ أَوْ قَالَ: تَذِيئُهُ مِثْلُ تَذِي الْمَرْأَةِ أَوْ قَالَ: مِثْلُ الْبُضْعَةِ تَدْرُدُّ يَخْرُجُونَ عَلَى حِينِ فُرْقَةٍ مِنَ النَّاسِ» قَالَ أَبُو سَعِيدٍ: أَشْهَدُ سَمِعْتُ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ، وَأَشْهَدُ أَنَّ عَلِيًّا قَتَلَهُمْ وَأَنَا مَعَهُ، جِيءَ بِالرَّجُلِ عَلَى النَّعْتِ الَّذِي نَعْتَهُ النَّبِيُّ ﷺ. قَالَ: فَنَزَلَتْ فِيهِ: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ﴾.

ولكنني في شك من ثبوت هذه الزيادة التي هي فنزلت فيه: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ﴾ فقد روي هذا الحديث من طرق متعددة ليس فيه ذكر سبب النزول، فأراها والله أعلم ضعيفة.

|

(١) البخاري (٦٩٣٣)، وانظر صحيح مسلم فقد أخرج مسلم وغيره الحديث، من وجوه متعددة بدونها، وكذا أخرجه البخاري من وجوه بدونها.

طعن أهل النفاق في أمانة رسول الله ﷺ

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَاهُمْ يَسْتَخْطُونَ﴾ (٥٨).

ج: المعنى - والله أعلم - ومن هؤلاء المنافقين من يعيب عليك ويطعن فيك بسبب الصدقات، ويتهمك فيقول: إنك تُحابي وتجاهل في الصدقات فتعطي أحابيك وأصحابك وأقرباءك وتمنع غيرهم، يقول هذا: إذا لم تعطه شيئاً فإذا أعطيته شيئاً منها رضى وانشرح صدره وبارك صنيعك، وإن لم تعطه منها شيئاً إذا هو ساخط عليك ناقم صنيعك.

وبنحو هذا قال أهل العلم.

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره: ومن المنافقين الذين وصفت لك، يا محمد، صفتهم في هذه الآيات، ﴿مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ﴾، يقول: يعيبك في أمرها، ويطعن عليك فيها. ﴿فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا﴾، يقول: ليس بهم في عيبهم إياك فيها، وطعنهم عليك بسببها، الدين، ولكن الغضب لأنفسهم، فإن أنت أعطيتهم منها ما يرضيهم رضوا عنك، وإن أنت لم تعطهم منها سخطوا عليك وعابوك. وأورد الطبري عدة آثار وأحاديث منها حديث أبي سعيد الخدري المتقدم في سبب النزول.

وأثر ابن زيد بسند صحيح قال في قوله: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَاهُمْ يَسْتَخْطُونَ﴾، قال: هؤلاء المنافقون، قالوا: والله ما يعطيها محمد إلا من أحب، ولا يؤثر بها إلا هواه! فأخبر الله نبيه، وأخبرهم أنه إنما جاء من الله، وأن هذا أمر من الله ليس من محمد: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ...﴾، الآية.

وقال ابن كثير رحمه الله:

يقول تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ﴾ أي: ومن المنافقين ﴿مَنْ يَلْمِزُكَ﴾ أي: يعيب عليك ﴿فِي﴾ قَسَمِ ﴿الصَّدَقَاتِ﴾ إذا فرقتها، ويتهمك في ذلك، وهم المتهمون المأبونون، وهم مع

هذا لا ينكرون للدين، وإنما ينكرون لحظ أنفسهم؛ ولهذا إن أعطوا من الزكاة رضوا ﴿وَلِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾ أي: يغضبون لأنفسهم.

وأورد ما أخرجه البخاري ومسلم^(١) من حديث أبي سعيدٍ أيضًا قال: بَعَثَ عَلِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَهُوَ بِالْيَمَنِ، بِذَهَبَةٍ فِي تَرْبَتِهَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَسَمَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَيْنَ أَرْبَعَةِ نَفَرٍ: الْأَقْرَعُ بْنُ حَابِسٍ الْحَنْظَلِيُّ، وَعُيَيْنَةُ بْنُ بَدْرِ الْفَزَارِيُّ، وَعَلْقَمَةُ بْنُ عَلَاثَةَ الْعَامِرِيُّ، ثُمَّ أَحَدُ بَنِي كِلَابٍ، وَزَيْدُ الْخَيْرِ الطَّائِيُّ، ثُمَّ أَحَدُ بَنِي نُبَهَانَ. قَالَ: فَغَضِبَتْ قُرَيْشٌ. فَقَالُوا: أَنْعُطِي صَنَادِيدَ نَجْدٍ وَتَدَعُنَا؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنِّي إِنَّمَا فَعَلْتُ ذَلِكَ لِأَتَأَلَّفَهُمْ» فَجَاءَ رَجُلٌ كَثُ اللَّحْيَةِ. مُشْرِفُ الْوَجْتَيْنِ. غَائِرُ الْعَيْنَيْنِ. نَاتِيءُ الْجَبِينِ مَحْلُوقُ الرَّأْسِ. فَقَالَ: اتَّقِ اللَّهَ. يَا مُحَمَّدُ! قَالَ: فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «فَمَنْ يُطِيعُ اللَّهَ إِنْ عَصَيْتُهُ أَبَاطْنِي عَلَى أَهْلِ الْأَرْضِ وَلَا تَأْمُنُونِي؟» قَالَ: ثُمَّ أَذْبَرَ الرَّجُلُ. فَاسْتَأْذَنَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ فِي قَتْلِهِ. (يُرْوَى أَنَّهُ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ) فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ مِنْ ضِئْضِئِ هَذَا قَوْمًا يَقْرَأُونَ الْقُرْآنَ لَا يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ يَقْتُلُونَ أَهْلَ الْإِسْلَامِ وَيَدْعُونَ أَهْلَ الْأَوْثَانِ يَمْرُقُونَ مِنَ الْإِسْلَامِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ لَئِنْ أَدْرَكْتَهُمْ لَا قَتْلَنَهُمْ قَتْلَ عَادٍ».

ا س: وضع معنى قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ

سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ﴾.

ج: المعنى - والله أعلم - ولو أن هؤلاء المنافقين الذين يلمزونك في الصدقات، ويقولون: إنك تجامل فيها، تعطي من تحب وتمنع من تشاء، لو أن هؤلاء رضوا بما آتاهم الله ﷻ ورزقهم إياه على يد رسوله ﷺ وقال: ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ﴾ أي: أن الله ﷻ يكفيننا ورضاه عنا يكفيننا، وهو سبحانه مُعْطِينَا ما يكفيننا، وهو كافينا، وسيعطينا ربنا ﷻ من واسع فضله، وسيعطينا رسول الله ﷺ مما رزقه الله، لو أنهم قالوا ذلك، وقالوا أيضًا: ﴿إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ﴾ لا جئون إليه لقضاء حوائجنا وللتوسعة علينا، لو فعلوا ذلك لكان خيرًا لهم وأفضل من اللمز والهمز والعيب.

وبنحو هذا قال أهل العلم.

(١) البخاري (٣٦١٠)، ومسلم (١٠٦٤).

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره: ولو أن هؤلاء الذين يلمزونك، يا محمد، في الصدقات، رَضُوا ما أعطاهم الله ورسوله من عطاء، وقسم لهم من قسم، ﴿وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ﴾، يقول: وقالوا: كافينا الله، ﴿سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ﴾، يقول: سيعطينا الله من فضل خزائنه، ورسوله من الصدقة وغيرها، ﴿إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ﴾، يقول: وقالوا: إنا إلى الله نرغب في أن يوسع علينا من فضله، فيغنيننا عن الصدقة وغيرها من صلات الناس والحاجة إليهم.

وقال الحافظ ابن كثير رحمه الله:

ثم قال تعالى مُنَبِّهاً لهم على ما هو خير من ذلك لهم، فقال: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ﴾ فتضمنت هذه الآية الكريمة أدباً عظيماً وسراً شريفاً، حيث جعل الرضا بما آتاه الله ورسوله والتوكل على الله وحده، وهو قوله: ﴿وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ﴾ وكذلك الرغبة إلى الله وحده في التوفيق لطاعة الرسول ﷺ وامثال أوامره، وترك زواجه، وتصديق أخباره، والاقتفاء بآثاره.

وقال السعدي رحمه الله:

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ أي: أعطاهم من قليل وكثير. ﴿وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ﴾ أي: كافينا الله، فنرضى بما قسمه لنا، وليؤملوا فضله وإحسانه إليهم بأن يقولوا: ﴿سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ﴾ أي: متضرعون في جلب منافعنا، ودفع مضارنا.

| مصارف الزكاة الثمانية

س: وضح المعنى الإجمالي لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَمِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَدِيرِمْ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

ج: المعنى إجمالاً، إنما زكوات الأموال وسائر الزكوات تصرف للفقراء، وهم الذين لا مال عندهم، ولا حرفة معهم يكتسبون بها من المال ما يكفي لسداد عيشهم

ولا لإقامة احتياجاتهم، وكذا للمساكين، وهم الذين لهم دخول لكنها لا تكفيهم، وكذا للعاملين عليها وهم السعاة الذين يقومون بجمعها وحفظها وتصريفها في أماكنها، وكذا لمن يُرجى تأليف قلبه لإدخاله الإسلام إن كان كافراً أو لصده شره إذا كان شريكاً أو لتقوية إيمانه إن كان مُسَلِّماً ضعيف الإيمان يخشى عليه من الردة أو غير ذلك من صور التأليف، وكذا فمن مصارف الزكاة. إنفاقها ﴿وَفِي الرِّقَابِ﴾ أي: في مساعدة من كاتب عن نفسه من العبيد كي يتحرر أو لإعتاق العبيد من الأصل على أن يكون ولاؤهم لأهل الإسلام، وكذا فإن الزكاة تعطى أيضاً ﴿وَالْغَرَمِينَ﴾ وهم: المدينون، أو الذين تحملوا غرامات وحمالات للإصلاح بين الناس وإزالة الفتن، أو الذين ضمنوا أقواماً في الخير، وكذا تنفق الزكوات في سبيل الله ﷻ للغزاة والمجاهدين، وقيل: للحجيج كذلك - على رأي من صحح حديث الحج في سبيل الله - وكذا لأبناء السبيل، وهم المسافرون الذين انقطعت بهم النفقة ولم يعد معهم من المال ما يرجعون إلى أهاليهم وذويهم، كل ذلك من الأمر بصرف الزكاة في مصارفها فرض افترضه الله على العباد، (وَاللَّهُ عَلِيمٌ) بخلقه عليمٌ كذلك بمن يستحق الزكاة وعليم بكل شيء ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما يشرع لعباده من الشرائع وحكيم في كل تدبير وتصريف وأمر ونهي وفي كل شيء. والله أعلم.

قال السعدي رَحِمَهُ اللهُ:

واعلم أن هذه الأصناف الثمانية، ترجع إلى أمرين:

أحدهما: من يعطى لحاجته ونفعه، كالفقير، والمساكين، ونحوهما.

والثاني: من يعطى للحاجة إليه وانتفاع الإسلام به، فأوجب الله هذه الحصة في أموال الأغنياء، لسد الحاجات الخاصة والعامة للإسلام والمسلمين، فلو أعطى الأغنياء زكاة أموالهم على الوجه الشرعي، لم يبق فقير من المسلمين، ولحصل من الأموال ما يسد الثغور، ويجاهد به الكفار وتحصل به جميع المصالح الدينية.

س: هل هناك مصارف أخرى غير هذه المصارف الثمانية تُخرج فيها الزكاة؟

ج: جماهير أهل العلم على أن مصارف الزكاة هي هذه المصارف الثمانية المذكورة في هذه الآية بل قد نقل الإجماع على ذلك.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ (١): وقد اتفق المسلمون على أنه لا يجوز أن يخرج بالصدقات عن الأصناف الثمانية المذكورين في هذه الآية كما دل على ذلك القرآن. انتهى.

ونقل الإجماع غير واحد من أهل العلم أيضًا. هذا، وما ورد في أن الحجاج يأخذون من الزكوات، عند من قال بذلك، فليس هذا بمعارض للإجماع، بل إنهم يدخلون الحج في سبيل الله.

أ س: هل يجوز صرف الزكاة كلها لمصرفٍ واحد من المصارف الثمانية المذكورة في الآية الكريمة أم يلزم تقسيمها على الأصناف المذكورة كلها، بمعنى هل يجوز صرف الزكاة للفقراء فقط أم يجب إعطاء الفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم... إلى آخره؟

ج: الظاهر أنه يجوز صرف الزكوات كلها لمصرفٍ واحد من المصارف الثمانية، ولا يجب توزيعها على الأصناف الثمانية، وهذا قول جماهير العلماء، وعليه تشهد الأدلة، وإن كان من العلماء من ذهب إلى غير ذلك، ولكن الأدلة تشهد لرأي الجمهور كما سأيئنه إن شاء الله.

قال الطبري رَحِمَهُ اللهُ:

واختلف أهل العلم في كيفية قسم الصدقات التي ذكرها الله في هذه الآية، وهل يجب لكل صنف من الأصناف الثمانية فيها حق، أو ذلك إلى رب المال؟ ومن يتولى قسمها، في أن له أن يعطي جميع ذلك من شاء من الأصناف الثمانية.

فقال عامة أهل العلم: للمتولي قسمها ووضعها في أي الأصناف الثمانية شاء. وإنما سمى الله الأصناف الثمانية في الآية، إعلامًا منه خلقه أن الصدقة لا تخرج من هذه الأصناف الثمانية إلى غيرها، لا إيجابًا لقسمها بين الأصناف الثمانية الذين ذكرهم.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ:

وقد اختلف العلماء في هذه الأصناف الثمانية: هل يجب استيعاب الدفع إليها أو إلى ما أمكن منها؟ على قولين:

أحدهما: أنه يجب ذلك، وهو قول الشافعي وجماعة.

والثاني: أنه لا يجب استيعابها، بل يجوز الدفع إلى واحد منها، ويعطى جميع الصدقة مع وجود الباقيين. وهو قول مالك وجماعة من السلف والخلف، منهم: عمر، وحذيفة، وابن عباس، وأبو العالية، وسعيد بن جبيرة، وميمون بن مهران.

قال ابن جرير: وهو قول عامة أهل العلم، وعلى هذا فإنما ذكرت الأصناف هاهنا لبيان المصروف لا لوجوب استيعاب الإعطاء.

قلت (مصطفى): ومن الأدلة التي تشهد لقول الجمهور، وقد استدلوا بها ما يلي: قول الله ع: ﴿إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهِيَ خَيْرٌ لَكُمْ...﴾، والشاهد منه قوله: ﴿وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ﴾ فاقصر عليهم.

وكذا استدلوا بما أخرجه البخاري من حديث ابن عباس قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِمُعَاذٍ حِينَ بَعَثَهُ إِلَى الْيَمَنِ: «فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ فَتُرَدُّ عَلَى فُقَرَائِهِمْ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لَكَ بِذَلِكَ، فَإِيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ»^(١).

واستدلوا أيضاً بما أخرجه البخاري^(٢) من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَنَّ نَاسًا مِنْ عُرَيْنَةِ اجْتَوَوْا الْمَدِينَةَ، فَرَخَّصَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ يَأْتُوا إِبِلَ الصَّدَقَةِ فَيَشْرَبُوا مِنْ أَلْبَانِهَا وَأَبْوَالِهَا، فَقَتَلُوا الرَّاعِي، وَاسْتَأْفَوْا الذَّوْدَ، فَأَرْسَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَأَتَى بِهِمْ فَقَطَّعَ أَيْدِيَهُمْ وَأَرْجُلَهُمْ، وَسَمَرَ أَعْيُنَهُمْ، وَتَرَكَهُمْ بِالْحَرَّةِ يَعْضُونَ الْحِجَارَةَ»^(٣).

وهناك استدلالات أخر في الباب:

وقال سحنون في «المدونة»^(٤): قال مالك: إن لم يجد إلا صنفاً واحداً أجزأه أن

(١) البخاري (١٤٩٦).

(٢) البخاري (١٥٠١).

(٣) قال ابن بطل: غرض المصنف - وهو البخاري - في هذا الباب: إثبات وضع الصدقة في صنف واحد، خلافاً لمن قال: يجب استيعاب الأصناف الثمانية، هذا كلام ابن بطل. اهـ. انظر الفتح (٣/٤١٥).

(٤) سحنون في المدونة (١/٢٥٣).

يجعلها فيهم، وإذا كنت تجد الأصناف كلها الذين ذكر الله في القرآن وكان منها صنف واحد هم أحوج أثر أهل الحاجة حيث كانت تسد حاجتهم.

وقال المرداوي في «الإنصاف»^(١): ويُسْتَحَب صرفها إلى الأصناف كلها، لكل صنف ثمنها إن وجد حيث وجب الإخراج، فإن اقتصر على إنسان واحد أجزأه، وهذا هو المذهب، نص عليه، وعليه الجماهير من الأصحاب.

قال في «الفروع»: واختاره الخرقى والقاضى والأصحاب وهو المذهب.

وقال ابن قدامة في «المغني»^(٢): وإن أعطاهها كلها في صنف واحد أجزأه، وهناك رواية أخرى في المذهب.

وقال السرخسي في «المبسوط»^(٣): وأما الزكاة فيجوز صرفها إلى صنف واحد عندنا.

وذهب فريق من الشافعية، بل جمهورهم^(٤)، وابن تيمية^(٥)، وابن حزم في المحلى^(٦)، إلى أنه يلزم التفريق على المصارف الثمانية، واحتجوا بحديث ضعيف الإسناد أخرجه أبو داود^(٧) وغيره وفيه: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمْ يَرْضَ بِحُكْمِ نَبِيِّ وَلَا غَيْرِهِ فِي الصَّدَقَاتِ حَتَّى حَكَمَ هُوَ فِيهَا فَجَزَّأَهَا ثَمَانِيَةَ أَجْزَاءٍ، فَإِنْ كُنْتَ مِنْ تِلْكَ الْأَجْزَاءِ أُعْطِيَتْكَ حَقُّكَ»^(٨).

وذهب فريق من أهل العلم إلى أن مال الزكاة إذا كان قليلاً وزّع في صنف واحد، وإن كان كثيراً قسم على الأصناف الثمانية، وهذا القول منقول عن عطاء بن أبي

(١) المرداوي في الإنصاف (٣/٢٤٨).

(٢) المغني (٤/١٢٧).

(٣) المبسوط (٣/٩).

(٤) انظر المجموع للنووي (٦/١٨٦).

(٥) الفتاوى (٥/٣٧٣).

(٦) المحلى (٦/١٤٤).

(٧) أبو داود (١٦٣٠).

(٨) في سننه عبد الرحمن بن زياد الأفريقي وهو ضعيف.

رباح، وإبراهيم النخعي وغيرهما^(١).

والقول الأول، الذي عليه الجمهور وتشهد له الأدلة فأراه أقوى الأقوال، والله أعلم.

هذا، وإن كان، كما هو معلوم، قد يتأتى حال من الأحوال يترجح فيه مصرف من المصارف فتتفق فيه الزكاة كلها لا احتياج أهله إليه. والله أعلم.

أ س: ما المراد بالفقراء، وما المراد بالمساكين؟

ج: الظاهر لي - والله تعالى أعلم - أن الفقير من لا مال له، وليس له عمل وحرفة تُدخلان عليه دخلاً يكفيه أما المسكين فقد يكون له مال وحرفة ودخولهما لا تكفيه، وهو أحسن حالاً من الفقير، وقد قال تعالى: ﴿أَمْ أَلْسَفِينَةٌ كَانَتْ لِمَسْكِينٍ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ﴾ [الكهف: ٧٩] فلهم سفينة مع كونهم مساكين، إذ دخل السفينة لا يكاد يكفيهم، وإن كان بين المساكين تفاوت في المسكنة، وذلك لما أخرجه البخاري ومسلم^(٢):

من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «لَيْسَ الْمُسْكِينُ الَّذِي يَطُوفُ عَلَى النَّاسِ تَرُدُّهُ اللَّقْمَةُ وَاللُّقْمَتَانِ، وَالتَّمْرَةُ وَالتَّمْرَتَانِ، وَلَكِنَّ الْمُسْكِينُ الَّذِي لَا يَجِدُ غِنًى يُغْنِيهِ، وَلَا يُفْطِنُ بِهِ فَيَتَصَدَّقُ عَلَيْهِ، وَلَا يَقُومُ فَيَسْأَلُ النَّاسَ».

وفي رواية أخرى عند البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «لَيْسَ الْمُسْكِينُ الَّذِي تَرُدُّهُ الْأُكْلَةُ وَالْأُكْلَتَانِ وَلَكِنَّ الْمُسْكِينُ الَّذِي لَيْسَ لَهُ غِنًى وَيَسْتَحْيِي أَوْ لَا يَسْأَلُ النَّاسَ إِلَّا خَافًا»^(٣).

وهذه بعض أقوال العلماء في التفريق بين الفقير والمساكين، وكذا بعض أقوالهم في تعريف كل من الصنفين.

أورد الطبري عددًا من الأقوال في ذلك فقال:

(١) انظر مصنف ابن أبي شيبة (١٠٥٤٢، ١٠٥٤٦)، والطبري وغيرهما.

(٢) البخاري (١٤٨٠)، ومسلم (مع النووي ١٠٩/٤).

(٣) البخاري (١٤٧٦)، وانظر مسلم (مع النووي ١٠٩/٤).

قال النووي في «شرح مسلم» (١٠٩/٤): المسكين الكامل المسكنة الذي هو أحوج وأحق بالصدقة وأحوج إليها، ليس هو هذا الطواف، بل هو الذي لا يجد غنى يغنيه ولا يُفْطِنُ له، ولا يسأل الناس.

يقول تعالى ذكره: ما الصدقات إلا للفقراء والمساكين، ومن سماهم الله جل ثناؤه.

ثم اختلف أهل التأويل في صفة «الفقير والمسكين». **فقال بعضهم:** «الفقير»، المحتاج المتعفف عن المسألة، و«المسكين»، المحتاج السائل.

وقال آخرون: «الفقير»، هو ذو الزمانة من أهل الحاجة، و«المسكين»، هو الصحيح الجسم منهم.

وقال آخرون: «الفقراء»، فقراء المهاجرين، و«المساكين»، من لم يهاجر من المسلمين، وهو محتاج.

وقال آخرون: «المسكين»، الضعيف الكسب.

وقال بعضهم: «الفقير»، من المسلمين، و«المسكين» من أهل الكتاب.

قال الطبري رحمه الله:

وأولى هذه الأقوال عندي بالصواب، قول من قال: «الفقير»، هو ذو الفقر والحاجة، ومع حاجته يتعفف عن مسألة الناس والتذلل لهم، في هذا الموضع، و«المسكين» هو المحتاج المتذلل للناس بمسألتهم.

ثم بين الطبري حجته لذلك، وقال:

فتأويل الكلام، إذ كان ذلك معناه: إنما الصدقات للفقراء: المتعفف منهم الذي لا يسأل، والمتذلل منهم الذي يسأل.

وقال الشافعي^(١): الفقير - والله أعلم - من لا مال له ولا حرفة تقع منه موقعاً، زمناً كان أو غير زمن سائلاً كان أو متعففاً.

وقال رحمه الله: والمسكين من له مال أو حرفة لا تقع منه موقعاً، ولا تُغنيه، سائلاً كان أو غير سائل.

قال ابن تيمية^(٢) رحمه الله في «الفتاوى»: بل كل من ليس له كفاية تكفيه وتكفي عياله؛

(١) الأم (٢/١٠٧).

(٢) الفتاوى (٢٨/٥٧٠).

فهو من الفقراء والمساكين.

وقال المرداوي^(١) في «الإنصاف»: قال ابن رزين: المسكين من لم يجد أكثر كفايته.

قال الإمام النووي^(٢): الله - تعالى - بدأ بالفقراء، والعرب لا تبدأ إلا بالأهم فالأهم، فدل على أن الفقير أمس حاجة من المسكين.

س: كم يُعطى الفقير والمساكين من الزكاة؟

ج: يعطيان ما تُسد به حاجتهما.

قال شيخ الإسلام^(٣) ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: فالفقراء والمساكين يجمعهما معنى الحاجة إلى الكفاية.

وقال النووي في «المجموع»^(٤): الفقير والمساكين يعطيان تمام كفايتهما.

وقد أخرج مسلم في صحيحه^(٥) من حديث قَبِيصَةَ بِنِ مُخَارِقِ الْهَلَالِيِّ قَالَ: تَحَمَّلْتُ حَمَالَةً. فَأَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَسْأَلُهُ فِيهَا. فَقَالَ: «أَقِمِ حَتَّى تَأْتِيَنَا الصَّدَقَةُ. فَتَأْمُرَ لَكَ بِهَا» قَالَ: ثُمَّ قَالَ: «يَا قَبِيصَةُ! إِنَّ الْمَسْأَلَةَ لَا تَحِلُّ إِلَّا لِأَحَدٍ ثَلَاثَةً: رَجُلٌ تَحْمِلُ حَمَالَةً فَحَلَّتْ لَهُ الْمَسْأَلَةُ حَتَّى يُصِيبَهَا ثُمَّ يُمْسِكُ، وَرَجُلٌ أَصَابَتْهُ جَائِحَةٌ اجْتَاكَ مَالُهُ فَحَلَّتْ لَهُ الْمَسْأَلَةُ حَتَّى يُصِيبَ قَوَامًا مِنْ عَيْشٍ، (أَوْ قَالَ: سِدَادًا مِنْ عَيْشٍ)، وَرَجُلٌ أَصَابَتْهُ فَاقَةٌ حَتَّى يَقُومَ ثَلَاثَةً مِنْ ذَوِي الْحِجَا مِنْ قَوْمِهِ: لَقَدْ أَصَابَتْ فُلَانًا فَاقَةٌ فَحَلَّتْ لَهُ الْمَسْأَلَةُ حَتَّى يُصِيبَ قَوَامًا مِنْ عَيْشٍ (أَوْ قَالَ: سِدَادًا مِنْ عَيْشٍ) فَمَا سِوَاهُنَّ مِنَ الْمَسْأَلَةِ، يَا قَبِيصَةُ! سُحْتًا يَأْكُلُهَا صَاحِبُهَا سُحْتًا».

س: هل يُعطى الفقير زكاة بمجرد دعواه أم يلزم التثبت من أمره؟

ج: الظاهر - والله أعلم - أنه إذا كانت علامات الفقر والمسكنة بادية عليه، فهذا

(١) المرداوي (الإنصاف ٣/ ٢١٨).

(٢) المجموع (٦/ ١٩٥).

(٣) مجموع الفتاوى (٢٨/ ٢٧٤).

(٤) المجموع (٦/ ١٩٥).

(٥) مسلم (١٠٤٤).

يجوز إعطاؤه ولا نحتاج مزيد تثبت.

أخرج مسلم^(١) في صحيحه من حديث المُنْذِرِ بْنِ جَرِيرٍ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: «كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي صَدْرِ النَّهَارِ، قَالَ: فَجَاءَهُ قَوْمٌ خُفَاءُ عُرَاةٌ مُجْتَابِي النَّمَارِ أَوْ الْعَبَاءِ. مُتَقَلِّدِي السُّيُوفِ. عَامَّتُهُمْ مِنْ مُضَرٍّ. بَلَّ كُلُّهُمْ مِنْ مُضَرٍّ. فَتَمَعَّرَ وَجْهُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لِمَا رَأَى بِهِمْ مِنَ الْفَاقَةِ. فَدَخَلَ ثُمَّ خَرَجَ. فَأَمَرَ بِلَا فَأَذَّنَ وَأَقَامَ. فَصَلَّى ثُمَّ خَطَبَ فَقَالَ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَجَدِوْهُ﴾ [النساء: ١] إِلَى آخِرِ الْآيَةِ. ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ وَالْآيَةِ الَّتِي فِي الْحَشْرِ: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ وَلِتَنْظُرَ نَفْسٌ مِمَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ [الحشر: ١٨] تَصَدَّقَ رَجُلٌ مِنْ دِينَارِهِ، مِنْ دَرَاهِمِهِ، مِنْ ثَوْبِهِ، مِنْ صَاعِ بُرِّهِ، مِنْ صَاعِ تَمْرِهِ» حَتَّى قَالَ: «وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ» قَالَ: فَجَاءَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ بِصُرَّةٍ كَادَتْ كَفُّهُ تَعْجِزُ عَنْهَا بَلَّ قَدْ عَجَزَتْ. قَالَ: ثُمَّ تَتَابَعَ النَّاسُ حَتَّى رَأَيْتُ كَوْمَيْنِ مِنْ طَعَامٍ وَثِيَابٍ، حَتَّى رَأَيْتُ وَجْهَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَتَهَلَّلُ كَأَنَّهُ مُذْهَبَةٌ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً، فَلَهُ أَجْرُهَا، وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا بَعْدَهُ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَجُورِهِمْ شَيْءٌ، وَمَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً سَيِّئَةً، كَانَ عَلَيْهِ وِزْرُهَا، وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ».

ومن الدليل على ذلك أيضًا حديث الثلاثة: الأبرص، والأقرع والأعمى من بني

إسرائيل ففيه^(٢):

«إِنَّ ثَلَاثَةً فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ: أَبْرَصٌ، وَأَقْرَعٌ، وَأَعْمَى. فَأَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَبْتَلِيَهُمْ فَبَعَثَ إِلَيْهِمْ مَلَكًا، فَأَتَى الْأَبْرَصَ فَقَالَ: أَيُّ شَيْءٍ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: لَوْ أَنَّ حَسَنًا، وَجِلْدًا حَسَنًا، وَيَذْهَبُ عَنِّي الَّذِي قَدْ قَدَّرَنِي النَّاسُ. قَالَ: فَمَسَحَهُ فَذْهَبَ عَنْهُ قَدْرُهُ، وَأُعْطِيَ لَوْ أَنَّ حَسَنًا، وَجِلْدًا حَسَنًا، قَالَ: فَأَيُّ الْمَالِ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: الْإِبِلُ، (أَوْ قَالَ: الْبَقَرُ شَكَّ إِسْحَاقُ) - إِلَّا أَنْ الْأَبْرَصَ أَوْ الْأَقْرَعُ قَالَ أَحَدُهُمَا: الْإِبِلُ. وَقَالَ الْآخَرُ: الْبَقَرُ - قَالَ: فَأُعْطِيَ نَاقَةً عَشْرَاءَ. فَقَالَ: بَارَكَ اللَّهُ لَكَ فِيهَا. قَالَ: فَأَتَى الْأَقْرَعُ فَقَالَ: أَيُّ شَيْءٍ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: شَعْرٌ حَسَنٌ، وَيَذْهَبُ عَنِّي هَذَا الَّذِي قَدْ قَدَّرَنِي النَّاسُ. قَالَ: فَمَسَحَهُ فَذْهَبَ عَنْهُ وَأُعْطِيَ شَعْرًا حَسَنًا،

(١) مسلم (١٠١٧).

(٢) البخاري (٣٤٦٤)، ومسلم (٢٩٦٤).

قَالَ: فَأَيُّ الْمَالِ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: الْبَقَرُ فَأَعْطِي بَقَرَةً حَامِلًا، فَقَالَ: بَارَكَ اللَّهُ لَكَ فِيهَا. قَالَ: فَأَتَى الْأَعْمَى فَقَالَ: أَيُّ شَيْءٍ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: أَنْ يَرُدَّ اللَّهُ إِلَيَّ بَصَرِي، فَأُبْصِرَ بِهِ النَّاسَ. قَالَ: فَمَسَحَهُ فَرَدَّ اللَّهُ إِلَيْهِ بَصَرَهُ، قَالَ: فَأَيُّ الْمَالِ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: الْغَنَمُ فَأَعْطِي شَاةً وَالِدًا فَأُنْجِحَ هَذَانِ وَوَلَدَ هَذَا. قَالَ: فَكَانَ لَهُذَا وَادٍ مِنَ الْإِبِلِ، وَلَهُذَا وَادٍ مِنَ الْبَقَرِ، وَلَهُذَا وَادٍ مِنَ الْغَنَمِ.

فذكر الحديث وفيه:

وَأَتَى الْأَعْمَى فِي صُورَتِهِ وَهَيْئَتِهِ فَقَالَ: رَجُلٌ مِسْكِينٌ وَابْنُ سَبِيلٍ. انْقَطَعَتْ بِي الْحَبَالُ فِي سَفَرِي. فَلَا بَلَاغَ لِي الْيَوْمَ إِلَّا بِاللَّهِ ثُمَّ بَكَ. أَسْأَلُكَ بِالَّذِي رَدَّ عَلَيْكَ بَصْرَكَ، شَاةً أَتَبَلَّغُ بِهَا فِي سَفَرِي. فَقَالَ: قَدْ كُنْتُ أَعْمَى فَرَدَّ اللَّهُ إِلَيَّ بَصَرِي. فَخُذْ مَا شِئْتَ وَدَعْ مَا شِئْتَ. فَوَاللَّهِ! لَا أَجْهَدُكَ الْيَوْمَ شَيْئًا أَخَذْتَهُ لِلَّهِ. فَقَالَ: أُمْسِكْ مَالَكَ. فَإِنَّمَا ابْتُلَيْتُمْ. فَقَدْ رُضِيَ عَنْكَ وَسُخِطَ عَلَى صَاحِبَيْكَ».

أما إذا كان الشخص متسولاً دائماً التسول أو كان ظاهره الغنى، فحينئذٍ فالأفضل التثبت ويؤيد ذلك ما أخرجه مسلم ^(١) في صحيحه من حديث قبيصة بن مخارق، وقد تقدم وفيه:

قال رسول الله ﷺ: «يَا قَبِيصَةُ! إِنَّ الْمَسْأَلَةَ لَا تَحِلُّ إِلَّا لِأَحَدٍ ثَلَاثَةً: رَجُلٌ تَحْمَلُ حِمْلَهُ فَحَلَّتْ لَهُ الْمَسْأَلَةُ حَتَّى يُصِيبَهَا ثُمَّ يُمْسِكَ، وَرَجُلٌ أَصَابَتْهُ جَائِحَةٌ فَاجْتَا حَتَّى مَالَهُ فَحَلَّتْ لَهُ الْمَسْأَلَةُ فَسَأَلَ حَتَّى يُصِيبَ قِوَامًا مِنْ عَيْشٍ، (أَوْ قَالَ: سِدَادًا مِنْ عَيْشٍ)، وَرَجُلٌ أَصَابَتْهُ فَاقَةٌ حَتَّى يَقُولَ ثَلَاثَةً مِنْ ذَوِي الْحِجَابِ مِنْ قَوْمِهِ: أَنْ قَدْ أَصَابَتْ فُلَانًا الْفَاقَةُ فَحَلَّتْ لَهُ الْمَسْأَلَةُ فَسَأَلَ حَتَّى يُصِيبَ قِوَامًا مِنْ عَيْشٍ (أَوْ: سِدَادًا مِنْ عَيْشٍ) ثُمَّ يُمْسِكَ وَمَا سِوَاهُنَّ مِنَ الْمَسْأَلَةِ، يَا قَبِيصَةُ! سُحْتُ يَأْكُلُهَا صَاحِبُهَا سُحْتًا».

هذا، وقد رأى بعض أهل العلم أن هذا الأمر لا يُشَدَّدُ فيه لأن الله تعالى قال:

﴿يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ﴾ [البقرة: ٢٧٣].

قال ابن قدامة ^(٢): الفقر والغنى مما يعسر الاطلاع عليه والمعرفة بحقيقته. قال

(١) مسلم (١٠٤٤).

(٢) المغني (٤/١٢٧).

الله تعالى: ﴿يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ﴾، فاكتمى بظهور الفقر ودعواه بخلاف غيره.

وقال النووي في المجموع^(١): إذا ادعى أنه لا كسب له، فإن كان ظاهره عدم الكسب كشيخ هرم، أو شاب ضعيف البنية ونحوهما؛ قبل قوله بغير يمين بلا خلاف. **وقال المرداوي^(٢)**: وإن رآه جلدًا أو ذكر أنه لا كسب له؛ أعطاه من غير يمين، بلا نزاع؛ وذلك بعد أن يُخبره أنه لا حظَّ فيها لغني، ولا قوي مُكتسب بلا نزاع. **وقال الشافعي^(٣)**: الأغلب من أمور الناس أنهم غير أغنياء حتى يُعرف غناهم، ومن طلب من جيرانه الصدقة باسم فقر، أو مسكنة؛ أُعطي، ما لم يعلم منه غير ذلك. **وقال شيخ الإسلام ابن تيمية^(٤)**: وإذا ادعى الفقر من لم يُعرف بالغنى، وطلب الأخذ من الصدقات، فإنه يجوز للإمام أن يُعطيه بلا بينة بعد أن يعلمه أنه لا حظَّ فيها لغني ولا قوي مُكتسب.

قلت: ويشهد له ما أخرجه أحمد^(٥) بسند صحيح من حديث عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ: أَنَّ رَجُلَيْنِ أَخْبَرَاهُ أَنَّهُمَا أَتَيَا النَّبِيَّ ﷺ يَسْأَلَانِهِ مِنَ الصَّدَقَةِ، فَقَلَبَ فِيهِمَا الْبَصَرَ، وَرَأَاهُمَا جُلْدَيْنِ، فَقَالَ: «إِنْ شِئْتُمَا أُعْطِيْتُكُمَا وَلَا حَظَّ فِيهَا لِغَنِيِّ وَلَا لِقَوِيٍّ مُكْتَسَبٍ».

الس: إذا اجتهد شخص في البحث عن الفقراء فأعطى شخصًا مبلغًا من الزكاة يحسبه

فقيرًا ثم تبين له بعد أن أعطاه أنه غني هل يلزم بإعادة إخراج الزكاة؟

ج: اختلف العلماء في ذلك على قولين، أرى أظهرهما وأقواهما قول من قال: إنه لا يُعيد الزكاة، واستدلوا لذلك بما أخرجه البخاري ومسلم^(٦) من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «قَالَ رَجُلٌ: لَا تَصَدَّقَنَّ بِصَدَقَةٍ. فَخَرَجَ بِصَدَقَتِهِ فَوَضَعَهَا فِي يَدِ سَارِقٍ، فَأَضْبَحُوا يَتَحَدَّثُونَ: تُصَدَّقُ عَلَى سَارِقٍ. فَقَالَ: اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ، لَا تَصَدَّقَنَّ

(١) (١٩٥/٦).

(٢) الإنصاف (٣/٢٤٧).

(٣) الشافعي الأم (٢/٩٨).

(٤) مجموع الفتاوى (٢٨/٥٧٣).

(٥) أحمد (١٧٩٧٢)، والنسائي (٢٥٩٧)، وأبو داود (١٦٣٣).

(٦) البخاري (١٣٣٢)، ومسلم (١٠٢٢).

بِصَدَقَةٍ، فَخَرَجَ بِصَدَقَتِهِ فَوَضَعَهَا فِي يَدَيِ زَانِيَةٍ، فَأَصْبَحُوا يَتَحَدَّثُونَ: تُصَدَّقُ اللَّيْلَةُ عَلَى زَانِيَةٍ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ عَلَى زَانِيَةٍ، لَا تُصَدَّقَنَّ بِصَدَقَةٍ. فَخَرَجَ بِصَدَقَتِهِ فَوَضَعَهَا فِي يَدَيِ غَنِيٍّ، فَأَصْبَحُوا يَتَحَدَّثُونَ: تُصَدَّقُ عَلَى غَنِيٍّ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ عَلَى سَارِقٍ، وَعَلَى زَانِيَةٍ، وَعَلَى غَنِيٍّ. فَأُتِيَ فَقِيلَ لَهُ: أَمَّا صَدَقَتُكَ عَلَى سَارِقٍ فَلَعَلَّهُ أَنْ يَسْتَعِفَّ عَنْ سَرِقَتِهِ، وَأَمَّا الزَّانِيَةُ فَلَعَلَّهَا أَنْ تَسْتَعِفَّ عَنْ زَنَاهَا، وَأَمَّا الْغَنِيُّ فَلَعَلَّهُ يَعْتَبِرُ فَيُنْفِقُ مِمَّا أُعْطَاهُ اللَّهُ».

وبما أخرجه البخاري^(١) من طريق معن بن يزيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: بَايَعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَنَا، وَأَبِي، وَجَدِّي، وَخَطَبَ عَلَيَّ فَأَنْكَحَنِي، وَخَاصَمْتُ إِلَيْهِ، وَكَانَ أَبِي يَزِيدُ أَخْرَجَ دَنَانِيرَ يَتَصَدَّقُ بِهَا، فَوَضَعَهَا عِنْدَ رَجُلٍ فِي الْمَسْجِدِ، فَجِئْتُ فَأَخَذْتُهَا، فَأَتَيْتُهَا بِهَا فَقَالَ: وَاللَّهِ مَا إِلَيْكَ أَرَدْتُ! فَخَاصَمْتُهُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: «لَكَ مَا نَوَيْتَ يَا يَزِيدُ وَلَكَ مَا أَخَذْتَ يَا مَعْنُ».

س: هل كل فقير يُعطى من الزكاة؟

ج: الفقراء مصرف من مصارف الزكاة، لكن ليس كل فقير يُعطى من الزكاة، بل يُعطى فقراء المسلمين فالفقراء الكفار لا يعطون من الزكاة، إلا إذا دخلوا في المؤلفة قلوبهم.

وكذا لا يُعطى من الزكاة الفقير القادر على الاكتساب ولكنه يتعمد ألا يعمل لحديث: «ولا حظ فيها لقوي مكتسب».

وكذلك لا يعطى من الزكاة الفقراء من آل بيت النبي ﷺ، لقوله ﷺ: «إنا آل محمد لا نأكل الصدقة»، وهذا إذا كانوا يأخذون من الخمس، أما إذا حرموا الخمس فقد جَوَّزَ كثير من العلماء إخراج الزكاة فيهم، والله أعلم.

قال القرطبي رحمته الله:

اعلم أن قوله تعالى: ﴿الْفُقَرَاءُ﴾ مطلق ليس فيه شرط وتقييد، بل فيه دلالة على جواز الصرف إلى جملة الفقراء كانوا من بني هاشم أو غيرهم، إلا أن السنة وردت

(١) البخاري (١٤٢٢).

باعتبار شروط: منها ألا يكونوا من بني هاشم وألا يكونوا ممن تلزم المتصدق نفقته. وهذا لا خلاف فيه. وشرط ثالث ألا يكون قويا على الاكتساب، لأنه عَلَيْهِ السَّلَامُ قال: «لا تحل الصدقة لغني ولا لذي مرة سوي». وقد تقدم القول فيه. ولا خلاف بين علماء المسلمين أن الصدقة المفروضة لا تحل للنبي عَلَيْهِ السَّلَامُ، ولا لبني هاشم ولا لمواليهم.

وقال القرطبي رَحِمَهُ اللهُ:

ولا يجوز أن يعطي من الزكاة من تلزمه نفقته وهم الوالدان والولد والزوجة. وإن أعطى الإمام صدقة الرجل لولده ووالده وزوجته جاز. وأما أن يتناول ذلك هو نفسه فلا، لأنه يسقط بها عن نفسه فرضاً. قال أبو حنيفة: ولا يعطى منها ولد ابنه ولا ولد ابنته، ولا يعطى منها مكاتبه ولا مدبره ولا أم ولده ولا عبداً أعتق نصفه، لأنه مأمور بالإيتاء والإخراج إلى الله تعالى بواسطة كف الفقير، ومنافع الأملاك مشتركة بينه وبين هؤلاء، ولهذا لا تقبل شهادة بعضهم لبعض.

| س: فقير عنده أرض يزرعها، أو سيارة يؤجرها أو أثاث منزل يستعمله، هل يلزم بيع

ذلك، ولا يأخذ من الزكاة؟

ج: كلا، لا يلزم بيع ذلك بل يُعد مصرفاً من مصارف الزكاة، وقد قال تعالى: ﴿أَمْ أَلْهَيْتُمُ فَكُنتُمْ لِمَسْكِينٍ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ﴾ فوصفوا بالمسكنة مع امتلاكهم ذلك. **وقال النووي في «المجموع»^(١):** إذا كان له عقار ينقص دخله عن كفايته فهو فقير أو مسكين، فيُعطى من الزكاة تمام كفايته، ولا يكلف بيعه. ذكره أبو العباس الجرجاني في «التحرير»، والشيخ نصر المقدسي، وآخرون.

الزكاة والزواج

س: هل يُعطى مريد الزواج من زكاة المال؟

ج: تكاليف الزواج ليست من مصارف الزكاة، إنما يُعطى مريد الزواج من الزكاة لفقره إذا كان فقيراً، أو لسداد دينه إذا كان مديناً، أو لمسكنته إذا كان مسكيناً، فمثلاً إذا كان الشخص يتقاضى في الشهر راتباً قدره ألفين تكفيه لنفقته ألف واحد منها ويدخر ألفاً لزواجه فمثله في العُرف لا يعدُّ فقيراً، ومن ثم لا يعطى من أموال الزكاة.

(١) المجموع (٦/ ١٩٢).

هذا، وأقوال العلماء في هذه المسألة شحيحة، وأرى سبب ذلك أنهم كانوا يردون أمر المتزوج إلى أمر الفقير والمسكين، هذا، ومن العلماء من استدل بدليل على جواز إخراج الزكاة لمريد الزواج، ولا أرى هذا الدليل صريحاً في الباب.

ألا وهو ما أخرجه مسلم في صحيحه^(١) من حديث أبي هريرة قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: إني تزوجت امرأة من الأنصار. فقال له النبي ﷺ: «هل نظرت إليها فإن في عيون الأنصار شيئاً؟» قال: قد نظرت إليها. قال: «على كم تزوجتها؟» قال: على أربع أواق. فقال له النبي ﷺ: «على أربع أواق؟! كأنما تئحتون الفضة من عرض هذا الجبل، ما عندنا ما نعطيك، ولكن عسى أن نبعثك في بعث تُصيب منه» قال: فبعث بعثاً إلى بني عبس بعث ذلك الرجل فيهم.

وهذا ليس بصريح في أن الذي كان سيأخذ زكاة، وكذا استدل البعض بحديث ثلاثة حق على الله عونهم: «...والناكح يريد العفاف...».

وهذا أيضاً ليس بصريح في أنه يعطى من الزكاة والله أعلم.

(١) مسلم (١٤٢٤).

حد الفقير

س: ما حد الفقر الذي بناء عليه نعتبر الشخص فقيرًا ونعطيه من الزكاة؟

ج: ليس لذلك حدٌ معلوم، إنما هذا يرجع إلى احتياجات الأشخاص الضرورية، ويرجع كذلك إلى الأعراف السائدة في الناس.

قال القرطبي رَحِمَهُ اللهُ:

وقد اختلف العلماء في حد الفقر الذي يجوز معه الأخذ - بعد إجماع أكثر من يحفظ عنه من أهل العلم - أن من له دارًا وخادمًا ولا يستغني عنهما أن له أن يأخذ من الزكاة، وللمعطي أن يعطيه. وكان مالك يقول: إن لم يكن في ثمن الدار والخادم فضلة عما يحتاج إليه جاز له الأخذ منها وإلا لم يجز، ذكره ابن المنذر. ويقول مالك قال النخعي والثوري.

ونقل صاحب عون المعبود^(١) عن الشافعي قوله: لَا حَدَّ لِلْغَنِيِّ مَعْلُومًا، وإنما يعتبر حال الإنسان، وَقَدْ يَكُونُ الرَّجُلُ بِالذَّرْهِمِ غَنِيًّا مَعَ الْكَسْبِ وَلَا يُغْنِيهِ الْأَلْفُ مَعَ ضَعْفِهِ فِي نَفْسِهِ وَكَثْرَةِ عِيَالِهِ. انتهى.

ونقل ابن قدامة عن الشافعي^(٢) قوله: الأمر يرجع إلى احتياجه، وليس له حدٌ معلومٌ.

إذا لم يكن محتاجًا حُرمت عليه الصدقة، وإن لم يملك شيئًا، وإن كان محتاجًا حلت له الصدقة وإن ملك نصابًا.

(١) عون المعبود (٣/ ٣٣٧).

(٢) ابن قدامة (٤/ ١١٨).

العاملون عليها

س: من المعنيون بـ ﴿وَالْعَمَلِينَ عَلَيْهَا﴾؟

ج: المراد: العاملون الذين يقومون بجمع الزكوات وتوزيعها.

قال الطبري رحمه الله:

وقوله: ﴿وَالْعَمَلِينَ عَلَيْهَا﴾، وهم السعاة في قبضها من أهلها، ووضعها في مستحقِّيها، يعطون ذلك بالسعاية، أغنياء كانوا أو فقراء.

وأورد بإسناد حسن عن الزهري: هم السعاة.

وأورد بإسناد حسن عن قتادة: ﴿وَالْعَمَلِينَ عَلَيْهَا﴾، قال: جُباتها الذين يجمعونها ويسعون فيها.

وقال ابن كثير رحمه الله:

وأما العاملون عليها: فهم الجباة والسعاة يستحقون منها قسطا على ذلك، ولا يجوز أن يكونوا من أقرباء رسول الله ﷺ الذين تحرم عليهم الصدقة، لما ثبت في صحيح مسلم عن عبد المطلب بن ربيعة بن الحارث: أنه انطلق هو والفضل بن عباس يسألان رسول الله ﷺ ليستعملهما على الصدقة، فقال: «إن الصدقة لا تحل لمحمد ولا لآل محمد، إنما هي أوساخ الناس»^(١).

وقال ابن الجوزي في زاد المسير ﴿وَالْعَمَلِينَ عَلَيْهَا﴾:

﴿وَالْعَمَلِينَ عَلَيْهَا﴾ وهم السعاة لجباية الصدقة يعطون منها بقدر أجور أمثالهم، وليس ما يأخذونه بركة.

وقال السعدي في تفسيره:

العاملون على الزكاة، وهم كل من له عمل وشغل فيها، من حافظ لها، وجاب لها من أهلها، أو راع، أو حامل لها، أو كاتب، أو نحو ذلك، فيعطون لأجل عمالتهم، وهي أجرة لأعمالهم فيها.

وقال القرطبي:

﴿وَالْعَمَلِينَ عَلَيْهَا﴾ يعني السعاة والجباة الذين يبعثهم الإمام لتحصيل الزكاة

(١) مسلم (١٠٧٢).

بالتوكيل على ذلك.

ونقل الحافظ ابن حجر^(١) في الفتح عن ابن بطال قوله: اتفق العلماء على أن العاملين عليها هم السعاة المتولون بقبض الصدقة.

وقال الإمام الشافعي^(٢) رَحِمَهُ اللهُ:

والعاملون عليها المتولون لقبضها من أهلها من السعاة ومن أعانهم من عريف لا يقدر على أخذها إلا بمعرفته، فأما الخليفة ووالي الاقليم العظيم الذي تولى أخذها عامل دونه فليس له فيها حق وسواء كان العاملون عليها أغنياء أو فقراء من أهلها كانوا أو غرباء إذا ولوها فهم العاملون، ويعطى أعوان إدارة والى الصدقة بقدر معوناتهم عليها ومنفعتهم فيها.

قلت (مصطفى): وأدخل جمع من العلماء في العاملين عليها السعاة الذين يجمعونها، وكذا الذين يقومون بحفظها، وكذا الذين يقومون بتقسيمها. والله أعلم.

اس: كم القدر الذي يأخذه العاملون عليها؟

ج: الظاهر - والله أعلم - أنهم يعطون بقدر عملهم وبقدر نفعهم.

قال الإمام الشافعي في الأم^(٣): سواء كان العاملون عليها أغنياء أو فقراء من أهلها كانوا أو غرباء، إذا ولوها فهم العاملون، ويعطى أعوان إدارته والى الصدقة بقدر معوناتهم عليها ومنفعتهم فيها. اهـ.

وقال ابن عبد البر في التمهيد^(٤): وقد أجمع العلماء أن العامل عليها لا يستحق ثمنها، وإنما له بقدر عماله.

وقال الطبري رَحِمَهُ اللهُ:

وأولى الأقوال في ذلك بالصواب، قول من قال: يعطى العامل عليها على قدر

(١) فتح (٤٤٦/٣).

(٢) الأم (١٠٧/٢).

(٣) الأم (١٠٧/٢).

(٤) التمهيد (٦٣/٧).

عمالته وأجر مثله.

وإنما قلنا: ذلك أولى بالصواب، لأن الله جل ثناؤه لم يقسم صدقة الأموال بين الأصناف الثمانية على ثمانية أسهم، وإنما عرّف خلقه أن الصدقات لن تتجاوز هؤلاء الأصناف الثمانية إلى غيرهم، وإذا كان كذلك، بما سنوضح بعد، وبما قد أوضحناه في موضع آخر، كان معلومًا أن من أعطي منها حقًا، فإنما يعطى على قدر اجتهاد المعطى فيه. وإذا كان ذلك كذلك، وكان العامل عليها إنما يعطى على عمله، لا على الحاجة التي تزول بالعطية، كان معلومًا أن الذي أعطاه من ذلك إنما هو عوض من سعيه وعمله، وأن ذلك إنما هو قدر يستحقه عوضًا من عمله الذي لا يزول بالعطية، وإنما يزول بالعزل.

|

المؤلفة قلوبهم

س: من هم المؤلفة قلوبهم؟

ج: هم أصناف:

❖ **صنف منهم كفار:** يعطون ما لا كي يدخلوا في الإسلام ويُتألفوا.

وقسم منهم يُعطى من المال لكف شره ودفع أذاه.

❖ **وصنف مسلمون:** لكنهم ضعفاء الإيمان فيعطون من المال لتقوية إيمانهم.

وقسم منهم يعطون من المال لإسلام نظرائهم أو لجمع الزكوات ممن تتمرّد من قبائلهم ونحو ذلك.

وقسم منهم أيضًا يُعطى من المال لدفع شره مع كونه مُسلمًا، وهذه بعض أقوال العلماء في ذلك.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ:

وأما المؤلفة قلوبهم: فأقسام: منهم من يعطى ليُسلم، كما أعطى النبي ﷺ صفوان بن أمية من غنائم حنين، وقد كان شهداها مشركًا. قال: فلم يزل يعطيني حتى صار أحبّ الناس إليّ بعد أن كان أبغض الناس إليّ، كما قال الإمام أحمد:

حدثنا زكريا بن عدي، أنا ابن المبارك، عن يونس، عن الزهري، عن سعيد بن المسيب، عن صفوان بن أمية قال: أعطاني رسول الله ﷺ يوم حنين، وإنه لأبغض الناس إليّ، فما زال يعطيني حتى صار وإنه لأحبّ الناس إليّ.

ورواه مسلم والترمذي، من حديث يونس، عن الزهري، به .

ومنهم من يُعطى ليُحسّن إسلامه ، ويثبت قلبه ، كما أعطى يوم حنين أيضًا جماعة من صناديد الطلقاء وأشرافهم مائة من الإبل ، مائة من الإبل وقال : «إني لأعطي الرجل وغيره أحب إليّ منه، مخافة أن يَكُفَّه الله على وجهه في نار جهنم»^(١).

وفي الصحيحين^(٢) عن أبي سعيد: أن عليًا بعث إلى النبي ﷺ بدُهيبة في تربتها من اليمن فقسمها بين أربعة نفر: الأقرع بن حابس، وعُيينة بن بدر، وعلقمة بن علاثة،

(١) البخاري (١٤٧٨).

(٢) البخاري (٣٣٤٤)، ومسلم (١٠٦٤).

وزيد الخير، وقال: «أتألفهم».

ومنهم من يُعطى لما يرجى من إسلام نظرائه. ومنهم من يُعطى ليجبي الصدقات ممن يليه، أو ليدفع عن حوزة المسلمين الضرر من أطراف البلاد. ومحل تفصيل هذا في كتب الفروع، والله أعلم.

قال القرطبي رَحِمَهُ اللهُ:

قوله تعالى: ﴿وَالْمُؤَلَّفَةُ قُلُوبُهُمْ﴾ لا ذكر للمؤلفة قلوبهم في التنزيل في غير قسم الصدقات، وهم قوم كانوا في صدر الإسلام ممن يظهر الإسلام، يتألفون بدفع سهم من الصدقة إليهم لضعف يقينهم. قال الزهري: المؤلفة من أسلم من يهودي أو نصراني وإن كان غنياً. وقال بعض المتأخرين: اختلف في صفتهم، فقيل: هم صنف من الكفار يعطون ليتألفوا على الإسلام، وكانوا لا يسلمون بالقهر والسيف، ولكن يسلمون بالعطاء والإحسان. وقيل: هم قوم أسلموا في الظاهر ولم تستيقن قلوبهم، فيعطون ليتمكن الإسلام في صدورهم. وقيل: هم قوم من عظماء المشركين لهم أتباع يعطون ليتألفوا أتباعهم على الإسلام. قال: وهذه الأقوال متقاربة والقصد بجمعها الإيعاء لمن لا يتمكن إسلامه حقيقة إلا بالعطاء، فكأنه ضرب من الجهاد.

والمشركون ثلاثة أصناف: صنف يرجع بإقامة البرهان. وصنف بالقهر. وصنف بالإحسان. والإمام الناظر للمسلمين يستعمل مع كل صنف ما يراه سبباً لنجاته وتخليصه من الكفر. وفي صحيح مسلم من حديث أنس، فقال رسول الله ﷺ - أعني للأنصار -: «فإني أعطي رجلاً حديثي عهد بكفر أتألفهم...» الحديث. قال ابن إسحاق: أعطاهم يتألفهم ويتألف بهم قومهم. وكانوا أشرافاً، فأعطى أباسفيان بن حرب مائة بعير، وأعطى ابنه مائة بعير، وأعطى حكيم بن حزام مائة بعير، وأعطى الحارث بن هشام مائة بعير، وأعطى سهيل بن عمرو مائة بعير، وأعطى حويطب بن عبد العزى مائة بعير، وأعطى صفوان بن أمية مائة بعير. وكذلك أعطى مالك بن عوف والعلاء بن جارية. قال: فهؤلاء أصحاب المؤمنين. وأعطى رجلاً من قريش دون المائة منهم مخزومة بن نوفل الزهري وعمير بن وهب الجمحي، وهشام بن عمرو العامري. قال ابن إسحاق: فهؤلاء لا أعرف ما أعطاهم.

وقال ابن الجوزي (زاد المسير):

قوله تعالى: ﴿وَالْمُؤَلَّفَةُ قُلُوبُهُمْ﴾ وهم قوم كان رسول الله ﷺ يتألفهم على الإسلام بما يعطيهم، وكانوا ذوي شرف، وهم صنفان: مسلمون، وكافرون، فأما المسلمون: فصنفان صنف كانت نياتهم في الإسلام ضعيفة فتألفهم تقوية لنياتهم كعينة بن حصن والأقرع، وصنف كانت نياتهم حسنة فأعطوا تألفاً لعشائهم من المشركين، مثل عدي بن حاتم، وأما المشركون فصنفان: صنف يقصدون المسلمين بالأذى فتألفهم دفعاً لأذاهم، مثل عامر بن الطفيل وصنف كان لهم ميل إلى الإسلام تألفهم بالعطية ليؤمنوا كصفوان بن أمية.

وقال الطبري رحمه الله:

وأما ﴿وَالْمُؤَلَّفَةُ قُلُوبُهُمْ﴾، فإنهم قوم كانوا يُتألفون على الإسلام، ممن لم تصح نصرته، استصلاحاً به نفسه وعشيرته، كأبي سفيان بن حرب، وعيينة بن بدر، والأقرع بن حابس، ونظرائهم من رؤساء القبائل.

قال السعدي رحمه الله:

المؤلفة قلوبهم، المؤلف قلبه: هو السيد المطاع في قومه، ممن يرجى إسلامه، أو يخشى شره أو يرجى بعطيته قوة إيمانه، أو إسلام نظيره، أو جبايتها ممن لا يعطيها، فيعطى ما يحصل به التأليف والمصلحة.

س: هل سهم المؤلف قلوبهم ما زال باقياً؟

ج: نعم ما زال باقياً فليس هنالك دليل يسقطه، والذي روي عن عمر رضي الله عنه من إسقاطه في زمانه وإنما كان في زمن أعز الله فيه الإسلام وأهله، ولم يعد آنذاك يحتاج إلى تأليف القلوب.

أما إذا حل بالمسلمين ضعف، أو اعترتهم شدة، أو طمعوا في إسلام أحد فليس هناك أي دليل يمنع من إعطائه من باب تأليف القلوب، وقد أعطى النبي ﷺ عدداً من المؤلف قلوبهم، وهو في حال نصر وتمكين، وذلك بعد انتصاره على هوازن في غزوة حنين.

وينحو ذلك قال العلماء.

قال الطبري رَحِمَهُ اللهُ:

ثم اختلف أهل العلم في وجود المؤلفة اليوم وعدمها، وهل يعطى اليوم أحدٌ على التألف على الإسلام من الصدقة؟ فقال بعضهم: قد بطلت المؤلفة قلوبهم اليوم، ولا سهم لأحد في الصدقة المفروضة إلا لذي حاجة إليها، وفي سبيل الله، أو لعامل عليها.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ:

وهل تعطى المؤلفة على الإسلام بعد النبي ﷺ؟ فيه خلاف، فروي عن عمر، وعامر الشعبي وجماعة: أنهم لا يُعْطَوْنَ بعده؛ لأن الله قد أعز الإسلام وأهله، ومكَّن لهم في البلاد، وأذل لهم رقاب العباد.

وقال آخرون: بل يُعْطَوْنَ؛ لأنه عليه الصلاة والسلام قد أعطاهم بعد فتح مكة وكسر هوازن، وهذا أمر قد يحتاج إليه فيصرف إليهم.

وقال القرطبي رَحِمَهُ اللهُ:

واختلف العلماء في بقائهم، فقال عمر والحسن والشعبي وغيرهم: انقطع هذا الصنف بعز الإسلام وظهوره. وهذا مشهور من مذهب مالك وأصحاب الرأي. قال بعض علماء الحنفية: لما أعز الله الإسلام وأهله وقطع دابر الكافرين - لعنهم الله - اجتمعت الصحابة رضوان الله عنهم أجمعين في خلافة أبي بكر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ على سقوط سهمهم. وقال جماعة من العلماء: هم باقون لأن الإمام ربما احتاج أن يستألف على الإسلام. وإنما قطعهم عمر لما رأى من إعزاز الدين. قال يونس: سألت الزهري عنهم فقال: لا أعلم نسخاً في ذلك. قال أبو جعفر النحاس: فعلى هذا الحكم فيهم ثابت، فإن كان أحد يحتاج إلى تألفه ويخاف أن تلحق المسلمين منه آفة أو يرجى أن يحسن إسلامه بعد دفع إليه. قال القاضي عبد الوهاب: إن احتيج إليهم في بعض الأوقات أعطوا من الصدقة. وقال القاضي ابن العربي: الذي عندي أنه إن قوي الإسلام زالوا، وإن احتيج إليهم أعطوا سهمهم كما كان رسول الله ﷺ يعطيهم، فإن في الصحيح: «بدأ الإسلام غريباً وسيعود كما بدأ».

قال ابن قدامة في «المغني»^(١) في المؤلفات قلوبهم:

ولنا كتاب الله وسنة رسوله فإن الله تعالى سمي المؤلف في الأصناف الذين سمي الصدقة لهم، والنبى ﷺ قال: «إن الله تعالى حكم فيها فجزأها ثمانية أجزاء»^(٢).

وكان يعطي المؤلف كثيراً في أخبار مشهورة، ولم يزل كذلك حتى مات، ولا يجوز ترك كتاب الله وسنة رسوله ﷺ إلا بنسخ، والنسخ لا يثبت بالاحتمال، ثم إن النسخ إنما يكون في حياة النبي ﷺ، لأن النسخ إنما يكون بالنص ولا يكون النص بعد موت النبي ﷺ، وانقراض زمن الوحي، ثم إن القرآن لا ينسخ إلا بقرآن، وليس في القرآن نسخ كذلك ولا في السنة فكيف يترك كتاب الله والسنة بمجرد الآراء والتحكم أو بقول صحابي؟!!

وقال ابن حزم^(٣):

وادعى قوم أن سهم المؤلفات قلوبهم قد سقط، وهذا باطل، بل هم اليوم أكثر مما كانوا.

س: اذكر بعض الوارد في إعطاء رسول الله ﷺ المؤلفات قلوبهم؟**ج: من ذلك ما يلي:**

ما أخرجه مسلم^(٤) في صحيحه من حديث أنس رضي الله عنه قال: مَا سُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى الْإِسْلَامَ شَيْئًا إِلَّا أَعْطَاهُ، قَالَ: فَجَاءَهُ رَجُلٌ فَأَعْطَاهُ غَنَمًا بَيْنَ جَبَلَيْنِ، فَرَجَعَ إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ: يَا قَوْمِ أَسْلِمُوا، فَإِنَّ مُحَمَّدًا يُعْطِي عَطَاءً لَا يَخْشَى الْفَاقَةَ.

وما أخرجه مسلم^(٥) في صحيحه من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: بَعَثَ عَلِيٌّ رضي الله عنه وَهُوَ بِالْيَمَنِ بِذَهَبَةٍ فِي ثُرْبَتِهَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَسَمَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَيْنَ أَرْبَعَةِ نَفَرٍ: الْأَقْرَعُ بْنُ حَابِسٍ الْحَنْظَلِيُّ، وَعُيَيْنَةُ بْنُ بَدْرِ الْفَزَارِيُّ،

(١) المغني (٤/ ١٢٤).

(٢) سنده ضعيف، وقد تقدم.

(٣) المحلى (٦/ ١٤٥).

(٤) مسلم (٢٣١٢).

(٥) مسلم (١٠٦٤).

وَعَلَقَمَهُ بَنُ عُلَاتَةَ الْعَامِرِيَّ، ثُمَّ أَحَدُ بَنِي كِلَابٍ، وَزَيْدُ الْخَيْرِ الطَّائِي ثُمَّ أَحَدُ بَنِي نَبْهَانَ، قَالَ: فَغَضِبَتْ قُرَيْشٌ فَقَالُوا: أَنْعُطِي صَنَادِيدَ نَجْدٍ وَتَدْعُنَا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنِّي إِنَّمَا فَعَلْتُ ذَلِكَ لِأَتَأَلَّفَهُمْ» فَجَاءَ رَجُلٌ كَثُ اللَّحْيَةِ، مُشْرِفُ الْوَجَنْتَيْنِ، غَائِرُ الْعَيْنَيْنِ، نَاتِيءُ الْجَبِينِ، مَحْلُوقُ الرَّأْسِ، فَقَالَ: اتَّقِ اللَّهَ يَا مُحَمَّدُ. قَالَ: فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «فَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ إِنْ عَصَيْتُهُ أَيَأْمِنُنِي عَلَى أَهْلِ الْأَرْضِ وَلَا تَأْمِنُونِي» قَالَ: ثُمَّ أَدْبَرَ الرَّجُلُ، فَاسْتَأْذَنَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ فِي قَتْلِهِ يُرَوْنَ أَنَّهُ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ مِنْ ضِئْضِئِي هَذَا قَوْمًا يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ لَا يَجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ، يَقْتُلُونَ أَهْلَ الْإِسْلَامِ، وَيَدْعُونَ أَهْلَ الْأَوْتَانِ يَمْرِقُونَ مِنَ الْإِسْلَامِ كَمَا يَمْرِقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ، لَئِنْ أَدْرَكْتَهُمْ لَا قَتَلْتَهُمْ قَتْلَ عَادٍ».

وما أخرجه البخاري ومسلم^(١) من حديث أنس رضي الله عنه: أَنَّ أَنَسًا مِنَ الْأَنْصَارِ قَالُوا يَوْمَ حُنَيْنٍ أَفَاءَ اللَّهِ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَمْوَالٍ هَوَازِنَ مَا أَفَاءَ، فَطَفِقَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُعْطِي رَجَالًا مِنْ قُرَيْشٍ الْمِائَةَ مِنَ الْإِبِلِ، فَقَالُوا: يَغْفِرُ اللَّهُ لِرَسُولِ اللَّهِ يُعْطِي قُرَيْشًا وَيَتْرُكُنَا وَسُيُوفُنَا تَقْطُرُ مِنْ دِمَائِهِمْ.

قَالَ أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ: فَحَدَّثَ ذَلِكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ قَوْلِهِمْ، فَأَرْسَلَ إِلَى الْأَنْصَارِ فَجَمَعَهُمْ فِي قُبَّةٍ مِنْ أَدَمٍ، فَلَمَّا اجْتَمَعُوا جَاءَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: «مَا حَدِيثُ بَلْعَنِي عَنْكُمْ؟» فَقَالَ لَهُ فَهَاءُ الْأَنْصَارِ: أَمَّا دَوُو رَأِينَا يَا رَسُولَ اللَّهِ فَلَمْ يَقُولُوا شَيْئًا، وَأَمَّا أَنَسٌ مِنَّا حَدِيثُهُ أَسْنَانُهُمْ قَالُوا: يَغْفِرُ اللَّهُ لِرَسُولِهِ يُعْطِي قُرَيْشًا وَيَتْرُكُنَا وَسُيُوفُنَا تَقْطُرُ مِنْ دِمَائِهِمْ؟! فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «فَإِنِّي أُعْطِي رَجَالًا حَدِيثِي عَهْدٍ بِكَفْرِ أَتَأَلَّفُهُمْ أَفَلَا تَرْضَوْنَ أَنْ يَذْهَبَ النَّاسُ بِالْأَمْوَالِ وَتَرْجِعُونَ إِلَى رِحَالِكُمْ بِرَسُولِ اللَّهِ فَوَاللَّهِ لَمَا تَنْقَلِبُونَ بِهِ خَيْرٌ مِمَّا يَنْقَلِبُونَ بِهِ» فَقَالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ قَدْ رَضِينَا. قَالَ: «فَإِنَّكُمْ سَتَجِدُونَ أَثَرَهُ شَدِيدَةً فَاصْبِرُوا حَتَّى تَلْقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنِّي عَلَى الْحَوْضِ» قَالُوا: سَنَصْبِرُ.

وما أخرجه البخاري ومسلم^(٢) من حديث عبد الله بن مسعود قال: لَمَّا كَانَ يَوْمُ

(١) البخاري (٤٣٣١)، ومسلم (١٠٥٩) واللفظ له.

(٢) البخاري (٤٣٣٥)، ومسلم (١٠٦٢).

حَنِينٍ، أَثَرُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ نَاسًا فِي الْقِسْمَةِ، فَأَعْطَى الْأَقْرَعَ بْنَ حَابِسٍ مِائَةً مِنَ الْإِبِلِ، وَأَعْطَى عُيَيْنَةَ مِثْلَ ذَلِكَ، وَأَعْطَى أَنَسًا مِنْ أَشْرَافِ الْعَرَبِ، وَآثَرَهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْقِسْمَةِ، فَقَالَ رَجُلٌ: وَاللَّهِ إِنَّ هَذِهِ لِقِسْمَةٌ مَا عُدِلَ فِيهَا، وَمَا أُرِيدَ فِيهَا وَجْهَ اللَّهِ، قَالَ: فَقُلْتُ: وَاللَّهِ لَا أَخْبِرَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: فَأَتَيْتُهُ فَأَخْبَرْتُهُ بِمَا قَالَ، قَالَ: فَتَغَيَّرَ وَجْهُهُ حَتَّى كَانَ كَالصَّرْفِ، ثُمَّ قَالَ: «فَمَنْ يَعْدِلُ إِنْ لَمْ يَعْدِلِ اللَّهُ وَرَسُولُهُ» قَالَ: ثُمَّ قَالَ: «يَرْحَمُ اللَّهُ مُوسَى قَدْ أُودِيَ بِأَكْثَرٍ مِنْ هَذَا فَصَبِرَ» قَالَ: قُلْتُ: لَا جَرَمَ لَا أَرْفَعُ إِلَيْهِ بَعْدَهَا حَدِيثًا.

وفي صحيح مسلم من حديث رافع بن خديج قال: أعطى رسول الله ﷺ أبا سفيان بن حرب، وصفيان بن أمية، وعيينة بن حصن، والأقرع بن حابس، كل إنسان منهم مائة من الإبل، وأعطى عباس بن مرداس دون ذلك، فقال عباس بن مرداس:

أَتَجْعَلُ نَهْيِي وَنَهْيَ الْعَبِيدِ بَيْنَ عُيَيْنَةَ وَالْأَقْرَعَ
فَمَا كَانَ بَدْرٌ وَلَا حَابِسٌ يَفُوقَانِ مِرْدَاسَ فِي الْمَجْمَعِ
وَمَا كُنْتُ دُونَ أَمْرِي مِنْهُمَا وَمَنْ تَخْفِضُ الْيَوْمَ لَا يُرْفَعِ

قَالَ: فَآتَمَّ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِائَةً.

اس: ما المراد بقوله تعالى: ﴿وَفِي الرِّقَابِ﴾؟

ج: المراد - والله تعالى أعلم - أن الزكاة تُخرج في الرقاب.

ولأهل العلم في ذلك قولان:

أحدهما: أن المراد بذلك إعانة العبد المكاتب أي: أن العبد قد يشتري نفسه من سيده بمبلغ معين مثلاً، ويكتب كتاباً بينه وبين سيده بذلك فيسمى مكاتباً، فهذا المكاتب يُعان على سداد ديونه من زكاة المال، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَءَاتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي ءَاتَاكُمْ﴾ وقال ﷺ: «ثلاثة حق على الله عونهم... المكاتب يريد الأداء»^(١).

القول الثاني: أن المراد بقوله: ﴿وَفِي الرِّقَابِ﴾ في شراء العبيد وعتقهم على أن يكون ولاؤهم للمسلمين عامة.

(١) إسناده حسن: أخرجه الترمذي (١٦٥٥) وغيره.

وكإيضاح لهذا الكلام أنك إذا اشتريت عبداً وأعتقته ولم يكن له وارث فأنت يا من أعتقته ترثه، ولهذا يُقال الولاء لمن أعتق، أما قوله: ويكون الولاء للمسلمين فذلك حتى لا يرجع إليك يا من وضعت زكاتك في عتق العبيد، حتى لا ترجع إليك فائدة من العبيد عند موتهم بل يكون ولاءهم للمسلمين.

فلذا منع بعض أهل العلم شراء عبداً من الأصل، وعتقه من مال الزكاة، وذلك حتى لا يرجع إلى المزكي ولاء هذا الشخص.

أما الذين جوزوا شراء عبداً وعتقه من مال الزكاة، فإنهم قيدوا ذلك بأن يكون الولاء للمسلمين كلهم، وليس لمن أعتق.

وهذه أقوال بعض العلماء في ذلك.

قال الطبري رَحِمَهُ اللهُ:

وأما قوله: ﴿وَفِي الرِّقَابِ﴾، فإن أهل التأويل اختلفوا في معناه.

فقال بعضهم، وهم الجمهور الأعظم: هم المكاتبون، يعطون منها في فك رقابهم.

وروي عن ابن عباس أنه قال: لا بأس أن تُعتَقَ الرقبة من الزكاة.

قال أبو جعفر: والصواب من القول في ذلك عندي، قول من قال: «عني بالرقاب،

في هذا الموضع، المكاتبون»، لإجماع الحجة على ذلك، فإن الله جعل الزكاة حقاً واجباً على من أوجبها عليه في ماله، يخرجها منه، لا يرجع إليه منها نفع من عرض الدنيا، ولا عوض. والمعتق رقبةً منها، راجع إليه ولاء من أعتقه، وذلك نفع يعود إليه منها.

قال السعدي رَحِمَهُ اللهُ:

الرقاب، وهم المكاتبون الذين قد اشتروا أنفسهم من ساداتهم، فهم يسعون في

تحصيل ما يفك رقابهم، فيعانون على ذلك من الزكاة، وفك الرقبة المسلمة التي في

حبس الكفار داخل في هذا، بل أولى، ويدخل في هذا أنه يجوز أن يعتق منها الرقاب

استقلالاً لدخوله في قوله: ﴿وَفِي الرِّقَابِ﴾.

وقال النووي في «المجموع»^(١):

قال الشافعي والأصحاب: يصرف سهم الرقاب إلى المكاتبين، هذا مذهبنا، وبه قال أكثر العلماء، كذا نقله عن الأكثرين البيهقي في «السنن الكبرى»، والمتولي، وبه قال علي بن أبي طالب، وسعيد بن جبير، والزهرى، والليث بن سعد، والثوري، وأبو حنيفة، وأصحابه.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية «الفتاوى»^(٢): ﴿وَفِي الرِّقَابِ﴾ يدخل فيه إعانة المكاتبين وافتداء الأسرى وعتق الرقاب.

الغارمون

س: من المعنيون بقوله تعالى: ﴿وَالْغَارِمِينَ﴾؟

ج: لأهل العلم في ذلك قولان:

أحدهما: أن الغارمين هم المدينون الذين استدانوا لحاجة وليس عندهم وفاء، أي: وليس عندهم مال يسددون به الدين، وكذا الذين ذهب أموالهم بخسارة كسيل أو خسارة في تجارة، أو حريق، أو غير ذلك فاستدانوا وليس عندهم ما تسدد به ديونهم.

الثاني: أن الغارمين هم الذين تدخلوا للإصلاح بين الناس وغرموا من أموالهم أموالاً لفض المنازعات وإزالة المشاحنات.

وأدخل البعض فيهم الذين ضمنوا أقواماً فلم يفي الأقوام بالسداد فقاموا بالسداد عنهم.

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ:

وأما الغارمون: فهم أقسام: فمنهم من تحمّل حمالة أو ضمن ديناً فلزمه فأجحف بماله، أو غرم في أداء دينه أو في معصية ثم تاب، فهؤلاء يدفع إليهم. والأصل في هذا الباب حديث قبيصة بن مخارق الهلالي قال: تحملت حمالة فأتيت رسول الله ﷺ أسأله فيها، فقال: «أقم حتى تأتينا الصدقة، فنأمر لك بها». قال: ثم قال: «يا قبيصة، إن

(١) المجموع (٦/ ٢٠٠).

(٢) الفتاوى (٢٨/ ٢٧٤).

المسألة لا تحل إلا لأحد ثلاثة: رجل تحمّل حمالة فحلت له المسألة حتى يصيبها، ثم يمسك. ورجل أصابته جائحة اجتاحت ماله، فحلت له المسألة حتى يصيب قوامًا من عيش: أو قال: سدادًا من عيش - ورجل أصابته فاقة حتى يقوم ثلاثة من ذوي الحجا من قومه، فيقولون: لقد أصابت فلانا فاقة فحلت له المسألة، حتى يصيب قوامًا من عيش - أو قال: سدادًا من عيش - فما سواه من المسألة سحت، يأكلها صاحبها سحتًا». رواه مسلم^(١).

وعن أبي سعيد قال: أصيب رجل في عهد رسول الله ﷺ في ثمار ابتاعها، فكثر دينه، فقال النبي ﷺ: «تصدقوا عليه». فتصدق الناس فلم يبلغ ذلك وفاء دينه، فقال النبي ﷺ لغرمائه: «خذوا ما وجدتم، وليس لكم إلا ذلك». رواه مسلم^(٢).

وقال الطبري رحمه الله:

وأما «الغارمون»، الذين استدانوا في غير معصية الله، ثم لم يجدوا قضاء في عين ولا عرض.

وقال ابن الجوزي (زاد المسير):

قوله تعالى: ﴿وَالْغَرَامِينَ﴾ وهم الذين لزمهم الدين ولا يجدون القضاء، قال قتادة: هم ناس عليهم دينٌ من غير فساد ولا إسراف ولا تبذير، وإنما قال هذا؛ لأنه لا يؤمن في حق المفسد إذا قُضي دينه أن يعود إلى الاستدانة لذلك؛ ولا خلاف في جواز قضاء دينه ودفع الزكاة إليه، ولكن قتادة قاله على وجه الكراهية.

وقال السعدي رحمه الله:

والسادس: الغارمون، وهم قسمان:

أحدهما: الغارمون لإصلاح ذات البين، وهو أن يكون بين طائفتين من الناس شر وفتنة، فيتوسط الرجل للإصلاح بينهم بمال يبذله لأحدهم أو لهم كلهم، فجعل له نصيب من الزكاة، ليكون أنشط له وأقوى لعزمه، فيعطى ولو كان غنيًا.

والثاني: من غرم لنفسه ثم أعسر، فإنه يعطى ما يُوفى به دينه.

(١) مسلم (١٠٤٤).

(٢) مسلم (١٥٥٦).

قال القرطبي رحمه الله:

قوله تعالى: ﴿وَالْغَرَمِينَ﴾ هم الذين ركبهم الدين ولا وفاء عندهم به، ولا خلاف فيه. اللهم إلا من اذَّان في سفاهة فإنه لا يعطى منها ولا من غيرها إلا أن يتوب. ويعطى منها من له مال وعليه دين محيط به ما يقضي به دينه، فإن لم يكن له مال وعليه دين فهو فقير وغارم فيعطى بالوصفين. روى مسلم عن أبي سعيد الخدري قال: أصيب رجل في عهد رسول الله ﷺ في ثمار ابتاعها فكثر دينه. فقال رسول الله ﷺ: «تصدقوا عليه». فتصدق الناس عليه فلم يبلغ ذلك وفاء دينه. فقال رسول الله ﷺ لغرمائه: «خذوا ما وجدتم وليس لكم إلا ذلك».

وقال: ويجوز للمتحمل في صلاح وبر أن يُعطى من الصدقة ما يؤدي ما تحمل به إذا وجب عليه وإن كان غنياً، إذا كان ذلك يجحف بماله كالغريم. وهو قول الشافعي وأصحابه وأحمد بن حنبل وغيرهم. واحتج من ذهب هذا المذهب بحديث قبيصة بن مخارق قال: تحملت حمالة فأتيت النبي ﷺ أسأله فيها فقال: «أقم حتى تأتين الصدقة فنأمر لك بها - ثم قال - يا قبيصة إن المسألة لا تحل إلا لأحد ثلاثة رجل تحمل حمالة فحلت له المسألة حتى يصيبها ثم يمسك ورجل أصابته جائحة اجتاحت ماله فحلت له المسألة حتى يصيب قواماً من عيش - أو قال: سداً من عيش - ورجل أصابته فاقة حتى يقوم ثلاثة من ذوي الحِجَاب من قومه لقد أصابت فلاناً فاقة فحلت له المسألة حتى يصيب قواماً من عيش - أو قال: سداً من عيش - فما سواهن من المسألة يا قبيصة سحتاً يأكلها صاحبها سحتاً». فقوله: «ثم يمسك» دليل على أنه غني، لأن الفقير ليس عليه أن يمسك. والله أعلم. وروي عنه ﷺ أنه قال: «إن المسألة لا تحل إلا لأحد ثلاثة لذي فقر مدقع أو لذي غرم مفطع أو لذي دم موجع». وروي عنه ﷺ: «لا تحل الصدقة لغني إلا لخمسة...» الحديث. وسيأتي.

قال الشافعي في الأم^(١):

وَصَنَّفْ أَدَانُوا فِي حِمَالَاتٍ وَإِصْلَاحِ ذَاتِ بَيْنٍ وَمَعْرُوفٍ وَلَهُمْ عُرُوضٌ تَحْمِلُ

(١) الأم (٢/١٠٨).

حَمَّالَاتِهِمْ أَوْ عَامَّتَهَا إِنْ بَيَّعْتَ أَضْرَّ ذَلِكَ بِهِمْ وَإِنْ لَمْ يَفْتَقِرُوا فَيُعْطَى هَؤُلَاءِ مَا يُوفَّرُ
عُرْوَتُهُمْ كَمَا يُعْطَى أَهْلُ الْحَاجَةِ مِنَ الْغَارِمِينَ حَتَّى يَقْضُوا غُرْمَهُمْ.

وقال النووي في المجموع^(١):

قال الشافعي: والأصحاب الغارمون ضربان الضرب الأول: من غرم لإصلاح ذات البين، ومعناه أن يستدين مالا ويصرفه في إصلاح ذات البين، بأن يخاف فتنة بين قبيلتين أو طائفتين، أو شخصين، فيستدين مالا ويصرفه في تسكين تلك الفتنة، فينظر إن كان ذلك في دم تنازع فيه قبيلتان أو غيرهما، ولم يظهر القاتل أو نحو ذلك، وبقي الدين في ذمته فهذا يصرف إليه من سهم الغارمين من الزكاة، سواء كان غنيا أو فقيرا، ولا فرق بين غناه بالنقد والعقار وغيرهما، هذا هو المذهب.

وقال ابن عبد البر في الاستذكار^(٢):

وأما الشافعي وأصحابه وأحمد بن حنبل وسائر أهل العلم فيما علمت فإنهم قالوا: والمحمّل بحمالة في بر وإصلاح، والتمدين في غير فساد، كلاهما يجوز له أداء دينه من الصدقة، وإن كان الحميل غنيا فإنه يجوز له أخذ الصدقة إذا وجب عليه أداء ما تحمّل به وكان ذلك يجحف به.

وقال ابن عبد البر أيضا^(٣): وتحل لغارم غرما قد فدحه، وذهب بماله إذا لم يكن غرمه في فساد ولا دينه في فساد مثل أن يستدين في نكاح أو حج أو غير ذلك من وجوه المباح والصالح.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية^(٤): الذين يأخذون الزكاة صنفان: صنف يأخذ لحاجته كالفقير، والغارم لمصلحة نفسه، وصنف يأخذها لحاجة المسلمين كالمجاهد والغارم في إصلاح ذات البين، فهؤلاء يجوز دفعها إليهم، وإن كانوا من أقاربه.

(١) النووي في المجموع (٢٠٧/٦).

(٢) الاستذكار (٢٠٢/٩).

(٣) الاستذكار (٢٠٢/٩).

(٤) مجموع الفتاوى (٩٠/٢٥).

قلت (مصطفى): والأصل في هذا، أعني في تفسير الغارمين ما أخرجه مسلم في «صحيحه» من حديث قَبِيصَةَ بِنِ مَخَارِقِ الْهَلَالِيِّ قَالَ: تَحَمَّلْتُ حَمَالَةً. فَأَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: «أَقِمِ يَا قَبِيصَةُ حَتَّى تَأْتِيَنَا الصَّدَقَةُ. فَنَأْمُرَ لَكَ بِهَا» ثُمَّ قَالَ: «يَا قَبِيصَةُ! إِنَّ الْمَسْأَلَةَ لَا تَحِلُّ إِلَّا لِأَحَدٍ ثَلَاثَةً: رَجُلٌ تَحْمَلُ حَمَالَةً فَحَلَّتْ لَهُ الْمَسْأَلَةُ فَسَأَلَ حَتَّى يُصِيبَهَا ثُمَّ يُمْسِكُ، وَرَجُلٌ أَصَابَتْهُ جَائِحَةٌ فَاجْتَا حَتَّى مَالَهُ فَحَلَّتْ لَهُ الْمَسْأَلَةُ فَسَأَلَ حَتَّى يُصِيبَ قَوْمًا مِنْ عَيْشٍ، (أَوْ قَالَ: سِدَادًا مِنْ عَيْشٍ)، وَرَجُلٌ أَصَابَتْهُ فَاقَةٌ حَتَّى يَقُولَ ثَلَاثَةً مِنْ ذَوِي الْحِجَابِ مِنْ قَوْمِهِ: قَدْ أَصَابَتْ فُلَانًا الْفَاقَةُ فَحَلَّتْ لَهُ الْمَسْأَلَةُ فَسَأَلَ حَتَّى يُصِيبَ قَوْمًا مِنْ عَيْشٍ (أَوْ سِدَادًا مِنْ عَيْشٍ) ثُمَّ يُمْسِكُ وَمَا سِوَاهُنَّ مِنَ الْمَسْأَلَةِ، يَا قَبِيصَةُ! سُحْتُ يَا كُلُّهَا صَاحِبُهَا سُحْتًا».

قال النووي في شرح هذا الحديث:

(تَحْمَلُ حَمَالَةً) هُوَ الْمَالُ الَّذِي يَتَحَمَّلُهُ الْإِنْسَانُ أَيْ يَسْتَدِينُ وَيُدْفَعُهُ فِي إِصْلَاحِ ذَاتِ الْبَيْنِ كَالِإِصْلَاحِ بَيْنَ قَبِيلَتَيْنِ وَنَحْوِ ذَلِكَ، وَإِنَّمَا تَحِلُّ لَهُ الْمَسْأَلَةُ، وَيُعْطَى مِنَ الزَّكَاةِ بِشَرْطٍ أَنْ يَسْتَدِينُ بغيرِ مَعْصِيَةٍ.

وقال الشوكاني في نيل الأوطار:

الحمالة: وهو ما يتحمله الإنسان ويلتزمه في ذمته بالاستدانة ليدفعه في إصلاح ذات البين وإنما تحل له المسألة بسببه ويعطى من الزكاة بشرط أن يستدين لغير معصية وإلى هذا ذهب الحسن البصري والباقر والهادي وأبو العباس وأبو طالب. وروي عن الفقهاء الأربعة والمؤيد بالله أنه يعان لأن الآية لم تفصل وشرط بعضهم أن الحماله لا بد أن تكون لتسكين فتنة وقد كانت العرب إذا وقعت بينهم فتنة اقتضت غرامة في دية أو غيرها قام أحدهم ف تبرع بالتزام ذلك والقيام به حتى ترتفع تلك الفتنة الثائرة ولا شك أن هذا من مكارم الأخلاق وكانوا إذا علموا أن أحدهم تحمل حمالة بادروا إلى معونته وأعطوه ما تبرأ به ذمته وإذا سأل لذلك لم يعد نقصاً في قدره بل فخراً. اهـ.

س: هل يجوز قضاء دين الميت من الزكاة إذا لم يكن ترك ميراثاً؟

ج: اختلف العلماء في ذلك على قولين:

القول الأول عدم الجواز: ويبدو أنه قول أكثر أهل العلم.

قال ابن قدامة في المغني^(١):

قال أبو داود: سئل أحمد عن قضاء الدين عن الميت؟ قال: لا يقضى من الزكاة دين الميت وإنما لم يجز دفعها في قضاء دين الميت لأن الغارم هو الميت ولا يمكن الدفع إليه وإن دفعها إلى غريمه صار الدفع إلى الغريم لا إلى الغارم وقال أيضاً: يقضى من الزكاة دين الحي ولا يقضى منها دين الميت لأن الميت لا يكون غارماً قيل: فإنما يعطى أهله قال: إن كانت على أهله فنعلم.

قال ابن عبد البر^(٢):

وأجمعوا على أنه لا يؤدي من الزكاة دين ميت ولا يكفن منها ولا يبنى منها مسجد ولا يشتري منها مصحف ولا يعطى لذي ولا مسلم غني.

وقال أبو عبيد في كتاب الأموال^(٣):

فأما قضاء الدين عن الميت والعطية في كفنه وبنيان المساجد واحتفار الأنهار وما أشبه ذلك من أنواع البر، فإن سفيان وأهل العراق وغيرهم من العلماء يجمعون على أن ذلك لا يجزئ من الزكاة؛ لأنه ليس من الأصناف الثمانية.

قال أبو عبيد: وإنما اختلف الحي والميت أن يكون الميت غارماً؛ لأن الدين الذي أدانه قد تحول على غيره وهو الوارث، فإن كان للميت وفاء بدينه؛ كان في ميراثه، وكان ذلك دون الصدقة، وإن لم يكن له مال، فليس على وارثه شيء، وليس بغارم؛ لأنه هو الذي أدان هذا الدين.

وقد أجمعت العلماء ألا يعطى من الزكاة في دين ميت، وأما الحي فإنه يُعطاه بالكتاب والسنة.

قلت (مصطفى): وهذا الإجماع الذي نقله ابن عبد البر وأبو عبيد منتقص ولا يصح، فالخلاف في المسألة ثابت ومشهور.

(١) المغني (٤/١٤٦).

(٢) الاستذكار (٩/٢٢٣).

(٣) الأموال (ص ٧٢٥).

قال النووي في المجموع^(١):

لو مات رجل وعليه دين ولا تركة هل يقضى من سهم الغارمين؟
فيه وجهان حكاهما صاحب البيان:

أحدهما: لا يجوز، وهو قول الصيمري ومذهب النخعي وأبي حنيفة وأحمد.
والثاني: يجوز لعموم الآية.

وقال ابن تيمية في المجموع^(٢):

أما الدين الذي على الميت فيجوز أن يُوفى من الزكاة في أحد قولي العلماء، وهو إحدى الروايتين عن أحمد؛ لأن الله تعالى قال: ﴿وَالْغَرَمِينَ﴾، ولم يقل: «وللغارمين»، فالغارم لا يُشترط تملكه.

وعلى هذا يجوز الوفاء عنه، وأن يملك لوارثه ولغيره، ولكن الذي عليه الدين لا يعطى ليستوفي دينه.

وقال القرطبي رَحِمَهُ اللهُ:

اختلفوا، هل يقضى منها دين الميت أم لا، فقال أبو حنيفة: لا يؤدي من الصدقة دين ميت. وهو قول ابن المواز. قال أبو حنيفة: ولا يعطى منها من عليه كفارة ونحو ذلك من حقوق الله تعالى، وإنما الغارم من عليه دين يسجن فيه. وقال علماؤنا وغيرهم: يقضى منها دين الميت لأنه من الغارمين، قال رَحِمَهُ اللهُ: «أنا أولى بكل مؤمن من نفسه من ترك مالا لأهله ومن ترك ديناً أو ضياعاً فإلي وعلي».

هذا، ومن حجج القائلين بقضاء الدين عن الميت عموم الآية الكريمة ﴿وَالْغَرَمِينَ﴾ وقوله رَحِمَهُ اللهُ الذي أخرجه البخاري^(٣) بلفظ: «أنا أولى بالمؤمنين من أنفسهم فمن مات وعليه دين ولم يترك وفاء فعلينا قضاؤه ومن ترك مالا فلورثته».

ورواه البخاري^(٤) في كتاب «التفسير» من رواية أبي هريرة مرفوعاً: «مَا مِنْ مُؤْمِنٍ

(١) المجموع (٦/ ٢١١).

(٢) مجموع الفتاوى (٢٥/ ٨٠).

(٣) البخاري (٦٧٣١).

(٤) البخاري (٦٧٨١).

إِلَّا وَأَنَا أَوْلَىٰ بِهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ أَقْرَءُوا إِن شِئْتُمْ: ﴿الَّتِي أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾^١
 فَأَيُّمَا مُؤْمِنٍ مَاتَ وَتَرَكَ مَالًا فَلْيَرِثْهُ عَصْبَتُهُ مَنْ كَانُوا، وَمَنْ تَرَكَ دِينًا أَوْ ضَيَاعًا فَلْيَأْتِنِي فَأَنَا
 مَوْلَاهُ».

ومسلم^(١) بلفظ قال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَنَا أَوْلَىٰ بِكُلِّ مُؤْمِنٍ مِنْ نَفْسِهِ، مَنْ تَرَكَ مَالًا فَلِأَهْلِهِ، وَمَنْ
 تَرَكَ دِينًا أَوْ ضَيَاعًا فَلِيََّ وَعَلَيَّ».

|

الديون التي سببها المعاصي

س: هل يُسدّد الدين الذي سببه معصية؟

ج: ذهب بعض العلماء إلى أن الشخص إذا استدان في معصية ولم يتب لم يعط من الزكاة لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَعَاوُزُ عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَنِ﴾ [المائدة: ٢].

وقال النووي في شرح مسلم^(١): ويُعطى من الزكاة بشرط أن يستدين بغير معصية.

وقال النووي في المجموع^(٢):

من غرم لصلاح نفسه وعياله، فإن استدان ما أنفقه على نفسه أو عياله في غير معصية، أو أتلف شيئاً على غيره سهواً، فهذا يعطى ما يقضى به دينه... ويكون دينه لطاعة أو مباح، فإن كان في معصية كالخمر ونحوه، وكالإنفاق في النفقة لم يعط قبل التوبة، هذا هو المذهب، وبه قطع المصنف والجمهور.

قال ابن عبد البر في الاستذكار^(٣):

وتحل -أي: الصدقة- لغارم غرماً قد فدحه وذهب بماله إذا لم يكن غرمه في فساد ولا دينه في فساد ولكن يعطي في نكاح أو حج أو غير ذلك من وجوه المباح والصالح. اهـ.

وقال المرداوي في الإنصاف^(٤):

ومن غرم أو سافر في معصية لم يدفع إليه. إذا غرم في معصية لم يدفع إليه من الزكاة بلا نزاع، وإذا سافر في معصية لم يدفع إليه أيضاً على الصحيح من المذهب، وقطع به الأكثرون.

| مصرف (في سبيل الله)

س: ما المراد بقوله تعالى: ﴿وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾؟

ج: المراد - والله أعلم - أن الزكوات من مصارفها أنها تصرف في سبيل الله،

(١) مسلم (١١٣/٤).

(٢) المجموع (٢٠٧/٦).

(٣) (٢٠٢/٩).

(٤) الإنصاف (٢٤٧/٣).

ولأهل العلم أقوال في بيان ذلك:

القول الأول: وهو قول الجمهور من العلماء أن (وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ) تختص بالمجاهدين في سبيل الله والغزاة ونحوهم، كلهم يُعطى من زكاة المال ويجهزون منها للغزو بما يحتاج إليه الغزو والجهاد، ويعطون منهم سواء كانوا أغنياء أو فقراء، وهذا قول أكثر العلماء.

القول الثاني: أن في سبيل الله تتعلق بالفقراء من الغزاة فقط، وكذا الفقراء من المجاهدين عموماً، أما الأغنياء منهم فلا يعطون منها.

القول الثالث: أن قوله: ﴿وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ يدخل فيه مع الغزاة والمجاهدين الحجاج كذلك، وسيأتي في ذلك سؤال مستقل وجوابه إن شاء الله.

القول الرابع: وهو أن قوله: ﴿وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ تدخل فيه أعمال البر عموماً مع الغزاة والمجاهدين، من بناء المساجد والمستشفيات وطبع الكتب والمصاحف وغير ذلك من وجوه الخير.

والقول الأول هو أشهر الأقوال وعليه أكثر العلماء.

وهذه بعض أقوالهم في ذلك: وأورد قبلها بعض الاستدلالات التي استدلو بها:

فمن الأدلة التي استدلو بها على أن ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ هم الغزاة بعض الآيات وبعض الأحاديث منها:

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمُوتَ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِن لَّا تَشْعُرُونَ﴾ (١٥٤)

[البقرة: ١٥٤].

وقوله تعالى: ﴿فَقَنِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضَ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَن يَكْفَ

بِأَسِّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بَاسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا﴾ (٨٤) [النساء: ٨٤].

وقوله تعالى: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنَ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ

الْآخِرِ وَجَاهِدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (١٩) [التوبة: ١٩].

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تَحْرِيقِ نُجُوحِكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ﴾ (١٠) ﴿تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ

وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (١١) [الصف: ١٠، ١١].

إلى غير ذلك من الآيات.

وكذا ما أخرجه البخاري ومسلم^(١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: أمر رسول الله ﷺ بالصدقة فقيل: منع ابن جميل وخالد بن الوليد وعباس بن عبد المطلب رضي الله عنه فقال النبي ﷺ: «ما ينقم ابن جميل إلا أنه كان فقيراً فأغناه الله ورسوله، وأما خالد فإنكم تظلمون خالداً قد احتبس أدراعه وأعتده في سبيل الله، وأما العباس بن عبد المطلب فعم رسول الله ﷺ فهي عليه صدقة ومثلها معها».

وقول النبي ﷺ الذي أخرجه مسلم^(٢) من حديث بريدة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «اغزوا باسم الله في سبيل الله قاتلوا من كفر بالله اغزوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليدًا...» الحديث.

أما عن أقوال العلماء فيها هي بعضها:

قال الطبري رحمته الله:

وأما قوله: (وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ) فإنه يعني: وفي النفقة في نصرة دين الله وطريقه وشريعته التي شرعها لعباده، بقتال أعدائه، وذلك هو غزو الكفار. وأورد بإسناد صحيح عن ابن زيد في قوله: (وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ) قال: الغازي في سبيل الله.

وقال ابن كثير رحمته الله: وأما (فِي سَبِيلِ اللَّهِ) فمنهم الغزاة الذين لا حق لهم في الديوان، وعند الإمام أحمد والحسن وإسحاق والحج من سبيل الله للحديث.

وقال ابن الجوزي (زاد المسير):

قوله تعالى: (وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ) يعني: الغزاة والمرابطين ويجوز عندنا أن يعطي الأغنياء منهم والفقراء وهو قول الشافعي وقال أبو حنيفة لا يعطى إلا الفقير منهم وهل يجوز أن يصرف من الزكاة إلى الحج أم لا فيه عن أحمد روايتان.

قال السعدي رحمته الله:

(١) البخاري (١٤٦٨)، ومسلم (٩٨٣).

(٢) مسلم (١٧٣١).

والسابع: الغازي في سبيل الله، وهم: الغزاة المتطوعة، الذين لا ديوان لهم، فيعطون من الزكاة ما يعينهم على غزوهم، من ثمن سلاح، أو دابة، أو نفقة له ولعِياله، ليتوفر على الجهاد ويطمئن قلبه.

وقال كثير من الفقهاء: إن تفرغ القادر على الكسب لطلب العلم، أعطي من الزكاة، لأن العلم داخل في الجهاد في سبيل الله.

وقالوا أيضًا: يجوز أن يعطى منها الفقير لحج فرضه، وفيه نظر.

وقال القرطبي رَحِمَهُ اللهُ:

قوله تعالى: (وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ) ﴿١﴾ وهم الغزاة وموضع الرباط، يعطون ما ينفقون في غزوهم كانوا أغنياء أو فقراء. وهذا قول أكثر العلماء، وهو تحصيل مذهب مالك رَحِمَهُ اللهُ.

وهذه أيضًا بعض أقوال الفقهاء:

قال النووي رَحِمَهُ اللهُ «المجموع»^(١):

ومذهبنا أن سهم سبيل الله المذكور في الآية الكريمة يُصرف إلى الغزاة.

وقال ابن عبد البر في «الاستذكار»^(٢):

فقال مالك وأبو حنيفة: (فِي سَبِيلِ اللَّهِ) ﴿١﴾ مواضع الجهاد والرباط، وقال أبو يوسف: هم الغزاة.

وقال السرخسي في المبسوط^(٣):

- أما قوله: (فِي سَبِيلِ اللَّهِ) ﴿١﴾، فهم فقراء الغزاة، هكذا قال أبو يوسف.
- وقول محمد بن الحسن: هم فقراء الحاج المنقطع لهم، لما رُوي أن... جعل بغيراً له في سبيل الله، فأمر رسول الله ﷺ أن يحمل عليه الحاج. وأبو يوسف يرى الطاعات كلها في سبيل الله تعالى، لكن عند الإطلاق هذا اللفظ المقصود بهم الغزاة عند الناس، ولا يصرف إلى الأغنياء من الغزاة عندنا.

(١) المجموع (٢١٢/٦).

(٢) الاستذكار (٢٢٢/٩).

(٣) (١٠/٣).

وقال ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ:

(وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ) هم الغزاة الذي لا يعطون من مال الله ما يكفيهم تغزوهم فيعطون ما يغزون به^(١).

وقال النووي في «المجموع»^(٢):

قال أصحابنا: ويُعطى ما يستعين به على الغزو، فيُعطى نفقته وكسوته مدة الذهاب والرجوع والمقام في الثغر وإن طال.

ثم قال: ويعطى ما يشتري به الفرس إن كان فارساً وما يشتري به السلاح وآلات القتال ويصير ذلك ملكاً للغازي ويجوز أن يستأجر له الفرس والسلاح من مال الزكاة ويختلف الحال بكثرة المال وقلته.

قال أصحابنا: ويسلم الإمام الغازي ثمن الفرس والسلاح والآلات ثم الغازي يشتريها.

وقال الرازي في تفسيره^(٣): واعلم أن ظاهر اللفظ في قوله: (وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ) لا يوجب القصر على الغزاة فهذا المعنى نقل القفال في تفسيره عن بعض الفقهاء أنهم أجازوا صرف الصدقات إلى جميع وجوه الخير من تكفين الموتى وبناء الحصون وعمارة المساجد لأن قوله: (وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ) عامٌّ في الكل....

وقال ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ^(٤): فأما تخصيصه بالجهاد في سبيل الله فلا شك فيه، خلافاً لمن قال: إن المراد في سبيل الله كل عمل برٍّ وخير، فهو على هذا التفسير كل ما أريد به وجه الله، فيشمل بناء المساجد، وإصلاح الطرق، وبناء المدارس، وطبع الكتب، وغير ذلك مما يقرب إلى الله ﷻ؛ لأن ما يوصل إلى الله من أعمال البر لا حصر له. ولكن هذا قول ضعيف؛ لأننا لو فسرنا الآية بهذا المعنى لم يكن للحصر فائدة إطلاقاً، والحصر هو (إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ) ﴿التوبة: ٦٠﴾ الآية.

(١) مجموع الفتاوى (٢٨/ ٢٧٤).

(٢) المجموع (٦/ ٢١٣).

(٣) التفسير (١٦/ ٩٩).

(٤) الشرح الممتع (٦/ ٢٤٢).

فالصواب: أنها خاصة بالجهاد في سبيل الله.

وقد تقدم قول ابن عبد البر: وأجمعوا على أنه لا يؤدي من الزكاة دين ميت، ولا يكفن منها، ولا يُبنى منها مسجد، ولا يُشترى منها مصحف، ولا يُعطى لذمي ولا مسلم غني.

وقال مالك^(١): لا تجزئه أن يعطي من زكاته في كفن ميت لأن الصدقة إنما هي للفقراء والمساكين ومن سمى الله، فليست للأموال ولا لبنيان المساجد.

(١) المدونة (٢٥٨).

هل الحج يدخل في مصارف الزكاة؟

س - هل الحج يدخل في قوله تعالى: ﴿وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ ومن ثم يعطى الحاج من أموال الزكاة لحجته؟

ج: ذهب جمهور العلماء إلى أن الحج لا يدخل في قوله تعالى: ﴿وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وقد بينت قبل ذلك قول الجمهور في قوله تعالى: ﴿وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾. بينما ذهب بعض أهل العلم إلى أن الحج يدخل في ذلك لحديث ورد في الباب، واختلف في تصحيحه وتضعيفه في أسانيد ومتون اختلافاً شديداً وهو:

حديث أمِّ مَعْقِلٍ قَالَتْ: لَمَّا حَجَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ - حَجَّةَ الْوَدَاعِ وَكَانَ لَنَا جَمَلٌ فَجَعَلَهُ أَبُو مَعْقِلٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَصَابَنَا مَرَضٌ وَهَلَكَ أَبُو مَعْقِلٍ وَخَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ - فَلَمَّا فَرَغَ مِنْ حَجِّهِ جِئْتُهُ فَقَالَ: «يَا أُمَّ مَعْقِلٍ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَخْرُجِي مَعَنَا». قَالَتْ: لَقَدْ تَهَيَّأْنَا فَهَلَّكَ أَبُو مَعْقِلٍ وَكَانَ لَنَا جَمَلٌ هُوَ الَّذِي نَحْنُ عَلَيْهِ فَأَوْصَى بِهِ أَبُو مَعْقِلٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ. قَالَ: «فَهَلَّا خَرَجْتَ عَلَيْهِ فَإِنَّ الْحَجَّ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَأَمَّا إِذْ فَاتَتْكَ هَذِهِ الْحَجَّةُ مَعَنَا فَأَعْتَمِرِي فِي رَمَضَانَ فَإِنَّهَا كَحَجَّةٍ». فَكَأَنَّا تَقُولُ الْحَجَّ حَجَّةً وَالْعُمْرَةَ عُمْرَةً وَقَدْ قَالَ: هَذَا لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ - مَا أَذْرِي أَلَيْ حَاصَّةً^(١).

وحديث أبي طليق، ومنهم من يرده إلى الحديث السابق:

قال أبو طليق: «طلبت مني أم طليق جملاً تحج، فقلت: قد جعلته في سبيل الله، سألت رسول الله ﷺ، فقال: «صدقت، لو أعطيتها لكان في سبيل الله»^(٢).

وحديث ابن عباس رضي الله عنهما قال:

أَرَادَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْحَجَّ، فَقَالَتِ امْرَأَةٌ لَزَوْجِهَا: أَحِجَّنِي مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَلَى جَمَلِكَ، فَقَالَ: مَا عِنْدِي مَا أُحِجُّكَ عَلَيْهِ. قَالَتْ: أَحِجَّنِي عَلَى جَمَلِكَ فَلَانٍ. قَالَ: ذَاكَ حَبِيسٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﷻ، فَأَتَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: إِنَّ امْرَأَتِي تَقْرَأُ عَلَيْكَ السَّلَامَ

(١) أخرجه أحمد (٢٧٢٨٦)، وأبو داود (١٩٨٩) وغيرهما، وفيه وجوه كثيرة من الخلاف.

(٢) الطبراني في الكبير (٨١٦/٢٢)، وبه أيضاً بعض العلل.

وَرَحْمَةً اللَّهِ، وَإِنَّهَا سَأَلْتَنِي الْحَجَّ مَعَكَ، قَالَتْ: أَحِجَّنِي مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقُلْتُ: مَا عِنْدِي مَا أُحِجُّكَ عَلَيْهِ. فَقَالَتْ: أَحِجَّنِي عَلَى جَمَلِكَ فُلَانٍ. فَقُلْتُ: ذَاكَ حَبِيسٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ. فَقَالَ: «أَمَّا إِنَّكَ لَوْ أَحْجَجْتَهَا عَلَيْهِ كَانَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ». قَالَ: وَإِنَّهَا أَمَرْتَنِي أَنْ أَسْأَلَكَ مَا يَعْدِلُ حَجَّةً مَعَكَ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَقْرَنُهَا السَّلَامَ وَرَحْمَةَ اللَّهِ وَبَرَكَاتِهِ وَأَخْبَرَهَا أَنَّهَا تَعْدِلُ حَجَّةً مَعِيَ يَغْنِي عُمرَةً فِي رَمَضَانَ»^(١).

وحديث أبي لاس الخزاعي رضي الله عنه قال: «حَمَلْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى إِبِلِ الصَّدَقَةِ لِلْحَجِّ»^(٢).

فبالجملة صحح بعض العلماء هذا الحديث واحتجوا به على أن الحج في سبيل الله.

ورد الجمهور على ذلك بأقوال:

أحدها: أن الحديث لا يثبت.

الثاني: لو ثبت لما كان فيه حجة؛ لأن غاية ما فيه حمل بعض الحجيج على إبل الصدقة، وأما أن يكون الحج كله من أموال الزكاة فليس بصريح في ذلك، ولم يتفشى أمر تجهيز الناس للحج من أموال الزكاة في زمن رسول الله ﷺ والله أعلم. هذا، وقد ورد في الباب أثران:

أحدهما: أثر عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنه:

وسئل عن امرأة أوصت بثلاثين درهماً في سبيل الله، فقيل له: أتجعل في الحج؟ فقال: أما إنه من سبيل الله^(٣).

والثاني: أثر عبد الله بن عباس رضي الله عنه:

أنه كان لا يرى بأساً أن يُعطي الرجل من زكاة ماله في الحج، وأن يعتق منها

(١) أبو داود (١٩٩٠) وفي سنده فقال أيضاً: ففيه عامر الحوال، فيه كلام، وأصل الحديث في الصحيحين البخاري

(١٧٨٢)، ومسلم (١٢٥٦) من حديث ابن عباس ليس فيه ذكر (سبيل الله).

(٢) أحمد (١٧٩٣٩) وفيه كلام يسير أيضاً.

(٣) أبو عبيد القاسم بن سلام (الأموال ١٩٧٧) ..

الرقبة^(١).

وقال المرداوي في «الإنصاف»^(٢):

يعطى الفقير ما يحج به الفرض أو يستعين به فيه وهي المذهب نص عليه في رواية عبد الله والمروزي والميموني قال في الفروع: والحج من السبيل الذي نص عليه وهو المذهب عند الأصحاب.

وقال الحافظ ابن حجر رحمه الله «الفتح»^(٣):

أَمَّا سَبِيلُ اللَّهِ فَالْأَكْثَرُ عَلَى أَنَّهُ يَخْتَصُّ بِالْغَازِي غَنِيًّا كَانَ أَوْ فَقِيرًا إِلَّا أَبَا حَنِيفَةَ قَالَ: يَخْتَصُّ بِالْغَازِي الْمُحْتَاجَ. وَعَنْ أَحْمَدَ وَإِسْحَاقَ الْحَجُّ مِنْ سَبِيلِ اللَّهِ، وَقَدْ تَقَدَّمَ أَثَرُ ابْنِ عَبَّاسٍ. وَقَالَ ابْنُ عُمر: «أَمَّا إِنَّ الْحَجَّ مِنْ سَبِيلِ اللَّهِ» أَخْرَجَهُ أَبُو عُبَيْدٍ بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ عَنْهُ.

وَقَالَ ابْنُ الْمُنْذِرِ: إِنْ ثَبَتَ حَدِيثُ أَبِي لَاسٍ «حَمَلْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى إِبْلِ الصَّدَقَةِ لِلْحَجِّ» قُلْتُ بِذَلِكَ.

قال ابن العربي^(٤):

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾: قَالَ مَالِكٌ: سُبُلُ اللَّهِ كَثِيرَةٌ، وَلَكِنِّي لَا أَعْلَمُ خِلَافًا فِي أَنَّ الْمُرَادَ بِسَبِيلِ اللَّهِ هَاهُنَا الْغَزْوُ مِنْ جُمْلَةِ سَبِيلِ اللَّهِ، إِلَّا مَا يُؤْثَرُ عَنْ أَحْمَدَ وَإِسْحَاقَ فَإِنَّهُمَا قَالَا: إِنَّهُ الْحَجُّ.

وَالَّذِي يَصِحُّ عِنْدِي مِنْ قَوْلِهِمَا أَنَّ الْحَجَّ مِنْ جُمْلَةِ السُّبُلِ مَعَ الْغَزْوِ؛ لِأَنَّهُ طَرِيقٌ بَرٌّ، فَأُعْطِيَ مِنْهُ بِاسْمِ السَّبِيلِ، وَهَذَا يُحِلُّ عَقْدَ الْبَابِ، وَيُخَرِّمُ قَانُونَ الشَّرِيعَةِ، وَيَنْتَرُ سِلْكَ النَّظَرِ، وَمَا جَاءَ قَطُّ بِإِعْطَاءِ الزَّكَاةِ فِي الْحَجِّ أَثَرٌ.

س: ما المراد بـ (ابن السبيل)؟

(١) أبو عبيد (١٩٦٦).

(٢) الإنصاف (٣/ ٢٣٥).

(٣) الفتح (٣/ ٤٠٥).

(٤) أحكام القرآن (٢/ ٩٦٩).

ج: المراد، والله تعالى أعلم، المسافر الذي انقطعت به النفقة، وليس معه ما يوصله إلى أهله، فيعطى من مال الزكاة، قال البعض: وإن كان غنياً في بلده.

قال الشافعي^(١) رَحِمَهُ اللهُ:

وَيُعْطَى ابْنُ السَّبِيلِ مِنْهُمْ قَدْرَ مَا يُبْلَغُهُ الْبَلَدُ الَّذِي يُرِيدُ فِي نَفَقَتِهِ وَحُمُولَتِهِ إِنْ كَانَ الْبَلَدُ بَعِيدًا وَكَانَ ضَعِيفًا وَإِنْ كَانَ الْبَلَدُ قَرِيبًا وَكَانَ جَلْدًا الْأَغْلَبُ مِنْ مِثْلِهِ وَكَانَ غَنِيًّا بِالْمَشْيِ إِلَيْهَا أُعْطِيَ مُؤْنَتَهُ فِي نَفَقَتِهِ بِلاَ حُمُولَةٍ.
وهذا مزيدٌ من أقوال العلماء:

قال الطبري رَحِمَهُ اللهُ:

وأما قوله: ﴿وَابْنُ السَّبِيلِ﴾، فالمسافر الذي يجتاز من بلد إلى بلد. و«السبيل»: الطريق، وقيل للضارب فيه: «ابن السبيل»، للزومه إياه، كما قال الشاعر:

أَنَا ابْنُ الْحَرْبِ رَبَّتْنِي وَلِيدًا إِلَى أَنْ شَبْتُ وَاکْتَهَلْتُ لِدَاتِي

وكذلك تفعل العرب، تسمي اللازم لشيء يعرف به: «ابنه».

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ:

وكذلك ﴿وَابْنُ السَّبِيلِ﴾: وهو المسافر المجتاز في بلد ليس معه شيء يستعين به على سفره، فيعطى من الصدقات ما يكفيه إلى بلده وإن كان له مال. وهكذا الحكم فيمن أراد إنشاء سفر من بلده وليس معه شيء، فيعطى من مال الزكاة كفايته في ذهابه وإيابه.

قال ابن الجوزي (زاد المسير):

قوله تعالى: ﴿وَابْنُ السَّبِيلِ﴾ هو المسافر المنقطع به وإن كان له مال في بلده قاله مجاهد وقتادة وأبو حنيفة وأحمد، فأما إذا أراد أن ينشئ سفرًا فهل يجوز أن يعطى قال الشافعي: يجوز وعن أحمد مثله وقد ذكرنا في سورة البقرة (١٧٧) فيه أقوالاً عن المفسرين.

قال السعدي رَحِمَهُ اللهُ (تيسير الكريم الرحمن):

والثامن: ابن السبيل، وهو الغريب المنقطع به في غير بلده، فيعطى من الزكاة ما يوصله إلى بلده، فهؤلاء الأصناف الثمانية الذين تدفع إليهم الزكاة وحدهم. ﴿فَرِيضَةٌ مِّنَ اللَّهِ﴾ فرضها وقدرها، تابعة لعلمه وحكمه ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

قال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ:

والمراد الذي انقطعت به الأسباب في سفره عن بلده ومستقره وماله، فإنه يعطى منها وإن كان غنياً في بلده، ولا يلزمه أن يشغل ذمته بالسلف.

اس: وضع معنى قوله تعالى: (فَرِيضَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ)؟

ج: المعنى، والله أعلم أن هذه المصارف التي بينها لكم، وفرض الزكاة الذي فرضناه عليكم كل ذلك فرض افترضه الله عليكم فلا تعترضوا فالله عليم بخلقه وبكل شئ حكيم فيما يشرع.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقوله: ﴿فَرِيضَةٌ مِّنَ اللَّهِ﴾، يقول جل ثناؤه: قَسَمْتُ قِسْمَهُ اللَّهُ لَهُمْ، فأوجبه في أموال أهل الأموال لهم، ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾، بمصالح خلقه فيما فرض لهم، وفي غير ذلك، لا يخفى عليه شيء. فعلى علم منه فرض ما فرض من الصدقة وبما فيها من المصلحة، ﴿حَكِيمٌ﴾، في تدبيره خلقه، لا يدخل في تدبيره خلل.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقوله: ﴿فَرِيضَةٌ مِّنَ اللَّهِ﴾ أي حكماً مقدراً بتقدير الله وفرضه وقسمته ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أي: عليم بظواهر الأمور وبواطنها وبمصالح عباده، ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما يفعله ويقول به ويشرعه ويحكم به، لا إله إلا هو، ولا رب سواه.

قال ابن الجوزي (زاد المسير):

قوله تعالى: ﴿فَرِيضَةٌ مِّنَ اللَّهِ﴾ يعني: أن الله افترض هذا.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:

(وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنٌ خَيْرٌ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾ يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيَرْضَوْكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَلِيدًا فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ ﴿٦٣﴾ يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنْزَلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَزِرُّوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ نَعْفَ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِّنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٦٧﴾ وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعْنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٦٨﴾

فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلْقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلْقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ
قَبْلِكُمْ بِخَلْقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا أُولَئِكَ حِطَّتْ أَعْمَالُهُمْ فِي
الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٦٩﴾

[التوبة: ٦٩-٦١].

س: وضع معنى ما يلي:

﴿أُذِّنْ - أَدْنُ خَيْرٍ لَّكُمْ - يُؤْمِنُ بِاللَّهِ - وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ - يُحَادِدُ - الْخِزْيُ - نُنَبِّئُهُمْ - تَحَذَّرُونَ - نَحْوُ - تَسْتَهْزِئُونَ - بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ - وَيَقْبِضُونَ - أَيْدِيَهُمْ - نَسُوا اللَّهَ - فَنَسِيَهُمْ - الْفَاسِقُونَ - هِيَ حَسْبُهُمْ - وَلَعْنَةُ اللَّهِ - عَذَابٌ مُّهِيمٌ - فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلْقِهِمْ - وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا - حِطَّتْ آَعْمَلُهُمْ﴾.

ج:

الكلمة	معناها
﴿أُذِّنْ﴾	قابل للكلام سَمَّاع لأي أَعذار قابل لها (دون تحقق).
﴿أَدْنُ خَيْرٍ لَّكُمْ﴾	يستمتع الخير ويصدق أهله ويستمتع كلام الله ويبلغه لكم.
﴿يُؤْمِنُ بِاللَّهِ﴾	يصدق بالله وبوحدانيته ويصدق وعده ووعيده وكل ما أخبر به.
﴿وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾	يصدق أهل الإيمان ويعرفهم.
﴿يُحَادِدُ﴾	يخالف - يعاند - يشاقق، يكون في حدٍ، وأوامر الله ورسوله في حدٍّ آخر.
﴿الْخِزْيُ﴾	الذل والهوان.
﴿نُنَبِّئُهُمْ﴾	تخبرهم.
﴿تَحَذَّرُونَ﴾	تخشون ظهوره.
﴿نَحْوُ﴾	نتكلم مع المتكلمين لا نقصد حقيقة ما نقول.
﴿تَسْتَهْزِئُونَ﴾	تسخرون.

بعضهم على شاكلة بعض ويضمرون الكفر ويظهرون الإسلام.	(بَعْضُهُمْ مِّنْ بَعْضٍ ۖ)
يدخلون بالخير عمومًا.	(وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ۖ)
تركوا أوامر الله.	(نَسُوا اللَّهَ ۖ)
تركهم الله في العذاب.	(فَنَسِيَهُمْ ۖ)
الخارجون عن الطاعة.	(الْفَاسِقُونَ ۖ)
هي كفايتهم من العذاب.	(هِيَ حَسْبُهُمْ ۖ)
طردهم الله من رحمته.	(وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ ۖ)
عذاب دائم لا يزول.	(عَذَابٌ مُّقِيمٌ ۖ)
(الخلاق الدين والحظ والنصيب) فاستمتعوا بنصيبهم وتعجلوه في دنياهم ولم يبالوا بالجزاء الآخروي.	(فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلْقِهِمْ ۖ)
خضتم في الكلام، والكفر والسخرية والاستهزاء خوضًا كالذي خاضه من كان قبلكم.	(وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا ۖ)
ذهب ثوابها - بطلت.	(حِطَّتْ أَعْمَالُهُمْ ۖ)

ومن صور أذى المنافقين لرسول الله ﷺ

س: وضح معنى قوله تعالى: (وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرَ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١﴾).

ج: المعنى - والله أعلم - ومن أهل النفاق فريق يؤذون رسول الله ﷺ ويطعنون فيه في غيابه ويعيبونه وينتقصونه، فإذا قال لهم قائل إن ذلك سيبلغ رسول الله ﷺ فيقولون - منقصين رسول الله ﷺ - : هو أذن، أي رجل سماع لا يدرك ولا يميز قابل للأعذار فإننا إذا اعتذرنا بأي عذر سمعه وقبله وصدقته، فقال تعالى: قل يا رسول الله لهؤلاء المنافقين الطاعنين فيك العائنين لك القائلين هو أذن، قل لهم: إنه سماع للخير - صلوات الله وسلامه عليه - يعرف الصادق من الكاذب بإذن الله، وإن كان يعرض عن فضيحة الكاذب ولا يفصحها، فإذا سمع خيراً عرفه وشكره وإذا سمع كذباً ستره ولم يفصح قائله ثم إنه أرسل رحمةً لأهل الإيمان الذي اتبعوه وصدقوه وعزروه ونصروه أما الذي يؤذون رسول الله ﷺ ويطعنون فيه فلهم يوم القيامة عذاب مؤلّم موجع، وليسوا بأمنين كذلك في الدنيا من مكر الله وعذابه، والله أعلم.

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره: ومن هؤلاء المنافقين جماعة يؤذون رسول الله ﷺ ويعيبونه، ﴿وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ﴾، سامعة، يسمع من كل أحد ما يقول فيقبله ويصدقّه. وهو من قولهم: «رجل أذنة»، مثل «فعلة» إذا كان يسرع الاستماع والقبول، كما يقال: «هو يقن، ويقن» إذا كان ذا يقين بكل ما حدث. وأصله من «أذن له يأذن»، إذا استمع له. ومنه الخبر عن النبي ﷺ: «ما أذن الله لشيء كأذنه لنبي يتغنّى بالقرآن»، ومنه قول عدي بن زيد:

أَيُّهَا الْقَلْبُ تَعَلَّلْ بِدَدَنْ إِنَّ هَمِّي فِي سَمَاعٍ وَأُذَنْ

ثم قال رحمه الله:

وأما قوله: ﴿يُؤْمِنُ بِاللَّهِ﴾، فإنه يقول: يصدق بالله وحده لا شريك له.

وقوله: ﴿وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾، يقول: ويصدق المؤمنين، لا الكافرين ولا المنافقين.

وهذا تكذيب من الله للمنافقين الذين قالوا: «محمد أذن!»، يقول جل ثناؤه: إنما محمد ﷺ مستمعٌ خيرٍ، يصدق بالله وبما جاء من عنده، ويصدق المؤمنين، لا أهل النفاق والكفر بالله.

وقيل: ﴿وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾، معناه: ويؤمن المؤمنين، لأن العرب تقول فيما ذكر لنا عنها: «آمنتُ له وآمنتُهُ»، بمعنى: صدقته، كما قيل: ﴿رَدِفَ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ﴾ [النمل: ٧٢]، ومعناه: ردفكم، وكما قال: ﴿لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٤]، ومعناه: للذين هم ربهم يرهبون.

وقال رحمه الله:

وهو رحمة للذين آمنوا منكم. وجعله الله رحمة لمن اتبعه واهتدى بهداه، وصدق بما جاء به من عند ربه، لأن الله استنقذهم به من الضلالة، وأورثهم باتباعه جناته. ويقول تعالى ذكره: لهؤلاء المنافقين الذين يعيرون رسول الله ﷺ، ويقولون: ﴿هُوَ أَذُنٌ﴾، وأمثالهم من مكذبيه، والقائلين فيه الهُجْرَ والباطل، عذابٌ من الله موجه لهم في نار جهنم.

وقال ابن كثير رحمه الله:

يقول تعالى: ومن المنافقين قوم يؤذون رسول الله ﷺ بالكلام فيه ويقولون: ﴿هُوَ أَذُنٌ﴾ أي: من قال له شيئاً صدقه، ومن حدثه فينا صدقه، فإذا جئناه وحلفنا له صدقنا. روي معناه عن ابن عباس، ومجاهد، وقتادة. قال الله تعالى: ﴿قُلْ أَذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ﴾ أي: هو أذن خير، يعرف الصادق من الكاذب، ﴿يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: ويصدق المؤمنين، ﴿وَرَحْمَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ﴾ أي: وهو حجة على الكافرين؛ ولهذا قال: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

وقال السعدي رحمه الله:

أي: من هؤلاء المنافقين ﴿الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ﴾ بالأقوال الرديئة، والعيب له ولدينه، ﴿وَيَقُولُونَ هُوَ أَذُنٌ﴾ أي: لا يبالون بما يقولون من الأذية للنبي، ويقولون:

إذا بلغه عنا بعض ذلك، جئنا نعتذر إليه، فيقبل منا، لأنه أذن، أي: يقبل كل ما يقال له، لا يميز بين صادق وكاذب، وقصدهم - قبحهم الله - فيما بينهم، أنهم غير مكترئين بذلك، ولا مهتمين به، لأنه إذا لم يبلغه فهذا مطلوبهم، وإن بلغه اكتفوا بمجرد الاعتذار الباطل.

فأساءوا كل الإساءة من أوجه كثيرة، أعظمها أذية نبيهم الذي جاء لهدايتهم، وإخراجهم من الشقاء والهلاك إلى الهدى والسعادة.

ومنها: عدم اهتمامهم أيضا بذلك، وهو قدر زائد على مجرد الأذية.

ومنها: قدحهم في عقل النبي ﷺ، وعدم إدراكه وتفريقه بين الصادق والكاذب، وهو أكمل الخلق عقلاً وأتمهم إدراكاً، وأثقبهم رأياً وبصيرة، ولهذا قال تعالى: ﴿قُلْ أَذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ﴾ أي: يقبل من قال له خيراً وصدقاً.

وأما إعراضه وعدم تعنيفه لكثير من المنافقين المعتذرين بالأعذار الكاذبة، فلسعة خلقه، وعدم اهتمامه بشأنهم، وامتناله لأمر الله في قوله: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لَتُعَرِّضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رَجَسٌ﴾.

وأما حقيقة ما في قلبه ورأيه، فقال عنه: ﴿يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ الصادقين المصدقين، ويعلم الصادق من الكاذب، وإن كان كثيراً ما يعرض عن الذين يعرف كذبهم وعدم صدقهم، ﴿وَرَحْمَةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ﴾ فإنهم به يهتدون، وبأخلاقه يقتدون.

وأما غير المؤمنين فإنهم لم يقبلوا هذه الرحمة بل ردوها، فخسروا دنياهم وآخرتهم، ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ﴾ بالقول أو الفعل ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في الدنيا والآخرة، ومن العذاب الأليم أنه يتحتم قتل مؤذيه وشاتميه.

انتقاء المنافقين بأيمانهم الكاذبة

س: وضع معنى قوله تعالى: (يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيَرْضَوْكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴿١٢﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ ﴿١٣﴾).

ج: المعنى - والله تعالى أعلم - يحلف لكم هؤلاء المنافقون أيمانًا مغلظةً وهم فيها كاذبون، يحلفون لإرضائكم، كي ترضوا عنهم ولا تؤاخذوهم وتستمروا في تعاملكم معهم، وكان من الأولى لهم وكان من الأليق بهم أن يجتهدوا لإرضاء الله ﷻ ولإرضاء رسوله ﷺ كان من الأولى لهم أن يقبلوا على الله بالتوبة إليه والإنابة، وكذا يتركون الطعن في رسول الله ﷺ، ويتركون همزه ولمزه وعييه ويقبلون على توقيره وإعزازه ومناصرتة إن كان حقًا أهل الأيمان.

ألم يعلم هؤلاء المنافقون الطاعنون في رسول الله ﷺ الكذبة في أيمانهم أنه من يخالف الله ورسوله ويكون في حدٍّ وشقٍّ وأوامر الله ورسوله في حدٍّ وشقٍّ، ويحاربون رسول الله ويطعنون فيه، ألم يعلموا أن فاعل ذلك له يوم القيامة نار جهنم خالداً فيها ذلك الذل والهوان العظيم؟!!

وينحوا هذا قال أهل التأويل:

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره للمؤمنين به ورسوله ﷺ: يحلف لكم، أيها المؤمنون، هؤلاء المنافقون بالله، ليرضوكم فيما بلغكم عنهم من أذاهم رسول الله ﷻ، وذكرهم إياه بالطعن عليه والعيب له، ومطابقتهم سرًّا أهل الكفر عليكم، بالله والأيمان الفاجرة: أنهم ما فعلوا ذلك، وإنهم لعلى دينكم، ومعكم على من خالفكم، يبتغون بذلك رضاكم. يقول الله جل ثناؤه: ﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ﴾، بالتوبة والإنابة مما قالوا ونطقوا، ﴿إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾، يقول: إن كانوا مصدقين بتوحيد الله، مقرين بوعدته ووعدته.

وأورد بإسناد حسن عن قتادة قوله^(١): قوله: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيَرْضَوْكُمْ﴾، الآية، ذكر لنا أن رجلاً من المنافقين قال: والله إن هؤلاء لخيارنا وأشرافنا، وإن كان ما يقول محمد حقاً، لهم شرٌّ من الحمير! قال: فسمعها رجل من المسلمين فقال: والله إن ما يقول محمد حق، ولأنت شر من الحمار! فسعى بها الرجل إلى نبي الله ﷺ، فأرسل إلى الرجل فدعاه فقال له: «ما حملك على الذي قلت؟» فجعل يلتعن، ويحلف بالله ما قال ذلك. قال: وجعل الرجل المسلم يقول: اللهم صدق الصادق، وكذب الكاذب! فأنزل الله في ذلك: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيَرْضَوْكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾.

ويقول تعالى ذكره: ألم يعلم هؤلاء المنافقون الذين يحلفون بالله كذباً للمؤمنين ليرضوهم، وهم مقيمون على النفاق، أنه من يحارب الله ورسوله، ويخالفهما فيناوئهما بالخلاف عليهما، ﴿فَأَبْكَ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ﴾، في الآخرة، ﴿خَلِيداً فِيهَا﴾، يقول: لا بئساً فيها، مقيماً إلى غير نهاية؟ ﴿ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ﴾، يقول: فلبئس في نار جهنم وخلوده فيها، هو الهوان والذلُّ العظيم.

وقال الحافظ ابن كثير رحمه الله:

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنِ يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَبْكَ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَلِيداً فِيهَا﴾ أي: ألم يتحققوا ويعلموا أنه من حاد الله ﷻ، أي: شاقه وحاربه وخالفه، وكان في حدِّ الله ورسوله في حدِّ ﴿فَأَبْكَ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَلِيداً فِيهَا﴾ أي: مهاناً معذباً، و﴿ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ﴾ أي: وهذا هو الذلُّ العظيم، والشقاء الكبير.

وقال السعدي في تفسيره:

﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيَرْضَوْكُمْ﴾ فيتبرؤوا مما صدر منهم من الأذية وغيرها، فغايتهم أن ترضوا عليهم. ﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ لأن المؤمن لا يقدم شيئاً على رضا ربه ورضا رسوله، فدل هذا على انتفاء إيمانهم حيث قدموا رضا غير الله ورسوله.

(١) وإن كان حسناً إلى قتادة لكن مرسل وسبب النزول هذا لا يصح.

وهذا محادة لله ومشاقة له، وقد توعد من حاده بقوله: ﴿الَّذِينَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مَن يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ بأن يكون في حد وشق مبعد عن الله ورسوله بأن تهاون بأوامر الله، وتجراً على محارمه.

﴿فَأَن تَأْرَ جَهَنَّمَ خَلِيداً فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ﴾ الذي لا خزي أشنع ولا أظنع منه، حيث فاتهم النعيم المقيم، وحصلوا على عذاب الجحيم عياداً بالله من حالهم.

ا س: وضع معنى قوله تعالى: (يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تَنْزَلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي

قُلُوبِهِمْ قُلْ اسْتَهْزَؤُا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ ﴿١٦﴾).

ج: المعنى والله تعالى أعلم يخشى المنافقون أن تنزل عليك يا رسول الله سورة أو آية من عند الله ﷻ تبين لك أحوالهم وتكشف لك أسرارهم وتفضح أمورهم وتظهر ما في قلوبهم، فيستهزؤون بك، ويقولون لعله لا تنزل عليه سورة تخبره باستهزائنا به، فقل لهؤلاء يا رسول الله استهزؤوا فإن الله ﷻ مظهر لرسوله ﷺ استهزاءكم وسينبؤه الله بما كان من أمركم.

وبنحو هذا قال أهل العلم.

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره: يخشى المنافقون أن تنزل فيهم، ﴿سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾، يقول: تظهر المؤمنين على ما في قلوبهم.

وقيل: إن الله أنزل هذه الآية ^(١) على رسول الله ﷺ، لأن المنافقين كانوا إذا عابوا رسول الله ﷺ، وذكروا شيئاً من أمره وأمر المسلمين، قالوا: «لعل الله لا يفشي سِرَّنا!»، فقال الله لنبيه محمد ﷺ: قل لهم: ﴿اسْتَهْزَؤُا﴾، متهدداً لهم متوعداً: ﴿إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ﴾.

وأما قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ﴾، فإنه يعني به: إن الله مظهر عليكم أيها المنافقون ما كنتم تحذرون أن تظهروه، فأظهر الله ذلك عليهم وفضحهم، فكانت هذه

(١) سبب النزول لا يصح له إسناد.

السورة تدعى: (الفاضحة).

وأورد بإسناد حسن عن قتادة قال: كانت تسمى هذه السورة: (الفاضحة)، فاضحة المنافقين.

وقال ابن كثير رحمه الله:

قال مجاهد: يقولون القول بينهم، ثم يقولون: عسى الله ألا يفشي علينا سرنا هذا. وهذه الآية شبيهة بقوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصَلُّونَهَا فَيَنْسُ الْمَصِيرُ﴾ [المجادلة: ٨] وقال في هذه الآية: ﴿قُلِ اسْتَخِرُوا اللَّهَ مَخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ﴾ أي: إن الله سينزل على رسوله ما يفضحكم به، ويبين له أمركم كقوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَنْهُمْ﴾ [٢٩] إلى قوله: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ﴾ [محمد: ٢٩]، [٣٠]؛ ولهذا قال قتادة: كانت تسمى هذه السورة «الفاضحة»، فاضحة المنافقين.

وقال الشنقيطي رحمه الله (أضواء البيان):

قوله تعالى: ﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ﴾ إلى قوله: ﴿مَا تَحْذَرُونَ﴾.

صرح في هذه الآية الكريمة بأن المنافقين يحذرون أن ينزل الله سورة تفضحهم وتبين ما تنطوي عليه ضمائرهم من الخبث. ثم بين أنه مخرج ما كانوا يحذرونه، وذكر في موضع آخر أنه فاعل ذلك، وهو قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَنْهُمْ﴾ [٢٩] [محمد: ٢٩] إلى قوله: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ [محمد: ٣٠]، وبين في موضع آخر شدة خوفهم، وهو قوله: ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾ [المنافقون: ٤].

وقال السعدي رحمه الله:

كانت هذه السورة الكريمة تسمى «الفاضحة» لأنها بينت أسرار المنافقين، وهتكت أستارهم، فما زال الله يقول: ومنهم ومنهم، ويذكر أوصافهم، إلا أنه لم يعين أشخاصهم لفائدتين:

إحداهما: أن الله سَتِيْرٌ يحب الستر على عباده.

والثانية: أن الذم على من اتصف بذلك الوصف من المنافقين، الذين توجه إليهم الخطاب وغيرهم إلى يوم القيامة، فكان ذكر الوصف أعم وأنسب، حتى خافوا غاية الخوف.

قال الله تعالى: ﴿لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا ۖ مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِلُوا قَتْلًا ۖ﴾ [الأحزاب: ٦٠، ٦١].

وقال هنا: ﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ أي تخبرهم وتفضحهم وتبين أسرارهم حتى تكون علانية لعباده ويكونوا عبرة للمعتبرين.

﴿قُلِ اسْتَزِرُوا﴾ أي: استمروا على ما أنتم عليه من الاستهزاء والسخرية ﴿إِنَّ اللَّهَ يُخْرِجُ مَا تَحْذَرُونَ﴾ وقد وفى تعالى بوعده فأنزل هذه السورة التي بيّنتهم وفضحتهم وهتكت أستارهم.

سبب نزول قوله تعالى :

(وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ﴿٦٥﴾)

س: هل صح لقوله تعالى: (وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦٥﴾) .

ج: نعم قد صح لها سبب نزول، وذلك فيما أخرجه الطبري وغيره بسند صحيح^(١) عن عبد الله بن عمر قال: قال رجل في غزوة تبوك في مجلس: ما رأينا مثل قرائنا هؤلاء، أرغب بطونا، ولا أكذب ألسنا، ولا أجبن عند اللقاء! فقال رجل في المجلس: كذبت، ولكنك منافق! لأخبرن رسول الله ﷺ، فبلغ ذلك النبي ﷺ ونزل القرآن. قال عبد الله بن عمر: فأنا رأيت متعلقا بحقبة ناقة رسول الله ﷺ تنكبه الحجارة، وهو يقول: «يا رسول الله، إنما كنا نخوض ونلعب!»، ورسول الله ﷺ يقول: ﴿أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْنِدُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ .

ا س: وضح معنى قوله تعالى: (وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْنِدُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ نَعْقُصَ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نَعْدَبُ طَائِفَةٌ بِآيَاتِهِمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾) .

ج: المعنى - والله تعالى أعلم - أن من هؤلاء المنافقين من يطعن فيك ويُعيبك في غيابك، وإذا وصلك ذلك وبلغك فسألتهم ليقولن لك، وقد اكتشفت أمرهم وقفت

(١) وأخرجه أيضًا ابن أبي حاتم وغيره، وله شواهد وقد أخرج الطبري بسند حسن عن قتادة قوله: ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ﴾، الآية، قال: بينا رسول الله ﷺ يسير في غزوته إلى تبوك، وبين يديه ناس من المنافقين فقالوا: «يرجو هذا الرجل أن يفتح قصور الشام وحصونها! هيهات هيهات!» فأطلع الله نبيه ﷺ على ذلك، فقال نبي الله ﷺ: «احبسوا عليَّ الركب! فأتاهم فقال: قلتم كذا، قلتم كذا. قالوا: «يا نبي الله، إنما كنا نخوض ونلعب»، فأنزل الله تبارك وتعالى فيهم ما تسمعون.

وهذا، وإن كان حسنا إلا أنه مرسل، وعند الطبري عن محمد بن كعب وغيره قالوا: قال رجل من المنافقين: ما أرى قراءنا هؤلاء إلا أرغبنا بطونا، وأكذبنا ألسنة، وأجبننا عند اللقاء! فرفع ذلك إلى رسول الله ﷺ، فجاء إلى رسول الله ﷺ وقد ارتحل وركب ناقته، فقال: يا رسول الله ﷺ، إنما كنا نخوض ونلعب! فقال: ﴿أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾، إلى قوله: ﴿مُجْرِمِينَ﴾، وإن رجليه لتنسفان الحجارة، وما يلتفت إليه رسول الله ﷺ، وهو متعلق بنسعة رسول الله ﷺ.

على صنعهم، إنما كنا نخوض في الكلام خوفاً، وليس ما صدر من قلوبنا إنما كلام نتكلمه بألسنتنا على سبيل المزاح ليس على سبيل السخرية والاستهزاء، فقل لهؤلاء أتستهزؤون بآيات الله وحدوده وأحكامه، أتستهزؤون بالله ﷻ ورسوله ﷺ، أتظنون أنكم تسخرون من ربكم ﷻ ولا يخفى عليه أمركم لا تعتذروا عما صنعتموه، فإن اعتذاركم ليس بناتج عن ندمكم، ولا عن توبة منكم ولا عن ندم فمن ثم فلن يقبل اعتذاركم فلا تضيعوا أوقاتكم في الاعتذار، فقد كذبتكم بعد إيمانكم، كفرتم باستهزائكم بآيات الله والسخرية من رسوله ﷺ، فإن نغف عن طائفة منكم، وهم الذين علمنا صدق توبتهم وحسن رجوعهم إلى الله وصدقهم في ندمهم، نعذب الطائفة الأخرى التي لم تظهر توبتها ولا حسن نيتها، بل وظهر إجرامها وكفرها.

وهذه أقوال بعض العلماء:

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى جل ثناؤه لنبيه محمد ﷺ: ولئن سألت، يا محمد، هؤلاء المنافقين عما قالوا من الباطل والكذب، ليقولن لك: إنما قلنا ذلك لعباً، وكنا نخوض في حديثٍ لعباً وهزواً! يقول الله لمحمد ﷺ: قل، يا محمد، أبا الله وآيات كتابه ورسوله كنتم تستهزؤون؟

وأورد الطبري بسندٍ صحيح عن عكرمة في قوله: ﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾، إلى قوله: ﴿يَأْتِيَهُمْ كَأَنُورٌ مِّنْ جُحِيمٍ﴾، قال: فكان رجل ممن إن شاء الله عفا عنه يقول: «اللهم إني أسمع آية أنا أغنى بها، تقشعُرُ منها الجلود، وتَجِبُ منها القلوب، اللهم فاجعل وفاي قتلاً في سبيلك، لا يقول أحدٌ: أنا غسَلْتُ، أنا كَفَنْتُ، أنا دفنت»، قال: فأصيب يوم اليمامة، فما أحدٌ من المسلمين إلا وُجد غيره.

ويقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: قل لهؤلاء الذين وصفت لك صفتهم: ﴿لَا تَعْتَذِرُوا﴾، بالباطل، فتقولوا: ﴿كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾، ﴿قَدْ كَفَرْتُمْ﴾، يقول: قد جحدتم الحق بقولكم ما قلتم في رسول الله ﷺ والمؤمنين به، ﴿بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾، يقول: بعد تصديقكم به وإقراركم به، ﴿إِن نَّغْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِّنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً﴾. واختلف أهل التأويل في تأويل ذلك.

فقال بعضهم: معناه: ﴿إِنْ نَعَفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِّنْكُمْ﴾، بإنكار ما أنكر عليكم من قبل الكفر، ﴿نُعَذِّبُ طَائِفَةً﴾، بكفره واستهزائه بآيات الله ورسوله.

وقال آخرون: بل معنى ذلك. إن تب طائفة منكم فيعفو الله عنه، يعذب الله طائفة منكم بترك التوبة.

وأما قوله: ﴿يَأْتِيهِمْ كَأَنُورًا مُّجْرِمِينَ﴾، فإن معناه: نعذب طائفة منهم باكتسابهم الجرم، وهو الكفر بالله، وطعنهم في رسول الله ﷺ.

قال ابن كثير رحمه الله:

وقوله: ﴿لَا تَعْذِرُوا فَوَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ أي: بهذا المقال الذي استهزأتم به ﴿إِنْ نَعَفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِّنْكُمْ نُعَذِّبُ طَائِفَةً﴾ أي: لا يُعْفَى عن جميعكم، ولا بد من عذاب بعضكم، ﴿يَأْتِيهِمْ كَأَنُورًا مُّجْرِمِينَ﴾ أي: مجرمين بهذه المقالة الفاجرة الخاطئة.

قال السعدي رحمه الله:

﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ﴾ عما قالوه من الطعن في المسلمين وفي دينهم يقول طائفة منهم في غزوة تبوك «ما رأينا مثل قرائنا هؤلاء - يعنون النبي ﷺ وأصحابه - أرغب بطوناً وأكذب ألسناً وأجبن عند اللقاء» ونحو ذلك

ولما بلغهم أن النبي ﷺ قد علم بكلامهم جاءوا يعتذرون إليه ويقولون ﴿إِنَّمَا كُنَّا نَحْوُكُمْ وَنَلْعَبُ﴾ أي نتكلم بكلام لا قصد لنا به ولا قصدنا الطعن والعيب.

قال الله تعالى - مبيناً عدم عذرهم وكذبهم في ذلك - ﴿قُلْ لَهُمْ﴾ ﴿أَيُّ يَوْمٍ﴾ ﴿وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾ ﴿لَا تَعْذِرُوا فَوَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ فإن الاستهزاء بالله وآياته ورسوله كفر مخرج عن الدين لأن أصل الدين مبني على تعظيم الله وتعظيم دينه ورسله والاستهزاء بشيء من ذلك مناف لهذا الأصل ومناقض له أشد المناقضة.

ولهذا لما جاءوا إلى الرسول يعتذرون بهذه المقالة والرسول لا يزيدهم على قوله ﴿أَيُّ يَوْمٍ﴾ ﴿وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾ ﴿لَا تَعْذِرُوا فَوَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾.

وقوله: ﴿إِنْ نَعَفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِّنْكُمْ﴾ لتوبتهم واستغفارهم وندمهم ﴿نُعَذِّبُ طَائِفَةً مِّنْكُمْ﴾ ﴿يَأْتِيهِمْ﴾ بسبب أنهم ﴿كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ مقيمين على كفرهم ونفاقهم.

وفي هذه الآيات دليل على أن من أسر سريرة خصوصاً السريرة التي يمكن فيها
بدينه ويستهزئ به وبآياته ورسوله فإن الله تعالى يظهرها ويفضح صاحبها ويعاقبه
أشد العقوبة.

وأن من استهزأ بشيء من كتاب الله أو سنة رسوله الثابتة عنه أو سخر بذلك أو
تنقصه أو استهزأ بالرسول أو تنقصه فإنه كافر بالله العظيم وأن التوبة مقبولة من كل
ذنوب وإن كان عظيماً.

|

ومن سيما المنافقين وأعمالهم

س: وضع معنى قوله تعالى: ﴿الْمُنْفِقُونَ وَالْمُنْفِقَتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنْفِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (٦٧).

ج: المعنى - والله تعالى أعلم - المنافقون والمنافقات صنف واحد يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر ويُسرُّون به ويأْمُرُونَ الناس بالمنكر وينهون الناس عن المعروف هذا شأنهم وذاك ديدنهم رجالاً كانوا أو نساءً، وكذا فهم بخلاء، بخلاء بكل صنوف الخير ليس بالمال فحسب، (نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ) تركوا العمل بكتاب الله ﷻ فتركهم الله في العذاب، وترك توفيقهم وهدايتهم (إِنَّ الْمُنْفِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ) الخارجون عن الطاعة، ونحن هذا قال العلماء:

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره: ﴿الْمُنْفِقُونَ وَالْمُنْفِقَتُ﴾، وهم الذين يظهرون للمؤمنين الإيمان بالأسستهم، ويُسرُّون الكفر بالله ورسوله، ﴿بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾، يقول: هم صنف واحد، وأمرهم واحد، في إعلانهم الإيمان، واستبطنهم الكفر، ﴿يَأْمُرُونَ﴾ من قبل منهم، ﴿بِالْمُنْكَرِ﴾، وهو الكفر بالله وبمحمد ﷺ، وبما جاء به وتكذيبه، ﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ﴾، يقول: وينهونهم عن الإيمان بالله ورسوله، وبما جاءهم به من عند الله.

وقوله: ﴿وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ﴾، يقول: ويمسكون أيديهم عن النفقة في سبيل الله، ويكفونها عن الصدقة، فيمنعون الذين فرض الله لهم في أموالهم ما فرض من الزكاة حقوقهم.

وأما قوله: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾، فإن معناه: تركوا الله أن يطيعوه ويتبعوا أمره، فتركهم الله من توفيقه وهدايته ورحمته.

وأورد بإسناد حسن عن قتادة قوله: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾، نُسُوا من الخير، ولم ينسوا من الشر.

قوله: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾، يقول: إن الذين يخادعون المؤمنين بإظهارهم لهم بالستهم الإيمان بالله، وهم للكفر مستبطنون، هم المفارقون طاعة الله، الخارجون عن الإيمان به وبرسوله.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ:

يقول تعالى منكرًا على المنافقين الذين هم على خلاف صفات المؤمنين، ولما كان المؤمنون يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، كان هؤلاء ﴿يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ﴾ أي: عن الإنفاق في سبيل الله، ﴿نَسُوا اللَّهَ﴾ أي: نسوا ذكر الله، ﴿فَنَسِيَهُمْ﴾ أي: عاملهم معاملة من نسيهم، كقوله تعالى: ﴿وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنْسِكُمَا فَتَيِّتُهُمَا لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾ [الجاثية: ٣٤] ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ أي: الخارجون عن طريق الحق، الداخلون في طريق الضلالة.

وقال القرطبي رَحِمَهُ اللهُ:

قوله تعالى: ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ﴾ ابتداء. ﴿بَعْضُهُمْ﴾ ابتداء ثان. ويجوز أن يكون بدلًا، ويكون الخبر ﴿مِنْ بَعْضٍ﴾. ومعنى ﴿بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾ أي هم كالشيء الواحد في الخروج عن الدين. وقال الزجاج، هذا متصل بقوله: ﴿وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَمَا هُمْ مِنْكُمْ﴾ [التوبة: ٥٦] أي ليسوا من المؤمنين، ولكن بعضهم من بعض، أي متشابهون في الأمر بالمنكر والنهي عن المعروف. وقبض أيديهم عبارة عن ترك الجهاد، وفيما يجب عليهم من حق. والنسيان: الترك هنا، أي تركوا ما أمرهم الله به فتركهم في الشك. وقيل: إنهم تركوا أمره حتى صار كالمنسي قصيرهم بمنزلة المنسي من ثوابه. وقال قتادة: ﴿نَسِيَهُمْ﴾ أي من الخير، فأما من الشر فلم ينسهم. والفسق: الخروج عن الطاعة والدين. وقد تقدم.

وقال السعدي رَحِمَهُ اللهُ:

يقول تعالى: ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾ لأنهم اشتهروا في النفاق، فاشتركوا في تولي بعضهم بعضًا، وفي هذا قطع للمؤمنين من ولايتهم. ثم ذكر وصف المنافقين العام، الذي لا يخرج منه صغير منهم ولا كبير، فقال: ﴿يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ﴾ وهو الكفر والفسوق والعصيان.

﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ﴾ وهو الإيمان، والأخلاق الفاضلة، والأعمال الصالحة، والآداب الحسنة. ﴿وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ﴾ عن الصدقة وطرق الإحسان، فوصفهم بالبخل.

﴿تَسْأَلُ اللَّهَ﴾ فلا يذكرونه إلا قليلاً ﴿فَنَسِيَهُمْ﴾ من رحمته، فلا يوفقهم لخير، ولا يدخلهم الجنة، بل يتركهم في الدرك الأسفل من النار، خالدين فيها مخلدين. ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ حصر الفسق فيهم، لأن فسقهم أعظم من فسق غيرهم، بدليل أن عذابهم أشد من عذاب غيرهم، وأن المؤمنين قد ابتلوا بهم، إذ كانوا بين أظهرهم، والاحتراز منهم شديد.

اس: وضع معنى قوله تعالى: (وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ

خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعْنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ٨٨) .

ج: المعنى، والله أعلم، وعد الله ﷻ أهل النفاق رجالاً ونساءً وكذا الكفار، هؤلاء على كفرهم، وأولئك على نفاقهم وسوء نيتهم وخبث طواياهم، وعدهم الله جميعاً نار جهنم ماكثين فيها لا يخرجون منها، هي كافيتهم، وطردهم الله من رحمته، ولهم في النار عذاب مقيم لا يزول عنهم ولا يتحولون عنه وبنحو هذا قال أهل العلم:

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ﴾ بالله، ﴿نَارَ جَهَنَّمَ﴾، أن يصلبهموها جميعاً، ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾، يقول: ماكثين فيها أبداً، لا يحيون فيها ولا يموتون، ﴿هِيَ حَسْبُهُمْ﴾، يقول: هي كافيتهم عقاباً وثواباً على كفرهم بالله، ﴿وَلَعْنَهُمُ اللَّهُ﴾، يقول: وأبعدهم الله وأسحقهم من رحمته، ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾، يقول: وللفریقین جميعاً: يعني من أهل النفاق والكفر، عند الله، ﴿عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾، دائم، لا يزول ولا يبيد.

وقال ابن كثير رحمه الله:

وقوله: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ﴾ أي: على هذا الصنيع الذي ذكر عنهم، ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي: ماكثين فيها مخلدين، هم والكفار، ﴿هِيَ

وقال القرطبي رَحِمَهُ اللهُ:

ج: المعنى - والله تعالى أعلم - **قل يا رسول الله لهؤلاء المنافقين والمنافقات والكفار الساخرين منك المستهزئين بدينك الذي جئتهم به، المكذبين للقرآن الجاحدين لوحدانية الله ﷻ، قل لهم شأنكم في هذا كله شأن الذي سبقوكم من أهل الكفر كانوا أقوى منكم وأعز نفراً، وأكثر أموالاً وأولاداً فاستمتعوا بديناهم وحظوظهم فيه ورضوا بها بدلاً عن النصيب الأخرى، فالخلاق هذا النصيب، أي أنهم استمتعوا بنصيبهم الذي كان لهم في الآخرة إن هم آمنوا، استمتعوا به في الدنيا ولم يلقوا للآخرة بالاً، فسلكتهم مسلكهم وسرتم سيرهم، واستمتعتم بنصيبكم في الدنيا وبحظوظكم فيها تاركين أمر الله وراء ظهوركم كما استمتع الذي من قبلكم بحظوظهم، وخضتم في التكذيب والسخرية والاستهزاء والكفر والعناد خوفاً**

كالذي خاضه أولئك فقد كانوا مكذبين معاندين ساخرين مستهزئين، فأولئك الذين هذه سبيلهم حبطت أعمالهم، ذهب ثوابها ﴿فِي الدُّنْيَا﴾ فلن يحمدا عليها واستوفوا باستمتاعهم حظوظهم فيها، ﴿وَالْآخِرَةُ﴾ أي: في الآخرة أعمالهم تكون هباء منثوراً، ذهب ثوابها وأولئك هم الخاسرون، خسروا أنفسهم، وخسروا أعمالهم.

وينحو هذا قال أهل العلم:

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: قل يا محمد، لهؤلاء المنافقين الذين قالوا: ﴿إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾: أبا الله وآيات كتابه ورسوله كنتم تستهزؤون؟ ﴿كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾، من الأمم الذين فعلوا فعلكم، فأهلكهم الله، وعجل لهم في الدنيا الخزي، مع ما أعد لهم من العقوبة والنكال في الآخرة. يقول لهم جل ثناؤه: واحذروا أن يحل بكم من عقوبة الله مثل الذي حل بهم، فإنهم كانوا أشد منكم قوة وبطشاً، وأكثر منكم أموالاً وأولاداً، ﴿فَأَسْتَمْتَعُوا بِخَلْقِهِمْ﴾، يقول: فتمتعوا بنصيبيهم وحظهم من دنياهم ودينهم، ورضوا بذلك من نصبيهم في الدنيا عوضاً من نصبيهم في الآخرة، وقد سلكتهم، أيها المنافقون، سبيلهم في الاستمتاع بخلاقتكم. يقول: فعلتم بدنيكم ودنياكم، كما استمتع الأمم الذين كانوا من قبلكم، الذين أهلكتهم بخلافهم أمري، ﴿بِخَلْقِهِمْ﴾، يقول: كما فعل الذين من قبلكم بنصيبيهم من دنياهم ودينهم، ﴿وَحُضِّتُمْ﴾، في الكذب والباطل على الله، ﴿كَالَّذِي خَا ضُوءاً﴾، يقول: وخضتم أنتم أيضاً، أيها المنافقون، كخوض تلك الأمم قبلكم.

وقال رحمه الله:

وأما قوله: ﴿أُولَئِكَ حِطَّتْ أَعْمَالُهُمْ﴾، فإن معناه: هؤلاء الذين قالوا: ﴿إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾، وفعلوا في ذلك فعل الهالكين من الأمم قبلهم، ﴿حِطَّتْ أَعْمَالُهُمْ﴾، يقول: ذهبت أعمالهم باطلاً. فلا ثواب لها إلا النار، لأنها كانت فيما يسخط الله ويكرهه، ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾، يقول: وأولئك هم المغبونون صفقتهم، بيعهم نعيم الآخرة بخلاقتهم من الدنيا اليسير الزهيد.

وقال ابن كثير رحمه الله:

يقول تعالى: أصاب هؤلاء من عذاب الله في الدنيا والآخرة كما أصاب من قبلهم، وقد كانوا أشد منهم قوة وأكثر أموالاً وأولاداً، وقوله: ﴿فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلْقِهِمْ﴾ قال الحسن البصري: بدينهم، وقوله: ﴿كَأَنَّمَا اسْتَغْنَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ بِخَلْقِهِمْ وَخُضِّمُوا كَالَّذِي خَاضُوا﴾ أي: في الكذب والباطل، ﴿أُولَئِكَ حِطَّتْ أَعْمَلُهُمْ﴾ أي: بطلت مساعيهم، فلا ثواب لهم عليها لأنها فاسدة ﴿فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ ؛ لأنهم لم يحصل لهم عليها ثواب.

قال ابن الجوزي (زاد المسير):

وموضع الكاف في قوله: ﴿كَأَنَّمَا اسْتَغْنَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ نصب أي: وعدكم الله على الكفر به كما وعد الذين من قبلكم وقال غيره: رجع عن الخبر عنهم إلى مخاطبتهم وشبههم في العدول عن أمره بمن كان قبلهم من الأمم الماضية. قوله تعالى: ﴿فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلْقِهِمْ﴾ قال ابن عباس: استمتعوا بنصيبهم من الآخرة في الدنيا وقال الزجاج: بحظهم من الدنيا.

قوله تعالى: ﴿وُخْضِمُوا﴾ أي في الطعن على الدين وتكذيب نبيكم كما خاضوا ﴿أُولَئِكَ حِطَّتْ أَعْمَلُهُمْ فِي الدُّنْيَا﴾ لأنها لم تقبل منهم وفي الآخرة لأنهم لا يثابون عليها ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ بفوت الثواب وحصول العقاب.

قال السعدي رحمه الله:

يقول تعالى واصفاً حال المنافقين: إن حالكم - أيها المنافقون - كحال أمثالكم ممن سبقوكم إلى النفاق والكفر، وقد كانوا أقوى منكم وأكثر أموالاً وأولاداً، استمتعوا بما قدر لهم، من حظوظ الدنيا، وأعرضوا عن ذكر الله وتقواه، وقابلوا أنبياءهم بالاستخفاف، وسخروا منهم فيما بينهم وبين أنفسهم. وقد استمتعتم بما قدر لكم، من ملاذ الدنيا كما استمتعوا، وخضتم فيما خاضوا فيه، من المنكر والباطل. إنهم قد بطلت أعمالهم، فلم تنفعهم في الدنيا، ولا في الآخرة، وكانوا هم الخاسرين. وأنتم مثلهم في سوء الحال والمآل، والعاقبة الوخيمة. ﴿فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلْقِكُمْ﴾، أي: بنصيبكم من الدنيا فتناولتموه على وجه اللذة والشهوة معرضين عن المراد منه، واستعنتم به على معاصي الله، ولم تتعد همتمكم

وإرادتكم ما خولتم من النعم كما فعل الذين من قبلكم ﴿وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا﴾، أي: وخضتم بالباطل والزور وجادلتم بالباطل لتدحضوا به الحق، فهذه أعمالهم وعلومهم، استمتع بالخلق وخوض بالباطل، فاستحقوا من العقوبة والإهلاك ما استحق من قبلهم ممن فعلوا كفعالهم، وأما المؤمنون منهم وإن استمتعوا بنصيبهم وما خولوا من الدنيا، فإنه على وجه الاستعانة به على طاعة الله، وأما علومهم فهي علوم الرسل، وهي الوصول إلى اليقين في جميع المطالب العالية، والمجادلة بالحق لإدحاض الباطل.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:

(أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾) وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾) وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسْكِنٍ طَيِّبَةٍ فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ وَرِضْوَانٍ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾) يَتَأَيَّأُ النَّبِيُّ جَهْدَ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ وَأَغْلَظَ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَيَتَّبِعُ الْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾) يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٧٤﴾)

[التوبة: ٧٠-٧٤].

س: وضع معنى ما يلي:

﴿نَبَأٌ - وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ - وَالْمُؤْتَفِكَاتِ - أُولِيَاءُ بَعْضٌ - عَزِيزٌ - وَرِضْوَانٌ
مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ - وَأَغْلَظَ عَلَيْهِمْ - كَلِمَةَ الْكُفْرِ - وَمَا نَقَمُوا - وَهُمْ أَيْمَانُ لِّمَنَالُوا﴾.

ج:

الكلمة	معناها
(نَبَأٌ) ﴿	خبر.
(وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ) ﴿	أهل بلاد مدين، وهم قوم شعيب ﷺ.
(وَالْمُؤْتَفِكَاتِ) ﴿	مدائن قوم لوط، قيل هي سدوم وما حولها ببلاد الأردن وقيل عنها مؤتفكات أي منقلبات لأن الملك قلبها رأساً على عقب كما قال تعالى: (فَجَعَلْنَاهَا سَافِلَهَا) ﴿ الحجر: ١٧٤.
(أُولِيَاءُ بَعْضٌ) ﴿	أنصار بعض، أعوان بعض على الخير.
(عَزِيزٌ) ﴿	لا يغلب، بل هو غالب، وأمره في خلقه نافذ.
(وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ) ﴿	رضي الله عليهم أكبر مما هم فيه من النعيم، فالقلوب مطمئنة به لا تخشى زوال النعم ولا تخاف.
(وَأَغْلَظَ عَلَيْهِمْ) ﴿	أشدد عليهم بالقول والنظرات وبالعمل.
(كَلِمَةَ الْكُفْرِ) ﴿	الكلمة التي كفروا بها، وهي سب رسول الله ﷺ وسب الدين.
(وَمَا نَقَمُوا) ﴿	ما أخذوا على الدين شيئاً ولا عابوه ولا وجدوا سبيلاً للطعن فيه إلا أن الله أغناهم وكذا كان رسول الله ﷺ سبياً في إغنائهم.
(وَهُمْ أَيْمَانُ لِّمَنَالُوا) ﴿	أرادوا أن يفتكوا برسول الله وما استطاعوا.

التذكير بأخبار من قد سبق

س: وضع معنى قوله تعالى: (أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمَ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَنْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾).

ج: يقول تعالى ذكره ما حاصله: ألم يأت هؤلاء الكفار المكذبين والمنافقين الساخرين المستهزئين، ألم يبلغهم ويصل إليهم خبر الأمم التي تقدمتهم وما حلَّ بهم من العذاب والنكال والدمار والهلاك ألم يصل إليهم خبر قوم نوح إذ كذبوا وعاندوا وسخروا واستهزؤوا فحلَّ بهم ما حلَّ من الطوفان الذي أبادهم وأفناهم. ألم يصل إليهم خبر قوم عاد الذين مكنوا في الأرض وبلغوا مبلغاً عظيماً من القوة والجبروت واستكبروا في الأرض بغير الحق وقالوا من أشد منا قوة، ألم يأتهم خبرهم، وقد قال ربهم ﷻ في شأنهم وشأن قبيلتهم (إِذْ ذَاتَ الْعِمَادِ ﴿٧﴾ أَلَمْ يَأْتِهِمْ) أَلَيْسَ لَكُمْ مِنْ شَيْءٍ عِلْمٌ؟ (الفجر: ٧، ٨).

ألم يأت هؤلاء المكذبين نبأ هؤلاء وما حلَّ بهم من الريح العقيم التي لم تذر شيئاً حتى جعلته كالرميم؟! ألم يأتهم خبر تلك الريح التي أرسلت على هذه القبيلة سبع ليالٍ وثمانية أيام حسوماً فجعلت القوم صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية. ألم يأت هؤلاء المكذبين أخبار قبيلة ثمود العاتية الظالمة القوية المعاندة، ألم يأت هؤلاء المكذبين أخبار المكذبين من قوم إبراهيم، وما حلَّ بهم وبملكهم وأخبار قوم شعيب الذين هم أهل مدين، وكذا ألم يأتهم خبر المدائن التي ائتفكت فانقلبت رأساً على عقب وهم قوم لوط، إذ الله قال: (جَعَلْنَا عَلَيْهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَاباً مِّنْ سِجَالٍ مَّنْضُودٍ ﴿٨٢﴾) (هود: ٨٢) لقد تركت هؤلاء الظالمين المكذبين آثاراً تدل عليهم وعلى ما حلَّ بهم، كما قال تعالى في شأن سفينة نوح التي أنجى الله عليها أهل الإيمان (وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُّذَكِّرٍ ﴿١٥﴾) (القمر: ١٥).

وكما قال في شأن مدائن قوم لوط: (وَأَنكُمْ لَنَمُرُونَّ عَلَيْهِمْ مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾) (الأنبياء: ١٣٧) وبأليل أفلأ نَعْلُوكَ ﴿١٣٨﴾ (الصافات: ١٣٧، ١٣٨) وكما قال في شأن ديار ثمود (وَلَا تَنَالُوا الْبَيْتَ الْمُقَاسِمَ ﴿١٣٨﴾) (الصافات: ١٣٧، ١٣٨).

﴿٧٦﴾ [الحجر: ٧٦] بطريق يمر عليها المارة فيرون ما حل بها من الدمار والهلاك، وغير هؤلاء كثير. لقد جاءت هذه الأمم رسلُ الله تحذرها وتذكرها فما آمنوا ولا اعطوا لا اعتبروا فحل بهم من ثم العقاب والنكال والدمار وما كان الله ليظلمهم إذ أنزل بهم ما أنزل، ولكن هم الذين ظلموا أنفسهم، بخسوها حقها بتكذيبهم فأنزلوا أنفسهم أسوأ المنازل، وكان من حق أنفسهم عليهم أن يؤمنوها من العذاب ولكنهم ظلموها بكفرهم وتكذيبهم ومن ثم بإحلال العقاب بهم.

وبنحو هذا قال العلماء:

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره: ألم يأت هؤلاء المنافقين الذين يُسِرُّون الكفرَ بالله، وينهون عن الإيمان به ورسوله، ﴿نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾، يقول: خبر الأمم الذين كانوا من قبلهم، حين عصوا رسلنا وخالفوا أمرنا، ماذا حلَّ بهم من عقوبتنا؟ ثم بين جل ثناؤه مَنْ أولئك الأمم التي قال لهؤلاء المنافقين ألم يأتهم نَبَأُهُمْ، فقال: ﴿قَوْمٌ نُوحٍ﴾، ولذلك خفض «القوم»، لأنه ترجم بهن عن ﴿الَّذِينَ﴾، و﴿الَّذِينَ﴾ في موضع خفض.

ومعنى الكلام: ألم يأت هؤلاء المنافقين خبر قوم نوح وصنعي بهم، إذ كذبوا رسولي نوحًا، وخالفوا أمري؟ ألم أغرقهم بالطوفان؟

﴿وَعَادٍ﴾، يقول: وخبر عاد، إذ عصوا رسولي هودًا، ألم أهلكهم بريح صرصر عاتية؟، وخبر ثمود، إذ عصوا رسولي صالحًا، ألم أهلكهم بالرجفة، فأتركهم بأفئدتهم خمودًا؟ وخبر قوم إبراهيم، إذ عصوه وردُّوا عليه ما جاءهم به من عند الله من الحق، ألم أسلبهم النعمة، وأهلك ملكهم نمرود؟ وخبر أصحاب مدين ابن إبراهيم، ألم أهلكهم بعذاب يوم الظلة إذ كذبوا رسولي شعبيًا؟ وخبر المنقلبة بهم أرضهم، فصار أعلاها أسفلها، إذ عصوا رسولي لوطًا، وكذبوا ما جاءهم به من عندي من الحق؟ يقول تعالى ذكره: أفأمن هؤلاء المنافقون الذين يستهزئون بالله وبآياته ورسوله، أن يُسلِّك بهم في الانتقام منهم، وتعجيل الخزي والنكال لهم في الدنيا، سبيلُ أسلافهم من الأمم، ويحلَّ بهم بتكذيبهم رسولي محمدًا ﷺ ما حلَّ بهم في

تكذيبهم رُسُلنا، إذ أتتهم بالبينات.

وأورد بإسناد حسن عن قتادة: ﴿وَالْمُؤْتَفِكَاتِ﴾، قال: قوم لوط، انقلبت بهم أرضهم، فجعل عاليها سافلها.

ثم قال الطبري رحمه الله:

فإن قال قائل: فإن كان عني بـ «المؤتفكات» قوم لوط، فكيف قيل: «المؤتفكات»، فجمعت ولم توحد؟

قيل: إنها كانت قريات ثلاثاً، فجمعت لذلك، ولذلك جمعت بالتاء، على قول الله: ﴿وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَهْوَى﴾ (النجم: ٥٣).

فإن قال: وكيف قيل: ﴿أَنَّهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾، وإنما كان المرسل إليهم واحداً؟

قيل: معنى ذلك: أتى كل قرية من المؤتفكات رسول يدعوهم إلى الله، فتكون رُسُل رسول الله ﷺ الذين بعثهم إليهم للدعاء إلى الله عن رسالته، رسلاً إليهم، كما قالت العرب لقوم نسبوا إلى أبي فديك الخارجي: «الفُديكات»، و«أبو فديك»، واحد، ولكن أصحابه لما نسبوا إليه وهو رئيسهم، دعوا بذلك، ونسبوا إلى رئيسهم. فكذا قوله: ﴿أَنَّهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾.

وقد يحتمل أن يقال معنى ذلك: أنت قوم نوح وعاد وشمود وسائر الأمم الذين ذكرهم الله في هذه الآية، رسلهم من الله بالبينات.

وقوله: ﴿فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾، يقول جل ثناؤه: فما أهلك الله هذه الأمم التي ذكر أنه أهلكها إلا بإجرامها وظلمها أنفسها، واستحقاقها من الله عظيم العقاب، لا ظلماً من الله لهم، ولا وضعاً منه جل ثناؤه عقوبةً في غير من هو لها أهل، لأن الله حكيم لا خلل في تدبيره، ولا خطأ في تقديره، ولكن القوم الذين أهلكهم ظلموا أنفسهم بمعصية الله وتكذيبهم رسله، حتى أسخطوا عليهم ربهم، فحققت عليهم كلمة العذاب فعذبوا.

وقال ابن كثير رحمه الله:

يقول تعالى واعظاً لهؤلاء المنافقين المكذبين للرسول: ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ

مِنْ قَبْلِهِمْ ﴿١﴾ أَي: أَلَمْ تَخْبَرُوا خَيْرَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ مِنَ الْأُمَمِ الْمَكْذِبَةِ لِلرَّسْلِ ﴿قَوْمِ نُوحٍ﴾ وَمَا أَصَابَهُمْ مِنَ الْغَرَقِ الْعَامِ لِجَمِيعِ أَهْلِ الْأَرْضِ، إِلَّا مَنْ آمَنَ بَعْدَهُ وَرَسُولُهُ نوح، ﴿عَلَيْهِ السَّلَامُ﴾، ﴿وَعَادٍ﴾ كَيْفَ أَهْلَكُوا بِالرِّيحِ الْعَقِيمِ، لَمَّا كَذَبُوا هُودًا، ﴿عَلَيْهِ السَّلَامُ﴾، ﴿وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ﴾ كَيْفَ أَخَذَتَهُمُ الصَّيْحَةُ لَمَّا كَذَبُوا صَالِحًا، ﴿عَلَيْهِ السَّلَامُ﴾، وَعَقَرُوا النَّاقَةَ، ﴿وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ﴾ كَيْفَ نَصَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَأَيَّدَهُ بِالْمُعْجَزَاتِ الظَّاهِرَةِ عَلَيْهِمْ، وَأَهْلَكَ مَلِكَهُمُ النَّمْرُودَ بْنَ كَنْعَانَ بْنِ كُوشِ الْكَنْعَانِيِّ لَعْنَهُ اللَّهُ، ﴿وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ﴾ وَهُمْ قَوْمٌ شَعِيبَ، ﴿عَلَيْهِ السَّلَامُ﴾، وَكَيْفَ أَصَابَتْهُمْ الرَّجْفَةُ وَالصَّيْحَةُ وَعَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ، ﴿وَالْمُؤْتَفِكَةِ﴾ قَوْمٌ لُوطَ، وَقَدْ كَانُوا يَسْكُنُونَ فِي مَدَائِنَ، وَقَالَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: ﴿وَالْمُؤْتَفِكَةِ أَهْوَى﴾ ﴿النَّجْم: ٥٣﴾ أَي: الْأُمَّةُ الْمُؤْتَفِكَةُ، وَقِيلَ: أَمْ قَرَاهُمْ، وَهِيَ «سُدُوم». وَالْغَرَضُ: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَهْلَكَهُمْ عَنْ آخِرِهِمْ بِتَكْذِيبِهِمْ نَبِيَّ اللَّهِ لُوطًا، ﴿عَلَيْهِ السَّلَامُ﴾، وَإِتْيَانِهِمُ الْفَاحِشَةَ الَّتِي لَمْ يَسْبِقْهُمْ بِهَا أَحَدٌ مِنَ الْعَالَمِينَ.

﴿أَنَّهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أَي: بِالْحُجَجِ وَالْدَّلَائِلِ الْقَاطِعَاتِ، ﴿فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾ أَي: بِإِهْلَاكِهِ إِيَّاهُمْ؛ لِأَنَّهُ أَقَامَ عَلَيْهِمُ الْحُجَّةَ بِإِرْسَالِ الرُّسُلِ وَإِزَاحَةِ الْعُلَلِ ﴿وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ أَي: بِتَكْذِيبِهِمُ الرُّسُلَ وَمُخَالَفَتِهِمُ الْحَقَّ، فَصَارُوا إِلَى مَا صَارُوا إِلَيْهِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْدَّمَارِ.

قال السعدي رحمه الله:

يقول تعالى محذراً للمنافقين أن يصيبهم ما أصاب من قبلهم من الأمم المكذبة ﴿قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَةِ﴾ أَي: قَرَى قَوْمِ لُوطَ.

فكلهم ﴿أَنَّهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أَي: بِالْحَقِّ الْوَاضِحِ الْجَلِيِّ، الْمُبِينِ لِحَقَائِقِ الْأَشْيَاءِ، فَكَذَبُوا بِهَا، فَجَرَى عَلَيْهِمْ مَا قَصَّ اللَّهُ عَلَيْنَا، فَأَنْتُمْ أَعْمَالُكُمْ شَبِيهَةٌ بِأَعْمَالِهِمْ. قَوْلُهُ: ﴿فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾ إِذْ أَوْقَعَ بِهِمْ مِنْ عِقَابِهِ مَا أَوْقَعَ. ﴿وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ حَيْثُ تَجَرَّأُوا عَلَى مَعَاصِيهِ، وَعَصَوْا رُسُلَهُمْ، وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ.

مؤالة أهل الإيمان لبعضهم وطاعتهم لله ورسوله

س: وضح معنى قوله تعالى: (وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾) .

ج: المعنى - والله أعلم - والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أنصاراً لبعض وأعداء لبعض يتعاونون فيما بينهم على البر والتقوى ويناصر بعضهم بعضاً في الخير وكذا فإنهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويحافظون على إقامة الصلاة في أوقاتها، وكذا يؤدون الزكوات التي افترضها الله عليهم كما أمرهم الله، ويطيعون الله ورسوله فيما أمرهم به، وكذا ينتهون عما نهى عنه الله ورسوله، أولئك الموصوفون بتلك الصفات سيرحمهم الله إن الله عزيز لا يغلب ولا يحتاج إلى أن ينصره ناصر حكيم فيما يشرع وحكيم في كل شيء يقول ويفعل ونحن ما ذكر قال أهل العلم.

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره: وأما ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ ﴾، وهم المصدقون بالله ورسوله وآيات كتابه، فإن صفتهم: أن بعضهم أنصاراً بعض وأعداء بعضهم، ﴿ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ ﴾، يقول: يأمر الناس بالإيمان بالله ورسوله، وبما جاء به من عند الله، ﴿ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ ﴾، يقول: يؤدّون الصلاة المفروضة، ﴿ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ ﴾، يقول: يعطون الزكاة المفروضة أهلها، ﴿ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾، فيأتمرون لأمر الله ورسوله، وينتهون عما نهاهم عنه، ﴿ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ ﴾، يقول: هؤلاء الذين هذه صفتهم، الذين سيرحمهم الله، فينقذهم من عذابه، ويدخلهم جنته، لا أهل النفاق والتكذيب بالله ورسوله، الناهون عن المعروف، الآمرون بالمنكر، القابضون أيديهم عن أداء حق الله من أموالهم، ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ ﴿٧١﴾، يقول: إن الله ذو عزة في انتقامه ممن انتقم من خلقه على معصيته وكفره به، لا يمنعه من الانتقام منه مانع، ولا ينصره منه ناصر، ﴿ حَكِيمٌ ﴾، في انتقامه منهم، وفي جميع أفعاله.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ:

لما ذكر الله تعالى صفات المنافقين الذميمة، عطف بذكر صفات المؤمنين المحمودة، فقال: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ أي: يتناصرون ويتعاضدون، كما جاء في الصحيح ^(١): «المؤمن للمؤمن كالبنان يشد بعضه بعضا» وشبك بين أصابعه وفي الصحيح أيضا ^(٢): «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم، كمثل الجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر» وقوله: ﴿يَا مُرُوتَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ كقوله تعالى: ﴿وَلَتَكُنَّ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾.

[آل عمران: ١٠٤]

وقوله تعالى: ﴿وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ أي: يطيعون الله ويحسنون إلى خلقه، ﴿وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أي: فيما أمر، أو ترك ما عنه زجر، ﴿أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ﴾ أي: سيرحم الله من اتصف بهذه الصفات، ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ أي: عزيز، ومن أطاعه أعزه، فإن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين، ﴿حَكِيمٌ﴾ في قسمته هذه الصفات لهؤلاء، وتخصيصه المنافقين بصفاتهم المتقدمة، فإن له الحكمة في جميع ما يفعله، ع.

قال القرطبي رَحِمَهُ اللهُ:

قوله تعالى: ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ أي قلوبهم متحدة في التواد والتحاب والتعاطف. وقال في المنافقين: ﴿بَعْضُهُمْ مِّنْ بَعْضٍ﴾ لأن قلوبهم مختلفة ولكن يضم بعضهم إلى بعض في الحكم.

وقوله تعالى: ﴿يَا مُرُوتَ بِالْمَعْرُوفِ﴾ أي بعبادة الله تعالى وتوحيده، وكل ما أتبع ذلك. ﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ عن عبادة الأوثان وكل ما أتبع ذلك. وذكر الطبري عن أبي العالية أنه قال: كل ما ذكر الله في القرآن من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فهو النهي عن عبادة الأوثان والشياطين. وقد مضى القول في الأمر بالمعروف والنهي

(١) البخاري (٤٨١)، ومسلم (٢٥٨٥).

(٢) البخاري (٦٠١١)، ومسلم (٢٥٨٦).

عن المنكر في سورة «المائدة» و«آل عمران» والحمد لله.
 وقوله تعالى: ﴿وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ تقدم في أول «البقرة» القول فيه. وقال ابن عباس: هي الصلوات الخمس، وبحسب هذا تكون الزكاة هنا المفروضة. ابن عطية: والمدح عندي بالنوافل أبلغ؛ إذ من يقيم النوافل أخرى بإقامة الفرائض.
 وقوله تعالى: ﴿وَيُطِيعُونَ اللَّهَ﴾ في الفرائض ﴿وَرَسُولَهُ﴾ فيما سن لهم. والسين في قوله: ﴿سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ﴾ مدخلة في الوعد مهلة لتكون النفوس تتنعم برجائه؛ وفضله تعالى زعيم بالإنجاز.

وقال السعدي رحمه الله:

لما ذكر أن المنافقين بعضهم من بعض ذكر أن المؤمنين بعضهم أولياء بعض، ووصفهم بضد ما وصف به المنافقين، فقال: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ﴾ أي: ذكورهم وإناثهم ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ في المحبة والموالاتة، والانتماء والنصرة.
 ﴿يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ﴾ وهو: اسم جامع، لكل ما عرف حسنه، من العقائد الحسنة، والأعمال الصالحة، والأخلاق الفاضلة، وأول من يدخل في أمرهم أنفسهم، ﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ وهو: كل ما خالف المعروف وناقضه من العقائد الباطلة، والأعمال الخبيثة، والأخلاق الرذيلة.
 ﴿وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أي: لا يزالون ملازمين لطاعة الله ورسوله على الدوام.

﴿أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ﴾ أي: يدخلهم في رحمته، ويشملهم بإحسانه.
 ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ أي: قوي قاهر، ومع قوته فهو حكيم، يضع كل شيء موضعه اللائق به الذي يحمد على ما خلقه وأمر به.

س: ما المراد بـ(جَنَّتٍ عَدْنٍ).

ج: لأهل العلم في ذلك أقوال:

أحدها: أن عدن إقامة وجنات عدن أي جنات إقامة لا تحول عنها كما قال تعالى: (لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حَوْلًا) ﴿١٠٨﴾ [الكهف: ١٠٨].

(٣٤٠) أحمر
أسود

الدَّسَمِيلُ لِأَوَّلِ النَّزِيلِ سُورَةُ النَّازِعَاتِ ٣٤٠ دب

الثاني: أن (عدن) اسم لجنة معينة وقيل قصر في الجنة وقيل مدينة في الجنة.
|

جزاء أهل الإيمان

س: وضح معنى الآية الكريمة (وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسْكَنٌ طَيِّبٌ فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٧٣﴾).

ج: المعنى، والله تعالى أعلم، وعد الله أهل الإيمان رجالاً ونساء أن يدخلهم جنات إقامة يقيمون فيها ولا يخرجون منها بل يستمتعون فيها بكل ما تشتهيهِ الأنفس وتلد الأعين وهم فيها خالدون، وهذه الجنات، تجري من تحتها الأنهار، (أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَنْغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى)، وفوق ذلك، وأجل من ذلك، وأعظم من ذلك كله رضوان الله عليهم فهو أكبر مما هم فيه من النعيم، فقلوبهم مسرورة برضوان الله عليهم، ونفوسهم مطمئنة بذلك، وذلك الرضوان، وهذا النعيم هو الفوز الذي لا أكبر منه فوز ولا يعلوه فوز فذلك هو الفوز العظيم رضوان الله ودخول الجنان جعلنا الله من أهل ذلك كله آمين وبنحو هذا التأويل قال أهل العلم:

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره: وعد الله الذين صدقوا الله ورسوله، وأقروا به وبما جاء به من عند الله، من الرجال والنساء، ﴿جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾، يقول: بساتين تجري تحت أشجارها الأنهار، ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾، يقول: لاثنين فيها أبداً، مقيمين لا يزول عنهم نعيمها ولا يبيد، ﴿وَمَسْكَنٌ طَيِّبٌ﴾، يقول: ومنازل يسكنونها طيبة.

وقال رحمه الله:

وأما قوله: ﴿فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ﴾، فإنه يعني: وهذه المساكن الطيبة التي وصفها جل ثناؤه، ﴿فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ﴾.

و«في» من صلة ﴿وَمَسْكَنٌ﴾.

وقيل: ﴿جَنَّاتٍ عَدْنٍ﴾، لأنها بساتين خلد وإقامة، لا يظعن منها أحد.

وقيل: إنما قيل لها ﴿جَنَّاتٍ عَدْنٍ﴾، لأنها دار الله التي استخلصها لنفسه، ولمن شاء من خلقه، من قول العرب: «عَدَنَ فلان بأرض كذا»، إذا أقام بها وخلد بها، ومنه

«المَعْدِن»، ويقال: «هو في معدن صدق»، يعني به: أنه في أصل ثابت.
وأورد الطبري آثارًا فيها مقالٌ ثم قال: وقال آخرون: معنى (جَنَّتِ عَدْنٌ) جنات أعناب وكروم وقال آخرون: هي اسمٌ لبُطنان الجنة ووسطها وأورد بسندٍ صحيح عن ابن مسعود ﴿جَنَّتِ عَدْنٌ﴾ بطنان الجنة، وفَسَّره الأعمش بقوله: وسطها وقال آخرون: ﴿عَدْنٌ﴾ اسمٌ لقصر. وقيل: مدينة في الجنة، وقيل: اسم نهر.

وقال الطبري أيضًا:

وأما قوله: ﴿وَرِضْوَنٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾، فإن معناه: ورَضِيَ الله عنهم أكبر من ذلك كله، وبذلك جاء الخبر عن رسول الله ﷺ.

وأورد حديث أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله يقول لأهل الجنة: يا أهل الجنة! فيقولون: لبيك ربنا وسعديك! فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: ما لنا لا نرضى، وقد أعطيتنا ما لم تُعْطِ أحدًا من خلقك؟ فيقول: أنا أعطيتكم أفضل من ذلك. قالوا: يا رب، وأي شيء أفضل من ذلك! قال: أحلَّ عليكم رضواني، فلا أسخط عليكم بعده أبدًا»^(١).

وقال الطبري رحمه الله:

﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾، هذه الأشياء التي وعدت المؤمنين والمؤمنات، ﴿هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾، يقول: هو الظفر العظيم، والنجاء الجسيم، لأنهم ظفروا بكرامة الأبد، ونَجَوْا من الهوان في سَقَر، فهو الفوز العظيم الذي لا شيء أعظم منه.

وقال الحافظ ابن كثير رحمه الله:

يخبر تعالى بما أعدّه للمؤمنين به والمؤمنات من الخيرات والنعيم المقيم في ﴿جَنَّتِ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي: ماكثين فيها أبدًا، ﴿وَمَسْكَنٌ طَيِّبَةٌ﴾ أي: حسنة البناء، طيبة القرار، كما جاء في الصحيحين^(٢) من حديث أبي عمران الجوني، عن أبي بكر بن أبي موسى عبد الله بن قيس الأشعري، عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «جنتان من ذهب آتيتهما وما فيهما، وجنتان من فضة آتيتهما وما فيهما،

(١) سنده عند الطبري فيه مقال، لكن الخبر ثابت صحيح وسيأتي إن شاء الله.

(٢) البخاري (٤٨٧٨)، ومسلم (١٨٠).

وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن». وبه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن للمؤمن في الجنة لَحَيْمَةً من لؤلؤة واحدة مُجَوَّفَةٌ، طولها ستون ميلاً في السماء، للمؤمن فيها أهلون يطوف عليهم، لا يرى بعضهم بعضاً» أخرجاه^(١).

وفي الصحيحين أيضاً، عن أبي هريرة^(٢) قال: قال رسول الله ﷺ: «من آمن بالله ورسوله، وأقام الصلاة وصام رمضان، فإن حقاً على الله أن يدخله الجنة، هاجر في سبيل الله، أو جلس في أرضه التي ولد فيها». قالوا: يا رسول الله، أفلا نخبر الناس؟ قال: «إن في الجنة مائة درجة، أعدها الله للمجاهدين في سبيله، بين كل درجتين كما بين السماء والأرض، فإذا سألتهم الله فاسألوه الفردوس، فإنه أعلى الجنة وأوسط الجنة، ومنه تَفَجَّر أنهار الجنة، وفوقه عرش الرحمن».

وقال ابن كثير رحمه الله:

وعن أبي حازم، عن سهل بن سعد قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أهل الجنة ليتراءؤن الغرفة في الجنة، كما تراءؤن الكوكب في السماء». أخرجاه في الصحيحين^(٣).

وقال:

ثم ليعلم أن أعلى منزلة في الجنة مكانٌ يقال له: «الوسيلة» لقربه من العرش، وهو مسكن رسول الله ﷺ من الجنة.

وأورد بعض الأحاديث ثم قال:

وقوله تعالى: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ أي: رضا الله عنهم أكبر وأجل وأعظم مما هم فيه من النعيم، كما قال الإمام مالك، رحمه الله، عن زيد بن أسلم، عن عطاء بن يسار، عن أبي سعيد الخدري، رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله، ﷻ، يقول لأهل الجنة: يا أهل الجنة، فيقولون: لبيك ربنا وسعديك، والخير في يديك. فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى يا رب، وقد أعطيتنا ما لم تُعط أحداً من خلقك.

(١) البخاري (٤٨٧٩)، ومسلم (٢٨٣٨).

(٢) البخاري (٢٧٩٠)، ومسلم (٢٨٣٨).

(٣) البخاري (٦٥٥٥)، ومسلم (٢٨٣٠).

فيقول: ألا أعطيتكم أفضل من ذلك؟ فيقولون: يا رب، وأي شيء أفضل من ذلك؟ فيقول: أحل عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبداً» أخرجاه من حديث مالك^(١).

قال ابن الجوزي (زاد المسير):

فإن قيل: لم يكن الرضوان أكبر من النعيم؟ فعنه جوابان:

أحدهما: أن سرور القلب برضى الرب نعيم يختص بالقلب وذاك أكبر من نعيم الأكل والشرب.

والثاني: أن الموجب للنعيم الرضوان والموجب ثمرة الموجب فهو الأصل.

وقال السعدي (تيسير الكريم الرحمن):

﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ جامعة لكل نعيم وفرح، خالية من كل أذى وترح، تجري من تحت قصورها ودورها وأشجارها الأنهار الغزيرة، المروية للبساتين الأنيقة، التي لا يعلم ما فيها من الخيرات والبركات إلا الله تعالى.

﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ لا ييغون عنها حولا ﴿وَمَسْكَنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ﴾ قد زخرت وحسنت وأعدت لعباد الله المتقين، قد طاب مرآها، وطاب منزلها ومقيلها، وجمعت من آلات المساكن العالية ما لا يتمنى فوقه المتمنون، حتى إن الله تعالى قد أعد لهم غرفاً في غاية الصفاء والحسن، ويرى ظاهرها من باطنها، وباطنها من ظاهرها.

فهذه المساكن الأنيقة، التي حقيق بأن تسكن إليها النفوس، وتنزع إليها القلوب، وتشاق لها الأرواح، لأنها في جنات عدن، أي: إقامة لا يظعنون عنها، ولا يتحولون منها.

﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ﴾ يحله على أهل الجنة ﴿أَكْبَرُ﴾ مما هم فيه من النعيم، فإن نعيمهم لم يطب إلا برؤية ربهم ورضوانه عليهم، ولأنه الغاية التي أمَّها العابدون، والنهاية التي سعى نحوها المحبون، فرضا رب الأرض والسموات، أكبر من نعيم

(١) البخاري (٦٥٤٩)، ومسلم (٢٨٢٩).

الجنات.

﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ حيث حصلوا على كل مطلوب، وانتفى عنهم كل محذور، وحسنت وطابت منهم جميع الأمور، فنسأل الله أن يجعلنا معهم بجوده.

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ جِهَادَ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ وَأَغْلَظُ عَلَيْهِمْ وَمَأْوِيَهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾.

ج: هذا أمر من الله ﷻ لرسوله ﷺ بمجاهدة الكفار أهل الجحود الذي يجحدون وحدانية الله ﷻ ويكذبون رسله ويحاربون أولياءه، وكذا بمجاهدة أهل النفاق الذين يبطنون الكفر ويظهرون الإسلام، يأمر الله ﷻ بمجاهدة هؤلاء وأولئك، وكذا يأمر بالشدة عليهم في القول والفعل والنظر وغير ذلك، وكل منهم بحسبه في ذلك، وكل يُردع بالطريقة التي تُجدي فيه وتنجح، ويخبر الله ﷻ بأن مأوى هؤلاء جهنم فهي مصيرهم الذي يصيرون إليه، وبئس ذلك المصير وبنحو هذا قال العلماء:

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ جِهَادَ الْكُفَّارِ﴾، بالسيف والسلاح، ﴿وَالْمُنَافِقِينَ﴾.

واختلف أهل التأويل في صفة «الجهاد» الذي أمر الله نبيه به في المنافقين.

فقال بعضهم: أمره بجهادهم باليد واللسان، وبكل ما أطاق جهادهم به.

وقال آخرون: بل أمره بجهادهم باللسان.

وقال آخرون: بل أمره بإقامة الحدود عليهم واختار الطبري ما نقله عن ابن

مسعود^(١) من أن الله أمر نبيه ﷺ من جهاد المنافقين بنحو الذي أمره به من جهاد المشركين.

وقال رحمه الله:

وقوله: ﴿وَأَغْلَظُ عَلَيْهِمْ﴾، يقول تعالى ذكره: واشدد عليهم بالجهاد والقتال

والإرهاب.

(١) وفي سنده عن ابن مسعود مقال عند الطبري.

وقوله: ﴿وَمَا أَوْهَنُ جَهَنَّمَ﴾، يقول: ومساكنهم جهنم، وهي مثواهم ومأواهم،
﴿وَيُسَّسُ الْمَصِيرُ﴾ (٧٣)، يقول: وبئس المكان الذي يُصَار إليه جهنم.

هذا، وقد أورد الطبري على نفسه سؤالاً وأجاب عليه فقال:

فإن قال قائل: فكيف تركهم ﷺ مقيمين بين أظهر أصحابه، مع علمه بهم؟

قيل: إن الله تعالى ذكره إنما أمر بقتال من أظهر منهم كلمة الكفر، ثم أقام على إظهاره ما أظهر من ذلك. وأمّا مَنْ إذا اطلع عليه منهم أنه تكلم بكلمة الكفر وأخذ بها، أنكرها ورجع عنها وقال: «إني مسلم»، فإن حكم الله في كل من أظهر الإسلام بلسانه، أن يحقن بذلك له دمه وماله، وإن كان معتقداً غير ذلك، وتوكل هو جل ثناؤه بسرائرهم، ولم يجعل للخلق البحث عن السرائر. فلذلك كان النبي ﷺ، مع علمه بهم وإطلاع الله إياه على ضمائرهم واعتقاد صدورهم، كان يُقرّهم بين أظهر الصحابة، ولا يسلك بجهادهم مسلك جهاد من قد ناصبه الحرب على الشرك بالله، لأن أحدهم كان إذا اطلع عليه أنه قد قال قولاً كفر فيه بالله، ثم أخذ به أنكره وأظهر الإسلام بلسانه. فلم يكن ﷺ يأخذه إلا بما أظهر له من قوله، عند حضوره إياه وعزمه على إمضاء الحكم فيه، دون ما سلف من قول كان نطق به قبل ذلك، ودون اعتقاد ضميره الذي لم يبح الله لأحدٍ الأخذ به في الحكم، وتولّى الأخذ به هو دون خلقه.

أما الحافظ ابن كثير فقد أورد أقوالاً: في كيفية جهاد المنافقين، وإن كان في سند الآثار التي أتى بها مقال فلذا أضربت عن إيرادها، فمن الأقوال جهادهم بالسيف ومنها جهادهم باللسان، ومنها جهادهم بإقامة الحدود عليهم، قال ابن كثير:

وقد يقال: إنه لا منافاة بين هذه الأقوال، لأنه تارة يؤاخذهم بهذا، وتارة بهذا بحسب الأحوال، والله أعلم.

وقال القرطبي رحمه الله:

(يَتَأَيَّمُ النَّبِيُّ جِهْدَ الْكُفَّارِ... ﴿الخطاب للنبي ﷺ وتدخل فيه أمته من بعده ثم نقل عن ابن العربي: أما إقامة الحجة باللسان فكانت دائمة وأما بالحدود لأن أكثر إصابة الحدود كانت عندهم فدعوى لا برهان عليها وليس العاصي بمنافق إنما المنافق بما يكون في قلبه من النفاق كامناً لا بما تتلبس به الجوارح ظاهراً وأخبار

المحدودين يشهد سياقتها أنهم لم يكونوا منافقين.

قال القرطبي:

قوله تعالى: ﴿وَأَغْلَظْ عَلَيْهِمْ﴾ الغلظ: نقيض الرأفة، وهي شدة القلب على إحلال الأمر بصاحبه. وليس ذلك في اللسان؛ فإن النبي ﷺ قال: «إذا زنت أمة أحدكم فليجلدها الحد ولا يثرب عليها». ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩]. ومنه قول النسوة لعمر: أنت أفظ وأغلظ من رسول الله ﷺ ومعنى الغلظ خشونة الجانب. فهي ضد قوله تعالى: ﴿وَخَفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٥]. ﴿وَخَفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ﴾ [الإسراء: ٢٤]. وهذه الآية نسخت كل شيء من العفو والصلح والصفح.

وقال السعدي في تفسيره:

يقول تعالى لنبيه ﷺ: ﴿يَتَأْتِيَهَا النَّيُّ جَهْدٌ أَلْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ أي: بالغ في جهادهم (وَأَغْلَظْ عَلَيْهِمْ) حيث اقتضت الحال الغلظة عليهم. وهذا الجهاد يدخل فيه الجهاد باليد، والجهاد بالحجة واللسان، فمن بارز منهم بالمحاربة فيجاهد باليد، واللسان والسيف والسنان. ومن كان مدعنا للإسلام بذمة أو عهد، فإنه يجاهد بالحجة والبرهان ويبين له محاسن الإسلام، ومساوئ الشرك والكفران، فهذا ما لهم في الدنيا. ﴿وَلَوْ﴾ أما في الآخرة، فإن ﴿مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ﴾ أي: مقرهم الذي لا يخرجون منها ﴿وَيَنْسُ الْمَصِيرُ﴾.

أ س: هل ورد لقوله تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا...﴾ الآية. سبب نزول صحيح؟
ج: أورد الطبري رحمه الله أسباباً لنزولها لا تخلوا من مقال فمنها ما أورد بسندٍ ضعيف عن هشام بن عروة عن أبيه^(١) (يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ) قال: نزلت في الجلاس بن سويد بن الصامت، قال: «إن كان ما جاء به محمد حقاً، لنحن أشرُّ من الحُمُر!»، فقال له ابن امرأته: والله، يا عدو الله، لأخبرن رسول الله ﷺ

(١) وفضلاً عن الضعف فهذا وذاك مرسلان.

بما قلت، فإني إن لا أفعل أخاف أن تصيبي قارعةً، وأؤخذ بخطيئتكَ! فدعا النبي ﷺ الجلاس، فقال: «يا جلاس، أقلت كذا وكذا؟» فحلف ما قال، فأنزل الله ع: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهُمْ أَيْمَانُ يَمَنُونَ وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾.

ومن وجه آخر ضعيف أيضاً عن هشام بن عروة، عن أبيه^(١) قال: نزلت هذه الآية: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ﴾، في الجلاس بن سويد بن الصامت، أقبل هو وابن امرأته مُصْعَبُ من قُباء، فقال الجلاس: إن كان ما جاء به محمد حقاً لنحن أشد من حُمُرنا هذه التي نحن عليها! فقال مصعب: أما والله، يا عدو الله، لأخبرن رسول الله ﷺ بما قلت! فأتيت النبي ﷺ، وخشيت أن ينزل في القرآن، أو تصيبي قارعة، أو أن أخلط بخطيئته، قلت: يا رسول الله، أقبلت أنا والجلاس من قُباء، فقال كذا وكذا، ولولا مخافة أن أخلط بخطيئته، أو تصيبي قارعة، ما أخبرتك. قال: فدعا الجلاس فقال له: «يا جلاس، أقلت الذي قال مصعب؟» قال: فحلف، فأنزل الله ع: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ﴾، الآية.

وبسند فيه مقال عن مجاهد: ﴿كَلِمَةَ الْكُفْرِ﴾، قال أحدهم: «لئن كان ما يقول محمد حقاً لنحن شر من الحمير!» فقال له رجل من المؤمنين: إن ما قال لحق، ولأنت شر من حمار! قال: فهم المنافقون بقتله، فذلك قوله: ﴿وَهُمْ أَيْمَانُ يَمَنُونَ﴾.

وقال الطبري رحمه الله:

حدثني أيوب بن إسحاق بن إبراهيم قال: حدثنا عبد الله بن رجاء قال: حدثنا إسرائيل، عن سماك، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ جالساً في ظل شجرة، فقال: «إنه سيأتيكم إنسانٌ فينظر إليكم بعيني شيطان، فإذا جاء فلا تكلموه». فلم يلبث أن طلع رجل أزرق، فدعاه رسول الله ﷺ، فقال: «علامَ تشتمني أنت وأصحابك؟» فانطلق الرجل فجاء بأصحابه، فحلفوا بالله ما قالوا وما فعلوا،

(١) وفضلاً عن الضعف فهذا وذاك مرسلان.

حتى تجاوز عنهم، فأنزل الله: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا﴾، ثم نعتهم جميعاً، إلى آخر الآية.

وأورد الطبري بإسنادٍ حسن عن قتادة، ولكن مرسل فقتادة تابعي، قوله: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا﴾، إلى قوله: ﴿مَنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾، قال: ذكر لنا أن رجلين اقتتلا أحدهما من جهينة، والآخر من غفار، وكانت جهينة حلفاء الأنصار، وظهر الغفاري على الجهني، فقال عبد الله بن أبي لأوس: انصروا أخاكم، فوالله ما مثلنا ومثل محمد إلا كما قال القائل: «سمن كلبك يأكلك»، وقال: ﴿لَيْنَ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجَنَا الْأَعْرَابُ مِنْهَا الْأَذَلَّ﴾ [المنافقون: ٨]، فسعى بها رجل من المسلمين إلى نبي الله ﷺ، فأرسل إليه فسأله، فجعل يحلف بالله ما قاله، فأنزل الله ع: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ﴾.

تَكْذِيبُ اللَّهِ ﷻ لِأَهْلِ النِّفَاقِ

س: وضح معنى قوله تعالى: (يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهُمْ يَحْمِلُونَ أِيمَانَهُمْ وَمَا تَقَمُّوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمْ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا بِكُمْ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَسْتَوِلُوا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ۝٧٦) .

ج: المعنى، والله تعالى أعلم، أن أهل النفاق هؤلاء، ولما بلغت رسول الله ﷺ المقالات الشنيعة التي قالوها من السخرية والاستهزاء بالدين وبالرسول الأمين جاءوا إلى رسول الله ﷺ يقسمون ويحلفون أيماناً كاذبة أنهم ما قالوا هذا الذي نقل عنهم من السخرية والاستهزاء والطعن في الدين وكلمات الكفر التي قالوها فكذبهم الله ﷻ بقوله: (وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ ۝٧٦ أي: الكلمة التي كفروا بها وخرجوا بها من الإسلام، وهموا بفعل أشياء لم يُنَوِّلهم الله إياها كقتل رسول الله ﷺ، أو قتل بعض المسلمين، أو محاولة إرجاع أقوام إلى الكفر إلى غير ذلك من سيئ الأفعال التي يريدونها ويطمعون فيها، ولكن ذهب سعيهم وخاب، وضل عملهم وبطل وسلَّم الله رسوله ﷺ والمؤمنين فلم يظفر أهل الكفر بمرادهم ولم يدركوا ما أضمره من الشر في نفوسهم.

أما قوله تعالى: ﴿وَمَا تَقَمُّوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمْ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ ۝٧٦﴾ فحاصل معناه أن أهل النفاق هؤلاء ما نالهم من الإسلام ومن الرسول عليه الصلاة والسلام، بل ومن ربهم إلا الخير، فما وجدوا شيئاً يعيبون به هذا الدين، إلا أنهم كانوا فقراء فأغناهم الله، فهل هذا عيبٌ يا أولي الألباب، ويا أصحاب العقول؟! لقد كان من الواجب أن يشكر هذا المعروف لله ويقابل بتوحيد الله والإيمان به والإقرار بكتابه وبرسوله، ولكن فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور.

ثم إن الله ﷻ يذكرهم بالتوبة والرجوع إلى الله كما هو الشأن والحال حتى لا يبقى لأحدٍ عذرٌ فيقول تعالى: (فَإِنْ يَتُوبُوا ۝٧٦) فإن يرجع هؤلاء إلى الإيمان والإسلام

وطيب الكلام ويطلبوا من الله مغفرة ذنوبهم يكن هذا خيراً لهم في الدنيا والآخرة،
(وَإِنْ يَتَوَلَّوْا ﴿﴾ يعرضوا عن الإيمان والإسلام وطيب الكلام يعذبهم الله عذاباً مؤلماً
موجعاً ﴿﴾ فِي الدُّنْيَا ﴿﴾ بقتلهم وأسْرهم وسبيهم وفي الآخرة بالنار، والعياذ بالله، وما لهم
في الأرض من وليٍّ يتولاهم، ولا نصير ينصرهم ونحن هذا قال العلماء.

قال السعدي رحمه الله:

﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ﴾ أي: إذا قالوا قولاً كقول من قال
منهم: ﴿لِيُخْرِجَ الْأَعْرَضُ مِنْهَا الْأَذَلَّ﴾ والكلام الذي يتكلم به الواحد بعد الواحد، في
الاستهزاء بالدين، وبالرسول.

فإذا بلغهم أن النبي ﷺ قد بلغه شيء من ذلك، جاءوا إليه يحلفون بالله ما قالوا.
قال تعالى مكذباً لهم: ﴿وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ﴾ فإسلامهم
السابق - وإن كان ظاهره أنه أخرجهم من دائرة الكفر - فكلامهم الأخير ينقض
إسلامهم، ويدخلهم بالكفر.

﴿وَهُمْ أَيْمَانُ يَذَّابُونَ﴾ وذلك حين هموا بالفتك برسول الله ﷺ في غزوة تبوك،
فقص الله عليه نبأهم، فأمر من يصددهم عن قصدهم.

﴿وَالْحَالِ أَنَّهُمْ﴾ وَمَا نَقَمُوا ﴿﴾ وعابوا من رسول الله ﷺ ﴿إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمْ اللَّهُ
وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ بعد أن كانوا فقراء معوزين، وهذا من أعجب الأشياء، أن يستهينوا
بمن كان سبباً لإخراجهم من الظلمات إلى النور، ومغنياً لهم بعد الفقر، وهل حقه
عليهم إلا أن يعظموه، ويؤمنوا به ويجلوه؟

ثم عرض عليهم التوبة فقال: ﴿فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ﴾ لأن التوبة، أصل لسعادة
الدنيا والآخرة.

﴿وَإِنْ يَتَوَلَّوْا ﴿﴾ عن التوبة والإنابة ﴿يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ في
الدنيا بما ينالهم من الهم والغم والحزن على نصرة الله لدينه، وإعزاز نبيه، وعدم
حصولهم على مطلوبهم، وفي الآخرة، في عذاب السعير.

﴿وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ﴾ يتولى أمورهم، ويحصل لهم المطلوب ﴿وَلَا
نَصِيرٍ﴾ يدفع عنهم المكروه، وإذا انقطعوا من ولاية الله تعالى، فثم أصناف الشر

والخسران، والشقاء والحرمان.

قال الطبري رحمه الله بعد أن أورد أسباب النزول التي ذكرتها:

والصواب من القول في ذلك عندنا أن يقال: إن الله تعالى أخبر عن المنافقين أنهم يحلفون بالله كذباً على كلمة كُفّر تكلموا بها أنهم لم يقولوها. وجائز أن يكون ذلك القول ما روي عن عروة: أن الجلاس قاله، وجائز أن يكون قائله عبد الله بن أبي ابن سلول، والقول ما ذكر قتادة عنه أنه قال. ولا علم لنا بأيّ ذلك من أيّ، إذ كان لا خبر بأحدهما يوجب الحجة، ويُتوصّل به إلى يقين العلم به، وليس مما يدرك علمه بفطرة العقل، فالصواب أن يقال فيه كما قال الله جل ثناؤه: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ﴾.

وأما قوله: ﴿وَهُمْ أَيْمَانُهمْ يَتُوبُونَ﴾، فإن أهل التأويل اختلفوا في الذي كان همّ بذلك، وما الشيء الذي كان هم به.

فقال بعضهم: هو رجل من المنافقين، وكان الذي همّ به، قتل ابن امرأته الذي سمع منه ما قال، وخشي أن يفشيه عليه.

وقال آخرون: كان الذي همّ، رجلاً من قريش، والذي همّ به، قتل رسول الله ﷺ.

وقال آخرون: الذي همّ، عبد الله بن أبي ابن سلول، وكان همّه الذي لم ينله، قوله: ﴿لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجَنَا الْأَعْرَابُ مِنْهَا الْأَذَلَّ﴾ [المنافقون: ٨]، من قول قتادة وقد ذكرناه.

وقوله: ﴿وَمَا نَقْمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾، ذكر لنا أن المنافق الذي ذكر الله عنه أنه قال كلمة الكفر، كان فقيراً فأغناه الله بأن قُتل له مولى، فأعطاه رسول الله ﷺ ديتة. فلما قال ما قال، قال الله تعالى: ﴿وَمَا نَقْمُوا﴾، يقول: ما أنكروا على رسول الله ﷺ شيئاً، ﴿إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾.

وقال الطبري رحمه الله:

وأما قوله: ﴿فَإِنْ يَتُوبُوا يَكْ خَيْرًا لَهُمْ﴾، يقول تعالى ذكره: فإن يتب هؤلاء القائلون كلمة الكفر من قيلهم الذي قالوه فرجعوا عنه، يك رجوعهم وتوبتهم من ذلك، خيراً لهم من النفاق، ﴿وَإِنْ يَتَوَلَّوْا﴾، يقول: وإن يدبروا عن التوبة، فيأتوها ويصرّوا على

كفرهم، ﴿يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾، يقول: يعذبهم عذابًا موجعًا في الدنيا، إما بالقتل، وإما بعاجل خزي لهم فيها، ويعذبهم في الآخرة بالنار.

وقوله: ﴿وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾، يقول: وما لهؤلاء المنافقين إن عذبهم الله عاجل الدنيا، ﴿مِنْ وَلِيٍّ﴾، يواليه على منعه من عقاب الله، ﴿وَلَا نَصِيرٍ﴾ ينصره من الله فينقذه من عقابه. وقد كانوا أهل عز ومنعة بعشائرتهم وقومهم، يمتنعون بهم ممن أرادهم بسوء، فأخبر جل ثناؤه أن الذين كانوا يمنعونهم ممن أرادهم بسوء من عشائرتهم وحلفائهم، لا يمنعونهم من الله ولا ينصرونهم منه، إن احتاجوا إلى نصرهم.

وقال القرطبي رحمه الله:

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ﴾ قال النقاش: تكذيبهم بما وعد الله من الفتح. وقيل: ﴿كَلِمَةَ الْكُفْرِ﴾ قول الجلاس: إن كان ما جاء به محمد حقًا لنحن أشر من الحمير. وقول عبد الله بن أبي: لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل. قال القشيري: كلمة الكفر سب النبي ﷺ والطعن في الإسلام. ﴿وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ﴾ أي بعد الحكم بإسلامهم. فدل هذا على أن المنافقين كفار، وفي قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا﴾ [المنافقون: ٣] دليل قاطع.

وأورد الحافظ ابن كثير رحمه الله ما أخرجه مسلم في صحيحه من حديث حذيفة ^(١) رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «فِي أَصْحَابِي اثْنَا عَشَرَ مُنَافِقًا فِيهِمْ ثَمَانِيَّةٌ لَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلْجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ ثَمَانِيَّةٌ مِنْهُمْ تَكْفِيكُهُمُ الدُّبَيْلَةُ وَأَرْبَعَةٌ» لَمْ أَحْفَظْ مَا قَالَ شُعْبَةُ فِيهِمْ ^(٢).

قلت: هذا، وقد أخرج البخاري في صحيحه ^(٣) من طريق زيد بن وهب قال: كُنَّا عِنْدَ حُذَيْفَةَ فَقَالَ: مَا بَقِيَ مِنْ أَصْحَابِ هَذِهِ الْآيَةِ إِلَّا ثَلَاثَةٌ، وَلَا مِنَ الْمُنَافِقِينَ إِلَّا أَرْبَعَةٌ

(١) مسلم (٢٧٧٩).

(٢) قائل ذلك الراوي عن شعبة، وهو أسود بن عامر.

(٣) البخاري (٤٦٥٨).

- فَقَالَ أَعْرَابِيٌّ: إِنَّكُمْ أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ ﷺ تُخْبِرُونَنَا فَلَا نَدْرِي، فَمَا بَالُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَبْقُرُونَ بَيُوتَنَا وَيَسْرِقُونَ أَعْلَاقَنَا؟ قَالَ: أُولَئِكَ الْفُسَّاقُ أَجَلٌ، لَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ إِلَّا أَرْبَعَةٌ، أَحَدُهُمْ شَيْخٌ كَبِيرٌ لَوْ شَرِبَ الْمَاءَ الْبَارِدَ لَمَا وَجَدَ بَرْدَهُ.

وقال ابن كثير رحمه الله:

وقوله: ﴿وَمَا نَقْمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ أي: وما للرسول عندهم ذنب إلا أن الله أغناهم ببركته ويمن سفارته، ولو تمت عليهم السعادة لهداهم الله لما جاء به، كما قال ﷺ للأَنْصَار: «ألم أجدكم ضللاً فهداكم الله بي؟ وكنتم متفرقين فآلفكم الله بي؟ وعالة فأغناكم الله بي؟» كلما قال شيئاً قالوا: الله ورسوله أَمَن. وهذه الصيغة تقال حيث لا ذنب كما قال تعالى: ﴿وَمَا نَقْمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ۝٨﴾ [البروج: ٨] وكما قال ﷺ: «ما ينقم ابن جميل إلا أن كان فقيراً فأغناه الله».

ثم دعاهم الله ع إلى التوبة فقال: ﴿فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ أي: وإن يستمروا على طريقهم ﴿يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا﴾ أي: بالقتل والهم والغم، ﴿وَالْآخِرَةِ﴾ أي: بالعذاب والنكال والهوان والصغار، ﴿وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ أي: وليس لهم أحد يسعدهم ولا ينجدهم، ولا يحصل لهم خيراً، ولا يدفع عنهم شراً.

وقال الشنقيطي رحمه الله:

قوله تعالى: ﴿وَمَا نَقْمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾. صرح في هذه الآية الكريمة: أن المنافقين ما وجدوا شيئاً ينقمونه أي يعيبونه وينتقدونه إلا أن الله تفضل عليهم فأغناهم بما فتح على نبيه ﷺ من الخير والبركة. والمعنى أنه لا يوجد شيء يحتمل أن يعاب أو ينقم بوجه من الوجوه، والآية كقوله: ﴿وَمَا نَقْمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ۝٨﴾ [البروج: ٨] وقوله: ﴿وَمَا نُنْقِمُ مِنْهَا إِلَّا أَنْتَ أَمْ نَأْتِيكِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا﴾ [الأعراف: ١٢٦]. وقوله: ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِينِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾ [الحج: ٤٠]. ونظير ذلك من كلام العرب: قول نابغة ذبيان:

د ٣٥٥ ب السَّهْلُ لِأَوَّلِ النَّزِيلِ د سُورَةُ النَّازِعَاتِ ب

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم بهن فلول من قراع الكتائب

وقول الآخر:

ما نقموا من أمة إلا أنهم يضربون إن غضبوا

وقول الآخر:

فما بك في من عيب فإني جبان الكلب مهزول الفصيل

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:

(﴿ وَمِنْهُمْ مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِذَا آتَيْنَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ ٧٥ فَلَمَّا آتَاهُم مِّنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿ ٧٦ ﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿ ٧٧ ﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿ ٧٨ ﴾ الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الْأَصْدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿ ٧٩ ﴾ اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿ ٨٠ ﴾ فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴿ ٨١ ﴾ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿ ٨٢ ﴾ فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِّنْهُمْ فَاسْتَعْدُّوكَ لِلخُرُوجِ فَقُلْ لَّنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنَ تُفَنِّلُونَا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ ﴿ ٨٣ ﴾ وَلَا تَصِلْ عَلَى أَحَدٍ مِّنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ ﴿ ٨٤ ﴾)

[التوبة: ٧٥-٨٤].

س: وضع معنى ما يلي:

﴿عَهْدَ اللَّهِ﴾ - ﴿ءَاتَيْنَا مِنْ فَضْلِهِ﴾ - ﴿وَتَوَلَّوْا﴾ - ﴿مُعْرِضُونَ﴾ - ﴿فَأَعَقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ -
﴿سِرَّهُمْ﴾ - ﴿وَنَجْوَاهُمْ﴾ - ﴿يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ﴾ - ﴿وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ﴾ -
﴿بِمَقْعَدِهِمْ﴾ - ﴿خَلَفَ رَسُولُ اللَّهِ﴾ - ﴿يَفْقَهُونَ﴾ - ﴿الْخُلَفَاءَ﴾ - ﴿وَلَا تَقُمْ عَلَى قَرْبَةٍ﴾ .

ج:

الكلمة	معناها
﴿عَهْدَ اللَّهِ﴾	أعطى عهدًا وميثاقًا
﴿ءَاتَيْنَا مِنْ فَضْلِهِ﴾	رزقنا الله ما لا
﴿وَتَوَلَّوْا﴾	انصرفوا ناقضين العهد
﴿مُعْرِضُونَ﴾	معرضون عن الوفاء وعن الدين
﴿فَأَعَقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ﴾	أسكن الله قلوبهم نفاقًا أورثهم البخل نفاقًا في قلوبهم
﴿سِرَّهُمْ﴾	ما أضمره في نفوسهم ولم يبيحوا به لأحد
﴿وَنَجْوَاهُمْ﴾	ما يتناجون به فيما بينهم
﴿عَلَّمَ الْغُيُوبِ﴾	يعلم كل غائبة في السماء والأرض، يعلم ما فات وما هو آت، وما كان وما سيكون، وما هو كائن.
﴿يَلْمِزُونَ﴾	يعيبون ويطعنون ويذمُّون
﴿الْمُطَّوِّعِينَ﴾	المتطوعين بالصدقات
﴿وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ﴾	الذين لا يجدون إلا القليل يتصدقون به لا يجدون إلا ما في وسعهم يتصدقون به
﴿بِمَقْعَدِهِمْ﴾	بمقامهم في المدينة وعدم سفرهم

الدَّيْلُ	الدَّيْلُ	٣٥٨	ب
التَّيْسِيلُ لِأَوَّلِ النَّزِيلِ	سُورَةُ النَّسَاءِ		
مخالفة لرسول الله وعناداً له، متخلفين عن مصاحبة رسول الله ﷺ	﴿خَالَفَ رَسُولَ اللَّهِ﴾		
يفهمون	﴿يَفْقَهُونَ﴾		
المتخلفين عن الغزو مع رسول الله من الرجال من أهل النفاق	﴿الْخَلَفِينَ﴾		
ولا تدعو له ولا تستغفر له عند القبر	﴿وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ﴾		

س: هل صح أن الآية الكريمة ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ عٰهَدَ ٱللَّهَ...﴾ نزلت في ثعلبة بن حاطب الأنصاري وأنه قال لرسول الله ﷺ: ادع الله أن يرزقني مالا! فقال رسول الله ﷺ: «ويحك يا ثعلبة، قليل تؤدِّي شكره، خير من كثير لا تطيقه!» قال: ثم قال مرة أخرى، فقال: «أما ترضى أن تكون مثل نبي الله، فوالذي نفسي بيده، لو شئت أن تسيرَ معي الجبال ذهبًا وفضة لسارت!» قال: والذي بعثك بالحق لئن دعوت الله فرزقني مالا لأعطينَ كلَّ ذي حق حقه! فقال رسول الله ﷺ: «اللهم ارزق ثعلبة مالا!» قال: فاتَّخذ غنمًا، فامت كما ينمو الدُّود، فضاقت عليه المدينة، فتنحَّى عنها، فنزل واديًا من أوديتها، حتى جعل يصلي الظهر والعصر في جماعة، ويترك ما سواهما. ثم نمت وكثرت، فتنحَّى حتى ترك الصلوات إلا الجمعة، وهي تنمو كما ينمو الدود، حتى ترك الجمعة. فطفق يتلقَّى الركبان يوم الجمعة، يسألهم عن الأخبار، فقال رسول الله ﷺ: «ما فعل ثعلبة؟» فقالوا: يا رسول الله، اتخذ غنمًا فضاقت عليه المدينة! فأخبروه بأمره، فقال: «يا ويح ثعلبة! يا ويح ثعلبة! يا ويح ثعلبة!» قال: وأنزل الله: ﴿حٰذِرْنَ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً﴾ [التوبة: ١٠٣] الآية، ونزلت عليه فرائض الصدقة، فبعث رسول الله ﷺ رجلين على الصدقة، رجلا من جهينة، ورجلا من سليم، وكتب لهما كيف يأخذان الصدقة من المسلمين، وقال لهما: «مرًّا بثعلبة، وبفلان»، رجل من بني سليم، «فخذوا صدقاتهما!» فخرجا حتى أتيا ثعلبة، فسألاه الصدقة، وأقرأه كتاب رسول الله ﷺ، فقال: ما هذه إلا جزية! ما هذه إلا أخت الجزية! ما أدري ما هذا!... الحديث إلى آخره^(١).

ج: هذا لم يصح، وقد أخرجه الطبري وغيره بسندٍ ضعيف جدًا، وقد تكلم عددٌ كبير جدًا في هذا الحديث وتضعيفه، وألفت رسائل وكتب في شأنه منها كتاب «ثعلبة ابن حاطب الصحابي المفترى عليه»، ومنها كتاب «الشهاب الثاقب في الذب عن الصحابي ثعلبة بن حاطب».

وغير ذلك من الكتب^(٢).

وقد ضعف القصة شيخنا الشيخ مقبل بن هادي رحمته وغيره من أهل العلم جم

(١) الطبري (١٧٠٠٢)، وفي سنده معان بن رفاعه، وهو ضعيف جدًا.

(٢) أما الأول فلمؤلفه عدا ب الحمش، والثاني (الشهاب الثاقب) لسليم الهلالي.

غفير.

وقال القرطبي رحمه الله:

وثعلبة بدري أنصاري وممن شهد الله له ورسوله بالإيمان ؛ حسب ما يأتي بيانه في أول الممتحنة فما روي عنه غير صحيح. قال أبو عمر: ولعل قول من قال في ثعلبة أنه مانع الزكاة الذي نزلت فيه الآية غير صحيح، والله أعلم. وقال الضحاك: إن الآية نزلت في رجال من المنافقين نبتل بن الحارث وجد بن قيس ومعتب بن قشير.

العهد هل يُعَدُّ يمينًا

س: هل العهد يُعَدُّ يمينًا تُكْفَرُ أم ماذا؟

ج: في هذه المسألة بعض الاختلاف بين أهل العلم، والظاهر والله تعالى أعلم أنها تُكْفَرُ إذا حنث فيها الشخص وكان منعقدًا لنية، والله تعالى أعلم.

أما عن الأدلة المستدل بها في هذا الصدد على كونها يمينًا فمنها ما يلي:

١- قوله تعالى: (وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا) [النحل: ٩١].

٢- قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ.. ﴾ الآية، وسبب نزولها ما أخرجه البخاري وغيره من حديث عبد الله بن مسعود (رضي الله عنه) ^(١) عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَنْ حَلَفَ عَلَى يَمِينٍ كَاذِبَةٍ لِيَقْتَطَعَ بِهَا مَالَ رَجُلٍ مُسْلِمٍ - أَوْ قَالَ: أَخِيهِ - لَقِيَ اللَّهَ وَهُوَ عَلَيْهِ غَضَبَانُ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَصْدِيقَهُ: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ ﴾ الآية، قَالَ سُلَيْمَانُ فِي حَدِيثِهِ: فَمَرَّ الْأَشْعَثُ بْنُ قَيْسٍ فَقَالَ: مَا يُحَدِّثُكُمْ عَبْدُ اللَّهِ؟ قَالُوا لَهُ، فَقَالَ الْأَشْعَثُ: نَزَلَتْ فِيَّ وَفِي صَاحِبٍ لِي فِي بَثْرٍ كَانَتْ بَيْنَنَا». وأدلة أخر على هذا المنوال.

وهذه بعض أقوال العلماء في ذلك:

قال سحنون في المدونة^(٢):

«قلت: رأيت قوله: «على عهد الله» أو «ميثاق الله» وقوله: «وميثاق الله وعهد الله» أ يكون هذا في الوجهين جميعًا في قول مالك أيما؟ قال: نعم...» اهـ.

قال الإمام الشافعي^(٣) رحمه الله:

« وإذا قال علي عهد الله وميثاقه وكفألتُهُ ثُمَّ حَنَثَ فَلَيْسَ بِيَمِينٍ إِلَّا أَنْ يَنْوِي بِهَا يَمِينًا وَكَذَلِكَ لَيْسَتْ بِيَمِينٍ لَوْ تَكَلَّمَ بِهَا لَا يَنْوِي يَمِينًا فَلَيْسَ بِيَمِينٍ فِي شَيْءٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ لِلَّهِ عَلَيْهِ عَهْدًا أَنْ يُوْدَى فَرَائِضُهُ... » اهـ.

(١) البخاري (٦٦٥٩).

(٢) المدونة (٣٠ / ٢).

(٣) الأم (٨٨ / ٧).

قال السرخسي في المبسوط^(١):

لو قال: عهد الله علي، فالعهد يمين، قال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ﴾^(٢) معناه: إذا حلفتُم بدليل قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْضُوا الْآيْمَنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾.

قال الخرقى المغنى مع الشرح^(٢):

مسألة. قال: (أو بالعهد). قال ابن قدامة:

«وجملته أنه إذا حلف بالعهد أو قال: وعهد الله وكفأته. فذلك يمين يجب تكفيرها إذا حنث فيها، وبهذا قال الحسن وطاوس والشعبي والحارث العكلي وقتادة والحكم والأوزاعي ومالك...». اهـ.

قال ابن قدامة في شرح الكلام المتقدم:

«...ولنا أن عهد الله يحتمل كلامه الذي أمرنا به ونهانا كقوله تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَبْنَىءَ آدَمَ﴾ وكلامه قديم صفة له ويحتمل أنه استحقاقه لما تعبدنا به وقد ثبت له عرف الاستعمال فيجب أن يكون يمينا بإطلاقه كما لو قال: وكلام الله إذا ثبت هذا فإنه إن قال: علي عهد الله وميثاقه لأفعلن أو قال: وعهد الله وميثاقه لأفعلن فهو يمين وإن قال: والعهد والميثاق لأفعلن ونوى عهد الله كان يمينا لأنه نوى الحلف بصفة من صفات الله تعالى وإن أطلق فقال القاضي: فيه روايتان إحداهما: يكون يمينا لأن لام التعريف إن كانت للعهد يجب أن تنصرف إلى عهد الله لأنه الذي عهدت اليمين به وإن كان للاستغراق دخل فيه ذلك والثانية: لا يكون يمينا لأنه يحتمل غير ما وجبت به الكفارة ولم يصرفه إلى ذلك فيه فلا تجب الكفارة والأصل عدم». اهـ.

وقال ابن حجر^(٣) رحمه الله (فتح الباري) معلقاً على الاستدلال بالآيتين اللتين قدمنا

ذكرهما:

وَيُسْتَفَادُ مِنَ الْآيَةِ أَنَّ الْعَهْدَ غَيْرُ الْيَمِينِ لِعَطْفِ الْيَمِينِ عَلَيْهِ، فَفِيهِ حُجَّةٌ عَلَى مَنْ احْتَجَّ بِهَا أَنَّ الْعَهْدَ يَمِينٌ. اهـ، وأما الآية الثانية وهو قوله: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا

(١) المبسوط (٢٣ / ٧).

(٢) الخرقى (المغنى مع الشرح الكبير) (١١ / ١٩٦).

(٣) الفتح (١١ / ٥٥٨).

عَاهَدْتُمْ... ﴿النحل: ٩١﴾ لَا يَلْزَمُ مِنْ عَطْفِ الْإِيمَانِ عَلَى الْعَهْدِ أَنْ يَكُونَ الْعَهْدُ يَمِينًا
بَلْ هُوَ كَأَلَايَةِ السَّابِقَةِ.

وفي مسائل أحمد لابن هانئ^(١):

سألت أبا عبد الله قلت: رجل عاهد الله ﷻ أن لا يأكل من قرابته شيئاً وهو يحتاج
إليهم. قال: أحب أن يتقرب بأكثر من كفارة يمين.

(١) ابن هانئ.

أهل النفاق ينقضون العهود مع الله

س: وضح المعنى الإجمالي لقوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِذَا آتَيْنَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (٧٥) ﴿فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ (٧٦) ﴿فَأَعَقَبَهُمُ النَّفَاقُ فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ (٧٧).

ج: المعنى إجمالاً، والله أعلم، ومن أهل النفاق فريق عاهد الله، أعطى ربّه عهداً ومواثيقاً أمام الخلق، قائلاً لئن آتاني الله من فضله من رزقه لئن رزقني الله أموالاً لأتصدقن منها ولأبذلن منها في طاعة الله ورسوله، ولأدخلن بذلك في عداد الصالحين المنفقين، فلما رزقهم الله ووسع عليهم وأعطاهم من المال ما أرادوا وفوق ما أرادوا بخلوا بالمال وأمسكوه ولم ينفقوا كما وعدوا، ولم يعطوا فقيراً ولا مسكيناً، وانصرفوا عن أوامر الله ورسوله وأعرضوا عن إيتاء الفقراء والمساكين أي تولوا عن الدين وهم لا يلتفتون إلى عهد ولا إلى ميثاق فهذا الصنيع الذي صنعوه من الإعراض ونقض الميثاق تسبب لهم في نفاق سكن قلوبهم لا يفارقهم هذا النفاق إلى يوم يلقون نفاقهم وجزاء نفاقهم يوم القيامة بسبب إخلاف الوعود ونقض المواثيق وبسبب كذبهم الذي كذبوا.

هذا، وقد قال بعض أهل العلم إن قوله تعالى: (فَأَعَقَبَهُمُ) أي: أعقبهم الله نفاقاً في قلوبهم إلى يوم يلقون ربهم ﴿يَوْمَ يَلْقَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ يوم القيامة. وهذا قول قوي أيضاً. وهذه بعض أقوال العلماء في عموم ما ذكر.

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره: ومن هؤلاء المنافقين الذين وصفت لك، يا محمد، صفتهم، ﴿مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ﴾، يقول: أعطى الله عهداً، ﴿لَئِذَا آتَيْنَا مِنْ فَضْلِهِ﴾، يقول: لئن أعطانا الله من فضله ورزقنا ما لا ووسع علينا من عنده، ﴿لَنَصَّدَّقَنَّ﴾، يقول: لنخرجن الصدقة من ذلك المال الذي رزقنا ربنا، ﴿وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾، يقول: ولنعملن فيها بعمل أهل الصلاح بأموالهم، من صلة الرحم به، وإنفاقه في سبيل الله. يقول الله ع: فرزقهم الله وآتاهم من فضله، ﴿فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ﴾، بفضل الله الذي آتاهم، فلم

يصدقوا منه، ولم يصلوا منه قرابةً، ولم ينفقوا منه في حق الله، ﴿وَتَوَلَّوْا﴾، يقول: وأدبروا عن عهدهم الذي عاهدوه الله، ﴿وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾، عنه، ﴿فَأَعْقَبَهُمْ﴾ الله، ﴿نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ﴾، ببخلهم بحق الله الذي فرضه عليهم فيما آتاهم من فضله، وإخلافهم الوعد الذي وعدوا الله، ونقضهم عهده في قلوبهم، ﴿إِلَى يَوْمٍ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ﴾، من الصدقة والنفقة في سبيله، ﴿وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾، في قيلهم، وحرّمهم التوبة منه، لأنه جل ثناؤه اشترط في نفاقهم أنه أعقبهموه إلى يوم يلقونه، وذلك يوم مماتهم وخروجهم من الدنيا.

ثم قال الطبري رحمه الله:

في هذه الآية، الإبانة من الله جل ثناؤه عن علامة أهل النفاق، أعني في قوله: ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمٍ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾. وأورد بسند صحيح عن عبد الله^(١): اعتبروا المنافق بثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا عاهد غدر، وأنزل الله تصديق ذلك في كتابه: ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَيْنَا مِنْ فَضْلِهِ﴾، إلى قوله: ﴿يَكْذِبُونَ﴾.

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله:

يقول تعالى: ومن المنافقين من أعطى الله عهده وميثاقه: لئن أغناه من فضله ليصدقن من ماله، وليكونن من الصالحين. فما وفي بما قال، ولا صدق فيما ادعى، فأعقبهم هذا الصنيع نفاقاً سكن في قلوبهم إلى يوم يلقون الله ﷻ، يوم القيامة، عياداً بالله من ذلك.

ثم قال:

وقوله تعالى: ﴿بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ أي: أعقبهم النفاق في قلوبهم بسبب إخلافهم الوعد وكذبهم، كما جاء في الصحيحين، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا أؤتمن خان»^(٢) وله شواهد كثيرة، والله أعلم.

(١) هو ابن عمرو.

(٢) البخاري (٣٣)، ومسلم (٥٩).

قال القرطبي رحمه الله:

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا آتَتْهُمْ مِّنْ فَضْلِهِ﴾ أي أعطاهم. ﴿يَخْلُؤْا بِهِ﴾ أي يعطاه الصدقة وبإنفاق المال في الخير، وبالوفاء بما ضمنوا والتزموا. ﴿وَتَوَلَّوْا﴾ أي عن طاعة الله. ﴿وَهُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ أي عن الإسلام، أي مظهرون للإعراض عنه. وقوله تعالى: ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا﴾ مفعولان أي أعقبهم الله تعالى نفاقا في قلوبهم. وقيل: أي أعقبهم البخل نفاقا؛ ولهذا قال: ﴿يَخْلُؤْا بِهِ﴾. ﴿إِلَى يَوْمٍ يَلْقَوْنَهُ﴾ في موضع خفض؛ أي يلقون بخلهم، أي جزاء بخلهم؛ كما يقال: أنت تلقي غدا عملك. وقيل: ﴿إِلَى يَوْمٍ يَلْقَوْنَهُ﴾ أي يلقون الله. وفي هذا دليل على أنه مات منافقا. وهو يبعد أن يكون المنزل فيه ثعلبة أو حاطب؛ لأن النبي ﷺ قال لعمر: «وما يدريك لعل الله اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم» وثعلبة وحاطب ممن حضر بدرا وشهدا ﴿بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ كذبهم نقضهم العهد وتركهم الوفاء بما التزموه من ذلك.

وقوله تعالى: ﴿نِفَاقًا﴾ النفاق إذا كان في القلب فهو الكفر. فأما إذا كان في الأعمال فهو معصية. قال النبي ﷺ: «أربع من كن فيه كان منافقا خالصا ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها. إذا أؤتمن خان وإذا حدث كذب وإذا عاهد غدر وإذا خاصم فجر» خرجه البخاري.

قال السعدي رحمه الله:

أي: ومن هؤلاء المنافقين من أعطى الله عهده وميثاقه ﴿نِفَاقًا﴾ من الدنيا فبسطها لنا ووسعها ﴿لَنَصَدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ فنصل الرحم، ونقري الضيف، ونعين على نوائب الحق، ونفعل الأفعال الحسنة الصالحة. ﴿فَلَمَّا آتَتْهُمْ مِّنْ فَضْلِهِ﴾ لم يفوا بما قالوا، بل ﴿يَخْلُؤْا بِهِ﴾ عن الطاعة والانقياد ﴿وَهُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ أي: غير ملتفتين إلى الخير. فلما لم يفوا بما عاهدوا الله عليه، عاقبهم ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ مستمرا ﴿إِلَى يَوْمٍ يَلْقَوْنَهُ﴾ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ. فليحذر المؤمن من هذا الوصف الشنيع، أن يعاهد ربه، إن حصل مقصوده

الفلاني ليفعلن كذا وكذا، ثم لا يفي بذلك، فإنه ربما عاقبه الله بالنفاق كما عاقب هؤلاء.

وقد قال النبي ﷺ في الحديث الثابت في الصحيحين: «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا وعد أخلف». ولهذا توعدهم من صدر منهم هذا الصنيع، بقوله: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّمُ الْغُيُوبِ﴾ (٧٨) وسيجازيهم على ما عملوا من الأعمال التي يعلمها الله تعالى.

|

س: نقض العهود والمواثيق بسبب قسوة في القلب ونفاقاً في القلب، وانصرافاً في القلب، وانصرافاً عن الحق، دلل على ذلك.

ج: من الأدلة على ذلك ما يلي:

قوله تعالى: (ثُمَّ أَنْصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهِ قُلُوبَهُمْ) .
وقوله تعالى: (فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ) .
وقوله تعالى: (فِيمَا نَقُضُهُمْ ثَمَغَهُمْ لَعْنَهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً) .
إلى غير ذلك من الآيات.

|

س: وضح معنى قوله تعالى: (أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّمُ الْغُيُوبِ) .

ج: هذا، والله تعالى أعلم توبيخ لأهل النفاق يقول تعالى لهؤلاء الذين أخلفوا العهود ونقضوا المواثيق وبعد أن أغناهم الله من فضله بخلوا به وتولوا وهم معرضون، يقول تعالى: ألم يعلم هؤلاء أن الله ﷻ يعلم ما يسرونه في أنفسهم، وما يتناجون به فيما بينهم، وألم يعلموا أن الله ﷻ يعلم كل غائبة في السموات والأرض، ويعلم ما كان وما سيكون وما هو كائن.

وينحو هذا قال أهل العلم.

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره: ألم يعلم هؤلاء المنافقون الذين يكفرون بالله ورسوله سرًّا، ويظهرون الإيمان بهما لأهل الإيمان بهما جهراً، ﴿أَنْتَ اللَّهُ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ﴾، الذي يسرُّونه في أنفسهم، من الكفر به ورسوله، ﴿وَنَجْوَاهُمْ﴾، يقول: ﴿وَنَجْوَاهُمْ﴾، إذا تناجوا بينهم بالطنن في الإسلام وأهله، وذكرهم بغير ما ينبغي أن يذكروا به، فيحذروا من الله عقوبته أن يحلَّها بهم، وسطوته أن يوقعها بهم، على كفرهم بالله ورسوله، وعيبتهم للإسلام وأهله، فينزِعوا عن ذلك ويتوبوا منه، ﴿وَأَنْتَ اللَّهُ عَلَّمُ الْغُيُوبِ﴾، يقول: ألم يعلموا أن الله علام ما غاب عن أسماع خلقه وأبصارهم وحواسهم، مما أكنَّته نفوسهم، فلم يظهر على جوارحهم الظاهرة، فيهاهم ذلك عن خداع أوليائه بالنفاق والكذب، ويزجرهم عن إضمار غير ما يبدونه، وإظهار خلاف ما يعتقدونه؟

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقوله: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنْتَ اللَّهُ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنْتَ اللَّهُ عَلَّمُ الْغُيُوبِ﴾ يخبرهم تعالى أنه يعلم السر وأخفى، وأنه أعلم بضمائرهم وإن أظهروا أنه إن حصل لهم أموال تصدقوا منها وشكروا عليها، فإنه أعلم بهم من أنفسهم؛ لأنه تعالى علام الغيوب، أي: يعلم كل غيب وشهادة، وكل سر ونجوى، ويعلم ما ظهر وما بطن.

اس: هل صح لهذه الآية الكريمة ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي

الْصَّدَقَاتِ...﴾ الآية سبب نزول؟

ج: نعم، قد صح لها سبب نزول، وهو ما أخرجه البخاري ومسلم^(١)، من حديث أَبِي مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ آيَةُ الصَّدَقَةِ كُنَّا نَحَامِلُ، فَجَاءَ رَجُلٌ فَتَصَدَّقَ بِشَيْءٍ كَثِيرٍ فَقَالُوا: مُرَائِي، وَجَاءَ رَجُلٌ فَتَصَدَّقَ بِصَاعٍ، فَقَالُوا: إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنْ صَاعٍ هَذَا، فَتَزَلَّتْ: ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ﴾ الآية.

اس: قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ﴾ معطوف على من؟

ج: معطوف على قوله تعالى: ﴿الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ﴾

(١) البخاري (١٤١٥)، ومسلم (١٠١٨).

والمعنى أن أهل النفاق يسخرون من الصنفين يسخرون من المتطوعين، ويسخرون من المتصدقين بالقليل الذي في وسعهم، وهم المعنيون بقوله: ﴿لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ﴾. والله أعلم.

اس: وضح معنى قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.



ج: هذا، والله تعالى أعلم، مزيدُ بيان لأحوال أهل النفاق وأوصافهم، قال تعالى: (الَّذِينَ يَلْمِزُونَ) أي: يطعنون ويعيبون في (الْمُطَّوِّعِينَ) المتطوعين بالصدقات من المؤمنين، أي أن من صفات أهل النفاق أنهم لا يسلم منهم ولا من ألسنتهم ولا من طعنهم أحدٌ من المسلمين فإذا تصدق مؤمن بمبلغ كبير قالوا: ما تصدق إلا مراعاةً وسمعة، وإذا كان أحد المؤمنين فقيراً، قالوا: إن الله غني عن صدقته.

فقوله: (وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ) أي ويطعنون في الذين لا يجدون إلا القليل فيتصدقوا به أي أن أهل النفاق يطعنون فيمن تصدَّق بالقليل، فيسخرون من المتصدقين بمالٍ قليل ويقولون: ليتَه ما تصدق، إن الله غني عن درهمه وديناره، ما يجدي الدرهم والدينار الذي تصدق به فيسخرون من المتصدق بالقليل لفقره، فكان جزاء لهم أن يسخر الله منهم كما سخروا من عباده، وأن يُعَذَّبَ لهم أليم العذاب يوم القيامة، وهو العذاب بالنار، ذلكم العذاب المؤلم الموجه والله أعلم.

وبنحو هذا قال العلماء.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: الذين يلمزون المطَّوعين في الصدقة على أهل المسكنة والحاجة، بما لم يوجبه الله عليهم في أموالهم، ويطعنون فيها عليهم بقولهم: «إنما تصدقوا به رياءً وسمعة، ولم يريدوا وجه الله»، ويلمزون الذين لا يجدون ما يتصدقون به إلا جهدهم، وذلك طاقتهم، فينتقصونهم ويقولون: «لقد كان الله عن

صدقة هؤلاء غنيًّا!« سخريةً منهم بهم، ﴿فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ﴾. ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، يقول: ولهم من عند الله يوم القيامة عذابٌ موجهٌ مؤلم. وذكر أن المعني بقوله: ﴿الْمُطَوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾، عبد الرحمن بن عوف، وعاصم بن عدي الأنصاري، وأن المعني بقوله: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ﴾، أبو عقيل الأراشي، أخو بني أنيف.

وقال رحمه الله:

وأما قوله: ﴿الْمُطَوِّعِينَ﴾، فإن معناه: المتطوعين، أدغمت التاء في الطاء، فصارت طاء مشددة، كما قيل: ﴿وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا﴾ [البقرة: ١٥٨]، يعني: يتطوع. وأما «الجهد»، فإن للعرب فيه لغتين. يقال: «أعطاني من جهده»، بضم الجيم، وذلك فيما ذكر، لغة أهل الحجاز، ومن «جهده» بفتح الجيم، وذلك لغة نجد. وعلى الضم قراءة الأمصار، وذلك هو الاختيار عندنا، لإجماع الحجة من القراءة عليه.

وقال الحافظ ابن كثير رحمه الله:

وهذه أيضا من صفات المنافقين: لا يسلم أحد من عيبتهم ولمزهم في جميع الأحوال، حتى ولا المتصدقون يسلمون منهم، إن جاء أحد منهم بمال جزيل قالوا: هذا مرأء، وإن جاء بشيء يسير قالوا: إن الله لغني عن صدقة هذا.

وأورد أثر ابن مسعود المتقدم في سبب النزول:

وكذا أورد من وجوه متعددة أن عبد الرحمن بن عوف أتى إلى رسول الله ﷺ بمبلغ كبير من ذهب إلى رسول الله ﷺ فلمزه أهل النفاق، وكأنها تثبت بمجموعها إلى عبد الرحمن بن عوف (أي أنه المتصدق بالكثير)

ثم قال ابن كثير رحمه الله:

وقوله: ﴿فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ﴾ هذا من باب المقابلة على سوء صنيعهم واستهزائهم بالمؤمنين؛ لأن الجزاء من جنس العمل، فعاملهم معاملة من سخر بهم، انتصارا للمؤمنين في الدنيا، وأعد للمنافقين في الآخرة عذابا أليما لأن الجزاء من جنس العمل.

وقال القرطبي رحمه الله:

والجهد: شيء قليل يعيش به المقل. والجهد والجهد بمعنى واحد. وقد تقدم. و﴿يَلْمِزُونَ﴾ يعيبون. وقد تقدم. و﴿الْمُطَّوِّعِينَ﴾ أصله المتطوعين أدغمت التاء في الطاء؛ وهم الذين يفعلون الشيء تبرعا من غير أن يجب عليهم. ﴿وَالَّذِينَ﴾ في موضع خفض عطف على ﴿الْمُؤْمِنِينَ﴾. ولا يجوز أن يكون عطفا على الاسم قبل تمامه. و﴿فَيَسْخَرُونَ﴾ عطف على ﴿يَلْمِزُونَ﴾. ﴿سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ﴾ خبر الابتداء، وهو دعاء عليهم.

قال السعدي رحمه الله:

وهذا أيضا من مخازي المنافقين، فكانوا -قبحهم الله- لا يدعون شيئا من أمور الإسلام والمسلمين يرون لهم مقالا إلا قالوا وطعنوا بغيا وعدوانا، فلما حث الله ورسوله على الصدقة، بادر المسلمون إلى ذلك، وبذلوا من أموالهم كل على حسب حاله، منهم الكثير، ومنهم المقل، فيلمزون المكثرون منهم، بأن قصده بنفقته الرياء والسمعة، وقالوا للمقل الفقير: إن الله غني عن صدقة هذا، فأنزل الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ﴾ أي: يعيبون ويطعنون ﴿الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ﴾ فيقولون: مراؤون، قصدهم الفخر والرياء. ﴿وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ﴾ فيخرجون ما استطاعوا ويقولون: الله غني عن صدقاتهم ﴿فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ﴾.

فقبلوا على صنيعهم بأن ﴿سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ فإنهم جمعوا في كلامهم هذا

بين عدة محاذير:

منها: تتبعهم لأحوال المؤمنين، وحرصهم على أن يجدوا مقالا يقولونه فيهم، والله يقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ١٩].

ومنها: طعنهم بالمؤمنين لأجل إيمانهم، كفر بالله تعالى وبغض للدين.

ومنها: أن اللمز محرم، بل هو من كبائر الذنوب في أمور الدنيا، وأما اللمز في أمر الطاعة، فأقبح وأقبح.

ومنها: أن من أطاع الله وتطوع بخصلة من خصال الخير، فإن الذي ينبغي هو

إعانتة، وتنشيطه على عمله، وهؤلاء قصدوا تشييطهم بما قالوا فيهم، وعابوهم عليه.
ومنها: أن حكمهم على من أنفق مالا كثيرا بأنه مرء، غلط فاحش، وحكم على الغيب، ورجم بالظن، وأي شر أكبر من هذا؟!!

ومنها: أن قولهم لصاحب الصدقة القليلة: «اللّه غني عن صدقة هذا» كلام مقصوده باطل، فإن الله غني عن صدقة المتصدق بالقليل والكثير، بل وغني عن أهل السماوات والأرض، ولكنه تعالى أمر العباد بما هم مفتقرون إليه، فالله - وإن كان غنيا عنهم - فهم فقراء إليه ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧] وفي هذا القول من التشييط عن الخير ما هو ظاهر بين، ولهذا كان جزاؤهم أن سخر الله منهم، ولهم عذاب أليم.

ا س: وضع المعنى الإجمالي لقوله تعالى: ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ (٨٠).

ج: هذا، والله تعالى أعلم، بيان لأمر من الأمور، وهو أن الاستغفار لأهل النفاق لن يجدي ولن ينفع بشيء ما داموا مصرين على نفاقهم وما دامت قلوبهم منعقدة على الكفر بالله ورسوله والسخرية من أولياء الله ومن المتصدقين المحسنين، فيقول تعالى ذكره لنبيه ﷺ: ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ أي فإن ذلك لن يجدي ولن ينفع، و﴿إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ للدلالة على أن المبالغة أيضا في الاستغفار لن تجدي ﴿ذَلِكَ﴾ أي عدم الغفران لهم ﴿بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ لأنهم جحدوا وحدانية الله ﷻ وكذبوا رسوله ولم يؤمنوا به، والله لا يوفق لطاعته ولا للإيمان به أهل الفسق أهل الخروج عن الطاعة والخروج عن الاستقامة والإيمان.

هذا، وقد ورد في هذا الصدد ما أخرجه البخاري ^(١) في صحيحه من حديث عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: لَمَّا مَاتَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي بَرْزَةَ سَلُولٌ، دُعِيَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِيُصَلِّيَ عَلَيْهِ، فَلَمَّا قَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَثَبْتُ إِلَيْهِ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَتُصَلِّيَ عَلَى ابْنِ

(١) البخاري (٤٦٧١).

أَبِي وَقَدْ قَالَ يَوْمَ كَذَا وَكَذَا، قَالَ: «أَعَدُّ عَلَيْهِ قَوْلَهُ». فَتَبَسَّمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَقَالَ: «أَخْرَعَنِي يَا عُمَرُ» فَلَمَّا أَكْثَرْتُ عَلَيْهِ، قَالَ: «إِنِّي خُيِّرْتُ فَاخْتَرْتُ لَوْ أَعْلَمُ أَنِّي إِنْ زِدْتُ عَلَى السَّبْعِينَ يُغْفَرُ لَهُ لَزِدْتُ عَلَيْهَا» قَالَ: فَصَلَّى عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، ثُمَّ انْصَرَفَ، فَلَمْ يَمْكُثْ إِلَّا يَسِيرًا، حَتَّى نَزَلَتْ الْآيَتَانِ مِنْ بَرَاءَةِ: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَهُمْ فَسِقُوتٌ﴾ قَالَ: فَعَجِبْتُ بَعْدَ مِنْ جُرْأَتِي عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَاللَّهِ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ.

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: ادع الله لهؤلاء المنافقين، الذين وصفت صفاتهم في هذه الآيات بالمغفرة، أو لا تدع لهم بها.

وهذا كلام خرج مخرج الأمر، وتأويله الخبر، ومعناه: إن استغفرت لهم، يا محمد، أو لم تستغفر لهم، فلن يغفر الله لهم.

وقوله: ﴿إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾، يقول: إن تسأل لهم أن تُسْتَرَّ عليهم ذنوبهم بالعفو منه لهم عنها، وترك فضيحتهم بها، فلن يستر الله عليهم، ولن يعفو لهم عنها، ولكنه يفضحهم بها على رؤوس الأشهاد يوم القيامة ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾، يقول جل ثناؤه: هذا الفعل من الله بهم، وهو ترك عفوهم لهم عن ذنوبهم، من أجل أنهم جحدوا توحيد الله ورسالة رسوله، ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾، يقول: والله لا يوفق للإيمان به وبرسوله، من أثر الكفر به والخروج عن طاعته، على الإيمان به وبرسوله.

ويروى عن رسول الله ﷺ أنه حين نزلت هذه الآية قال: «لأزيدن في الاستغفار لهم على سبعين مرة»، رجاءً منه أن يغفر الله لهم، فنزلت: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ [المنافقون: ٦].

وأورد رحمه الله عدداً من الأحاديث والآثار في هذا الصدد.

وقال ابن كثير رحمه الله:

يخبر تعالى نبيه ﷺ بأن هؤلاء المنافقين ليسوا أهلاً للاستغفار، وأنه لو استغفر لهم، ولو سبعين مرة فإن الله لا يغفر لهم.

وقد قيل: إن السبعين إنما ذكرت حسما لمادة الاستغفار لهم؛ لأن العرب في أساليب كلامها تذكر السبعين في مبالغة كلامها، ولا تريد التحديد بها، ولا أن يكون ما زاد عليها بخلافها.

قال ابن الجوزي (زاد المسير):

قوله تعالى: ﴿أَسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ سبب نزولها: أنه لما نزل وعيد اللامزين قالوا: يا رسول الله استغفر لنا، فنزلت هذه الآية فقال رسول الله ﷺ: «سوف أستغفر لهم أكثر من سبعين لعل الله يغفر لهم» فنزل قوله: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ [المنافقون: ٦] قاله أبو صالح عن ابن عباس وظاهر قوله: استغفر لهم الأمر وليس كذلك إنما المعنى إن استغفرت وإن لم تستغفر لا يغفر لهم فهو كقوله: ﴿أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ [التوبة: ٥٣] وقد سبق شرح هذا المعنى هناك هذا قول المحققين وذهب قوم إلى أن ظاهر اللفظ يعطي أنه إن زاد على السبعين رجي لهم الغفران ثم نسخت بقوله: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾.

فإن قيل: كيف جاز أن يستغفر لهم وقد أخبر بأنهم كفروا.

فالجواب: أنه إنما استغفر لقوم منهم على ظاهر إسلامهم من غير أن يتحقق خروجهم عن الإسلام ولا يجوز أن يقال علم كفرهم ثم استغفر.

فإن قيل: ما معنى حصر العدد بسبعين؟

فالجواب: أن العرب تستكثر في الأحاد من سبعة وفي العشرات من سبعين.

قال السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ:

﴿أَسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً﴾ على وجه المبالغة، وإلا فلا

مفهوم لها.

﴿فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ كما قال في الآية الأخرى: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ ثم ذكر السبب المانع لمغفرة الله لهم فقال: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ والكافر لا ينفعه الاستغفار ولا العمل ما دام كافرا.

﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ أي: الذين صار الفسق لهم وصفا، بحيث لا يختارون عليه سواه ولا يبغون به بدلا يأتيهم الحق الواضح فيردونه، فيعاقبهم الله

تعالى بأن لا يوفقهم له بعد ذلك.

أ س: ما المراد بقوله تعالى: ﴿خَلَفَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ﴾؟

ج: لأهل العلم في ذلك قولان:

أحدهما: أن المراد مخالفة لأمر رسول الله ﷺ وهذا رأي كثيرين في هذا المقام.

الثاني: خلف رسول الله أي بعد خروج رسول الله ﷺ.

قال ابن الجوزي في (زاد المسير):

وفي قوله: ﴿خَلَفَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ﴾ قولان:

أحدهما: أن معناه بعد رسول الله ﷺ قاله أبو عبيدة.

والثاني: أن معناه مخالفة رسول الله ﷺ وهو منصوب لأنه مفعول له فالمعنى بأن قعدوا لمخالفة رسول الله ﷺ قاله الزجاج وقرأ ابن مسعود وابن يعمر والأعمش وابن أبي عتبة (خَلَفَ رسول الله) ومعناها أنهم تأخروا عن الجهاد.

وقال الطبري رحمه الله:

وقوله: ﴿خَلَفَ﴾، مصدر من قول القائل: «خالف فلان فلاناً فهو يخالفه خلافاً»، فلذلك جاء مصدره على تقدير «فعال»، كما يقال: «قاتله فهو يقاتله قتالاً»، ولو كان مصدرًا من «خلفه» لكانت القراءة: «بمقعدهم خَلَفَ رسول الله»، لأن مصدر: «خلفه»، «خلف» لا «خلاف»، ولكنه على ما بينت من أنه مصدر: «خالف»، فقرأ: ﴿خَلَفَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ﴾، وهي القراءة التي عليها قراءة الأمصار، وهي الصواب عندنا.

وقد تأول بعضهم ذلك بمعنى: «بعد رسول الله ﷺ»، واستشهد على ذلك بقول

الشاعر:

عَقَبَ الرَّيْبُ خِلَافَهُمْ فَكَانَ مَا بَسَطَ الشَّوَاطِبُ بَيْنَهُنَّ حَصِيرًا

وذلك قريب لمعنى ما قلنا؛ لأنهم قعدوا بعده على الخلاف له.

قلت (مصطفى): وانظر كلام الطبري الآتي في تفسير الآية إجمالاً إن شاء الله.

ا س: وضح المعنى الإجمالي لقوله تعالى: (فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خَلْفَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾).

ج: المعنى، والله تعالى أعلم، فرح المتخلفون عن الغزو مع رسول الله ﷺ وجلوسهم في المدينة بعد سفر رسول الله ﷺ، وفرحوا بمخالفتهم أمر رسول الله ﷺ وتخلفهم عنه، وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم فينفقونها لنصرة دين الله، وكذا كرهوا أن يجاهدوا بأنفسهم لنصرة دين الله ولإعلاء كلمته، بل وسعوا في صد الناس عن الخير وعن الجهاد والخروج مع رسول الله ﷺ بقولهم: ﴿لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ﴾ أي لا تخرجوا مع رسول الله ﷺ فالجو حار، والحرارة شديدة فقل لهؤلاء يا رسول الله وأبلغهم أن نار جهنم أشدُّ حرًّا مما يذكرونه من حر الدنيا.

قل لهم: إن نار جهنم التي ستدخلونها بخلافكم أمر رسول الله ﷺ أشدُّ حرًّا من نار الدنيا لو كنتم تفقهون وتعقلون.

ثم توبيخ لهم وتهديد بعد التوبيخ فليضحكوا مستهزئين كما هو شأنهم، فليضحكوا في الدنيا ساخرين مستهزئين فسيكون بكاء لا ينقطع في النار، والعياذ بالله، وذلك جزاء صنيعهم السيئ الذي صنعوه في الحياة الدنيا من الكفر والإجرام والسخرية والاستهزاء والصد عن سبيل الله.

وهذه أقوال بعض العلماء في ذلك.

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره: فرح الذين خلفهم الله عن الغزو مع رسوله والمؤمنين به وجهاد أعدائه، ﴿بِمَقْعَدِهِمْ خَلْفَ رَسُولِ اللَّهِ﴾، يقول: بجلوسهم في منازلهم ﴿خَلْفَ رَسُولِ اللَّهِ﴾، يقول: على الخلاف لرسول الله في جلوسه ومقعده. وذلك أن رسول الله ﷺ أمرهم بالنفر إلى جهاد أعداء الله، فخالفوا أمره وجلسوا في منازلهم.

وقوله: ﴿وَكُرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾، يقول تعالى ذكره: وكره هؤلاء المخلفون أن يغزوا الكفار بأموالهم وأنفسهم، ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾، يعني: في دين الله الذي شرعه لعباده لينصروه، ميلا إلى الدعة والخفض، وإيثارا للراحة على التعب

والمشقة، وشحاً بالمال أن ينفقوه في طاعة الله.

﴿وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ﴾، وذلك أن النبي ﷺ استنفرهم إلى هذه الغزوة، وهي غزوة تبوك، في حرٍّ شديد، فقال المنافقون بعضهم لبعض: ﴿لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ﴾، فقال الله لنبيه محمد ﷺ: ﴿قُلْ﴾ لهم، يا محمد، ﴿نَارُ جَهَنَّمَ﴾، التي أعدها الله لمن خالف أمره وعصى رسوله، ﴿أَشَدُّ حَرًّا﴾، من هذا الحر الذي تتواصلون بينكم أن لا تنفروا فيه. يقول: الذي هو أشد حرًّا، أخرى أن يحذر ويتقى من الذي هو أقلهما أذى، ﴿لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾، يقول: لو كان هؤلاء المنافقون يفقهون عن الله وعظه، ويتدبرون آي كتابه، ولكنهم لا يفقهون عن الله، فهم يحذرون من الحر أقله مكروهاً وأخفّه أذى، ويواقعون أشدّه مكروهاً وأعظمه على من يصلاه بلاءً.

وقال الطبري:

يقول تعالى ذكره: فرح هؤلاء المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله، فليضحكوا فرحين قليلاً في هذه الدنيا الفانية بمقعدهم خلاف رسول الله ولهوهم عن طاعة ربهم، فإنهم سيكون طويلاً في جهنم مكان ضحكهم القليل في الدنيا، ﴿جَزَاءً﴾، يقول: ثواباً منا لهم على معصيتهم، بتركهم النفر إذ استنفروا إلى عدوّهم، وقعودهم في منازلهم خلاف رسول الله، ﴿بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾، يقول: بما كانوا يجترحون من الذنوب.

وأورد بإسناد صحيح عن أبي رزين: ﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا﴾، قال: يقول الله ع: الدنيا قليل، فليضحكوا فيها ما شاءوا، فإذا صاروا إلى الآخرة بكوا بكاءً لا ينقطع. فذلك الكثير.

وبإسناد صحيح عن الربيع بن خثيم: ﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا﴾، قال: في الدنيا، ﴿وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا﴾، قال: في الآخرة.

قال ابن كثير رحمه الله:

يقول تعالى ذاماً للمنافقين المتخلفين عن صحابة رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، وفرحوا بمقعدهم بعد خروجه، ﴿وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا﴾ معه ﴿بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وقالوا ﴿أَي: بعضهم لبعض: ﴿لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ﴾؛ وذلك أن الخروج في غزوة تبوك كان في شدة الحر، عند طيب الظلال والثمار، فلهذا قالوا: ﴿لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ﴾ قال الله تعالى

لرسوله: ﴿قُلْ﴾ لهم: ﴿نَارُ جَهَنَّمَ﴾ التي تصيرون إليها بسبب مخالفتكم ﴿أَشَدُّ حَرًّا﴾ مما فررتم منه من الحر، بل أشد حراً من النار، كما قال الإمام مالك، عن أبي الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: «نار بني آدم التي يوقدون بها جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم» فقالوا: يا رسول الله، إن كانت لكافية. قال: «إنها فضلت عليها بتسعة وستين جزءاً» أخرجاه في الصحيحين من حديث مالك، به (١).

وقال الإمام أحمد (٢): حدثنا سفيان، عن أبي الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «إن ناركم هذه جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم، وضربت بالبحر مرتين، ولولا ذلك ما جعل الله فيها منفعة لأحد» وهذا أيضاً إسناداه صحيح. وأورد بعض الأحاديث والآثار في هذا الصدد ومنها حديث أبي سعيد الخدري، أن رسول الله ﷺ قال: «إن أدنى أهل النار عذاباً يوم القيامة يتعل بنعلين من نار، يغلي دماغه من حرارة نعليه» (٣).

ثم قال ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ:

وقال الله تعالى في كتابه العزيز: ﴿كَلَّا إِنَّهَا لَأَطْفَىٰ ۖ نَزَاعَةٌ لِّلشَّوَىٰ ۖ﴾ [المعارج: ١٥]، وقال تعالى: ﴿يُصَبِّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ ۖ يُصْهِرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ ۖ وَلَهُمْ مَقْنِعٌ مِنْ حَدِيدٍ ۖ﴾ [الحج: ١٩-٢٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كَمَا نَصَبَتْ جُلُودُهُمْ بَدَلَتْهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ ۗ﴾ [النساء: ٥٦].

وقال تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ۗ﴾ [٨١] أي: لو أنهم يفقهون ويفهمون لنفروا مع الرسول في سبيل الله في الحر، ليتقوا به حر جهنم، الذي هو أضعاف أضعاف هذا.

وقال القرطبي رَحِمَهُ اللهُ:

قوله تعالى: ﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ﴾ أي بقعودهم. قعد قعوداً ومقعداً؛ أي

(١) البخاري (٣٢٦٥)، ومسلم (٢٨٤٣)، ومالك (٩٩٤/٢) الموطأ.

(٢) أحمد (٢٤٤/٢).

(٣) مسلم (٢١٣).

جلس. وأقعده غيره ؛ عن الجوهري. والمخلف المتروك ؛ أي خلفهم الله وثبطهم، أو خلفهم رسول الله والمؤمنون لما علموا ثقلهم عن الجهاد ؛ قولان، وكان هذا في غزوة تبوك. ﴿خَلَفَ رَسُولُ اللَّهِ﴾ مفعول من أجله، وإن شئت كان مصدرا. والخلاف المخالفة. ومن قرأ ﴿خَلَفَ رَسُولُ اللَّهِ﴾ أراد التأخر عن الجهاد. ﴿وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ﴾ أي قال بعضهم لبعض ذلك. ﴿قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ﴾ أي: قل لهم يا محمد نار جهنم. ﴿أَشَدُّ حَرًّا لَّوْكَانُوا يَفْقَهُونَ﴾ ابتداء وخبر. ﴿حَرًّا﴾ نصب على البيان ؛ أي من ترك أمر الله تعرض لتلك النار.

وقوله تعالى: ﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا﴾ أمر، معناه معنى التهديد وليس أمرا بالضحك والأصل أن تكون اللام مكسورة فحذفت الكسرة لثقلها. قال الحسن: ﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا﴾ في الدنيا ﴿وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا﴾ في جهنم. وقيل: هو أمر بمعنى الخبر. أي إنهم سيضحكون قليلا ويبكون كثيرا. ﴿جَزَاءً﴾ مفعول من أجله ؛ أي للجزاء.

وقال ابن الجوزي (زاد المسير):

وفي قوله: ﴿لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ﴾ قولان:

أحدهما: أنه قول بعضهم لبعض قاله ابن اسحاق ومقاتل.

والثاني: أنهم قالوه للمؤمنين ذكره الماوردي وإنما قالوا هذا لأن الزمان كان حينئذ شديد الحر ﴿قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا﴾ لمن خالف أمر الله.

وقوله: ﴿يَفْقَهُونَ﴾ معناه يعلمون. قال ابن فارس: الفقه العلم بالشيء. تقول فقهت الحديث أفقهه؛ وكل علم بشيء: فقه. ثم اختص به علم الشريعة، ف قيل لكل عالم بها: فقيه. قال المصنف: وقال شيخنا علي بن عبيد الله: الفقه في إطلاق اللغة: الفهم، وفي عرف الشريعة: عبارة عن معرفة الأحكام الشرعية المتعلقة بأفعال المكلفين، بنحو التحليل، والتحريم، والإيجاب، والإجزاء، والصحة، والفساد، والغرم، والضمان، وغير ذلك. وبعضهم يختار أن يقال: الفقه: فهم الشيء. وبعضهم يختار أن يقال علم الشيء.

﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (٨٢)

قوله تعالى: ﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا﴾ لفظه لفظ الأمر ومعناه: التهديد.

وفي قلة ضحكهم وجهان:

أحدهما: أن الضحك في الدنيا لكثرة حزنها وهمومها قليل وضحكهم فيها أقل لما يتوجه إليهم من الوعيد.

والثاني: أنهم إنما يضحكون في الدنيا وبقاؤها قليل ﴿وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا﴾ في الآخرة.

قال السعدي في تفسيره:

يقول تعالى مبينا تبجح المنافقين بتخلفهم وعدم مبالاتهم بذلك، الدال على عدم الإيمان، واختيار الكفر على الإيمان.

﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خَلْفَ رَسُولِ اللَّهِ﴾ وهذا قدر زائد على مجرد التخلف، فإن هذا تخلف محرم، وزيادة رضا بفعل المعصية، وتبجح به.

﴿وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وهذا بخلاف المؤمنين الذين إذا تخلفوا -ولو لعذر- حزنوا على تخلفهم وتأسفوا غاية الأسف، ويحبون أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله، لما في قلوبهم من الإيمان، ولما يرجون من فضل الله وإحسانه وبره وامتنانه.

﴿وَقَالُوا﴾ أي: المنافقون ﴿لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ﴾ أي: قالوا إن النفير مشقة علينا بسبب الحر، فقدموا راحة قصيرة منقضية على الراحة الأبدية النامة.

وحذروا من الحر الذي بقي منه الظلال، وتذهب به البكور والآصال، على الحر الشديد الذي لا يقادر قدره، وهو النار الحامية.

ولهذا قال: ﴿قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾ لما آثروا ما يفنى على ما يبقى، ولما فروا من المشقة الخفيفة المنقضية، إلى المشقة الشديدة الدائمة.

قال الله تعالى: ﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا﴾ أي: فليتمتعوا في هذه الدار المنقضية، ويفرحوا بلذاتها، ويلهوا بلعبها، فسيكون كثيرا في عذاب أليم ﴿جَزَاءُ يَمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ من الكفر والنفاق، وعدم الانقياد لأوامر ربهم.

| س: ما مدى صحة هذا الحديث «لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم

كثيرا»؟

ج: هذا الحديث ثابت صحيح أخرجه البخاري ومسلم^(١) في صحيحيهما من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

ا س: وضح معنى قوله تعالى: (فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَعَذُّوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ)
 ﴿٨٣﴾

ج: المعنى، والله تعالى أعلم، فإن ردَّك الله سالماً يا رسول الله من غزوتك هذه، ومن سفرك هذا فاستذنوك للجهاد معك حيث يغمون غنيمة سهلةً قريبةً، فقل لهؤلاء الذين تخلفوا عنك في المدينة وتركوا الخروج معك في الغزوة البعيدة وأرادوا الخروج للغنائم القريبة وليس لوجه الله، فقل لهم: لن تخرجوا معي أبداً في أي غزوة من الغزوات، ولن تقاتلوا معي عدواً إنكم رضيتم بالقعود والتخلف عني أول مرة حينما دعوتكم للخروج معي إلى تبوك فقلتم: إن الجو حار شديد الحرارة، فالآن اقعدوا مع الخالفين من أهل النفاق.

وينحو هذا قال العلماء.

قال الطبري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

يقول جل ثناؤه لنبيه محمد ﷺ: فَإِنْ رَدَّكَ اللَّهُ، يا محمد، إلى طائفة من هؤلاء المنافقين من غزوتك هذه، ﴿فَاسْتَعَذُّوكَ لِلْخُرُوجِ﴾، معك في أخرى غيرها، ﴿فَقُلْ﴾ لهم، ﴿لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾، وذلك عند خروج النبي ﷺ إلى تبوك، ﴿فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ﴾، يقول: فاقعدوا مع الذين قعدوا من المنافقين خلاف رسول الله ﷺ، لأنكم منهم، فاقعدوا بهديهم، واعملوا مثل الذي عملوا من معصية الله، فإن الله قد سخط عليكم.

قال ابن كثير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

يقول تعالى أمرا لرسوله عليه الصلاة والسلام: ﴿فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ﴾ أي: ردك الله من

(١) البخاري (٦٦٣١)، ومسلم (٩٠١).

غَزَوْتُكَ هَذِهِ ﴿إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ﴾ قَالَ قَتَادَةُ: ذَكَرَ لَنَا أَنَّهُمْ كَانُوا اثْنِي عَشَرَ رَجُلًا ﴿فَاسْتَدْنُوكَ لِلْخُرُوجِ﴾ أَي: مَعَكَ إِلَى غَزْوَةِ أُخْرَى، ﴿فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا﴾ أَي: تَعْزِيرًا لَهُمْ وَعِقُوبَةً. ثُمَّ عَلَّلَ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَنَقَلِبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ **[الأنعام: ١١٠]** فَإِنَّ مِنْ جِزَاءِ السَّيِّئَةِ السَّيِّئَةَ بَعْدَهَا كَمَا أَنَّ مِنْ ثَوَابِ الْحَسَنَةِ الْحَسَنَةَ بَعْدَهَا، كَمَا قَالَ فِي عُمَرَةَ الْحَدِيثِيَّةِ: ﴿سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلِمَ اللَّهِ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَكُمُ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ﴾ **[الفتح: ١٥]**.

وقوله تعالى: ﴿فَأَقْعُدُوا مَعَ الْخَلِيفِينَ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: أَيِ الرِّجَالِ الَّذِينَ تَخْلَفُوا عَنْ الْغَزَاةِ. وَقَالَ قَتَادَةُ: ﴿فَأَقْعُدُوا مَعَ الْخَلِيفِينَ﴾ أَي: مَعَ النِّسَاءِ.

وقال ابن الجوزي (زاد المسير):

قوله تعالى: ﴿فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ﴾ أَيِ رَدُّكَ مِنْ غَزْوَةِ تَبُوكَ إِلَى الْمَدِينَةِ ﴿إِلَى طَائِفَةٍ﴾ مِنَ الْمُنَافِقِينَ الَّذِينَ تَخْلَفُوا بِغَيْرِ عَذْرِ وَإِنَّمَا قَالَ: ﴿إِلَى طَائِفَةٍ﴾ لِأَنَّهُ لَيْسَ كُلُّ مَنْ تَخْلَفُ عَنْ تَبُوكَ كَانَ مُنَافِقًا ﴿فَاسْتَدْنُوكَ لِلْخُرُوجِ﴾ مَعَكَ إِلَى الْغَزَاةِ ﴿فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا﴾ إِلَى غَزَاةِ ﴿إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ﴾ عَنِّي ﴿أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ حِينَ لَمْ تَخْرُجُوا إِلَى تَبُوكَ وَذَكَرَ الْمَآوِرِدِي فِي قَوْلِهِ ﴿أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ قَوْلَيْنِ:

أحدهما: أَوَّلَ مَرَّةٍ دَعَيْتُمْ. **والثاني:** قَبْلَ اسْتِئْذَانِكُمْ.

فَأَمَّا الْخَالِفُونَ فَقَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ: الْخَالِفُ الَّذِي خَلَفَ بَعْدَ شَاخِصٍ فَقَعَدَ فِي رَحْلِهِ وَهُوَ الَّذِي يَتَخَلَّفُ عَنِ الْقَوْمِ.

وفي المراد بالخالفين قولان:

أحدهما: أَنَّهُمُ الرِّجَالُ الَّذِينَ تَخْلَفُوا لِأَعْذَارٍ قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ.

والثاني: أَنَّهُمُ النِّسَاءُ وَالصِّبْيَانِ قَالَهُ الْحَسَنُ وَقَتَادَةُ.

قال الشنقيطي رَحِمَهُ اللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَدْنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿الْخَلِيفِينَ﴾.

عاقب الله في هذه الآية الكريمة المتخلفين عن غزوة تبوك بأنهم لا يؤذن لهم في الخروج مع نبيه، ولا القتال معه ﷺ لأن شؤم المخالفة يؤدي إلى فوات الخير الكثير. وقد جاء مثل هذا في آيات أخر كقوله: ﴿سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ﴾ [الفتح: ١٥] إلى قوله: ﴿كَذَلِكَ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ﴾ [الفتح: ١٥].

وقوله: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْعَادَهُمْ وَأَبْصَرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ١١٠] الآية إلى غير ذلك من الآيات. والخالف هو الذي يتخلف عن الرجال في الغزو فيبقى مع النساء والصبيان

وقال السعدي في تفسيره:

﴿فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ﴾ وهم الذين تخلفوا من غير عذر، ولم يحزنوا على تخلفهم ﴿فَاسْتَعِذُّوكَ لِلْخُرُوجِ﴾ لغير هذه الغزوة، إذا رأوا السهولة. ﴿فَقُلْ﴾ لهم عقوبة ﴿لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا﴾ فسيغني الله عنكم. ﴿إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَأَقْعُدُوا مَعَ الْخُلَفَاءِ﴾ وهذا كما قال تعالى ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْعَادَهُمْ وَأَبْصَرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ١١٠] فإن المتناقل المتخلف عن المأمور به عند انتهاز الفرصة، لا يوفق له بعد ذلك، ويحال بينه وبينه. وفيه أيضا تعزير لهم، فإنه إذا تقرر عند المسلمين أن هؤلاء من الممنوعين من الخروج إلى الجهاد لمعصيتهم، كان ذلك توبيخا لهم، وعارا عليهم ونكالا أن يفعل أحد كفعالهم.

س: وضع سبب نزول قوله تعالى: (وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَسِقُونَ ﴿٨٤﴾).

ج: أما سبب نزولها فهو ما أخرجه البخاري ومسلم من حديث ^(١) ابن عمر رضي الله عنهما قال: لما توفي عبد الله بن أبي جَاءَ ابْنُهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَسَأَلَهُ أَنْ يُعْطِيَهُ قَمِيصَهُ يُكْفَنُ فِيهِ أَبَاهُ فَأَعْطَاهُ، ثُمَّ سَأَلَهُ أَنْ يُصَلِّيَ عَلَيْهِ، فَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ

(١) البخاري (٤٦٧٠)، ومسلم (٢٧٧٤).

لِيُصَلِّيَ عَلَيْهِ، فَقَامَ عُمَرُ فَأَخَذَ بِثَوْبِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ تُصَلِّيَ عَلَيْهِ، وَقَدْ نَهَاكَ رَبُّكَ أَنْ تُصَلِّيَ عَلَيْهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّمَا خَيْرَنِي اللَّهُ فَقَالَ: ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ وَسَأَزِيدُهُ عَلَى السَّبْعِينَ» قَالَ: إِنَّهُ مُنَافِقٌ. قَالَ: فَصَلَّى عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﷻ آيَةً: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِّنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ﴾.

وأخرج البخاري من حديث ابنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّهُ قَالَ: لَمَّا تُوفِّيَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي، جَاءَ ابْنُهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَأَعْطَاهُ قَمِيصَهُ، وَأَمَرَهُ أَنْ يَكْفِنَهُ فِيهِ، ثُمَّ قَامَ يُصَلِّيَ عَلَيْهِ، فَأَخَذَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ بِثَوْبِهِ فَقَالَ: تُصَلِّيَ عَلَيْهِ وَهُوَ مُنَافِقٌ، وَقَدْ نَهَاكَ اللَّهُ أَنْ تَسْتَغْفِرَ لَهُمْ، قَالَ: «إِنَّمَا خَيْرَنِي اللَّهُ أَوْ أَخْبَرَنِي اللَّهُ فَقَالَ: ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ سَأَزِيدُهُ عَلَى سَبْعِينَ. قَالَ: فَصَلَّى عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَصَلَّيْنَا مَعَهُ، ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْهِ: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِّنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ﴾ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٨٤﴾» (١).

ا س: وضح معنى قوله تعالى: (وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِّنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا

بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٨٤﴾).

ج: هذا نهي من الله ﷻ لرسوله ﷺ والمؤمنون لرسولهم تبع، نهى ألا يصلي على أحد من أهل النفاق ولا يقيم على قبره داعياً له مستغفراً له، فلا استغفار ولا دعاء لهؤلاء المنافقين، ذلك لأنهم كفروا بالله، جحدوا وحادانية الله، وكذبوا رسول الله ﷺ وأنكروا أن يكون رسولاً من عند الله واستمر بهم هذا الحال حتى ماتوا على كفرهم وضلالهم وفسقهم.

وبنحو هذا قال العلماء.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول جل ثناؤه لنبيه محمد ﷺ: ولا تصل، يا محمد، على أحد مات من هؤلاء المنافقين الذين تخلفوا عن الخروج معك أبداً، ﴿وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ﴾، يقول: ولا تتولَّ

(١) البخاري (٤٦٧٢)، ومسلم (٢٤٠٠).

دفنه وتقديره.

من قول القائل: «قام فلان بأمر فلان»، إذا كفاه أمره.
﴿إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ﴾، يقول: إنهم جحدوا توحيد الله ورسالة رسوله، وماتوا وهم خارجون من الإسلام، مفارقون أمر الله ونهيه.

وقال السعدي رحمه الله:

يقول تعالى: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِّنْهُمْ مَّتَّ أَبَدًا﴾ من المنافقين ﴿وَلَا تُقُمْ عَلَى قَبْرِهِ﴾ بعد الدفن لتدعوه له، فإن صلاته ووقوفه على قبورهم شفاعته منه لهم، وهم لا تنفع فيهم الشفاعته.

﴿إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَسِقُوتٌ﴾ ومن كان كافرا ومات على ذلك، فما تنفعه شفاعته الشافعين، وفي ذلك عبرة لغيرهم، وزجر ونكال لهم، وهكذا كل من علم منه الكفر والنفاق، فإنه لا يصلّي عليه.

اس: هل يجوز للمسلم أن يشيع جنازة مشرك؟

ج: لا أعلم مانعا من ذلك، لكن لا يصلّي عليه، وقد تقدم الكلام على ذلك عند قوله تعالى: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِّنْهُمْ مَّتَّ أَبَدًا وَلَا تُقُمْ عَلَى قَبْرِهِ﴾ أما تشييع جنازته فلا مانع منه، وقد ذهب إلى جواز ذلك كثير من أهل العلم، فقد ورد من طرق عن عليّ رضي الله عنه (تحسن بمجموعها) أنه قال لما مات أبو طالب أتيت النبي صلى الله عليه وسلم فقلت: يا رسول الله إن عمك الضال قد مات فقال لي: «أذهب فواره»^(١).

وله شاهد آخر من طريق الأجلح عن الشعبي بنحوه.

وأخرج ابن أبي شيبة أيضًا بسند صحيح إلى ضرار بن مرة عن سعيد بن جبير قال: مات رجل نصراني وله ابن مسلم فلم يتبعه، فقال ابن عباس: كان ينبغي له أن يتبعه ويدفنه ويستغفر له في حياته^(٢).

وأخرج ابن أبي شيبة أيضًا من وجهين عن الشعبي فيهما مقال، لكن يُحسنان بالمجموع قال: ماتت أم الحارث بن أبي ربيعة وهي نصرانية فشهداها أصحاب

(١) ابن أبي شيبة في المصنف (١١٩٦٢).

(٢) المصنف (١١٩٦٩).

محمد ﷺ^(١).

وأخرج ابن أبي شيبة بسندٍ فيه مقال يسير عن ابن عمر، وقد سئل عن الرجل المسلم يتبع أمه النصرانية تموت، قال: يتبعها ويمشي أمامها^(٢).

وقال ابن المنذر في الأوسط^(٣): واختلفوا في غسل الكافر ودفنه فكان مالك يقول: لا يغسل المسلم والده إذا مات كافرًا، ولا يتبعه ولا يدخل في قبره إلا أن يخشى أن يضيع فيواريه، وكان الشافعي يقول: لا بأس أن يغسل المسلم ذا قرابته من المشركين ويتبعه ويدفنه، وبه قال أبو ثور وأصحاب الرأي.

قلت (مصطفى): أما الغسل فلا أعلم له دليلاً، ومن ثم فقد تُعقب هذا القول، قال ابن المنذر: قال أبو بكر: ليس في غسل من خالف الإسلام سنة يجب اتباعها، والحديث الذي احتج به الشافعي منقطع لا تقوم به حجة.

قلت (مصطفى): وقد ورد في السير في جنازة النصراني حديث لكن ضعيف الإسناد، فيه: جاء ثابت بن قيس بن شماس إلى رسول الله ﷺ فقال: إن أُمِّي توفيت وهي نصرانية وهو يحب أن يحضرها فقال النبي ﷺ: «اركب دابتك وسر أمامها فإنك كنت أمامها لم تكن معها».

أبو معشر ضعيف^(٤) (وهو أحد رجال الإسناد).

هذا وبالله التوفيق.

(١) المصنف (١١٩٦٤).

(٢) المصنف (١١٩٦٨).

(٣) ابن المنذر في الأوسط (٣٤٢، ٣٤١ / ٥).

(٤) سنن الدارقطني (٧٥ / ٢).

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:

(وَلَا تَعْجَبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿٨٥﴾ وَإِذَا أَنْزَلْتُ سُورَةً أَنْ آمِنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَعْذَنَكَ أُولُوا الطَّلُوفِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴿٨٦﴾ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُوْنَ ﴿٨٧﴾ لَكِنَّ الرُّسُولَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾ وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٠﴾)

[التوبة: ٨٥-٩٠]

س: وضع معنى ما يلي:
﴿وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ - أُولُوا الطَّلَولِ - ذَرْنَا - الْخَوَالِفَ - وَطُيْعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ - الْخَيْرَاتُ - الْمَعْدُرُونَ - كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾.

ج:

الكلمة	معناها
﴿وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ﴾	تخرج أرواحهم من أجسادهم
﴿أُولُوا الطَّلَولِ﴾	الأغنياء أصحاب الأموال
﴿ذَرْنَا﴾	اتركنا
﴿الْخَوَالِفَ﴾	النساء - خسّاس (جمع خسيس) الناس وأدنياؤهم
﴿وَطُيْعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾	ختم على قلوبهم
﴿الْخَيْرَاتُ﴾	النساء الحسان - نعيم الآخرة عمومًا، وقيل: كل خير في الدنيا والآخرة
﴿الْمَعْدُرُونَ﴾	المعتذرون المبالغون في الاعتذارات (سواء كانت مقبولة أو غير مقبولة) وقيل: المعتذرون الذين لهم أعذار مقبولة
﴿كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾	جحدوا وحادانية الله وكذبوا رسوله وأنكروا رسالته

س: وضع معنى قوله تعالى: (وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿٨٥﴾).

ج: المعنى، والله أعلم، ولا تغتريا رسول الله بأموال هؤلاء المنافقين، ولا تعجب بأولادهم وحسنهم وجمالهم، فكل ذلك وبأل عليهم فكم من شخص رُزق مالا، وماله عذابٌ عليه وكم من شخص رُزق أولادًا، وأولاده نكال عليه، فربنا يريد أن يعذبهم بهذه الأموال في الحياة الدنيا، ففي جمعها عذاب وفي إنفاقهم لها عذاب، وفي حفظهم لها عذاب، وأولادهم لهم فتنة وسبب لعذابهم ويريد الله أن يعذبهم بالأموال والأولاد ويتمادى بهم ذلك إلى الموت على الكفر فتخرج أرواحهم من أجسادهم وهم كفار.

وبنحو هذا قال العلماء.

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: ولا تعجبك، يا محمد، أموال هؤلاء المنافقين وأولادهم، فتصلي على أحدهم إذا مات وتقوم على قبره، من أجل كثرة ماله وولده، فإني إنما أعطيته ما أعطيته من ذلك لأعذبه بها في الدنيا بالغموم والهموم، بما ألزمه فيها من المؤن والنفقات والزكوات، وبما ينوبه فيها من الرزايا والمصيبات، ﴿وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ﴾، يقول: وليموت فتخرج نفسه من جسده، فيفارق ما أعطيته من المال والولد، فيكون ذلك حسرة عليه عند موته، ووبالاً عليه حينئذٍ، ووبالاً عليه في الآخرة، بموته جاحداً توحيد الله، ونبوة نبيه محمد ﷺ.

وقال السعدي رحمه الله:

أي: لا تغتر بما أعطاهم الله في الدنيا من الأموال والأولاد، فليس ذلك لكرامتهم عليه، وإنما ذلك إهانة منه لهم. ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا﴾ فيتعبون في تحصيلها، ويخافون من زوالها، ولا يتنهثون بها.

بل لا يزالون يعانون الشدائد والمشاق فيها، وتلهيهم عن الله والدار الآخرة، حتى ينتقلوا من الدنيا ﴿وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ قد سلبهم حبها كل شيء، فماتوا وقلوبهم بها متعلقة، وأفئدتهم عليها متحرقة.

س: وضع معنى قوله تعالى: (وَإِذَا أَنْزَلْتَ سُورَةً أَنْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أَذْهَبُوا الطَّوْلَ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴿٨٦﴾ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾).

ج: المعنى، والله تعالى أعلم أنه إذا أنزلت عليك يا رسول الله سورة من كتاب الله فيها أمرٌ بمزيد من الإيمان، وفيها أمرٌ بالجهاد مع رسول الله ﷺ استأذنتك من لا عذر لهم في التخلف من هؤلاء المنافقين الأغنياء، وقالوا: اتركنا نكن مع القاعدين في المدينة، رضوا على أنفسهم بأن يكونوا مع النساء، وكذا مع خساس الناس وأدنيائهم وُخِّتَ على قلوبهم فلا يصل إليها إيمان، ولا يفهمون عن الله المراد، ولا يفهمون ما ينفعهم ولا يضرهم.

وبنحو ذلك قال أهل العلم.

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره: وإذا أنزل عليك، يا محمد، سورة من القرآن، بأن يقال لهؤلاء المنافقين: ﴿آمِنُوا بِاللَّهِ﴾، يقول: صدّقوا بالله، ﴿وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ﴾، يقول: اغزوا المشركين مع رسول الله ﷺ، ﴿اسْتَأْذَنَكَ أَذْهَبُوا الطَّوْلَ مِنْهُمْ﴾، يقول: استأذنتك ذوو الغنى والمال منهم في التخلف عنك، والقعود في أهله، ﴿وَقَالُوا ذَرْنَا﴾، يقول: وقالوا لك: دعنا، نكن ممن يقعد في منزله مع ضعفاء الناس ومرضاها، ومن لا يقدر على الخروج معك في السفر.

وقال في تأويل قوله: ﴿رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾.

يقول تعالى ذكره: رضي هؤلاء المنافقون، الذين إذا قيل لهم: آمنوا بالله وجاهدوا مع رسوله، استأذنتك أهل الغنى منهم في التخلف عن الغزو والخروج معك لقتال أعداء الله من المشركين، أن يكونوا في منازلهم، كالنساء اللواتي ليس عليهن فرض الجهاد، فهن قعود في منازلهن ويوتن، ﴿وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾، يقول: وختم الله على قلوب هؤلاء المنافقين، ﴿فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾، عن الله مواعظه، فيتعظون بها.

وقال ابن كثير رحمه الله:

يقول تعالى منكراً وذاماً للمتخلفين عن الجهاد، الناكليين عنه مع القدرة عليه، ووجود السعة والطَّوْل، واستأذنوا الرسول في القعود، وقالوا: ﴿ذَرْنَاكَ نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ ورضوا لأنفسهم بالعار والقعود في البلد مع النساء، وهن الخوالف، بعد خروج الجيش، فإذا وقع الحرب كانوا أجبن الناس، وإذا كان أَمْنٌ كانوا أكثر الناس كلاماً، كما قال الله تعالى، عنهم في الآية الأخرى: ﴿فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَفُوا كُمْ بِالْأَسِنَّةِ حِدَادٍ﴾ [الأحزاب: ١٩] أي: علت ألسنتهم بالكلام الحاد القوي في الأَمْن، وفي الحرب أجبن شيء، وكما قال الشاعر:

أَفِي السَّلَمِ أَعْيَارًا جَفَاءً وَغُلْظَةً وَفِي الْحَرْبِ أَشْبَاهُ النَّسَاءِ الْعَوَارِكِ

وقال تعالى في الآية الأخرى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأُولَئِكَ لَهُمْ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ﴾

[محمد: ٢٠-٢١]

وقوله: ﴿وَطُيْعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ أي: بسبب نكولهم عن الجهاد والخروج مع الرسول في سبيل الله، ﴿فَهُمْ لَا يَفْقَهُوْكَ﴾ أي: لا يفهمون ما فيه صلاح لهم في فعلوه، ولا ما فيه مضرة لهم في جتنبوه.

قال السعدي رحمه الله:

يقول تعالى في بيان استمرار المنافقين على الثاقل عن الطاعات، وأنها لا تؤثر فيهم السور والآيات: ﴿وَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ﴾ يؤمرون فيها بالإيمان بالله والجهاد في سبيل الله.

﴿أَسْتَدْنَكَ أَوْ لَوْ الطَّوْلُ مِنْهُمْ﴾ يعني: أولي الغنى والأموال، الذين لا عذر لهم، وقد أمدهم الله بأموال وبنين، أفلا يشكرون الله ويحمدونه، ويقومون بما أوجبه عليهم، وسهل عليهم أمره، ولكن أبوا إلا التكاسل والاستئذان في القعود ﴿وَقَالُوا ذَرْنَا

نَكُنْ مَعَ الْفَلْعَيْنِ ﴿٣٩٢﴾.

قال تعالى: ﴿رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ﴾ أي: كيف رضوا لأنفسهم أن يكونوا مع النساء المتخلفات عن الجهاد، هل معهم فقه أو عقل دلهم على ذلك؟ أم طبع الله على قلوبهم فلا تعي الخير، ولا يكون فيها إرادة لفعل ما فيه الخير والفلاح؟ فهم لا يفقهون مصالحهم، فلو فقهوا حقيقة الفقه، لم يرضوا لأنفسهم بهذه الحال التي تحطهم عن منازل الرجال. يقول تعالى: إذا تخلف هؤلاء المنافقون عن الجهاد، فالله سيغني عنهم.

|

س: وضح معنى قوله تعالى: (لَيْكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٣٩٣﴾ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٣٩٤﴾).

ج: بعد أن بين الله ﷻ أحوال أهل النفاق وأعمالهم وبعض ما حل بهم بين ﷻ صفات أهل الفضل والإيمان وأعمالهم فقال تعالى: لكن الرسول ﷺ والذين آمنوا معه، ليسوا كأهل النفاق المتخلفين عن الجهاد، بل إنهم جاهدوا بأموالهم، بذلوا مرضاة الله ولإعلاء كلمته، وكذا جاهدوا بأنفسهم فرضوا بالقتل في سبيل الله لإعلاء كلمة الله، فهؤلاء لهم الخيرات في الدنيا والآخرة، في الدنيا بالمغانم وطمأنينة النفس والقلب والإيمان والرضا، وفي الآخرة بصنوف النعيم فيها من النساء الحسان وما تشتهي الأنفس من الطعام والشراب، وما به تلذ الأعين، وأولئك هم المفلحون الذين فازوا بمطلوبهم، وهو الجنة ورضوان الله عليهم ونجوا من مرهوبهم، وهو النار وسخط الله عليهم، هؤلاء أعد الله لهم حقائق وبساتين تجري من تحت أشجارها الأنهار خالدين فيها لا يتحولون عنها، وذلك هو الفوز، الظفر العظيم أعظم الظفر.

وبنحو هذا قال أهل العلم.

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره: لم يجاهد هؤلاء المنافقون الذين اقتصصت قصصهم المشركين، لكن الرسول محمد ﷺ والذين صدقوا الله ورسوله معه، هم الذين

جاهدوا المشركين بأموالهم وأنفسهم، فأنفقوا في جهادهم أموالهم وأتعبوا في قتالهم أنفسهم وبذلوا، ﴿وَأُولَٰئِكَ﴾، يقول: وللرسول وللذين آمنوا معه الذين جاهدوا بأموالهم وأنفسهم، ﴿الْخَيْرَاتُ﴾، وهي خيرات الآخرة، وذلك: نساؤها، وجناتها، ونعيمها.

واحدتها «خَيْرَةٌ»، كما قال الشاعر:

وَلَقَدْ طَعَنْتُ مَجَامِعَ الرَّبَلَاتِ رَبَلَاتٍ هِنْدٍ خَيْرَةَ الْمَلِكَاتِ

و«الخيرة»، من كل شيء، الفاضلة.

﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾، يقول: وأولئك هم المخلدون في الجنات، الباقون فيها، الفائزون بها.

وقال في تأويل قوله: ﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.

يقول تعالى ذكره: أعد الله لرسوله محمد ﷺ وللذين آمنوا معه، ﴿جَنَّاتٍ﴾، وهي البساتين، تجري من تحت أشجارها الأنهار، ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾، يقول: لا يثين فيها، لا يموتون فيها، ولا يظعنون عنها، ﴿ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾، يقول: ذلك النجاء العظيم، والحظّ الجزيل.

وقال ابن كثير رحمه الله:

لما ذكر تعالى ذم المنافقين، بين ثناءه على المؤمنين، وما لهم في آخرتهم، فقال: ﴿لَٰكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهِدُوا﴾ إلى آخر الآيتين من بيان حالهم ومآلهم. وقوله: ﴿وَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ﴾ أي: في الدار الآخرة، في جنات الفردوس والدرجات العلى.

وقال ابن الجوزي (زاد المسير):

وللمفسرين في المراد بالخيرات ثلاثة أقوال:

أحدها: أنها الفاضلات من كل شيء. قاله أبو عبيدة. **والثاني:** الجواري الفاضلات. قاله المبرد. **والثالث:** غنائم الدنيا ومنافع الجهاد ذكره الماوردي.

وقال السعدي رحمه الله:

ولله عباد وخواص من خلقه اختصهم بفضله يقومون بهذا الأمر، وهم ﴿الرَّسُولُ﴾ محمد ﷺ، ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ﴾ غير متشاقلين ولا كسليين، بل هم فرحون مستبشرون، ﴿وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ﴾ الكثيرة في الدنيا والآخرة، ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ الذين ظفروا بأعلى المطالب وأكمل الرغائب. ﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ فتباً لمن لم يرغب بما رغبوا فيه، وخسر دينه ودنياه وأخراه، وهذا نظير قوله تعالى ﴿قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾ [الإسراء: ١٠٧]، وقوله: ﴿فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيَكْفُرُنَّ بِهَا بِكَفَرٍ﴾ [الأنعام: ٨٩].

س: في قوله تعالى: ﴿الْمُعْذِرُونَ﴾ قراءتان ذكرهما العلماء، وضحهما، مع إيضاح

معانيهما.

ج: القراءة الأولى هي: ﴿الْمُعْذِرُونَ﴾ بفتح العين وتشديد الذال مع كسرهما. والقراءة الثانية: (المُعْذِرُونَ) بتسكين العين وفتح الذال بلا تشديد. والقراءة الأولى: وهي التي في المصحف عليها أكثر أهل العلم، وهي تحتمل معنيين.

أحدهما: الذين لهم عذر صحيح مقبول.

الثاني: الكاذب في اعتذاره.

أما القراءة الثانية بالتخفيف فالمراد بها أهل العذر، الذين أتوا بأعذارٍ صحيحة. قال ابن كثير: وهذا القول (يعني بالتخفيف) هو الأظهر في معنى الآية لأن الله قال بعد هذا: (وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ).

وقال ابن الجوزي (زاد المسير):

والمعذرون: الذين يأتون بالعذر الصحيح؛ فبان من هذا الكلام أن لهم عذراً على قراءة من خفف وهل يثبت لهم عذر على قراءة من شدد فيه قولان: قال المفسرون: جاء هؤلاء ليؤذن لهم في التخلف عن تبوك، فأذن لهم رسول الله ﷺ، وقعد آخرون من المنافقين بغير عذر وإظهار علة جراءة على الله تعالى.

وقال الطبري رحمه الله، بعد أن أورد أقوالاً: وبعد، فإن الذي عليه من القراءة قراءة الأمصار، التشديد في «الذال»، أعني من قوله: ﴿الْمُعَذَّرُونَ﴾، ففي ذلك دليل على صحة تأويل من تأوله بمعنى الاعتذار، لأن القوم الذين وُصفوا بذلك لم يكلفوا أمراً عَذَرُوا فيه، وإنما كانوا فرقتين: إما مجتهد طائع، وإما منافق فاسق، لأمر الله مخالف. فليس في الفريقين موصوفٌ بالتعذير في الشخوص مع رسول الله ﷺ، وإنما هو معذّر مبالغ، أو معتذر.

فإذا كان ذلك كذلك، وكانت الحجة من القراءة مجمعة على تشديد «الذال» من «المعذرين»، علم أن معناه ما وصفناه من التأويل.

ا س: وضح المعنى الإجمالي لقوله تعالى: (وَجَاءَ الْمُعَذَّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) ﴿١٠﴾.

ج: المعنى، والله أعلم، وجاء المعتذرون من الأعراب يقدمون اعتذاراتهم عن التخلف ويبينوا سبب ذلك سواء كان اعتذارهم بحق أو بباطل، أما الذين كذبوا الله ورسوله فجحدوا وحدانية الله وكذبوا رسوله ﷺ فقعدوا في بيوتهم لم يأتوا لاعتذار ولم يُبالوا به، ثم توعدهم الله بأليم العذاب فقال: (سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ) (من هؤلاء القاعدين) (عَذَابٌ أَلِيمٌ).

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره: ﴿وَجَاءَ﴾، رسول الله ﷺ، ﴿الْمُعَذَّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ﴾، في التخلف، ﴿وَقَعَدَ﴾، عن المجيء إلى رسول الله ﷺ والجهاد معه، ﴿الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾، وقالوا الكذب، واعتذروا بالباطل منهم.

يقول تعالى ذكره: سيصيب الذين جحدوا توحيد الله ونبوة نبيه محمد ﷺ منهم، عذاب أليم.

وقال ابن كثير رحمه الله:

ثم بين تعالى حال ذوي الأعذار في ترك الجهاد، الذين جاءوا رسول الله ﷺ يعتذرون إليه، ويبينون له ما هم فيه من الضعف، وعدم القدرة على الخروج، وهم من أحياء العرب ممن حول المدينة.

وقال السعدي رحمه الله:

يقول تعالى: ﴿وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ﴾ أي: جاء الذين تهاونوا، وقصروا منهم في الخروج لأجل أن يؤذن لهم في ترك الجهاد، غير مباليين في الاعتذار لجفائهم وعدم حيائهم، وإتيانهم بسبب ما معهم من الإيمان الضعيف. وأما الذين كذبوا الله ورسوله منهم، ففعدوا وتركوا الاعتذار بالكلية، ويحتمل أن معنى قوله: ﴿الْمُعَذِّرُونَ﴾ أي: الذين لهم عذر، أتوا إلى رسول الله ﷺ ليعذرهم، ومن عادته أن يعذر من له عذر.

﴿وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ في دعواهم الإيمان، المقتضي للخروج، وعدم علمهم بذلك، ثم توعدهم بقوله: ﴿سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في الدنيا والآخرة.

لما ذكر المعتذرين، وكانوا على قسمين، قسم معذور في الشرع، وقسم غير معذور، ذكر ذلك بقوله:

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:

﴿لَيْسَ عَلَى الضَّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٩١) وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ ﴿٩٢﴾ ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٩٣) يَعْذَرُونَكَ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لَا تَعْذِرُوا لَنْ تُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَأَ اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عِلْمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٤﴾ سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لَتُعَرِّضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رَجِسٌ وَمَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لَتَرْضُوا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٩٦﴾ الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٧﴾ وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ

الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرْبًا عِنْدَ
اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ
رَحِيمٌ ﴿٩٩﴾ [التوبة: ٩١-٩٩].

س: وضع معنى ما يلي:

﴿حَرَجٌ - لِيَتَحِمَّلَهُمْ - لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ - تَوَلَّوْا - الْخَوَالِفَ - لَنُؤْمِنَنَّ لَكُمْ - عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ - رِجْسٌ - وَمَأْوَاهُمْ - مَعْرَمًا - وَيَرْبِصُ بِكُمْ الدَّوَابُّ - دَائِرَةُ السَّوَاءِ - قُرْبَةٌ لَهُمْ﴾.

ج:

الكلمة	معناها
﴿حَرَجٌ﴾	إثم.
﴿لِيَتَحِمَّلَهُمْ﴾	لتعطيهم شيئاً يركبونه كي يخرجوا معك للغزو في سبيل الله.
﴿لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ﴾	لا أجد رواحل (إبل - خيل) تركبونها للخروج للغزو.
﴿تَوَلَّوْا﴾	انصرفوا عنك.
﴿الْخَوَالِفَ﴾	النساء.
﴿لَنُؤْمِنَنَّ لَكُمْ﴾	لن نصدقكم في دعواكم الإيمان وفي اعتذاراتكم.
﴿عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾	عالم ما غاب من الأمور وما ظهر عالم بالظواهر والبواطن.
﴿رِجْسٌ﴾	نجس في اعتقادهم ونواياهم، فمعتقدهم خبيث ونواياهم خبيثة، وكذا في أعمالهم فأعمالهم سيئة مُشينة.
﴿وَمَأْوَاهُمْ﴾	مصيرهم الذي يصيرون إليه ومستقرهم الذي يستقرون فيه.
﴿مَعْرَمًا﴾	غرامات تؤدي (لا يرجوا ثوابها).

الَّتِي هِيَ لِأَوَّلِ النَّزِيلِ	سُورَةُ النَّازِعَاتِ	٤٠٠
ينتظر حلول المصائب بكم.	﴿وَيَتَرَبَّصُّ بَكُمْ الدَّوَّابُّ﴾	
عليهم دائرة الشر والهزيمة والعذاب والبلاء، وهذا دعاء عليهم وإخبار بمآلهم.	﴿دَائِرَةُ السَّوْءِ﴾	
شيئاً يتقربون به إلى الله وعملاً صالحاً يقربهم فيه ﴿عَلَّكَ﴾.	﴿قُرْبَةٌ لَهُمْ﴾	

س: وضع معنى قوله تعالى: (وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِمْ... ❀).

ج: المعنى، والله تعالى أعلم، وليس هناك إثم على أصحابك الفقراء الذين جاءوك طالبين منك أن تعطيهم دابةً تحملهم يركبونها للخروج إلى الجهاد، كفرسٍ أو جملٍ أو غير ذلك، فلم تجد لهم دابةً تحملهم، فحزنوا لذلك حزناً شديداً من قلوبهم، وانذرف الدمع من عيونهم، فانصرفوا عنك وهم يبكون حزناً لفقرهم الذي كان سبباً في صدهم عن الغزو معك وقد ورد في هذا الباب حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه في الإيمان.

س: فيمن نزل قوله تعالى: (وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ.. ❀)؟

ج: أخرجه الطبري بسندٍ صحيح عن ثور بن يزيد، عن خالد بن معدان، عن عبد الرحمن بن عمرو السلمي وحجر بن حجر الكلاعي قالا: دخلنا على عرباض بن سارية، وهو الذي أنزل فيه (وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ ❀).

بعض أصحاب الأعدار

س: وضح المعنى الإجمالي لقوله تعالى: (لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَحْدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ) وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَحْدُوا مَا يُنْفِقُونَ ﴿١٢﴾ .

ج: هذه، والله أعلم، تبين أصحاب الأعدار الذين تقبل أعدارهم في التخلف عن الجهاد والخروج مع رسول الله ﷺ، وترفع عنهم الحرج، قال تعالى: ﴿ لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ ﴾ الذين ليست لهم قدرة على السفر والجهاد لضعف أبدانهم، ﴿ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى ﴾ الذين حل بهم مرض يحول بينهم وبين خروجهم للغزو، وكذا ليس على الفقراء الذين ليست عندهم نفقة للتجهز للغزو ولا للأسفار، ليس على هؤلاء إثم إذا تخلفوا، وذلك إذا قدموا النصيحة لله ورسوله، ولم يغشوا ولم يكتموا نصيحة تنفع، فهؤلاء المحسنون الذين قدموا النصيحة ليس هناك طريق لعقوبتهم ولا سبب لإنزال عقوبة بهم فالطريق إلى ذلك مسدودة.

وكذا ليس هناك إثم على الذين جاءوك يسألونك دابة تحملهم للغزو والجهاد والسفر فلم يجدوا عندك، وقلت لهم ليس عندي من الدواب ما أحملكم عليه لسفركم للغزو والجهاد فانصرفوا من عندك، باكين أعينهم تذرف دموعاً حزناً منهم على فقرهم، لكونهم لم يجدوا ما يتجهزون به للغزو في سبيل الله وصحبة رسول الله ﷺ.

وبنحو هذا قال أهل العلم.

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره: ليس على أهل الزمانة وأهل العجز عن السفر والغزو، ولا على المرضى، ولا على من لا يجد نفقة يتبلى بها إلى مغزاه، ﴿ حَرَجٌ ﴾، وهو الإثم، يقول: ليس عليهم إثم، إذا نصحوا لله ولرسوله في مغيبهم عن الجهاد مع رسول الله ﷺ، ﴿ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ ﴾، يقول: ليس على من أحسن فنصح لله ولرسوله في تخلفه عن رسول الله ﷺ عن الجهاد معه، لعذر يعذر به، طريق يتطرق عليه فيعاقب من قبله، ﴿ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾، يقول: والله سائر على ذنوب المحسنين، يتغمد بها

بعفوه لهم عنها، ﴿رَجِيمٌ﴾، بهم، أن يعاقبهم عليها.

وقال في تأويل قوله: ﴿وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ﴾ (١٢)

يقول تعالى ذكره: ولا سبيل أيضاً على النفر الذين إذا ما جاءوك، لتحملهم، يسألونك الحُمْلان، ليلبغوا إلى مغزاهم لجهاد أعداء الله معك، يا محمد، قلت لهم: لا أجد حَمُولَةً أحملكم عليها، ﴿تَوَلَّوْا﴾، يقول: أدبروا عنك، ﴿وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا﴾، وهم يكونون من حزن على أنهم لا يجدون ما ينفقون، ويتحملون به للجهاد في سبيل الله.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ:

ثم بين تعالى الأعذار التي لا حَرَجَ على من قعد معها عن القتال، فذكر منها ما هو لازم للشخص لا ينفك عنه، وهو الضعف في التركيب الذي لا يستطيع معه الجلال في الجهاد، ومنه العمى والعرج ونحوهما، ولهذا بدأ به. ومنها ما هو عارض بسبب مرض عَنَّ له في بدنه، شغله عن الخروج في سبيل الله، أو بسبب فقره لا يقدر على التجهز للحرب، فليس على هؤلاء حَرَجَ إذا قعدوا ونصحوا في حال قعودهم، ولم يرجفوا بالناس، ولم يُثَبِّطوهم، وهم محسنون في حالهم هذا؛ ولهذا قال: ﴿مَاعَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

قال القرطبي رَحِمَهُ اللهُ:

قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ﴾ الآية. أصل في سقوط التكليف عن العاجز؛ فكل من عجز عن شيء سقط عنه، فتارة إلى بدل هو فعل، وتارة إلى بدل هو غرم، ولا فرق بين العجز من جهة القوة أو العجز من جهة المال؛ ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦] وقوله: ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ [النور: ٦١]. وروى أبو داود عن أنس أن رسول الله ﷺ قال: «لقد تركتم بالمدينة أقواماً ما سرتهم مسيراً ولا أنفقتهم من نفقة ولا قطعتم من واد إلا وهم معكم فيه». قالوا: يا رسول الله، وكيف يكونون معنا وهم بالمدينة؟ قال: «حبسهم العذر». فبينت هذه الآية مع ما ذكرنا من نظائرها أنه لا حرج على المعذورين، وهم قوم

عرف عذرهم كأرباب الزمانة والهرم والعمى والعرج، وأقوام لم يجدوا ما ينفقون؛ فقال: ليس على هؤلاء حرج. ﴿إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولَهُ﴾ إذا عرفوا الحق وأحبوا أوليائه وأبغضوا أعداءه قال العلماء: فعذر الحق سبحانه أصحاب الأعداء.

وقال رحمه الله:

قوله تعالى: ﴿إِذَا نَصَحُوا﴾ النصيح إخلاص العمل من الغش. ومنه التوبة النصوح. قال نفطويه: نصح الشيء إذا خلص. ونصح له القول أي: أخلصه له. وفي صحيح مسلم عن تميم الداري أن النبي ﷺ قال: «الدين النصيحة» ثلاثاً. قلنا لمن؟ قال: «لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم». قال العلماء: النصيحة لله إخلاص الاعتقاد في الوجدانية، ووصفه بصفات الألوهية، وتنزيهه عن النقائص والرغبة في محابته والبعد من مساخطه. والنصيحة لرسوله: التصديق بنبوته، والتزام طاعته في أمره ونهيه، وموالاته من والاه ومعاداته من عاداه، وتوقيره، ومحبته ومحبة آل بيته، وتعظيمه وتعظيم سنته، وإحيائها بعد موته بالبحث عنها، والتفقه فيها والذب عنها ونشرها والدعاء إليها، والتخلق بأخلاقه الكريمة ﷺ. وكذا النصح لكتاب الله: قراءته والتفقه فيه، والذب عنه وتعليمه وإكرامه والتخلق به. والنصح لأئمة المسلمين: ترك الخروج عليهم، إرشادهم إلى الحق وتنبيههم فيما أغفلوه من أمور المسلمين، ولزوم طاعتهم والقيام بواجب حقهم. والنصح للعامة: ترك معاداتهم، وإرشادهم وحب الصالحين منهم، والدعاء لجمعهم وإرادة الخير لكافتهم. وفي الحديث الصحيح «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى».

قال السعدي رحمه الله:

﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ﴾ في أبدانهم وأبصارهم، الذين لا قوة لهم على الخروج والقتال. ﴿وَلَا عَلَى الْمَرْضَى﴾.

وهذا شامل لجميع أنواع المرض الذي لا يقدر صاحبه معه على الخروج والجهاد، من عرج، وعمى، وحمى، وذات الجنب، والفالج، وغير ذلك. ﴿وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَحْدُوثُ مَا يَفْقُوثُ﴾ أي: لا يجدون زاداً، ولا راحلة يتبلغون

بها في سفرهم، فهؤلاء ليس عليهم حرج، بشرط أن ينصحوا لله ورسوله، بأن يكونوا صادقي الإيمان، وأن يكون من نيتهم وعزمهم أنهم لو قدروا لجاهدوا، وأن يفعلوا ما يقدرون عليه من الحث والترغيب والتشجيع على الجهاد.

﴿مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ﴾ أي: من سبيل يكون عليهم فيه تبعة، فإنهم - بإحسانهم فيما عليهم من حقوق الله وحقوق العباد - أسقطوا توجه اللوم عليهم، وإذا أحسن العبد فيما يقدر عليه، سقط عنه ما لا يقدر عليه.

ويستدل بهذه الآية على قاعدة وهي: أن من أحسن على غيره، في نفسه أو في ماله، ونحو ذلك، ثم ترتب على إحسانه نقص أو تلف، أنه غير ضامن لأنه محسن، ولا سبيل على المحسنين، كما أنه يدل على أن غير المحسن - وهو المسيء - كالمفطر، أن عليه الضمان.

﴿وَاللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ ومن مغفرته ورحمته، عفا عن العاجزين، وأثابهم بنيتهم الجازمة ثواب القادرين الفاعلين.

﴿وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ﴾ فلم يصادفوا عندك شيئاً ﴿قُلْتَ﴾ لهم معذراً: ﴿لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ﴾ (١٢) فإنهم عاجزون باذلون لأنفسهم، وقد صدر منهم من الحزن والمشقة ما ذكره الله عنهم.

فهؤلاء لا حرج عليهم، وإذا سقط الحرج عنهم، عاد الأمر إلى أصله، وهو أن من نوى الخير، واقرن بنيته الجازمة سعيي فيما يقدر عليه، ثم لم يقدر، فإنه ينزل منزلة الفاعل التام.

|

س: هل من حديث يُؤاس به من أراد خيراً وحيل بينه وبين فعل الخير هذا؟

ج: نعم هناك أحاديث، وليست حديثاً واحداً، من ذلك قول النبي ﷺ: «إِنَّ بِالْمَدِينَةِ لَرَجَالًا مَا سَرْتُمْ مَسِيرًا وَلَا قَطَعْتُمْ وادياً، إِلَّا كَانُوا مَعَكُمْ حَبَسَهُمُ الْمَرَضُ»^(١).

(١) البخاري (٢٨٣٩)، ومسلم (١٩١١).

وكذا قول النبي ﷺ: «من سأل الله الشهادة بصدق بلغه الله منازل الشهداء وإن مات على فراشه»^(١).

اس: وضع معنى قوله تعالى: (إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ

رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾).

ج: المعنى، والله أعلم، إنما الطريق للعقوبة، إنما هو على الذين يستأذنونك في التخلف ولا عذر لهم في التخلف فهم أغنياء يستطيعون تجهيز أنفسهم للغزو، وهم أيضًا أقوياء وليسوا بالمرضى ولا بالضعفاء، ولكنهم فقط رضوا بأن يبقوا بالمدينة مع النساء، وختم الله على قلوبهم لخبث نواياهم وسوء معتقدتهم، فهم لا يعلمون ما الذي ينفعهم، وما الذي يضرهم.

وينحو هذا قال أهل العلم.

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره: ما السبيل بالعقوبة على أهل العذر، يا محمد، ولكنها على الذين يستأذنونك في التخلف خلافك، وترك الجهاد معك، وهم أهل غنى وقوة وطاقية للجهاد والغزو، نفاقًا وشكًا في وعد الله ووعيده، ﴿رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ﴾، يقول: رضوا بأن يجلسوا بعدك مع النساء، وهن ﴿الْخَوَالِفِ﴾، خلف الرجال في البيوت، ويتركوا الغزو معك، ﴿وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾، يقول: وختم الله على قلوبهم بما كسبوا من الذنوب، ﴿فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾، سوء عاقبتهم، بتخلفهم عنك، وتركهم الجهاد معك، وما عليهم من قبيح الشئ في الدنيا، وعظيم البلاء في الآخرة.

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله:

ثم رد تعالى الملامة على الذين يستأذنون في القعود وهم أغنياء، وأنبهم في رضاهم بأن يكونوا مع النساء الخوالف في الرحال، ﴿وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

قال القرطبي رحمه الله:

(١) مسلم (١٩٠٩).

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا السَّيِّئُ﴾ أي: العقوبة والمآثم. ﴿عَلَى الَّذِينَ يَسْتَزِدُّونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ﴾ والمراد المنافقون. كرر ذكرهم للتأكيد في التحذير من سوء أفعالهم.

وقال السعدي رحمه الله (تيسير الكريم المنان):

﴿إِنَّمَا السَّيِّئُ﴾ يتوجه واللوم يتناول الذين يستأذنونك وهم أغنياء قادرون على الخروج لا عذر لهم، فهو لاء ﴿رَضُوا﴾ لأنفسهم ومن دينهم ﴿يَأْنُ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ﴾ كالنساء والأطفال ونحوهم. ﴿و﴾ إنما رضوا بهذه الحال لأن الله طبع على قلوبهم أي: ختم عليها، فلا يدخلها خير، ولا يحسون بمصالحهم الدينية والدنيوية، ﴿فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ عقوبة لهم، على ما اقترفوا.

اس: وضح معنى قوله تعالى: ﴿لَعَنَّا أُولَئِكَ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لَا تَعْتَزُّوا بِتُؤْمِنِكُمْ لَكُمْ قَدْ نَبَأْنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابِ الْعَذَابِ وَالشَّهَادَةُ فَيُنْفِثُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

ج: المعنى، والله أعلم، يعتذر إليك يا رسول الله وإلى المؤمنين، يعتذر أهل النفاق إليكم بالاعتذارات الباطلة وبالأكاذيب إذا رجعتكم من غزوتكم إلى مدينتكم، فقل لهم لا تعتذروا ﴿لَنْ تُؤْمِنَ لَكُمْ﴾ لن نصدقكم فقد تبين لنا من قبل كذبكم وافترائكم وتقوُّلكم، وقد أخبرنا الله ﷻ بما أنزله على رسولنا أخباركم على حقيقتها وسيرى الله عملكم ورسوله، وذلك فيما هو آت من الدنيا، وسيرى صدقكم من كذبكم، وصالح عملكم من سيئه، كما قال في سورة الفتح للمخلفين من الأعراب ﴿سَتُدْعَوْنَ إِلَى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ يَقْنِطُونَ﴾، وكان قوله تعالى: ﴿وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ﴾ فيه فتح لباب التوبة أمامهم، وكأن المعنى وسيرى الله ﷻ أعمالكم وتوبتكم من عدمها فأحسنوا العمل، وأخلصوا لله في توبتكم فإن عملكم سيظهر في الدنيا ويظهر استجابتكم من عدمه ثم ترجعون يوم القيامة إلى عالم الغيب والشهادة الذي يعلم السر وأخفى، ويعلم الجهر من القول ويعلم ما تكتُمون، ويعلم ما تكن صدوركم وما تعلنون وسيخبركم بأعمالكم التي عملتموها وتصرفاتكم التي

تصرفتموها.

وبنحو هذا قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: يعتذر إليكم، أيها المؤمنون بالله، هؤلاء المتخلفون خلاف رسول الله ﷺ، التاركون جهاد المشركين معكم من المنافقين، بالأباطيل والكذب، إذا رجعت إليهم من سفركم وجهادكم، ﴿قُلْ﴾، لهم، يا محمد، ﴿لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ﴾، يقول: لن نصدقكم على ما تقولون، ﴿قَدْ نَبَأْنَا اللَّهَ مِنْ أَخْبَارِكُمْ﴾، يقول: قد أخبرنا الله من أخباركم، وأعلمنا من أمركم ما قد علمنا به كذبكم، ﴿وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ﴾، يقول: وسيرى الله ورسوله فيما بعد عملكم، أتتوبون من نفاقكم، أم تقيمون عليه؟، ﴿ثُمَّ تُرْذَوْنَ إِلَىٰ عِلْمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾، يقول: ثم ترجعون بعد مماتكم، ﴿إِلَىٰ عِلْمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾، يعني: الذي يعلم السر والعلانية، الذي لا يخفى عليه بواطن أموركم وظواهرها، ﴿فَيُنْثِقُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، فيخبركم بأعمالكم كلها سيئها وحسنها، فيجازيكم بها: الحسن منها بالحسن، والسيئ منها بالسيئ.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

أخبر تعالى عن المنافقين بأنهم إذا رجعوا إلى المدينة أنهم يعتذرون إليهم، ﴿قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ﴾ أي: لن نصدقكم، ﴿قَدْ نَبَأْنَا اللَّهَ مِنْ أَخْبَارِكُمْ﴾ أي: قد أعلمنا الله أحوالكم، ﴿وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ﴾ أي: سيظهر أعمالكم للناس في الدنيا، ﴿ثُمَّ تُرْذَوْنَ إِلَىٰ عِلْمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنْثِقُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي: فيخبركم بأعمالكم، خيرها وشرها، ويجزيكم عليها.

قال السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ:

لما ذكر تخلف المنافقين الأغنياء، وأنهم لا عذر لهم، أخبر أنهم سوف ﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ﴾ من غزاتهم. ﴿قُلْ﴾ لهم ﴿لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ﴾ أي: لن نصدقكم في اعتذاركم الكاذب.

﴿قَدْ نَبَأْنَا اللَّهَ مِنْ أَخْبَارِكُمْ﴾ وهو الصادق في قوله، فلم يبق للاعتذار فائدة،

لأنهم يعتذرون بخلاف ما أخبر الله عنهم، ومحال أن يكونوا صادقين فيما يخالف خبر الله الذي هو أعلى مراتب الصدق.

﴿وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ﴾ في الدنيا، لأن العمل هو ميزان الصدق من الكذب، وأما مجرد الأقوال، فلا دلالة فيها على شيء من ذلك.

﴿ثُمَّ تَرْدُّونَ إِلَىٰ عِلْمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ الذي لا تخفى عليه خافية، ﴿فَيَذَرُكُمْ يَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ من خير وشر، ويجازيكم بعدله أو بفضله، من غير أن يظلمكم مثقال ذرة.

وأعلم أن المسيء المذنب له ثلاث حالات: إما أن يقبل قوله وعذره، ظاهراً وباطناً، ويعفى عنه بحيث يبقى كأنه لم يذنب. فهذه الحالة هي المذكورة هنا في حق المنافقين، أن عذرهم غير مقبول، وأنه قد تقرر أحوالهم الخبيثة وأعمالهم السيئة، وإما أن يعاقبوا بالعقوبة والتعزير الفعلي على ذنبهم، وإما أن يعرض عنهم، ولا يقابلوا بما فعلوا بالعقوبة الفعلية، وهذه الحال الثالثة هي التي أمر الله بها في حق المنافقين.

ا س: وضح معنى قوله تعالى: (سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لَتَعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَا وَدَّهْمُ جَهَنَّمَ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لَتَرْضُوا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿١٦﴾).

ج: المعنى، والله أعلم، سيحلف لكم أهل النفاق يا أهل الإيمان، سيحلفون لكم إيماناً مغلظة بالله ﷻ كي ينالوا رضاكم كي تتركوهم ولا تؤنبوهم ولا توبخوهم، سيحلفون لكم عند رجوعكم من أجل ذلك، كي لا تلوموهم ﴿فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ﴾ أهملوهم، لا تشغلوا بهم اتركوهم محتقرين لهم مزدريين لهم ﴿إِنَّهُمْ رِجْسٌ﴾ خبثاء المعتقد، سيئوا العمل، فلا معتقد صحيح، ولا عمل صحيح، ومصيرهم الذي يصيرون إليه جهنم جزاء أعمالهم السيئة، وكسبهم السيء، إنهم سيستمرون في الأيمان وسيكثرون منها لإرضائكم، فلا ترضوا عنهم، وإن رضيت عنهم يا أهل الإيمان فلن ينفعهم رضاكم عنهم لأن الله علم منهم ما لم تعلموا والله لا يرضى عن القوم الفاسقين الخارجين عن الطاعة المقيمين عليها.

وكأن قوله: ﴿فَاتَ اللَّهُ لَا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ (١١) فيه فتح لباب التوبة، فلم يقل فإن الله لا يرضى عنهم، وذلك حتى لا يئس يائس من رحمة الله، ولا يقنط منها قانط.

وبنحو الذي ذكر قال أهل العلم.

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره: سيحلف، أيها المؤمنون بالله، لكم هؤلاء المنافقون الذين فرحوا بمقعدهم خلاف رسول الله، ﴿إِذَا أَنْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ﴾، يعني: إذا انصرفتكم إليهم من غزوكم، ﴿لَتُعْرِضُوا عَنْهُمْ﴾، فلا تؤنبوهم، ﴿فَاعْرِضُوا عَنْهُمْ﴾، يقول جل ثناؤه للمؤمنين: فدعوا تأنيبهم، وخلوهم وما اختاروا لأنفسهم من الكفر والنفاق ﴿إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَهُمُ جَهَنَّمُ﴾، يقول: إنهم نجس، ﴿وَمَأْوَهُمُ جَهَنَّمُ﴾، يقول: ومصيرهم إلى جهنم، وهي مسكنهم الذي يأوونه في الآخرة، ﴿جَزَاءُ يَمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾، يقول: ثواباً بأعمالهم التي كانوا يعملونها في الدنيا من معاصي الله.

وأورد من حديث كعب بن مالك، وهو في الصحيح وسيأتي، أنه (أي كعب ابن

مالك) قال:

لما قدم رسول الله ﷺ من تبوك، وجلس للناس. فلما فعل ذلك جاء المخلفون فطفقوا يعتذرون إليه، ويحلفون له، وكانوا بضعة وثمانين رجلاً فقبل منهم رسول الله ﷺ علانيتهم، وبايعهم، واستغفر لهم، ووكل سرائرهم إلى الله، وصدقته حديثي. فقال كعب: والله ما أنعم الله عليّ من نعمة قط، بعد أن هداني للإسلام، أعظم في نفسي من صدق رسول الله ﷺ، أن لا أكون كذبتُهُ فأهلك كما هلك الذين كذبوا، إن الله قال للذين كذبوا حين أنزل الوحي، شرّ ما قال لأحد: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا أَنْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لَتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَاعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَهُمُ جَهَنَّمُ جَزَاءُ يَمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾، إلى قوله: ﴿فَاتَ اللَّهُ لَا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾.

وقال في تأويل قوله تعالى: (يَحْلِفُونَ لَكُمْ لَتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا

يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ) (١١).

يقول تعالى ذكره: يحلف لكم، أيها المؤمنون بالله، هؤلاء المنافقون، اعتذاراً

بالباطل والكذب، ﴿لَكُمْ لِرَضَا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾، يقول: فإن أنتم، أيها المؤمنون، رضيتم عنهم وقبلتم معذرتهم، إذ كنتم لا تعلمون صدقهم من كذبهم، فإن رضاكم عنهم غير نافعهم عند الله، لأن الله يعلم من سرائر أمرهم ما لا تعلمون، ومن خفي اعتقادهم ما تجهلون، وأنهم على الكفر بالله..... يعني أنهم الخارجون من الإيمان إلى الكفر بالله، ومن الطاعة إلى المعصية.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

ثم أخبر عنهم أنهم سيحلفون لكم معذرين لتعرضوا عنهم فلا تُؤنبوهم، ﴿فَاعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ احتقاراً لهم، ﴿إِنَّهُمْ رِجْسٌ﴾ أي: خبثاء نجس بواطنهم واعتقاداتهم، ﴿وَمَا لَهُمْ﴾ في آخرتهم ﴿جَهَنَّمَ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ أي: من الآثام والخطايا.

وأخبر أنهم وإن رضوا عنهم بحلفهم لهم، ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ أي: الخارجين عن طاعته وطاعة رسوله، فإن الفسق هو الخروج، ومنه سميت الفأرة «فويسقة» لخروجها من جحرها للإفساد، ويقال: «فسقت الرطبة»: إذا خرجت من أكمامها.

وقال السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ:

﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لَتُعْرِضُوا عَنْهُمْ﴾ أي: لا توبخوهم، ولا تجلدوهم أو تقتلوهم.

﴿إِنَّهُمْ رِجْسٌ﴾ أي: إنهم قدر خبثاء، ليسوا بأهل لأن يبالى بهم، وليس التوبيخ والعقوبة مفيداً فيهم ﴿و﴾ يكفيهم أن ﴿وَمَا لَهُمْ جَهَنَّمَ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾. وقوله: ﴿يَحْلِفُونَ لَكُمْ لَتَرْضَوْا عَنْهُمْ﴾ أي: ولهم أيضاً هذا المقصد الآخر منكم، غير مجرد الإعراض، بل يحبون أن ترضوا عنهم، كأنهم ما فعلوا شيئاً.

﴿فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ أي: فلا ينبغي لكم -أيها المؤمنون- أن ترضوا عن من لم يرض الله عنه، بل عليكم أن توافقوا ربكم في رضاه وغضبه.

وتأمل كيف قال: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ ولم يقل: «فإن الله لا يرضى عنهم» ليدل ذلك على أن باب التوبة مفتوح، وأنهم مهما تابوا هم أو غيرهم، فإن الله يتوب عليهم، ويرضى عنهم.

وأما ما داموا فاسقين، فإن الله لا يرضى عنهم، لوجود المانع من رضاه، وهو خروجهم عن ما رضىه الله لهم من الإيمان والطاعة، إلى ما يغضبه من الشرك، والنفاق، والمعاصي.

وحاصل ما ذكره الله أن المنافقين المتخلفين عن الجهاد من غير عذر، إذا اعتذروا للمؤمنين، وزعموا أن لهم أعذاراً في تخلفهم، فإن المنافقين يريدون بذلك أن تعرضوا عنهم، وترضوا وتقبلوا عذرهم، فأما قبول العذر منهم والرضا عنهم، فلا حباً ولا كرامة لهم.

وأما الإعراض عنهم، فيعرض المؤمنون عنهم، إعراضهم عن الأمور الردية والرجس، وفي هذه الآيات، إثبات الكلام لله تعالى في قوله: ﴿قَدْ نَبَأْنَا اللَّهَ مِنْ أَخْبَارِكُمْ﴾ وإثبات الأفعال الاختيارية لله، الواقعة بمشيئته تعالى وقدرته في هذا، وفي قوله: ﴿وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ﴾ أخبر أنه سيراه بعد وقوعه، وفيها إثبات الرضا لله عن المحسنين، والغضب والسخط على الفاسقين.

خصال الأعراب وشدة كفرهم ونفاقهم

س: **وضح معنى قوله تعالى: (الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) ﴿١٧﴾.**

ج: المعنى - والله أعلم - الأعراب وهم سكان البادية ﴿أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا﴾ من كفار أهل المدينة ومنافقي أهل المدينة، أو بصفة أعم أشد كفراً ونفاقاً من أهل القرى المستقرة، وذلك لأنهم جمعوا بين الكفر والجهل، وكذا جمعوا بين النفاق والجهل، أما كفار أهل المدينة فلقر بهم في المسكن من رسول الله ﷺ ومن الصحابة رضوان الله عليهم، فاستفادوا من هديهم الظاهر، وإن لم يؤمنوا، لكنهم حاولوا التخلق بأخلاق المؤمنين ظاهراً، فالمرء يتأثر بجليسه، وكما قال القائل: إن النصراني الذي يعيش في بلاد المسلمين يختلف عن النصراني الذي يعيش في روسيا مثلاً، فالذي يعيش في بلاد المسلمين يستحي إذا قيل له ابتك ارتكبت الفاحشة، ويغضب لذلك، أما الذي يعيش في روسيا مثلاً فلا يلتفت ولا يبالي.

أما قوله تعالى: ﴿وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ﴾ أي وهم جديرون بأن يكونوا جهلة لكونهم بعيدين عن العلم الشرعي والهدي النبوي، فهم جديرون بأن يكونوا جهلة بحدود الله وبأوامر الله وبسنن الله ﷺ وفرائضه التي أنزل على رسوله ﷺ، والله عليم بالعباد وبأحوالهم، وعليم بكل شيء، حكيم فيما يشرع وحكيم فيما ينزل، وحكيم في كل شيء.

وبنحو هذا قال أهل العلم.

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره: الأعراب أشدُّ جحوداً لتوحيد الله، وأشدُّ نفاقاً، من أهل الحضر في القرى والأمصار. وإنما وصفهم جل ثناؤه بذلك، لجفائهم، وقسوة قلوبهم، وقلة مشاهدتهم لأهل الخير، فهم لذلك أقسى قلوباً، وأقلُّ علماً بحقوق الله. وقوله: ﴿وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ﴾، يقول: وأخلق أن لا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله، وذلك فيما قال قتادة: السنن.

وأورد بإسنادٍ حسن عن قتادة قوله: ﴿وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ﴾،

قال: هم أقل علماً بالسُّنن.

وقوله: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾، يقول: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾، بمن يعلم حدود ما أنزل على رسوله، والمنافق من خلقه، والكافر منهم، لا يخفى عليه منهم أحد، ﴿حَكِيمٌ﴾، في تدبيره إياهم، وفي حلمه عن عقابهم، مع علمه بسرائرهم وخداعهم أوليائه.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

أخبر تعالى أن في الأعراب كفاراً ومنافقين ومؤمنين، وأن كفرهم ونفاقهم أعظم من غيرهم وأشد، وأجدر، أي: أخرى ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله، كما قال الأعمش عن إبراهيم قال: جلس أعرابي إلى زيد بن صوحان وهو يحدث أصحابه، وكانت يده قد أصيبت يوم نهاوند، فقال الأعرابي: والله إن حديثك ليعجبني، وإن يدك لترينني فقال زيد: ما يُريك من يدي؟ إنها الشمال. فقال الأعرابي: والله ما أدري، اليمين يقطعون أو الشمال؟ فقال زيد بن صوحان صدق الله: ﴿الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ﴾.

وأورد حديث ابن عباس: عن النبي ﷺ قال: «من سكن البادية جفا، ومن اتبع الصيد غفل، ومن أتى السلطان افتتن»^(١).

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

ولما كانت الغلظة والجفاء في أهل البوادي لم يبعث الله منهم رسولاً وإنما كانت البعثة من أهل القرى، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجُلًا نُوحِيَ إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى﴾ [يوسف: ١٠٩]، ولما أهدى ذلك الأعرابي تلك الهدية لرسول الله ﷺ فردَّ عليه أضعافها حتى رضي، قال: «لقد هممت ألا أقبل هدية إلا من قُرشي، أو ثَقَفي أو أنصاري، أو دَوْسِي»^(٢)؛ لأن هؤلاء كانوا يسكنون المدن: مكة، والطائف، والمدينة، واليمن، فهم أطفأ أخلاقاً من الأعراب: لما في طباع الأعراب من الجفاء.

(١) أخرجه أبو داود (٢٨٥٩)، والترمذي (٢٢٥٦)، والنسائي (٤٣٢٠)، وأحمد (٣٥٧/١) وغيرهم، من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعاً، وفي رواية على الشك، وسنده فيه مقال.

(٢) له شواهد يصحح بها، أخرجه الترمذي (٣٩٤٥)، وأحمد (٧٩١٨)، وابن حبان (٦٣٨٣) من حديث أبي هريرة مرفوعاً.

وأورد الحافظ ابن كثير أيضًا حديث عائشة رضي الله عنها قالت:

قدم ناس من الأعراب على رسول الله ﷺ فقالوا: أتقبلون صبيانكم؟ قالوا: نعم. قالوا: ولكننا والله ما نقبل. فقال رسول الله ﷺ: «وَأَمْلِكُ أَنْ كَانَ اللَّهُ نَزَعَ مِنْكُمْ الرَّحْمَةَ؟»^(١). وقال ابن نمير: «من قلبك الرحمة».

وقوله: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أي: عليم بمن يستحق أن يعلمه الإيمان والعلم، ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما قسم بين عباده من العلم والجهل والإيمان والكفر والنفاق، لا يسأل عما يفعل، لعلمه وحكمته.

قال القرطبي رحمته الله:

قوله تعالى: ﴿أَشَدُّ﴾ أصله أشدد؛ وقد تقدم. ﴿كُفْرًا﴾ نصب على البيان. ﴿وَفَنَاقًا﴾ عطف عليه. ﴿وَأَجْدَرُ﴾ عطف على أشد، ومعناه أخلق؛ يقال: فلان جدير بكذا أي خليق به، وأنت جدير أن تفعل كذا، والجمع جدراء وجدرون. وأصله من جدر الحائط وهو رفعه بالبناء. فقوله: هو أجدر بكذا أي أقرب إليه وأحق به. ﴿أَلَّا يَعْلَمُوا﴾ أي بالآلة يعلموا. والعرب: جيل من الناس، والنسبة إليهم عربي بين العروبة، وهم أهل الأمصار. والأعراب منهم سكان البادية خاصة. وجاء في الشعر الفصيح أعراب. والنسبة إلى الأعراب أعرابي لأنه لا واحد له، وليس الأعراب جمعًا للعرب كما كان الأنباط جمعًا لنبط؛ وإنما العرب اسم جنس. والعرب العاربة هم الخلف من العرب، وأخذ من لفظه وأكد به؛ كقولك: ليل لائل. وربما قالوا: العرب العرباء. وتعرب أي: تشبه بالعرب. وتعرب بعد هجرته أي: صار أعرابيًا. والعرب المستعربة هم الذين ليسوا بخلص، وكذلك المتعربة، والعربية هي هذه اللغة. ويعرب بن قحطان أول من تكلم بالعربية، وهو أبو اليمن كلهم. والعرب والعرب واحد؛ مثل العجم والعجم. والعريب تصغير العرب؛ قال الشاعر:

ومكن الضباب طعام العريب ولا تشتهيه نفوس العجم

إنما صغرهم تعظيمًا؛ كما قال: أنا جذيلها المحك، وعذيقها المرجب كله عن

(١) مسلم (٢٣١٧).

الجوهري. وحكى القشيري وجمع العربي العرب، وجمع الأعرابي أعراب وأعراب. والأعرابي إذا قيل له: يا عربي فرح، والعربي إذا قيل له: يا أعرابي غضب. والمهاجرون والأنصار عرب لا أعراب. وسميت العرب عربا لأن ولد إسماعيل نشؤوا من عربة وهي من تهامة فنسبوا إليها. وأقامت قريش بعربة وهي مكة، وانتشر سائر العرب في جزيرتها.

قال السعدي رحمه الله:

يقول تعالى: ﴿الْأَعْرَابُ﴾ وهم سكان البادية والبراري ﴿أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا﴾ من الحاضرة الذين فيهم كفر ونفاق، وذلك لأسباب كثيرة: منها: أنهم بعيدون عن معرفة الشرائع الدينية والأعمال والأحكام، فهم أحرى ﴿وَأَجْدَرُ أَنْ لَا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ﴾ من أصول الإيمان وأحكام الأوامر والنواهي، بخلاف الحاضرة، فإنهم أقرب لأن يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله، فيحدث لهم -بسبب هذا العلم- تصورات حسنة، وإرادات للخير، الذي يعلمون، ما لا يكون في البادية. وفيهم من لطافة الطبع والانقياد للداعي ما ليس في البادية، ويجالسون أهل الإيمان، ويخالطونهم أكثر من أهل البادية، فلذلك كانوا أحرى للخير من أهل البادية، وإن كان في البادية والحاضرة، كفار ومنافقون، ففي البادية أشد وأغلظ مما في الحاضرة. ومن ذلك أن الأعراب أحرص على الأموال، وأشح فيها.

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا وَيَرْمِزُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

ج: هذا، والله أعلم، بيان لحال بعض الأعراب، فهم في جملتهم كما بين الله أشد كُفْرًا ونِفَاقًا من كفار أهل المدينة ومنافقيها، ومنهم من يعتبر الصدقات التي يخرجها والنفقات التي يُلزم بها، يعتبر كل ذلك غرامات عليه مُلزم بدفعها، ولو أنه خَيْرٌ وكان بمحض إرادته ما أنفق شيئاً ولا أخرج شيئاً، كما قال تعالى في أمثالهم: ﴿وَلَا يَنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَرِهُونَ﴾، فهو إن أنفق، لا يحتسب أجراً ولا يرجو ثواباً من الله ﷻ، بل ينفق ما يتقى به اللوم، ويتقي به العقاب، وفي ذلك الوقت فإنه يتمنى أن لو جاء يوم لا ينفق فيه هذه النفقات، يتمنى أن لو جاء يوم تحلُّ بكم فيه المصائب

والبلايا ينتظر حلول المصائب بكم وأن يُدال عليكم عدوكم، فعلى هؤلاء المتربصين بكم ﴿دَائِرَةُ السَّوِّءِ﴾ أي: أن عذاب الله محيط بهم وهذا دعاء عليهم وإخبار بمآلهم أي: ودائرة السوء منعكسة عليهم.

وما يتمنونه لكم حالّ بهم، والله سميع لأقوال عباده ودعائهم، عليم بنواياهم، وما انطوت عليه صدورهم، وبنحو هذا قال أهل العلم.

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره: ومن الأعراب من يُعَدُّ نفقته التي ينفقها في جهاد مشرك، أو في معونة مسلم، أو في بعض ما ندب الله إليه عباده، ﴿مَعْرَمًا﴾، يعني: غرمًا لزمه، لا يرجو له ثوابًا، ولا يدفع به عن نفسه عقابًا، ﴿وَيَتَرَبَّصُّ بَكُمْ الدَّوَائِرُ﴾، يقول: ويتنظرون بكم الدوائر، أن تدور بها الأيام والليالي إلى مكروهٍ ومجيء محبوب، وغلبة عدوِّ لكم. يقول الله تعالى ذكره: ﴿عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوِّءِ﴾، يقول: جعل الله دائرة السوء عليهم، ونزول المكروه بهم لا عليكم أيها المؤمنون، ولا بكم، ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ﴾، لدعاء الداعين، ﴿عَلَيْكُمْ﴾ بتدبيرهم، وما هو بهم نازل من عقاب الله، وما هم إليه صائرون من أليم عقابه.

وأورد بإسنادٍ صحيح عن ابن زيد في قول الله: ﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُّ بِكُمُ الدَّوَائِرَ﴾، قال: هؤلاء المنافقون من الأعراب الذين إنما ينفقون رياءً اتقاءً أن يُغزَوْا أو يُحَارَبُوا أو يُقاتلوا، ويرون نفقتهم مغرمًا. ألا تراه يقول: ﴿وَيَتَرَبَّصُّ بِكُمُ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوِّءِ﴾؟

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله:

وأخبر تعالى أن منهم ﴿مَن يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ﴾ أي: في سبيل الله ﴿مَغْرَمًا﴾ أي: غرامة وخسارة، ﴿وَيَتَرَبَّصُّ بِكُمُ الدَّوَائِرَ﴾ أي: ينتظر بكم الحوادث والآفات، ﴿عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوِّءِ﴾ أي: هي منعكسة عليهم والسوء دائر عليهم، ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أي: سميع لدعاء عباده، عليم بمن يستحق النصر ممن يستحق الخذلان.

قال القرطبي رحمه الله:

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ﴾ ﴿مَن﴾ في موضع رفع بالابتداء. ﴿مَا يُنْفِقُ﴾

﴿مَعْرَمًا﴾ مفعولان ؛ والتقدير ينفقه، فحذفت الهاء لطول الاسم. ﴿مَعْرَمًا﴾ معناه غرمًا وخسرانًا ؛ وأصله لزوم الشيء ؛ ومنه: ﴿إِنَّكَ عَذَابُهَا كَانَ غَرَامًا﴾ [الفرقان: ٦٥] أي: لازمًا، أي: يرون ما ينفقونه في جهاد وصدقة غرمًا ولا يرجون عليه ثوابًا. ﴿وَيَتَرَبَّصُّ بِكُمْ الدَّوَائِرُ﴾ التربص الانتظار ؛ وقد تقدم. والدوائر جمع دائرة، وهي الحالة المتقلبة عن النعمة إلى البلية، أي: يجمعون إلى الجهل بالإنفاق سوء الدخلة وخبث القلب. ﴿عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ﴾ قرأه ابن كثير وأبو عمرو بضم السين هنا وفي الفتح، وفتحها الباقون. وأجمعوا على فتح السين في قوله: ﴿مَا كَانَ أَبُوكَ أَمْرًا سَوًّا﴾ [مريم: ٢٨]. والفرق بينهما أن السوء بالضم المكروه. قال الأخفش: أي: عليهم دائرة الهزيمة والشر. وقال الفراء: أي عليهم دائرة العذاب والبلاء. قالوا: ولا يجوز امرأ سوء بالضم ؛ كما لا يقال: هو امرؤ عذاب ولا شر. وحكي عن محمد ابن يزيد قال: السوء بالفتح الرداء. قال سيبويه: مررت برجل صدق، ومعناه برجل صلاح. وليس من صدق اللسان، ولو كان من صدق اللسان لما قلت: مررت بثوب صدق. ومررت برجل سوء ليس هو من سؤته، وإنما معناه مررت برجل فساد. وقال الفراء: السوء بالفتح مصدر سؤته سوءًا ومساءة وسوائية. قال غيره: والفعل منه ساء يسوء. والسوء بالضم اسم لا مصدر ؛ وهو كقولك: عليهم دائرة البلاء والمكروه.

قال السعدي رَحِمَهُ اللهُ:

فمنهم: ﴿مَنْ يَتَّخِذْ مَا يُنْفِقُ﴾ من الزكاة والنفقة في سبيل الله وغير ذلك، ﴿مَعْرَمًا﴾ أي: يراها خسارة ونقصًا، لا يحتسب فيها، ولا يريد بها وجه الله، ولا يكاد يؤديها إلا كرهاً.

﴿وَيَتَرَبَّصُّ بِكُمْ الدَّوَائِرُ﴾ أي: من عداوتهم للمؤمنين وبغضهم لهم، أنهم يودون وينتظرون فيهم دوائر الدهر، وفجائع الزمان، وهذا سينعكس عليهم فتكون (عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ).

وأما المؤمنون فلهم الدائرة الحسنة على أعدائهم، ولهم العقبي الحسنة، ﴿وَأَلَلَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ يعلم نيات العباد، وما صدرت عنه الأعمال، من إخلاص وغيره. وليس الأعراب كلهم مذمومين.

اس: وضع معنى قوله تعالى: (وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ) وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرْبًا عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَوَاتُ الرَّسُولِ أَلَّا إِنَّمَا قُرْبَةٌ لَهُمْ سَيَدْخُلُ لَهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٩﴾ .

ج: هذا والله أعلم، بيان لحال فريق آخر من الأعراب، فالأعراب، وإن كان في جملتهم أشد كفراً ونفاقاً من كفار القرى ومنافقي القرى إلا أن منهم أيضاً من هو مؤمن بالله، مصدق بوحدانية الله ﷻ، وأنه لا شريك له، وكذا مصدق بالثواب والعقاب يوم القيامة على الوجه الذي أخبر الله ﷻ، وهو مع إيمانه هذا يعتبر النفقة التي ينفقها قربةً يتقرب بها إلى الله ﷻ فيحتسبها عند الله ويرجو ثوابها، وكذا يعتبر دعوات الرسول ﷺ له من أقرب القربات التي يتبغى أجرها وثوابها، وذلك أنه إذا أنفق ودعا له رسول الله ﷺ، كما قال تعالى: ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ﴾ .

وكان صلوات الله وسلامه عليه إذا أتاه قوم بصدقتهم صلى عليهم، كما في الحديث «اللهم صل على آل أبي أوفى» .

فالأعراب المؤمنون يتخذون صلوات رسول الله عليهم قربة من القربات التي تقرّبهم من الله ﷻ فيسعدون بدعاء رسول الله ﷺ لهم وبصلاته عليهم ، فيبشرهم الله ﷻ ويخبرهم بأن الأمر كما احتسبتم من الأجر، وكما رجوتم من الثواب، فيقول تعالى: ﴿ أَلَا إِنَّمَا ﴾ أي: صلوات الرسول ونفقاتهم التي ينفقون طاعة لله واحتساباً ﴿ قُرْبَةٌ لَهُمْ ﴾ مقربة لهم من الله ﷻ .

ويبشرهم الله ﷻ بأنه: ﴿ سَيَدْخُلُ لَهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ ﴾ قيل في عداد عباده الذين رحمهم، وقيل في الجنة ويستغفر الله لهم ذنوبهم ﴿ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ ﴿ ذو ستر على عباده العصاة ﴾ رَحِيمٌ ﴿ بعباده المؤمنين، إذ أكرمهم بجنّته وسلمهم من النار ولم يؤاخذهم بذنوبهم ورحيم بهم في عموم أحوالهم .

وبنحو هذا قال أهل العلم.

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره: ومن الأعراب من يصدق الله ويقرّ بوحدانيته، وبالبعث بعد

الموت، والثواب والعقاب، وينوي بما ينفق من نفقة في جهاد المشركين، وفي سفره مع رسول الله ﷺ ﴿قُرْبَتٍ عِنْدَ اللَّهِ﴾، و(القربات) جمع «قربة»، وهو ما قرَّبه من رضى الله ومحبه، ﴿وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ﴾، يعني بذلك: ويتبع بنفقة ما ينفق، مع طلب قربته من الله، دعاء الرسول واستغفاره له.

وقال رحمه الله:

قال الله: ﴿أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ﴾، يقول تعالى ذكره: ألا إنَّ صلوات الرسول قربة لهم من الله.

وقد يحتمل أن يكون معناه: ألا إنَّ نفقته التي ينفقها كذلك، قربة لهم عند الله، ﴿سَيَدْخُلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ﴾، يقول: سيدخلهم الله فيمن رحمه فأدخله برحمته الجنة، ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ﴾، لما اجترأوا، ﴿رَحِيمٌ﴾، بهم مع توبتهم وإصلاحهم أن يعذبهم.

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله:

وقوله: ﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرْبَتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ﴾ هذا هو القسم الممدوح من الأعراب، وهم الذين يتخذون ما ينفقون في سبيل الله قربة يتقربون بها عند الله، ويتبعون بذلك دعاء الرسول لهم، ﴿أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ﴾ أي: ألا إن ذلك حاصل لهم، ﴿سَيَدْخُلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ﴾ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ.

قال القرطبي رحمه الله:

ومعنى: ﴿وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ﴾ استغفاره ودعاؤه. والصلاة تقع على ضروب؛ فالصلاة من الله جل وعز الرحمة والخير والبركة؛ قال الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ﴾ [الأحزاب: ٤٣]، والصلاة من الملائكة الدعاء، وكذلك هي من النبي ﷺ؛ كما قال: ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ﴾ [التوبة: ١٠٣] أي: دعاؤك تثبيت لهم وطمأنينة. ﴿أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ﴾ أي: تقربهم من رحمة الله، يعني: نفقاتهم.

قال السعدي رحمه الله:

بل منهم: ﴿مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ فيسلم بذلك من الكفر والنفاق ويعمل بمقتضى الإيمان.

﴿وَيَتَّخِذُوا مِنْ فَوْقِنَا ذُنُبَكَمْ دُخَانًا وَمِنْ تَحْتِهَا نَارُ خِزْيَانٍ خَالِدَةٍ عَلَيْهِمْ﴾ أي: يحتسب نفقته، ويقصد بها وجه الله تعالى والقرب منه ﴿وَيَجْعَلُهَا سَبِيلًا إِلَى﴾ ﴿وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ﴾ أي: دعائه لهم، وتبريكه عليهم، قال تعالى مبينًا لنفع صلوات الرسول: ﴿أَلَا إِنَّهَا فُزَّةٌ لَهُمْ﴾ ﴿تَقْرِبُهُمْ إِلَى اللَّهِ﴾ وتنمي أموالهم وتحل فيها البركة.

﴿سَيَذَخُلُهُمْ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ﴾ في جملة عباد الصالحين إنه غفور رحيم، فيغفر السيئات العظيمة لمن تاب إليه، ويعم عباد برحمته، التي وسعت كل شيء، ويخص عباد المؤمنين برحمة يوفقهم فيها إلى الخيرات، ويحميهم فيها من المخالفات، ويجزل لهم فيها أنواع المثوبات.

وفي هذه الآية دليل على أن الأعراب كأهل الحاضرة، منهم الممدوح ومنهم المذموم، فلم يذمهم الله على مجرد تعربهم وباديتهم، إنما ذمهم على ترك أوامر الله، وأنهم في مظنة ذلك.

ومنها: أن الكفر والنفاق يزيد وينقص ويغلظ ويخفف بحسب الأحوال.

ومنها: فضيلة العلم، وأن فاقده أقرب إلى الشر ممن يعرفه، لأن الله ذم الأعراب، وأخبر أنهم أشد كفرًا ونفاقًا، وذكر السبب الموجب لذلك، وأنهم أجدر أن لا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله.

ومنها: أن العلم النافع الذي هو أنفع العلوم، معرفة حدود ما أنزل الله على رسوله، من أصول الدين وفروعه، كمعرفة حدود الإيمان، والإسلام، والإحسان، والتقوى، والفلاح، والطاعة، والبر، والصلة، والإحسان، والكفر، والنفاق، والفسوق، والعصيان، والزنا، والخمر، والربا، ونحو ذلك. فإن في معرفتها يتمكن العارف من فعلها - إن كانت مأمور بها، أو تركها إن كانت محظورة - ومن الأمر بها أو النهي عنها.

ومنها: أنه ينبغي للمؤمن أن يؤدي ما عليه من الحقوق، منشرح الصدر، مطمئن النفس، ويحرص أن تكون مغنمًا، ولا تكون مغرمًا.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:

(وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ الْمُقَدَّمُونَ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُّوا عَلَى النَّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّوْنَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾ وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَىٰ اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾ وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسُدُّوْا إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾ وَآخَرُونَ مُّرْجُونَ لِلَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠٦﴾

[التوبة: ١٠٠-١٠٦].

س: وضح معنى ما يلي:

﴿وَالسَّيِّئُونَ الْأَوَّلُونَ﴾ - اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَنٍ - مَرَدُّوْا عَلَى الْإِنْفَاقِ - تُطَهِّرُهُمْ - وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا - وَصَلَّ عَلَيْهِمْ - سَكَنَ لَهُمْ - يَقْبَلُ التَّوْبَةَ - مُرْجُونَ لِأَمْرِ اللَّهِ ﴿﴾.

ج:

الكلمة	معناها
﴿وَالسَّيِّئُونَ الْأَوَّلُونَ﴾	المسارعون إلى الدخول في الإسلام في أوائل البعثة من الصحابة، وقيل غير ذلك، وسيأتي.
﴿اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَنٍ﴾	ساروا على نهجهم في الإيمان والعمل الصالح.
﴿مَرَدُّوْا عَلَى الْإِنْفَاقِ﴾	ثبتوا عليه ولم يتوبوا منه.
﴿تُطَهِّرُهُمْ﴾	تزيل عنهم الوسخ وشح النفس وأثر المعاصي.
﴿وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾	تسموهم إلى معالي الأمور، وإلى الدرجات العُلا، وترفعهم عن أهل الخسَّة والنفاق.
﴿وَصَلَّى عَلَيْهِمْ﴾	ادع لهم.
﴿سَكَنَ لَهُمْ﴾	وقار لهم وسكينة لهم - رحمة لهم - هدوء لهم.
﴿يَقْبَلُ التَّوْبَةَ﴾	يفتح باب التوبة لمن أراد الرجوع يقبل رجوع المذنبين إليه إذا هم رجعوا وتابوا وأنابوا .
﴿مُرْجُونَ لِأَمْرِ اللَّهِ﴾	مؤخرون لقضاء الله فيهم ولأمره في شأنهم بما يشاء.

س: من أول الصحابة إسلامًا؟

ج: لأهل العلم في ذلك أقوال:

أحدها: أنه أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الثاني: أنه علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الثالث: أنه زيد بن حارثة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الرابع: أنها خديجة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

وفصل بعض أهل العلم فقال: أول الرجال أبو بكر، وأول الصبيان علي، وأول الموالى زيد، وأول النساء، خديجة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أجمعين.

| السابقون الأولون |

س: من المعنيون بقوله تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ﴾؟

ج: لأهل العلم في ذلك أقوال:

أحدها: أنهم الذين أسلموا في أوائل بعثة النبي ﷺ، فدخل فيهم أبو بكر وعلي وزيد بن حارثة وخديجة وغيرهم.

الثاني: أنهم الذين أسلموا قبل هجرة النبي ﷺ من مكة إلى المدينة.

الثالث: أنهم الذين صلوا مع رسول الله ﷺ إلى القبلتين (إلى بيت المقدس وإلى الكعبة) أي: أسلموا قبل تحويل القبلة.

الرابع: الذين أسلموا قبل بدر.

الخامس: الذين أسلموا قبل بيعة الرضوان.

السادس: الذين أسلموا قبل فتح مكة، وقد قال تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَتْلٍ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدِ وَقَتْلِهِمْ وَكَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

السابع: أنهم الصحابة عموماً.

والله تعالى أعلم.

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ﴾؟

أجاب: اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ

فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾.

ج: المعنى، والله تعالى أعلم، والسابقون الأولون إلى الإسلام من المهاجرين من مكة إلى المدينة، ومن غيرها من البلاد إلى المدينة، وكذا السابقون الأولون من الأنصار الذين بادروا إلى الإسلام وسبقوا إليه، ويدخل فيهم المبايعون عند العقبة، وكذا الذين ساروا على درب هؤلاء في الإيمان والعمل الصالح ممن جاءوا بعدهم، هؤلاء جميعاً يخبر الله ﷻ بأنه رضي عنهم لإيمانهم، وجميل فعالهم وصلاحهم واستقامتهم وحسن استجابتهم، ورضوا عن الله ﷻ، رضوا به رباً ودينه الإسلام ديناً وبنبيه رسولاً، ورضوا أيضاً بجزائه الذي جازاهم به وأعداه لهم، ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ﴾ حدائق وبساتين ﴿تَجْرَى تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ لا يخرجون منها ولا يتحولون عنها أبداً، وذلك، أي: رضا الله ﷻ عنهم وإدخالهم الجنة الفوز العظيم.

وبنحو هذا قال أهل العلم.

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره: والذين سبقوا الناس أولاً إلى الإيمان بالله ورسوله، ﴿مِنَ الْمُهَاجِرِينَ﴾، الذين هاجروا قومهم وعشيرتهم، وفارقوا منازلهم وأوطانهم، ﴿وَالْأَنْصَارِ﴾، الذين نصرُوا رسول الله ﷺ على أعدائه من أهل الكفر بالله ورسوله، ﴿وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ﴾، يقول: والذين سلكوا سبيلهم في الإيمان بالله ورسوله، والهجرة من دار الحرب إلى دار الإسلام، طلب رضا الله، ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾.

واختلف أهل التأويل في المعنى بقوله: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ﴾.

فقال بعضهم: هم الذين بايعوا رسول الله ﷺ ببيعة الرضوان، أو أذكروا.

وأورد بإسنادٍ صحيح عن الشعبي قال - في شأن السابقين الأولين - المهاجرون الأولون الذين شهدوا بيعة الرضوان.

وفي رواية عنه عن الشعبي قال: (المهاجرون الأولون)، من كان قبل البيعة إلى البيعة، فهم المهاجرون الأولون، ومن كان بعد البيعة، فليس من المهاجرين الأولين. وفي بعض الروايات، وهي بيعة الحديبية.

قال الطبري:

وقال آخرون: بل هم الذين صلوا القبلتين مع رسول الله ﷺ.

وأورد الطبري ذلك عن غير واحد من أهل العلم.

ثم قال الطبري رحمه الله:

وأما الذين اتبعوا المهاجرين الأولين والأنصار بإحسان، فهم الذين أسلموا لله إسلامهم، وسلکوا منهاجهم في الهجرة والنصرة وأعمال الخير.

ثم قال الطبري رحمه الله:

ومعنى الكلام: رضي الله عن جميعهم لما أطاعوه، وأجابوا نبيّه إلى ما دعاهم إليه من أمره ونهيه، ورضي عنه السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار، والذين اتبعوهم بإحسان، لما أجزل لهم من الثواب على طاعتهم إياه، وإيمانهم به وبنبيه ﷺ، ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾، يدخلونها، ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾، لا يثين فيها، ﴿أَبَدًا﴾، لا يموتون فيها ولا يخرجون منها، ﴿ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.

وقال الحافظ ابن كثير رحمه الله:

فقد أخبر الله العظيم أنه قد رضي عن السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان: فإيا ويل من أبغضهم أو سبهم أو أبغض أو سب بعضهم، ولا سيما سيد الصحابة بعد الرسول وخيرهم وأفضلهم، أعني الصديق الأكبر والخليفة الأعظم أبا بكر بن أبي قحافة، رضي الله عنه، فإن الطائفة المخذولة من الرافضة يعادون أفضل الصحابة ويُبغضونهم ويسبُّونهم، عيادًا بالله من ذلك. وهذا يدل على أن عقولهم معكوسة، وقلوبهم منكوسة، فأين هؤلاء من الإيمان بالقرآن، إذ يسبُّون من رضي الله عنهم؟ وأما أهل السنة فإنهم يترضون عمن رضي الله عنه، ويسبون من سبه الله ورسوله، ويوالون من يوالي الله، ويعادون من يعادي الله، وهم متبعون لا مبتدعون، ويقتدون ولا يبتدعون ولهذا هم حزب الله المفلحون وعباده المؤمنون.

قال السعدي رحمه الله:

السابقون هم الذين سبقوا هذه الأمة وبدروها إلى الإيمان والهجرة، والجهاد، وإقامة دين الله.

﴿مِنَ الْمُهَاجِرِينَ﴾ ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ لِيَبْتَغُوا فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُوا

اللَّهُ وَرَسُولُهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿٨﴾ [الحشر: ٨].

﴿و﴾ من ﴿وَالْأَنْصَارِ﴾ ﴿وَالَّذِينَ نَبَّأُوا الدَّارَ وَالْآيْمَنَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾.

[الحشر: ٩]

﴿وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ يَحْسِنُونَ﴾ بالاعتقادات والأقوال والأعمال، فهؤلاء، هم الذين سلموا من الذم، وحصل لهم نهاية المدح، وأفضل الكرامات من الله. ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ ورضاه تعالى أكبر من نعيم الجنة، ﴿وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ الجارية التي تساق إلى سقي الجنان، والحدائق الزاهية الزاهرة، والرياض الفاخرة.

﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ لا ييغون عنها حولا ولا يطلبون منها بدلا لأنهم مهما تمنوه، أدركوه، ومهما أرادوه، وجدوه.

﴿ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ الذي حصل لهم فيه، كل محبوب للنفوس، ولذة للأرواح، ونعيم للقلوب، وشهوة للأبدان، واندفع عنهم كل محذور.

قال ابن الجوزي (زاد المسير):

قوله تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ﴾ فيهم ستة أقوال:

أحدها: أنهم الذين صلوا إلى القبلتين مع رسول الله ﷺ قاله أبو موسى الأشعري وسعيد بن المسيب وابن سيرين وقتادة.

والثاني: أنهم الذين بايعوا رسول الله ﷺ بيعة الرضوان وهي الحديدية قاله الشعبي.

والثالث: أنهم أهل بدر قاله عطاء بن أبي رباح.

والرابع: أنهم جميع أصحاب رسول الله ﷺ حصل لهم سبق بصحبته.

قال محمد بن كعب القرظي: إن الله قد غفر لجميع أصحاب النبي ﷺ وأوجب

لهم الجنة محسنهم ومسيئهم في قوله: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ﴾.

والخامس: أنهم السابقون بالموت والشهادة سبقوا إلى ثواب الله تعالى وذكره

الماوردي.

والسادس: أنهم الذين أسلموا قبل الهجرة ذكره القاضي أبو يعلى.

وقال رحمه الله:

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَنٍ﴾ من قال: إن السابقين جميع الصحابة، جعل هؤلاء تابعي الصحابة، وهم الذين لم يصحبوا رسول الله ﷺ. وقد روي عن ابن عباس أنه قال: والذين اتبعوهم بإحسان إلى أن تقوم الساعة. ومن قال: هم المتقدمون من الصحابة، قال: هؤلاء تبعوهم في طريقهم، واقتدوا بهم في أفعالهم، ففضل أولئك بالسبق وإن كانت الصلبة حاصلة لكل. وقال عطاء: اتباعهم إياهم بإحسان: أنهم يذكرون محاسنهم ويترحمون عليهم.

وقال أيضًا:

قوله تعالى: ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ يعم الكل. قال الزجاج: رضي الله أفعالهم، ورضوا ما جازاهم به.

|

الوعيد الشديد لأهل النفاق

س: ما المراد بقوله تعالى: ﴿سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ﴾، ما المراد بالمرتين، ومتى العذاب العظيم؟

ج: لأهل العلم في ذلك أقوال:

أحدها: أن المرة الأولى في الدنيا بما يُصيبهم فيها من قتل وأسر وسبي، وجوع وخوف ومرض وغير ذلك.

والمرة الثانية في القبر والعذاب العظيم يوم القيامة.

الثاني: أن المرتين كلتا هما في الدنيا، عذاب في الدنيا بالقتل والأسر، والثاني بالجوع والمرض والخوف.

والعذاب العظيم في الآخرة بالنار.

وهناك أقوال آخر اجتزأت منها بالذي ذكرت، والله أعلم.

اس: وضع معنى قوله تعالى: (وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُّوا عَلَى النَّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾).

ج: المعنى، والله تعالى أعلم، وممن حولكم يا أهل الإسلام حول مدينة رسول الله ﷺ التي أنتم فيها ساكنون، منافقون من الأعراب، وكذا في أوساطكم في المدينة أقوام من أهل النفاق وهؤلاء وأولئك مردوا على النفاق ثبتوا عليه ولم يتوبوا منه، والتزموه ديناً، فقوله: ﴿مَرَدُّوا عَلَى النَّفَاقِ﴾ عائدة على منافقي الأعراب ومنافقي أهل المدينة على السواء، فيكون المعنى وممن حولكم من الأعراب منافقون، ومن أهل المدينة أيضاً، وهؤلاء وأولئك مردوا على النفاق.

وإن قال قائل إن قوله: ﴿مَرَدُّوا عَلَى النَّفَاقِ﴾ عائد على منافقي المدينة فله وجه وهؤلاء، وأولئك لا تعلمهم يا رسول الله بل الله ﷻ يعلمهم، وسيعذبهم مرتين مرة في الدنيا ومرة في القبر، وقيل المرتين في الدنيا، وقد تقدم ﴿ثُمَّ يُرَدُّونَ﴾ يوم القيامة إلى عذاب عظيم.

وينحو هذا قال أهل العلم.

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره: ومن القوم الذين حول مدينتكم من الأعراب منافقون، ومن أهل مدينتكم أيضًا أمثالهم أقوامٌ منافقون.

وقوله: ﴿مَرَدُّوْا عَلَى الْفِتَاقِ﴾، يقول: مرُّوا عليه ودربوا به.

ومنه: «شيطانُ مارد، ومريد»، وهو الخبيث العاتي. ومنه قيل: «تمرّد فلان على ربه»، أي: عتّا، ومرنٌ على معصيته واعتادها.

وأورد بإسنادٍ صحيح عن ابن زيد في قوله: ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُّوْا عَلَى الْفِتَاقِ﴾، قال: أقاموا عليه، لم يتوبوا كما تاب الآخرون.

قال الطبري في قوله تعالى:

﴿لَا تَعْلَمُهُمْ﴾، يقول لنبیه محمد ﷺ: لا تعلم، يا محمد، أنت هؤلاء المنافقين الذين وصفتُ لك صفتهم ممن حولكم من الأعراب ومن أهل المدينة، ولكننا نحن نعلمهم.

وقوله: ﴿سَنُعَذِّبُهُمْ مَّرَّتَيْنِ﴾، يقول: سنُعَذِّبُ هؤلاء المنافقين مرتين، إحداهما في الدنيا، والأخرى في القبر.

ثم اختلف أهل التأويل في التي في الدنيا، ما هي؟

فقال بعضهم: هي فضيحتهم، فضحهم الله بكشف أمورهم، وتبيين سرائرهم للناس على لسان رسول الله ﷺ.

وقال آخرون: ما يصيبهم من السبي والقتل والجوع والخوف في الدنيا.

وقال آخرون: معنى ذلك: سنُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا في الدنيا، وعَذَابًا في الآخرة.

وقال آخرون: كان عذابهم إحدى المراتين، مصائبهم في أموالهم وأولادهم، والمرة الأخرى في جهنم.

وأورد بإسنادٍ صحيح عن ابن زيد: ﴿سَنُعَذِّبُهُمْ مَّرَّتَيْنِ﴾، قال: أما عذابٌ في الدنيا، فالأموال والأولاد، وقرأ قول الله: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾، [التوبة: ٥٥]، بالمصائب فيهم، هي لهم عذاب، وهي للمؤمنين أجر. قال: وعذاب في الآخرة، في النار، ﴿ثُمَّ يَرَدُّوْنَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾، قال: النار.

وقال آخرون: بل إحدى المراتين، الحدود، والأخرى: عذابُ القبر.

وأورد الطبري أقوالاً آخر ثم قال:

وأولى الأقوال في ذلك بالصواب عندي أن يقال: إن الله أخبر أنه يعذب هؤلاء الذين مردوا على النفاق مرتين، ولم يضع لنا دليلاً يوصل به إلى علم صفة ذنبك العذابين، وجائز أن يكون بعض ما ذكرنا عن القائلين ما أنبأنا عنهم. وليس عندنا علم بأي ذلك من أي. غير أن في قوله جل ثناؤه: ﴿ثُمَّ يُرْدُّوكَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾، دلالة على أن العذاب في المراتين كليهما قبل دخولهم النار. والأغلب من إحدى المراتين أنها في القبر.

وقوله: ﴿ثُمَّ يُرْدُّوكَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾ يقول: ثم يرد هؤلاء المنافقون، بعد تعذيب الله إياهم مرتين، إلى عذاب عظيم، وذلك عذاب جهنم.

وقال ابن كثير رحمه الله:

يخبر تعالى رسوله، صلوات الله وسلامه عليه، أن في أحياء العرب ممن حول المدينة منافقين، وفي أهل المدينة أيضاً منافقون ﴿مَرَدُّوْا عَلَىٰ الْنِفَاقِ﴾ أي: مرنوا واستمروا عليه: ومنه يقال: شيطان مريد ومارد، ويقال: تمرد فلان على الله، أي: عتا وتجبر.

وقوله: ﴿لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾ لا ينافي قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ لَأَرْبَنَّاكُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ الآية [محمد: ٣٠]؛ لأن هذا من باب التوسم فيهم بصفات يعرفون بها، لا أنه يعرف جميع من عنده من أهل النفاق والريب على التعيين. وقد كان يعلم أن في بعض من يخالطه من أهل المدينة نفاقاً، وإن كان يراه صباحاً ومساءً.

وقال السعدي في تفسيره:

يقول تعالى: ﴿وَمَنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ﴾ أيضاً منافقون ﴿مَرَدُّوْا عَلَىٰ الْنِفَاقِ﴾ أي: تمرنوا عليه، واستمروا وازدادوا فيه طغياناً. ﴿لَا تَعْلَمُهُمْ﴾ بأعيانهم فتعاقبهم، أو تعاملهم بمقتضى نفاقهم، لما لله في ذلك من الحكمة الباهرة.

﴿نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَّرَّتَيْنِ﴾ يحتمل أن التشية على بابها، وأن عذابهم عذاب في

الدنيا، وعذاب في الآخرة.

ففي الدنيا ما ينالهم من الهم والغم، والكراهة لما يصيب المؤمنين من الفتح والنصر، وفي الآخرة عذاب النار وبئس القرار.

ويحتمل أن المراد سنغلظ عليهم العذاب، ونضاعفه عليهم ونكرره.

قال الشنقيطي (أضواء البيان):

قوله تعالى: (وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُّوا عَلَى النَّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ) .

صرح في هذه الآية الكريمة أن من الأعراب، ومن أهل المدينة، منافقين لا يعلمهم رسول الله ﷺ، وذكر تعالى نظير ذلك عن نوح في قوله عنه. ﴿قَالَ وَمَا عَلِمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الشعراء: ١١٢] الآية.

وذكر نظيره عن شعيب - عليهم كلهم صلوات الله وسلامه - في قوله: ﴿يَقِيْتُ اللَّهَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾ [هود: ٨٦] . اهـ.

وقد أطلع الله نبيه على بعض المنافقين كما تقدم في الآيات الماضية، وقد أخبر صاحبه حذيفة بن اليمان رضي الله عنه، بشيء من ذلك، كما هو معلوم.

|

الذين خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً

س: وضع معنى قوله تعالى: ﴿وَأَخْرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَىٰ اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (١٠٤).

ج: المعنى، والله أعلم، وآخرون غير الذين ذكرناهم من منافقي الأعراب ومن أهل المدينة، الذين مردوا على النفاق، آخرون غير هؤلاء اعترفوا بذنوبهم وأقروا بها وطلبوا من الله أن يغفرها لهم، وهؤلاء لهم أعمالٌ صالحة، ولكن لهم أعمال سيئة أيضاً، فصدر منهم عمل صالح ومن هذا العمل الصالح توبتهم ورجوعهم إلى الله، وصدر منهم عمل سيئ من المعاصي، والتي منها التخلف عن الخروج مع رسول الله ﷺ فهؤلاء عسى الله أن يتوب عليهم، أي: سيتوب الله عليهم، فإن عسى من الله واجب، أي: أوجبه الله على نفسه، كما قال بعض العلماء: إن الله ﴿غَفُورٌ﴾ ذو مغفرة للذنوب وستر عليها ﴿رَّحِيمٌ﴾ بعباده المؤمنين التائبين.

وبنحو هذا قال العلماء.

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره: ومن أهل المدينة منافقون مردوا على النفاق، ومنهم ﴿وَأَخْرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ﴾، يقول: أقرُّوا بذنوبهم، ﴿خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا﴾، يعني جل ثناؤه بالعمل الصالح الذي خلطوه بالعمل السيئ: اعترفهم بذنوبهم، وتوبتهم منها، والآخر السيئ: هو تخلفهم عن رسول الله ﷺ، حين خرج غازياً، وتركهم الجهاد مع المسلمين.

ثم قال في قوله تعالى:

﴿عَسَىٰ اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾، يقول: لعل الله أن يتوب عليهم، و﴿عَسَىٰ﴾ من الله واجب، وإنما معناه: سيتوب الله عليهم، ولكنه في كلام العرب على ما وصفت، ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، يقول: إن الله ذو صفح وعفو لمن تاب عن ذنوبه، وساتر له عليها، ﴿رَّحِيمٌ﴾، به أن يعذبه بها.

وقال ابن كثير رحمه الله:

لما بيّن تعالى حال المنافقين المتخلفين عن الغزاة رغبة عنها وتكذيباً وشكاً، شرع في بيان حال المذنبين الذين تأخروا عن الجهاد كسلاً وميلاً إلى الراحة، مع إيمانهم وتصديقهم بالحق، فقال: ﴿وَأَخْرُؤْنَ أَعْرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ﴾ أي: أقرّوا بها واعترفوا فيما بينهم وبين ربّهم، ولهم أعمال آخر صالحة، خلطوا هذه بتلك، فهؤلاء تحت عفو الله وغفرانه.

وهذه الآية - وإن كانت نزلت في أناس معينين - إلا أنها عامة في كل المذنبين الخطائين المخلطين المتلوّثين.

وأورد ما أخرجه البخاري^(١) من حديث سمرة بن جندب قال: قال رسول الله ﷺ لنا: «أتاني الليلة آتيان فابتعثاني فانتبهينا إلى مدينة مبنية بلبن ذهب ولبن فضة، فتلقانا رجال شطّر من خلقهم كأحسن ما أنت راء، وشطّر كأقبح ما أنت راء، قالوا لهم: اذهبوا ففقموا في ذلك النهر. فوقعوا فيه، ثم رجعوا إلينا قد ذهب ذلك السوء عنهم، فصاروا في أحسن صورة، قالوا لي: هذه جنة عدن، وهذا منزلك. قالوا: أما القوم الذين كانوا شطّروا منهم حسن وشطّروا منهم قبيح، فإنهم خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً، فتجاوز الله عنهم».

وقال ابن الجوزي في (زاد المسير):

قوله تعالى: ﴿خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا﴾ قال ابن جرير: وضع الواو مكان الباء والمعنى بآخر سيئاً كما تقول: خلطت الماء واللبن.

وفي ذلك العمل قولان:

أحدهما: أن العمل الصالح ما سبق من جهادهم والسيئ التأخر عن الجهاد قاله السدي.

والثاني: أن العمل الصالح توبتهم والسيئ تخلفهم ذكره الفراء وفي قوله عسى قولان:

أحدهما: أنه واجب من الله تعالى قاله ابن عباس.

والثاني: أنه ترديد لهم بين الطمع والإشفاق وذلك يصد عن اللهو والإهمال.

(١) البخاري (٤٦٧٤).

وقال السعدي رحمه الله:

يقول تعالى: ﴿وَأَخْرُونَ﴾ ممن بالمدينة ومن حولها، بل ومن سائر البلاد الإسلامية، ﴿اعترفوا بذنوبهم﴾ أي: أقرروا بها، وندموا عليها، وسعوا في التوبة منها، والتطهر من أدرانها.

﴿خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا﴾ ولا يكون العمل صالحًا إلا إذا كان مع العبد أصل التوحيد والإيمان، المخرج عن الكفر والشرك، الذي هو شرط لكل عمل صالح، فهو لاء خلطوا الأعمال الصالحة، بالأعمال السيئة، من التجرؤ على بعض المحرمات، والتقصير في بعض الواجبات، مع الاعتراف بذلك والرجاء، بأن يغفر الله لهم، فهو لاء ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ وتوبته على عبده نوعان:

الأول: التوفيق للتوبة. **والثاني:** قبولها بعد وقوعها منهم.

﴿إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أي: وصفه المغفرة والرحمة اللتان لا يخلو مخلوق منهما، بل لا بقاء للعالم العلوي والسفلي إلا بهما، فلو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ما ترك عليها من دابة.

﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [فاطر: ٤١].

ومن مغفرته أن المسرفين على أنفسهم الذين قطعوا أعمارهم بالأعمال السيئة، إذا تابوا إليه وأنابوا ولو قبيل موتهم بأقل القليل، فإنه يعفو عنهم، ويتجاوز عن سيئاتهم، فهذه الآية، دالة على أن المخلط المعترف النادم، الذي لم يتب توبة نصوحًا، أنه تحت الخوف والرجاء، وهو إلى السلامة أقرب.

وأما المخلط الذي لم يعترف ولم يندم على ما مضى منه، بل لا يزال مصرًّا على الذنوب، فإنه يخاف عليه أشد الخوف.

س: هل صح لقوله تعالى: ﴿وَأَخْرُونَ اعترفوا بذنوبهم...﴾ سبب نزول؟

ج: لم أقف لها على سبب نزول بسند صحيح، وإن كان كثيرون من المفسرين ذكروا أنها نزلت في أبي لبابة ووردت بذلك عدة آثار لا يخلو سند كل واحد منها من

ضعف، منها ما أخرجه الطبري بسنده إلى الزهري^(١) قال: كان أبو لبابة ممن تخلف عن النبي ﷺ في غزوة تبوك، فربط نفسه بسارية، فقال: والله لا أحل نفسي منها، ولا أذوق طعاماً ولا شراباً، حتى أموت أو يتوب الله عليّ! فمكث سبعة أيام لا يذوق طعاماً ولا شراباً، حتى خر مغشياً عليه، قال: ثم تاب الله عليه، ثم قيل له: قد تيب عليك يا أبا لبابة! فقال: والله لا أحل نفسي حتى يكون رسول الله ﷺ هو يحلني! قال: فجاء النبي ﷺ فحله بيده. ثم قال أبو لبابة: يا رسول الله، إن من توبتي أن أهجر دار قومي التي أصبت فيها الذنب، وأن أنخلع من مالي كله صدقة إلى الله وإلى رسوله! قال: يجزيك يا أبا لبابة الثلث.

ا س: هل ورد عن رسول الله شيء فيمن خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً؟

ج: أخرج البخاري^(٢) من حديث سمرة بن جندب رضى الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يعني مما يكثر أن يقول لأصحابه هل رأى من أحد منكم من رؤيا، فذكر الحديث وفيه أنه رضى الله عنه قال: «أتاني الليلة آتيان وإنهما ابتعناني، وإنهما قالَا لي: انطلق، وإني انطلقت معهما..» فذكر الحديث وفيه:

«فَانْطَلَقْنَا فَانْتَهَيْنَا إِلَى رَوْضَةٍ عَظِيمَةٍ لَمْ أَرْ رَوْضَةً قَطُّ أَكْبَرَ مِنْهَا وَلَا أَحْسَنَ. قَالَ: قَالَ لِي: ارْقُ، فَارْتَقَيْنَا فِيهَا، فَانْتَهَيْنَا إِلَى مَدِينَةٍ مَبْنِيَّةٍ بِلَبْنٍ ذَهَبٍ وَلَبْنٍ فِضَّةٍ، فَاتَيْنَا بَابَ الْمَدِينَةِ، فَاسْتَفْتَحْنَا فَفُتِحَ لَنَا، فَدَخَلْنَاهَا فَتَلَقَّانَا فِيهَا رَجَالٌ شَطْرُ مَنْ خَلَقَهُمْ كَأَحْسَنِ مَا أَنْتَ رَأَى وَشَطْرُ مَا أَنْتَ رَأَى، قَالَ: قَالَا لَهُمْ: اذْهَبُوا فَقَعُوا فِي ذَلِكَ النَّهْرِ، قَالَ: وَإِذَا نَهْرٌ مُعْتَرِضٌ يَجْرِي كَأَنَّ مَاءَهُ الْمَحْضُ فِي الْبَيَاضِ فَذْهَبُوا فَوَقَعُوا فِيهِ، ثُمَّ رَجَعُوا إِلَيْنَا قَدْ ذَهَبَ ذَلِكَ السُّوءُ عَنْهُمْ فَصَارُوا فِي أَحْسَنِ صُورَةٍ».

.. فذكر الحديث وفيه: «وَأَمَّا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَانُوا شَطْرُ مَنْهُمْ حَسَنًا وَشَطْرُ قَبِيحًا فَإِنَّهُمْ قَوْمٌ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا تَجَاوَزَ اللَّهُ عَنْهُمْ».

ا س: هل صح لقوله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾ سبب نزول؟

ج: لا أعلم لها سبب نزول بسند صحيح، وإنما كل ما وقفت عليه من أسانيد

(١) وهذا مرسل، ومراسيل الزهري ضعيفة.

(٢) البخاري (٧٠٤٧).

بأسباب نزول ضعيفة ولا تصح، فمن ذلك ما أخرجه الطبري بسندٍ ضعيف عن ابن عباس قال: جاءوا بأموالهم، يعني أبا لبابة وأصحابه، حين أطلقوا، فقالوا: يا رسول الله هذه أموالنا فتصدق بها عنا، واستغفر لنا! قال: ما أمرت أن آخذ من أموالكم شيئاً! فأنزل الله: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾، يعني بالزكاة: طاعة الله والإخلاص، ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾، يقول: استغفر لهم.

وبسندٍ ضعيف عن سعيد بن جبير^(١) قال: الذين ربطوا أنفسهم بالسواري حين عفا عنهم: يا نبي الله! طهر أموالنا! فأنزل الله: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾، وكان الثلاثة إذا اشتكى أحدهم اشتكى الآخرين مثله، وكان عمي منهم اثنان، فلم يزل الآخر يدعو حتى عمي.

وبسندٍ حسن عن قتادة^(٢) قال: الأربعة: جد بن قيس، وأبو لبابة، وحرام، وأوس، هم الذين قيل فيهم: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ﴾، أي: وقار لهم، وكانوا وعدوا من أنفسهم أن ينفقوا ويجاهدوا ويتصدقوا.

وبسندٍ صحيح^(٣) عن ابن زيد في قوله: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ﴾، قال: هؤلاء ناس من المنافقين ممن كان تخلف عن النبي ﷺ في غزوة تبوك، اعترفوا بالنفاق، وقالوا: يا رسول الله، قد ارتبنا وناقنا وشككنا، ولكن توبة جديدة، وصدقة نخرجها من أموالنا! فقال الله لنبيه عليه الصلاة والسلام: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾، بعد ما قال: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ﴾، [التوبة: ٨٤].

ا س: هل الصدقة المذكورة في قوله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً﴾ صدقة فرض أم نفل؟

ج: ليس في الآية الكريمة ما يدل على شيء بعينه، والأولى إطلاقها، أي: أنها تشمل الفرض والنفل، والله أعلم.

(١) ومع ذلك فهو مرسل.

(٢) لكنه مرسل.

(٣) ولكنه مرسل.

من فوائد الصدقة

س: وضح معنى قوله تعالى: (خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٣﴾).

ج: المعنى، والله أعلم، خذ يا رسول الله من أصحابك من المؤمنين بك صدقة (قيل: صدقة الفرض وقيل صدقة تجود بها نفوسهم غير صدقة الفرض) والأولى التعميم، تطهرهم، تطهر بها أموالهم لأنها إذا بقيت في الأموال تلوثت الأموال، وكذا بأخذك الصدقة تطهر أصحابك من الذنوب والمعاصي، فإنهم إذا لم يدفعوها تلوثت قلوبهم وتدنسوا بسبب الذنب الناشئ عن منع الصدقة وكذا بأخذك الصدقة منهم ترفعهم عن أهل الخسة وأهل النفاق، وتسمو بأنفسهم إلى المعالي في الإيمان والفضائل ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾ ادع الله لهم إذا أتوك بالصدقة، وذلك كما كان رسول الله ﷺ يصنع إذا أتاه قوم بصدقتهم، كان يقبلها منهم، ويصل عليهم كما في الحديث اللهم صل على آل أبي أوفى^(١)، وذلك لما أتاه أبو أوفى بصدقته، ومن هنا أخذ بعض العلماء أن من يقبض الصدقة من قوم يستحب له أن يدعو لهم.

أما قوله تعالى: ﴿إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ﴾ أي إن دعائك يا رسول الله طمأنينة لقلوبهم ووقار وسكينة تحل بهم فإنهم يسعدوا بدعائك لهم، وكذلك فإن الله ﷻ يكرمهم بدعائك لهم وينزل عليهم مزيداً من السكينة والوقار والإيمان، والله سميع بالأقوال، وبكل شيء (عليم) بما انطوت عليه النفوس، وكذا عليم بكل شيء.

وبنحو ما ذكر قال أهل العلم.

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: يا محمد، خذ من أموال هؤلاء الذين اعترفوا بذنوبهم فتابوا منها، ﴿صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ﴾، من دنس ذنوبهم، ﴿وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾، يقول: وتنمّيهم وترفعهم عن خسيس منازل أهل النفاق بها، إلى منازل أهل الإخلاص، ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾، يقول: إن دعائك واستغفارك طمأنينة لهم، بأن الله قد عفا عنهم وقبل

(١) وسيأتي إن شاء الله.

توبتهم، ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾، يقول: والله سميع لدعائك إذا دعوت لهم، وبغير ذلك من كلام خلقه، ﴿عَلَيْكُمْ﴾، بما تطلب لهم بدعائك ربك لهم، وبغير ذلك من أمور عباده.

وقال الحافظ ابن كثير رحمه الله:

أمر الله تعالى رسوله ﷺ بأن يأخذ من أموالهم صدقة يطهرهم ويزكيهم بها، وهذا عام وإن أعاد بعضهم الضمير في ﴿أَمْوَالِهِمْ﴾ إلى الذين اعترفوا بذنوبهم وخلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً؛ ولهذا اعتقد بعض مانعي الزكاة من أحياء العرب أن دفع الزكاة إلى الإمام لا يكون، وإنما كان هذا خاصاً برسول الله ﷺ؛ ولهذا احتجوا بقوله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلَّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ﴾ وقد ردَّ عليهم هذا التأويل والفهم الفاسد الصديق أبو بكر وسائر الصحابة، وقتلوه حتى أدوا الزكاة إلى الخليفة، كما كانوا يؤدونها إلى رسول الله ﷺ، حتى قال الصديق: والله لو منعوني عقلاً - وفي رواية: عناقاً - كانوا يؤدونه إلى رسول الله ﷺ لأقاتلنهم على منعه (١).

وقوله: ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾ أي: ادع لهم واستغفر لهم، كما رواه مسلم في صحيحه، عن عبد الله بن أبي أوفى قال: كان رسول الله ﷺ إذا أتى بصدقة قوم صلى عليهم، فأتاه أبي بصدقته فقال: «اللهم صل على آل أبي أوفى» (٢).

ثم قال:

وقوله: ﴿إِنَّ صَلَاتَكَ﴾ قرأ بعضهم: (صلواتك) على الجمع، وآخرون قرءوا: ﴿إِنَّ صَلَاتَكَ﴾ على الأفراد. ﴿سَكَنٌ لَهُمْ﴾ قال ابن عباس: رحمة لهم. وقال قتادة: وقار. وقوله: ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أي: لدعائك ﴿عَلَيْكُمْ﴾ أي: بمن يستحق ذلك منك ومن هو أهل له.

قال السعدي (تيسير الكريم الرحمن):

(١) البخاري (١٤٥٧، ١٤٥٠).

(٢) البخاري (١٤٩٧)، ومسلم (١٠٧٨).

قال تعالى لرسوله ومن قام مقامه، أمر له بما يطهر المؤمنين، ويتمم إيمانهم: ﴿حُذِّمْنَ أَمْوَالُهُمْ صَدَقَةً﴾ وهي الزكاة المفروضة، ﴿تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾ أي: تطهرهم من الذنوب والأخلاق الرذيلة. ﴿وَتُزَكِّيهِمْ﴾ أي: تنميههم، وتزيد في أخلاقهم الحسنة، وأعمالهم الصالحة، وتزيد في ثوابهم الديني والأخروي، وتنمي أموالهم.

﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾ أي: ادع لهم، أي: للمؤمنين عمومًا وخصوصًا عندما يدفعون إليك زكاة أموالهم. ﴿إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ﴾ أي: طمأنينة لقلوبهم، واستبشار لهم، ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ﴾ لدعائك، سمع إجابة وقبول.

﴿عَلَيْهِمْ﴾ بأحوال العباد ونياتهم، فيجازي كل عامل بعمله، وعلى قدر نيته، فكان النبي ﷺ يمثل لأمر الله، ويأمرهم بالصدقة، ويبعث عماله لجبايتها، فإذا أتاه أحد بصدقة دعا له وبرك.

ففي هذه الآية، دلالة على وجوب الزكاة، في جميع الأموال، وهذا إذا كانت للتجارة ظاهرة، فإنها أموال تنمى ويكتسب بها، فمن العدل أن يواسى منها الفقراء، بأداء ما أوجب الله فيها من الزكاة.

وما عدا أموال التجارة، فإن كان المال ينمى، كالحبوب، والثمار، والماشية المتخذة للنماء والدر والنسل، فإنها تجب فيها الزكاة، وإلا لم تجب فيها، لأنها إذا كانت للقنية، لم تكن بمنزلة الأموال التي يتخذها الإنسان في العادة، مالا يتمول، ويطلب منه المقاصد المالية، وإنما صرف عن المالية بالقنية ونحوها.

وفيها: أن العبد لا يمكنه أن يتطهر ويتزكى حتى يخرج زكاة ماله، وأنه لا يكفرها شيء سوى أدائها، لأن الزكاة والتطهير متوقف على إخراجها.

وفيها: استحباب الدعاء من الإمام أو نائبه لمن أدى زكاته بالبركة، وأن ذلك ينبغي، أن يكون جهراً، بحيث يسمعه المتصدق فيسكن إليه.

ويؤخذ من المعنى، أنه ينبغي إدخال السرور على المؤمن بالكلام اللين، والدعاء له، ونحو ذلك مما يكون فيه طمأنينة، وسكون لقلبه.

س: **وضح معنى قوله تعالى:** ﴿الَّذِينَ يَخْلَفُونَ أَثَرِ اللَّهِ يُدْعَوْنَ إِلَى اللَّهِ فَهُمْ لَهَاكِبٌ وَالَّذِينَ يَأْتُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلِ وَجْهِهِ لَهُمْ أَجْرٌ كَثِيرٌ﴾ **الصدقات وأن الله هو التواب الرحيم** (١٠٤).

ج: المعنى، والله أعلم، ألم يعلم هؤلاء المذنبون وغيرهم من الذين تخلفوا عن الغزو معك، وغيرهم كذلك ألم يعلموا أن الله ﷻ يقبل رجوع من رجعوا إليه واستقاموا على طريقته، وندموا على ما فرطوا في جنبه، وعلى ما قصرُوا في امتثال أمره، فالله ﷻ يقبل توبتهم، ويقبل توبة التائبين عمومًا كما قد وردت بذلك الآيات والأحاديث، وكذا فإنه سبحانه يتقبل الصدقات التي طابت بها نفوس فاعليها ومؤديها وقد جاء بذلك الحديث عن رسول الله ﷺ، وفيه قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا تَصَدَّقَ أَحَدٌ بِصَدَقَةٍ مِنْ طَيِّبٍ، وَلَا يَقْبَلُ اللَّهُ إِلَّا الطَّيِّبَ، إِلَّا أَخَذَهَا الرَّحْمَنُ بِيَمِينِهِ، وَإِنْ كَانَتْ تَمَرَةً، فَتَرَبُّوْ فِي كَفِّ الرَّحْمَنِ حَتَّى تَكُونَ أَعْظَمَ مِنَ الْجَبَلِ، كَمَا يُرَبِّي أَحَدُكُمْ فَلَوْهُ أَوْ فَصِيلُهُ»^(١).

أما قوله: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ فمعناه، وأن الله كثير التوبة على التائبين، يفتح لهم دومًا أبوابها. ﴿الرَّحِيمُ﴾ بعباده المؤمنين.

قال الطبري رحمه الله:

وهذا خبرٌ من الله تعالى ذكره، أخبر به المؤمنين به: أن قبول توبة من تاب من المنافقين، وأخذ الصدقة من أموالهم إذا أعطوها، ليسا إلى نبي الله ﷺ، وأن نبي الله حين أبى أن يطلق من ربط نفسه بالسواري من المتخلفين عن الغزو معه، وحين ترك قبول صدقتهم بعد أن أطلق الله عنهم حين أذن له في ذلك، إنما فعل ذلك من أجل أن ذلك لم يكن إليه ﷺ، وأن ذلك إلى الله تعالى ذكره دون محمد، وأن محمدًا إنما يفعل ما يفعل من ترك وإطلاقٍ وأخذ صدقةٍ وغير ذلك من أفعاله بأمر الله. فقال جل ثناؤه: ألم يعلم هؤلاء المتخلفون عن الجهاد مع المؤمنين، الموثقون أنفسهم بالسواري، القائلون: «لا نُطْلَقُ أنفسنا حتى يكون رسول الله ﷺ هو الذي يطلقنا»، السائلون رسول الله ﷺ أخذ صدقة أموالهم، أن ذلك ليس إلى محمد، وأن ذلك إلى الله، وأن الله هو الذي يقبل توبة من تاب من عباده أو يردُّها، ويأخذ صدقة من تصدَّق منهم أو يردُّها عليه دون محمد، فيوجِّهوا توبتهم وصدقتهم إلى الله، ويقصدوا بذلك

(١) البخاري (٧٤٣٠)، ومسلم (١٠١٤).

قصد وجهه دون محمد وغيره، ويخلصوا التوبة له، ويريدوه بصدقته، ويعلموا أن الله هو التواب الرحيم؟، يقول: المراجع لعبده إلى العفو عنهم إذا رجعوا إلى طاعته، الرحيم بهم إذا هم أنابوا إلى رضاه من عقابه.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ:

وقوله: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ﴾ هذا تهيج إلى التوبة والصدقة اللتين كل منهما يحطُّ الذنوب ويمحصها ويمحقها. وأخبر تعالى أن كل من تاب إليه تاب عليه، ومن تصدق بصدقة من كسب حلال فإن الله تعالى يتقبلها بيمينه فيرببها لصاحبها، حتى تصير التمرة مثل أحد. كما جاء بذلك الحديث، عن رسول الله ﷺ.

قال السعدي رَحِمَهُ اللهُ:

أي: أما علموا سعة رحمة الله وعموم كرمه وأنه ﴿يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾ التائبين من أي ذنب كان، بل يفرح تعالى بتوبة عبده، إذا تاب أعظم فرح يقدر. ﴿وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ﴾ منهم أي: يقبلها، ويأخذها بيمينه، فيرببها لأحدهم كما يربي الرجل فله، حتى تكون التمرة الواحدة كالجبل العظيم، فكيف بما هو أكبر وأكثر من ذلك.

﴿وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ﴾ أي: كثير التوبة على التائبين، فمن تاب إليه تاب عليه، ولو تكررت منه المعصية مرارا. ولا يمل الله من التوبة على عباده، حتى يملوا هم، ويأبوا إلا النفار والشروء عن بابه، وموالاةهم عدوهم. ﴿الرَّحِيمُ﴾ الذي وسعت رحمته كل شيء، وكتبها للذين يتقون، ويؤتون الزكاة، ويؤمنون بآياته، ويتبعون رسوله.

الحث على صالح العمل

س: **وضح معنى قوله تعالى: (وَقُلْ أَعْمَلُوا فَسِيرَیَ اللَّهِ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّوكَ إِلَىٰ عِلِّيِّ الْقَبِيِّ وَالشَّهَادَةِ فَيُنْشِئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾).**

ج: المعنى، والله أعلم، وقل يا رسول الله لهؤلاء جميعاً اعملوا على طريقتكم التي أنتم عليها مقيمون فسيري الله عملكم ورسوله والمؤمنون، وهذا في الدنيا وسترجعون إلى الله ﷻ الذي يعلم السر وأخفى، والذي يعلم ما غاب وما ظهر، والذي يعلم ما تبدون وما تكتمون سترجعون إليه يوم القيامة فينبئكم بما كنتم تعملون في الدنيا.

هذا، وفي قوله تعالى: (وَقُلْ أَعْمَلُوا) ولمن توجّه الخطاب أقوال:

أحدها: أن هذا الخطاب موجه لأهل النفاق وأهل الكفر، وذلك على سبيل التهديد، كما قال تعالى: (وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَمِلُونَ ﴿١٢١﴾) وَأَنْظِرُوا إِنَّا مُنْظِرُونَ ﴿١٢٢﴾ وكما في الآية الأخرى: ﴿قُلْ يَقَوْمِ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَمِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾﴾.

الثاني: أنه موجهٌ إلى من أظهر التوبة والإنابة، فقل لهؤلاء اعملوا وسيظهر لنا أمركم إن وجدنا خيراً حمدناه لكم، وإن وجدنا شراً عاملناكم بمقتضاه، وهذا كقوله تعالى: ﴿قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سُدْعُونَ إِلَىٰ قَوْمِ أُولَىٰ بِأَسْ شَدِيدِ فَقِيلُوا نَهُمَ أَوْ يُسَلِّمُونَ فَإِنْ تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِنْ تَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦﴾﴾.

الثالث: أنه موجه للمؤمنين، وحث لهم على الاجتهاد في العبادة والعمل.

الرابع: أنه عام للجميع. والله أعلم.

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره لنبه محمد ﷺ: ﴿وَقُلْ﴾، يا محمد، لهؤلاء الذين اعترفوا لك بذنوبهم من المتخلفين عن الجهاد معك، ﴿أَعْمَلُوا﴾، لله بما يرضيه، من طاعته، وأداء فرائضه، ﴿فَسِيرَیَ اللَّهِ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ﴾، يقول: فسيري الله إن عملتم عملكم، ويراه رسوله والمؤمنون، في الدنيا، ﴿وَسَتُرَدُّوكَ﴾، يوم القيامة، إلى من يعلم سرائركم وعلايتكم، فلا يخفى عليه شيء من باطن أموركم وظواهرها، ﴿فَيُنْشِئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ

تَعْمَلُونَ ﴿١﴾، يقول: فيخبركم بما كنتم تعملون، وما منه خالصاً، وما منه رياءً، وما منه طاعةً، وما منه لله معصية، فيجازيكم على ذلك كله جزاءكم، المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته.

قال السعدي رحمه الله:

يقول تعالى: ﴿وَقُلْ﴾ لهؤلاء المنافقين: ﴿اعْمَلُوا﴾ ما ترون من الأعمال، واستمروا على باطلكم، فلا تحسبوا أن ذلك، سيخفى. ﴿فَسِيرَى اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ أي: لا بد أن يتبين عملكم ويتضح، ﴿وَسُئْرُدُّوكَ إِلَىٰ عِلِّيِّ الْعَالِ وَالشَّهَادَةُ فَيُنْشَكُّ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ من خير وشر، ففي هذا التهديد والوعيد الشديد على من استمر على باطله وطغيانه وغيه وعصيانه. ويحتمل أن المعنى: أنكم مهما عملتم من خير أو شر، فإن الله مطلع عليكم، وسيطلع رسوله وعباده المؤمنين على أعمالكم ولو كانت باطنة.

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَأَخْرُوتَ مُرْجُونَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ

عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٦﴾﴾.

ج: المعنى، والله أعلم، وآخرون من الذين تخلفوا عن الخروج للغزو معك غير الذين ذكر حالهم ممن تقدموا، مؤخرون ومؤجلون لقضاء الله فيهم ولأمر الله فيهم، إما يعذبهم، وهذا - والله - إن لم يتوبوا، وإما يتوب عليهم إن تفضل عليهم بالعفو، أو تابوا إلى الله، والله عليم بنفوس العباد وبأحوالهم يعلم من يستحق التوبة ممن يستحق العذاب، وعليم بكل شيء حكيم فيما يشرع، وحكيم فيما يفعل، وحكيم في كل شيء.

وبنحوه قال أهل العلم.

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره: ومن هؤلاء المتخلفين عنكم حين شخصتم لعدوكم، أيها المؤمنون، آخرون.

ورفع قوله: ﴿آخرون﴾، عطفًا على قوله: ﴿وَأَخْرُوتَ أَعْرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا﴾.

﴿وَأَخْرُوكَ مُرَجُونَ﴾، يعني: مُرَجُّونَ لأمر الله وقضائه.

يقال منه: «أرجأته أرجئه إرجاء وهو مرجأ»، بالهمز وترك الهمز، وهما لغتان معناهما واحد. وقد قرأت القراءة بهما جميعاً.

وقيل: عني بهؤلاء الآخرين، نفر ممن كان تخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، فندموا على ما فعلوا، ولم يعتذروا إلى رسول الله ﷺ عند مقدمه، ولم يوثقوا أنفسهم بالسواري، فأرجأ الله أمرهم إلى أن صحَّت توبتهم، فتاب عليهم وعفا عنهم. وأما قوله: ﴿إِمَّا يَعِدُّهُمْ﴾، فإنه يعني: إما أن يحجزهم الله عن التوبة بخذلانه، فيعذبهم بذنوبهم التي ماتوا عليها في الآخرة، ﴿وَأِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾، يقول: وإما يوفقهم للتوبة فيتوبوا من ذنوبهم، فيغفر لهم، ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾، يقول: والله ذو علم بأمرهم وما هم صائرون إليه من التوبة والمقام على الذنب، ﴿حَكِيمٌ﴾، في تدبيرهم وتدبير من سواهم من خلقه، لا يدخل حكمه خلل.

وقال ابن كثير رحمه الله:

قال ابن عباس ومجاهد وعكرمة، والضحاك وغير واحد: هم الثلاثة الذين خلفوا، أي: عن التوبة، وهم: مرارة بن الربيع، وكعب بن مالك، وهلال بن أمية، قعدوا عن غزوة تبوك في جملة من قعد، كسلا وميلا إلى الدعة والحفظ وطيب الثمار والظلال، لا شكا ونفاقا، فكانت منهم طائفة رَبطوا أنفسهم بالسواري، كما فعل أبو لبابة وأصحابه، وطائفة لم يفعلوا ذلك وهم هؤلاء الثلاثة المذكورون، فنزلت توبة أولئك قبل هؤلاء، وأرجئ هؤلاء عن التوبة حتى نزلت الآية الآتية، وهي قوله: ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ﴾ الآية [التوبة: ١١٧]، ﴿وَعَلَى الَّذِينَ خَلَفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾ الآية [التوبة: ١١٨]، كما سيأتي بيانه في حديث كعب بن مالك.

وقوله: ﴿إِمَّا يَعِدُّهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾ أي: هم تحت عفو الله، إن شاء فعل بهم هذا، وإن شاء فعل بهم ذاك، ولكن رحمته تغلب غضبه، وهو ﴿عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أي: عليم بمن يستحق العقوبة ممن يستحق العفو، حكيم في أفعاله وأقواله، لا إله إلا هو، ولا رب سواه.

قال السعدي رحمه الله:

أي: ﴿وَأَخْرُوتَ﴾ من المخلفين (مُرَجَّوْنَ) أي: مؤخرون ﴿لَا مَرَّ لِلَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾ ففي هذا التخويف الشديد للمتخلفين، والحث لهم على التوبة والندم. ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ يضع الأشياء مواضعها، وينزلها منازلها، فإن اقتضت حكمته أن يخذلهم ولا يوفقهم للتوبة، فعل ذلك.

كان أناس من المنافقين من أهل قباء اتخذوا مسجداً إلى جنب مسجد قباء، يريدون به المضارة والمشاقة بين المؤمنين، ويعدونه لمن يرجونه من المحاربين لله ورسوله، يكون لهم حصنا عند الاحتياج إليه، فبين تعالى خزيهم، وأظهر سرهم.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:

(وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٍ أُسَسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ ﴿١٨﴾ أَفَمَنْ أُسَسَ بُنْيَانُهُ عَلَى تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أُسَسَ بُنْيَانُهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارٍ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٩﴾ لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٠﴾)

[التوبة: ١٠٧-١١٠].

س: وضح معنى ما يلي:

﴿ضِرَارًا﴾ - وَلَا رِصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ - الْحُسْنَى - أُنِيسَ عَلَى التَّقْوَى - تَقُومَ فِيهِ -
يَنْظَهُرُوا - الْمُطَهِّرِينَ - شَفَا جُرْفٍ هَارٍ - رِبَّةٌ - تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ .

ج:

معناها	الكلمة
مضاراة لأهل الإسلام - كيدًا وتآمرًا	﴿ضِرَارًا﴾
انتظارًا - استقبالا لعدو الله	﴿وَلَا رِصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾
الجنة والثواب	﴿الْحُسْنَى﴾
وبناه المتقون - أسسه من يتبغي به وجه الله	﴿أُنِيسَ عَلَى التَّقْوَى﴾
تصلي فيه	﴿تَقُومَ فِيهِ﴾
يزيلوا أثر النجاسة بالماء - يستنجون بالماء	﴿يَنْظَهُرُوا﴾
المطهرين من الأحداث	﴿الْمُطَهِّرِينَ﴾
حافة بئرٍ تجرفه السيول فتنهـار به في نار جهنم	﴿شَفَا جُرْفٍ هَارٍ﴾
شكًا - نفاقًا - ارتيابًا	﴿رِبَّةٌ﴾
يموتوا - أو يتقطعوا ندمًا	﴿تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ﴾

قصة مسجد الضرار

س: وضح معنى قوله تعالى: (وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٧﴾).

ج: هذا، والله تعالى أعلم بيان لصنيع سيئ للإضلال عن سبيل الله، ولحرب الإسلام وأهله ولتفريق جماعة المسلمين، صنع صنع فريق من أهل النفاق، قاموا ببناء مسجد، وهذا في ظاهره عمل صالح، وأظهروا الرسول الله ﷺ أنهم بنوه للصلاة فيه وخاصة في الليالي الباردة والشتية، وللضعفة منهم ولأصحاب الأعذار وغيرهم، وأيضا لكون مسجد النبي ﷺ بعيد عنهم، هكذا أظهروا الرسول الله ﷺ، والله عليهم بنواياهم فهم في حقيقة الأمر ما ابتنوا لذلك إنما ابتنوا للإضرار بالإسلام وأهله، بنوه للإضرار برسول الله ﷺ وأهل الإيمان، لتفريق جماعة المسلمين، بنوه في أطراف المدينة ناحية الشام انتظار للكافر المنافق أبي عامر، والذي يقال له أبو عامر الراهب الذي تنصر وخرج هاربا إلى بلاد الروم وبدأ يعد العدة هنالك للانقضاض على المسلمين، ويجهز ما استطاع للفتك برسولهم الأمين ﷺ فأشار على فريق من أهل النفاق من أمثاله أن يبنوا مسجدا في أطراف المدينة لانتظاره هنالك كي يتمم مساعيه الشيطانية التي يكيد بها للإسلام وأهله فهذا تأويل قوله تعالى: ﴿وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ﴾ أي أن الذين بنوا هذا المسجد مسجد الضرار بنوه انتظارا لأبي عامر الراهب الذي حارب الله ورسوله أثناء وجوده بالمدينة قبل سفره وخروجه منها ثم إن أهل النفاق هؤلاء، وكما هو شأنهم وكما هي عادتهم أقسموا الأيمان الكاذبة لتبرير عملهم وموقفهم وبنائهم المسجد، فقالوا بعد قسمهم: ما أردنا إلا الحسنى، أي ما أردنا بعملنا هذا إلا الجنة ووجه الله ﷻ والمحافظة على الصلوات، فكذبهم الله في قولهم وادعائهم إذ قال: (وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ) في أيمانهم وفي دعواهم.

هذا مجمل ما ورد في هذه الآيات، وقد وردت بعض الآثار في هذا الصدد، وإن كان في كل من مفاريدها ضعف، ولكنها ولها طرق كثيرة، تشير إلى هذا المعنى الذي ذكرته، وهذه بعض أقوال العلماء في ذلك:

أورد الطبري بسندٍ فيه ضعف عن الزهري، ويزيد بن رومان وعبد الله بن أبي بكر، وعاصم بن عمر بن قتادة وغيرهم قالوا: أقبل رسول الله ﷺ، يعني: من تبوك، حتى نزل بذي أوان، بلد بينه وبين المدينة ساعة من نهار. وكان أصحاب مسجد الضرار قد كانوا أتوه وهو يتجهّز إلى تبوك، فقالوا: يا رسول الله، إنا قد بنينا مسجدًا لذي العلة والحاجة والليلة المطيرة والليلة الشتوية، وإنا نحب أن تأتينا فتصلي لنا فيه ! فقال: «إني على جناح سفر وحال شغل» - أو كما قال رسول الله ﷺ - «ولو قد قدمنا أتيناكم إن شاء الله، فصلينا لكم فيه». فلما نزل بذي أوان، أتاه خبر المسجد، فدعا رسول الله ﷺ مالك بن الدخشم، أخا بني سالم بن عوف، ومعن بن عدي - أو أخاه: عاصم بن عدي - أخا بني العجلان فقال: «انطلقا إلى هذا المسجد الظالم أهلته فاهدماه وحرّقاه!» فخرجا سريعين حتى أتيا بني سالم بن عوف، وهم رهط مالك بن الدخشم، فقال مالك لمعن: أنظرنني حتى أخرج إليك بنارٍ من أهلي ! فدخل إلى أهله، فأخذ سَعْفًا من النخل، فأشعل فيه نارًا، ثم خرجا يشتدان حتى دخلا المسجد وفيه أهله، فحرّقاه وهدماه، وتفرقوا عنه. ونزل فيهم من القرآن ما نزل: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا﴾، إلى آخر القصة. وكان الذين بنوه اثني عشر رجلاً خدام بن خالد، من بني عبيد بن زيد، أحد بني عمرو بن عوف، ومن داره أخرج مسجد الشقاق، وثعلبة بن حاطب، من بني عبيد، وهو إلى بني أمية بن زيد، ومعتب بن قشير، من بني ضبيعة بن زيد، وأبو حبيبة بن الأزعر، من بني ضبيعة بن زيد، وعباد بن حنيف، أخو سهل بن حنيف، من بني عمرو بن عوف، وجارية بن عامر، وابناه: مجمع بن جارية، وزيد بن جارية، ونبتل بن الحارث، وهم من بني ضبيعة، وبَحْرَج، وهو إلى بني ضبيعة، وبجاد بن عثمان، وهو من بني ضبيعة، ووديعه بن ثابت، وهو إلى بني أمية، رهط أبي لبابة بن عبد المنذر.

وكما أسلفنا فسنده ضعيف.

ثم قال الطبري رَحِمَهُ اللهُ:

فتأويل الكلام: والذين ابتنوا مسجدًا ضرارًا لمسجد رسول الله ﷺ، وكفرًا بالله لمحادثتهم بذلك رسول الله ﷺ، ويفرّقوا به المؤمنين، ليصلي فيه بعضهم دون مسجد

رسول الله ﷺ، وبعضهم في مسجد رسول الله ﷺ، فيختلفوا بسبب ذلك ويفترقوا، ﴿وَارْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ﴾، يقول: وإعدادًا له، لأبي عامر الكافر الذي خالف الله ورسوله، وكفر بهما، وقاتل رسول الله ﷺ، يعني من قبل بنائهم ذلك المسجد. وذلك أن أبا عامر هو الذي كان حزّب الأحزاب - يعني: حزّب الأحزاب لقتال رسول الله ﷺ - فلما خذله الله، لحق بالروم يطلب النصّر من ملكهم على نبي الله، وكتب إلى أهل مسجد الضرار يأمرهم ببناء المسجد الذي كانوا بنوه، فيما ذكر عنه، ليصلي فيه، فيما يزعم، إذا رجع إليهم. ففعلوا ذلك. وهذا معنى قول الله جل ثناؤه: ﴿وَارْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ﴾.

﴿وَلِيَحْلِفْنَ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى﴾، يقول جل ثناؤه: وليحلفن بانوه: ﴿إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى﴾، بينائنا، إلا الرفق بالمسلمين، والمنفعة والتوسعة على أهل الضعف والعلّة ومن عجز عن المصير إلى مسجد رسول الله ﷺ للصلاة فيه، وتلك هي الفعلة الحسنة، ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾، في حلفهم ذلك، وقيلهم: «ما بيناه إلا ونحن نريد الحسنى!»، ولكنهم بنوه يريدون بنائه السوأى، ضرارًا لمسجد رسول الله ﷺ، وكفرًا بالله، وتفريقًا بين المؤمنين، وإرصادًا لأبي عامر الفاسق.

وأورد الطبري بإسناد حسن عن قتادة قوله: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا﴾، الآية، عمد ناس من أهل النفاق، فابتنوا مسجدًا بقاء، ليضاهوا به مسجد رسول الله ﷺ، ثم بعثوا إلى رسول الله ليصلي فيه. ذكر لنا أنه دعا بقميصه ليأتيهم، حتى أطلعه الله على ذلك، وأما قوله: ﴿وَارْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾، فإنه كان رجلاً يقال له: «أبو عامر»، فر من المسلمين فلحق بالمشرّكين، فقتلوه بإسلامه. قال: إذا جاء صلى فيه، فأنزل الله: ﴿لَا نَقُصُّ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى﴾، الآية.

وبإسناد صحيح عن ابن زيد في قوله: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَارْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ﴾، قال: مسجد بقاء، كانوا يصلون فيه كلهم. وكان رجل من رؤساء المنافقين يقال له: «أبو عامر»، أبو: «حظلة غسيل الملائكة»، و«صيفي»، واحق. وكان هؤلاء الثلاثة من خيار المسلمين، فخرج أبو عامر هاربًا هو وابن عبد الليل، من ثقيف، وعلقمة بن علاثة، من قيس، من رسول

الله ﷺ حتى لحقوا بصاحب الروم. فأما علقمة وابن عبد ياليل، فرجعا فبايعا النبي ﷺ وأسلما. وأما أبو عامر، فتنصر وأقام. قال: وبنى ناسٌ من المنافقين مسجد الضرار لأبي عامر، قالوا: «حتى يأتيهم أبو عامر يصلي فيه»، وتفرقًا بين المؤمنين، يفرقون به جماعتهم، لأنهم كانوا يصلون جميعًا في مسجد قباء. وجاءوا يخدعون النبي ﷺ فقالوا: يا رسول الله، ربما جاء السيل، فيقطع بيننا وبين الوادي، ويحول بيننا وبين القوم، ونصلي في مسجدنا، فإذا ذهب السيل صلينا معهم! قال: وبنوه على النفاق. قال: وانهار مسجدهم على عهد رسول الله ﷺ.

وقال الحافظ ابن كثير رحمه الله:

سبب نزول هذه الآيات الكريمات: أنه كان بالمدينة قبل مَقْدَم رسول الله ﷺ إليها رجل من الخزرج يقال له: «أبو عامر الراهب»، وكان قد تَنَصَّر في الجاهلية وقرأ علم أهل الكتاب، وكان فيه عبادة في الجاهلية، وله شرف في الخزرج كبير. فلما قدم رسول الله ﷺ مهاجرًا إلى المدينة، واجتمع المسلمون عليه، وصارت للإسلام كلمة عالية، وأظهرهم الله يوم بدر، شَرِق اللعين أبو عامر بريقه، وبارز بالعداوة، وظاهر بها، وخرج فارًّا إلى كفار مكة من مشركي قريش فألبهم على حرب رسول الله ﷺ، فاجتمعوا بمن وافقهم من أحياء العرب، وقدموا عام أحد، فكان من أمر المسلمين ما كان، وامتحنهم الله ﷻ، وكانت العاقبة للمتقين.

وكان هذا الفاسق قد حفر حفائر فيما بين الصفين، فوقع في إحداهن رسول الله ﷺ، وأصيب ذلك اليوم، فجرح في وجهه وكُسِرَت رِباعِيَّتُه اليمنى السفلى، وشَجَّ رأسه، صلوات الله وسلامه عليه.

وتقدم أبو عامر في أول المبارزة إلى قومه من الأنصار، فخطبهم واستمالهم إلى نصره وموافقته، فلما عرفوا كلامه قالوا: لا أنعم الله بك عينا يا فاسق يا عدو الله، ونالوا منه وسبوه. فرجع وهو يقول: والله لقد أصاب قومي بعدي شر. وكان رسول الله ﷺ قد دعاه إلى الله قبل فراره، وقرأ عليه من القرآن، فأبى أن يسلم وتمرد، فدعا عليه رسول الله ﷺ أن يموت بعيدًا طريدًا، فنالته هذه الدعوة.

وذلك أنه لما فرغ الناس من أحد، ورأى أمر الرسول، صلوات الله وسلامه عليه

في ارتفاع وظهور، ذهب إلى هرقل، ملك الروم، يستنصره على النبي ﷺ، فوعده ومَنّاه، وأقام عنده، وكتب إلى جماعة من قومه من الأنصار من أهل النفاق والريب يعهدهم ويؤمنهم أنه سيقدم بجيش يقاتل به رسول الله ﷺ ويغلبه ويرده عما هو فيه، وأمرهم أن يتخذوا له معقلاً يقدم عليهم فيه من يقدم من عنده لأداء كُتُبِهِ ويكونَ مرصداً له إذا قدم عليهم بعد ذلك، فشرعوا في بناء مسجد مجاور لمسجد قباء، فبنوه وأحكموه، وفرغوا منه قبل خروج النبي ﷺ إلى تبوك، وجاءوا فسألوا رسول الله ﷺ أن يأتي إليهم فيصلي في مسجدهم، ليحتجوا بصلاته ﷺ فيه على تقريره وإثباته، وذكروا أنهم إنما بنوه للضعفاء منهم وأهل العلة في الليلة الشاتية، فعصمه الله من الصلاة فيه فقال ^(١): «إنا على سفر، ولكن إذا رجعنا إن شاء الله».

فلما قفل ﷺ راجعاً إلى المدينة من تبوك، ولم يبق بينه وبينها إلا يوم أو بعض يوم، نزل عليه الوحي بخبر مسجد الضُّرار، وما اعتمده بانوه من الكفر والتفريق بين جماعة المؤمنين في مسجدهم مسجد قباء، الذي أسس من أول يوم على التقوى. فبعث رسول الله ﷺ إلى ذلك المسجد من هدمه قبل مقدمه المدينة.

وقوله: ﴿وَلْيَحْلِفْنَ﴾ أي: الذين بنوه ﴿إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَ﴾ أي: ما أردنا ببنائه إلا خيراً ورفقاً بالناس، قال الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ أي: فيما قصدوا وفيما نَوَّوا، وإنما بنوه ضراراً للمسجد قُباء، وكفراً بالله، وتفريقاً بين المؤمنين، وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله ﴿مِنْ قَبْلُ﴾، وهو أبو عامر الفاسق، الذي يقال له: «الراهب» لعنه الله.

وقال السعدي رحمه الله:

﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا﴾ أي: مضارة للمؤمنين ولمسجدهم الذي يجتمعون فيه ﴿وَكُفْرًا﴾ أي: مقصدهم فيه الكفر، إذا قصد غيرهم الإيمان. ﴿وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: ليتشعبوا ويتفرقوا ويختلفوا، ﴿وَارْصَادًا﴾ أي: إعداداً ﴿لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ﴾ أي: إعانة للمحاربين لله ورسوله، الذين تقدم

(١) في سننه مقال.

حراهم واشتدت عداوتهم، وذلك كأبي عامر الراهب، الذي كان من أهل المدينة، فلما قدم النبي ﷺ وهاجر إلى المدينة، كفر به، وكان متعبداً في الجاهلية، فذهب إلى المشركين يستعين بهم على حرب رسول الله ﷺ.

فلما لم يدرك مطلوبه عندهم ذهب إلى قيصر بزعمه أنه ينصره، فهلك اللعين في الطريق، وكان على وعد وممالة، هو والمنافقون. فكان مما أعدوا له مسجد الضرار، فنزل الوحي بذلك، فبعث إليه النبي ﷺ من يهدمه ويحرقه، فهدم وحرق، وصار بعد ذلك مزبلة.

قال تعالى بعدما بين من مقاصدهم الفاسدة في ذلك المسجد ﴿وَلِيَحْلِفْنَ إِنَّ أَرْضَنَا﴾ في بنائنا إياه ﴿إِلَّا الْحُسْنَىٰ﴾ أي: الإحسان إلى الضعيف، والعاجز والضرير. ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ فشهادة الله عليهم أصدق من حلفهم.

قال القرطبي رحمه الله:

قوله تعالى: ﴿وَكُفِّرًا﴾ لما كان اعتقادهم أنه لا حرمة لمسجد قباء ولا لمسجد النبي ﷺ كفروا بهذا الاعتقاد؛ قاله ابن العربي. وقيل: ﴿وَكُفِّرًا﴾ أي بالنبي ﷺ وبما جاء به؛ قاله القشيري وغيره.

وقوله تعالى: ﴿وَقَرِيبًا بِبَيْتِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي يفرقون به جماعتهم ليتخلف أقوام عن النبي ﷺ. وهذا يدل على أن المقصد الأكبر والغرض الأظهر من وضع الجماعة تأليف القلوب والكلمة على الطاعة، وعقد الذمام والحرمة بفعل الديانة حتى يقع الأنس بالمخالطة، وتصفو القلوب من وضر الأحقاد.

وتفطن مالك رحمه الله من هذه الآية فقال: لا تصلي جماعتان في مسجد واحد بإمامين؛ خلافا لسائر العلماء. وقد روي عن الشافعي المنع؛ حيث كان تشتيتا للكلمة وإبطالا لهذه الحكمة وذريعة إلى أن نقول: من يريد الانفراد عن الجماعة كان له عذر فيقيم جماعته ويقدم إمامته فيقع الخلاف ويبطل النظام، وخفي ذلك عليهم. قال ابن العربي: وهذا كان شأنه معهم، وهو أثبت قدما منهم في الحكمة وأعلم بمقاطع الشريعة.

وقوله تعالى: ﴿وَارْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ يعني: أبا عامر الراهب؛ وسمي

بذلك لأنه كان يتعبد ويلتمس العلم فمات كافراً بقنسرين بدعوة النبي ﷺ؛ فإنه كان قال للنبي ﷺ: لا أجد قوماً يقاتلونك إلا قاتلتك معهم؛ فلم يزل يقاتله إلى يوم حنين. فلما انهزمت هوازن خرج إلى الروم يستنصر، وأرسل إلى المنافقين وقال: استعدوا بما استطعتم من قوة وسلاح، وابنوا مسجداً فإني ذاهب إلى قيصر فأت بجند من الروم لأخرج محمداً من المدينة؛ فبنوا مسجد الضرار. وأبو عامر هذا هو والد حنظلة غسيل الملائكة. والإرصاد: الانتظار؛ تقول: أرصدت كذا إذا أعددتته مرتقباً له به. قال أبو زيد: يقال رصدته وأرصدته في الخير، وأرصدت له في الشر. وقال ابن الأعرابي: لا يقال إلا أرصدت، ومعناه ارتقبت. وقوله تعالى: ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ أي من قبل بناء مسجد الضرار. ﴿وَلْيَحْلِفْنَ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَ﴾ أي: ما أردنا ببنائه إلا الفعلة الحسنى، وهي الرفق بالمسلمين كما ذكروا الذي العلة والحاجة. وهذا يدل على أن الأفعال تختلف بالمقصود والإرادات، ولذلك قال: ﴿وَلْيَحْلِفْنَ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَ﴾. ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ أي: يعلم خُبث ضمائرهم وكذبهم فيما يحلفون عليه.

وقال القرطبي رحمه الله:

قال علماؤنا رحمة الله عليهم: وإذا كان المسجد الذي يتخذ للعبادة وحض الشرع على بنائه فقال: «من بنى لله مسجداً ولو كمفحص قطاة بنى الله له بيتاً في الجنة» يهدم وينزع إذا كان فيه ضرر بغيره، فما ظنك بسواه بل هو أحرى أن يزال ويهدم حتى لا يدخل ضرر على الأقدم. وذلك كمن بنى فرناً أو رحى أو حفر بئراً أو غير ذلك مما يدخل به الضرر على الغير. وضابط هذا الباب: أن من أدخل على أخيه ضرراً منع. فإن أدخل على أخيه ضرراً بفعل ما كان له فعله في ماله فأضر ذلك بجاره أو غير جاره نظر إلى ذلك الفعل؛ فإن كان تركه أكبر ضرراً من الضرر الداخل على الفاعل قطع أكبر الضررين وأعظمهما حرمة في الأصول. مثال ذلك: رجل فتح كوة في منزله يطلع منها على دار أخيه وفيها العيال والأهل، ومن شأن النساء في بيوتهن إلقاء بعض ثيابهن والانتشار في حوائجهن، ومعلوم أن الاطلاع على العورات محرم وقد ورد النهي فيه فلحرمة الاطلاع على العورات رأى العلماء أن يغلقوا على فاتح الباب والكوة ما فتح مما له فيه منفعة وراحة وفي غلقه عليه ضرر لأنهم قصدوا إلى قطع أعظم الضررين،

إذ لم يكن بد من قطع أحدهما وهكذا الحكم في هذا الباب، خلافا للشافعي ومن قال بقوله. قال أصحاب الشافعي: لو حفر رجل في ملكه بئراً وحفر آخر في ملكه بئراً يسرق منها ماء البئر الأولى جاز؛ لأن كل واحد منهما حفر في ملكه فلا يمنع من ذلك. ومثله عندهم: لو حفر إلى جنب بئر جاره كنيفا يفسده عليه لم يكن له منعه؛ لأنه تصرف في ملكه. والقرآن والسنة يردان هذا القول. وبالله التوفيق.

ومن هذا الباب وجه آخر من الضرر منع العلماء منه، كدخان الفرن والحمام وغبار الأندر والدود المتولد من الزبل المبسوط في الرحاب، وما كان مثل هذا فإنه يقطع منه ما بان ضرره وخشي تماديه. وأما ما كان ساعة خفيفة مثل نفث الشياح والحصر عند الأبواب؛ فإن هذا مما لا غنى بالناس عنه، وليس مما يستحق به شيء؛ فنفي الضرر في منع مثل هذا أعظم وأكبر من الصبر على ذلك ساعة خفيفة. وللجوار على جاره في أدب السنة أن يصبر على أذاه على ما يقدر كما عليه ألا يؤذيه وأن يحسن إليه.

ومما يدخل في هذا الباب مسألة ذكرها إسماعيل بن أبي أويس عن مالك أنه سئل عن امرأة عرض لها، يعني مساً من الجن، فكانت إذا أصابها زوجها وأجنبت أو دنا منها يشتد ذلك بها. فقال مالك: لا أرى أن يقربها، وأرى للسلطان أن يحول بينه وبينها.

فساق وأبناؤهم صالحون

س: كم من شخصٍ فاسق وكافر وأبناؤه من أهل الفضل والصلاح، اذكر شيئاً في هذا الصدد؟

ج: من هذا ما يلي:

عبد الله بن أبي ابن سلول رأس المنافقين ولكن ابنه عبد الله بن عبد الله بن أبي من أهل الإيمان والفضل والصلاح.

عتبة بن ربيعة رأس من رؤوس الكفر، وهو من المبارزين يوم بدر من أهل الكفر، ولكن ولده أبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة من أهل الإيمان والفضل، وكان شهد بدرًا مع رسول الله ﷺ.

أبو عامر الراهب، فاسق، كافر، ولكن ابنه حنظلة غسيل الملائكة.
وقبل هؤلاء آزر، وهو كافر معاند، ولكن ابنه إبراهيم عليه السلام خليل الرحمن.
وغير هؤلاء كثير وكثير وكثير.

فهذا حتى لا يئأس أحدٌ من رحمة الله ولا يُعَيَّرَ شخص بأبيه الكافر أو المنافق، ما دام هو على الإيمان والصلاح، وقد قال تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾. والله أعلم.

إس: وضع معنى قوله تعالى: (لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَْسْجِدٍ أُسَسِّ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِيٍّ وَاخِرٍ أَهَقُ

أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَّخِذُوا اللَّهَ يَحِبُّ الْمُطَهِّرِينَ) ﴿١٠٨﴾.

ج: هذا، والله تعالى أعلم، نهى عن الصلاة في مسجد الضرار الذي ابتناه أهل النفاق للصد عن سبيل الله وللكيد للإسلام وأهله وانتظاراً لعدو الله أبي عامر الراهب لما ابتناه أهله أتوا رسول الله ﷺ كي يصلي فيه، فيتخذوا من صلاة رسول الله ﷺ إقراراً منه لهم على صنيعهم، فيلبسون بذلك على المسلمين، فأطلع الله ﷻ - والله الحمد - أطلع نبيه ﷺ على صنيعهم السيئ الذي صنعوه، وعلى نواياهم، ما انطوت عليه قلوبهم، ونهاه أن يصلي في هذا المسجد فقوله تعالى: ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾ أي: لا تقم فيه مصلياً ولا تدخله من الأصل، إنما الذي تدخله وتصلي فيه، وهو أحق بذلك مسجدٌ أسس على التقوى، أسسه بانيه أول ما أسسه متقياً الله في تأسيسه مبتغياً به وبتأسيسه وجه الله مُريدًا بتأسيسه توحيد الله، واتقاء الشرك به، هذا الذي يصلي فيه فهو الأحق بأن يصلي فيه، ففيه رجال من أهل الفضل أهل الصلاح يحبون أن يتطهروا من القاذورات وكذا من الشراكيات، وكذا من النفاق، والله يحب من هذا شأنه، يحب المتطهرين من القاذورات، وقد ورد أن أهل هذا المسجد، أهل قباء كانوا يستنجون بالماء، فجاء هذا الثناء في شأنهم، وكذا فإن ربنا يحب المتطهرين من الشرك والنفاق.

وهذه أقوال بعض أهل العلم في ذلك.

قال الطبري رحمته الله:

يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: لا تقم، يا محمد، في المسجد الذي بناه هؤلاء المنافقون، ضاراً وتفريقاً بين المؤمنين، وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله. ثم أقسم

جل ثناؤه فقال: ﴿لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ﴾، أنت، ﴿فِيهِ﴾. يعني بقوله: ﴿أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى﴾، ابتدئ أساسه وأصله على تقوى الله وطاعته، ﴿مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ﴾، ابتدئ في بنائه، ﴿أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ﴾، يقول: أولى أن تقوم فيه مصلياً. وقيل: معنى قوله: ﴿مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ﴾، مبدأ أول يوم كما تقول العرب: «لم أراه من يوم كذا»، بمعنى: مبدؤه، و«من أول يوم»، يراد به: من أول الأيام، كقول القائل: «لقيت كلَّ رجلٍ»، بمعنى كل الرجال. واختلف أهل التأويل في المسجد الذي عناه بقوله: (لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ).

فقال بعضهم: هو مسجد رسول الله ﷺ الذي فيه منبره وقبره اليوم.

وقال آخرون: بل عنى بذلك مسجد قباء.

قال الطبري:

وأولى القولين في ذلك عندي بالصواب قول من قال: هو مسجد الرسول ﷺ، لصحة الخبر بذلك عن رسول الله ﷺ.

وأورد الطبري الآثار بذلك، وقال:

في تأويل قوله: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ﴾ (١٠٨).

يقول تعالى ذكره: في حاضري المسجد الذي أسس على التقوى من أول يوم، رجال يحبون أن ينظفوا مقاعدهم بالماء إذا أتوا الغائط، والله يحب المتطهرين بالماء.

وقال ابن كثير رحمه الله:

وقوله: ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾ نهي من الله لرسوله، صلوات الله وسلامه عليه، والأمة تبع له في ذلك، عن أن يقوم فيه، أي: يصلي فيه أبداً.

ثم حثه على الصلاة في مسجد قباء الذي أسس من أول يوم بنائه على التقوى، وهي طاعة الله، وطاعة رسوله، وجمعاً لكلمة المؤمنين ومعقلاً وموثلاً للإسلام وأهله؛ ولهذا قال تعالى: ﴿لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ﴾ والسياق إنما هو في معرض مسجد قباء.

وقال الحافظ ابن كثير أيضاً:

وقد ورد في الحديث الصحيح: أن مسجد رسول الله ﷺ الذي هو في جوف المدينة، هو المسجد الذي أسس على التقوى. وهذا صحيح. ولا منافاة بين الآية وبين هذا؛ لأنه إذا كان مسجد قباء قد أسس على التقوى من أول يوم، فمسجد رسول الله ﷺ بطريق الأولى والأحرى؛ ولهذا قال الإمام أحمد بن حنبل في مسنده:

وقال السعدي رحمه الله:

﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾ أي: لا تصل في ذلك المسجد الذي بني ضارًا أبدًا. فالله يغنيك عنه، ولست بمضطر إليه.

﴿لَمَسْجِدٍ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ﴾ ظهر فيه الإسلام في «قباء» وهو مسجد «قباء» أسس على إخلاص الدين لله، وإقامة ذكره وشعائره دينه، وكان قديمًا في هذا عريقًا فيه، فهذا المسجد الفاضل ﴿أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ﴾ وتتعبّد، وتذكر الله تعالى فهو فاضل، وأهله فضلاء، ولهذا مدحهم الله بقوله: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَّخِذُوا مِنْ الذُّنُوبِ، وَيَتَطَهَّرُوا مِنَ الْأَوْسَاحِ، وَالنَّجَاسَاتِ وَالْأَحْدَاثِ.

ومن المعلوم أن من أحب شيئًا لا بد أن يسعى له ويجتهد فيما يحب، فلا بد أنهم كانوا حريصين على التطهر من الذنوب والأوساخ والأحداث، ولهذا كانوا ممن سبق إسلامه، وكانوا مقيمين للصلاة، محافظين على الجهاد، مع رسول الله ﷺ، وإقامة شرائع الدين، وممن كانوا يتحرزون من مخالفة الله ورسوله.

وسألهم النبي ﷺ بعدما نزلت هذه الآية في مدحهم عن طهارتهم، فأخبروه أنهم يتبعون الحجارة الماء، فحمدهم على صنيعهم.

﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهِّرِينَ﴾ الطهارة المعنوية، كالتنزه من الشرك والأخلاق الرذيلة، والطهارة الحسية كإزالة الأنجاس ورفع الأحداث.

المسجد المؤسس على التقوى

س: ما المسجد الذي أسس على التقوى من أول يوم؟

ج: لأهل العلم في ذلك قولان:

أحدهما: أنه مسجد رسول الله ﷺ وذلك لوجود النص بذلك، فقد أخرج مسلم من طريق أبي سلمة بن عبد الرحمن قال: مرَّ بي عبد الرحمن بن أبي سعيد الخدريّ. قال: قلتُ له: كيف سمعتَ أباك يذكرُ في المسجد الذي أسس على التقوى؟ قال: قال أبي: دخلتُ على رسول الله ﷺ في بيتٍ بعض نساءه، فقلتُ: يا رسول الله! أيُّ المسجدين الذي أسس على التقوى؟ قال: فأخذ كفاً من حصباء فضرب به الأرض. ثم قال: «هُوَ مَسْجِدُكُمْ هَذَا» (لِمَسْجِدِ الْمَدِينَةِ) قال: فقلتُ: أشهدُ أنني سمعتُ أباك هكذا يذكرُهُ^(١).

والثاني: أنه مسجد قباء، ومن الأدلة على ذلك قوله تعالى: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا﴾.

وقد ورد في ذلك ما سيأتي قريباً من استنجاة أهل قباء بالماء.

ولا يمنع أن يكون المسجد الذي أسس على التقوى من أول يوم هو مسجد رسول الله ﷺ لوجود النص بذلك، ولكن هذا لا يعني أن غيره لم يؤسس على التقوى فكلا المسجدين أسس على التقوى، وبالله التوفيق، والعلم عند الله.

(١) مسلم (١٣٩٨).

فضل مسجد قباء

س: اذكر بعض الوارد في فضل مسجد قباء.

ج: من ذلك ما يلي:

ما أخرجه البخاري^(١) ومسلم من حديث ابن عمر أن رسول الله ﷺ كان يزور قباء، راكباً و ماشياً.

وفي رواية عند مسلم فيصلي فيه ركعتين وفي بعض الروايات من حديث ابن عمر **رضي الله عنه**: كان النبي ﷺ يأتي قباء كل سبت ماشياً وراكباً وكان عبد الله **رضي الله عنه** يفعله^(٢).

وقد ورد في الباب حديث في أسانيده مقال، ألا وهو «صلاة في مسجد قباء تعدل عمرة»، وفي كل أسانيده ضعف^(٣).

| وجه الثناء على أهل المسجد المؤسس على التقوى

س: ما الصنيع الذي صنعه أهل المسجد الذي أسس على التقوى حتى أثنى عليهم

هذا الثناء ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ﴾؟

ج: ورد في ذلك أنهم كانوا يستنجون بالماء، أخرج الإمام أحمد^(٤) بسند حسن لشواهد من حديث محمد بن عبد الله بن سلام، قال: قدم رسول الله ﷺ يعني قباء، فقال: «إن الله ﷻ قد أثنى عليكم في الطهور خيراً أفلا تخبروني؟»، يعني قوله تعالى: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا﴾. فقالوا: يا رسول الله، إنا نجد مكتوباً علينا في التوراة الاستنجاء بالماء.

حُبُّ الله ﷻ للمتطهرين ظاهراً وباطناً

س: ربنا ﷻ يحب المتطهرين من الذنوب والمتطهرين من النجاسات، دلل على

ذلك.

(١) البخاري (١١٩٤)، ومسلم (١٣٩٩).

(٢) البخاري (١١٩٣).

(٣) أخرجه أحمد (١٥٩٨١)، والنسائي (٦٦٩)، وعبد بن حميد، وابن أبي شيبه (٧٦١٠)، (١٦٤١)، وغيرهم.

(٤) أحمد (٦/٦) بسند فيه شهر بن حوشب وفيه ضعف، لكن للحديث شواهد يُحسن بها، وإن كانت لا تخلو من مقال هي الأخرى، انظر ابن خزيمة (٨٣/١)، وابن أبي حاتم في التفسير (١٠٠٧٩)، والطبري (١٧٢٢٧)، والجزء الذي يحسن هو المتعلق بالاستنجاء.

ج: نعم الله يحب المتطهرين من الذنوب، وهم التوابون المستغفرون، فباستغفارهم تتطهر قلوبهم، وبردهم المظالم تتطهر قلوبهم، وكذا يحب المتطهرين من النجاسات، فهكذا يحب الله طهارة الظاهر والباطن، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ (٣٣٢).

ا س: وضح معنى قوله تعالى: (أَفَمَنْ أَتَسَسَّ بِئْسَ كُنْهٌ عَلَى تَقْوَىٰ مِنْكَ اللَّهُ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَتَسَسَّ بِئْسَ كُنْهٌ عَلَى شَفَا جُرْفٍ هَارٍ فَأَتَّهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ) (١٩).

ج: هذه تحتل معنيين، ومردهما إلى بعضهما، والله أعلم.
المعنى الأول: المسجد الذي أسسه المتقون الذين يتبعون بتأسيسه رضا الله ﷻ عنهم بأعمالهم وتأسيسهم المسجد، خير أم المسجد الذي أسسه أهل كفر وأهل نفاق يتبعون به الشقاق والعناد؟ أسسوه وليس له أساس، أسسوه على حافة بئر ليست مبطنة بالأحجار وليست قوية يأتيه السيل فيجرف المسجد فينهار بمن فيه في البئر، ولكن أي بئر؟! إنها نار جهنم والعياذ بالله.
 أما قوله: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (١٩) فمعناه والله لا يوفق لطاعته أهل الظلم ما داموا قائمين على ظلمهم وقائمين على كفرهم، لا يوفقهم وقد كتبت عليهم الشقاوة.

والوجه الثاني: المتقون الذين أسسوا المسجد يتبعون بذلك مرضاة الله أولى أن تُصلي معهم وأن تواليهم أم أهل النفاق الذين يؤسسون المساجد مضارةً لأهل الإسلام وكيداً لأهله؟!!

فهؤلاء أهل النفاق يؤسسون مسجدهم على غير أساس من التقى والصلاح، يؤسسون مسجدهم على حافة بئر غير مبطنة ولا مبنية، تأتيهم السيول فتجرفهم بمسجدهم في البئر تجرفهم ومسجدهم في نار جهنم، والله لا يوفق لطاعته ومرضاته والإيمان به أهل الظلم القائمين على ظلمهم الذين كُتبت عليهم الشقاوة.

وبنحو هذا قال أهل العلم.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى: لا يستوي من أسس بنيانه على تقوى الله ورضوان، ومن بنى مسجداً ضراراً وكفرًا وتفريقاً بين المؤمنين، وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله من قبل، فإنما بنى هؤلاء بنيانهم ﴿عَلَى شَفَا جُرْفٍ هَارٍ﴾ أي: طرف حفيرة مثالة ﴿فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ أي: لا يصلح عمل المفسدين.

قال الطبري رحمه الله:

فتأويل الكلام إذا: أي هؤلاء الذين بنوا المساجد خير، أيها الناس، عندكم: الذين ابتدأوا بناء مسجدهم على اتقاء الله، بطاعتهم في بنائه، وأداء فرائضه ورضى من الله لبنائهم ما بنوه من ذلك، وفعلهم ما فعلوه، خير، أم الذين ابتدؤوه بناء مسجدهم على شفا جرف هار؟

يعني بقوله: ﴿عَلَى شَفَا جُرْفٍ هَارٍ﴾، على حرف جُرف.

و«الجرف»، من الركايا، ما لم يُبْنَ له جُولٌ^(١).

﴿هَارٍ﴾، يعني متهور. وإنما هو «هائر»، ولكنه قلب، فأخرت ياؤها فقليل: «هارٍ»، كما قيل: «هو شاكي السلاح»، و«شائك»، وأصله من «هار يهور فهو هائر»، وقيل: «هو من هار يهار»، إذا انهدم. ومن جعله من هذه اللغة قال: «هَرَّتْ يا جرف»، ومن جعله «من هار يهور»، قال: «هَرَّتْ يا جرف».

قال أبو جعفر: وإنما هذا مثَلٌ. يقول تعالى ذكره: أي هذين الفريقين خير؟ وأي هذين البنائين أثبت؟ أمّن ابتداءً أساس بنائه على طاعة الله، وعلم منه بأن بناءه لله طاعة، والله به راضٍ، أم من ابتدأه بنفاق وضلال، وعلى غير بصيرة منه بصواب فعله من خطئه، فهو لا يدري متى يتبين له خطأ فعله وعظيم ذنبه، فيهدمه، كما يأتي البناء على جرف ركيّة لا حابس لماء السيول عنها ولغيره من المياه، تَرِيّة التراب متناثرة، لا تُلبّثه السيول أن تهدمه وتشره؟

يقول الله جل ثناؤه: ﴿فَأَنهَارٍ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾، يعني فانتثر الجرف الهاري ببناؤه في نار جهنم.

(١) يعني البطانة المحيطة بجوانبه من الأحجار.

وقال رحمه الله:

قوله: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾، يقول: والله لا يوفق للرشاد في أفعاله، من كان بانيًا بناءه في غير حقه وموضعه، ومن كان منافقًا مخالفًا بفعله أمر الله وأمر رسوله.

وأورد الطبري بإسناد صحيح عن ابن زيد في قوله: ﴿لَا يَزَالُ بُنْيَنُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ﴾، لا يزال ريبة في قلوبهم راضين بما صنعوا، كما حُبب العجل في قلوب أصحاب موسى. وقرأ: ﴿وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعَجَلَ بِكُفْرِهِمْ﴾ [البقرة: ٩٣] قال: حبه، ﴿إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ﴾، قال: لا يزال ذلك في قلوبهم حتى يموتوا، يعني: المنافقين.

قال القرطبي رحمه الله:

قوله تعالى: ﴿فَأَنهَارِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾ فاعل انهار الجرف؛ كأنه قال: فانهار الجرف بالبنيان في النار؛ لأن الجرف مذكر. ويجوز أن يكون الضمير في به يعود على «من» وهو الباني؛ والتقدير: فانهار من أسس بنيانه على غير تقوى. وهذه الآية ضرب مثل لهم، أي من أسس بنيانه على الإسلام خير أم من أسس بنيانه على الشرك والنفاق. وبين أن بناء الكافر كبناء على جرف جهنم يتهور بأهله فيها. والشفاء: الشفير. وأشفى على كذا أي دنا منه.

وفي هذه الآية دليل على أن كل شيء ابتدئ بنية تقوى الله تعالى والقصد لوجهه الكريم فهو الذي يبقى ويسعد به صاحبه ويصعد إلى الله ويرفع إليه، ويخبر عنه بقوله: ﴿وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٧] على أحد الوجهين. ويخبر عنه أيضا بقوله: ﴿وَالْبَقِيَّةُ الصَّالِحَاتُ﴾ [الكهف: ٤٦].

قال السعدي رحمه الله (تيسير الكريم الرحمن):

ثم فاضل بين المساجد بحسب مقاصد أهلها وموافقتها لرضاه فقال: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ﴾ أي: على نية صالحة وإخلاص ﴿وَرِضْوَانٍ﴾ بأن كان موافقا لأمره، فجمع في عمله بين الإخلاص والمتابعة، ﴿خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا﴾ أي: على طرف ﴿جُرْفٍ هَاكِ﴾ أي: بال، قد تداعى للانهدام، ﴿فَأَنهَارِهِ فِي نَارِ

جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١﴾ لما فيه من مصالح دينهم ودنياهم.
أورد ابن الجوزي قراءتين في قوله: ﴿أَسَسَ﴾ إحداهما بضم الألف (أُسَس) والأخرى بفتحها ﴿أَسَسَ﴾.

وكذا أورد قراءتين في قوله: ﴿جُرْفٍ﴾.

إحداهما: ﴿جُرْفٍ﴾ بضم الراء.

والثانية: (جُرْف) بتسكين الراء.

وقال: والتأسيس إحكام أس البناء، وهو أصله، والمعنى: المؤسس بنيانه متقيًا يخاف الله ويرجو رضوانه خير أو المؤسس بنيانه غير متق.

وقال: وقال ابن قتيبة: المعنى على حرف جرف هائر، والجرف: ما يتجرف بالسيول من الأودية والهائر: الساقط منه، ومنه تهوّر البناء وانهار إذا سقط.

وقال:

قوله تعالى: ﴿فَأَنهَارِيَّ﴾ أي: بالباني ﴿فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾ قال الزجاج: وهذا مثل والمعنى أن بناء هذا المسجد كبناء على جرف جهنم يتهور بأهله فيها. وقال قتادة: ذكر لنا أنهم حفروا فيه حفرة فرؤي فيها الدخان. قال جابر: رأيت المسجد الذي بني ضرارًا يخرج منه الدخان.

| النفاق يلزم أهل مسجد الضرار |

س: وضح معنى قوله تعالى: (لَا يَزَالُ بُنِيتُهُمْ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ

قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) ﴿١١٠﴾ .

ج: المعنى، والله أعلم، أن هذا البنيان - مسجد الضرار - الذي بناه هؤلاء المنافقون - سبب لهم مرضًا في قلوبهم وشكًا وارتيابًا ونفاقًا أكثر مما كانوا فيه، ذلك لأنهم بنوه يبتغون به الكيد للإسلام وأهله فزادهم الله زيغًا إلى زيغهم وانصرافًا إلى انصرافهم وكفرًا إلى كفرهم ونفاقًا إلى نفاقهم، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَنْصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهِ قُلُوبَهُمْ﴾ وكما قال: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ إلى غير ذلك.

فهذا النفاق وهذا الشك وذاك الارتياب دخل قلوبهم وازداد وتمكن منها بعد بنائهم المسجد، عقوبة من الله لهم، وانتقامًا منهم، ولا يزال هذا النفاق يصاحبهم إلى

أن تقطع قلوبهم بالموت، كقوله تعالى في آية أخرى: ﴿ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ ﴾.

وقيل: إلا أن تقطع قلوبهم تحسراً وندامة على ما صنعوا، وتوبة وإنابة إلى الله ﷻ حتى يزيحه الله عنهم.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ:

وقوله تعالى: ﴿ لَا يَزَالُ بُنِيتُهُمْ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ ﴾ أي: شكاً ونفاقاً بسبب إقدامهم على هذا الصنيع الشنيع، أورثهم نفاقاً في قلوبهم، كما أشرب عابِدو العجل حبه.

وقوله: ﴿ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ﴾ أي: بموتهم. قاله ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، وزيد بن أسلم، والسدي، وحبيب بن أبي ثابت، والضحاك، وعبد الرحمن بن زيد ابن أسلم، وغير واحد من علماء السلف.

﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ ﴾ أي: بأعمال خلقه، ﴿ حَكِيمٌ ﴾ في مجازاتهم عنها، من خير وشر.

وقال الطبري رَحِمَهُ اللهُ:

يقول تعالى ذكره: لا يزال بنیان هؤلاء الذين اتخذوا مسجداً ضاراً وكفراً، ﴿ رِيبَةً ﴾، يقول: لا يزال مسجدهم الذي بنوه، ﴿ رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ ﴾، يعني: شكاً ونفاقاً في قلوبهم، يحسبون أنهم كانوا في بنائه مُحْسِنِينَ، ﴿ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ﴾، يعني: إلا أن تتصدع قلوبهم فيموتوا، ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ ﴾، بما عليه هؤلاء المنافقون الذين بنوا مسجد الضرار، من شكهم في دينهم، وما قصدوا في بنائهم وأرادوه، وما إليه صائر أمرهم في الآخرة، وفي الحياة ما عاشوا، وبغير ذلك من أمرهم وأمر غيرهم، ﴿ حَكِيمٌ ﴾، في تدبيره إياهم، وتدبير جميع خلقه.

قال السعدي رَحِمَهُ اللهُ:

﴿ لَا يَزَالُ بُنِيتُهُمْ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ ﴾ أي: شكاً، وريباً ماكثاً في قلوبهم، ﴿ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ﴾ بأن يندموا غاية الندم ويتوبوا إلى ربهم، ويخافوه غاية الخوف، فبذلك يعفو الله عنهم، وإلا فبنيانهم لا يزيدهم إلا ريباً إلى ربهم، ونفاقاً إلى نفاقهم. ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ ﴾ بجميع الأشياء، ظاهرها، وباطنها، خفيها وجليها، وبما أسره

العباد، وأعلنوه.

﴿حَكِيمٌ﴾ لا يفعل ولا يخلق ولا يأمر ولا ينهى إلا ما اقتضته الحكمة وأمر به
فلله الحمد.

قال ابن الجوزي (زاد المسير):

قوله تعالى: ﴿لَا يَزَالُ بُنْيَنُهُمْ﴾ يعني: مسجد الضرار ﴿الَّذِي بَنَوْا رِيَّةً فِي قُلُوبِهِمْ﴾
وفيها ثلاثة أقوال:

أحدها: شكاً ونفاقاً لأنهم كانوا يحسبون أنهم محسنون في بنائه قاله ابن عباس
وابن زيد.

والثاني: حسرة وندامة لأنهم ندموا على بنائه قاله ابن السائب ومقاتل.

والثالث: أن المعنى لا يزال هدم بنيانهم حزاة وغيظاً في قلوبهم قاله السدي
والمبرد.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ﴾ قرأ الأكثرون إلا وهو حرف استثناء وقرأ
يعقوب (إلى أن) فجعله حرف جر وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو والكسائي وأبو بكر
عن عاصم تقطع بضم التاء وقرأ ابن عامر وحمزة وحفص عن عاصم تقطع بفتح التاء
ثم في المعنى قولان:

أحدهما: إلا أن يموتوا قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة في آخرين.

والثاني: إلا أن يتوبوا توبة تتقطع بها قلوبهم ندماً وأسفاً على تفريطهم ذكره
الزجاج.

بعض المستفاد من قصة مسجد الضرار

س: اذكر بعض الفوائد المستنبطة من قصة مسجد الضرار.

أورد السعدي رَحِمَهُ اللهُ فِي تَفْسِيرِهِ طَائِفَةً مِنْ ذَلِكَ فَقَالَ:

وَفِي هَذِهِ الْآيَاتِ فَوَائِدُ عَدَّة:

منها: أن اتخاذ المسجد الذي يقصد به الضرار لمسجد آخر بقربه، أنه محرم، وأنه يجب هدم مسجد الضرار، الذي اطلع على مقصود أصحابه.

ومنها: أن العمل وإن كان فاضلاً تغييره النية، فينقلب منهياً عنه، كما قلبت نية أصحاب مسجد الضرار عملهم إلى ما ترى.

ومنها: أن كل حالة يحصل بها التفريق بين المؤمنين، فإنها من المعاصي التي يتعين تركها وإزالتها.

كما أن كل حالة يحصل بها جمع المؤمنين وائتلافهم، يتعين اتباعها والأمر بها والحث عليها، لأن الله علل اتخاذهم لمسجد الضرار بهذا المقصد الموجب للنهي عنه، كما يوجب ذلك الكفر والمحاربة لله ورسوله.

ومنها: النهي عن الصلاة في أماكن المعصية، والبعد عنها، وعن قربها.

ومنها: أن المعصية تؤثر في البقاء، كما أثرت معصية المنافقين في مسجد الضرار، ونهي عن القيام فيه، وكذلك الطاعة تؤثر في الأماكن كما أثرت في مسجد «قباء» حتى قال الله فيه:

﴿لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ﴾.

ولهذا كان لمسجد قباء من الفضل ما ليس لغيره، حتى كان ﷺ يزور قباء كل سبت يصلي فيه، وحث على الصلاة فيه.

ومنها: أنه يستفاد من هذه التعاليل المذكورة في الآية، أربع قواعد مهمة، وهي: كل عمل فيه مضارة لمسلم، أو فيه معصية لله، فإن المعاصي من فروع الكفر، أو فيه تفريق بين المؤمنين، أو فيه معاونته لمن عادى الله ورسوله، فإنه محرم ممنوع منه، وعكسه بعكسه.

ومنها: أنه إذا كان مسجد قباء مسجداً أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى، فمسجد النبي ﷺ

الذي أسسه بيده المباركة وعمل فيه واختاره الله له من باب أولى وأحرى.
ومنها: أن العمل المبني على الإخلاص والمتابعة، هو العمل المؤسس على
 التقوى، الموصل لعامله إلى جنات النعيم.
 والعمل المبني على سوء القصد وعلى البدع والضلال، هو العمل المؤسس
 على شفا جرف هار، فانهار به في نار جهنم، والله لا يهدي القوم الظالمين.

|

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:

﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَنِّلُونَهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْنُلُونَ وَيَقْنُلُونَ وَعَدًّا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْبَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ۝١١١﴾
 ﴿التَّائِبُونَ الْعَمَدُونَ الْحَمْدُونَ السَّاجِدُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْأَمْرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْخَائِفُونَ لِحُذُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ۝١١٢﴾ مَا كَانِ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَى قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ۝١١٣﴾ وَمَا كَانِ اسْتَغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ۝١١٤﴾ وَمَا كَانِ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمَ مَا يَتَّقُونَ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝١١٥﴾ إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ۝١١٦﴾

[التوبة: ١١١-١١٦].

س: اذكر معنى ما يلي:

- ﴿التَّوْرَةَ﴾ - وَالْإِنْجِيلَ - فَاسْتَبْشِرُوا - التَّائِبِينَ - الْعَبِيدُونَ - الْحَمِيدُونَ -
 السَّاجِدُونَ - الرَّاكِعُونَ - السَّاجِدُونَ - وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ - الْمُؤْمِنِينَ ؟
 ج:

الكلمة	معناها
﴿التَّوْرَةَ﴾	الكتاب الذي أنزل على نبي الله موسى ﷺ
﴿وَالْإِنْجِيلَ﴾	الكتاب الذي أنزل على نبي الله عيسى ﷺ
﴿فَاسْتَبْشِرُوا﴾	فيبشر بعضكم بعضاً - فافرحوا واسعدوا
﴿التَّائِبِينَ﴾	الرجاعون عن الشرك، والبراء من النفاق، التائبون من الذنوب كلها، الراجعون إلى الله وإلى طاعته وإلى الاستقامة عن أمره تابوا من الشر وبرءوا من النفاق
﴿الْعَبِيدُونَ﴾	الذين ذلّت نفوسهم وخضعت لله ﷻ فرقاً منه وطاعة له وحجة له فاجتهدوا في طاعته - الخاضعون
﴿الْحَمِيدُونَ﴾	الذين يحمدون الله على الخير والشر، في كل أحيانهم
﴿السَّاجِدُونَ﴾	الصائمون
﴿الرَّاكِعُونَ﴾	الراكون في صلاتهم
﴿السَّاجِدُونَ﴾	الساجدون في صلاتهم
﴿وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ﴾	المؤدون لفرائض الله ولما أوجبه عليهم، المتهنون عما نهاهم الله عنه
﴿الْمُؤْمِنِينَ﴾	المصدقين بوحدانية الله - المصدقين بوعد الله ووعيده، وبكل ما أخبر الله به والمصدقين لرسله كذلك

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَدِّمُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْفُرْقَانِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٣١﴾﴾؟

ج: المعنى - والله أعلم - أن الله ﷻ يُخبر عباده بأنه اشترى منهم أموالهم وأنفسهم، إن هم بذلوا من أموالهم لنصرة دين الله ولإعلاء كلمة الله وإن هم بذلوا أنفسهم لذلك، فقاتلوا أعداء الله فقتلوا أهل الكفر وقتلهم أهل الكفر، إن هم فعلوا ذلك فثمن ذلك الجنة، التي لهم فيها ما تشتهي النفس وتلذ الأعين وهم فيها خالدون، وقد وعد الله ﷻ هذا الوعدة في كتبه التي أنزلها على رسله وعد الله بذلك في التوراة والإنجيل والقرآن، التي أنزلت على موسى ﷺ فيها هذا الوعد، وكذا الإنجيل الذي آتاه الله عيسى ﷺ وكذا القرآن، فكل من آمن بالله وصدق المرسلين وجاهد بنفسه وبماله فله الجنة، وعدًا حقًا من الله ﷻ، وليس هناك من هو أوفى بالعهد من الله ﷻ فافرحوا بذلك يا أهل الإيمان وليبشر بعضكم بعضًا بذلك استبشروا بالجنة ثمنًا عظيمًا لأموالكم وأنفسكم التي بذلتموها لنصرة دين الله ﷻ، وذلك هو أعظم فوز على الإطلاق، ذلك هو الفوز العظيم.

وبنحو ذلك قال أهل العلم.

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره: إن الله ابتاع من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بالجنة، ﴿وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا﴾، يقول: وعدهم الجنة جل ثناؤه، وعدًا عليه حقًا أن يوفِّي لهم به، في كتبه المنزلة: التوراة والإنجيل والقرآن، إذا هم وفوا بما عاهدوا الله، فقاتلوا في سبيله ونصرة دينه أعداءه، فقتلوا وقُتِلوا، ﴿وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ﴾، يقول جل ثناؤه: ومن أحسن وفاءً بما ضمن وشرط من الله، ﴿فَاسْتَبْشِرُوا﴾، يقول ذلك للمؤمنين: فاستبشروا، أيها المؤمنون، الذين صدقوا الله فيما عاهدوا، ببيعكم أنفسكم وأموالكم بالذي بعتموها من ربكم به، فإن ذلك هو الفوز العظيم.

وقال الحافظ ابن كثير رحمه الله:

يخبر تعالى أنه عاوض عباده المؤمنين عن أنفسهم وأموالهم إذ بذلوا في سبيله بالجنة، وهذا من فضله وكرمه وإحسانه، فإنه قبل العوض عما يملكه بما تفضل به على عباده المطيعين له؛ ولهذا قال الحسن البصري وقتادة: بايعهم والله فأغلى ثمنهم.

ثم قال رحمه الله:

وقوله: ﴿يُقَنِّلُوكَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْنُلُونَ وَيُقَنِّلُوكَ﴾ أي: سواء قتلوا أو قُتلوا، أو اجتمع لهم هذا وهذا، فقد وجبت لهم الجنة؛ ولهذا جاء في الصحيحين: «وتكفل الله لمن خرج في سبيله، لا يخرجه إلا جهاد في سبيلي، وتصديق برسلي، بأن توفاه أن يدخله الجنة، أو يرجعه إلى مسكنه الذي خرج منه، نائلا ما نال من أجر أو غنيمة»^(١).

وقوله: ﴿وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْفُرْآنِ﴾ تأكيد لهذا الوعد، وإخبار بأنه قد كتبه على نفسه الكريمة، وأنزله على رسله في كتبه الكبار، وهي التوراة المنزل على موسى، والإنجيل المنزل على عيسى، والقرآن المنزل على محمد، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

وقوله: ﴿وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ﴾ فإنه لا يخلف الميعاد، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٨٧]، ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾ [النساء: ١٢٢]؛ ولهذا قال: ﴿فَاسْتَبَشِرُوا بِنَيْبِكُمْ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ أي: فليستبشر من قام بمقتضى هذا العقد ووفى بهذا العهد، بالفوز العظيم، والنعيم المقيم.

قال القرطبي رحمه الله:

قوله تعالى: ﴿وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْفُرْآنِ﴾ إخبار من الله تعالى أن هذا كان في هذه الكتب، وأن الجهاد ومقاومة الأعداء أصله من عهد موسى عليه السلام. و«وعدًا» و«حقًا» مصدران موكدان.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ﴾ أي: لا أحد أوفى بعهده من الله. وهو

(١) البخاري (٣١٢٣)، ومسلم (١٨٧٦).

يتضمن الوفاء بالوعد والوعيد، ولا يتضمن وفاء الباري بالكل ؛ فأما وعده فللجميع، وأما وعيده فمخصوص ببعض المذنبين وببعض الذنوب وفي بعض الأحوال. وقد تقدم هذا المعنى مستوفى.

قوله تعالى: ﴿فَاسْتَبَشِّرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ﴾ أي: أظهروا السرور بذلك. والبيارة إظهار السرور في البشارة. وقد تقدم. وقال الحسن: والله ما على الأرض مؤمن إلا يدخل في هذه البيعة. ﴿وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ أي: الظفر بالجنة والخلود فيها.

وقال ابن الجوزي (زاد المسير):

وقوله: ﴿فِي التَّورَةِ وَالْإِنْجِيلِ﴾ يدل على أن أهل كل ملة أمروا بالقتال ووعدوا عليه الجنة.

وقال السعدي رحمه الله:

يخبر تعالى خبراً صدقاً، ويعد وعداً حقاً بمبايعة عظيمة، ومعاوضة جسيمة، وهو أنه ﴿أَشْرَى﴾ بنفسه الكريمة ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ﴾ فهي المثلثن والسلعة المبيعة.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ التي فيها ما تشتهي النفس، وتلد الأعين من أنواع اللذات والأفراح، والمسرات، والحوار الحسن، والمنازل الأنيقات.

وصفة العقد والمبايعة، بأن يبذلوا لله نفوسهم وأموالهم في جهاد أعدائه، لإعلاء كلمته وإظهار دينه ف ﴿يَقْنَلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْنَلُونَ وَيُقْنَلُونَ﴾ فهذا العقد والمبايعة، قد صدرت من الله مؤكدة بأنواع التأكيدات.

﴿وَعَدَا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّورَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ﴾ التي هي أشرف الكتب التي طرقت العالم، وأعلاها، وأكملها، وجاء بها أكمل الرسل أولو العزم، وكلها اتفقت على هذا الوعد الصادق.

﴿وَمَنْ أَوْفَ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبَشِّرُوا﴾ أيها المؤمنون القائمون بما وعدكم الله، ﴿بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ﴾ أي: لتفرحوا بذلك، وليبشر بعضكم بعضاً، ويحث بعضكم بعضاً.

﴿وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ الذي لا فوز أكبر منه، ولا أجل، لأنه يتضمن السعادة الأبدية، والنعيم المقيم، والرضا من الله الذي هو أكبر من نعيم الجنات، وإذا أردت أن تعرف مقدار الصفقة، فانظر إلى المشتري من هو؟ وهو الله جل جلاله، وإلى العوض، وهو أكبر الأعواض وأجلها، جنات النعيم، وإلى الثمن المبذول فيها، وهو النفس، والمال، الذي هو أحب الأشياء للإنسان.

وإلى من جرى على يديه عقد هذا التبايع، وهو أشرف الرسل، وبأي الكتب رقم، في كتب الله الكبار المنزلة على أفضل الخلق.

ا س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿التَّائِبُونَ الْعَمِيدُونَ الْحَمِيدُونَ الْمُتَكِنُونَ الْارْكُمُونَ السَّاجِدُونَ الْأَمْرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّكَاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَنِيفُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

ج: من العلماء من قال إن هذه الآية متصلة بما قبلها في المعنى فإن سألت من هؤلاء الذين اشترى الله منهم أموالهم وأنفسهم بأن لهم الجنة، وما صفاتهم وما أعمالهم فجواب سؤالك هم التائبون العابدون.

ومن العلماء من قال هذه الآية مستقلة في معناها عما قبلها، والمعنى بشر المؤمنين الذين من صفاتهم: ﴿التَّائِبُونَ الْعَمِيدُونَ...﴾. أما عن معنى الآية:

﴿التَّائِبُونَ﴾: الرجَّاعون إلى الله ﷻ بعد ذنوبهم، وبعد ابتعادهم عن طريقه، المستغفرون من ذنوبهم.

﴿الْعَمِيدُونَ﴾: الخاضعون لله المطيعون له الذين ذلت له نفوسهم مع محبة منهم لربهم، وامتنال لأوامره واجتناب لنواهيه.

﴿الْحَمِيدُونَ﴾: لله على كل أحوالهم في سرائهم وضرائهم.

﴿السَّاجِدُونَ﴾: فهم الصائمون.

﴿الْارْكُمُونَ السَّاجِدُونَ﴾: في صلواتهم.

﴿الْأَمْرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّكَاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾: بالحكمة والموعظة الحسنة،

ووفق كتاب ربهم ﷻ وسنة نبيهم ﷺ.

﴿وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ﴾: المقيمون لأوامره والذين لا يرتكبون ما نهى عنه.

﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾: أي: بجنات النعيم وبرضوانه من رب العالمين.

وينحو هذا قال أهل العلم.

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره: إن الله اشترى من المؤمنين التائبين العابدين أنفسهم وأموالهم ، ولكنه رفع، إذ كان مبتدأ به بعد تمام أخرى مثلها. والعرب تفعل ذلك.

وقال في معنى: ﴿التَّائِبُونَ﴾، الراجعون مما كرهه الله وسخطه إلى ما يحبه ويرضاه.

وأورد عدة آثار مؤداها: الذين تابوا من الشرك وبرئوا من النفاق.

وقال:

وأما قوله: ﴿الْعَبِيدُونَ﴾، فهم الذين ذلّوا خشيةً لله وتواضعاً له، فجدّوا في خدمته.

وأورد بإسنادٍ حسن عن قتادة: ﴿الْعَبِيدُونَ﴾، قوم أخذوا من أبدانهم في ليلهم ونهارهم.

وقال: وقوله: ﴿الْحَمِيدُونَ﴾، فإنهم الذين يحمدون الله على كل ما امتحنهم به من خير وشر.

وقال: وأما قوله: ﴿التَّسْبِيحُونَ﴾، فإنهم الصائمون.

وقال: قوله: ﴿الرَّكَعُونَ﴾ التَّسْجُدُونَ، يعني المصلين، الراكعين في صلاتهم، الساجدين فيها.

وأما قوله: ﴿الْأَمْرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّكَاهُوتِ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾، فإنه يعني أنهم يأمرون الناس بالحق في أديانهم، واتباع الرشد والهدى، والعمل، وينهونهم عن المنكر، وذلك نهيمهم الناس عن كل فعل وقول نهى الله عباده عنه.

وأما قوله: ﴿وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ﴾، فإنه يعني: المؤدّون فرائض الله، المنتهون إلى أمره ونهيه، الذين لا يضيعون شيئاً ألزمهم العمل به، ولا يرتكبون شيئاً نهاهم عن ارتكابه.

وأما قوله: ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾، فإنه يعني: وبشر المصدقين بما وعدهم الله إذا هم وقّوا الله بعهد، أنه موفّ لهم بما وعدهم من إدخالهم الجنة.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

هذا نعت المؤمنين الذين اشترى الله منهم أنفسهم وأموالهم بهذه الصفات الجميلة والخلال الجليلة: ﴿التَّائِبُونَ﴾ من الذنوب كلها، التاركون للفواحش، ﴿الْعَصِيدُونَ﴾ أي: القائمون بعبادة ربهم محافظين عليها، وهي الأقوال والأفعال، فمن أخصّ الأقوال الحمد؛ فلهذا قال: ﴿الْحَمِيدُونَ﴾ ومن أفضل الأعمال الصيام، وهو ترك الملاذ من الطعام والشراب والجماع، وهو المراد بالسياحة هاهنا؛ ولهذا قال: ﴿التَّائِبُونَ﴾ كما وصف أزواج النبي ﷺ بذلك في قوله تعالى: ﴿سَيَحْتَبِئْنَ﴾ [التحریم: ٥] أي: صائمات، وكذا الركوع والسجود، وهما عبارة عن الصلاة، ولهذا قال: ﴿الزَّكَّاءُونَ﴾ وهم مع ذلك ينفعون خلق الله، ويرشدونهم إلى طاعة الله بأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر، مع العلم بما ينبغي فعله ويجب تركه، وهو حفظ حدود الله في تحليله وتحريمه، علما وعملا فقاموا بعبادة الحق ونصح الخلق؛ ولهذا قال: ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ لأن الإيمان يشمل هذا كله، والسعادة كل السعادة لمن اتصف به.

قال السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ:

كأنه قيل: من هم المؤمنون الذين لهم البشارة من الله بدخول الجنات ونيل الكرامات؟ فقال: هم ﴿التَّائِبُونَ﴾ أي: الملازمون للتوبة في جميع الأوقات عن جميع السيئات.

﴿الْعَصِيدُونَ﴾ أي: المتصفون بالعبودية لله، والاستمرار على طاعته من أداء الواجبات والمستحبات في كل وقت، فبذلك يكون العبد من العابدين.

﴿الْحَمِيدُونَ﴾ لله في السراء والضراء، واليسر والعسر، المعترفون بما لله عليهم من النعم الظاهرة والباطنة، المثنون على الله بذكرها وبذكره في آناء الليل وآناء النهار.

﴿التَّائِبُونَ﴾ فسرت السياحة بالصيام، أو السياحة في طلب العلم، وفسرت

بسياحة القلب في معرفة الله ومحبته، والإنابة إليه على الدوام، والصحيح أن المراد بالسياحة: السفر في القربات، كالحج، والعمرة، والجهاد، وطلب العلم، وصلة الأقارب، ونحو ذلك.

﴿الرَّكَعُوتَ السَّجْدُونَ﴾ أي: المكثرون من الصلاة، المشتعلة على الركوع والسجود.

﴿الْأَمْرُونَ بِالْمَعْرُوفِ﴾ ويدخل فيه جميع الواجبات والمستحبات.
 ﴿وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ وهي جميع ما نهى الله ورسوله عنه.
 ﴿وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ﴾ بتعلمهم حدود ما أنزل الله على رسوله، وما يدخل في الأوامر والنواهي والأحكام، وما لا يدخل، الملازمون لها فعلاً وتركاً.
 ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ لم يذكر ما يبشرهم به، ليعم جميع ما رتب على الإيمان من ثواب الدنيا والدين والآخرة، فالبشارة متناولة لكل مؤمن.
 وأما مقدارها وصفتها فإنها بحسب حال المؤمنين، وإيمانهم، قوة، وضعفاً، وعملاً بمقتضاه.

أ س: هل ورد عن رسول الله ﷺ حديث صحيح في تفسير السائقين بالصائمين؟

ج: ورد في ذلك أخبار لا تخلو من مقال، منها ما أخرجه الطبري بسند صحيح عن عبيد بن عمير قال: سئل النبي ﷺ عن «السائقين» فقال: «هم الصائمون». وهذا مرسل.

وأخرج الطبري أيضاً من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال لي رسول الله ﷺ: «السَّائِحُونَ» هم الصائمون. لكن أعل هذا بالوقف.
 فقد أخرجه الطبري من وجه أصح موقوفاً على أبي هريرة رضي الله عنه.
 هذا، وقد ورد في هذا الصدد حديث آخر بلفظ: «سياحة أمتي الجهاد في سبيل الله».

وقد صح عن عددٍ من أهل العلم من الصحابة فمن بعدهم أن ﴿السَّائِحُونَ﴾ هم الصائمون.

روي ذلك بإسناد حسن عن ابن مسعود وغيره عند الطبري وغيره.

س: اذكر سبب نزول قوله تعالى: ﴿مَا كَانِ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَىٰ قُرْبَىٰ﴾.

ج: سبب نزولها ما أخرجه البخاري ومسلم^(١) في صحيحيهما من طريق سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ قَالَ: لَمَّا حَضَرَتْ أَبَا طَالِبٍ الْوَفَاةُ. جَاءَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَوَجَدَ عِنْدَهُ أَبَا جَهْلٍ وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي أُمَيَّةَ بْنِ الْمُغِيرَةِ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَا عَمَّ! قُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ كَلِمَةً أَشْهَدُ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللَّهِ» فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي أُمَيَّةَ: يَا أَبَا طَالِبٍ! أَتَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، فَلَمْ يَزَلْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَعْزِضُهَا عَلَيْهِ وَيُعِيدُ لَهُ تِلْكَ الْمَقَالَةَ، حَتَّى قَالَ أَبُو طَالِبٍ آخِرَ مَا كَلَّمَهُمْ: هُوَ عَلَى مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ وَأَبَى أَنْ يَقُولَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَمَّا وَاللَّهِ لَا أَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ مَا لَمْ أَنُحْ عَنْكَ» فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﷻ: ﴿مَا كَانِ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَىٰ قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ [التوبة: ١١٣]. وَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَىٰ فِي أَبِي طَالِبٍ، فَقَالَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ». **النهي عن الاستغفار للمشركين**

س: وضع معنى قوله تعالى: ﴿مَا كَانِ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَىٰ قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ (١١٣) وَمَا كَانِ أَسْتَغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾؟

ج: المعنى - والله تعالى أعلم - ما كان ينبغي، وما كان يحلُّ وما كان يجوز للنبي ﷺ ولا الذين آمنوا أن يطلبوا من الله ﷻ المغفرة لأهل الشرك، ولو كان هؤلاء المشركون من أقربائهم، وذلك من بعد ما ظهر لأهل الإيمان أن أهل الشرك هم أصحاب الجحيم إن هم ماتوا على شركهم ولم يتوبوا منه قبل الممات. هذا، وقوله تعالى: ﴿مَنْ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ للعلماء فيه أقوال:

أحدها: أن هذا التبيين يكون إذا مات المشرك على شركه، فحينئذ لا يُصلى عليه

(١) البخاري (١٣٦٠)، ومسلم (٢٤).

ولا يستغفر له، ولا يقبر في مقابر المسلمين،... إلى غير ذلك من متبوعات الموت على الكفر، والعياذ بالله.

والثاني: أن هذا التبين يكون يوم القيامة إذا علم آنذاك أن هذا المشرك من أهل النار فلا يستغفر له، والظاهر، والله أعلم، ما قدمته من أن قوله: ﴿مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ أي: من بعد ما تبين للمسلمين أن أهل الشرك هم أهل النار، وهذا العلم يتأتى بمعرفة أحوالهم في الدنيا وبالظاهر الذي ماتوا عليه، فما داموا على شركهم في الدنيا فلا يستغفر لهم، وكذا إذا ماتوا على الشرك لا يستغفر لهم ولا يُصلى عليهم كذلك.

أما الدعاء للمشركين الأحياء بالهداية فجائز وستأتي أدلته إن شاء الله. هذا، وإن احتج محتج بأن إبراهيم عليه السلام استغفر لأبيه وكان أبوه مشركاً، فجواب ذلك أن إبراهيم عليه السلام كان قد وعد أباه وعداً بقوله: ﴿سَلِّمْ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُكَ رَبِّي﴾ [مريم: ٤٧]، وذلك قبل أن يعلم من حاله أن أباه سيموت على الكفر، فلما ظهر له بموت أبيه على الكفر، ولا يمنع أيضاً أن يكون إضافة إلى ما ذكر، إخبار الله ﷻ إبراهيم عليه السلام أن أبا إبراهيم عدو لله، فحينئذ تبرأ إبراهيم عليه السلام من أبيه ولم يعد للاستغفار له، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا بَيَّنَّ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾. أما قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ﴾ أي: كثير الدعاء والتضرع إلى الله ﷻ والتخشع لله ﷻ وقيل: معناه رحيم. وقوله: ﴿حَلِيمٌ﴾ أي: لا يُعاجل بالعقوبة.

وبنحو هذا قال أهل العلم.

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره: ما كان ينبغي للنبي محمد ﷺ والذين آمنوا به، ﴿أَنْ يَسْتَغْفِرُوا﴾، يقول: أن يدعوا بالمغفرة للمشركين، ولو كان المشركون الذين يستغفرون لهم، ﴿أُولَىٰ قُرْبَىٰ﴾، ذوي قرابة لهم، ﴿مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾، يقول: من بعد ما ماتوا على شركهم بالله وعبادة الأوثان، وتبين لهم أنهم من أهل النار، لأن الله قد قضى أن لا يغفر لمشرك، فلا ينبغي لهم أن يسألوا ربهم أن

يفعل ما قد علموا أنه لا يفعله. فإن قالوا: فإن إبراهيم قد استغفر لأبيه وهو مشرك؟ فلم يكن استغفار إبراهيم لأبيه إلا لموعدة وعدها إياه. فلما تبين له وعلم أنه لله عدو، خلاه وتركه، وترك الاستغفار له، وآثر الله وأمره عليه، فتبرأ منه حين تبين له أمره.

وقال رحمه الله:

وأما قوله: ﴿وَمَا كَانَتْ اسْتَغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ﴾، فإن أهل العلم اختلفوا في السبب الذي أنزل فيه.

فقال بعضهم: أنزل من أجل أن النبي ﷺ وأصحابه كانوا يستغفرون لموتاهم المشركين، ظناً منهم أن إبراهيم خليل الرحمن قد فعل ذلك، حين أنزل الله قوله خبراً عن إبراهيم: ﴿قَالَ سَلِمْتُ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ فِي حَفِيَّا﴾ [مريم: ٤٧].

وقال رحمه الله:

وقيل: ﴿وَمَا كَانَتْ اسْتَغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا﴾، ومعناه: إلا من بعد موعدة، كما يقال: «ما كان هذا الأمر إلا عن سبب كذا»، بمعنى: من بعد ذلك السبب، أو من أجله. فكذلك قوله: ﴿إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ﴾، من أجل موعدة وبعدها. وقد تأول قوم قول الله: ﴿وَمَا كَانَتْ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَىٰ قُرْبَىٰ﴾، الآية، أن النهي من الله عن الاستغفار للمشركين بعد مماتهم، لقوله: ﴿مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾. وقالوا: ذلك لا يتبينه أحد إلا بأن يموت على كفره، وأما وهو حي فلا سبيل إلى علم ذلك، فللمؤمنين أن يستغفروا لهم.

وقال آخرون: الاستغفار في هذا الموضع بمعنى الصلاة^(١).

قال الطبري رحمه الله:

وقد دللنا على أن معنى «الاستغفار»: مسألة العبد ربه غفر الذنوب. وإذا كان ذلك كذلك، وكانت مسألة العبد ربه ذلك قد تكون في الصلاة وفي غير الصلاة، لم يكن أحد القولين اللذين ذكرنا فاسداً، لأن الله عمم بالنهي عن الاستغفار للمشرك، بعد ما

(١) يعنون الصلاة على الميت.

تبين له أنه من أصحاب الجحيم، ولم يخصص عن ذلك حالا أباح فيها الاستغفار له. وأما قوله: ﴿مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾، فإن معناه: ما قد بينت، من أنه: من بعد ما يعلمون بموته كافراً أنه من أهل النار. وقيل: ﴿أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾، لأنهم سكانها وأهلها الكائنون فيها، كما يقال لسكان الدار: «هؤلاء أصحاب هذه الدار»، بمعنى: سكانها.

وقال الطبري:

واختلف أهل التأويل في تأويل قوله: ﴿فَلَمَّا بَيَّنَّ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَأَ مِنْهُ﴾.

قال بعضهم: معناه: فلما تبين له بموته مشركاً بالله، تبرأ منه، وترك الاستغفار له. **وقال آخرون:** معناه: فلما تبين له في الآخرة. وذلك أن أباه يتعلّق به إذا أراد أن يجوز الصراط فيمرّ به عليه، حتى إذا كاد أن يجاوزه، حانت من إبراهيم التفاتة، فإذا هو بأبيه في صورة قرد أو ضبع، فيخلّي عنه ويتبرأ منه حينئذ.

قال الطبري:

وأولى الأقوال في ذلك بالصواب، قول الله، وهو خبره عن إبراهيم أنه لما تبين له أن أباه لله عدوٌّ، تبرأ منه، وذلك حال علمه ويقينه أنه لله عدوٌّ، وهو به مشرك، وهو حال موته على شركه.

وقال في تأويل قوله: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾.

قال أبو جعفر: اختلف أهل التأويل في «الأواه».

فقال بعضهم: هو الدعاء.

وأورد بإسناد حسن عن عبد الله (ابن مسعود): «الأواه»، الدعاء.

وقال آخرون: بل هو الرحيم.

وقال آخرون: بل هو الموقن.

وقال آخرون: هي كلمة بالحبشية، معناها: المؤمن.

وقال آخرون: هو المسبّح، الكثير الذكر لله.

وقال آخرون: هو الذي يكثّر تلاوة القرآن.

وقال آخرون: هو من التأوّه.

وقال آخرون: معناه أنه فقيه.

وقال آخرون: هو المتضرع الخاشع.

قال الطبري رحمه الله:

وأولى الأقوال في ذلك عندي بالصواب، القول الذي قاله عبد الله بن مسعود، الذي رواه عنه زر: أنه الدعاء.

وإنما قلنا ذلك أولى بالصواب، لأن الله ذكر ذلك، ووصف به إبراهيم خليله صلوات الله عليه، بعد وصفه إياه بالدعاء والاستغفار لأبيه، فقال: ﴿وَمَا كَانَ أَسْتَعْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا بَيَّنَّ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾، وترك الدعاء والاستغفار له. ثم قال: إن إبراهيم لدعاء لربه، شاكٍ له، حليمٌ عمن سبَّه وناله بالمكروه. وذلك أنه صلوات الله عليه وعد أباه بالاستغفار له، ودعاء الله له بالمغفرة، عند وعيد أبيه إياه، وتهدده له بالشتيم، بعد ما ردَّ عليه نصيحته في الله وقوله: ﴿أَرَأَيْبُ أَنْتَ عَنْ إِلَهِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾ (٤٦)، فقال له صلوات الله عليه، ﴿سَلِّمْ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ فِي حَفِيًّا﴾ (٤٧) وَأَعْتَزِلْكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾ (٤٨)، [مريم: ٤٦-٤٨]. فوفي لأبيه بالاستغفار له، حتى تبين له أنه عدو لله، فوصفه الله بأنه دعاء لربه، حليم عمن سبَّه عليه.

وأصله من «التأوه»، وهو التضرع والمسألة بالحزن والإشفاق.

ثم قال: ولأن معنى ذلك: «توجع، وتحزن، وتضرع»، اختلف أهل التأويل فيه الاختلاف الذي ذكرت. فقال من قال: معناه «الرحمة»: أن ذلك كان من إبراهيم على وجه الرقة على أبيه، والرحمة له، ولغيره من الناس.

وقال آخرون: إنما كان ذلك منه لصحة يقينه، وحسن معرفته بعظمة الله، وتواضعه له.

وقال آخرون: كان لصحة إيمانه بربه.

وقال آخرون: كان ذلك منه عند تلاوته تنزيل الله أحد الذي أنزله عليه.

وقال آخرون: كان ذلك منه عند ذكر ربه.

وكلُّ ذلك عائد إلى ما قلتُ، وتَقَارَبَ معنى بعض ذلك من بعض، لأنَّ الحزين المتضرِّع إلى ربه، الخاشع له بقلبه، ينوبه ذلك عند مسألته ربَّه، ودعائه إياه في حاجاته، وتعتوره هذه الخلال التي وجَّه المفسرون إليها تأويل قول الله: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾.

قال الشنقيطي رَحِمَهُ اللهُ (أضواء البيان):

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَتْ أَسْتَغْفَرُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ﴾ الآية. لم يبين هنا هذه الموعدة التي وعدها إياه، ولكنه بينها في سورة «مريم» بقوله: ﴿قَالَ سَلِّمْ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ فِي حَفِيًّا﴾ [مريم: ٤٧].

وقال السعدي رَحِمَهُ اللهُ:

يعني: ما يليق ولا يحسن للنبي وللمؤمنين به ﴿أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ﴾ أي: لمن كفر به، وعبد معه غيره ﴿وَلَوْ كَانُوا أُولَىٰ قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ فإن الاستغفار لهم في هذه الحال غلط غير مفيد، فلا يليق بالنبي والمؤمنين، لأنهم إذا ماتوا على الشرك، أو علم أنهم يموتون عليه، فقد حقت عليهم كلمة العذاب، ووجب عليهم الخلود في النار، ولم تنفع فيهم شفاعة الشافعين، ولا استغفار المستغفرين.

وأيضا فإن النبي والذين آمنوا معه، عليهم أن يوافقوا ربهم في رضاه وغضبه، ويوالوا من والاه الله، ويعادوا من عاداه الله، والاستغفار منهم لمن تبين أنه من أصحاب النار مناف لذلك، مناقض له، ولئن وجد الاستغفار من خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام لأبيه فإنه ﴿عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ﴾ في قوله: ﴿سَأَسْتَغْفِرُكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ فِي حَفِيًّا﴾ وذلك قبل أن يعلم عاقبة أبيه.

فلما تبين لإبراهيم أن أباه عدو لله، سيموت على الكفر، ولم ينفع فيه الوعظ والتذكير ﴿تَبَرَّأْتُهُ﴾ موافقة لربه وتأدبا معه.

﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ﴾ أي: رجَّاع إلى الله في جميع الأمور، كثير الذكر والدعاء، والاستغفار والإنابة إلى ربه.

﴿حَلِيمٌ﴾ أي: ذو رحمة بالخلق، وصفح عما يصدر منهم إليه، من الزلات، لا

يستفزه جهل الجاهلين، ولا يقابل الجاني عليه بجرمه، فأبوه قال له: ﴿لَا رَجْمَكَ﴾ وهو يقول له: ﴿سَلَّمَ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُكَ رَبِّي﴾.

فعلیکم أن تقتدوا به، وتتبعوا ملة إبراهيم في كل شيء ﴿لَا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾ [الممتحنة: ٤] كما نبهكم الله عليها وعلى غيرها.

س: هل يجوز الاستغفار للمشرکین؟

ج: لا يجوز ذلك، وذلك لقوله تعالى: ﴿أَسْتَغْفِرُ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرُ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾.

ولقوله تعالى: ﴿مَا كَانِ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَىٰ قُرْبَىٰ...﴾.

ولقوله ﷺ فيما أخرجه مسلم في صحيحه^(١): «اسْتَأْذَنْتُ رَبِّي أَنْ أَسْتَغْفِرَ لِأُمَّي فَلَمْ يَأْذَنْ لِي وَاسْتَأْذَنْتُهُ أَنْ أَزُورَ قَبْرَهَا فَأَذِنَ لِي».

(١) مسلم (٩٧٦).

الدعاء للمشركين بالهداية

س: هل يجوز الدعاء للمشركين بالهداية وهم أحياء؟

ج: نعم يجوز الدعاء لهم بالهداية.

أخرج البخاري ومسلم^(١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قَدِمَ الطُّفَيْلُ بْنُ عَمْرِو عَلَى الرَّسُولِ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ دَوْسًا قَدْ عَصَتْ وَأَبَتْ، فَادْعُ اللَّهَ عَلَيْهَا فَظَنَّ النَّاسُ أَنَّهُ يَدْعُو عَلَيْهِمْ، فَقَالَ: «اللَّهُمَّ اهْدِ دَوْسًا وَأْتِ بِهِمْ».

وأخرج مسلم^(٢) أيضًا من حديث أبي هريرة قال: كُنْتُ أَدْعُو أُمَّيَ إِلَى الْإِسْلَامِ وَهِيَ مُشْرِكَةٌ، فَدَعَوْتُهَا يَوْمًا فَاسْمَعْتَنِي فِي رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مَا أَكْرَهُ، فَاتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَأَنَا أَبْكِي، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي كُنْتُ أَدْعُو أُمَّيَ إِلَى الْإِسْلَامِ فَتَأْبَى عَلَيَّ فَدَعَوْتُهَا الْيَوْمَ فَاسْمَعْتَنِي فِيكَ مَا أَكْرَهُ، فَادْعُ اللَّهَ أَنْ يَهْدِيَ أُمَّ أَبِي هُرَيْرَةَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «اللَّهُمَّ اهْدِ أُمَّ أَبِي هُرَيْرَةَ» فَخَرَجْتُ مُسْتَبْشِرًا بِدَعْوَةِ نَبِيِّ اللَّهِ ﷺ، فَلَمَّا جِئْتُ فَصِرْتُ إِلَى الْبَابِ فَإِذَا هُوَ مُجَافٌ، فَسَمِعْتُ أُمَّيَ خَشَفَ قَدَمَيَّ، فَقَالَتْ: مَكَانَكَ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ، وَسَمِعْتُ خَضْخَضَةَ الْمَاءِ، قَالَ: فَاعْتَسَلْتُ وَلَبِسْتُ دِرْعَهَا وَعَجَلْتُ عَنْ خِمَارِهَا فَفَتَحَتِ الْبَابَ، ثُمَّ قَالَتْ: يَا أَبَا هُرَيْرَةَ أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، قَالَ: فَرَجَعْتُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَاتَيْتُهُ وَأَنَا أَبْكِي مِنَ الْفَرَحِ، قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَبْشِرْ قَدْ اسْتَجَابَ اللَّهُ دَعْوَتَكَ وَهَدَى أُمَّ أَبِي هُرَيْرَةَ، فَحَمَدَ اللَّهُ وَأَثْنَى عَلَيْهِ وَقَالَ خَيْرًا.

س: هل يجوز الدعاء للمشرك الحي بالمغفرة؟

ج: لم أقف على شيء صريح يجوز ذلك، والظاهر لي، والله أعلم، عدم جواز الدعاء له بالمغفرة لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾.

[النساء: ٤٨]

أما إذا تاب من شركه فيجوز الدعاء له آنذاك قال تعالى: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنتُ الْأَوَّلِينَ﴾.

(١) البخاري (مع الفتح ١١/١٩٦)، ومسلم (٧٧/١٦).

(٢) مسلم (مع النووي ١٦/٥١)، وأحمد (٣٢٠/٢).

[الأنفال: ٣٨]

أما الوارد عن رسول الله ﷺ: «اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون». فالصحيح أن قائله ليس برسول الله ﷺ إنما يحكي نبياً من الأنبياء ﷺ. وكذا فإنه محتمل أن يغفر له ما صدر منه من ضربهم له، ويحتمل أن يكون منسوخاً كذلك، وذلك لكوني لم أقف على شيء صريح يفيد أن النبي ﷺ استغفر للمشركين الأحياء.

بل لقد قال تعالى في شأن التآسي بإبراهيم عليه السلام: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُؤُا مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ ۚ إِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا بِأَيِّهِمْ لَأَيُّهُمُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا أَسْوَأُ ۚ﴾ [الممتحنة: ٤].

أي: لا تتأسوا بإبراهيم عليه السلام في قوله لأبيه: ﴿لَا تَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ ۚ﴾ والله أعلم.

من أدلة العذر بالجهل

س: وضع معنى قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (١١٥) ؟

ج: المعنى - والله أعلم - وما كان الله ﷻ يعاقب قوماً بإضلالهم عن طريق الحق والصواب حتى يبين لهم الأمور التي يجب أن يحذرونها ويوضحها لهم، فإن هم اقترفوا المحرمات ووقعوا في المحذور عن عمد وقصد عاقبهم ربنا بالإضلال عن الطريق المستقيم.

كما قال تعالى: ﴿سَاصِرُ عَنْ ءَايَتِي الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كَلَّ ءَايَةٍ لَا يُؤْمِنُوهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْعِزِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِءَايَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ (١٦٦) [الأعراف: ١٤٦].

ولقوله تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْعَادَهُمْ وَأَبْصُرُهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ١١٠] وكما قال في شأن أقوام آخرين: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ...﴾ [الصف: ٥] إلى غير ذلك.

وبنحو هذا قال العلماء.

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره: وما كان الله ليقضي عليكم، في استغفاركم لموتاكم المشركين، بالضلال، بعد إذ رزقكم الهداية، ووفقكم للإيمان به وبرسوله، حتى يتقدم إليكم بالنهي عنه، فتركوا الانتهاء عنه. فأما قبل أن يبين لكم كراهية ذلك بالنهي عنه، ثم تتعدوا نبيه إلى ما نهاكم عنه، فإنه لا يحكم عليكم بالضلال، لأن الطاعة والمعصية إنما يكونان من المأمور والمنهي، فأما من لم يؤمر ولم ينه، فغير كائن مطيعاً أو عاصياً فيما لم يؤمر به ولم ينه عنه، ﴿إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾، يقول تعالى ذكره: إن الله ذو علم بما خالط أنفسكم عند نهي الله إياكم من الاستغفار لموتاكم المشركين، من الجزع على ما سلف منكم من الاستغفار لهم قبل تقدمه إليكم بالنهي عنه، وبغير ذلك من سرائر أموركم وأمور عباده وظواهرها، فبين لكم حلمه في ذلك عليكم، ليضع عنكم ثقل الوجد بذلك.

وقال ابن كثير رحمه الله:

يقول تعالى مخبراً عن نفسه الكريمة وحكمه العادل: إنه لا يضل قومًا إلا بعد بلاغ الرسالة إليهم، حتى يكونوا قد قامت عليهم الحجة، كما قال تعالى: ﴿وَمَا تُمُودُ فَهَدَيْنَهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ﴾ الآية [فصلت: ١٧].

قال السعدي رحمه الله:

﴿وَمَا كَانَتْ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا﴾ إلى ﴿وَلَا نَصِيرَ﴾.

يعني أن الله تعالى إذا منَّ على قوم بالهداية، وأمرهم بسلوك الصراط المستقيم، فإنه تعالى يتمم عليهم إحسانه، ويبين لهم جميع ما يحتاجون إليه، وتدعو إليه ضرورتهم، فلا يتركهم ضالين، جاهلين بأمور دينهم، ففي هذا دليل على كمال رحمته، وأن شريعته وافية بجميع ما يحتاجه العباد، في أصول الدين وفروعه.

ويحتمل أن المراد بذلك ﴿وَمَا كَانَتْ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَيْنَهُمْ حَتَّىٰ بَيَّنَّ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ﴾ فإذا بين لهم ما يتقون فلم ينقادوا له، عاقبهم بالإضلال جزاء لهم على ردهم الحق المبين، والأول أولى.

﴿إِنَّ اللَّهَ يَكُلُّ شَيْءٌ عِلْمٌ﴾ فلكمال علمه وعمومه علمكم ما لم تكونوا تعلمون، وبين لكم ما به تنفعون.

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَمَا لَكُم مِّنْ

دُورٍ﴾ الآية من وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٣﴾.

ج: المعنى - والله تعالى أعلم - إن الله ﷻ مالك السموات والأرض، وله الملك بينهما وله الأمر بينهما، فله الخلق وله الأمر يفعل فيهما ما يشاء ويقضي فيهما بما يريد لا معقب لحكمه، ولا راد لقضائه يحيي من يشاء ويميت من يشاء، فامثلوا أمر ربكم وانتهوا عما نهاكم عنه فليس لكم غير الله ولي يتولاكم ولا نصير ينصركم.

وينحو ما ذكر قال أهل العلم.

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره: إن الله، أيها الناس له سلطان السماوات والأرض وملكهما، وكل من دونه من الملوك فعيده ومماليكه، بيده حياتهم وموتهم، يحيي من يشاء منهم، ويميت من يشاء منهم، فلا تجزعوا، أيها المؤمنون، من قتال من كفر بي من

الملوك، ملوك الروم كانوا أو ملوك فارس والحبشة، أو غيرهم، واغزوهم وجاهدوهم في طاعتي، فإني المعزُّ من أشاء منهم ومنكم، والمذلُّ من أشاء. وهذا حصٌّ من الله جل ثناؤه المؤمنين على قتال كل من كفر به من المماليك، وإغراء منه لهم بحربهم.

وقوله: ﴿وَمَا لَكُمْ مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾، يقول: وما لكم من أحد هو لكم حليفٌ من دون الله يظاھرکم عليه، إن أنتم خالفتم أمر الله فعاقبكم على خلافكم أمره، يستنقذكم من عقابه، ﴿وَلَا نَصِيرٍ﴾، ينصرکم منه إن أراد بكم سوءاً. يقول: فبالله فثقوا، وإياه فارهبوا، وجاهدوا في سبيله من كفر به، فإنه قد اشترى منكم أنفسكم وأموالكم بأن لكم الجنة، تقاتلون في سبيله فتقتلون وتقتلون.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ:

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَمَا لَكُمْ مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ قال ابن جرير: هذا تحريض من الله لعباده المؤمنين في قتال المشركين وملوك الكفر، وأن يثقوا بنصر الله مالك السماوات والأرض، ولا يرهبوا من أعدائه فإنه لا ولي لهم من دون الله، ولا نصير لهم سواه.

وقال السعدي رَحِمَهُ اللهُ:

﴿إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ أي: هو المالك لذلك، المدبر لعباده بالإحياء والإماتة وأنواع التدابير الإلهية، فإذا كان لا يخل بتدبيره القدرى فكيف يخل بتدبيره الديني المتعلق بإلهيته، ويترك عباده سدى مهملين، أو يدعهم ضالين جاهلين، وهو أعظم توليه لعباده!!

فلهذا قال: ﴿وَمَا لَكُمْ مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ أي: ولي يتولاكم بجلب المنافع لكم، أو نصير يدفع عنكم المضار.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:

﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ۝١١٧ وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ۝١١٨ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ۝١١٩ مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ۚ ذَٰلِكُمْ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطْئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجَرَ الْمُحْسِنِينَ ۝١٢٠ وَلَا يَنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝١٢١ وَمَا كَانِ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ۝١٢٢﴾

[التوبة: ١١٧-١٢٢].

س: وضح معنى ما يلي:

﴿سَاعَةَ الْعُسْرَةِ - يَزِيغُ قُلُوبَ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ - رَّءُوفٌ - خُلِفُوا - ضَاقتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ - وَضَاقتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ - لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ - لِيَسْتَوُوا - الْأَعْرَابُ - وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ - ظَلَمًا - نَصَبٌ - مَخْمَصَةٌ - فِي سَبِيلِ اللَّهِ - وَلَا يَطْغُونَ مَوْطِنًا - وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوِّ نِيْلًا - وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا - لِيَسْفَرُوا كَأْفَةً - لِيَنفَقَهُوا فِي الدِّينِ - يَحْذَرُونَ﴾؟

ج:

معناها	الكلمة
وقت الشدة، وهو زمن الغزوة كله، ووقتها كله منذ أن خرجوا إلى رجوعهم.	﴿سَاعَةَ الْعُسْرَةِ﴾
يميل قلوب فريق منهم عن الإيمان والهدى إلى الضلال والشقاء.	﴿يَزِيغُ قُلُوبَ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ﴾
ذو رَأْفَةٍ.	﴿رَّءُوفٌ﴾
تأخرت توبة الله عليهم وأرجأ أمرهم، وقيل: تخلفوا عن الغزو مع رسول الله ﷺ.	﴿خُلِفُوا﴾
ضاقت عليهم طرائق التصرف، لا يدرون كيف يتصرفون ولا إلى أين يذهبون بما فيها من اتساع.	﴿ضَاقتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾
أصابها كرب شديد وهمٌّ وغمٌّ.	﴿وَضَاقتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ﴾
لا مفر من الله إلا إلى الله.	﴿لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ﴾

﴿لِيَسْتَوُوا﴾	ليرجعوا عما صنعوه من التخلف، وليستغفروا الله عما بدر منهم.
﴿الْأَعْرَابِ﴾	سكان البوادي.
﴿وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ﴾	لا ييخلوا بأنفسهم وتقديمها للقتل في سبيل الله ونصرة رسول الله ﷺ. لا ييخلوا بأنفسهم ولا يضمنوا بها عن تقديمها للقتل في سبيل الله.
﴿ظَمًا﴾	عطش.
﴿نَصَبٍ﴾	تعب.
﴿مَحْمَصَةٍ﴾	مجاعة.
﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾	لإعلاء كلمة الله.
﴿وَلَا يَطْغَوْا مَوْطِنًا﴾	لا ينزلون منزلًا - ولا يخطو من خطوات.
﴿وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوِّ نِيْلًا﴾	لا يصيبون العدو بهزيمة من قتل وسبي ونحو ذلك.
﴿وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا﴾	لا يمرون بوادي من الأودية ولا يجتازونه.
﴿لِيَنفِرُوا كَأَفَّةٍ﴾	ليخرجوا كلهم جميعًا (للغزو أو للعلم الشرعي).
﴿لِيَنفَقَهُوا فِي الدِّينِ﴾	ليستبصروا في دينهم وليعلموا أحكامه.
﴿يَحْذَرُونَ﴾	يتقون الحرام، ويخافون النيران.

توبة الله ﷻ على النبي ﷺ والمهاجرين والأنصار

س: ما الذي صنعه النبي ﷺ حتى قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ﴾ وما الذي صنعه أهل المهاجرون والأنصار؟

ج: من العلماء من قال: إن قوله تعالى: ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ﴾ على إذنه للمنافقين في التخلف كما قال: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذْنَتْ لَهُمْ﴾ أما الذي صنعه المهاجرون والأنصار، فقد همَّ بعضهم بالرجوع والتخلف عن رسول الله ﷺ، وقلَّ صبر بعضهم على الشدة التي كانت في هذه الغزوة، والله أعلم.

س: ما المراد بساعة العسرة؟

ج: المراد - والله أعلم - زمن الغزوة كله، فقد كانت في حرٍّ شديد، وقلّة من الزاد، وقلّة من الظهر (أي: الإبل والخيل والبغال التي تحمل المسافرين) وكان السفر بعيداً، والماء قليلاً، فكانت حقاً ساعة عسرة كما قال الله ع.

س: وضع المعنى الإجمالي لقوله تعالى: ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ (١٧)؟

ج: المعنى - والله أعلم - لقد منَّ الله برحمته وعفوه وتفضل على نبيه ﷺ وعلى المهاجرين والأنصار بمغفرته ورزقهم حسن الإنابة إليه وعاد عليهم بالتخفيف بعد أن كان الأمر عليهم شديداً وعاد عليهم برحمته بعد أن فعل البعض ما يوجب العذاب، فرجع الله عليهم جميعاً برحمته وعفوه وتخفيفه عليهم.

أما رسول الله ﷺ فوجه التوبة عليه لأنه كان قد أذن لأهل النفاق في التخلف وقبل منهم الأعذار، وليست هي في حقيقة الأمر بأعذار قال تعالى: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذْنَتْ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ﴾ (٤٣) أما المهاجرون والأنصار فقد كاد بعضهم أن يرجع إلى المدينة من شدة السفر ومشقته.

أما ساعة العسرة فهي زمن الغزوة الشديدة، غزوة تبوك، وقوله: ﴿مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ﴾ أي: من بعد ما كادت قلوب بعضهم تميل عن الحق

إلى الباطل، وعن الإيمان إلى الغي والشر والفساد، وقوله: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ﴾ رجع عليهم بالتخفيف بعد الأمر الشديد، ورجع عليهم بمنّةٍ عظيمة، وهي تثبيت قلوبهم حتى يرجعوا عما همّت به نفوسهم ولم يعاجلهم بالعقوبة، بل رفق بهم حتى رجعوا إلى رشدهم وصوابهم، إنه بهم ذو رأفة ورحمة.

وينحو هذا قال أهل العلم.

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره: لقد رزق الله الإنابة إلى أمره وطاعته، نبيّه محمداً ﷺ، والمهاجرين ديارهم وعشيرتهم إلى دار الإسلام، وأنصار رسول الله ﷺ، الذين اتبعوا رسول الله ﷺ في ساعة العسرة منهم من النفقة والظهر والزاد والماء، ﴿مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ﴾، يقول: من بعد ما كاد يميل قلوب بعضهم عن الحق، ويشك في دينه ويرتاب، بالذي ناله من المشقة والشدة في سفره وغزوه، ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ﴾، يقول: ثم رزقهم جل ثناؤه الإنابة والرجوع إلى الثبات على دينه، وإبصار الحق الذي كان قد كاد يلتبس عليهم، ﴿إِنَّهُمْ بِهِمْ رَعَوْا وَفَرَّحُوا بِرَحِيمِهِ﴾، يقول: إن ربكم بالذين خالط قلوبهم ذلك لما نالهم في سفرهم من الشدة والمشقة رءوف بهم، ﴿رَحِيمٌ﴾، أن يهلكهم، فينزع منهم الإيمان بعد ما قد أبلوا في الله ما أبلوا مع رسوله، وصبروا عليه من البأساء والضراء.

وأورد الطبري بإسناد حسن عن قتادة قوله: ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ﴾، الآية، الذين اتبعوا رسول الله ﷺ في غزوة تبوك قبل الشام في لهبان الحرّ على ما يعلم الله من الجهد، أصابهم فيها جهدٌ شديد، حتى لقد ذكر لنا أن الرجلين كانا يشقان التمرة بينهما، وكانا نفر يتناولون التمرة بينهما، يمشيها هذا ثم يشرب عليها، ثم يمشيها هذا ثم يشرب عليها، فتأب الله عليهم وأقفلهم من غزوهم.

وبإسناد صحيح عن عبد الله بن عباس: أنه قيل لعمر بن الخطاب رحمة الله عليه في شأن العسرة، فقال عمر: خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى تبوك في قيظ شديد، فنزلنا منزلاً أصابنا فيه عطش، حتى ظننا أن رقابنا ستقطع، حتى إن كان الرجل ليذهب

يلتمسُ الماء فلا يرجع حتى يظن أن رقبته ستقطع، حتى إن الرجل لينحر بغيره، فيعصر فَرْثَهُ فيشربه، ويجعل ما بقي على كبده، فقال أبو بكر: يا رسول الله، إن الله قد عوّدك في الدعاء خيراً، فادع لنا! قال: تحب ذلك؟ قال: نعم! فرفع يديه، فلم يرَ جَعهما حتى قالت السماء، فأظلت، ثم سكبت، فملؤوا ما معهم، ثم ذهبنا ننظر فلم نجدَها، جاوزت العسكر.

قال القرطبي رَحِمَهُ اللهُ:

واختلف العلماء في هذه التوبة التي تابها الله على النبي والمهاجرين والأنصار على أقوال فقال ابن عباس: كانت التوبة على النبي لأجل إذنه للمنافقين في القعود دليله قوله: ﴿عَفَا اللهُ عَنْكَ لِمَ أَذْنَتْ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٤٣] وعلى المؤمنين من ميل قلوب بعضهم إلى التخلف عنه. وقيل: توبة الله عليهم استنقاذهم من شدة العسرة. وقيل: خلاصهم من نكاية العدو، وعبر عن ذلك بالتوبة وإن خرج عن عرفها لوجود معنى التوبة فيه وهو الرجوع إلى الحالة الأولى. وقال أهل المعاني: إنما ذكر النبي ﷺ في التوبة لأنه لما كان سبب توبتهم ذكر معهم كقوله: ﴿فَأَنَّى لِلَّهِ مُخْسَكُهُ وَلِلرَّسُولِ﴾ [الأنفال: ٤١].

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ﴾ أي: في وقت العسرة، والمراد جميع أوقات تلك الغزاة ولم يرد ساعة بعينها. وقيل: ساعة العسرة أشد الساعات التي مرت بهم في تلك الغزاة. والعسرة صعوبة الأمر. قال جابر: اجتمع عليهم عسرة الظهر وعسرة الزاد وعسرة الماء. قال الحسن: كانت العسرة من المسلمين يخرجون على بغير يعتقبونه بينهم وكان زادهم التمر المتسوس والشعير المتغير والإهالة الممتنة وكان نفر يخرجون ما معهم - إلا التمرات - بينهم فإذا بلغ الجوع من أحدهم أخذ التمرة فلاكها حتى يجد طعمها ثم يعطيها صاحبه حتى يشرب عليها جرعة من ماء كذلك حتى تأتي على آخرهم فلا يبقى من التمرة إلا النواة فمضوا مع النبي ﷺ على صدقهم ويقينهم رَحِمَهُ اللهُ.

وقال القرطبي أيضاً:

واختلف في معنى تزيغ، فقليل: تتلف بالجهد والمشقة والشدة. وقال ابن عباس:

تعدل - أي: تميل - عن الحق في الممانعة والنصرة. وقيل: من بعد ما هم فريق منهم بالتخلف والعصيان ثم لحقوا به وقيل: هموا بالقفول فتاب الله عليهم وأمرهم به. قوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ﴾ قيل: توبته عليهم أن تدارك قلوبهم حتى لم تنزع، وكذلك سنة الحق مع أوليائه إذا أشرفوا على العطب، ووطنوا أنفسهم على الهلاك أمطر عليهم سحائب الجود فأحيا قلوبهم.

وقال كذلك:

﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا﴾ ف قيل: معنى ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ﴾ أي: وفقهم للتوبة ليتوبوا. وقيل: المعنى تاب عليهم؛ أي فسخ لهم ولم يعجل عقابهم ليتوبوا. وقيل: تاب عليهم ليشبوا على التوبة. وقيل: المعنى تاب عليهم ليرجعوا إلى حال الرضا عنهم. وبالجمله فلولا ما سبق لهم في علمه أنه قضى لهم بالتوبة ما تابوا؛ دليله قوله ﷺ: «اعملوا فكل ميسر لما خلق له».

قال ابن الجوزي (زاد المسير):

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ﴾ قال المفسرون: تاب عليه من إذنه للمنافقين في التخلف. وقال أهل المعاني: هو مفتاح كلام، وذلك أنه لما كان سبب توبة التائبين، ذكر معهم كقوله: ﴿فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ﴾ [الأنفال: ٤١]. قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ﴾ قال الزجاج: هم الذين اتبعوه في غزوة تبوك، والمراد بساعة العسرة: وقت العسرة، لأن الساعة تقع على كل الزمان، وكان في ذلك الوقت حرٌّ شديدٌ، والقوم في ضيقة شديدة، كان الجمل بين جماعة يعتقبون عليه، وكانوا في فقر، فربما اقتسم التمرة اثنان، وربما مص التمرة الجماعة ليشربوا عليها الماء، وربما نحروا الإبل فشربوا من ماء كروشها من الحر.

وقال رحمه الله:

﴿مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ﴾ قرأ حمزة وحفص عن عاصم (كَادَ يَزِيغُ) بالياء وقرأ الباقر بالتاء وفي معنى الكلام ثلاثة أقوال: أحدها: تميل إلى التخلف عنه، وهم ناس من المسلمين هموا بذلك، ثم لحقوه. قاله أبو صالح عن ابن عباس.

والثاني: أن القلوب مالت إلى الرجوع للشدة التي لقوها ولم تنزع عن الإيمان. قاله الزجاج.

والثالث: أن القلوب كادت تزيع تلقاً بالجهد والشدة ذكره الماوردي. قوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ﴾ كرر ذكر التوبة لأنه ليس في ابتداء الآية ذكر ذنبهم فقدم ذكر التوبة فضلاً منه ثم ذكر ذنبه ثم أعاد ذكر التوبة.

قال السعدي رحمه الله (تيسير الكريم الرحمن):

يخبر تعالى أنه من لطفه وإحسانه تَابَ عَلَى النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ ﷺ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ ﴿فَغَفَرَ لَهُمُ الزَّلَاتِ، وَوَفَّرَ لَهُمُ الْحَسَنَاتِ، وَرَقَاهُمْ إِلَى أَعْلَى الدَّرَجَاتِ، وَذَلِكَ بِسَبَبِ قِيَامِهِمْ بِالْأَعْمَالِ الصَّعْبَةِ الشَّاقَاتِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ﴾ أي: خرجوا معه لقتال الأعداء في وقعة «تبوك» وكانت في حر شديد، وضيق من الزاد والركوب، وكثرة عدد، مما يدعو إلى التخلف.

فاستعانوا الله تعالى، وقاموا بذلك ﴿مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ﴾ أي: تنقلب قلوبهم، ويميلوا إلى الدعة والسكون، ولكن الله ثبتهم وأيدهم وقواهم. وَزَيَّغَ الْقَلْبُ هُوَ انْحِرَافُهُ عَنِ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ، فَإِنْ كَانَ الانْحِرَافُ فِي أَصْلِ الدِّينِ، كَانَ كُفْرًا، وَإِنْ كَانَ فِي شَرَائِعِهِ، كَانَ بِحَسَبِ تِلْكَ الشَّرِيعَةِ، الَّتِي زَاغَ عَنْهَا، إِمَّا قَصَرَ عَنْ فَعْلِهَا، أَوْ فَعَلَهَا عَلَى غَيْرِ الْوَجْهِ الشَّرْعِيِّ.

وقوله: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ﴾ أي: قبل توبتهم ﴿إِنَّهُمْ بِهِمْ رَءَوْفٌ رَّحِيمٌ﴾ ومن رأفته ورحمته أَنْ مَنَّ عَلَيْهِمْ بِالتَّوْبَةِ، وَقَبَّلَهَا مِنْهُمْ وَثَبَّتَهُمْ عَلَيْهَا.

الثلاثة الذين خَلَفُوا وقصصتهم

س: من هم الثلاثة الذين خلفوا؟

ج: هم كعب بن مالك وهلال بن أمية ومرارة بن الربيع، وقيل: ابن ربيعة.

س: اذكر قصة الثلاثة الذين خَلَفُوا كما جاءت في الصحيحين مع بيان سبب نزول

الآية: ﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا...﴾؟

ج: أخرج البخاري ومسلم^(١) في صحيحيهما من حديث كعب بن مالك رضي الله عنه

(١) البخاري (٤٤١٨)، ومسلم (٢٧٦٩).

قال: لَمْ أَتَخَلَّفْ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي غَزْوَةٍ غَزَاهَا قَطُّ. إِلَّا فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ. غَيْرَ أَنِّي قَدْ تَخَلَّفْتُ فِي غَزْوَةِ بَدْرٍ. وَلَمْ يُعَاتِبْ أَحَدًا تَخَلَّفَ عَنْهُ. إِنَّمَا خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَالْمُسْلِمُونَ يُرِيدُونَ عِيرَ قُرَيْشٍ. حَتَّى جَمَعَ اللَّهُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ عَدُوِّهِمْ، عَلَى غَيْرِ مِيعَادٍ وَلَقَدْ شَهِدْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَيْلَةَ الْعَقَبَةِ^(١)، حِينَ تَوَاقَفْنَا عَلَى الْإِسْلَامِ^(٢)، وَمَا أُحِبُّ أَنْ لِي بِهَا مَشْهَدَ بَدْرٍ، وَإِنْ كَانَتْ بَدْرٌ أَذْكَرُ^(٣) فِي النَّاسِ مِنْهَا، وَكَانَ مِنْ خَبَرِي حِينَ تَخَلَّفْتُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ، أَنِّي لَمْ أَكُنْ قَطُّ أَقْوَى وَلَا أَيْسَرَ مِنِّي حِينَ تَخَلَّفْتُ عَنْهُ فِي تِلْكَ الْغَزْوَةِ، وَاللَّهُ مَا جَمَعْتُ قَبْلَهَا رَاحِلَتَيْنِ قَطُّ حَتَّى جَمَعْتُهُمَا فِي تِلْكَ الْغَزْوَةِ، فَغَزَاهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي حَرٍّ شَدِيدٍ، وَاسْتَقْبَلَ سَفَرًا بَعِيدًا وَمَفَازًا^(٤)، وَاسْتَقْبَلَ عَدُوًّا كَثِيرًا فَجَلَا لِلْمُسْلِمِينَ أَمْرُهُمْ^(٥)، لِيَتَأَهَّبُوا أَهْبَةَ غَزْوِهِمْ^(٦) فَأَخْبَرَهُمْ بِوَجْهِهِمْ^(٧) الَّذِي يُرِيدُ، وَالْمُسْلِمُونَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ كَثِيرٌ وَلَا يَجْمَعُهُمْ كِتَابٌ حَافِظٌ (يُرِيدُ بِذَلِكَ الدِّيَوَانَ). قَالَ كَعْبٌ: فَقُلَّ رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَتَغَيَّبَ^(٨)، يَظُنُّ أَنَّ ذَلِكَ سَيَخْفَى لَهُ، مَا لَمْ يَنْزِلْ فِيهِ وَحْيٌ مِنَ اللَّهِ ﷻ، وَغَزَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ تِلْكَ الْغَزْوَةَ حِينَ طَابَتْ الثَّمَارُ وَالظَّلَالُ، فَأَنَّا إِلَيْهَا أَصْعَرُ^(٩)، فَتَجَهَّزَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَالْمُسْلِمُونَ مَعَهُ، وَطَفِئَتْ أَغْدُو لِكَيْ أَتَجَهَّزَ مَعَهُمْ فَأَرْجِعُ، وَلَمْ أَقْضِ شَيْئًا، وَأَقُولُ فِي نَفْسِي أَنَا قَادِرٌ عَلَى ذَلِكَ

(١) (ليلة العقبة) هي الليلة التي بايع رسول الله ﷺ الأنصار فيها على الإسلام. وأن يؤوه وينصروه. وهي العقبة التي في طرف منى، التي يضاف إليها جمره العقبة. وكانت بيعة العقبة مرتين، في سنتين. في السنة الأولى كانوا اثني عشر، وفي الثانية سبعين. كلهم من الأنصار ﷺ.

(٢) (تواقفنا على الإسلام) أي: تبايعنا عليه وتعاهدنا.

(٣) (وإن كانت بدر أذكى) أي: أشهر عند الناس بالفضيلة.

(٤) (ومفازا) أي: برية طويلة قليلة الماء، يخاف فيها الهلاك.

(٥) (فجلا للمسلمين أمرهم) أي: كشفه وبينه وأوضحه. وعرفهم ذلك على وجهه من غير تورية. يقال: جلوت الشيء كشفته.

(٦) (ليتأهبوا أهبة غزوهم) أي: ليستعدوا بما يحتاجون إليه في سفرهم ذلك.

(٧) (فأخبرهم بوجههم) أي: بمقصدهم.

(٨) (فقل رجل يريد أن يتغيب... إلخ) قال القاضي: هكذا هو جميع نسخ مسلم. وصوابه: إلا يظن أن ذلك سيخفى له. بزيادة إلا. وكذا رواه البخاري.

(٩) (فأنا إليها أصعر) أي: أميل.

إِذَا أَرَدْتُ، فَلَمْ يَزَلْ ذَلِكَ يَتِمَادَى بِي، حَتَّى اسْتَمَرَّ بِالنَّاسِ الْجِدُّ، فَأَصْبَحَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَادِيًا، وَالْمُسْلِمُونَ مَعَهُ وَلَمْ أَفْضِ مِنْ جَهَازِي شَيْئًا ثُمَّ غَدَوْتُ فَرَجَعْتُ، وَلَمْ أَفْضِ شَيْئًا، فَلَمْ يَزَلْ ذَلِكَ يَتِمَادَى بِي حَتَّى أَسْرَعُوا، وَتَفَارَطَ الْغَزْوُ^(١)، فَهَمَمْتُ أَنْ أَرْتَحِلَ فَأُدْرِكَهُمْ فَيَا لَيْتَنِي فَعَلْتُ ثُمَّ لَمْ يَقْدَرْ ذَلِكَ لِي، فَطَفِقْتُ إِذَا خَرَجْتُ فِي النَّاسِ بَعْدَ خُرُوجِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَحْزُنُنِي أَنِّي لَا أَرَى لِي أُسْوَةً إِلَّا رَجُلًا مَعْمُوصًا عَلَيْهِ فِي النِّفَاقِ^(٢)، أَوْ رَجُلًا مِمَّنْ عَذَرَ اللَّهُ مِنَ الضُّعَفَاءِ وَلَمْ يَذْكُرْنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، حَتَّى بَلَغَ تَبُوكًا^(٣) فَقَالَ وَهُوَ جَالِسٌ فِي الْقَوْمِ تَبُوكًا: «مَا فَعَلَ كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ»، قَالَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي بَنِي سَلَمَةَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ حَبَسَهُ بُرْدَاهُ وَالنَّظَرُ فِي عِطْفِيهِ^(٤) فَقَالَ لَهُ مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ: بَشَسَ مَا قُلْتَ وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ إِلَّا خَيْرًا فَسَكَتَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَبَيْنَمَا هُوَ عَلَى ذَلِكَ رَأَى رَجُلًا مَبِيضًا^(٥) يَزُولُ بِهِ السَّرَابُ^(٦) فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «كُنْ أَبَا خَيْثَمَةَ»^(٧) خَيْثَمَةَ^(٧) فَإِذَا هُوَ أَبُو خَيْثَمَةَ الْأَنْصَارِيُّ وَهُوَ الَّذِي تَصَدَّقَ بِصَاعِ التَّمْرِ حِينَ لَمَزَهُ الْمُنَافِقُونَ^(٨).

فَقَالَ كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ: فَلَمَّا بَلَغَنِي أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَدْ تَوَجَّهَ قَافِلًا^(٩) مِنْ تَبُوكَ حَضَرَنِي بَنِي^(١٠) فَطَفِقْتُ أَتَذَكَّرُ الْكَذِبَ وَأَقُولُ بِمَ أَخْرَجُ مِنْ سَخَطِهِ غَدًا وَأَسْتَعِينُ عَلَى

(١) (وَتَفَارَطَ الْغَزْوُ) أي: تقدم الغزاة وسبقوا وفاتوا.

(٢) (مَعْمُوصًا عَلَيْهِ فِي النِّفَاقِ) أي: مُتَهَمًا بِهِ.

(٣) (حَتَّى بَلَغَ تَبُوكًا) هو في أكثر النسخ: تبوكًا، بالنصب. وكذا هو في نسخ البخاري. وكأنه صرفها لإرادة الموقع، دون البقعة.

(٤) (وَالنَّظَرُ فِي عِطْفِيهِ) أي: جانبه. وهو إشارة إلى إعجابه بنفسه ولباسه.

(٥) (مَبِيضًا) هو لابس البياض. ويقال: هم المبيضة والمسودة، أي: لابسو البياض والسواد.

(٦) (يَزُولُ بِهِ السَّرَابُ) أي: يتحرك وينهض والسراب هو ما يظهر للإنسان في الهواجر، وفي البراري كأنه ماء.

(٧) (كُنْ أَبَا خَيْثَمَةَ) قيل: معناه أنت أبو خيثمة. قال ثعلب: العرب تقول: كن زيدًا، أي: أنت زيد. قال القاضي عياض: والأشبه عندي أن كن هنا للتحقق والوجود. أي: لتوجد، يا هذا الشخص، أبا خيثمة حقيقة. وهذا الذي قاله القاضي هو الصواب. وهو معنى قول صاحب التحرير: تقديره اللهم اجعله أبا خيثمة.

(٨) (لَمَزَهُ الْمُنَافِقُونَ) أي: عابوه واحتقروه.

(٩) (تَوَجَّهَ قَافِلًا) أي: راجعًا.

(١٠) (حَضَرَنِي بَنِي) هو أشد الحزن.

ذَلِكَ كُلِّ ذِي رَأْيٍ مِنْ أَهْلِي فَلَمَّا قِيلَ لِي إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَدْ أَظَلَّ قَادِمًا^(١) زَاحَ^(٢) عَنِّي عَنِّي الْبَاطِلُ حَتَّى عَرَفْتُ أَنِّي لَنْ أَنْجُو مِنْهُ بِشَيْءٍ أَبَدًا فَأَجْمَعْتُ صِدْقَهُ^(٣)، وَصَبَحَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَادِمًا وَكَانَ إِذَا قَدِمَ مِنْ سَفَرٍ بَدَأَ بِالْمَسْجِدِ فَرَكَعَ فِيهِ رَكَعَتَيْنِ. ثُمَّ جَلَسَ لِلنَّاسِ فَلَمَّا فَعَلَ ذَلِكَ جَاءَهُ الْمُخَلَّفُونَ فَطَفِقُوا يَعْتَذِرُونَ إِلَيْهِ وَيَحْلِفُونَ لَهُ وَكَانُوا بِضَعَةِ وَثَمَانِينَ رَجُلًا فَقَبِلَ مِنْهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَانِيَتَهُمْ وَبَايَعَهُمْ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمْ وَوَكَّلَ سَرَائِرَهُمْ إِلَى اللَّهِ حَتَّى جِئْتُ فَلَمَّا سَلَّمْتُ تَبَسَّمَ تَبَسُّمُ الْمُغْضَبِ ثُمَّ قَالَ: «تَعَالَى» فَجِئْتُ أَمْشِي حَتَّى جَلَسْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ فَقَالَ لِي: «مَا خَلَّفَكَ أَلَمْ تَكُنْ قَدْ ابْتِغَتْ ظَهْرَكَ» قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي وَاللَّهِ لَوْ جَلَسْتُ عِنْدَ غَيْرِكَ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا لَرَأَيْتُ أَنِّي سَأَخْرُجُ مِنْ سَخَطِهِ بَعْدُ وَلَقَدْ أُعْطِيتُ جَدَلًا^(٤). وَلَكِنِّي وَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُ لَنْ حَدَّثْتُكَ الْيَوْمَ حَدِيثَ كَذِبٍ تَرْضَى بِهِ عَنِّي لِيُوشِكَ^(٥) اللَّهُ أَنْ يُسَخِّطَكَ عَلَيَّ، وَلَنْ حَدَّثْتُكَ حَدِيثَ صِدْقٍ تَجِدُ عَلَيَّ فِيهِ^(٦) إِنِّي لَا رَجُو فِيهِ عُقْبَى اللَّهِ^(٧). وَاللَّهُ مَا كَانَ لِي عُذْرٌ وَاللَّهُ مَا كُنْتُ كُنْتُ قَطُّ أَفْوَى وَلَا أَيْسَرَ مِنِّي حِينَ تَخَلَّفْتُ عَنْكَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَمَّا هَذَا فَقَدْ صَدَّقَ» فَقُمْتُ حَتَّى يَقْضِيَ اللَّهُ فِيكَ فَقُمْتُ وَثَارَ رَجَالٌ مِنْ بَنِي سَلَمَةَ فَاتَّبَعُونِي فَقَالُوا لِي: وَاللَّهِ مَا عَلِمْنَاكَ أَذْنَبْتَ ذَنْبًا قَبْلَ هَذَا لَقَدْ عَجَزْتَ فِي أَنْ لَا تَكُونَ اعْتَذَرْتَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِمَا اعْتَذَرَ بِهِ إِلَيْهِ الْمُخَلَّفُونَ فَقَدْ كَانَ كَافِيكَ ذَنْبِكَ اسْتَغْفَارَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لَكَ. قَالَ: فَوَاللَّهِ مَا زَالُوا يُؤْتِبُونَنِي^(٨) حَتَّى أَرَدْتُ أَنْ أَرْجِعَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ. فَأَكْذَبَ نَفْسِي قَالَ: ثُمَّ قُلْتُ لَهُمْ: هَلْ لَقِي هَذَا مَعِيَ مِنْ أَحَدٍ قَالُوا: نَعَمْ لَقِيَهُ مَعَكَ رَجُلَانِ قَالَا مِثْلَ مَا قُلْتَ فَقِيلَ لَهُمَا مِثْلَ مَا قِيلَ لَكَ قَالَ: قُلْتُ: مَنْ هُمَا؟ قَالُوا: مُرَارَةُ بْنُ الرَّبِيعَةِ

(١) (أَظَلَّ قَادِمًا) أي: أقبل ودنا قدومه كأنه ألقى علي ظله.

(٢) (زَاحَ) أي: زال.

(٣) (فَأَجْمَعْتُ صِدْقَهُ) أي: عزمته عليه. يقال: أجمع أمره وعلى أمره، وعزم عليه، بمعنى.

(٤) (أُعْطِيتُ جَدَلًا) أي: فصاحة وقوة في الكلام وبراعة، بحيث أخرج عن عهدة ما ينسب إلي إذا أردت.

(٥) (لِيُوشِكَ) أي: ليسر عن.

(٦) (تَجِدُ عَلَيَّ فِيهِ) أي: تغضب.

(٧) (إِنِّي لَا رَجُو فِيهِ عُقْبَى اللَّهِ) أي: أن يعقبنى خيرًا، وأن يثني علي.

(٨) (يُؤْتِبُونَنِي) أي: يلومونني أشد اللوم.

الْعَامِرِيُّ^(١)، وَهَلَالُ بْنُ أُمَيَّةَ الْوَاقِفِيُّ قَالَ: فَذَكَرُوا لِي رَجُلَيْنِ صَالِحَيْنِ قَدْ شَهِدَا بَدْرًا فِيهِمَا أُسُوءَةٌ قَالَ: فَمَضَيْتُ حِينَ ذَكَرُوهُمَا لِي قَالَ: وَنَهَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْمُسْلِمِينَ عَنْ كَلَامِنَا، أَيُّهَا الثَّلَاثَةُ^(٢)، مِنْ بَيْنِ مَنْ تَخَلَّفَ عَنْهُ.

قَالَ: فَاجْتَنَبْنَا النَّاسَ وَقَالَ: تَغَيَّرُوا لَنَا حَتَّى تَنَكَّرْتُ لِي فِي نَفْسِي الْأَرْضُ فَمَا هِيَ بِالْأَرْضِ الَّتِي أَعْرِفُ^(٣)، فَلَبِثْنَا عَلَى ذَلِكَ خَمْسِينَ لَيْلَةً فَأَمَّا صَاحِبَايَ فَاسْتَكَانَا^(٤) وَقَعَدَا فِي بُيُوتِهِمَا يَبْكِيَانِ وَأَمَّا أَنَا فَكُنْتُ أَشَبَّ الْقَوْمِ وَأَجْلَدَهُمْ^(٥) فَكُنْتُ أَخْرُجُ فَأَشْهَدُ فَأَشْهَدُ الصَّلَاةَ وَأَطُوفُ فِي الْأَسْوَاقِ وَلَا يُكَلِّمُنِي أَحَدٌ وَآتَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَأَسْلَمَ عَلَيْهِ وَهُوَ فِي مَجْلِسِهِ بَعْدَ الصَّلَاةِ فَأَقُولُ فِي نَفْسِي هَلْ حَرَكَ شَفَتَيْهِ بِرَدِّ السَّلَامِ أَمْ لَا ثُمَّ أَصْلِي قَرِيبًا مِنْهُ وَأَسَارِقُهُ النَّظَرَ فَإِذَا أَقْبَلْتُ عَلَى صَلَاتِي نَظَرَ إِلَيَّ وَإِذَا التَفْتُ نَحْوَهُ أَعْرَضَ عَنِّي حَتَّى إِذَا طَالَ ذَلِكَ عَلَيَّ مِنْ جَفْوَةِ الْمُسْلِمِينَ مَشَيْتُ حَتَّى تَسَوَّرْتُ^(٦) جِدَارَ حَائِطِ أَبِي قَتَادَةَ وَهُوَ ابْنُ عَمِّي وَأَحَبُّ النَّاسِ إِلَيَّ فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ فَوَاللَّهِ مَا رَدَّ عَلَيَّ السَّلَامَ فَقُلْتُ لَهُ: يَا أَبَا قَتَادَةَ! أَنْشُدْكَ بِاللَّهِ^(٧) هَلْ تَعْلَمَنَّ أَنِّي أُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ قَالَ: فَسَكَتَ فَعُدْتُ فَنَاشِدْتُهُ فَسَكَتَ فَعُدْتُ فَنَاشِدْتُهُ فَقَالَ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ ففَاضَتْ عَيْنَايَ وَتَوَلَّيْتُ حَتَّى تَسَوَّرْتُ الْجِدَارَ.

فَبَيْنَا أَنَا أَمْشِي فِي سُوقِ الْمَدِينَةِ إِذَا نَبْطِيٍّ مِنْ نَبْطِ أَهْلِ الشَّامِ^(٨)، مِمَّنْ قَدِمَ بِالطَّعَامِ

(١) (الْعَامِرِيُّ) هكذا هو في جميع نسخ مسلم: العامري. وأنكره العلماء وقالوا: هو غلط إنما صوابه العُمري. من بني عمرو بن عوف. وكذا ذكره البخاري. وكذا نسبه محمد بن إسحاق وابن عبد البر، وغيرهما من الأئمة. قال القاضي: هو الصواب.

(٢) (أَيُّهَا الثَّلَاثَةُ) قال القاضي: هو بالرفع، وموضعه نصب على الاختصاص. قال سيبويه، نقلًا عن العرب: اللهم اغفر لنا، أيها العصاة، وهذا مثله.

(٣) (فَمَا هِيَ بِالْأَرْضِ الَّتِي أَعْرِفُ) معناه: تَغَيَّرَ عَلَيَّ كُلُّ شَيْءٍ. حتى الأرض، فإنها توحشت عليّ وصارت كأنها أرض لم أعرفها، بتوحشها عليّ.

(٤) (فَاسْتَكَانَا) أي: خضعا.

(٥) (أَشَبَّ الْقَوْمِ وَأَجْلَدَهُمْ) أي: أصغرهم سنًا وأقواهم.

(٦) (حَتَّى تَسَوَّرْتُ) معنى: تسوّرت علوته وصعدت سوره، وهو أعلاه.

(٧) (أَنْشُدْكَ بِاللَّهِ) أي: أسألك بالله، وأصله من النشيد، وهو الصوت.

(٨) (نَبْطِيٍّ مِنْ نَبْطِ أَهْلِ الشَّامِ) أي: النبط والأنباط والنبيط، وهم فلاحو العجم.

يَبِيعُهُ بِالْمَدِينَةِ يَقُولُ مَنْ يَدُلُّ عَلَى كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: فَطَفِقَ النَّاسُ يُشِيرُونَ لَهُ إِلَى حَتَّى جَاءَنِي فَدَفَعَ إِلَيَّ كِتَابًا مِنْ مَلِكِ عَسَانَ وَكُنْتُ كَاتِبًا فَقَرَأْتُهُ فَإِذَا فِيهِ أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّهُ قَدْ بَلَغَنَا أَنَّ صَاحِبَكَ قَدْ جَفَاكَ وَلَمْ يَجْعَلْكَ اللَّهُ بِدَارِ هَوَانٍ وَلَا مَضِيعَةٍ^(١)، فَالْحَقُّ بِنَا نُوَاسِكَ^(٢). قَالَ: فَقُلْتُ: حِينَ قَرَأْتُهَا وَهَذِهِ أَيْضًا مِنَ الْبَلَاءِ فَتَيَّامَمْتُ^(٣) بِهَا التَّنُورَ فَسَجَرْتُهَا^(٤) بِهَا حَتَّى إِذَا مَضَتْ أَرْبَعُونَ مِنَ الْخَمْسِينَ وَاسْتَلَبْتُ الْوَحْيَ^(٥) إِذَا رَسُولُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَأْتِينِي فَقَالَ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بِأَمْرِكَ أَنْ تَعْتَزَلَ أَمْرَاتِكَ قَالَ: فَقُلْتُ: أَطْلُقُهَا أَمْ مَاذَا أَفْعَلُ؟ قَالَ: لَا بَلْ اعْتَزِلْهَا فَلَا تَقْرَبْنَهَا قَالَ: فَأَرْسَلَ إِلَيَّ صَاحِبِي بِمِثْلِ ذَلِكَ قَالَ: فَقُلْتُ: لَا مَرَاتِي الْحَقِّي بِأَهْلِكَ فَكُونِي عِنْدَهُمْ حَتَّى يَقْضِيَ اللَّهُ فِي هَذَا الْأَمْرِ قَالَ: فَجَاءَتْ أَمْرَأَةٌ هَلَالِ بْنِ أُمَيَّةَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَتْ لَهُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ هِلَالَ بْنَ أُمَيَّةَ شَيْخٌ ضَائِعٌ لَيْسَ لَهُ خَادِمٌ فَهَلْ تَكْرَهُ أَنْ أَخْدُمَهُ قَالَ: لَا وَلَكِنْ لَا يَقْرَبَنَّكَ فَقَالَتْ: إِنَّهُ وَاللَّهِ مَا بِهِ حَرَكَةٌ إِلَى شَيْءٍ وَاللَّهِ مَا زَالَ يَبْكِي مُنْذُ كَانَ مِنْ أَمْرِهِ مَا كَانَ إِلَى يَوْمِهِ هَذَا قَالَ: فَقَالَ لِي: بَعْضُ أَهْلِي لَوْ اسْتَأْذَنْتَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فِي أَمْرَاتِكَ فَقَدْ أَذِنَ لِأَمْرَأَةِ هِلَالِ بْنِ أُمَيَّةَ أَنْ تَخْدُمَهُ قَالَ: فَقُلْتُ: لَا اسْتَأْذَنْ فِيهَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَمَا يُدْرِينِي مَاذَا يَقُولُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا اسْتَأْذَنْتُهُ فِيهَا وَأَنَا رَجُلٌ شَابٌّ قَالَ: فَلَبِثْتُ بِذَلِكَ عَشْرَ لَيَالٍ فَكَمَلْتُ لَنَا خَمْسُونَ لَيْلَةً مِنْ حِينَ نَهَيْ عَنْ كَلَامِنَا قَالَ: ثُمَّ صَلَّيْتُ صَلَاةَ الْفَجْرِ صَبَاحَ خَمْسِينَ لَيْلَةً عَلَى ظَهْرِ بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِنَا فَبَيْنَا أَنَا جَالِسٌ عَلَى الْحَالِ الَّتِي ذَكَرَ اللَّهُ ﷻ مِنَّا قَدْ ضَاقَتْ عَلَيَّ نَفْسِي وَضَاقَتْ عَلَيَّ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ^(٦) سَمِعْتُ صَوْتَ صَارِخٍ

(١) (مَضِيعَةٍ) فِيهَا لُغَتَانِ: إِحْدَاهُمَا مَضِيعَةٌ، وَالثَّانِيَةُ مَضِيعَةٌ. أَيِ مَضِعٍ حَالٍ يَضِيعُ فِيهِ حَقُّكَ.

(٢) (نُوَاسِكَ) وَفِي بَعْضِ النُّسخِ: نُوَاسِيكَ، بِزِيَادَةِ يَاءٍ. وَهُوَ صَحِيحٌ، أَيِ: وَنَحْنُ نُوَاسِيكَ، وَقَطَعَهُ عَنْ جَوَابِ الْأَمْرِ، وَمَعْنَاهُ نَشَارَكَكَ فِيمَا عِنْدَنَا.

(٣) (فَتَيَّامَمْتُ) هَكَذَا هُوَ فِي جَمِيعِ النُّسخِ بِبِلَادِنَا، وَهِيَ لُغَةٌ فِي تَيْمَمَتٍ. وَمَعْنَاهَا قَصَدْتُ.

(٤) (فَسَجَرْتُهَا) أَيِ: أَحْرَقْتُهَا. وَأَنْتَ الضَّمِيرُ؛ لِأَنَّهُ أَرَادَ مَعْنَى الْكِتَابِ، وَهُوَ الصَّحِيفَةُ.

(٥) (وَاسْتَلَبْتُ الْوَحْيَ) أَيِ: أَبْطَأْتُ.

(٦) (وَضَاقَتْ عَلَيَّ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ) أَيِ: بِمَا اتَّسَعَتْ. وَمَعْنَاهُ: ضَاقَتْ عَلَيَّ الْأَرْضُ مَعَ أَنَّهَا مَتَّسَعَةٌ. وَالرَّحْبُ السَّعَةُ.

أَوْفَى عَلَى سَلْعٍ ^(١) يَقُولُ بِأَعْلَى صَوْتِهِ يَا كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ أَبَشِرْ قَالَ: فَخَرَرْتُ سَاجِدًا وَعَرَفْتُ أَنَّ قَدْ جَاءَ فَرَجٌ.

قَالَ: فَأَذَنَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ النَّاسَ ^(٢) بِتُوبَةِ اللَّهِ عَلَيْنَا حِينَ صَلَّى صَلَاةَ الْفَجْرِ فَذَهَبَ النَّاسُ يُبَشِّرُونَنَا فَذَهَبَ قَبْلَ صَاحِبِي مُبَشِّرُونَ وَرَكَضَ رَجُلٌ إِلَيَّ فَرَسًا وَسَعَى سَاعَ مَنْ أَسْلَمَ قِبَلِي وَأَوْفَى الْجَبَلِ فَكَانَ الصَّوْتُ أَسْرَعَ مِنَ الْفَرَسِ فَلَمَّا جَاءَنِي الَّذِي سَمِعْتُ صَوْتَهُ يُبَشِّرُنِي فَتَزَعْتُ لَهُ تَوْبَتِي فَكَسَوْتُهُمَا إِيَّاهُ بِبِشَارَتِهِ وَاللَّهُ مَا أَمْلِكُ غَيْرَهُمَا يَوْمَئِذٍ وَاسْتَعَرْتُ ثَوْبَيْنِ فَلَبِسْتُهُمَا فَاَنْطَلَقْتُ أَتَأَمُّمُ ^(٣) رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَتَلَقَّانِي النَّاسُ فَوْجًا فَوْجًا ^(٤) يَهْتَوْنِي بِالتَّوْبَةِ وَيَقُولُونَ لِبَتِّهِنَّكَ تَوْبَةُ اللَّهِ عَلَيْكَ حَتَّى دَخَلْتُ الْمَسْجِدَ فَإِذَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ جَالِسٌ فِي الْمَسْجِدِ وَحَوْلَهُ النَّاسُ فَقَامَ طَلْحَةُ بْنُ عُبَيْدٍ اللَّهُ يَهْرُولُ حَتَّى صَافَحَنِي وَهَنَانِي وَاللَّهُ مَا قَامَ رَجُلٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ غَيْرُهُ قَالَ: فَكَانَ كَعْبٌ لَا يَنْسَاهَا لِطَلْحَةَ.

قَالَ كَعْبٌ: فَلَمَّا سَلَّمْتُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: وَهُوَ يَبْرِقُ وَجْهُهُ مِنَ الشَّرُورِ وَيَقُولُ: «أَبَشِرْ بِخَيْرِ يَوْمٍ مَرَّ عَلَيْكَ مُنْذُ وَلَدَتْكَ أُمُّكَ» قَالَ: فَقُلْتُ: أَمِنْ عِنْدِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَمْ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ؟ فَقَالَ: «لَا بَلْ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ» وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا سُرَّ اسْتَنَارَ وَجْهُهُ كَأَنَّ وَجْهَهُ قِطْعَةُ قَمَرٍ قَالَ: وَكُنَّا نَعْرِفُ ذَلِكَ.

قَالَ: فَلَمَّا جَلَسْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ مِنْ تَوْبَتِي أَنْ أَنْخَلِعَ مِنْ مَالِي ^(٥) صَدَقَةً إِلَى اللَّهِ وَإِلَى رَسُولِهِ ﷺ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أُمْسِكْ بَعْضَ مَالِكَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ» قَالَ: فَقُلْتُ: فَإِنِّي أُمْسِكُ سَهْمِي الَّذِي بِخَيْبَرَ، قَالَ: وَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ إِنَّمَا أَنْجَانِي بِالصَّدَقِ وَإِنْ مِنْ تَوْبَتِي أَنْ لَا أَحْدَثَ إِلَّا صِدْقًا مَا بَقِيْتُ قَالَ: فَوَاللَّهِ مَا عَلِمْتُ أَنْ أَحَدًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ أَبْلَاهُ اللَّهُ ^(٦) فِي صِدْقِ الْحَدِيثِ مُنْذُ ذَكَرْتُ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ

(١) (أَوْفَى عَلَى سَلْعٍ) أي: صعدته وارتفع عليه. وسلع جبل بالمدينة معروف.

(٢) (فَأَذَنَ... النَّاسَ) أي: أعلمهم.

(٣) (أَتَأَمُّمُ) أي: أقصد.

(٤) (فَوْجًا فَوْجًا) الفوج الجماعة.

(٥) (أَنْ أَنْخَلِعَ مِنْ مَالِي) أي: أخرج منه وأتصدق به.

(٦) (أَبْلَاهُ اللَّهُ) أي: أنعم عليه. والبلاء والإبلاء يكونان في الخير والشر. لكن إذا أطلق، كان للشر غالبًا. فإذا أريد

﴿إِلَى يَوْمِي هَذَا أَحْسَنَ مِمَّا أْبَلَانِي اللَّهُ بِهِ وَاللَّهُ مَا تَعَمَّدَتْ كَذِبَهُ مُنْذُ قُلْتُ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ﴾ إِلَى يَوْمِي هَذَا وَإِنِّي لَأَرْجُو أَنْ يَحْفَظَنِي اللَّهُ فِيمَا بَقِيَ.

قَالَ: فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﷻ: ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ يَتَّيْنُهُمُ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴿١١٩﴾﴾.

قَالَ كَعْبٌ: وَاللَّهِ مَا أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ مِنْ نِعْمَةٍ قَطُّ بَعْدَ إِذْ هَدَانِي اللَّهُ لِلْإِسْلَامِ أَعْظَمَ فِي نَفْسِي مِنْ صِدْقِي رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنْ لَا أَكُونَ كَذِبْتُهُ^(١) فَأَهْلِكَ كَمَا هَلَكَ الَّذِينَ كَذَّبُوا إِنْ اللَّهُ قَالَ: لِلَّذِينَ كَذَّبُوا حِينَ أَنْزَلَ الْوَحْيَ شَرٌّ مَا قَالَ لِأَحَدٍ وَقَالَ اللَّهُ: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِنُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رَجَسٌ وَمَا وَبَهُمْ جَهَنَّمَ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٥﴾﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لَتَرْضُوا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿١٦﴾﴾.

قَالَ كَعْبٌ: كُنَّا خُلَفْنَا أَيُّهَا الثَّلَاثَةُ عَنْ أَمْرِ أَوْلِيكَ الَّذِينَ قَبِلَ مِنْهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حِينَ حَلَفُوا لَهُ فَبَايَعَهُمْ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمْ وَأَرْجَأَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَمْرَنَا حَتَّى قَضَى فِيهِ فَبَذَلَكَ قَالَ اللَّهُ ﷻ: ﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا﴾ وَلَيْسَ الَّذِي ذَكَرَ اللَّهُ مِمَّا خُلَفْنَا تَخَلُّفَنَا عَنْ الْغَزْوِ وَإِنَّمَا هُوَ تَخْلِيفُهُ إِيَّانَا وَإِرْجَاؤُهُ أَمْرَنَا^(٢) عَمَّنْ حَلَفَ لَهُ وَاعْتَذَرَ إِلَيْهِ فَقَبِلَ مِنْهُ.

س: وَضَحْ مَعْنَى الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ: ﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾﴾.

ج: المعنى - والله أعلم - ولقد رجع الله برحمته وعفوه على الثلاثة الذين

^١ الأخير، قيد كما قيده هنا، فقال: أحسن مما أبلاني.

(١) (أَنْ لَا أَكُونَ كَذِبْتُهُ) هكذا هو في جميع نسخ مسلم، وكثير من روايات البخاري. قال العلماء: لفظ لا في قوله: أَنْ لَا أَكُونَ، زائدة. ومعناه: أَنْ أَكُونَ كَذِبْتُهُ. كقوله تعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ آلَا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾.

(٢) (وَإِرْجَاؤُهُ أَمْرَنَا) أي: تأخير.

تأخرت توبة الله عنهم ولم يغدروا عند أول اعتذار اعتذروه، أي لم يقبل منهم اعتذارهم وأرجأ أمرهم إلى الله، فهذه الآية فيها بيان فضل الله على هؤلاء الثلاثة، وإعلام من الله ﷻ أنه قبل رجوعهم إليه ورجع عليهم برحمته بعد أن كانوا يستحقون العذاب بتخلفهم عن رسول الله ﷺ، أما هؤلاء الثلاثة فهم كعب بن مالك، وهلال بن أمية، ومرارة بن الربيع، ومعنى قوله: ﴿خُفُّوا﴾ أي: تأخرت التوبة عليهم، وأرجأ أمرهم، وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾ لم يدروا إلى أي مكانٍ من الأرض، يذهبوا إليه مع أن الأرض متسعة، للغم الذي أصابهم وللهم الذي نالهم والندم الشديد الذي اعتراهم وضائق عليهم نفوسهم بسببه، فليست قلوبهم براضية بالكفر وليست نفوسهم بمتحملة لهجران المسلمين لهم، وليسوا بمحتملين ابتعادهم عن رسول الله ﷺ وعن المسلمين، ولكن ماذا مع هذه الهموم والأحزان، وأي شيء يستحق الأحزان أعظم من هجران رسول الله والمؤمنين لهم، وتخلف توبة الله عليهم أنه حقاً النكد والهم والبلاء!!

فكل متاع الدنيا زائل، وكل حزنٍ فيها منتهى إلا أن يعلم الشخص أن الله ﷻ ليس براضي عنه، وكذا رسول الله ﷺ يهجره، وكذا المسلمون، فهذا البلاء حقيقة وهذا الذي لا تطيب معه الحياة، ولا يحلو معه العيش، ولا تسعد نفسه في وجوده فحقاً إنهم ضاقت عليهم أنفسهم، ولكن ما السبيل؟! وما طريق النجاة؟! وما المخرج؟! إنه لا ملجأ من الله إلا إليه، فحينئذٍ يحسن العبد الالتجاء إلى الله ويسأله كشف الضر وإزالة البلاء معترفاً بذنبه ومقرراً بتقصيره ونادماً أشد الندم على ما فرط في جنب الله وقصّر، وقد أيقن هؤلاء الثلاثة بذلك، أيقنوا أن الفرج من عند الله، وأنه سبحانه الذي يكشف الضر ويوجب المضطر، ويأتي باليسر بعد العسر وبالفرج بعد الكرب، أيقنوا بكل ذلك فأحسنوا اللجوء إلى الله واجتهدوا في دعائه ورجائه وسؤاله فقلوه: ﴿وَلَطُّوا﴾ أيقنوا ﴿أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ﴾ لا أحد يلجؤون إليه لكشف ما بهم إلا الله لن يكشف عنهم ما أنزل الله بهم إلا الله.

أما قوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا﴾ ثم رجع عليهم برحمته وفضله ومنته وكرمه وهداهم إلى طريقه وإلى الندم على ما فرطوا، وأخبر بتوبته عليهم في آيات

أنزلها من السماء على رسوله ﷺ حتى يرجعوا إلى الله وحتى يخالطوا المسلمين، وحتى يقبلهم رسول الله ﷺ.

﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ كثير الرجوع بالفضل على العباد بعد أن فعلوا ما هو سبب لحرمانهم من هذا الفضل.

الرحيم بعباده المؤمنين لا يحملهم فوق طاقتهم ولا يعزيهم مع إنابتهم، وكذا رحيم بتجاوزه عنهم وعدم مؤاخذتهم.

وبنحو هذا قال أهل العلم.

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره: ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ﴾، ﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا﴾، وهؤلاء الثلاثة الذين وصفهم الله في هذه الآية بما وصفهم به فيما قيل، هم الآخرون الذين قال جل ثناؤه: ﴿وَأَخْرُوتُ مُرْجُونَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ١٠٦]، فتاب عليهم عز ذكره وتفضل عليهم.

فتأويل الكلام إذا: ولقد تاب الله على الثلاثة الذين خلفهم الله عن التوبة، فأرجأهم ممن تاب عليه ممن تخلف عن رسول الله ﷺ.

وأورد الطبري بإسناد حسن عن قتادة: أما قوله: ﴿خَلَفُوا﴾، فخلفوا عن التوبة.

﴿حَتَّىٰ إِذَا صَافَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾، يقول: بسعتها، غمًا وندمًا على تخلفهم عن الجهاد مع رسول الله ﷺ، ﴿وَصَافَتْ عَلَيْهِمُ أَنْفُسُهُمْ﴾، بما نالهم من الوجد والكرب بذلك، ﴿وَوُظِنُوا أَن لَّا مَلْجَأَ﴾، يقول: وأيقنوا بقلوبهم أن لا شيء لهم يلجئون إليه مما نزل بهم من أمر الله من البلاء، بتخلفهم خلاف رسول الله ﷺ، ينجيهم من كربته، ولا مما يحذرون من عذاب الله، إلا الله، ثم رزقهم الإنابة إلى طاعته، والرجوع إلى ما يرضيه عنهم، لينيبوا إليه، ويرجعوا إلى طاعته والانتهاة إلى أمره ونهيه، ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾، يقول: إن الله هو الوهاب لعباده الإنابة إلى طاعته، الموفق من أحب توفيقه منهم لما يرضيه عنه، ﴿الرَّحِيمُ﴾، بهم، أن يعاقبهم بعد التوبة، أو يخذل من أراد منهم التوبة والإنابة ولا يتوب عليه.

وقال القرطبي رحمه الله:

قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾ أي: بما اتسعت يقال: منزل رحب ورحيب ورحاب. و(مَا) مصدرية؛ أي ضاقت عليهم الأرض برحبها، لأنهم كانوا مهجورين لا يعاملون ولا يكلمون. وفي هذا دليل على هجران أهل المعاصي حتى يتوبوا. ﴿وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ﴾ أي: ضاقت صدورهم بالهم والوحشة، وبما لقوه من الصحابة من الجفوة. ﴿وَوَظَنُوا أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ﴾ أي: تيقنوا أن لا ملجأ يلجئون إليه في الصفح عنهم وقبول التوبة منهم إلا إليه. قال أبو بكر الوراق: التوبة النصوح أن تضيق على التائب الأرض بما رحبت، وتضيق عليه نفسه؛ كتوبة كعب وصاحبيه.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ فبدأ بالتوبة منه. قال أبو زيد: غلطت في أربعة أشياء: في الابتداء مع الله تعالى، ظننت أني أحبه فإذا هو أحبني؛ قال الله تعالى: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة: ٥٤]. وظننت أني أَرْضَى عنه فإذا هو قد رضي عني؛ قال الله تعالى: ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ [المائدة: ١١٩]. وظننت أني أذكره فإذا هو يذكرني؛ قال الله تعالى: ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [العنكبوت: ٥٤]. وظننت أني أتوب فإذا هو قد تاب علي؛ قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا﴾. وقيل: المعنى ثم تاب عليهم ليشبثوا على التوبة؛ كما قال تعالى: ﴿يَتَابِعُ الْبَغِيَّةَ الْآمِنُونَ﴾. وقيل: [النساء: ١٣٦] وقيل: أي فسح لهم ولم يعجل عقابهم كما فعل بغيرهم؛ قال جل وعز: ﴿فَيُظْلَمُونَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾ [النساء: ١٦٠].

قال ابن الجوزي (زاد المسير):

﴿حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾ أي: ضاقت مع سعتها وذلك أن المسلمين منعوا من معاملتهم وكلامهم وأمروا باعتزال أزواجهم وكان النبي ﷺ معرضاً عنهم ﴿وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ﴾ بالهم والغم ﴿وَوَظَنُوا﴾ أي: أيقنوا ﴿أَن لَّا مَلْجَأَ﴾ أي: لا معتصم من الله ومن عذابه إلا هو ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ﴾ أعاد التوبة تأكيداً ﴿لِيَتُوبُوا﴾ قال ابن عباس: ليستقيموا وقال غيره وفقهم للتوبة ليدوموا عليها ولا يرجعوا إلى ما يبطلها وسئل بعضهم عن التوبة النصوح فقال: أن تضيق على التائب الأرض وتضيق عليه نفسه كتوبة كعب وصاحبيه.

قال السعدي رَحِمَهُ اللهُ:

﴿وَكَذَلِكَ لَقَدْ تَابَ اللَّهُ﴾ وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا ﴿عَنِ الْخُرُوجِ مَعَ الْمُسْلِمِينَ، فِي تِلْكَ الْغَزْوَةِ، وَهُمْ: «كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ» وَصَاحِبَاهُ، وَقَصَّتْهُمْ مَشْهُورَةٌ مَعْرُوفَةٌ، فِي الصَّحَاحِ وَالسَّنَنِ.

﴿حَتَّى إِذَا﴾ حَزَنُوا حَزَنًا عَظِيمًا، وَ﴿ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾ أَي: عَلَى سَعَتِهَا وَرَحْبِهَا ﴿وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ﴾ الَّتِي هِيَ أَحَبُّ إِلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ، فَضَاقَ عَلَيْهِمُ الْفَضَاءُ الْوَاسِعُ، وَالْمَحْبُوبُ الَّذِي لَمْ تَجِرِ الْعَادَةُ بِالضِّيقِ مِنْهُ، وَذَلِكَ لَا يَكُونُ إِلَّا مِنْ أَمْرِ مَزْعَجٍ، بَلَغَ مِنَ الشَّدَةِ وَالْمَشَقَّةِ مَا لَا يُمْكِنُ التَّعْبِيرُ عَنْهُ، وَذَلِكَ لِأَنَّهُمْ قَدِمُوا رِضَا اللَّهَ وَرِضَا رَسُولَهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ.

﴿وَضُفُّوا أَنَّهُ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ﴾ أَي: تَيَقَّنُوا وَعَرَفُوا بِحَالِهِمْ، أَنَّهُ لَا يَنْجِي مِنَ الشَّدَائِدِ، وَيُلْجَأُ إِلَيْهِ، إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، فَانْقَطَعَ تَعْلُقُهُمْ بِالْمَخْلُوقِينَ، وَتَعَلَّقُوا بِاللَّهِ رَبِّهِمْ، وَفَرَّوْا مِنْهُ إِلَيْهِ، فَمَكَّنُوا بِهَذِهِ الشَّدَةِ نَحْوَ خَمْسِينَ لَيْلَةً. ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ﴾ أَي: أَذِنَ فِي تَوْبَتِهِمْ وَوَفَّقَهُمْ لَهَا ﴿لِيَتُوبُوا﴾ أَي: لَتَقْبَلَ مِنْهُمْ، فَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ، ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ﴾ أَي: كَثِيرُ التَّوْبَةِ وَالْعَفْوِ، وَالْغُفْرَانِ عَنِ الزَّلَّاتِ وَالنَّقْصَانِ، ﴿الرَّحِيمُ﴾ وَصِفَةُ الرَّحْمَةِ الْعَظِيمَةِ الَّتِي لَا تَزَالُ تَنْزِلُ عَلَى الْعِبَادِ فِي كُلِّ وَقْتٍ وَحِينٍ، فِي جَمِيعِ اللَّحْظَاتِ، مَا تَقُومُ بِهِ أُمُورُهُمُ الدِّينِيَّةُ وَالدُّنْيَوِيَّةُ.

أ س: اذكر بعض الفوائد المستنبطة من حديث الثلاثة الذين خلفوا؟

ج: قال النووي رَحِمَهُ اللهُ (شرح مسلم):

وَأَعْلَمُ أَنَّ فِي حَدِيثِ كَعْبٍ هَذَا رَوَاهُ الْإِسْلَامِيُّ فَوَائِدُ كَثِيرَةٌ:

إِحْدَاهَا: إِبَاحَةُ الْغَنِيمَةِ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ؛ لِقَوْلِهِ: خَرَجُوا يُرِيدُونَ عِيرَ قُرَيْشٍ.

الثَّانِيَّةُ: فَضِيلَةُ أَهْلِ بَدْرٍ وَأَهْلِ الْعَقَبَةِ.

الثَّالِثَةُ: جَوَازُ الْحَلْفِ مِنْ غَيْرِ اسْتِحْلَافٍ فِي غَيْرِ الدَّعْوَى عِنْدَ الْقَاضِي.

الرَّابِعَةُ: أَنَّهُ يَنْبَغِي لِأَمِيرِ الْجَيْشِ إِذَا أَرَادَ غَزْوَةً أَنْ يُورِّيَ بِغَيْرِهَا، لِئَلَّا يَسْبِقَهُ الْجَوَاسِيسُ وَنَحْوُهُمْ بِالتَّحْذِيرِ، إِلَّا إِذَا كَانَتْ سَفَرَةٌ بَعِيدَةً، فَيُسْتَحَبُّ أَنْ يُعَرِّفَهُمُ الْبُعْدَ لِيَتَأَهَّبُوا.

الخامسة: التَّاسَّفُ عَلَى مَا فَاتَ مِنَ الْخَيْرِ ، وَتَمَنِّي الْمُتَأَسَّفُ أَنَّهُ كَانَ فَعَلَهُ ، لِقَوْلِهِ: فَيَا لَيْتَنِي فَعَلْتُ.

السادسة: رَدُّ غِيبةِ المُسلمِ لقولِ مُعَاذٍ: بَشَسَ مَا قُلْتُ.

السابعة: فَضِيلَةُ الصَّدَقِ وَمَلَا زَمَتِهِ ، وَإِنْ كَانَ فِيهِ مَشَقَّةٌ ، فَإِنَّ عَاقِبَتَهُ خَيْرٌ ، وَإِنَّ الصَّدَقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ ، وَالْبِرُّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ ، كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ.

الثامنة: اسْتِحْبَابُ صَلَاةِ الْقَادِمِ مِنْ سَفَرٍ رَكَعَتَيْنِ فِي مَسْجِدٍ مَحَلَّتَهُ أَوَّلَ قُدُومِهِ قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ.

التاسعة: أَنَّهُ يُسْتَحَبُّ لِلْقَادِمِ مِنْ سَفَرٍ إِذَا كَانَ مَشْهُورًا يَقْصِدُهُ النَّاسُ لِسَلَامٍ عَلَيْهِ ، أَنْ يَقْعُدَ لَهُمْ فِي مَجْلِسٍ بَارِزٍ ، هَيِّنِ الْوُصُولَ إِلَيْهِ.

العاشر: الْحُكْمُ بِالظَّاهِرِ ، وَاللَّهُ يَتَوَلَّى السَّرَائِرَ ، وَقَبُولُ مَعَاذِيرِ الْمُنَافِقِينَ وَنَحْوِهِمْ ، مَا لَمْ يَتَرْتَبْ عَلَى ذَلِكَ مَفْسَدَةٌ.

الحادية عشر: اسْتِحْبَابُ هِجْرَانِ أَهْلِ الْبِدْعِ وَالْمَعَاصِي الظَّاهِرَةِ ، وَتَرْكِ السَّلَامِ عَلَيْهِمْ ، وَمُقَاطَعَتِهِمْ تَحْقِيرًا لَهُمْ وَزَجْرًا.

الثانية عشر: اسْتِحْبَابُ بُكَائِهِ عَلَى نَفْسِهِ إِذَا وَقَعَتْ مِنْهُ مَعْصِيَةٌ.

الثالثة عشر: أَنَّ مُسَارَقَةَ النَّظَرِ فِي الصَّلَاةِ وَالْإِلْتِفَاتِ لَا يُبْطِلُهَا.

الرابعة عشر: أَنَّ السَّلَامَ يُسَمَّى كَلَامًا ، وَكَذَلِكَ رَدُّ السَّلَامِ ، وَأَنَّ مَنْ حَلَفَ لَا يُكَلِّمُ إِنْسَانًا فَسَلَّمَ عَلَيْهِ ، أَوْ رَدَّ عَلَيْهِ السَّلَامَ ، يَحْنُثُ.

الخامسة عشر: وَجُوبُ إِثَارِ طَاعَةِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﷺ عَلَى مَوَدَّةِ الصَّدِيقِ وَالْقَرِيبِ وَغَيْرِهِمَا ، كَمَا فَعَلَ أَبُو قَتَادَةَ حِينَ سَلَّمَ عَلَيْهِ كَعْبٌ ، فَلَمْ يَرُدَّ عَلَيْهِ حِينَ نَهَى عَنْ كَلَامِهِ.

السادسة عشر: أَنَّهُ إِذَا حَلَفَ لَا يُكَلِّمُ إِنْسَانًا فَتَكَلَّمَ ، وَلَمْ يَقْصِدْ كَلَامَهُ بَلْ قَصَدَ غَيْرَهُ ، فَسَمِعَ الْمُحْلُوفُ عَلَيْهِ لَمْ يَحْنُثِ الْحَالِفُ ؛ لِقَوْلِهِ: اللَّهُ أَعْلَمُ: فَإِنَّهُ مُحْمُولٌ عَلَى أَنَّهُ لَمْ يَقْصِدْ كَلَامَهُ كَمَا سَبَقَ.

السابعة عشر: جَوَازُ إِحْرَاقِ وَرَقَةٍ فِيهَا ذِكْرُ اللَّهِ تَعَالَى لِمَصْلَحَةٍ ، كَمَا فَعَلَ عُثْمَانُ وَالصَّحَابَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ بِالْمَصَاحِفِ الَّتِي هِيَ غَيْرُ مُصَحَفِهِ الَّذِي أَجْمَعَتِ الصَّحَابَةُ عَلَيْهِ ،

وَكَانَ ذَلِكَ صِيَانَةً ، فَهِيَ حَاجَةٌ وَمَوْضِعُ الدَّلَالَةِ مِنْ حَدِيثِ كَعْبٍ ، أَنَّهُ أَحْرَقَ الْوَرَقَةَ ، وَفِيهَا: لَمْ يَجْعَلِكِ اللَّهُ بِدَارٍ هَوَانٍ.

الثَّامِنَةُ عَشْرَ: إِخْفَاءُ مَا يُخَافُ مِنْ إِظْهَارِهِ مَفْسَدَةً وَإِتْلَافَ.

التَّاسِعَةُ عَشْرَ: أَنَّ قَوْلَهُ لِامْرَأَتِهِ: الْحَقِّي بِأَهْلِكَ لَيْسَ بِصَرِيحِ طَلَاقٍ ، وَلَا يَقَعُ بِهِ شَيْءٌ إِذَا لَمْ يَنْوِ.

الْعِشْرُونَ: جَوَازُ خِدْمَةِ الْمَرْأَةِ زَوْجَهَا بِرِضَاهَا ، وَذَلِكَ جَائِزٌ لَهُ بِالْإِجْمَاعِ ، فَأَمَّا إِلْزَامُهَا بِذَلِكَ فَلَا.

الْحَادِيَةُ وَالْعِشْرُونَ: اسْتِحْبَابُ الْكِنَايَاتِ فِي أَلْفَافِ الْإِسْتِمْتَاعِ بِالنِّسَاءِ وَنَحْوِهَا.

الثَّانِيَةُ وَالْعِشْرُونَ: الْوَرَعُ وَالْإِحْتِيَاظُ بِمُجَانِبَةِ مَا يُخَافُ مِنْهُ الْوُقُوعُ فِي مَنْهِيٍّ عَنْهُ ، لِأَنَّهُ لَمْ يَسْتَأْذِنْ فِي خِدْمَةِ امْرَأَتِهِ لَهُ ، وَعَلَّلَ بِأَنَّهُ شَابٌ ، أَيْ لَا يَأْمَنُ مُوَافَعَتَهَا ، وَقَدْ نُهِيَ عَنْهَا.

الثَّالِثَةُ وَالْعِشْرُونَ: اسْتِحْبَابُ سُجُودِ الشُّكْرِ عِنْدَ تَجَدُّدِ نِعْمَةٍ ظَاهِرَةٍ ، أَوْ إِنْدِفَاعِ بَلِيَّةٍ ظَاهِرَةٍ ، وَهُوَ مَذْهَبُ الشَّافِعِيِّ وَطَائِفَةٍ ، وَقَالَ أَبُو حَنِيفَةَ وَطَائِفَةٌ: لَا يُشْرَعُ.

الرَّابِعَةُ وَالْعِشْرُونَ: اسْتِحْبَابُ التَّبَشِيرِ بِالْخَيْرِ.

الْخَامِسَةُ وَالْعِشْرُونَ: اسْتِحْبَابُ تَهْنِئَةٍ مَنْ رَزَقَهُ اللَّهُ خَيْرًا ظَاهِرًا ، أَوْ صَرَفَ عَنْهُ شَرًّا ظَاهِرًا.

السَّادِسَةُ وَالْعِشْرُونَ: اسْتِحْبَابُ إِكْرَامِ الْمُبَشِّرِ بِخُلْعَةٍ أَوْ نَحْوِهَا.

السَّابِعَةُ وَالْعِشْرُونَ: أَنَّهُ يَجُوزُ تَخْصِيصُ الْيَمِينِ بِالنِّيَّةِ ، فَإِذَا حَلَفَ لَا مَالَ لَهُ وَنَوَى نَوْعًا لَمْ يَحْنَثْ بِنَوْعٍ مِنَ الْمَالِ غَيْرِهِ ، وَإِذَا حَلَفَ لَا يَأْكُلُ ، وَنَوَى خُبْرًا ، لَمْ يَحْنَثْ بِاللَّحْمِ وَالتَّمْرِ وَسَائِرِ الْمَأْكُولِ ، وَلَا يَحْنَثُ إِلَّا بِذَلِكَ النَّوعِ ، وَكَذَلِكَ لَوْ حَلَفَ لَا يُكَلِّمُ زَيْدًا ، وَنَوَى كَلَامًا مَخْصُوصًا لَمْ يَحْنَثْ بِتَكْلِيمِهِ إِلَّاهُ غَيْرَ ذَلِكَ الْكَلَامِ الْمَخْصُوصِ ، وَهَذَا كُلُّهُ مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ عِنْدَ أَصْحَابِنَا ، وَذَلِيلُهُ مِنْ هَذَا الْحَدِيثِ قَوْلُهُ فِي الثَّوْبَيْنِ: وَاللَّهُ مَا أَمْلِكُ غَيْرَهُمَا ، ثُمَّ قَالَ بَعْدَهُ فِي سَاعَةٍ: إِنَّ مِنْ تَوْبَتِي أَنْ أَنْخَلَعَ مِنْ مَالِي صَدَقَةً ، ثُمَّ قَالَ: فَإِنِّي أُمْسِكُ سَهْمِي الَّذِي بِخَيْبَرِ.

الثَّامِنَةُ وَالْعِشْرُونَ: جَوَازُ الْعَارِيَةِ.

التَّاسِعَةُ وَالْعِشْرُونَ: جَوَّازِ اسْتِعَارَةِ الثَّيَابِ لِلْبَّسِ.

الثَّلَاثُونَ: اسْتِحْبَابُ اجْتِمَاعِ النَّاسِ عِنْدَ إِمَامِهِمْ وَكَبِيرِهِمْ فِي الْأُمُورِ الْمُهِّمَةِ مِنْ بَشَارَةِ وَمَشُورَةِ وَغَيْرِهِمَا.

الْحَادِيَةُ وَالثَّلَاثُونَ: اسْتِحْبَابُ الْقِيَامِ لِلْوَارِدِ إِكْرَامًا لَهُ إِذَا كَانَ مِنْ أَهْلِ الْفَضْلِ بِأَيِّ نَوْعٍ كَانَ ، وَقَدْ جَاءَتْ بِهِ أَحَادِيثُ جَمَعَتْهَا فِي جُزْءٍ مُسْتَقِلٍّ بِالْتَّرْخِيصِ فِيهِ ، وَالْجَوَابُ عَمَّا يُظَنَّ بِهِ مُخَالَفًا لِذَلِكَ.

الثَّانِيَةُ وَالثَّلَاثُونَ: اسْتِحْبَابُ الْمُصَافَحَةِ عِنْدَ التَّلَاقِي وَهِيَ سُنَّةٌ بِلَا خِلَافٍ.

الثَّالِثَةُ وَالثَّلَاثُونَ: اسْتِحْبَابُ سُرُورِ الْإِمَامِ وَكَبِيرِ الْقَوْمِ بِمَا يَسُرُّ أَصْحَابَهُ وَاتَّبَاعَهُ.

الرَّابِعَةُ وَالثَّلَاثُونَ: أَنَّهُ يُسْتَحَبُّ لِمَنْ حَصَلَتْ لَهُ نِعْمَةٌ ظَاهِرَةٌ ، أَوْ انْدَفَعَتْ عَنْهُ كُرْبَةٌ ظَاهِرَةٌ أَنْ يَتَصَدَّقَ بِشَيْءٍ صَالِحٍ مِنْ مَالِهِ شُكْرًا لِلَّهِ تَعَالَى عَلَى إِحْسَانِهِ ، وَقَدْ ذَكَرَ أَصْحَابُنَا أَنَّهُ يُسْتَحَبُّ لَهُ سُجُودُ الشُّكْرِ وَالصَّدَقَةُ جَمِيعًا ، وَقَدْ اجْتَمَعَ فِي هَذَا الْحَدِيثِ.

الْخَامِسَةُ وَالثَّلَاثُونَ: أَنَّهُ يُسْتَحَبُّ لِمَنْ خَافَ أَلَّا يَضُرَّ عَلَى الْإِضَاقَةِ أَلَّا يَتَصَدَّقَ بِجَمِيعِ مَالِهِ ، بَلْ ذَلِكَ مَكْرُوهٌ لَهُ.

الْسَّادِسَةُ وَالثَّلَاثُونَ: أَنَّهُ يُسْتَحَبُّ لِمَنْ رَأَى مَنْ يُرِيدُ أَنْ يَتَصَدَّقَ بِكُلِّ مَالِهِ وَيَخَافُ عَلَيْهِ أَلَّا يَضُرَّ عَلَى الْإِضَاقَةِ أَنْ يَنْهَاهُ عَنْ ذَلِكَ ، وَيُشِيرُ عَلَيْهِ بِبَعْضِهِ.

السَّابِعَةُ وَالثَّلَاثُونَ: أَنَّهُ يُسْتَحَبُّ لِمَنْ تَابَ بِسَبَبٍ مِنَ الْخَيْرِ أَنْ يُحَافِظَ عَلَى ذَلِكَ السَّبَبِ ، فَهُوَ أَبْلَغُ فِي تَعْظِيمِ حُرْمَاتِ اللَّهِ ، كَمَا فَعَلَ كَعْبٌ فِي الصَّدَقِ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

قال السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ:

وفي هذه الآيات دليل على أن توبة الله على العبد أجل الغايات، وأعلى النهايات، فإن الله جعلها نهاية خواص عبادته، وامتن عليهم بها، حين عملوا الأعمال التي يحبها ويرضاها.

ومنها: لطف الله بهم وتثبيتهم في إيمانهم عند الشدائد والنوازل المزعجة.

ومنها: أن العبادة الشاقة على النفس، لها فضل ومزية ليست لغيرها، وكلما عظمت المشقة عظم الأجر.

ومنها: أن توبة الله على عبده بحسب ندمه وأسفه الشديد، وأن من لا يبالي بالذنوب ولا يحرج إذا فعله، فإن توبته مدخولة، وإن زعم أنها مقبولة.

ومنها: أن علامة الخير وزوال الشدة، إذا تعلق القلب بالله تعالى تعلقاً تاماً، وانقطع عن المخلوقين.

ومنها: أن من لطف الله بالثلاثة، أن وسمهم بوسم، ليس بعار عليهم فقال: ﴿خَلِفُوا﴾ إشارة إلى أن المؤمنين خلفوهم، أو خلفوا عن من بُتَّ في قبول عذرهم، أو في رده وأنهم لم يكن تخلفهم رغبة عن الخير، ولهذا لم يقل: «تخلفوا».

ومنها: أن الله تعالى من عليهم بالصدق، ولهذا أمر بالاعتداء بهم فقال: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ الآية.

س: هل هنا رابط بين قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾

﴿١٣﴾ وبين قصة الثلاثة الذين خلفوا؟

ج: نعم الرابط ظاهرٌ وواضحٌ، والله تعالى أعلم فصدق الحديث كان سبباً في توبة الله ﷻ على كعب بن مالك وصاحبيه.

والكذب كان سبباً في أن قيل لأهله ما قيل إذ الله قال: ﴿فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رَجَسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ...﴾ فهذه عقوبة من كذب واعتذر بالباطل. والله أعلم.

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾

﴿١٣﴾.

ج: المعنى - والله أعلم - يا أهل الإيمان اجعلوا بينكم وبين عذاب الله وقاية، ودوماً كونوا حذرين من غضب الله وعقابه واسلكوا سبيل أهل الصدق واليقين، اسلكوا سبيل الصادقين في نواياهم والصادقين في أقوالهم وأفعالهم اسلكوا الطرق التي يدخلكم الله بها في عداد الصالحين الصادقين فلا تكذبوا على رسول الله ولا تغشوه ولا تتخادعوه بل اصدقوه الحديث إذا حدثتموه كما فعل الثلاثة الذين خلفوا، وصدقوا عندما سئلوا عن سبب التخلف فأكرمهم الله بصدقهم، وأنزل توبته عليهم في آيات تتلى في المحاريب وتحفظ في الصدور، وتدرس في الكتاتيب والمجامع.

وبنحو ما ذكر قال أهل العلم.

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره للمؤمنين، معرّفهم سبيل النجاة من عقابه، والخلاص من أليم عذابه: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾، بالله ورسوله، ﴿اتَّقُوا اللَّهَ﴾، وراقبوه بأداء فرائضه، وتجنب حدوده، ﴿وَكُونُوا﴾، في الدنيا، من أهل ولاية الله وطاعته، تكونوا في الآخرة، ﴿مَعَ الصَّادِقِينَ﴾، في الجنة. يعني: مع من صدّق الله الإيمان به، فحقّق قوله بفعله، ولم يكن من أهل النفاق فيه، الذين يكذب قيلهم فعلهم.

وإنما معنى الكلام: وكونوا مع الصادقين في الآخرة باتقاء الله في الدنيا، كما قال جل ثناؤه: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ﴾ [النساء: ٦٩].

وإنما قلنا ذلك معنى الكلام، لأن كون المنافق مع المؤمنين غير نافع بأيّ وجوه الكون كان معهم، إن لم يكن عاملاً عملهم. وإذا عمل عملهم فهو منهم، وإذا كان منهم، كان وجه الكلام أن يقال: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾، ولتوجيه الكلام إلى ما وجّهنا من تأويله، فسّر ذلك من فسّره من أهل التأويل بأن قال: معناه: وكونوا مع أبي بكر وعمر، أو: مع النبي ﷺ، والمهاجرين رحمة الله عليهم.

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله:

ولما ذكر تعالى ما فرّج به عن هؤلاء الثلاثة من الضيق والكرب، من هجر المسلمين إياهم نحووا من خمسين ليلة بأيامها، وضائق عليهم أنفسهم، وضائق عليهم الأرض بما رحبت، أي: مع سعتها، فسدت عليهم المسالك والمذاهب، فلا يهتدون ما يصنعون، فصبروا لأمر الله، واستكانوا لأمر الله، وثبتوا حتى فرج الله عنهم بسبب صدقهم رسول الله ﷺ في تخلفهم، وأنه كان عن غير عذر، فعوقبوا على ذلك هذه المدة، ثم تاب الله عليهم، فكان عاقبة صدقهم خيرا لهم وتوبة عليهم؛ ولهذا قال: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ أي: اصدقوا والزموا الصدق تكونوا مع أهله وتنجوا من المهالك ويجعل لكم فرجا من أموركم، ومخرجا.

وأورد ابن كثير ما أخرجه البخاري ومسلم وأحمد^(١) من حديث ابن مسعود، **قال:** قال رسول الله ﷺ: «عليكم بالصدق؛ فإن الصدق يهدي إلى البر وإن البر يهدي إلى الجنة، وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً، وإياكم والكذب، فإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، وما يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب، حتى يكتب عند الله كذاباً».

قال القرطبي رحمه الله:

قوله تعالى: ﴿وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ هذا الأمر بالكون مع أهل الصدق حسن بعد قصة الثلاثة حين نفعهم الصدق وذهب بهم عن منازل المنافقين. قال مطرف: سمعت مالك بن أنس يقول: قلما كان رجل صادقاً لا يكذب إلا متع بعقله ولم يصبه ما يصيب غيره من الهرم والخرف.

واختلف في المراد هنا بالمؤمنين والصادقين على أقوال؛ ف قيل: هو خطاب لمن آمن من أهل الكتاب. وقيل: هو خطاب لجميع المؤمنين؛ أي اتقوا مخالفة أمر الله ﴿وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ أي: مع الذين خرجوا مع النبي ﷺ لا مع المنافقين. أي: كونوا على مذهب الصادقين وسبيلهم. وقيل: هم الأنبياء؛ أي: كونوا معهم بالأعمال الصالحة في الجنة. وقيل: هم المراد بقوله: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ﴾ - الآية إلى قوله: - ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا﴾ [البقرة: ١٧٧]. وقيل: هم الموفون بما عاهدوا؛ وذلك لقوله تعالى: ﴿رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: ٢٣]، وقيل: هم المهاجرون؛ لقول أبي بكر يوم السقيفة إن الله سمانا الصادقين.

فقال: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ﴾ الآية [الحشر: ٨]، ثم سماكم بالمفلحين فقال: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ﴾ الآية [الحشر: ٩]. وقيل: هم الذين استوت ظواهرهم وبواطنهم. قال ابن العربي: وهذا القول هو الحقيقة والغاية التي إليها المنتهى فإن هذه الصفة يرتفع بها النفاق في العقيدة والمخالفة في الفعل، وصاحبها يقال له الصديق كأبي بكر وعمر وعثمان ومن دونهم على منازلهم وأزمانهم. وأما من قال: إنهم المراد

(١) أحمد (٣٨٤ / ١)، والبخاري (٦٠٩٤)، ومسلم (٢٦٠٧).

بآية البقرة فهو معظم الصدق ومتبعه الأقل وهو معنى آية الأحزاب. وأما تفسير أبي بكر الصديق فهو الذي يعم الأقوال كلها فإن جميع الصفات فيهم موجودة.

قال السعدي رَحِمَهُ اللهُ:

أي: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ بالله، وبما أمر الله بالإيمان به، قوموا بما يقتضيه الإيمان، وهو القيام بتقوى الله تعالى، باجتناب ما نهى الله عنه والبعد عنه. ﴿وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ في أقوالهم وأفعالهم وأحوالهم، الذين أقوالهم صدق، وأعمالهم، وأحوالهم لا تكون إلا صدقا خالية من الكسل والفتور، سالمة من المقاصد السيئة، مشتملة على الإخلاص والنية الصالحة، فإن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة.

قال الله تعالى: ﴿هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾ الآية [المائدة: ١١٩].



وفضل الجهاد في سبيل الله والغزو

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطْئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا إِلَّا أَكُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (١٣٠) وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا أَكُتِبَ لَهُمْ لِحَرْبِهِمْ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (١٣١).

ج: المعنى - والله تعالى أعلم - ما كان ينبغي، وما كان يجوز لأهل المدينة، مدينة رسول الله ﷺ وما كان يجوز ولا ينبغي لمن حولهم من الأعراب وهم سكان البوادي المجاورون للمدينة، ما كان لهؤلاء ولا لأولئك أن يتخلفوا عن رسول الله ﷺ لما دعاهم للخروج إلى غزوة تبوك وإلى غيرها، وما كان لهم أن يرغبوا بأنفسهم عن نفسه أي يضنوا بأنفسهم عن نصرته ويضنوا بأموالهم عن نصرته وكذا لا يضنوا بأوقاتهم عن نصرته، أي: ما كان لهم أن يؤثروا راحة أنفسهم ويقدمون ذلك على الجهاد مع رسول الله ﷺ، وما كان لهم أن يقدموا ملاذ أنفسهم على راحة، وكذا ما كان لهم أن يخلوا بأموالهم عن نصرته وتجهيز الغزاة معه، وذلك لأن كل شيء يلقونه من العطش والتعب والجوع، إذا كان في سبيل الله فهو مكتوب مسطر محفوظ. فقولہ: ﴿ ذَلِكَ ﴾ أي: عدم التخلف ﴿ بِأَنَّهُمْ ﴾ لكونهم ﴿ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ ﴾ عطش ﴿ وَلَا نَصَبٌ ﴾ ولا تعب ﴿ وَلَا مَخْمَصَةٌ ﴾ ولا مجاعة ﴿ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ لإعلاء كلمة الله ولنصرة دينه ﴿ وَلَا يَطْئُونَ مَوْطِئًا ﴾ لا ينزلون منزلاً ولا تطأ أقدامهم مكاناً يغيظ الكفار نزول أهل الإسلام فيه، وكذا لا يغمون من عدو غنيمة، ولا يسلبون من عدو مالا ولا يقتلون من عدو نفساً إلا كتب لهم بكل ذلك أجر وثواب، ثواب العمل الصالح أن الله لا يضيع أجر المحسنين، لا يذهب بثواب العمل الصالح الذي عمله أهل الإحسان والتوحيد وكذا فإنهم ﴿ وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً ﴾ لا يبذلون أي مال لنصرة دين الله، وفي سبيل الله قل هذا المال أو كثر، وكذا ﴿ وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا ﴾ أي: لا يسافرون سفراً يمرون فيه بوادٍ من الأودية إلا كتب لهم ما مشوه من

خطى، وما أنفقوه من نفقة ليجزيهم الله يوم القيامة أجرًا الأجر وأعظمه، أجرًا أحسن من عملهم وأفضل من عملهم، وقيل: أجرًا على أفضل أعمالهم التي عملوها ويكفر عنهم السيئات التي ارتكبوها. والله أعلم.

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره: لم يكن لأهل المدينة، مدينة رسول الله ﷺ، ﴿وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ﴾، سُكَّانُ الْبَوَادِي، الَّذِينَ تَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ، وَهُمْ مِنْ أَهْلِ الْإِيمَانِ بِهِ، أَنْ يَتَخَلَّفُوا فِي أَهَالِيهِمْ وَلَا دَارَ لَهُمْ، وَلَا أَنْ يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ فِي صَحْبَتِهِ فِي سَفَرِهِ وَالْجِهَادِ مَعَهُ، وَمَعَاوَتِهِ عَلَى مَا يَعَانِيهِ فِي غَزْوِهِ ذَلِكَ. يقول: إنه لم يكن لهم هذا، ﴿يَأْنَهُمْ﴾، مِنْ أَجْلِ أَنْهُمْ، وَبِسَبَبِ أَنْهُمْ، ﴿لَا يُصِيبُهُمْ﴾، فِي سَفَرِهِمْ إِذَا كَانُوا مَعَهُ، ﴿ظَلَمًا﴾، وَهُوَ الْعَطَشُ، ﴿وَلَا نَصَبٌ﴾، يَقُولُ: وَلَا تَعَبٌ، ﴿وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾، يَعْنِي: وَلَا مَجَاعَةٌ فِي إِقَامَةِ دِينِ اللَّهِ وَنَصْرَتِهِ، وَهَذَا مَنَارُ الْكُفْرِ، ﴿وَلَا يَطْعُونَ مَوْطِئًا﴾، يَعْنِي: أَرْضًا، يَقُولُ: وَلَا يَطْعُونَ أَرْضًا، ﴿يَغِيظُ الْكُفَّارَ﴾، وَطَوْهُمْ إِيَّاهَا، ﴿وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوِّ نِيْلًا﴾، يَقُولُ: وَلَا يَصِيبُونَ مِنْ عَدُوِّ اللَّهِ وَعَدُوِّهِمْ شَيْئًا فِي أَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأَوْلَادِهِمْ، إِلَّا كَتَبَ اللَّهُ لَهُمْ بِذَلِكَ كُلَّهُ، ثَوَابَ عَمَلٍ صَالِحٍ قَدْ ارْتَضَاهُ، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾، يَقُولُ: إِنَّ اللَّهَ لَا يَدَعُ مُحْسِنًا مِنْ خَلْقِهِ أَحْسَنَ فِي عَمَلِهِ فَأَطَاعَهُ فِيمَا أَمَرَهُ، وَانْتَهَى عَمَّا نَهَا عَنْهُ، أَنْ يَجَازِيَهُ عَلَى إِحْسَانِهِ، وَيُشَبِّهَ عَلَى صَالِحِ عَمَلِهِ. فَلِذَلِكَ كَتَبَ لِمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مَا ذَكَرَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ، الثَّوَابَ عَلَى كُلِّ مَا فَعَلَ، فَلَمْ يَضِيعْ لَهُ أَجْرُ فَعَلِهِ ذَلِكَ.

قال الطبري: وقد بينا معنى (المخمصة)، وأنها المجاعة.

(وأما النيل) فهو مصدر من قول القائل (نالني ينالني)، و(نلت الشيء فهو منيل).

ثم قال:

في تأويل قوله: ﴿وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (١٢١).

يقول تعالى ذكره: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَلَمٌ﴾، وَسَائِرُ مَا ذَكَرَ، ﴿وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوِّ نِيْلًا﴾، ﴿وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً﴾، فِي سَبِيلِ اللَّهِ، ﴿وَلَا

يَقْطَعُونَ ﴿١﴾، مع رسول الله في غزوه، ﴿وَادِيًا﴾ ﴿٢﴾ إلا كتب لهم أجر عملهم ذلك، جزاء لهم عليه، كأحسن ما يجزيهم على أحسن أعمالهم التي كانوا يعملونها وهم مقيمون في منازلهم.

وأورد بإسناد حسن عن قتادة قوله: ﴿وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً﴾، الآية، قال: ما ازداد قوم من أهلهم في سبيل الله بُعدًا إلا ازدادوا من الله قربًا.

وقال ابن كثير رحمه الله:

يعاتب تعالى المتخلفين عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، من أهل المدينة ومن حولها من أحياء العرب، ورغبتهم بأنفسهم عن مواساته فيما حصل من المشقة، فإنهم نقصوا أنفسهم من الأجر؛ لأنهم ﴿لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ﴾ وهو: العطش ﴿وَلَا نَصَبٌ﴾ وهو: التعب ﴿وَلَا مَخْمَصَةٌ﴾ وهي: المجاعة ﴿وَلَا يَطْثُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ﴾ أي: ينزلون منزلا يرهب عدوهم ﴿وَلَا يَنَالُونَ﴾ منه ظفرا وغلبة عليه إلا كتب الله لهم بهذه الأعمال التي ليست داخلية تحت قدرتهم، وإنما هي ناشئة عن أفعالهم، أعمالا صالحة وثوابا جزيلا ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ ﴿٣٠﴾ [الكهف: ٣٠].

يقول تعالى: ولا ينفق هؤلاء الغزاة في سبيل الله ﴿نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً﴾ أي: قليلا ولا كثيرا ﴿وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا﴾ أي: في السير إلى الأعداء ﴿لَا كُتِبَ لَهُمْ﴾ ولم يقل ها هنا «به» لأن هذه أفعال صادرة عنهم؛ ولهذا قال: ﴿لِيَجْزِيََهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

وقد حصل لأمر المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه من هذه الآية الكريمة حظ وافر، ونصيب عظيم، وذلك أنه أنفق في هذه الغزوة النفقات الجليلة، والأموال الجزيلة.

وأورد ابن كثير رحمه الله حديث عبد الرحمن بن خباب السلمي قال: خطب رسول الله

ﷺ فحث على جيش العسرة، فقال عثمان بن عفان، رضي الله عنه: عليّ مائة بغير بأحلاسها وأقتابها. قال: ثم حث، فقال عثمان: عليّ مائة بغير أخرى بأحلاسها وأقتابها. قال: ثم نزل مرقاة من المنبر ثم حث، فقال عثمان بن عفان: عليّ مائة أخرى بأحلاسها وأقتابها. قال: فرأيت رسول الله ﷺ يقول بيده هكذا - يحركها. وأخرج عبد الصمد

يده كالمتعجب: «ما على عثمان ما عمل بعد هذا»^(١).

وأورد له شاهداً فيه ضعف أيضاً من حديث عبد الرحمن بن سمرة قال: جاء عثمان إلى النبي ﷺ بألف دينار في ثوبه حين جهّز النبي ﷺ جيش العسرة قال: فصبها في حجر النبي ﷺ، فجعل النبي ﷺ يقلبها بيده ويقول: «ما ضرَّ ابن عفان ما عمل بعد اليوم». يرددها مراراً^(٢).

وقال القرطبي رحمه الله:

﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ﴾ ظاهره خبر ومعناه أمر؛ كقوله: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ﴾ [الأحزاب: ٥٣]، وقد تقدم. ﴿أَنْ يَتَخَلَّفُوا﴾ في موضع رفع اسم كان. وهذه معاتبة للمؤمنين من أهل يثرب وقبائل العرب المجاورة لها؛ كمزينة وجهينة وأشجع وغفار وأسلم على التخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك. والمعنى: ما كان لهؤلاء المذكورين أن يتخلفوا؛ فإن النفي كان فيهم، بخلاف غيرهم فإنهم لن يستنفروا؛ في قول بعضهم. ويحتمل أن يكون الاستنفار في كل مسلم، وخص هؤلاء بالعتاب لقربهم وجوارهم، وأنهم أحق بذلك من غيرهم.

الثانية: قوله تعالى: ﴿وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ﴾ أي: لا يرضوا لأنفسهم بالخفض والدعة ورسول الله ﷺ في المشقة. يقال: رغبت عن كذا أي: ترفعت عنه. ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ﴾ أي: عطش. وقرأ عبيد بن عمير ﴿ظَمَأٌ﴾ بالمد. وهما لغتان مثل خطأ وخطاء. ﴿وَلَا نَصَبٌ﴾ عطف، أي: تعب، و(لا) زائدة للتوكيد. وكذا ﴿وَلَا مَخْمَصَةٌ﴾ أي: مجاعة. وأصله ضمور البطن؛ ومنه رجل خميص وامرأة خمصانة. وقد تقدم. ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: في طاعته. ﴿وَلَا يَطْعُونُ مَوْطِئًا﴾ أي: أرضاً. ﴿يَغِطُّوا كُنْفَارًا﴾ أي: بوطئهم إياها، وهو في موضع نصب لأنه نعت للموطئ، أي: غائظا. ﴿وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوِّ نِيْلًا﴾ أي: قتلاً وهزيمة. وأصله من نلت الشيء أنال

(١) أخرجه عبد الله بن أحمد (زوائد المسند ٤/ ٧٥)، والترمذي (٣٧٠١) بسندٍ ضعيف، فيه فرق أبو طلحة وهو ضعيف.

(٢) زوائد المسند (٥/ ٦٣)، والترمذي (٣٧٠١)، وفي سنده مقال.

أي: أصبت. قال الكسائي: هو من قولهم أمر منيل منه ؛ وليس هو من التناول، إنما التناول من نلته العطية. قال غيره: نلت أنول من العطية، من الواو والنيل من الياء، تقول: نلته فأنا نائل، أي: أدركته.

قال السعدي رَحِمَهُ اللهُ:

يقول تعالى -حاثًا لأهل المدينة المنورة من المهاجرين، والأنصار، ومن حولهم من الأعراب، الذين أسلموا فحسن إسلامهم-: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ﴾ أي: ما ينبغي لهم ذلك، ولا يليق بأحوالهم. ﴿وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ﴾ في بقائها وراحتها، وسكونها ﴿عَنْ نَفْسِهِ﴾ الكريمة الزكية، بل النبي ﷺ أولى بالمؤمنين من أنفسهم، فعلى كل مسلم أن يفدي النبي ﷺ، بنفسه ويقدمه عليها، فعلامة تعظيم الرسول ﷺ ومحبته والإيمان التام به، أن لا يتخلفوا عنه، ثم ذكر الثواب الحامل على الخروج فقال: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ﴾ أي: المجاهدين في سبيل الله ﴿لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ﴾ أي: تعب ومشقة ﴿وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: مجاعة.

﴿وَلَا يَطْشُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ﴾ من الخوض لديارهم، والاستيلاء على أوطانهم، ﴿وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نِيلاً﴾ كالظفر بجيش أو سرية أو الغنيمة لمال ﴿إِلَّا كَتَبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ﴾ لأن هذه آثار ناشئة عن أعمالهم.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ الذين أحسنوا في مبادرتهم إلى أمر الله، وقيامهم بما عليهم من حقه وحق خلقه، فهذه الأعمال آثار من آثار عملهم.

ثم قال: ﴿وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا﴾ في ذهابهم إلى عدوهم ﴿إِلَّا كَتَبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

ومن ذلك هذه الأعمال، إذا أخلصوا فيها لله، ونصحوا فيها، ففي هذه الآيات أشد ترغيب وتشويق للنفوس إلى الخروج إلى الجهاد في سبيل الله، والاحتساب لما يصيبهم فيه من المشقات، وأن ذلك لهم رفعة درجات، وأن الآثار المترتبة على عمل العبد له فيها أجر كبير.

س: ما مدى صحة هذا الحديث: «إِنَّ بِالْمَدِينَةِ أَقْوَامًا مَا سِرْتُمْ مَسِيرًا وَلَا قَطَعْتُمْ وَادِيًا إِلَّا شَارَكُوكُمُ الْأَجْرَ حَبْسَهُمُ الْمَرَضُ»، وما لفظه بالضبط؟

ج: نعم صحيح، أخرجه البخاري ومسلم^(١) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه وفيه: «إِنَّ بِالْمَدِينَةِ رَجَالًا مَا سِرْتُمْ مَسِيرًا وَلَا قَطَعْتُمْ وَادِيًا إِلَّا كَانُوا مَعَكُمْ حَبْسَهُمُ الْمَرَضُ».

وفي رواية في البخاري: «وَهُمْ بِالْمَدِينَةِ حَبْسَهُمُ الْعُذْرُ».

قال القرطبي رحمته الله في شرح هذا الحديث بعد إيراده في تفسير الآيات المذكورة:

فأعطى عليه السلام للمعذور من الأجر مثل ما أعطى للقوي العامل. وقد قال بعض الناس: إنما يكون الأجر للمعذور غير مضاعف، ويضاعف للعامل المباشر. قال ابن العربي: وهذا تحكم على الله تعالى وتضييق لسعة رحمته، وقد عاب بعض الناس فقال: إنهم يعطون الثواب مضاعفا قطعاً، ونحن لا نقطع بالتضعيف في موضع فإنه مبني على مقدار النيات، وهذا أمر مغيب، والذي يقطع به أن هناك تضعيفاً وربك أعلم بمن يستحقه.

قلت: الظاهر من الأحاديث والآي المساواة في الأجر؛ منها قوله عليه السلام: «من دل على خير فله مثل أجر فاعله» وقوله: «من توضعاً وخرج إلى الصلاة فوجد الناس قد صلوا أعطاه الله مثل أجر من صلاها وحضرها». وهو ظاهر قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكُهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [النساء: ١٠٠]، وبدليل أن النية الصادقة هي أصل الأعمال، فإذا صحت في فعل طاعة فعجز عنها صاحبها لمانع منع منها فلا بعد في مساواة أجر ذلك العاجز لأجر القادر الفاعل ويزيد عليه.

قلت (مصطفى): وأورد القرطبي حديثاً ضعيفاً وهو نية المؤمن خير من عمله.

س: هل هذه الآية الكريمة: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ..﴾

منسوخة؟

ج: ذهب بعض العلماء إلى أن هذه الآية الكريمة منسوخة بقوله تعالى: ﴿وَمَا

(١) البخاري (٤٤٢٣)، ومسلم (١٩١١).

كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً ﴿٥٢٣﴾. قالوا: فلما كان في المسلمين قلة لم يكن لهم أن يتخلفوا عن رسول الله ﷺ، فلما كثر المسلمون نسخ الحكم بقوله تعالى: ﴿٥٢٤﴾ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً ﴿٥٢٤﴾.

وقال آخرون من أهل العلم: لا نسخ في الآية الكريمة، وإنما إذا استنفر الإمام قومًا وجب على القوم النفير، فيكون قوله تعالى: ﴿٥٢٥﴾ مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﴿٥٢٥﴾ إذا دعاهم للجهاد واستنفرهم للخروج، والله أعلم.

وهذه بعض الأقوال في ذلك:

قال الطبري رحمه الله:

وقد اختلف أهل التأويل في حكم هذه الآية.

فقال بعضهم: هي محكمة، وإنما كان ذلك لرسول الله ﷺ خاصة، لم يكن لأحد أن يتخلف إذا غزا خلافة فيقعد عنه، إلا من كان ذا عذر. فأما غيره من الأئمة والولاة، فإن لمن شاء من المؤمنين أن يتخلف خلافة، إذا لم يكن بالمسلمين إليه ضرورة.

وأورد بإسناد حسن عن قتادة قوله: ﴿٥٢٦﴾ مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ﴿٥٢٦﴾، هذا إذا غزا نبي الله بنفسه، فليس لأحد أن يتخلف. ذكر لنا أن نبي الله ﷺ قال: «لولا أن أشق على أمتي ما تخلفت خلف سرية تغزو في سبيل الله، لكنني لا أجد سعة، فأطلق بهم معي، ويشق علي - أو: أكره - أن أدعهم بعدي».

وقال آخرون هذه الآية: نزلت وفي أهل الإسلام قلة، فلما كثروا نسخها الله، وأباح التخلف لمن شاء، فقال: ﴿٥٢٧﴾ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً ﴿٥٢٧﴾.

[التوبة: ١٢٢]

ابن زيد في قوله: ﴿٥٢٨﴾ مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﴿٥٢٨﴾، فقرأ حتى بلغ: ﴿٥٢٩﴾ لِيَجْزِيََهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٥٢٩﴾، قال: هذا حين كان الإسلام قليلاً فلما كثر الإسلام بعد قال: ﴿٥٣٠﴾ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرْنَا مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ ﴿٥٣٠﴾، إلى آخر الآية.

قال أبو جعفر^(١): والصواب من القول في ذلك عندي، أن الله عنى بها الذين وصفهم بقوله: ﴿وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ﴾، [التوبة: ٩٠]. ثم قال جل ثناؤه: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ﴾، الذين تخلفوا عن رسول الله، ولا لمن حولهم من الأعراب الذين قعدوا عن الجهاد معه، أن يتخلفوا خلافه ولا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه. وذلك أن رسول الله ﷺ كان ندب في غزوته تلك كل من أطاق النهوض معه إلى الشخصوص، إلا من أذن له، أو أمره بالمقام بعده. فلم يكن لمن قدر على الشخصوص التخلف. فعدّ جل ثناؤه من تخلف منهم، فأظهر نفاق من كان تخلفه منهم نفاقاً، وعذر من كان تخلفه لعذر، وتاب على من كان تخلفه تفريطاً من غير شك ولا ارتياب في أمر الله، إذ تاب من خطأ ما كان منه من الفعل. فأما التخلف عنه في حال استغنائه، فلم يكن محظوراً، إذا لم يكن عن كراهية منه ﷺ ذلك. وكذلك حكم المسلمين اليوم إزاء إمامهم. فليس بفرض على جميعهم النهوض معه، إلا في حال حاجته إليهم، لما لا بُدَّ للإسلام وأهله من حضورهم واجتماعهم واستنهاضه إياهم، فيلزمهم حينئذ طاعته.

وإذا كان ذلك معنى الآية، لم تكن إحدى الآيتين اللتين ذكرنا ناسخة للأخرى، إذ لم تكن إحداها نافية حكم الأخرى من كل وجوهه، ولا جاء خبر يوجّه الحجة بأن إحداها ناسخة للأخرى.

قال ابن الجوزي (زاد المسير):

قال شيخنا علي بن عبيد الله: اختلف المفسرون في هذه الآية، فقالت طائفة: كان في أول الأمر لا يجوز التخلف عن رسول الله ﷺ حين كان الجهاد يلزم الكل؛ ثم نسخ ذلك بقوله: ﴿وَمَا كَانُوا الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً﴾؛ وقالت طائفة: فرض الله تعالى على جميع المؤمنين في زمان النبي ﷺ ممن لا عذر له الخروج معه لشيئين:

أحدهما: أنه من الواجب عليهم أن يقوه بأنفسهم.

والثاني: أنه إذا خرج الرسول فقد خرج الدين كله فأمروا بالتظاهر لئلا يقل العدد

(١) هو الطبري.

وهذا الحكم باق إلى وقتنا فلو خرج أمير المؤمنين إلى الجهاد وجب على عامة المسلمين متابعتة لما ذكرنا فعلى هذا الآية محكمة، قال أبو سليمان: لكل آية وجهها وليس للنسخ على إحدى الآيتين طريق.

وقال القرطبي رحمه الله:

هذه الآية منسوخة بقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانُوا الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً﴾ وأن حكمها كان حين كان المسلمون في قلة، فلما كثروا نسخت وأباح الله التخلف لمن شاء؛ قاله ابن زيد. وقال مجاهد: بعث ﷺ قوما إلى البوادي ليعلموا الناس فلما نزلت هذه الآية خافوا ورجعوا؛ فأنزل الله: ﴿وَمَا كَانُوا الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً﴾. وقال قتادة: كان هذا خاصا بالنبي ﷺ، إذا غزا بنفسه فليس لأحد أن يتخلف عنه إلا بعذر؛ فأما غيره من الأئمة الولاية فلمن شاء أن يتخلف خلفه من المسلمين إذا لم يكن بالناس حاجة إليه ولا ضرورة. وقول ثالث: أنها محكمة؛ قال الوليد بن مسلم: سمعت الأوزاعي وابن المبارك والفراري والسبيعي وسعيد بن عبد العزيز يقولون في هذه الآية إنها لأول هذه الأمة وآخرها.

قلت: قول قتادة حسن؛ بدليل غزاة تبوك، والله أعلم.

اس: وضع معنى قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانُوا الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾؟

ج: هذه الآية الكريمة فيها وجوه من التأويل أسوق بعضها، وبالله التوفيق، وهو جل ذكره أعلم بتأويل كتابه.

الوجه الأول: وما كان المؤمنون ليخرجوا إلى الغزو كلهم، ويتركوا رسول الله ﷺ وحده بالمدينة، إنما تخرج للغزو من كل فرقة منهم طائفة تغزو، وتبقى طائفة أخرى مع رسول الله ﷺ تتفقه في الدين، تستبصر في دينها وتتعلم أمور الشريعة، وهؤلاء وأولئك إذا رجعوا إلى أهاليهم وأقوامهم أنذروهم عذاب الله ونعمة الله لعل القوم يحذرون عذاب الله ونقمته.

فإن قال قائل: إن الذين بقوا مع رسول الله ﷺ في المدينة تفقهوا في الدين مع

رسول الله ﷺ أما الذين خرجوا للغزو فما وجه إنذارهم لقومهم؟
فجواب ذلك: أنهم ينذروا قومهم عقوبة الكفر والمخالفات، ويحذرونهم أن
يُصيبهم مثل ما أصاب أهل الكفر الذين حلَّت بهم الهزائم، وأذلهم الله بعد عزِّه كانوا
فيها، وسُبيت نساؤهم وغُنمت أموالهم، ويخبرونهم بنصر الله ﷻ لأتباع نبيه ﷺ،
ويخبرونهم بشجاعة أهل الإيمان في القتال، وحرصهم على الشهادة في سبيل الله،
وهذا أمرٌ لم يعهده أهل الجاهلية من قبل.

الوجه الثاني: وما كان المؤمنون لينفروا إلى رسول الله ﷺ كلهم لتعلم دينهم
ويتركوا أسرهم بلا رعاية وبلا حفظ ويتركوا أسرهم تضيع، بل ينفر إلى رسول الله
ﷺ لتعلم منه فريقٌ ويبقى فريقٌ فيتفقه الذين نفروا إلى رسول الله ﷺ وينذروا قومهم
إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون.

الوجه الثالث: وما كان المسلمون كلهم ليخرجوا للغزو مع رسول الله ﷺ
ويتركوا بلادهم - إلا إذا دعاهم رسول الله ﷺ للخروج - إنما تخرج طائفة من كل
فرقة مع رسول الله ﷺ تتعلم من هديه في الغزوات وتستفيد من سمته وتتدبر وتتأمل
سيرته، وكيف وأن الله ﷻ يؤيده وينصره ويكبت عدوه، وكذا تستفيد من فقهه في
الأسفار، وتتعلم منه الأحكام، لتعلم كل ذلك قومها إذا رجعت إلى قومها لعل
الأقوام يحذرون عذاب الله وعقابه في الدنيا وكذا يحذرون العذاب الآخروي.

وهذه بعض أقوال أهل العلم في ذلك.

قال الطبري خ بعد أن ذكر معنى (كَافَّةً) وأن معناها: جميعاً قال مورداً عدة

أقوال:

فقال بعضهم: وهو نَفَرٌ كان من قوم كانوا بالبادية، بعثهم رسول الله ﷺ يعلمون
الناس الإسلام، فلما نزل قوله: ﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا
عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﴾، انصرفوا عن البادية إلى النبي ﷺ، خشية أن يكونوا ممن تخلف عنه،
وممن عني بالآية. فأنزل الله في ذلك عذرهم بقوله: ﴿ وَمَا كَانِ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا
كَافَّةً ﴾، وكره انصراف جميعهم من البادية إلى المدينة.

وأورد من طريق ابن أبي نجیح، عن مجاهد^(١): ﴿وَمَا كَانَتِ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ﴾، قال: ناسٌ من أصحاب محمد ﷺ، خرجوا في البوادي، فأصابوا من الناس معروفًا، ومن الخصب ما يتفنون به، ودعوا من وجدوا من الناس إلى الهدى، فقال الناس لهم: ما نراكم إلا قد تركتم أصحابكم وجئتمونا! فوجدوا في أنفسهم من ذلك حرجًا، وأقبلوا من البادية كلهم حتى دخلوا على النبي ﷺ، فقال الله: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ﴾، يتغنون الخير، ﴿لِيَنْفَقَهُوْا﴾، وليسمعوا ما في الناس، وما أنزل الله بعدهم، ﴿وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ﴾، الناس كلهم، ﴿إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾.

وقال آخرون: معنى ذلك: وما كان المؤمنون لينفروا جميعًا إلى عدوهم، ويتركوا نبيهم ﷺ وحده.

وأورد بإسناد صحيح عن ابن زيد في قوله: ﴿وَمَا كَانَتِ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً﴾، قال: ليذهبوا كلهم، فلولا نفر من كل حي وقبيلة طائفة، وتخلف طائفة، ﴿لِيَنْفَقَهُوْا فِي الدِّينِ﴾، ليتفقه المتخلفون مع النبي ﷺ في الدين، ولينذر المتخلفون النافرين إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون.

وأورد بإسناد ضعيف عن ابن عباس، قوله: ﴿وَمَا كَانَتِ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً﴾، يقول: ما كان المؤمنون لينفروا جميعًا، ويتركوا النبي ﷺ وحده، ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ﴾، يعني: عصابة، يعني: السرايا، ولا يتسرّوا إلا بإذنه، فإذا رجعت السرايا وقد نزل بعدهم قرآن، تعلمه القاعدون من النبي ﷺ، قالوا: «إن الله قد أنزل على نبيكم بعدكم قرآنًا، وقد تعلمناه». فيمكث السرايا يتعلمون ما أنزل الله على نبيهم بعدهم، ويبعث سرايا آخر، فذلك قوله: ﴿لِيَنْفَقَهُوْا فِي الدِّينِ﴾، يقول يتعلمون ما أنزل الله على نبيه، ويعلموا السرايا إذا رجعت إليهم لعلهم يحذرون.

وبإسناد حسن عن قتادة قوله: ﴿وَمَا كَانَتِ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً﴾، إلى قوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾، قال: هذا إذا بعث نبي الله الجيوش، أمرهم أن لا يُعَرِّوا نبيه،

(١) وهو مرسل، وفي سنده مقال.

وتقيم طائفة مع رسول الله ﷺ تتفقه في الدين، وتنطلق طائفة تدعو قومها، وتحذرهم وقائع الله فيمن خلا قبلهم.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: ما هؤلاء الذين نفروا بمؤمنين، ولو كانوا مؤمنين لم ينفر جميعهم، ولكنهم منافقون. ولو كانوا صادقين أنهم مؤمنون، لنفر بعض ليتفقه في الدين، ولينذر قومه إذا رجع إليهم.

وأورد بإسناد ضعيف أيضا عن ابن عباس قوله: ﴿وَمَا كَانَتِ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً﴾، فإنها ليست في الجهاد، ولكن لما دعا رسول الله ﷺ على مُضَرِّ السَّيِّئِينَ أَجْدَبَتْ بِلَادَهُمْ، وكانت القبيلة منهم تُقْبَلُ بِأَسْرَها حتى يحلُّوا بالمدينة من الجهد، ويعتَلُّوا بالإسلام وهم كاذبون، فضيَّقوا على أصحاب النبي ﷺ وأجهدوهم، وأنزل الله يخبر رسول الله ﷺ أنهم ليسوا مؤمنين، فردَّهم رسول الله ﷺ إلى عشائريهم، وحذَّر قومهم أن يفعلوا فعلهم، فذلك قوله: ﴿وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾. **وأورد الطبري أقوالاً أخرى، ثم قال:** وأولى الأقوال في تأويل ذلك بالصواب أن يقال: تأويله: وما كان المؤمنون لينفروا جميعاً ويتركوا رسول الله ﷺ وحده، وأن الله نهي بهذه الآية المؤمنين به أن يخرجوا في غزو وجهادٍ وغير ذلك من أمورهم، ويدعوا رسول الله ﷺ وحيداً. ولكن عليهم إذا سَرَى رسول الله ﷺ سرية أن ينفر معها من كل قبيلة من قبائل العرب، وهي الفرقة، ﴿طَائِفَةٌ﴾، وذلك من الواحد إلى ما بلغ من العدد، كما قال الله جل ثناؤه: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ﴾، يقول: فهلا نفر من كل فرقة منهم طائفة؟

وعلل الطبري سبب هذا الاختيار ثم قال:

وأما قوله: ﴿لِيَكْفَقَهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ﴾، فإن أولى الأقوال في ذلك بالصواب، قول من قال: ليتفقه الطائفة النافرة بما تعين من نصر الله أهل دينه وأصحاب رسوله، على أهل عداوته والكفر به، فيفقه بذلك من مُعَايِنَتِهِ حقيقة علم أمر الإسلام وظهوره على الأديان، من لم يكن فقهه، ولينذروا قومهم فيحذروهم أن ينزل بهم من بأس الله مثل الذي نزل بمن شاهدوا وعانوا ممن ظفر بهم المسلمون

من أهل الشرك ، إذا هم رجعوا إليهم من غزوهم ، ﴿لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ ، يقول: لعل قومهم، إذا هم حذروهم ما عاينوا من ذلك، يحذرون فيؤمنون بالله ورسوله، حذرًا أن ينزل بهم ما نزل بالذين أخبروا خبرهم.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ:

هذا بيان من الله تعالى لما أراد من نفي الأحياء مع الرسول ﷺ في غزوة تبوك، فإنه قد ذهب طائفة من السلف إلى أنه كان يجب النفي على كل مسلم إذا خرج رسول الله ﷺ؛ ولهذا قال تعالى: ﴿انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ [التوبة: ٤١]، وقال: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ١٢٠]، قالوا: فنسخ ذلك هذه الآية.

وقد يقال: إن هذا بيان لمراده تعالى من نفي الأحياء كلها، وشرذمة من كل قبيلة إن لم يخرجوا كلهم، ليتفقه الخارجون مع الرسول بما ينزل من الوحي عليه، ويندروا قومهم إذا رجعوا إليهم بما كان من أمر العدو، فيجتمع لهم الأمران في هذا: النفي المعين وبعده، صلوات الله وسلامه عليه، تكون الطائفة النافرة من الحي إما لتفقه وإما للجهاد؛ فإنه فرض كفاية على الأحياء.

وأورد طائفة من الآثار التي أوردتها الطبري رَحِمَهُ اللهُ.

وقال القرطبي رَحِمَهُ اللهُ:

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانُوا الْمُؤْمِنُونَ﴾ وهي أن الجهاد ليس على الأعيان وأنه فرض كفاية كما تقدم؛ إذ لو نفر الكل لضاع من وراءهم من العيال، فليخرج فريق منهم للجهاد وليقم فريق يتفقهون في الدين ويحفظون الحريم، حتى إذا عاد النافرون أعلمهم المقيمون ما تعلموه من أحكام الشرع، وما تجدد نزوله على النبي ﷺ. وهذه الآية ناسخة لقوله تعالى: ﴿إِلَّا نَنْفِرُوا﴾ [التوبة: ٣٩]، وللاية التي قبلها؛ على قول مجاهد وابن زيد.

وقال: هذه الآية أصل في وجوب طلب العلم؛ لأن المعنى: وما كان المؤمنون لينفروا كافة والنبي ﷺ مقيم لا ينفر فيتركوه وحده. ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ﴾ بعد ما علموا أن

النفير لا يسع جميعهم. ﴿وَمِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ﴾ وتبقى بقيتها مع النبي ﷺ ليتحملوا عنه الدين ويتفقهوا؛ فإذا رجع النافرون إليهم أخبروهم بما سمعوا وعلموه. وفي هذا إيجاب التفقه في الكتاب والسنة، وأنه على الكفاية دون الأعيان. ويدل عليه أيضا قوله تعالى: ﴿فَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣]. فدخل في هذا من لا يعلم الكتاب والسنن.

وقال: قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ﴾ قال الأخفش: أي فهلا نفر. ﴿وَمِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ﴾ الطائفة في اللغة الجماعة، وقد تقع على أقل من ذلك حتى تبلغ الرجلين، وللواحد على معنى نفس طائفة. وقد تقدم أن المراد بقوله تعالى: ﴿إِنْ نَعَفَ عَنْ طَائِفَةٍ مِّنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةٌ﴾ [التوبة: ٦٦] رجل واحد. ولا شك أن المراد هنا جماعة.

وقال أيضا:

قوله تعالى: ﴿لِيَنْفَقَهُوْا﴾ الضمير في ﴿لِيَنْفَقَهُوْا﴾، (وَلِيُنْذِرُوا) للمقيمين مع النبي ﷺ؛ قاله قتادة ومجاهد. وقال الحسن: هما للفرقة النافرة؛ واختاره الطبري. ومعنى ﴿لِيَنْفَقَهُوْا فِي الدِّينِ﴾ أي: يتصرفوا ويتيقنوا بما يريهم الله من الظهور على المشركين ونصرة الدين. ﴿وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ﴾ من الكفار. ﴿إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ﴾ من الجهاد فيخبروهم بنصرة الله تعالى نبيه ﷺ والمؤمنين، وأنهم لا يدان لهم بقتالهم وقتال النبي ﷺ؛ فينزل بهم ما نزل بأصحابهم من الكفار.

قلت: قول مجاهد وقتادة أبين، أي لتفقه الطائفة المتأخرة مع رسول الله ﷺ عن النفور في السرايا. وهذا يقتضي الحث على طلب العلم والندب إليه دون الوجوب والإلزام؛ إذ ليس ذلك في قوة الكلام، وإنما لزم طلب العلم بأدلتها؛ قاله أبو بكر بن العربي.

قال ابن الجوزي في (زاد المسير):

واختلف المفسرون في المراد بهذا النفير على قولين:

أحدهما: أنه النفير إلى العدو، فالمعنى: ما كان لهم أن ينفروا بأجمعهم بل تنفر طائفة وتبقى مع النبي ﷺ طائفة ﴿لِيَنْفَقَهُوْا فِي الدِّينِ﴾ يعني الفرقة القاعدين فإذا رجعت السرايا وقد نزل بعدهم قرآن أو تجدد أمر أعلموهم به وأنذروهم به إذا

رجعوا إليهم وهذا المعنى مروى عن ابن عباس.

والثاني: أنه النفير إلى رسول الله ﷺ، بل تنفر منهم طائفة ليتفقه هؤلاء الذين ينفرون، ولينذروا قومهم المتخلفين، هذا قول الحسن وهو أشبه بظاهر الآية فعلى القول الأول يكون نفير هذه الطائفة مع رسول الله ﷺ إن خرج إلى غزاة أو مع سراياه وعلى القول الثاني يكون نفير الطائفة إلى رسول الله ﷺ لاقتباس العلم.

وقال السعدي رحمه الله:

يقول تعالى: -منبها لعباده المؤمنين على ما ينبغي لهم- ﴿وَمَا كَانُوا الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً﴾ أي: جميعا لقتال عدوهم، فإنه يحصل عليهم المشقة بذلك، وتوفت به كثير من المصالح الأخرى، ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ﴾ أي: من البلدان، والقبائل، والأفخاذ ﴿طَائِفَةٌ﴾ تحصل بها الكفاية والمقصود لكان أولى.

ثم نبه على أن في إقامة المقيمين منهم وعدم خروجهم مصالح لو خرجوا لفاتتهم، فقال: ﴿لِيَنْفَقَهُوْا﴾ أي: القاعدون ﴿فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ﴾ أي: ليتعلموا العلم الشرعي، ويعلموا معانيه، ويفقهوا أسرارها، وليعلموا غيرهم، ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم.

ففي هذا فضيلة العلم، وخصوصا الفقه في الدين، وأنه أهم الأمور، وأن من تعلم علما، فعليه نشره وبثه في العباد، ونصيحتهم فيه فإن انتشار العلم عن العالم، من بركته وأجره، الذي ينمى له.

وأما اقتصار العالم على نفسه، وعدم دعوته إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة، وترك تعليم الجهال ما لا يعلمون، فأى منفعة حصلت للمسلمين منه؟ وأي نتيجة نتجت من علمه؟ وغايته أن يموت، فيموت علمه وثمرته، وهذا غاية الحرمان، لمن آتاه الله علما ومنحه فهما.

وفي هذه الآية أيضا دليل وإرشاد وتنبيه لطيف، لفائدة مهمة، وهي: أن المسلمين ينبغي لهم أن يعدوا لكل مصلحة من مصالحهم العامة من يقوم بها، ويوفر وقته عليها، ويجتهد فيها، ولا يلتفت إلى غيرها، لتقوم مصالحهم، وتتم منافعهم، ولتكون وجهة جميعهم، ونهاية ما يقصدون قصدا واحدا، وهو قيام مصلحة دينهم ودنياهم،

د ٥٣٢ ب التَّسْمِيْلُ لِأَوَّلِ النَّزْلِ د ٥٣٢ ب سُورَةُ النَّسَاءِ

ولو تفرقت الطرق وتعددت المشارب، فالأعمال متباينة، والقصد واحد، وهذه من
الحكمة العامة النافعة في جميع الأمور.

|

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَنِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلِيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَعَلِّمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ (١٢٣) وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَن يَقُولُ أَيْسَرُ زَادَتْهُ هَذِهِ ءِيمَنًا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فزَادَتْهُمْ ءِيمَنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿١٢٥﴾ أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَيْنَا مِنْ بَرٍّ ثُمَّ انْصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهِ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴿١٢٧﴾ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾

[التوبة: ١٢٣-١٢٩]

س: وضح معانى هذه:

﴿يُلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ - غِلَظَةً - يَسْتَبِشِرُونَ - مَرَضٌ - رِجْسًا - يُفْتَنُونَ - يَذْكُرُونَ - أَنْصَرَفُوا - لَا يَفْقَهُونَ - عَزِيزٌ عَلَيْهِ - مَا عَنِتُّمْ - رءُوفٌ - تَوَلَّوْا - حَسِبَ اللَّهُ - عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ - وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾.

ج:

الكلمة	معناها
﴿يُلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ﴾	القريبون منكم ومن دياركم والكفار الذين يسكنون بلادًا قريبين من بلادكم.
﴿غِلَظَةً﴾	شدة.
﴿يَسْتَبِشِرُونَ﴾	يفرحون - يبشر بعضهم بعضًا.
﴿مَرَضٌ﴾	شك - نفاق - ريب.
﴿رِجْسًا﴾	كفرًا - شكًا - ارتيابًا - نفاقًا.
﴿يُفْتَنُونَ﴾	يختبرون.
﴿يَذْكُرُونَ﴾	يتعظون - يعتبرون.
﴿أَنْصَرَفُوا﴾	أعرضوا عن الإيمان.
﴿لَا يَفْقَهُونَ﴾	لا يفهمون - لا يريدون فهمًا.
﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ﴾	شاق عليه.
﴿مَا عَنِتُّمْ﴾	عنتمكم - ما يصيبكم من مشقة وعذاب.
﴿رءُوفٌ﴾	ذو رافة.
﴿تَوَلَّوْا﴾	أعرضوا وانصرفوا.

d	٥٣٥	b	سُورَةُ النَّازِعَاتِ	d	النَّسْهِيلُ لِأَوَّلِ النَّزِيلِ	b
			كافيني الله.		﴿حَسْبِيَ اللَّهُ﴾	
			عليه اعتمدت.		﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾	
			صاحب العرش العظيم، والعرش سرير الملك.		﴿وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾	

قتال الكفار الأقرب فالأقرب

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلِيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾؟

ج: المعنى - والله تعالى أعلم - يا أهل الإيمان قاتلوا في سبيل الله لإعلاء كلمة الله أهل الكفر والجحود الأقرب إليكم منهم فالأقرب، يعني: الأقرب من بلادكم فالأقرب، أي: ابدؤوا بقتال الكفار المجاورين لبلادكم الأقرب منهم ثم الذي يليه، إلا إذا دعت الحاجة والمصلحة إلى غير ذلك، أو كانت بينكم وبين الأقرب منكم عهود ومواثيق. فحينئذٍ نتخطاهم إلى غيرهم. أما قوله تعالى: ﴿وَلِيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ أي: شدة في القتال، وفي الألفاظ، وشجاعة وثباتاً، ﴿وَأَعْلَمُوا﴾ يا أهل الإيمان، أن الله معكم ما دمت متقين لله موحدين له قائمين بأمره ومنتهين عن نهيه.

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره للمؤمنين به وبرسوله: يا أيها الذين صدّقوا الله ورسوله، قاتلوا من وليكم من الكفار دون من بُعد منهم. يقول لهم: ابدؤوا بقتال الأقرب فالأقرب إليكم داراً، دون الأبعد فالأبعد. وكان الذين يلون المخاطبين بهذه الآية يومئذ، الروم، لأنهم كانوا سكان الشام يومئذ، والشام كانت أقرب إلى المدينة من العراق. فأما بعد أن فتح الله على المؤمنين البلاد، فإن الفرض على أهل كل ناحية، قتال من وليهم من الأعداء دون الأبعد منهم، ما لم يضطر إليهم أهل ناحية أخرى من نواحي بلاد الإسلام، فإن اضطروا إليهم، لزمهم عونهم ونصرهم، لأن المسلمين يدّ على من سواهم.

ولصحة كون ذلك كذلك، تأوّل كل من تأوّل هذه الآية، أن معناها إيجاب الفرض على أهل كل ناحية قتال من وليهم من الأعداء.

وقال رحمه الله:

وأما قوله: ﴿وَلِيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً﴾، فإن معناه: وليجد هؤلاء الكفار الذين تقاتلونهم، ﴿فِيكُمْ﴾، أي: منكم شدة عليهم، ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾، يقول:

وَأَيُّقِنُوا، عِنْدَ قِتَالِكُمْ إِيَّاهُمْ، أَنَّ اللَّهَ مَعَكُمْ، وَهُوَ نَاصِرُكُمْ عَلَيْهِمْ، فَإِنْ اتَّقَيْتُمْ اللَّهَ وَخَفْتُمُوهُ بِأَدَاءِ فَرَائِضِهِ وَاجْتِنَابِ مَعَاصِيهِ، فَإِنَّ اللَّهَ نَاصِرٌ مِنْ اتِّقَاءِهِ وَمَعِينُهُ.

وقال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ:

سَبَّحَانَهُ عَرَفَهُمْ كَيْفِيَّةَ الْجِهَادِ وَأَنَّ الْإِبْتِدَاءَ بِالْأَقْرَبِ فَالْأَقْرَبُ مِنَ الْعَدُوِّ وَلِهَذَا بَدَأَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِالْعَرَبِ، فَلَمَّا فَرَّغَ قَصْدَ الرُّومِ وَكَانُوا بِالشَّامِ.

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ:

﴿وَلِيَجِدُوا فِيكُمْ غُلْظَةً﴾ أي: شِدَّةٌ وَقُوَّةٌ وَحِمِيَّةٌ.

وقال السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَهَذَا أَيْضًا إِرْشَادٌ آخَرٌ، بَعْدَمَا أَرَشَدَهُمْ إِلَى التَّدْبِيرِ فَيَمْنُ بِبَاشِرِ الْقِتَالِ، أَرَشَدَهُمْ إِلَى أَنَّهُمْ يَدُورُونَ بِالْأَقْرَبِ فَالْأَقْرَبُ مِنَ الْكُفَّارِ، وَالْغُلْظَةُ عَلَيْهِمْ، وَالشَّدَّةُ فِي الْقِتَالِ، وَالشَّجَاعَةُ وَالثَّبَاتُ.

﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ أي: وَلِيَكُنْ لَدَيْكُمْ عِلْمٌ أَنَّ الْمَعُونَةَ مِنَ اللَّهِ تَنْزِلُ بِحَسَبِ التَّقْوَى، فَلَازِمُوا عَلَى تَقْوَى اللَّهِ، يَعْنِيكُمْ وَيَنْصُرُكُمْ عَلَى عَدُوِّكُمْ. وَهَذَا الْعُمُومُ فِي قَوْلِهِ: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ﴾ مَخْصُوصٌ بِمَا إِذَا كَانَتِ الْمَصْلُحَةُ فِي قِتَالِ غَيْرِ الَّذِينَ يَلُونَنَا، وَأَنْوَاعِ الْمَصَالِحِ كَثِيرَةً جَدًّا.

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يِقَاتِلُوا الْكُفَّارَ أَوَّلًا فَأَوَّلًا الْأَقْرَبَ فَالْأَقْرَبُ إِلَى حُوزَةِ الْإِسْلَامِ؛ وَلِهَذَا بَدَأَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِقِتَالِ الْمُشْرِكِينَ فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ، فَلَمَّا فَرَّغَ مِنْهُمْ وَفَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِ مَكَّةَ وَالْمَدِينَةَ، وَالطَّائِفَ، وَالْيَمَنَ وَالْيَمَامَةَ، وَهَجَرَ، وَخَيْبَرَ، وَحَضْرَمَوْتَ، وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنْ أَقَالِيمِ جَزِيرَةِ الْعَرَبِ، وَدَخَلَ النَّاسُ مِنْ سَائِرِ أَحْيَاءِ الْعَرَبِ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا، شَرَعَ فِي قِتَالِ أَهْلِ الْكِتَابِ، فَتَجَهَّزَ لَغَزْوِ الرُّومِ الَّذِينَ هُمْ أَقْرَبُ النَّاسِ إِلَى جَزِيرَةِ الْعَرَبِ، وَأَوْلَى النَّاسِ بِالدَّعْوَةِ إِلَى الْإِسْلَامِ لَكُونِهِمْ أَهْلُ الْكِتَابِ، فَبَلَغَ تَبَوُّكَ ثُمَّ رَجَعَ لِأَجْلِ جَهْدِ النَّاسِ وَجَدْبِ الْبِلَادِ وَضَيْقِ الْحَالِ، وَكَانَ ذَلِكَ سَنَةً تَسَعُ مِنْ هِجْرَتِهِ ﷺ.

ثُمَّ اشْتَغَلَ فِي السَّنَةِ الْعَاشِرَةِ بِحُجَّتِهِ حَبَّةِ الْوَدَاعِ. ثُمَّ عَاجَلَتْهُ الْمَنِيَّةُ، صَلَوَاتُ اللَّهِ

وسلامه عليه، بعد الحجة بأحد وثمانين يوماً، فاختاره الله لما عنده.

وقام بالأمر بعده وزيره وصديقه وخليفته أبو بكر الصديق رضي الله عنه وقد مال الدين ميلة كاد أن ينجفل، فثبته الله تعالى به فوطد القواعد، وثبت الدعائم. ورد شارذ الدين وهو راغم. ورد أهل الردة إلى الإسلام، وأخذ الزكاة ممن منعها من الطعام، وبين الحق لمن جهله، وأدى عن الرسول ما حمّله. ثم شرع في تجهيز الجيوش الإسلامية إلى الروم عبدة الصليبان وإلى الفرس عبدة النيران، ففتح الله ببركة سفارته البلاد، وأرغم أنف كسرى وقيصر ومن أطاعهما من العباد. وأنفق كنوزهما في سبيل الله، كما أخبر بذلك رسول الإله.

وكان تمام الأمر على يدي وصيه من بعده، وولي عهده الفاروق الأواب، شهيد المحراب، أبي حفص عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فأرغم الله به أنوف الكفرة الملحدين، وقمع الطغاة والمنافقين، واستولى على الممالك شرقاً وغرباً. وحملت إليه خزائن الأموال من سائر الأقاليم بعداً وقرباً. ففرقها على الوجه الشرعي، والسبيل المرضي. ثم لما مات شهيداً وقد عاش حميداً، أجمع الصحابة من المهاجرين والأنصار. على خلافة أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه شهيد الدار. فكسى الإسلام رياسة حلة سابغة. وامتدت في سائر الأقاليم على رقاب العباد حجة الله البالغة، وظهر الإسلام في مشارق الأرض ومغاربها، وعلت كلمة الله وظهر دينه. وبلغت الأمة الحنيفية من أعداء الله غاية مآربها، فكلما علوا أمة انتقلوا إلى من بعدهم، ثم الذين يلونهم من العتاة الفجار، امتثالاً لقوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قِيلُوا الَّذِينَ يَكُونُكُم مِّنَ الْكُفَّارِ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَلِيَجِدُوا فِيكُمْ غُلَظَةً﴾ أي: وليجد الكفار منكم غلظة عليهم في قتالكم لهم، فإن المؤمن الكامل هو الذي يكون رفيقاً لأخيه المؤمن، غليظاً على عدوه الكافر، كما قال تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤]، وقال تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩]، وقال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ٧٣، والتحريم: ٩]، وفي الحديث: أن رسول الله ﷺ قال: «أنا الضَّحُوكُ

الْقَتَالِ»، يعني: أنه ضَحُوكٌ في وجه وليه، قَتَالَ لهامة عدوه ^(١). وقوله: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ أي: قاتلوا الكفار، وتوكلوا على الله، واعلموا أن الله معكم إن اتقيتموه وأطعتموه.

وهكذا الأمر لما كانت القرون الثلاثة الذين هم خير هذه الأمة، في غاية الاستقامة، والقيام بطاعة الله تعالى، لم يزلوا ظاهرين على عدوهم، ولم تنزل الفتوحات كثيرة، ولم تنزل الأعداء في سَفَالٍ وخسار. ثم لما وقعت الفتن والأهواء والاختلافات بين الملوك، طمع الأعداء في أطراف البلاد، وتقدموا إليها، فلم يمانعوا لشغل الملوك بعضهم ببعض، ثم تقدموا إلى حوزة الإسلام، فأخذوا من الأطراف بلدانا كثيرة، ثم لم يزلوا حتى استحوذوا على كثير من بلاد الإسلام، والله سبحانه الأمر من قبل ومن بعد. فكلما قام ملك من ملوك الإسلام، وأطاع أوامر الله، وتوكل على الله، فتح الله عليه من البلاد، واسترجع من الأعداء بحسبه، وبقدر ما فيه من ولاية الله. والله المسئول المأمول أن يمكن المسلمين من نواصي أعدائه الكافرين، وأن يعلي كلمتهم في سائر الأقاليم، إنه جواد كريم.

(١) لا يثبت هذا الحديث عن رسول الله ﷺ.

زيادة إيمان المؤمنين

بنزول القرآن وزيادة أهل الضلال ضلالاً

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ﴾
 ﴿إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ (١٢٤) وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ
 فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿١٢٥﴾؟

ج: المعنى - والله أعلم - وإذا ما أنزلت عليك يا رسول الله سورة من عند الله ﴿فَمِنْهُمْ﴾ قيل من أهل النفاق، وقيل: أبهم القائل وقد يكون من أهل النفاق وقد يكون من غيرهم. ﴿مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ﴾ هذه الآية التي نزلت إيماناً، فأهل النفاق يقولون ذلك على سبيل الاستهزاء والسخرية، وأهل الإيمان يقولون ذلك تيمناً وتفاؤلاً واستبشاراً.

أما قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾.

أما زيادة إيمانهم فوجهها أنهم لما أنزلت السورة آمنوا بها وامتثلوا ما فيها فأكرمهم الله بزيادة إيمانهم وطمأنينة قلوبهم فكلما نزلت آية وسورة ازدادوا إيماناً وتصديقاً فزادهم الله إيماناً إلى إيمانهم كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ أَهْتَدُوا زَادَهُمْ هُدًى وَءَانَتْهُمْ نَفْسُهُمْ﴾ (١٧) [محمد: ١٧].

وكذا فإنهم يعملون بالآيات فيزيدهم الله توفيقاً كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى﴾

﴿٥﴾ وَصَدَقَ بِالْحَقِّ ﴿٦﴾ فَتَنِيْنَهُ، لِلْيُسْرَى ﴿٧﴾ [الليل: ٥-٧].

ويزدادوا يقيناً إذا سمعوا الآيات تتلى وترق لها قلوبهم وتخضع لها جوارحهم وتنذرف لها دموعهم، فكل ذلك يزيدهم الله به هدى، فإذا نزلت الآية الكريمة والسورة المباركة، وكل آيات القرآن كريمة وكل سوره مباركة، فإذا نزلت السورة بشر بعضهم بعضاً وفرحوا بنزولها.

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ﴾ وهم أهل النفاق الذين في قلوبهم شك وارتياب وتردد ونفاق، بل وكفرٌ كذلك فزادتهم الآية الكريمة، والسورة المباركة ﴿رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ﴾ شكاً إلى شكهم ونفاقاً إلى نفاقهم، وذلك لأنهم لما عاندوا وخالفوا عاقبهم الله بأن زادهم ضلالاً إلى ضلالهم وغياً إلى غيهم، كما قال تعالى:

﴿ثُمَّ أَنْصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهِ قُلُوبَهُمْ﴾، وكما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ يَخِلْ وَاسْتَغْنَى﴾ (٨-١٠).
بِالْحُسْنَى ﴿١٠﴾ فَسَنِيَرُهُ لِلْعُسْرَى ﴿١٠﴾ [الليل: ٨-١٠].

وقوله: ﴿وَمَا تَوْأَاهُمْ كَفَرُوا﴾ أي: استمر بهم الرجس والشك والنفاق حتى ماتوا على كفرهم وضلالهم.

وينحو هذا قال أهل العلم.

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره: وإذا أنزل الله سورة من سور القرآن على نبيه محمد ﷺ، فمن هؤلاء المنافقين الذين ذكرهم الله في هذه السورة من يقول: أيها الناس، أيكم زادته هذه السورة إيماناً؟ يقول: تصديقاً بالله وبآياته. يقول الله: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾، من الذين قيل لهم ذلك، ﴿فَزَادَتْهُمْ﴾، السورة التي أنزلت، ﴿إِيمَانًا﴾، وهم يفرحون بما أعطاهم الله من الإيمان واليقين.

فإن قال قائل: أو ليس «الإيمان»، في كلام العرب، التصديق والإقرار؟ قيل: بلى!

فإن قيل: فكيف زادتهم السورة تصديقاً وإقراراً؟

قيل: زادتهم إيماناً حين نزلت، لأنهم قبل أن تنزل السورة لم يكن لهم فرض الإقرار بها والعمل بها بعينها، إلا في جملة إيمانهم بأن كل ما جاءهم به نبيهم ﷺ من عند الله فحق. فلما أنزل الله السورة، لهم فرض الإقرار بأنها بعينها من عند الله، ووجب عليهم فرض الإيمان بما فيها من أحكام الله وحدوده وفرائضه، فكان ذلك هو الزيادة التي زادتهم نزول السورة حين نزلت من الإيمان والتصديق بها.

ويقول تعالى ذكره: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾، نفاق وشك في دين الله، فإن السورة التي أنزلت، ﴿فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ﴾، وذلك أنهم شكوا في أنها من عند الله، فلم يؤمنوا بها ولم يصدقوا، فكان ذلك زيادة شك حادثة في تنزيل الله، لهم الإيمان به عليهم، بل ارتابوا بذلك، فكان ذلك زيادة نتن من أفعالهم، إلى ما سلف منهم نظيره من النتن والنفاق. وذلك معنى قوله: ﴿فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ﴾، ﴿وَمَا تَوْأَاهُمْ﴾، يعني: هؤلاء المنافقين أنهم هلكوا، ﴿وَهُمْ كَفَرُوا﴾، يعني: وهم كافرون بالله وآياته.

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ:

يقول تعالى: ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ﴾ فمن المنافقين ﴿مَنْ يَقُولُ أَيْكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيْمَانًا﴾ أي: يقول بعضهم لبعض أياكم زادت هذه السورة إيماننا، قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيْمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾.

وهذه الآية من أكبر الدلائل على أن الإيمان يزيد وينقص، كما هو مذهب أكثر السلف والخلف من أئمة العلماء، بل قد حكى الإجماع على ذلك غير واحد، وقد بسط الكلام على هذه المسألة في أول «شرح البخاري» رَحِمَهُ اللهُ، ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ﴾ أي: زادتهم شكا إلى شكهم، وريبا إلى ريبهم، كما قال تعالى: ﴿وَنُزِّلَ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢]، وقال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ ۖ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي ءَاذَانِهِمْ وَقُرْءَانُهُمْ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٤]، وهذا من جملة شقائهم أن ما يهدي القلوب يكون سببا لضلالهم ودمارهم، كما أن سبب المزاج لو غذي بما غذي به لا يزيده إلا خبالاً ونقصاً.

قال السعدي رَحِمَهُ اللهُ:

يقول تعالى: مبينا حال المنافقين، وحال المؤمنين عند نزول القرآن، وتفاوت ما بين الفريقين، فقال: ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ﴾ فيها الأمر، والنهي، والخبر عن نفسه الكريمة، وعن الأمور الغائبة، والحث على الجهاد. ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيْكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيْمَانًا﴾ أي: حصل الاستفهام، لمن حصل له الإيمان بها من الطائفتين.

قال تعالى - مبينا الحال الواقعة -: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيْمَانًا﴾ بالعلم بها، وفهمها، واعتقادها، والعمل بها، والرغبة في فعل الخير، والانكفاف عن فعل الشر. ﴿وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ أي: يبشر بعضهم بعضا بما من الله عليهم من آياته، والتوفيق لفهمها والعمل بها. وهذا دال على انشراح صدورهم لآيات الله، وطمأنينة قلوبهم، وسرعة انقيادهم لما تحثهم عليه.

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ أي: شك ونفاق ﴿فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ﴾

أي: مرضا إلى مرضهم، وشكا إلى شكهم، من حيث إنهم كفروا بها، وعاندوها وأعرضوا عنها، فازداد لذلك مرضهم، وترامى بهم إلى الهلاك ﴿وَ﴾ الطبع على قلوبهم، حتى ﴿وَمَا تَوْأَمَهُمْ كَفَرُونَ﴾.

وهذا عقوبة لهم، لأنهم كفروا بآيات الله وعصوا رسوله، فأعقبهم نفاقا في قلوبهم إلى يوم يلقونه.

اس: آيات القرآن الكريم تنزل فيزداد بها المؤمن إيمانا والكافر ضلالا اذكر ما يدل على ذلك.

ج: من الأدلة على ذلك ما يلي:

قوله تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ (٨٢) [الإسراء: ٨٢].

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ (١٢٤) وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿١٢٥﴾.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي ءَامَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ ۖ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ [فصلت: ٤٤].

الابتلاءات لإرجاع الناس لدينهم

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذْكُرُونَ﴾ (١٣٨).

ج: المعنى - والله أعلم - أولاً يرى هؤلاء المنافقون أنهم يتلون في كل عام مرة أو مرتين لإرجاعهم عن غيهم وشرهم وفسادهم، وكفرهم ونفاقهم، يبتليهم الله ﷻ بأمراض وأسقام، ويتسلط عدوهم عليهم، وبضرٍ في أموالهم إلى غير ذلك من صور الابتلاءات، وكل ذلك لإرجاعهم إلى دينهم، ولكنهم لا يرجعون ولا يستغفرون ولا يتعظون ولا يعتبرون.

هذا، وقد تقدمت في مواطن عدة أدلة على أن الله ﷻ يبتلي العباد لإرجاعهم إلى طريقه وصراطه المستقيم قال تعالى: ﴿وَبَلَوْنَهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (١٦٨) [الأعراف: ١٦٨]، وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ لَعَلَّهُمْ يَضُرَّعُونَ﴾ (٩٤) [الأعراف: ٩٤].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ﴾ (١٣٠) [الأعراف: ١٣٠].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَضُرَّعُونَ﴾ [المؤمنون: ٧٦] إلى غير ذلك من الآيات.

ثم هذه بعض أقوال العلم في الآية المذكورة.

قال الطبري رحمه الله:

وذلك بعد أن أورد قراءتين في قوله: (يُرَوْنَ) إحداهما بالتاء (أفلا ترون) والأخرى بالياء ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ﴾ وصوب قراءة من قرأ بالياء ثم قال:

قال أبو جعفر: اختلفت القراءة في قراءه قوله: ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ﴾.

فقرأته عامة قراءة الأمصار: ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ﴾، بالياء، بمعنى: أو لا يرى هؤلاء الذين في

قلوبهم مرض النفاق؟

وقرأ ذلك حمزة: (أَوَلَا تَرَوْنَ)، بالتاء، بمعنى: أو لا ترون أنتم، أيها المؤمنون،

أنهم يفتنون؟

قال أبو جعفر: والصواب عندنا من القراءة في ذلك، الياء، على وجه التوبيخ من الله لهم، لإجماع الحجة من قراءة الأمصار عليه، وصحة معناه. فتأويل الكلام إذاً: أو لا يرى هؤلاء المنافقون أنَّ الله يختبرهم في كل عام مرة أو مرتين، بمعنى أنه يختبرهم في بعض الأعوام مرة، وفي بعضها مرتين، ﴿ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ﴾، يقول: ثم هم مع البلاء الذي يحلُّ بهم من الله، والاختبار الذي يعرض لهم، لا ينيبون من نفاقهم، ولا يتوبون من كفرهم، ولا هم يتذكرون بما يرون من حجب الله ويعاينون من آياته، فيتعظوا بها، ولكنهم مصرُّون على نفاقهم؟ واختلف أهل التأويل في معنى «الفتنة» التي ذكر الله في هذا الموضع أن هؤلاء المنافقين يفتنون بها.

فقال بعضهم: ذلك اختبارُ الله إياهم بالقحط والشدة.

وقال آخرون: بل معناه: أنهم يختبرون بالغزو والجهاد.

وقال آخرون: بل معناه: أنهم يختبرون بما يُشيع المشركون من الأكاذيب على رسول الله ﷺ وأصحابه، فيفتتن بذلك الذين في قلوبهم مرض.

ثم قال الطبري رحمه الله:

وأولى الأقوال في ذلك بالصحة أن يقال: إن الله عَجَّب عباده المؤمنين من هؤلاء المنافقين، ووبَّخ المنافقين في أنفسهم بقلَّة تذكُّرهم، وسوء تنبههم لمواعظ الله التي يعظهم بها. وجائز أن تكون تلك المواعظ الشدائد التي ينزلها بهم من الجوع والقحط، وجائز أن تكون ما يريهم من نُصرة رسوله على أهل الكفر به، ويرزقه من إظهار كلمته على كلمتهم، وجائز أن تكون ما يظهر للمسلمين من نفاقهم وخبث سرائرهم، بركونهم إلى ما يسمعون من أراجيف المشركين برسول الله ﷺ وأصحابه، ولا خبر يوجب صحة بعض ذلك دون بعض، من الوجه الذي يجب التسليم له. ولا قول في ذلك أولى بالصواب من التسليم لظاهر قول الله وهو: أو لا يرون أنهم يختبرون في كل عام مرة أو مرتين، بما يكون زاجراً لهم، ثم لا ينزجرون ولا يتعظون؟

وقال السعدي رحمه الله:

قال تعالى -موبخا لهم على إقامتهم على ما هم عليه من الكفر والنفاق-: ﴿أَوَلَا

يُرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ﴿بما يصيبهم من البلايا والأمراض، وبما يبتلون من الأوامر الإلهية التي يراد بها اختبارهم.﴾
 ﴿ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ﴾ عما هم عليه من الشر ﴿وَلَا هُمْ يَذْكُرُونَ﴾ ما ينفعهم، فيفعلونه، وما يضرهم، فيتركونه.
 فالله تعالى يتليهم - كما هي سنته في سائر الأمم - بالسراء والضراء وبالأوامر والنواهي ليرجعوا إليه، ثم لا يتوبون ولا هم يذكرون.

قال ابن الجوزي (زاد المسير):

قوله تعالى: ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ﴾ يعني المنافقين وقرأ حمزة: (أولا ترون) بالتاء على الخطاب للمؤمنين وفي معنى: ﴿يُفْتَنُونَ﴾ ثمانية أقوال:
أحدها: يكذبون كذبة أو كذبتين يضلون بها، قاله حذيفة بن اليمان.
والثاني: ينافقون ثم يؤمنون ثم ينافقون، قاله أبو صالح عن ابن عباس.
والثالث: يبتلون بالغزو في سبيل الله، قاله الحسن وقتادة.
والرابع: يفتنون بالسنة والجوع، قاله مجاهد.
والخامس: بالأوجاع والأمراض، قاله عطية.
والسادس: ينقضون عهدهم مرة أو مرتين، قاله يمان.
والسابع: يكفرون وذلك أنهم كانوا إذا أخبرهم النبي ﷺ بما تكلموا به إذ خلوا علموا أنه نبي ثم يأتيهم الشيطان فيقول إنما بلغه هذا عنكم فيشركون، قاله مقاتل بن سليمان.

والثامن: يفضحون بإظهار نفاقهم، قاله مقاتل بن حيان.
 قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ﴾ أي: من نفاقهم ﴿وَلَا هُمْ يَذْكُرُونَ﴾ أي: يعتبرون ويتعظون.

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَيْنَا مِنْ أَحَدِهِمْ أَنْصَرَفُوا﴾ صرفاً صرفك الله قلوبهم بأنهم قوم لا يفقهون ﴿١٢٧﴾.

ج: المعنى - والله أعلم - وإذا ما أنزلت سورة عليك يا رسول الله وسمعها

المنافقون، وكانوا فيما بينهم فأرادوا أن يطعنوا في الآية أو يسخروا منها ومن نزولها، نظر بعضهم إلى بعض قبل أن يتكلموا فيها بطعنٍ وعيب خشية أن ينقل قولهم إلى رسول الله ﷺ ثم قال بعضهم لبعض هل يراكم من أحدٍ غيركم فقالوا ما قالوه في شأن السورة المباركة طعنًا وذمًا وعيبًا وانتقاصًا ثم انصرفوا عن الحق إلى الباطل وعن الإيمان واليقين إلى الكفر والشك والتكذيب ﴿صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ دعاء عليهم، وقيل: إخبار بما أحله الله بهم من العقاب، وذلك لكونهم لم يتدبروا آيات الله ولم يفهموها، ولم يقبلوا عليها ولم يعيروها اهتمامًا.

وبنحو ما ذكر قال أهل العلم.

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره: ﴿وَإِذَا مَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ﴾، من القرآن، فيها عيبٌ هؤلاء المنافقين الذين وصف الله جل ثناؤه صفتهم في هذه السورة، وهم عند رسول الله ﷺ، ﴿نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ﴾ فتناظروا، ﴿هَلْ يَرَىٰكُمْ مِنْ أَحَدٍ﴾، إن تكلمتم أو تناجيتهم بمعاب القوم يخبرهم به، ثم قاموا فانصرفوا من عند رسول الله ﷺ، ولم يستمعوا قراءة السورة التي فيها معابهم. ثم ابتدأ جل ثناؤه قوله: ﴿صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾، فقال: صرف الله عن الخير والتوفيق والإيمان بالله ورسوله قلوب هؤلاء المنافقين، ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُوْنَ﴾، يقول: فعل الله بهم هذا الخذلان، وصرف قلوبهم عن الخيرات، من أجل أنهم قوم لا يفقهون عن الله مواعظه، استكبارًا، ونفاقًا. واختلف أهل العربية في الجالب حرف الاستفهام.

فقال بعض نحويي البصرة، قال: ﴿نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُمْ مِنْ أَحَدٍ﴾، كأنه قال: «قال بعضهم لبعض»، لأن نظرهم في هذا المكان كان إيماءً وشبهًا به، والله أعلم.

وقال بعض نحويي الكوفة: إنما هو: وإذا ما أنزلت سورة قال بعضهم لبعض: هل يراكم من أحد؟

وقال آخر منهم: هذا «النظر» ليس معناه «القول»، ولكنه النظر الذي يجلب

الاستفهام، كقول العرب: «تناظروا أيهم أعلم»، و«اجتمعوا أيهم أفقه»، أي: اجتمعوا لينظروا، فهذا الذي يجلب الاستفهام.

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ:

وقوله: ﴿وَإِذَا مَا أَنْزَلْتُ سُورَةً نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرِيكُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ أَنْصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ (١٢٧) ﴿هَذَا أَيْضًا إِنْخِبَارٌ عَنِ الْمُنَافِقِينَ أَنَّهُمْ إِذَا أَنْزَلْتُ سُورَةً عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، ﴿نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ﴾ أَي: تَلَفَّتُوا، ﴿هَلْ يَرِيكُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ أَنْصَرَفُوا﴾ أَي: تَوَلَّوْا عَنِ الْحَقِّ وَانصَرَفُوا عَنْهُ، وَهَذَا حَالُهُمْ فِي الدِّينِ لَا يَثْبُتُونَ عِنْدَ الْحَقِّ وَلَا يَقْبَلُونَهُ وَلَا يَفْهَمُونَهُ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذِكْرِ مُعْرِضِينَ﴾ (٤٩) ﴿كَانَ لَهُمْ حُمْرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ﴾ (٥٠) ﴿فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ﴾ (المدر: ٤٩-٥١)، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا قَبْلَكَ مُهْطِعِينَ﴾ (٣٦) عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ﴾ (المعارج: ٣٦، ٣٧)، أَي: مَا لَهُمْ إِلَّا الْقَوْمُ يَتَقَلَّلُونَ عَنْكَ يَمِينًا وَشِمَالًا هَرُوبًا مِنَ الْحَقِّ، وَذَهَابًا إِلَى الْبَاطِلِ.

وقوله: ﴿ثُمَّ أَنْصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ كَقَوْلِهِ: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ (الصف: ٥)، ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ أَي: لَا يَفْهَمُونَ عَنِ اللَّهِ خُطَابَهُ، وَلَا يَقْصِدُونَ لِفَهْمِهِ وَلَا يَرِيدُونَهُ، بَلْ هُمْ فِي شُغْلٍ عَنْهُ وَنُفُورٍ مِنْهُ فَلِهَذَا صَارُوا إِلَى مَا صَارُوا إِلَيْهِ.

قال القرطبي رَحِمَهُ اللهُ:

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَا أَنْزَلْتُ سُورَةً نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ﴾ ﴿مَا﴾ صِلَةٌ، وَالْمُرَادُ الْمُنَافِقُونَ؛ أَي: إِذَا حَضَرُوا الرَّسُولَ وَهُوَ يَتْلُو قِرْآنًا أَنْزَلَ فِيهِ فَضِيحَتَهُمْ أَوْ فَضِيحَةَ أَحَدٍ مِنْهُمْ جَعَلَ يَنْظُرُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ نَظَرَ الرَّعْبِ عَلَى جِهَةِ التَّقْرِيرِ؛ يَقُولُ: هَلْ يَرَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِذَا تَكَلَّمْتُمْ بِهَذَا فَيَنْقُلُهُ إِلَى مُحَمَّدٍ؛ وَذَلِكَ جَهْلٌ مِنْهُمْ بِنُبُوتهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَأَنَّ اللَّهَ يُطْلِعُهُ عَلَى مَا يَشَاءُ مِنْ غَيْبِهِ. وَقِيلَ إِنَّ ﴿نَظَرَ﴾ فِي هَذِهِ الْآيَةِ بِمَعْنَى أَنْبَأَ. وَحَكَى الطَّبْرِيُّ عَنْ بَعْضِهِمْ أَنَّهُ قَالَ: ﴿نَظَرَ﴾ فِي هَذِهِ الْآيَةِ مَوْضِعٌ قَالَ.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنْصَرَفُوا﴾ أَي: انصرفوا عن طريق الاهتداء. وذلك أنهم حينما بين لهم كشف أسرارهم والإعلام بمغيبات أمورهم يقع لهم لا محالة تعجب وتوقف ونظر، فلو اهتموا لكان ذلك الوقت مظنة لإيمانهم؛ فهم إذ يصممون على الكفر ويرتبكون فيه كأنهم انصرفوا عن تلك الحال التي كانت مظنة النظر الصحيح

والاهتداء، ولم يسمعوا قراءة النبي ﷺ سماع من يتدبره وينظر في آياته ؛ ﴿ إِنَّا شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الضُّمُّ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الأنفال: ٢٢]. ﴿ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْفُرَاتِ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾ [محمد: ٢٤].

وقال السعدي رحمه الله:

وفي هذه الآيات دليل على أن الإيمان يزيد وينقص، وأنه ينبغي للمؤمن، أن يتفقد إيمانه ويتعاهده، فيجده وينمي، ليكون دائما في صعود. وقوله: ﴿ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ ﴾ إلى ﴿ لَا يَفْقَهُونَ ﴾.

يعني: أن المنافقين الذين يحذرون أن تنزل عليهم سورة تنبئهم بما في قلوبهم، إذا نزلت سورة ليؤمنوا بها، ويعملوا بمضمونها ﴿ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ ﴾ جازمين على ترك العمل بها، ينتظرون الفرصة في الاختفاء عن أعين المؤمنين، ويقولون: ﴿ هَلْ يَرَيْنَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ انْصَرَفُوا ﴾ متسللين، وانقلبوا معرضين، فجازاهم الله بعقوبة من جنس عملهم، فكما انصرفوا عن العمل ﴿ صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ أي: صدها عن الحق وخذلها.

﴿ يَا أَيُّهَا الْقَوْمُ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ فقها ينفعهم، فإنهم لو فقهوا، لكانوا إذا نزلت سورة آمنوا بها، وانقادوا لأمرها.

والمقصود من هذا بيان شدة نفورهم عن الجهاد وغيره، من شرائع الإيمان، كما قال تعالى عنهم: ﴿ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ ﴾ [محمد: ٢٠].

من تعمد الضلال زاده الله ضلالاً

س: من أعرض عن ذكر الله وانصرف عن توحيده وشرعه زاده الله ضلالاً وانصرافاً دَلِّلَ على ذلك.

ج: من الأدلة على ذلك ما يلي:

قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ انْصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ [الصف: ١٥].

وقوله تعالى: ﴿ سَاءَ صِرْفٌ عَنْ إِيمَانِي الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كَلًّا

ءَايَةً لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَكْرُوا سَبِيلَ الْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَبُوا بِعَايِنَتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿١٤٦﴾ [الأعراف: ١٤٦].

ا س: في قوله تعالى: ﴿صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ ردُّ على القدرية، وضح ذلك؟

ج: إيضاحه فميا ذكره القرطبي إذ قال:

أخبر الله ﷻ في هذه الآية أنه صارف القلوب ومصرفها وقالها ومقلبها؛ ردا على القدرية في اعتقادهم أن قلوب الخلق بأيديهم وجوارحهم بحكمهم، يتصرفون بمشيئتهم ويحكمون بإراداتهم واختيارهم؛ ولذلك قال مالك فيما رواه عنه أشهب: ما أبين هذا في الرد على القدرية ﴿لَا يَزَالُ بُنِيتُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ﴾ [التوبة: ١١٠]. وقوله ﷻ لنوح: ﴿أَتَاهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ ءَامَنَ﴾ [هود: ٣٦] فهذا لا يكون أبدا ولا يرجع ولا يزول.

ا س: قوله تعالى: ﴿مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ من المعني به؟

ج: لأهل العلم في ذلك أقوال:

أحدها: منكم أيها العرب.

الثاني: منكم أيها البشر.

وثم أقوال أخر.

س: قوله تعالى: (مَا عَنِتُّمْ) من المعنيون به؟

ج: ذهب بعض أهل العلم إلى أن المعني به المؤمنون، وقال آخرون: بل عموم

البشر مسلمهم وكافرهم، وسيأتي لذلك مزيد بيان إن شاء الله.

|

حرص رسول الله ﷺ على هداية أمته

س: وضع معنى قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ (١٢٨).

ج: المعنى - والله تعالى أعلم - لقد جاءكم أيها البشر رسول من أنفسكم، ليس بملك، بل بشر مثلكم حتى تفهمون مراده وتعقلون ما يقول. ثم هو من العرب أيضاً، من نكاح صحيح ليس من سفاح تعرفونه أيها العرب ولا تنكرونه.

﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ شاق عليه ما يحل بكم من المشقة، فما يحزنكم يؤلمه، وما أنتم فيه من الضلال الذي يجلب لكم العذاب يؤلمه ويحزنه، يعزُّ عليه عنتكم، يتألم لتألمكم يا أهل الإيمان، ويحزن لحزنكم وكذا يشق عليه إعراض قومه عن الإيمان فهذا الذي يسبب لهم العذاب، فيحزن لإعراض قومه عن الإيمان حريص على هدايتكم يبذل ما استطاع لهدايتكم ذو رحمة ورقة ورأفة بأهل الإيمان.

وينحو هذا قال أهل التأويل.

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره للعرب: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ﴾، أيها القوم، رسول الله إليكم، ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾، تعرفونه، لا من غيركم، فتنهموه على أنفسكم في النصيحة لكم، ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾، أي: عزيز عليه عنتكم، وهو دخول المشقة عليهم والمكروه والأذى، ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ﴾، يقول: حريص على هدى ضلالكم وتوبتهم ورجوعهم إلى الحق، ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾: أي رفيق، ﴿رَّحِيمٌ﴾. وأورد بسند صحيح عن جعفر بن محمد عن أبيه في قوله: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ....﴾.

قال: لم يصبه شيء من شرك في ولادته، وفي رواية: لم يصبه شيء من ولادة

الجاهلية^(١).

قال الطبري:

وأما قوله: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾، فإن أهل التأويل اختلفوا في تأويله.

فقال بعضهم: معناه: ما ضللتهم.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: عزيز عليه عنت مؤمنكم.

قال الطبري رحمه الله:

وأولى القولين في ذلك بالصواب، قول ابن عباس. وذلك أن الله عم بالخبر عن نبي الله أنه عزيز عليه ما عنت قومه، ولم يخصص أهل الإيمان به. فكان ﷺ كما جاء الخبر من الله به، عزيز عليه عنت جميعهم.

هذا، وقد طرح الطبري سؤالاً وأجاب عليه فقال:

فإن قال قائل: وكيف يجوز أن يوصف ﷺ بأنه كان عزيزاً عليه عنت جميعهم، وهو يقتل كافرهم ويسبي ذراريهم ويسلبهم أموالهم، وأجاب بقوله: قيل: إن إسلامهم، لو كانوا أسلموا، كان أحب إليه من إقامتهم على كفرهم وتكذيبهم إياه، حتى يستحقوا ذلك من الله. وإنما وصفه الله جل ثناؤه بأنه عزيز عليه عنتهم، لأنه كان عزيزاً عليه أن يأتوا ما يُعنتهم، وذلك أن يضلوا فيستوجبوا العنت من الله بالقتل والسبي.

وأما ﴿مَا﴾ التي في قوله: ﴿مَا عَنِتُّمْ﴾، فإنه رفع بقوله: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ﴾، لأن معنى الكلام ما ذكرت: عزيز عليه عنتكم.

وأورد بسندٍ يصح عن قتادة: ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ﴾، حريص على ضالهم أن يهديه الله. وفي رواية: حريص على من لم يسلم أن يسلم.

وقال ابن كثير رحمه الله:

يقول تعالى ممتنا على المؤمنين بما أرسل إليهم رسولا من أنفسهم، أي: من جنسهم وعلى لغتهم، كما قال إبراهيم، عليه السلام: ﴿رَبَّنَا وَأَبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ﴾

(١) يعني بذلك أنه ﷺ أخرج من نكاح صحيح ليس من سفاح الجاهلية.

[البقرة: ١٢٩]، وقال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٦٤]، وقال تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ أي: منكم وبلغتكم، كما قال جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه للنجاشي، والمغيرة بن شعبة لرسول كسرى: إن الله بعث فينا رسولا منا، نعرف نسبه وصفته، ومدخله ومخرجه، وصدقه وأمانته، وذكر الحديث.

وقال:

وقوله تعالى: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ أي: يعز عليه الشيء الذي يعنت أمته ويشق عليها.

وقال:

﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ﴾ أي: على هدايتكم ووصول النفع الدنيوي والأخروي إليكم.

وقوله: ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَأَخْفَضَ جَنَاحَكَ لِمَنِ ابْتَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [٢١٥-٢١٧] وهكذا أمره تعالى. ﴿تَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾ [٢١٧]

وقال القرطبي رحمته الله:

والخطاب للعرب في قول الجمهور، وهذا على جهة تعديد النعمة عليهم في ذلك؛ إذ جاء بلسانهم وبما يفهمونه، وشرفوا به غابر الأيام. وقال الزجاج: هي مخاطبة لجميع العالم والمعنى: لقد جاءكم رسول من البشر؛ والأول أصوب. قال ابن عباس: ما من قبيلة من العرب إلا ولدت النبي ﷺ فكأنه قال: يا معشر العرب لقد جاءكم رسول من بني إسماعيل. والقول الثاني أوكد للحجة أي: هو بشر مثلكم لتفهموا عنه وتأتموا به.

قوله تعالى: ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ يقتضي مدحا لنسب النبي ﷺ وأنه من صميم العرب وخالصها. وفي صحيح مسلم عن واثلة بن الأسقع قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل واصطفى قريشا من كنانة واصطفى من قريش بني هاشم واصطفاني من بني هاشم».

وقال السعدي رحمه الله:

يُمتَنُّ تعالى على عباده المؤمنين بما بعث فيهم النبي الأمي الذي من أنفسهم، يعرفون حاله، ويتمكنون من الأخذ عنه، ولا يأنفون عن الانقياد له، وهو ﷺ في غاية النصح لهم، والسعي في مصالحهم.

﴿عَزَّيْزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ أي: يشق عليه الأمر الذي يشق عليكم ويعنتكم.
 ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ﴾ فيحب لكم الخير، ويسعى جهده في إيصاله إليكم، ويحرص على هدايتكم إلى الإيمان، ويكره لكم الشر، ويسعى جهده في تنفيركم عنه.
 ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ أي: شديد الرأفة والرحمة بهم، أرحم بهم من والديهم.
 ولهذا كان حقه مقدماً على سائر حقوق الخلق، وواجب على الأمة الإيمان به، وتعظيمه، وتوقيره، وتعزيه.

الحث على الاعتماد على الله ﷻ

س: **وضح معنى قوله تعالى: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ (١٨).**

ج: هذا - والله تعالى أعلم - توجيه لرسول الله ﷺ من ربه ﷻ، والمعنى فإن أعرضوا عن الإيمان، ورضوا بالكفر عنه بديلاً، فقل يكفيني الله ﷻ ويحفظني، ويسلمني، هو وحده الذي يكفيني ويعصمني ويحفظني لا إله إلا هو، لا معبود لي إلا الله ﷻ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ عليه اعتمدت، وهو رب العرش العظيم، وكذا فهو رب كل شيء ومليك كل شيء.

وبنحو هذا قال أهل العلم.

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره: فإن تولى، يا محمد، هؤلاء الذين جئتهم بالحق من عند ربك من قومك، فأدبروا عنك ولم يقبلوا ما أتيتهم به من النصيحة في الله، وما دعوتهم إليه من النور والهدى، ﴿فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ﴾، يكفيني ربي، ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾، لا معبود سواه، ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾، وبه وثقت، وعلى عونته اتكلت، وإليه وإلى نصره استندت، فإنه ناصري ومعيني على من خالفني وتولى عني منكم ومن غيركم من الناس، ﴿وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾، الذي يملك كل ما دونه، والملوك كلهم مماليكه وعبيده.

وإنما عني بوصفه جل ثناؤه نفسه بأنه رب العرش العظيم، الخبر عن جميع ما دونه أنهم عبيده، وفي ملكه وسلطانه؛ لأن ﴿الْعَرْشَ الْعَظِيمِ﴾، إنما كان يكون للملوك، فوصف نفسه بأنه «ذو العرش» دون سائر خلقه، وأنه الملك العظيم دون غيره، وأن من دونه في سلطانه وملكه، جارٍ عليه حكمه وقضاؤه.

وقال ابن كثير رحمه الله:

وهذه الآية الكريمة، وهي قوله تعالى: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ أي: تولوا عما جئتهم به من الشريعة العظيمة المطهرة الكاملة الشاملة، ﴿فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ﴾ أي: الله كافي، لا إله إلا هو عليه توكلت، كما قال تعالى: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ (١٩)

[المزمل: ٩].

﴿وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ أي: هو مالك كل شيء وخالقه؛ لأنه رب العرش العظيم، الذي هو سقف المخلوقات وجميع الخلائق من السموات والأرضين وما فيهما وما بينهما تحت العرش مقهورون بقدرة الله تعالى، وعلمه محيط بكل شيء، وَقَدَرَهُ نافذ في كل شيء، وهو على كل شيء وكيل.

قال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ﴾ أي: إن أعرض الكفار يا محمد بعد هذه النعم التي من الله عليهم بها فقل: حسبي الله أي كافي الله تعالى. ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ أي: اعتمدت وإليه فوضت جميع أموري. ﴿وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ خص العرش لأنه أعظم المخلوقات فيدخل فيه ما دونه إذا ما ذكره. وقراءة العامة بخفض ﴿الْعَظِيمِ﴾ نعناً للعرش.

قال السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ:

﴿فَإِنْ آمَنُوا﴾ فذلك حظهم وتوفيقهم، وإن ﴿تَوَلَّوْا﴾ عن الإيمان والعمل، فامض على سبيلك، ولا تنزل في دعوتك، وقل ﴿حَسْبِيَ اللَّهُ﴾ أي: الله كافي في جميع ما أهتمني، ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: لا معبود بحق سواه. ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ أي: اعتمدت ووثقت به، في جلب ما ينفع، ودفع ما يضر، ﴿وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ الذي هو أعظم المخلوقات. وإذا كان رب العرش العظيم، الذي وسع المخلوقات، كان رباً لما دونه من باب أولى وأحرى.

قال ابن الجوزي (زاد المسير):

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ قرأ الجمهور بضم الفاء، وقرأ ابن عباس، وأبو العالية، والضحاك، وابن محيصن، ومحبوب، عن أبي عمرو بفتحها وفي المضمونة أربعة أقوال.

أحدها: من جميع العرب، قاله ابن عباس، وقال ليس في العرب قبيلة إلا وقد ولدت رسوله الله ﷺ.

والثاني: ممن تعرفون، قاله قتادة.

والثالث: من نكاح لم يصبه شيء من ولادة الجاهلية، قاله جعفر الصادق.
الرابع: بشر مثلكم فهو أكد للحجة لأنكم تفقهون عمن هو مثلكم، قاله الزجاج
 وفي المفتوحة ثلاثة أقوال:

أحدها: أفضلكم خلقا، **والثاني:** أشرفكم نسبا، **والثالث:** أكثركم طاعة لله ﷻ.

قوله تعالى: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ فيه قولان:

أحدهما: شديد عليه ما شق عليكم، رواه الضحاك عن ابن عباس، قال الزجاج:
 شديد عليه عنتكم، والعنت لقاء الشدة.

والثاني: شديد عليه ما آثمكم، رواه أبو صالح عن ابن عباس.

قوله تعالى: ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ﴾ قال الحسن: حريص عليكم أن تؤمنوا.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا رُؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾ قال ابن عباس: سماه باسمين من
 أسمائه، وقال أبو عبيدة: رؤوف فعول من الرأفة وهي أرق من الرحمة ويقال: رؤف
 وأنشد:

تري للمؤمنين عليك حقا كفعل الوالد الرؤف الرحيم

وقيل: رؤوف بالمطيعين رحيم بالمذنبين.

آخر آية نزلت من القرآن

س: هل ورد شيء في أن آخر آية نزلت: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ...﴾؟

ج: نعم ورد ما يفيد ذلك بما يحسن بمجموع طرقه فقد أخرج عبد الله بن أحمد ^(١) في زوائد المسند من حديث أبي بن كعب قال: آخر آية نزلت في القرآن، هذه الآية: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ إلى آخر السورة.

وفي سنده مقال لكن له طريق آخر عند عبد الله بن أحمد أيضًا ^(٢) بسنده إلى أبي بن كعب رضي الله عنه أَنَّهُمْ جَمَعُوا الْقُرْآنَ فِي مَصَاحِفَ فِي خِلَافَةِ أَبِي بَكْرٍ رضي الله عنه فَكَانَ رَجُلًا يَكْتُبُونَ وَيُمْلِي عَلَيْهِمْ أَبِي بْنُ كَعْبٍ، فَلَمَّا انْتَهَوْا إِلَى هَذِهِ الْآيَةِ مِنْ سُورَةِ بَرَاءةٍ رضي الله عنه ثُمَّ انْصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ^(١٣٧). فَظَنُّوا أَنَّ هَذَا آخِرُ مَا نَزَلَ مِنَ الْقُرْآنِ، فَقَالَ لَهُمْ أَبِي بْنُ كَعْبٍ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلوات الله عليه أَقْرَأَنِي بَعْدَهَا آيَتَيْنِ ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ ^(١٣٨) إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ قَالَ: هَذَا آخِرُ مَا نَزَلَ مِنَ الْقُرْآنِ قَالَ: فَخْتِمَ بِمَا فَتَحَ بِهِ بِاللَّهِ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَهُوَ قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ ^(١٣٩) [الأنبياء: ٢٥].

وعند البخاري ^(٣) من حديث زيد بن ثابتٍ الأنصاري رضي الله عنه - وَكَانَ مِمَّنْ يَكْتُبُ الْوَحْيَ - قَالَ: أُرْسِلَ إِلَيَّ أَبُو بَكْرٍ: مَقْتُلْ أَهْلَ الْيَمَامَةِ وَعِنْدَهُ عُمَرُ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: إِنَّ عُمَرَ أَتَانِي، فَقَالَ: إِنَّ الْقَتْلَ قَدْ اسْتَحَرَّ يَوْمَ الْيَمَامَةِ بِالنَّاسِ، وَإِنِّي أَخْشَى أَنْ يَسْتَحَرَّ الْقَتْلُ بِالْقُرَاءِ فِي الْمَوَاطِنِ فَيَذْهَبَ كَثِيرٌ مِنَ الْقُرْآنِ إِلَّا أَنْ تَجْمَعُوهُ وَإِنِّي لَأَرَى أَنْ تَجْمَعَ الْقُرْآنَ، قَالَ أَبُو بَكْرٍ: قُلْتُ لِعُمَرَ: كَيْفَ أَفْعَلُ شَيْئًا لَمْ يَفْعَلْهُ رَسُولُ اللَّهِ صلوات الله عليه؟! فَقَالَ عُمَرُ: هُوَ وَاللَّهِ خَيْرٌ فَلَمْ يَزَلْ عُمَرُ يَرَا جُعْنِي فِيهِ حَتَّى شَرَحَ اللَّهُ لِيذَلِكَ صَدْرِي، وَرَأَيْتُ الَّذِي رَأَى عُمَرُ، قَالَ زَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ: وَعُمَرُ عِنْدَهُ جَالِسٌ لَا يَتَكَلَّمُ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: إِنَّكَ

(١) (٣٣٨/٢).

(٢) المسند (١٣٤/٥).

(٣) البخاري (٤٦٧٩).

رَجُلٌ شَابٌّ عَاقِلٌ وَلَا نَتَهَمُكَ وَكُنْتَ تَكْتُبُ الْوَحْيَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَتَبَعَ الْقُرْآنَ فَاجْمَعُهُ فَوَاللَّهِ لَوْ كَلَّفَنِي نَقْلَ جَبَلٍ مِنَ الْجِبَالِ مَا كَانَ أَثْقَلَ عَلَيَّ مِمَّا أَمَرَنِي بِهِ مِنْ جَمْعِ الْقُرْآنِ، قُلْتُ: كَيْفَ تَفْعَلَانِ شَيْئًا لَمْ يَفْعَلْهُ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: هُوَ وَاللَّهِ خَيْرٌ فَلَمْ أَرْجِعْهُ حَتَّى شَرَحَ اللَّهُ صَدْرِي لِلَّذِي شَرَحَ اللَّهُ لَهُ صَدْرَ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ، فَقُمْتُ، فَتَبَعْتُ الْقُرْآنَ أَجْمَعُهُ مِنَ الرَّقَاعِ، وَالْأَكْتَاكِفِ، وَالْعُسْبِ، وَصُدُورِ الرِّجَالِ، حَتَّى وَجَدْتُ مِنْ سُورَةِ التَّوْبَةِ آيَتَيْنِ مَعَ خَزِيمَةِ الْأَنْصَارِيِّ لَمْ أَجِدْهُمَا، مَعَ أَحَدٍ غَيْرِهِ: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ﴾ إِلَى آخِرِهِمَا. وَكَانَتِ الصُّحُفُ الَّتِي جُمِعَ فِيهَا الْقُرْآنُ عِنْدَ أَبِي بَكْرٍ حَتَّى تَوَفَّاهُ اللَّهُ، ثُمَّ عِنْدَ عُمَرَ حَتَّى تَوَفَّاهُ اللَّهُ ثُمَّ عِنْدَ حَفْصَةَ بِنْتِ عُمَرَ.